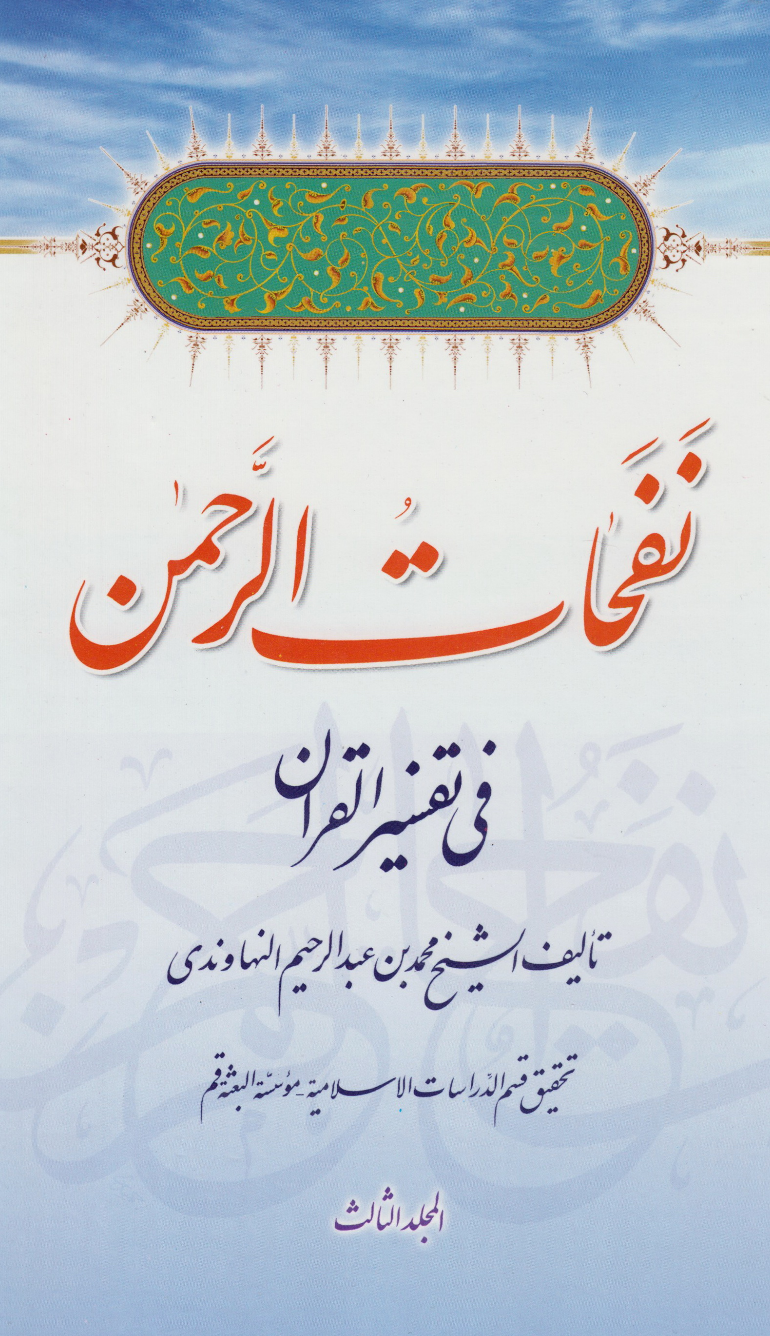


نفحات الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

تحقيق قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة قم

المجلد الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١ـ١٣٧١هـ)

الجزء الثالث

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲- ۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛
تحقیق
قم: موسسه البعثه، مرکز الطباعه و النشر ۱۳۸۶
۶ج.
دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۲: ۹-۷۶۰-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۳: ۷-
۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۶: ۱-۷۶۴-
۳۰۹-۹۶۴
فیپا
عربی.
کتابنامه.
تفاسیر شیعه-قرن ۱۴.
بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی
بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر
BP۹۸/ن۹ن۷
۲۹۷/۱۷۹
۸۴/۳۷۴۹۰م



مرکز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج۳

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النهاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة- موسسة البعثة- قم

الطبعة الاولی ۱۴۲۸ق.

الکمیة: ۲۰۰۰ نسخه

التوزیع: موسسة البعثة

طهران- شارع سمیه- بین شارعی الشهید مفتح و فرصت- الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

شابک ج.۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴
شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

وَكَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ[١٤٥]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ فضائل التّوراة ببيان ما فيها مِن العُلوم إجمالاً بقوله: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ**﴾ التي كانت مِن زَبَرْجَد الجنّة ـ علىٰ رواية[١] ـ، أو زمرّد أخضر ـ علىٰ أُخرى[٢] ـ ﴿**مِنْ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ وعلم يحتاج إليه، وكَتَبْنا فيها ﴿**مَوْعِظَةً**﴾ كثيرةً ﴿**وَتَفْصِيلاً**﴾ وشرحاً وافياً ﴿**لِكُلِّ شَىْءٍ**﴾ مِن المعارف والأحكام، وقلنا: يا مُوسىٰ، إذا علِمتَ ما في الألواح ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ**﴾ في القلب، أو بجِدٍّ وعَزيمةٍ ﴿**وَأْمُرْ**﴾ وحُثّ ﴿**قَوْمَكَ**﴾ ومَن تَبِعك ﴿**يَأْخُذُوا**﴾ ويعملوا ﴿**بِأَحْسَنِهَا**﴾ مِن عزائم أحكامها. وقيل: إنّ المُراد مِن الأحسن: هُو الحَسَن؛ وهُو كُلُّها[٣].

ثمّ وعظهم بقوله: ﴿**سَأُورِيكُمْ دَارَ**﴾ فِرعون وقومه، وسائر الأُمَم المُهلَكة الّذين كانوا هُم ﴿**ٱلْفَاسِقِينَ**﴾ والخارجين عن طاعة أحكامي، كيف خربتْ وعفيت آثارُها بعِصياني لتعتبروا بها.

قيل: يعني سأُدخلكم أرضَ مِصر وأرض الجَبابرة والعَمالقة بالشّام. وعليه يكون فيه وَعدٌ وتَرغيب.

عن ابن عبّاس، في تفسير ﴿**دار الفاسِقِينَ**﴾ قال: هي جهنّم، أي فليَكُن ذِكرُ جهنّم حاضراً في خواطركم[٤].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ لمّا أنزل الألواح علىٰ مُوسىٰ عليه السلام أنزلها وفيها تِبيان لكُلّ شيء كان أو هُو كائن إلىٰ أن تقوم السّاعة، فلمّا انقضتْ أيّام مُوسىٰ عليه السلام أوحى الله إليه أن يستودِعِ الألواح ـ وهي زَبرجَدة مِن الجنّة ـ جبلاً يُقال له زِينة، فأتىٰ مُوسَىٰ عليه السلام الجبلَ فانْشقّ له الجبلُ، فجعل فيه الألواح مَلفوفة، فلمّا جعلها [فيه] انْطبق الجبلُ عليها، فلَم تَزل في الجبل حتّىٰ بعثَ الله نبيّه صلّى الله عليه وآله، فأقبل رَكْبٌ مِن اليمن يُريدون الرّسول صلّى الله عليه وآله، فلمّا انتهَوا إلىٰ الجبل انْفرج الجبلُ وخرجتْ الألواح ملفوفةً كما وضعها مُوسىٰ عليه السلام، فأخذها القومُ فلمّا وقعتْ في أيديهم اُلقي في قُلوبهم أن لا ينظُروا إليها وهابوها حتّىٰ يأتوا بها رَسُولَ الله صلّى الله عليه وآله، فأنزل [الله] جَبْرئيل علىٰ نبيه صلّى الله عليه وآله فأخبره بأمر القوم وبالذي أصابوه.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٦٠/١٦١٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٦.
٢. بصائر الدرجات: ١٦١/٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٧.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٤٠.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٢٣٨.

فلمّا قدِموا علىٰ النبيّ ﷺ وسلّموا عليه ابتدأهم فسألهم عمّا وجدوه، فقالوا: وما عِلمُك بما وجدنا؟ قال: أخبرني به ربّي، وهُو الألواح، قالوا: نشهدُ أنّك لرَسُول الله. فأخرجوها فدفعوها إليه، فنظر إليها وقرأها وكانت بالعِبرانيّة، ثمّ دعا أميرَ المُؤمنين عليه السلام فقال: دُونك هذه ففيها عِلمُ الأوّلين والآخرين، وهي ألواح مُوسىٰ عليه السلام، وقد أمرني ربّي أن أدفعها إليك، فقال: لستُ اُحسِن قِراءتها، قال: إنّ جَبرئيل أمرني أن آمرك أن تضعها تحت رأسك ليلتَك هذه، فإنّك تُصبح وقد عُلّمت قراءتها قال: فجعلها تحت رأسه، فأصبح وقد علّمه [الله] كُلّ شيء فيها، فأمر رَسُول الله ﷺ بنَسخها، فنسخها في جِلدٍ؛ وهُو الجَفر، وفيه عِلمُ الأوّلين والآخرين، وهُو عندنا، والألواح عندنا، وعصا مُوسىٰ عندنا، ونحنُ ورِثنا النّبيّين أجمعين».

قال: «قال أبو جعفر: تِلك الصّخرة التي حفِظتْ ألواح مُوسىٰ عليه السلام تحتَ شجرةٍ في وادٍ يُعرف بكذا»[1].

وفي رِوايةٍ: «أنّ الباقر عليه السلام عرّف تِلك الصّخرة ليماني دخل عليه»[2].

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[١٤٦]

ثمّ هدّد الله سُبحانه الكفّار المُنكرين للتّوراة بقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ التفكّر في ﴿آيَاتِيَ﴾ الدالّة علىٰ تَوحيدي وكَمال قُدرتي ـ مِن إهلاك الاُمَم الماضية بكُفرهم وعِصيانهم، وعن النّظر في مُعجزات مُوسىٰ عليه السلام وكِتابه ـ الكفّارَ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويترفّعون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ الأنبياء والمُؤمنين بهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ واستحقاق، ويَرون أنفسهم أفضل وأشرف مِن الرُّسل، معَ أنّه لا فَضل لهم ولا شَرف ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ وحُجّة علىٰ تَوحيد الله، أو مُعجزة دالّة علىٰ رِسالة رُسُله، أو مِن آيات التّوراة ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ولا يُصدّقوها ولا ينقادوا لها ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ ويطّلعوا علىٰ طَريق الحقّ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ ولا يختاروه لأنفسهم ﴿سَبِيلاً﴾ ومَسلكاً لانطباع قُلوبهم، واستيلاء الشّيطان عليهم، وتمرُّنهم علىٰ الانحراف ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ وطَريق الضّلال والمَذهب ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ لسُلوك أنفسهم ﴿سَبِيلاً﴾ لا يعدِلون عنه لمُوافقته لأهوائهم الزّائغة، وإفضائه إلىٰ مُشتهياتهم الباطلة.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٦١٩/١٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٧.

٢. بصائر الدرجات: ٧/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٢٣٨.

عن القمّي ﷺ: إذا رأوا الإيمان والصِّدق والوَفاء والعَمل الصّالح لا يتّخذونه سبيلاً، وإن يَروا الشِّرك والزِّنا والمَعاصي يأخذوا بها ويعملوا بها[١].

﴿ذٰلِكَ﴾ الخِزي والتّكبُّر والانْحراف عن الحقّ حصَل لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ وكفروا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ الدِّين الحقّ وسَبيل الرُّشد ﴿وكانوا عنها﴾ مُعرضين كأنّهم كانوا عنها ﴿غَافِلِينَ﴾.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٤٧]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَهديد عُموم المُكذّبين بآياته مِن الأوّلين والآخرين بقوله: ﴿وَٱلَّـذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِن التَوراة والإنجيل والقُرآن ﴿وَلِقَاءِ ٱلآخِرَةِ﴾ والحَشر إلىٰ دار الجَزاء ﴿حَبِطَتْ﴾ وبطُلتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحَسَنة التي عمِلوها مُدّة أعمارهم في الدُّنيا؛ مِن صِلة الأرحام، والإحسان إلىٰ الفُقراء والأيتام، وغيرها مِن الخيرات، فلا يصِلُون بها إلىٰ الصَّواب، ولا يتخلّصون بها مِن العذاب، لاشتراط قَبُولها بالإيمان بالمَبدأ والمَعاد ورِسالة الرُّسُل.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أن عُقوبته وخِزيه إنّما يكون اسْتحقاقهما بسبب سيّئات الأعمال، لا للتشفّي وغيره مِن الأغراض، بقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء المُكذّبون جَزاء ﴿إِلَّا﴾ علىٰ ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ وَهل يُعاقبون إلّا علىٰ ما كانوا يرتكبون مِن الكُفر والمَعاصي ومُعارضة الرُّسُل ومُعاندة الحقّ، لا والله لا يُجزَون إلّا علىٰ أعمالهم السيّئة وعقائدهم الفاسدة.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّـهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ[١٤٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدما بيّن غاية جهَل بني إسرائيل بسُؤالهم مِن مُوسىٰ ﷺ ـ بعد عُبورهم فـي بِـلاد العَمالقة، واطِّلاعهم علىٰ عِبادتهم الأصنام ـ أن يجعل لهم صَنَماً يعبُدونه، ذكَر أنّهم لِغاية جَهلهم آل أمرهم إلىٰ أن عبَدوا العِجل واتّخذوه إلهاً، بقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ وأغلب قبيلة بني إسرائيل؛ وهُم كانوا سبعمائة ألف أو ستمائة ألف ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ وبعد ذَهابه إلىٰ المِيقات، لِغاية جَهلهم ﴿مِـنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً﴾ قيل: سُمّي ولدُ البَقَر به لاسْتعجال بني إسرائيل عبادته. وكان ذلك العِجل ﴿جَسَداً﴾ ذا لَحم ودَم ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ وصَوت كصوت البقر.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٤٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٨.

قيل: إنّ مُوسىٰ عليه السلام وعد قومه بالانطلاق إلىٰ الجبل ثلاثين يوماً، فلمّا تأخّر رُجوعه قال لهم السّامريّ ـ وكان رَجُلاً مِن قريةٍ يُقال لها سامِرة، وكان مُطاعاً في بني إسرائيل ذا قَدْرٍ ـ: إنّكم أخذتُم الحُليّ مِن آل فِرعون فعاقبكم الله بتِلك الخِيانة، ومنع موسىٰ عنكم. وذلك أنّ بني إسرائيل كان لهم عيدٌ يتزيّنون فيه ويستعيرون الحُليّ مِن القِبط، فاسْتعاروا حُليّ القِبط لذلك، فلمّا أغرق الله القِبط بقيتْ تِلك الحُليّ في أيدي بني إسرائيل، فقال لهم السّامِريّ: اجمَعوا الحُلِي حتّىٰ أحرقُها لعلّ الله يرُدّ علينا مُوسىٰ[1].

وقيل: سألوه إلهاً يعبُدونه، وقد كان لهم ميلاً إلىٰ عِبادة البقر منذ مرّوا علىٰ العَمالقة الّذِين كانوا يعبُدون تماثيل البقر، فجعل السّامريّ الحُلي بعد جمعها في النّار، وصاغ لهم مِن ذلك عِجلاً لأنّه كان صائغاً، وألقىٰ في فمه تُراباً أخذه مِن أثر فرس جَبرئيل؛ وكان ذلك الفَرس فرسَ الحياة ما وضع حافره علىٰ شيء إلّا اخضرّ، وكان قد أخذ ذلك التُّراب عند فَلْق البحر، أو عند توجّهه إلىٰ الطُّور، فانقلب ذلك الجسد لحماً ودماً، وظهر منه خُوار وحركة ومَشي، فقال السامريّ: هذا إلهكم وإله مُوسىٰ، فعبدوه إلّا اثني عشر ألفاً مِن ستمائة ألف[2].

وقيل: إنّه جعل ذلك العِجل مُجوّفاً، وجعل في جَوفه أنابيب علىٰ شَكلٍ مخصوص، وكان [قد] وضع التّمثال علىٰ مهبّ الرّيح، تدخُل مِن تِلك الأنابيب، فظهر منه صوتٌ مَخصوص يشبه خُوار العِجل، فأوهم بني إسرائيل أنّه هو يخُور[3].

أقول: هذا مُخالف للقُرآن والأحاديث.

ثمّ وبّخ الله بني إسرائيل علىٰ عِبادتهم ذلك العِجل وقولهم بألوهيّته بقوله: **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾** بكلام البشر **﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾** إلىٰ الخير **﴿سَبِيلاً﴾** ولا يُرشدهم إلىٰ الحقّ طريقاً، معَ أنّ الله يُكلّم مُوسىٰ عليه السلام ويشرّع الشّريعة المُوصلة إلىٰ كُلّ خير، وهُم معَ الوصف لغاية جَهلهم **﴿اتَّخَذُوهُ﴾** إلهاً وحسِبوه خالقاً معبوداً **﴿وَكَانُوا﴾** في عِبادتهم تِلك **﴿ظَالِمِينَ﴾** علىٰ الله بتضييع حقّه وحَطّ شأنه، وعلىٰ أنفسهم بتَعريضها للهَلاك.

وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٤٢.

يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ[١٤٩ ـ ١٥١]

ثمّ أنّهم ندِموا من عملهم الشّنيع بسَعي هارون ومَواعظه البليغة ﴿وَلَمَّا سُقِطَ﴾ رُؤوسهم ﴿فِى أَيْدِيهِمْ﴾ وندِموا. قيل: إنّ السُّقوط في اليد كِناية عن شِدّة النّدامة؛ لأنّ النادم يضع غالباً رأسه علىٰ يده[١] ﴿وَرَأَوْا﴾ وتبيّنوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الطّريق الحقّ بعِبادتهم العِجل حتّىٰ كأنّهم لشِدّة وُضوحه عاينوه بأبصارهم ﴿قَالُوا﴾ تحسُّراً وندامةً: والله ﴿لَئِن لَمْ يَرْحَمنَا﴾ ويتفضّل علينا ﴿رَبُّنَا﴾ بإنعامه ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ويتجاوز عن خَطيئتنا بكرَمه ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ألبتّة ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ والهالكين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ مِن الميقات ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ حالَ كونه ﴿غَضْبَانَ﴾ عليهم لعِبادتهم العِجل ﴿أَسِفاً﴾ شديد الحُزن، لأنّ الله فتنهم، ثمّ وبّخهم و﴿قَالَ﴾: يا قوم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ وساء ما عمِلتُم ﴿مِن بَعْدِى﴾ وفي زمان غيبتي وذَهابي إلىٰ مِيقات ربّي، حيثُ عبدتُم العِجل وأشركتُم بالله، أو بعد ما رأيتُم مِنّي التّوحيد ونَفي الشّريك عن الله.

ثمّ لامهم علىٰ ترك انْتظارهم رُجوعه بقوله: ﴿أَعجِلْتُمْ﴾ وتركتُم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ بتَوحيده وحِفظ عهدي وانتظار رُجوعي ﴿وَأَلْقَى﴾ مِن يده ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ وطرحها علىٰ الأرض مِن شِدّة غضبه لله، وفَرط انْضجاره مِن قومه حَمِيّةً للّدين.

رُوي أنّه لمّا ألقاها انكسرت فذهب بعضها[٢].

وعن أمير المُؤمنين عليه السلام: «أنّ منها ما تكسّر، ومنها ما بقي، ومنها ما ارتفع»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: أنّه عرَف يمانيٌّ صخرةً باليمَن، ثمّ قال: «تِلك الصخرة التي التقمتْ ما ذهب مِن التّوراة حين ألقى مُوسىٰ عليه السلام الألواح، فلمّا بعث الله رَسُوله صلى الله عليه وآله أدّته إليه وهي عندنا»[٤].

ورُوي أنّها كانت سبعة أسباع، فلمّا ألقىٰ الألواح تكسّرت فرُفع منها ستّة أسباع وبقي سُبعٌ [واحد]، وكان فيما رُفع تفصيلُ كُلّ شيءٍ، وفيما بقي الهُدىٰ والرّحمة[٥].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «رحِم الله أخي مُوسىٰ، ليسَ المُخبر كالمُعاين، لقد أخبره الله بفِتنة قومه، ولقد عرَف أن ما أُخبر به حقّ، وأنّه علىٰ ذلك لمتمسّك بما في يديه، فرجع إلىٰ قومه ورآهم، فغضِب

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٨. ٢. تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.
٣. بصائر الدرجات: ٦/١٦١، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩. ٤. بصائر الدرجات: ٧/١٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.
٥. تفسير الرازي ١٥: ١١.

وألقىٰ الألواح»[١].

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون وبشَعره ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ عن الصادق عليه السلام: «وذلك لأنه لَم يُفارقهم لمّا فعلوا ذلك، ولَم يلحَق بمُوسىٰ عليه السلام، وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب[٢]. وقيل: إنّه جرّه إلىٰ نفسه ليُسَاره ويستكشف كيفيّة تِلك الواقعة.

إذن اعتذر هارون و﴿قَالَ﴾ استعطافاً له: يا ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ لا تأخُذ بلِحيتي ولا برأسي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ لشِدّة حِرصهم علىٰ عِبادة العِجل ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ واستحقروني ولَم يعتنوا إلىٰ قولي ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى﴾ إن منعتُهم عنها، ولَم يكن لي مِن العُدّة ما أقهرهم علىٰ تركها وأدفعهم عن نفسي، ومعَ ذلك لَم أُقصِّر في إنذراهم ووَعظهم ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَاءَ﴾ بإظهار الغضب عليَّ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى﴾ في استحقاق العُقوبة شريكاً ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسهم بعِبادة العِجل.

عن الصادق عليه السلام: «لَم يقُل يا بن أبي؛ لأنّ بني الأب إذا كانت أُمّهاتهم شتّىٰ لَم تستبعد العَداوة بينهم إلّا مَن عَصَمه الله منهم، وإنّما تستبعد العَداوة بين بني أُمٍّ واحدة»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّه كان أخاه لأبيه وأُمّه»[٤].

وقيل: إنّه كان أكبر مِن مُوسىٰ عليه السلام بثلاث سنين، وكان حَمولاً[٥] ليّناً[٦].

فقبِل مُوسىٰ عليه السلام عُذره وتلطّف به و﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما صدر مِنّي مِن الغضب علىٰ هارون ﴿وَلِأَخِى﴾ هارون ما صدر منه من الإقامة في القوم، وتَرك التّشديد علىٰ عَبَدة العِجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة والجنّة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ[١٥٢]

ثمّ أعلن الله سُبحانه بغضبه علىٰ عَبَدة العِجل وسُوء عاقبة عَمَلهم الشّنيع بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ومعبوداً لأنفسهم مِن دُون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ ويُصيبهم ﴿غَضَبٌ﴾ شديد ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ ومالك أُمورهم. قيل: هُو ما اُمروا به مِن قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ﴾ وخِزي ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: هُو خُروجهم مِن دِيارهم، وقيل: هي الجِزية ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الجَزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ علينا القائلين بأنّا شاركنا العِجل في الأُلوهيّة.

---

١. مجمع البيان ٤: ٧٤١، تفسير الصافي ٢: ٢٣٩.
٢ و٣. علل الشرائع: ١/٦٨، تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.
٤. الكافي ٨: ١/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.
٥. الحَمول: الحليم الصّبور.
٦. تفسير الصافي ٢: ٢٤٠.

قيل: إنّ المُراد مِن الّذين اتّخذوا العِجل: هُم الّذين أصرّوا علىٰ عِبادته ولَم يتُوبوا عنها؛ كالسامريّ وأضرابه مِن الّذين اُشربوه في قُلوبهم، ومن الغضب: عذاب الآخرة، ومن الذِلّة: الاغتراب والمَسكنة الدائمة.

رُوي أنّ مُوسىٰ عليه السلام هَمّ بقتل السامريّ، فأوحىٰ الله إليه: لا تقتُلْه فإنّه سَخِيّ، ولكن أخرِجْه مِن عندك، فقال له مُوسىٰ عليه السلام: فاذْهب مِن بيننا مطروداً فإنّ لك في الحياة - أي في عُمرك - أن تقول لمَن أراد مُخالطتك جاهلاً بحالك: [لا مَساس، أي] لا يمَسّني أحدٌ[1].

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام أنّه تلا هذه الآية فقال: «فلا نرىٰ صاحبَ بِدعة إلّا ذليلاً، ولا مُفترياً علىٰ الله وعلىٰ رَسُوله وأهل بيته إلّا ذليلاً»[2].

وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ[١٥٣ و ١٥٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إظهار الغضب علىٰ غير التّائبين مِن عَبَدة العِجل، أعلن برحمته علىٰ العُصاة التّائبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ كبيرةً كانت أو صغيرة ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ منها ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ ما دامت حياتهم باقية ﴿وَآمَنُوا﴾ بربّهم إيماناً خالصاً مِن شَوب الشِّرك والنِّفاق، وعمِلوا بمُقتضىٰ الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وراء الأعمال السيّئة، أو التّوبة ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ والله ﴿لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب وإن كثُرت وجلّت ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِبادة التّائبين، مُفيض عليهم بالخيرات الدُّنيوية والأخرويّة.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان غضب مُوسىٰ عليه السلام علىٰ عَبَدة العِجل وعمله حاله، بيّن سُكون غضبه، واعْتذار هارون، وتوبة قومه مِن عِصيانهم وعمله حينه بقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ وسكن ﴿عَن مُوسَىٰ ٱلْغَضَبُ﴾ لاعتذار أخيه، وتَوبة قومه ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها حين الغضب مِن يده، واستنسخ مِنها التّوراة ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ والكِتاب الذي كتبوا منها ﴿هُدىً﴾ وإرشادٌ إلىٰ كُلّ حقّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وخيرٌ عظيمٌ ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ومِن عِصيانه يتّقون، ومِن عذابه يخافون.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٤٧.

٢. الكافي ٢: ٦/١٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤١.

تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ[١٥٥]

ثمّ أنّ الله تعالىٰ أمر مُوسىٰ عليه السلام أن يأتي بسبعين مِن خِيار بني إسرائيل للاعتذار عن عِصيان قومهم، وفي الوقت الذي عيّنه الله ﴿وَ﴾ أن ﴿ٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ وانتخب منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ من خِيارهم ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ والموعد الذي وعدناهم فيه، ليعتذروا من عِبادة قومهم العِجل.

قيل: إنّ مُوسىٰ عليه السلام اختار مِن كُلّ سِبط ـ وكانوا اثني عشر ـ ستّة رِجال، فزاد اثنان علىٰ السّبعين، فقال مُوسىٰ عليه السلام: ليتخلّف منكم رَجُلان فإنّي أُمرتُ بسبعين، فتنازعوا فقال: إنّ لمَن قعد أجرَ مَن خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مُوسىٰ عليه السلام مع الباقين..

عن الرضا عليه السلام: «أنّ السّبعين لمّا صاروا [معه] إلىٰ الجبل قالوا له: إنّك قد رأيتَ الله، فأرِناه كما رأيته، فقال: إنّي لم أرَه، فقالوا: ﴿لن نُؤمن لك حتّىٰ نرىٰ الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة﴾[1] فاحترقوا عن آخرهم» الخَبر[2].

وقيل: أخذتهم الرجفة فصعِقوا وماتوا.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ بما أجترأوا علىٰ الله مِن طلب الرُّؤية، واحترقوا وماتوا، وبقي مُوسىٰ عليه السلام وحيداً فقال: يا ربِّ، اخترتُ سبعينَ رجلاً من بني إسرائيل وجئتُ بهم، فإن أرجع إليهم وحدي كيف يُصدّقوني بما أُخبرهم به؟ ﴿قَالَ﴾ تذكُّراً للعَفو السّابق لاستجلاب العفو اللّاحق: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ﴾ حينَ مُخالفتهم النّهي عن عِبادة العِجل ﴿وَإِيَّاىَ﴾ حينَ سألتك الرُّؤية.

وقيل: إنّه تَمَنٍّ لهلاكهم وهلاك نفسه قبلَ أن يرى ما أُري، لخوفه مِن تُهمة بني إسرائيل بقتلهم.

ثمّ استعطف مِن الله بإنكار إهلاكهم عليه مع غاية لُطفه وسَعة رَحمته بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ يا ربّ ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ مِن سُؤالهم رؤيتك ﴿إِنْ هِىَ﴾ وما هذه الفِتنة والبليّة ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وابتلاءٌ مِن قِبَلك؛ حيثُ إنّك أسمعتَهم كلامك فافتتنوا بذلك، فطمِعوا في رُؤيتك، وأنت مُمتحنٌ عِبادك بالفِتن و﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ بِحَسب خُبث ذاته ـ ضَلالتَه ﴿وَتَهْدِى﴾ وتُثبت علىٰ الحقّ ﴿مَن تَشَاءُ﴾ ـ لطيب ذاته ـ هِدايتَه وثَباتَه، فلا تزِلُّ قدمُه بفِتنتك، بَل يزيد إيمانُه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ والمُدبّر لأمورنا بحِكمتك ولُطفك لا مُدبّر لنا غيرك، إذن ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرّطنا في جَنبك مِن الخَطايا والزَّلَل ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة الخَيرات علينا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ﴾ تغفِر الذُّنوب وتُبدّل السيّئات بالحَسنات.

---

١. البقرة: ٥٥/٢.   ٢. التوحيد: ١/٤٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤١.

وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ[١٥٦]

فلمّا رأىٰ مُوسىٰ عليه السلام أنّ الله تعالىٰ أحيا السّبعين بِدُعائه، بالغ في الدُّعاء بقوله: ﴿وَٱكْتُبْ﴾ يا ربّ وأوجب عليك ﴿لَنَا﴾ بكرمك ﴿فِى هَٰذِهِ الدُّنيا﴾ ما دُمنا فيها أموراً ﴿حَسَنَةً﴾ من السَّعة في الرِّزق، والرَغَد في العيش، والتوفيق للطّاعة ﴿وَفِى﴾ عالَم ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ أيضاً الأمور الحَسنة مِن النّجاة من العذاب، والفَوز بالجنّة والنِّعم الدّائمة يا مَولاي ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ وعرَفناك بكمال الصِّفات، وسَعة الرّحمة والمغفرة، وسُؤال الحوائج منك، وإنّا نرجو منك العَفو عن زلّاتنا ونعتذِر إليك مِن خطيئاتنا.

فأوحىٰ الله إلىٰ موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِى﴾ في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما ﴿أُصِيبُ بِهِ﴾ وأنزله علىٰ ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ تَعذيبَه علىٰ حسَب استحقاقه، ﴿وَ﴾ لكن ﴿رَحْمَتِى﴾ ونِعمتي وإحساني في الدُّنيا ﴿وَسِعَتْ﴾ وشمِلتْ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِن الجَمادات والنّباتات والحَيوانات، والمُؤمنين والكُفّار بعدَ مَوتهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأُثبتها وأُديمها في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرك والمَعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ من أموالهم إلىٰ الفُقراء والمَصارف المُقرّرة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ ودَلائل تَوحيدنا، ورِسالة رَسُولنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[١٥٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان اختصاص رحمته في الدّارين بالمُتّقين المُزكّين المُؤمنين بالآيات، بيّن اختصاص المُؤمنين بخاتم الأنبياء بتِلك الصِّفات بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ مُختصّون بالرّحمة الدّائمة، فلا تشْمل اللّاحقين من بني إسرائيل إلّا إذا التزموا باتِّباعه.

وعن (الكافي): عن أحدهما عليهما السلام: «الرّسُول: الذي يظهر له المَلَك فيُكلّمه، والنبيّ: هُو الذي يرى

في مَنامه، وربّما اجتمعت النّبوّة والرّسالة في واحد»[١].

وقيل: في توصيفه بـ«الرّسول» إشعارٌ بأنّه صاحب كِتاب، وبـ«النبيّ» إيماءٌ إلىٰ أنه صاحب المُعجزة.

وقيل: إنّما سمّاه رَسولاً بالإضافة إلىٰ الله، نبياً بالاضافة إلى الخَلق[٢].

وعن الزجّاج: معنىٰ الأمّي الذي هُو علىٰ صِفة أمّه العَرب، قال ﷺ: «إنّا أمّة أمّيّة؛ لا نكتُب ولا نحسُب» فالعربُ أكثرُهم ما كانوا يكتُبون ولا يقرأون[٣].

ومِن المَعلوم أنّ كونه أمّياً بهذا المعنىٰ مِن أعظم مُعجزاته، فإنّه لَو كان يُحسِن الخَطّ والقِراءة لصار مُتّهماً بأنّه رُبّما طالع كتُب الأوّلين والآخرين. فحصّل هذه العُلوم بتِلك المُطالعة، فلمّا أتىٰ بالقُرآن العظيم المُشتمل علىٰ عُلوم الأوّلين والآخرين مِن غير تعلُّمٍ ومُطالعة، كان ذلك مِن جُملة مُعجزاته الباهرة.

وقيل: إنّ المراد مِن الأمّي: المَنسوب إلىٰ أمّ القُرىٰ.

عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل لِمَ سُمّي النبيُّ بالأمّي؟ قال: «نُسب إلىٰ مكّة، وذلك مِن قول الله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٤] وأمّ القُرىٰ مكّة، فقيل أمّي لذلك»[٥].

وعن الجواد عليه السلام أنّه سُئل عن ذلك، فقال: «ما يقول النّاس؟» قيل: يزعُمون أنّه إنّما سُمّي بالأمّي لأنّه لَم يُحسِن أن يكتُب الخطّ، فقال: «كذبوا لعنهم الله، أنّىٰ ذلك والله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[٦] فكيف كان يُعلّمهم ما لا يُحسن، والله لقد كان رسُول الله يقرأ ويكتُب باثنين وسبعين ـ أو قال: ثلاثة وسبعين ـ لِساناً، وإنّما سُمّي الأمّي لأنه كان مِن أهل مكّة، ومكّة مِن أمّهات القُرىٰ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٧].

ثمّ استدلّ سُبحانه علىٰ صِحّة نُبوّته بقوله: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ﴾ عن الباقر عليه السلام: «يعني اليَهود والنّصارى، صِفة محمّد ﷺ واسمه [﴿مَكْتُوباً عِندَهُمْ] فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ﴾][٨].

عن أمير المُؤمنين عليه السلام: «قال يهودي لرسول الله ﷺ: إنّي قرأتُ نَعْتك في التّوراة (محمّد بن عبدالله مَولده بمكّة، ومهاجره بطَيْبة، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخّار[٩] ولا متزين بالفُحش ولا قول

---

١. الكافي ١: ٤/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٥١.
٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٣.
٤. الأنعام: ٩٢/٦.
٥. مجمع البيان ٤: ٧٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.
٦. الجمعة: ٢/٦٢.
٧. علل الشرائع: ١/١٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.
٨. تفسير العياشي ٢: ١٦٣٠/١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٢.
٩. في أمالي الصدوق: ولا صخّاب.

الخَنا) وأنا أشهد أن لا إلهَ إلّا الله، وأنّك رَسُول الله، هذا مالي فاحْكُم فيه بما أنزل الله»[١].

عن الباقر عليه السلام: «لما اُنزلت التّوراة علىٰ مُوسىٰ عليه السلام بشّر بمحمّد صلى الله عليه وآله» قال: «فلم تزل الأنبياء تُبشّر به حتّىٰ بعث الله المسيح عيسى بن مريم فبشّر بمحمّد، وذلك قوله: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يعني اليهود، [والنصارى] ﴿مَكْتُوباً﴾ يعني صِفة محمّد ﴿عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، وهُو قول الله عزّ وجلّ يُخبر عن عيسىٰ: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾»[٢].

رُوي «أنَّ مُوسىٰ ناجاه ربُّه تعالى فقال له في مُناجاته: اُوصيك يا مُوسىٰ وصيّةَ الشّفيق المُشفق بابن البَتول عيسىٰ بن مريم، ومَن بعده؛ بصاحب الجمل الأحمر، الطيِّب الطّاهر المطهّر، فمثله في كتابك أنّه مُهيمن علىٰ الكتُب كُلّها، وأنّه راكعٌ ساجدٌ راغبٌ راهبٌ، إخوانه المساكين، وأنصاره قومٌ آخرون»[٣].

أقول: لَو فرضنا أنّه لَم تُوجد روايةٌ في وُجود اسمه في الكِتابين لعَلِمنا بُوجوده فيهما؛ لأنّه لَو لَم يكُن معَ صراحة القُرآن بوُجوده ووُجود نُعوته فيهما لأنكر عليه أهلُ الكِتاب، وصار كَذِبُه أظهر من الشمس في رائعة[٤] النّهار.

ثمّ عدّ سُبحانه من صفاته الكريمة المكتوبة في الكِتابين أنّه صلى الله عليه وآله ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويحُثّهم علىٰ العمل بالمُحسّنات العقليّة ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ويزجُرهم عن القبائح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ واللّذائذ التي لا خَساسة فيها ولا ضَرَر؛ من المأكولات والمَشروبات ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ﴾ وما تتنفّر مِنه الطِّباع، وما يتضرّر مِنها ﴿وَيَضَعُ﴾ ويرفع ﴿عَنْهُمْ﴾ بإتيان الحَنيفية السّهلة السّمحة ﴿إِصْرَهُمْ﴾ والتّكاليف الوُجوبيّة الشّاقّة عليهم؛ كوُجوب قَرْض مَوضع النّجاسة من الثّوب والبَدن ﴿وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ والمُحرّمات الشّاقة؛ كحُرمة العمل يومَ السّبت، وأخذ الدِية في القتل، وحُرمة التصرُّف في الغنائم، وحُرمة الشُّحوم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ وبما جاء به ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظّموه بإطاعة أوامره ونَواهية والتّسليم لأحكامه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ وأعانوه علىٰ أعدائه وفي ترويج دِينه ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ﴾ وهُو القُرآن ﴿ٱلَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وعن الصادق عليه السلام: «النُّور في هذا الموضع عليٌّ والأئمة عليهم السلام»[٥]، وقيل: إنه الهُدىٰ والبَيان والرِّسالة[٦]، و[قيل:] الحقّ الذي ظُهوره في القُلوب كظُهور

---

١. أمالي الصدوق: ٧٣٧/٥٥٢، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.
٢. الكافي ٨: ٩٢/١١٧، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣، والآية من سورة الصف: ٦/٦١.
٣. الكافي ٨: ٨/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.
٤. في النسخة: رابعة.
٥. الكافي ١: ٢/١٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.
٦. تفسير الرازي ١٥: ٢٥.

النُور[١].

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون المتّبعون ﴿هُمُ ٱلمُفلِحُونَ﴾ الفائزون بأعلىٰ المقاصد مِن النّجاة مِن النّار والدُخول في الجنّة.

قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[١٥٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ إثبات رِسالة رَسُوله بالإخبار بُوجود اسمه وصِفاته في الكُتب السّماوية، وبكون شريعته أكمل وأسهل مِن الشّرائع السّابقة، وبَيان أفضليّة تابعيه علىٰ سائر الأمَم، والوَعد بالفَلاح علىٰ الإيمان به والعمل بكِتابه ـ أمر نبيّه ﷺ بإعلام النّاس عُموم رِسالته بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مِن العَرب والعَجم، والأبيض والأحمر والأسود ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ﴾ أرسلني ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

عن الحسن المجتبىٰ عليه السلام: «أنّه جاء نفرٌ مِن اليَهود إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد، أنت الذي تزعُم أنّك رَسول الله، وأنّك الذي يُوحىٰ إليك كما يوحى إلى مُوسىٰ بن عِمران، فسكتَ النبيّ ساعةً ثم قال: نعم، أنا سيد وُلد آدم ولا فَخر، وأنا خاتم النبيِّين، وإمام المُتّقين، ورَسُول ربّ العالَمين. قالوا: إلىٰ مَن، إلىٰ العَرب، أم إلىٰ العجم، أم إلينا؟ فأنزل الله هذه الآية»[٢].

ثمّ أمره الله تعالىٰ بإظهار كمَال مَعرفته به بالصِّفات التي فيها دليل صِحّة دعواه بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُعزُّ مَن يشاء ويُذِلّ مَن يشاء، ويُعطي المُلْك مَن يشاء وينزعه مِمّن يشاء ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا شَريك له في الألوهيّة والرُبوبيّة حتّىٰ يُزاحمه في إنفاذ إرادته، ولابُدّ له حتّىٰ يقهَره في سُلطانه، القادر الحَيّ الذي ﴿يُحْيِى﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء.

فإذا كان كذلك كان عليه إحياء القلوب بمعارفه، وتربية الأرواح بالأمر بالعِبادات وتهذيب الأخلاق، كي يستعدّوا لقبول فيوضاته، ولايمكن ذلك إلّا بإرسال رَسولٍ يهديهم إلىٰ الحقّ وما به الحياة الرُوحانيّة والكمالات المعنويّة، وأنا ذلك الرّسُول ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ﴾ وبوَحدانيّته ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ ومرّ تفسيره[٣] ﴿ٱلَّذِى﴾ هُو لكمال عقله وعِلمه ﴿يُؤْمِنُ﴾ بشَراشره[٤] ﴿بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ التي أُنزلت إليه وهي القُرآن العظيم. وقيل: مُعجزاته الكثيرة ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله، وانقادوا

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٢٥.

٢. أمالي الصدوق: ١/٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٤٣.

٣. تقدم في الآية (١٥٧) من تفسير هذه السورة.

٤. الشّراشر: الجسم بجملته.

لأوامره ونَواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ خيرٍ، وتُسْعَدون في الدُّنيا والآخرة.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[١٥٩]

ثمّ بين سُبحانه حُسن اتِّباع طائفة من بني إسرائيل لدِين مُوسىٰ عليه السلام ترغيباً لأمّة خاتَم النبيِّين صلى الله عليه وآله في اتِّباعه بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ وجَماعة مهتدون يتّبعون مُوسىٰ عليه السلام، وهُم معَ اهتدائهم في أنفسهم ﴿يَهْدُونَ﴾ غيرهم من سائر النّاس ﴿بِالحَقِّ﴾ وبكِتابه النّاطق به إلىٰ الحقّ، والدِّين المَرْضِيِّ عند الله ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية بينهم.

قيل: إنّ الأشهر بين المُفسّرين أنّ هذه الأمّة قومٌ مِن بني إسرائيل وراء الصّين بأقصىٰ المَشرق، وذلك أنّ بني إسرائيل لمّا بالغوا في العُتُوّ والطُّغيان بعدَ وفاة مُوسىٰ عليه السلام وخليفته يُوشَع حتى اجترأوا علىٰ قتل الأنبياء، ووقع الهَرْج والمَرْج، تبرّأ سِبطٌ منهم مِمّا صنعوا واعتذروا، وسألوا الله تعالىٰ أن يُفرّق بينهم وبين أُولئك الطّاغين، ففتح الله لهم ـ وهُم في بيت المَقدس ـ نفقاً في الأرض، وجعل أمامهم المَصابيح فساروا ومعهم نهرٌ من ماءٍ يجري، وأجرىٰ الله عليهم أرزاقهم، فساروا فيه على هذا الوجه سنة ونصف سنة حتّىٰ خرجوا من وراء الصين [إلىٰ أرضٍ] بأقصىٰ المَشرق طاهرة طيبة فنزلوها، وهُم مُختلطون بالسِّباع والوُحوش والهَوامّ لا يضُرّ بعضُهم بعضاً، وهو مُتمسّكون بالتّوراة مُشتاقون إلىٰ الإسلام، لا يعصون الله طَرفة عينٍ أبداً، تُصافحهم الملائكة، وهم في مَنقطعٍ مِن الأرض لا يصِل إليهم أحدٌ مِنّا ولا أحدٌ منهم إلينا؛ إمّا لأنّ بينهم وبين الصّين وادياً جارياً مِن رمل يمنع النّاس من إتيانهم، كما عن ابن عبّاس. أو نهراً مِن شَهْد، كما عن السُّدّي. فانّهم كبني أبٍ واحد ليس لاحدٍ[منهم] مال دُون صاحبه، يُمطرون باللّيل ويضحون[١] بالنّهار، ويزرعون ويحصُدون جميعاً فيضعون الحاصل في أماكن مِن القرية، فيأخُذ كُلٌّ مِنهم قَدْر حاجته ويدَع الباقي[٢].

رُوي أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قال لجَبرئيل ليلة المِعراج: «إنّي أحبُّ أن أرىٰ القوم الّذين أثنىٰ الله عليهم بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾». فقال: إن بينك وبينهم مَسيرة سِتّ سنين ذهاباً، وسِتّ سنين إياباً، ولكن سَل ربّك حتّىٰ يأذن لك، فدعا النبيّ صلى الله عليه وآله وأمّن جَبرئيل، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ جَبرئيل أنّه أُجيب إلىٰ ما سأل، فركب البُراق فخطا خَطوات فإذا هُو بين أظهر القوم، فسلّم عليهم ورَدّوا عليه سلامه، وسألوه: مَن أنت؟ فقال: «أنا النبيّ الأُمّي»، قالوا: أنت الذي بشّربك مُوسىٰ

---

١. ضحىٰ يضحو: برز للشمس، ضحىٰ يضحىٰ: أصابه حرّ الشمس.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٥٩.

وأوصانا بأن قال لنا: مَن أدرك منكم أحمد فليَقرئ عليه مِنّي السّلام فرّد رَسُول الله عليه سلامة، وقالوا: فمَن معك؟ قال: «أو تَرون»، قالوا: نعم، قال: «هُو جَبرئيل». قال: «فرأيتُ قُبورهم علىٰ أبواب دُورهم فقلتُ: فلِمَ ذلك؟» قالوا: أجدر أن نذكُر الموتَ صباحاً ومساءً، فقال: «أرىٰ بُنيانكم مستوياً؟» قالوا: ذلك لِئلّا يُشرف بعضُنا علىٰ بعضٍ، ولِئلّا يسُدَ أحدٌ علىٰ أحد الرّيح والهَواء. قال: «فما لي لا أرىٰ لكم قاضياً ولا سُلطاناً؟» قالوا: إذا أنصف بعضُنا بعضاً، وأعطينا الحقّ فلَم نحتَج إلىٰ قاضٍ يُنصف بيننا. قال: «فما لي أرىٰ أسواقكم خالية؟» قالوا: نزرع جميعاً ونحصُد جميعاً، فيأخذ كُلّ أحدٍ مِنّا ما يكفيه ويدَع الباقي لأخيه، فلا نحتاج إلىٰ مُراجعة الأسواق. قال: «فما لي أرىٰ هؤلاء القوم يضحكون؟» قالوا: مات لهم ميّت فيضحكون سُروراً بما قبضه الله على التّوحيد. قال: «فما لهؤلاء القوم يبكُون؟» قالوا: وُلد لهم مَولود، [فهم] لا يدرون علىٰ أيّ دِينٍ يُقبض فيغتمّون علىٰ ذلك.

قال: «فإذا وُلد لكم ذَكَرٌ، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصوم لله شُكراً شهراً. «قال: فالأُنثىٰ؟» قالوا: نصوم لله شكراً شَهرين. قال: «ولِمَ؟» قالوا: لأنّ مُوسىٰ عليه السلام أخبرنا أنّ الصّبر علىٰ الأُنثىٰ أعظم أجراً مِن الصّبر علىٰ الذّكَر. قال: «أفتزنون؟» قالوا: وهل يفعل ذلك أحدٌ، لَو فعل ذلك أحدٌ حصبته السّماء، وخُسِفتْ به الأرض مِن تحته. قال: «أفترابون؟» قالوا: إنّما يُرابي مَن لا يُؤمن برزق الله. قال: «أفتمرَضون؟» قالوا: لا نمرَض ولا نُذنب، إنّما تُذنب أُمّتك فيمرَضون ليكون كفّارة لذُنوبهم. قال: «هل في أرضكم سِباع وهَوام؟» قالوا: نعم، تمُرّ بنا ونمُرّ بها، ولا تُؤذينا ولا نُؤذيها. فعرض رَسُول الله صلى الله عليه وآله شريعته والصّلَوات الخَمس عليهم، وعلّمهم الفاتحة وسُوراً مِن القُرآن.

وعن الحدّادي: أقرأهم عشَر سُور من القرآن نزلت بمكة، ولَم يكُن يومئذٍ نزلت فريضةٌ غير الصلاة والزّكاة، فأمرهم بالصلاة والزّكاة، وأن يترُكوا تَحريم السّبت ويُجمعوا، وأمرهم أن يُقيموا مكانهم. فهُم اليوم هُناك حُنفاء مُسلمون مُستقبلون قِبلتنا[1].

أقول: هذا يُؤيّد القول بأنّ قِبلة النبيّ صلى الله عليه وآله كانت قبل الهِجرة هي الكعبة.

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ هذه الآية في قومٍ مِن وراء الصّين، بينهم وبين الصّين وادٍ جارٍ مِن الرّمل، لم يُغيّروا ولَم يُبدّلوا، ليس لأحدٍ منهم مال دون صاحبه، يُمطَرون باللّيل ويضحون بالنهار ويزرعون، لا يصِل إليهم أحدٌ مِنّا ولا منهم إلينا أحدٌ، وهُم علىٰ الحقّ»[2].

قال في (المجمع): وقيل: إنّ جَبرئيل انطلق بالنبيّ صلى الله عليه وآله ليلة المِعراج إليهم، فقرأ عليهم مِن القُرآن عشرَ سُوَرٍ نزلتْ بمكة فآمنوا به وصدّقوه، وأمرهم أن يُقيموا مكانهم ويترُكوا السّبت، وأمرهم

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٦٠.

٢. مجمع البيان ٤: ٧٥٢، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.

بالصّلاة والزّكاة، ولَم تكن نزلتْ فريضةٌ غيرهما، ففعلوا[١].

قال: وروىٰ أصحابُنا أنّهم يخرُجون مع قائم آل محمّد ﷺ. وُروي أنّ ذا القرنين رآهم[٢].

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «قومُ مُوسىٰ هُم أهل الإسلام»[٣].

وقيل: إنّهم قومٌ مشَوا علىٰ دِين الحقّ الذي جاء به مُوسىٰ عليه السلام، ودعَوا النّاس إليه، وصانوه عن التّحريف والتّبديل في زمن تفرُّق بني إسرائيل وإحداثهم البِدع، ويجوز أن يكونوا أقاموا علىٰ ذلك إلىٰ أن جاء المسيح فدخلوا في دِينه، ويجوز أن يكونوا هَلكوا قبل ذلك[٤].

وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[١٦٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بيان حُسن حال مُتّبعي مُوسىٰ عليه السلام مِن بني إسرائيل، بيّن سُوء حال بقيّتهم وكُفرانهم النِّعم التي أنعمها عليهم بقوله: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ**﴾ وصيّرناهم شُعَباً، فصاروا ﴿**ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً**﴾ وقبائل، كُلّ قبيلة منهم من نَسْل وَلَدٍ من أولاد يعقوب، يُسمَّون باسم أبيهم الأعلىٰ، وجعلناهم ﴿**أُمَماً**﴾ وجماعات مُتميّزة.

قيل: إنّه تعالىٰ سمّىٰ كُلّ سِبطٍ أُمّةً لكثرة عدَدهم. وقيل: لأنّ كُلّ سِبط يؤُمّ غير الذي يؤُمّ الأسباط الأُخر، بحيث لا يكاد تَوافُقهم في أمر لتباغُظهم وتعصُّبهم، فأنعم الله عليهم بهذا التّفريق والتّقطيع لتنتظم أُمُورهم ويتيسّر عَيشُهم[٥].

ثمّ ذكر سُبحانه نِعمته الأُخرىٰ عليهم بقوله: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ**﴾ في التِّيه ﴿**إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ**﴾ وطلب ﴿**قَوْمُهُ**﴾ منه الماء حينَ اشتدّ بهم العَطش ﴿**أَن**﴾ يا مُوسىٰ ﴿**ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ**﴾ - المعهود الذي مَرّ بَيانُه وأوصافه في سُورة البقرة[٦] - فضربه بها ﴿**فَانبَجَسَتْ**﴾ ونبعتْ ﴿**مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**﴾ بعدَد أسباط بني إسرائيل.

قيل: إنّ انبجاس الماء: خُروجه قليلاً، وانفجاره: خُروجه واسعاً، وكان خُروجه مِن الحَجر في

---

١. مجمع البيان ٤: ٧٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.
٢. مجمع البيان ٤: ٧٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.
٣. تفسيرالعياشي ٢: ١٦٣٢/١٦٥، تفسير الصافي ٢: ٢٤٤.
٤. تفسير الرازي ١٥: ٣١.
٥. تفسير الرازي ١٦: ٣٣، تفسير روح البيان ٣: ٢٦١.
٦. تقدّم في تفسير الآية (٦٠) من سورة البقرة.

الابتداء قليلاً ثمَ واسعاً.

ثمَ خَصَ مُوسىٰ عليه السلام كُلَ عينٍ بسِبط، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وسِبط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ والعين التي خُصَت بهم، حتَىٰ لا يُخالطهم فيها غيرُهم، ولا يقع النزاع بينهم لغاية العصبيَة التي كانت لهم ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وجعلنا فوقه السَحاب يسير في التِّيه بسَيرهم ويقِف بوقوفهم، كَيلا يُؤذيهم حَرُّ الشَمس ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ مِن السَماء ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ ـ وقد سبق تفسيرهما في البقرة[1] ـ ثمَ قُلنا لهم بلِسان مُوسىٰ: ﴿كُلُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ﴾ ومُستلذَات ما أنعمنا عليكم. ثمَ ظلموا بأن كفروا هذه النِّعم الجليلة، وعَصوا أحكامنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرانهم وعِصيانهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ انقطع عنهم الرِّزقُ الطيِّب الذي كان يأتيهم بِلا اكْتِساب وكُلْفة، واستحقَوا العذاب في الدُّنيا والآخرة.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ[١٦١ و ١٦٢]

ثمَ بيَن الله سُبحانه نِعمته الأُخرىٰ عليهم وكُفرانهم إيَاها بعِصيانهم وتمرُّدهم عن أمر ربِّهم بقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ مِن قِبَل الله ﴿لَهُمُ﴾ حين نجَوا من التِّيه وقرُبوا من البيت المُقدَس أو بَلدة أريحا، وكانت فيها بقيَة مِن عاد يُقال لهم العَمالقة: يا بني إسرائيل ﴿ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ الكثيرة النِّعَم والثِّمار ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ وتمتَعوا بها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وفي أيِّ ناحية أردتُم بِلا تَعب وعَناء ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً﴾ ـ وقد مرّ تفسيرُه في البقرة[2] ـ فإن فعلتُم ذلك ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ﴾ التي سلَفت منكم.

ثمَ كأنَه قيل: فماذا لهم بعد المَغفرة؟ أو قيل: هذا للعُصاة، فماذا للمُطيعين؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمُطيعين إحساناً وثَواباً ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ﴿مِنْهُمْ﴾ ما أُمروا به مِن قول (حِطَة) والاستغفار مِن الذُّنوب، وقالوا ﴿قَوْلاً﴾ آخر ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ مِن قول (حِطَة) استِهزاءً بالله ورَسُوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بعد تَبديلهم واسْتِهزائهم ﴿رِجْزاً﴾ وعذاباً شديداً ﴿مِنَ

---

١. تقدّم في تفسير الاية (٥٧) من سورة البقرة.
٢. تقدّم في تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

ٱلسَّمَاءِ﴾ رُوي أنّه مات بالطّاعون مِنهم في ساعة واحدة أربعة وعِشرون ألفاً[١] ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَايَسْبِتُونَ لَاتَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[١٦٣]

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بأن يسأل يَهود عصره عن اصْطياد أجدادهم السمك وطُغيانهم، لتَبكيتهم وتَسلية قلب نبيّه ﷺ مِن إصرار الحاضرين منهم على الكُفر والطُّغيان بقوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ قضيّة ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ وقريبةً منه؛ اسمها إيلة، أو مَدين، أو طَبَريّة، وفيها اليهود ﴿إِذ يَعْدُونَ﴾ ويتجاوزون حُدود الله ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ الذي كان الصّيد مُحرّماً عليهم فيه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ والسّمكات التي كانت في ذلك البحر ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي كان عليهم أن يُعظّموه ولا يعصُون الله فيه بالصّيد، حالَ كون الحِيتان ﴿شُرَّعاً﴾ فيه، ظاهرةً علىٰ الماء، قريبةً مِن السّاحل ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ و لا يرعَون حُرمة السّبت فيه كيوم الأحد ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ الحِيتان، كما كانت تأتيهم يومَ السّبت حذراً مِن صيدهم ﴿كَذٰلِكَ﴾ البَلاء والاختبار العظيم ﴿نَبْلُوهُم﴾ ونختبر طاعتهم وعِصيانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويعصُون من الأحكام؛ ليظهر خُبث ذاتهم وشِدّة طُغيانهم، أو المُراد: فنُعاقبهم بما كانوا يفسُقون علىٰ الاستمرار.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[١٦٤ـ١٦٦]

ثمّ بالغ سُبحانه في توضيح غاية كُفرهم وعُتُوّهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ وطائفة مُؤمنون ﴿مِنْهُمْ﴾ صُلَحاء القرية الذين كانوا يُبالغون في نُصح العُصاة والفُسّاق ويعِظونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيُّها الصُّلَحاء ﴿قَوْماً﴾ لا يرتدعون عن فسقهم ولا يُرجىٰ صَلاحُهم ﴿ٱللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ ألبتّة بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ دُون الاستئصال لتَماديهم في الطُّغيان؟

فأجابهم الصُّلَحاء و﴿قَالُوا﴾: إنّما نعِظهم ليكون وَعظُنا ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ولا نأخُذ بالتَفريط في

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٦٣.

النَهي عن المُنكر، ﴿وَ﴾ لأجل أنّ العصاة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العِصيان بوَعْظنا لاحتمال اتِّعاظهم عندنا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ وتركوا اُولئك الطُغاة ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ ووُعِظوا ﴿بِهِ﴾ ولَم يلتفتوا إلىٰ وَعظ الواعظين ونهي الناهين ﴿أَنْجَيْنَا﴾ وخلّصنا من العذاب الصُلَحاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يَنْهَوْنَ﴾ العُصاة والمُسيئين ﴿عَنِ ٱلسُّوءِ﴾ والعِصيان ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم وطغوا علىٰ ربّهم ﴿بِعَذَابٍ بَـئِيسٍ﴾ وشديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ليرتدعوا عن العِصيان ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ وتأبّوا استكباراً ﴿عَن﴾ ترك ﴿مَا نُـهُوا عَنْهُ﴾ من العِصيان، أردنا إرادة تكوينيّة مَسخهم كأنّا ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ أيُّها العُتاة ﴿قِرَدَةً﴾ وكونوا، أو حال كونهم ﴿خَاسِئِينَ﴾ ذَليلين عندَ الله وعند النّاس، أو مطرودين مِن رحمة الله، أو مِن بين النّاس. فكانوا كذلك مِن غير رَيْث.

في قصة أصحاب السبت

رُوي أنّ اليَهود اُمروا باليوم الذي اُمرنا به، وهُو يوم الجُمعة، فتركوه واخْتاروا السّبت، وهو المَعنيّ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1] وابتُلوا به، وحُرّم عليهم الصّيد واُمروا بتعَظيمه، فكانت الحِيتان تأتيهم يومَ السّبت كأنّـها المَخاض[2] والكِباش البيض السّمان تنتطح، لا يُرى وجهُ الماء لكثْرتها، ولا تأتيهم في سائر الأيّام، وكانوا علىٰ ذلك بُرهة مِن الدّهر، ثمّ جاءهم إبليس فقال لهم: إنّما نُهيتُم عن أخذها يومَ السّبت، فاتّخذوا حِياضاً سَهلة الوُرود صعبة الصُّدور ففعلوا، فجعلوا يسوقون الحِيتان إليها يومَ السّبت فلا تقدِر علىٰ الخُروج، ويأخُذونها يومَ الأحد.

وأخذ رجلٌ منهم حُوتاً وربَط في ذَنَبه خيطاً إلىٰ خشبة في الساحل ثمّ شَواه يومَ الأحد، فوجد جارُه ريحَ السّمك، فتطلّع علىٰ تنّوره، فقال له: إنّي أرى الله سيُعذّبك، فلّما [لم] يَرِه عذابٌ أخذ في السّبت القابل حُوتين.

فلمّا رأوا أنّ العذاب لا يُعاجلهم استمرّوا علىٰ ذلك، فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا، وكانوا نَحواً مِن سبعين ألفاً، فكان أهلُ القرية أثلاثاً: ثلثٌ استمروا علىٰ النّهي، وثلثٌ مَلّوا التّذكير وسأموه وقالوا للواعظين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ إلىٰ آخره، وثلثٌ باشروا الخطيئة، فلمّا لَم ينتهوا قال المُسلمون: نحنُ لا نُساكنكم، فباعوا الدُّور والمَساكن وخرَجوا من القرية، فضربوا الخِيام خارجاً منها، أو اقتسموا القرية بجدارٍ؛ للمسلمين باب، وللمُعتدين باب، ولعنهم داود.

فأصبح الناهون ذات يومٍ فخرجوا من أبوابهم وانتشروا لمصالحهم، ولَم يخرُج مِن المعتدين أحدٌ

---

١. النحل: ١٦/١٢٤.

٢. المخاض: الحوامل من النوق، وابن المخاض: ولد الناقة أو البقرة إذا لقِحتْ اُمّه. والانثىٰ بنت مخاض.

فقالوا: لعلّ الخَمر غلبتهم أو لهم شأنٌ مِن خَسْفٍ أو مَسخٍ أو رَمْيٍ بالحِجارة، فعَلَوا الجُدُر فنظروا فإذا هُم قِردة، أو صار الشُّبان قِردة والشُّيوخ خَنازير، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفتْ القِردة أنسابهم مِن الإنس وهُم لا يعرفونها، فجعل القِرد يأتي نسيبه فيشمّ ثِيابه فيبكي، ويقول له نسيبُه: ألم نَنهكُم؟ فيقول القِردة برأسة: بلىٰ، ودُموعه تسيل علىٰ خدّه، ثمّ ماتوا عن مُكْث ثلاثة أيام[1].

وعن علي بن الحسين عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: «كان هؤلاء قوماً يسكُنون علىٰ شاطئ بحرٍ، نهاهم الله وأنبياؤه عن اصطياد السّمك في يوم السّبت، فتوسّلوا[2] إلىٰ حيلة ليُحلّوا بها لأنفسهم ما حَرّم الله، فاتّخذوا أخاديد وعمِلوا طُرُقاً تُؤدّي إلىٰ حِياضٍ يتهيّأ للحِيتان الدُّخول فيها مِن تلك الطُّرق ولا يتهيّأ لها الخُروج إذا همّت بالرُّجوع، فجاءت الحِيتان يومَ السّبت جاريَةً علىٰ أمان لها، فدخلتْ الأخاديد وحصلت في الحِياض والغُدْران، فلمّا كانت عَشية اليوم همّت بالرُّجوع منها إلىٰ اللُّجَج لتأمن مِن صائدها فلَم تقدِر، وبقيتْ ليلها في مكان يتهيّأ أخذُها بلا اصطياد لاسْترسالها فيه وعَجْزها عن الامْتناع لمَنع المكان لها.

وكانوا يأخذون يومَ الأحد ويقولون: ما اصْطدنا في السّبت، إنّما اصطدنا في الأحد، وكذَب أعداءُ الله، بل كانوا آخذيها بأخاديدهم التي عمِلوها يوم السّبت، حتّىٰ كثُر من ذلك مالُهم وثراؤهم وتنعّموا بالنِّساء وغيرهنّ لاتّساع أيديهم به، وكانوا في المَدينة نَيّفاً وثمانين ألفاً، فعل هذا [منهم] سبعون ألفاً وأنكر عليهم الباقون، كما قصّ الله ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية.

وذلك أن طائفة مِنهم وعظوهم وزجروهم، ومن عذاب الله خوّفوهم، ومِن انتقامه وشدائد بأسه حذّروهم، فأجابوهم من وعظهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بذُنوبهم هَلاك الاصطِلام، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ فأجاب القائلين [لهم] هذا القول: مِنّا ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ إذْ كُلّفنا الأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنكر، فنحنُ ننهىٰ عن المُنكر ليعلَم ربُّنا مُخالفتنا لهم وكراهتنا لِفعلهم، قالوا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ونعِظهم أيضاً لعلّه تنجَع[3] فيهم المَواعظ فيتّقوا هذه المُوبِقة، ويحذَروا عُقوبتها.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ حادوا وأعرضوا وتكبَروا عن قَبُول الزّجْر ﴿عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مُبعدين مِن الخَير مُبغَضين، فلمّا نظر العَشرة آلاف والنّيِّف أنّ السّبعين ألفاً لا يقبَلون مَواعظهم ولا يخافون بتَخويفهم إيّاهم وتَحذيرهم لهم، اعتزلوهم إلىٰ قرية اُخرىٰ قريبة مِن قريتهم، وقالوا: نكره أن ينزِل بهم عذابُ الله ونحنُ في خِلالهم، فأمسَوا ليلةً فمسخهم الله كُلّهم قِردة،

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٦٥.
٢. في تفسير العسكري: فتوصّلوا.
٣. أي تؤثّر.

وبقي بابُ المدينة مُغلقاً، لا يخرُج منه أحدٌ ولا يدخله أحدٌ، وتسامع بذلك أهل القُرىٰ فقصدوهم وتسنّموا حِيطان البلد فاطّلعوا عليهم، فإذا هُم كُلّهم رِجالهم ونساؤهم قِردة يموج بعضُهم في بعض، يعرِف هؤلاء الناظرون مَعارفهم وقَراباتهم وخُلَطاءهم، يقول المُطّلع لبعضهم: أنت فلان، أنتِ فُلانة، فتدمع عينُه ويومئ برأسه أو بفمه بلا أو نعم، فما زالوا كذلك ثلاثة أيّام، ثمّ بعث الله تعالىٰ مطراً وريحاً فجرفهم إلىٰ البحر وما بقي مَسخ بعد ثلاثة أيّام، وإنّما الذين ترَون مِن هذه المُصوَّرات بصُورها فإنّما هي أشباهها، لا هي بأعيانها ولا مِن نسلها»[1].

والقُمّي ﷺ [عن أبي جعفر عليه السلام] قال: «وجدنا في كِتاب علي عليه السلام أنّ قوماً مِن أهل إيلة مِن قوم يهود[2]، [وإن] الحيتان كانت سبقتْ إليهم يومَ السّبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك، فشرَعتْ إليهم يوم سَبْتهم في ناديهم وقُدّام أبوابهم في أنهارهم وسَواقيهم، فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها، فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاهم عنها الأحبار ولا يمنعهم العُلماء مِن صيدها، ثمّ إنّ الشّيطان أوحىٰ إلىٰ طائفةٍ منهم: إنّما نُهيتم عن أكلها يومَ السّبت ولَم تُنهَوا عن صيدها، فاصْطادوها يومَ السّبت وكُلوها فيما سِوىٰ ذلك مِن الأيام.

فقالت طائفة منهم: الآن نصطادها فعتَتْ، وانحازت طائفة [أخرى] منهم ذات اليمين فقالوا: ننهاكم عن عُقوبة الله أن تتعرّضوا بخِلاف أمره، واعتزلتْ طائفة منهم ذات الشمال فسكتتْ فلَم تعِظْهم فقالت للطائفة التي وعظَتْهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قال: فقال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: لمّا تركوا ما وُعظوا به ومضَوا علىٰ الخطيئة، فقالت الطائفة التي وعظتهم: لا والله لا نُجامعكم ولا نُبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتُم الله فيها مخافةَ أن يُنزل الله بكم البَلاء فيعُمَّنا معكم.

قال: فخرجوا [عنهم] مِن المدينة [مخافة أن يُصيبهم البَلاء، فنزلوا قريباً من المدينة]، فباتوا تحت السّماء، فلمّا أصبح أولياء الله المُطيعون لأمر الله تعالىٰ غدَوا لينظُروا ما حالُ أهلِ المَعصية، فأتوا باب المدينةَ فإذا هو مُصمَتٌ، فدقُّوه فلَم يُجابوا، ولَم يسمَعوا منها حِسَّ أحدٍ، فوضعوا سُلّماً علىٰ سُور المدينة ثمّ أصعدوا رَجُلاً منهم، فأشرف علىٰ المدينة، فنظر فإذا هُو بالقوم قِردةً يتَعاوون، فقال الرّجُل لأصحابه: [يا قوم] أرىٰ والله عجباً، قالو: وما ترىٰ؟ قال: أرىٰ القوم [قد] صاروا قِردةً يتعاوون ولها

---

١. التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام: ٢٦٨/١٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٤٦.

٢. في تفسير القمي وتفسير الصافي: ثمود.

أذناب، فكسروا الباب ودخلوا المدينة. قال: فعرفتْ القِردة أنسابَها مِن الإنس ولَم تعرِف الإنسُ أنسابَها مِن القِردة، فقال القوم للقِردة: ألم ننَهكم.

قال: فقال عليٌّ: والله الذي فلق الحَبّة وبرأ النَّسَمة، إنّي لأعرف أنسابها مِن هذه الأمّة لا يُنكِرون ولايُغيِّرون، بل تَركوا ما اُمروا به فتفرّقوا، وقد قال الله: **﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾**[١]، فقال الله: **﴿أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾**»[٢].

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «كانوا ثلاثة أصناف: صِنفٌ ائتمروا وأمروا فنجَوا، وصِنفٌ ائتمروا ولم يأمروا فمُسِخوا ذَرّاً[٣]، وصِنفٌ لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا»[٤].

عن ابن عبّاس: أنّه إذا قرأ هذه الآية بكىٰ وقال: إنّ هؤلاء الذين سكتوا عن النّهي عن المُنكر فهلكوا، ونحن نرىٰ أشياء نُنكرها ثمّ نسكُت ولا نقول شيئاً[٥].

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[١٦٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد ذِكر قبائح أعمال اليهود وإنزال العذاب عليهم، نبّه أنّ مِن عُقوبتهم ابتلاء نَسلهم بالذُلّ والصَغار بقوله: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾** وقضىٰ **﴿رَبُّكَ﴾** أنّه تعالىٰ **﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾** وليُسلِّطَنّ **﴿عَلَيْهِمْ﴾** البتّة **﴿إِلىٰ يومِ ٱلقِيَامَةِ﴾** وآخر الدّهر **﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾** ويُعذّبهم **﴿سُوءَ ٱلعَذَابِ﴾** وشديده من الإذلال، والإجلاء عن الأوطان، وضرب الجِزية، وغيرها مِن الشّدائد كبُخت نَصَر فإنّه غلب علىٰ بني إسرائيل، وقتل مُقاتليهم، وسبىٰ نِساءهم، وخرّب دِيارهم، وضرب عليهم الجِزية، وكالمَجوس ضربوا عليهم الجِزية وأخذوها منهم، حتّىٰ بعث الله خاتَم النّبيّين صلّى الله عليه وآله ففعل بهم ما فعل، فلا تُرفع لهم راية أبداً **﴿إِنَّ رَبكَ﴾** يامحمّد **﴿لَسَرِيعُ ٱلعِقَابِ﴾** يُعجلَ في عُقوبة العُصاة في الدُّنيا **﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾** لمَن تاب و**﴿رَحِيمٌ﴾** بمَن أطاع.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[١٦٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذَمّ عامّة بني إسرائيل نبّه علىٰ وجود الصُّلحاء فيهم، وأنّه يُعامل مع بقيّتهم مُعاملة

---

١. المؤمنون: ٤١/٢٣.
٢. تفسير القمي ١: ٢٤٤، تفسير العياشي ٢: ١٦٦/١٦٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٤٧.
٣. الذَّرُّ: صِغار النّمل.
٤. الكافي ٨: ١٥١/١٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٤٨.
٥. تفسير الرازي ١٥: ٣٩.

المختبر، ويبتليهم بما يُوجب تنبُّههم بقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ وشتّتناهم ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ حالَ كَونهم ﴿أُمَماً﴾ وفِرقاً مُتباعدة في العقائد والآراء ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ وهُم الذِين قدّسوا الله عن الشّريك والوَلد، وآمنوا بجميع الأنبياء وبخاتَمهم عن صميم القلب، عن ابن عبّاس: هُم الذين أدركوا النبيّ ﷺ وآمنوا به[1]، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أُناس ﴿دُونَ ذٰلِكَ﴾ المقام؛ وهُم الّذين ثبتوا علىٰ اليَهوديّة ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ وعاملناهم مُعاملة المُختبر حالهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ المُوجبة للشُّكر؛ من العافية، وسَعة الرِّزق، والخِصْب، والأمن ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ المُوجبة للنَّدم علىٰ الكُفر والعِصيان؛ من الأمراض، والجَدْب، والشّدائد ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب تِلك الحوادث المُرغّبة للطّاعة المُرعِبة عن المُخالفة والمعصية ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن الكُفر واللّجاج إلىٰ الإسلام والانقياد لله ورَسُوله، ويتوبون إلىٰ الله عمّا هُم عليه مِن الطُّغيان والعِصيان.

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَن لَايَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ[١٦٩]

ثمّ بيّن الله سُبحانه أنّ الصُّلحاء لمّا انقرضوا صار جميع بني إسرائيل علىٰ نَهجٍ واحد مِن الكُفر والعِصيان، ولم يُفِد الابتلاءُ في تربية أكثرهم ورُجوعهم إلىٰ الهُدىٰ والصلاح بقوله: ﴿فَخَلَفَ﴾ الصالحون ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ وغِبَّ موتهم ﴿خَلْفٌ﴾ وذُريّة طالحة رديئة؛ وهُم الذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ و﴿وَرِثُوا ٱلكِتَابَ﴾ الذي جاء به مُوسىٰ ﷺ من أسلافهم وقرأوه ووقفوا علىٰ ما فيه مِن الأحكام والعُلوم والتّزهيد من الدُّنيا، وهم معَ ذلك يترُكون العملَ به ويرغَبون في جَمع الأموال، بل ﴿يَأْخُذُونَ﴾ من النّاس ﴿عَرَضَ هٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وحُطام هذه الدُّنيا الدَنيّة، للحُكم بغير الحقّ، وتحريف كلام الله، وتغيير علائم النبيّ ﷺ المذكورة في التّوراة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ غُروراً وافتراءً علىٰ الله: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذَنبُنا ذلك ولا يُعذّبنا به، بل ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾ من أعراض الدُّنيا ومَتاع مِن أمتعتها بجهة الرِّشوة والجُعل علىٰ التّحريف والتّغيير نظير ما أتَوا به و﴿مِثْلُهُ﴾ في الحُرمة ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ أيضاً حِرصاً علىٰ الدُّنيا وزَخارفها، وإصراراً علىٰ العِصيان.

ثمّ أنكر الله عليهم عمَلهم ذلك، وونّخهم علىٰ مُخالفة حُكم التّوراة بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٤٢.

﴿مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ﴾ والعهد المؤكّد في التّوراة؛ وهو **﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾** قولاً **﴿إِلَّا﴾** القول **﴿ٱلْحَقَّ﴾** والصّدق، ولا يعملوا عملاً إلّا ما وافق أحكام التّوراة، فلِمَ يقولون للنّاس: إنّ العلائم التي ذكرها الله في كِتابه تُخالف صِفات محمّد ﷺ، وإنّه سيغفِر الله لنا ذُنوبنا، ويُصرّون علىٰ العِصيان والباطل، **﴿وَ﴾** الحال أنّهم **﴿دَرَسُوا﴾** الكِتاب وقرأوا **﴿مَا فِيهِ﴾** مِن الأحكام، وعلائم النبيّ، والعهد المؤكّد علىٰ أن يعملوا به ولا يُخالفوه ولا يُحرّفوه.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ العِتاب والتّوبيخ وجّه الخِطاب إلىٰ هؤلاء المُحرّفين الرّاغبين إلىٰ الدّنيا، ووعظهم بقوله: **﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾** والجنّة العالية، والنِّعَم الباقية فيها **﴿خَيْرٌ﴾** وأنفع من أعراض الدُّنيا وجَمْع ما فيها، ومن الواضح أنّها **﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** ويحترزون من الكُفر والمَعاصي **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** ولا تُدركون تِلك الخيريّة والاختصاص.

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ [١٧٠]

ثمّ لمّا مدح الله اليَهود الذين عمِلوا بالتّوراة ولَم يُحرّفوه، وآمنوا بالنبيّ الأُمّي، وعدهم بالثّواب بقوله: **﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾** ويعملون **﴿بِالْكِتَابِ﴾** ويلتزمون بجميع ما فيه من الأحكام وعلائم النبي، ويؤمنون به، وعمِلوا بأحكام شريعته **﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾** التي هي عُمْدتها، نُعطيهم أُجورهم **﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾** ولا نُبطل **﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾** وثَوابهم.

قيل: هُم عبدالله بن سلام وأضرابه، فإنّهم تمسّكوا بالتّوراة التي جاء بها مُوسىٰ عليه السلام فلَم يُحرّفوها، ولم يكتمُوها، ولم يتّخذوها مأكلة[1].

وقيل: إنّ المُراد: أُمّة محمّد ﷺ، والكتاب: القُرآن[2].

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٧١]

ثمّ بيّن الله كيفيّة أخذ المِيثاق بالعَمل بالتّوراة بقوله: **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾** وقلعنا **﴿ٱلْجَبَلَ﴾** ـ وهُو الطُّور ـ من موضعه، ورفعناه **﴿فَوْقَهُمْ﴾** وأوقفناه علىٰ رُؤوسهم **﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** وسَقيفة ـ كما عن ابن عبّاس[3] ـ **﴿وَظَنُّوا﴾** وقوىٰ في نُفوسهم **﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾** وساقط عليهم إن لَم يلتزموا بالتّوراة والعمل بما فيها،

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ٢٨٨، تفسير روح البيان ٣: ٢٧٠.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٠.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٤٥.

وقُلنا لهم: ﴿خُذُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ من الكِتاب والأحكام التي فيه ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وجِدٌ وعَزيمة علىٰ تحمُّل المَشاقّ ﴿وَاذْكُرُوا﴾ واحفَظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ مِن الأحكام والعُهود، بالعمل والوفاء بها، ولا تترُكوها كالمَنسيّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رَذائل الخِصال، وسيّئات الأعمال، وعذاب الله المُتعال.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[۱۷۲ ـ ۱۷٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذِكر أخذ المِيثاق من بني إسرائيل علىٰ العمل بالتّوراة، ذكر أخذه المِيثاق من بني آدم في عالَم الذَرّ علىٰ الإقرار بتوحيده ورِسالة رُسُله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وأخرج ﴿مِن بَنِى آدَمَ﴾ أعني ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وأصلابهم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ونَسلهم طبقةً، بعد طبقة كما يتوالدون في الدُّنيا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وأخذ الإقرار منهم ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بتَوحيده ورُبوبيّته، بأن قال لهم تقريراً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومالك أمركم، والمُتصرّف فيكم إيجاداً وإعداماً وتدبيراً، لا شريك لي ولا نِدّ؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ وأعترفنا برُبوبيّتك ووَحدانيّتك.

في أخذ الاقرار بالتوحيد في عالم الذرّ

عن النبيّ ﷺ قال: «لمّا خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كُلّ نسمة مِن ذُريّته إلىٰ يوم القيامة»[۱].

وعن مقاتل: أنّ الله مسح صفحة ظهر آدم اليُمنىٰ فخرجتْ منه ذُريّةٌ بيضاء كهيئة الذَرّ تتحرّك، ثمّ مسح صفحة ظهره اليُسرىٰ فخرجتْ مِنه ذُريّةٌ سَوداء كهيئة الذَرّ، فقال: يا آدم، هؤلاء ذُريّتك. ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ فقال للبيض: هؤلاء في الجنّة برَحمتي، وهُم أصحاب اليمين، وقال للسُّود: هؤلاء في النّار ولا اُبالي، وهُم أصحاب الشِّمال وأصحاب المَشئمة. ثمّ أعادهم جميعاً في صُلب آدم، فأهل القُبور محبوسون حتّىٰ يخرُج أهلُ الميثاق كُلّهم مِن أصلاب الرّجال وأرحام النِّساء، وقال تعالىٰ في مَن نقض العهد الأوّل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾[۲].

وعن ابن عبّاس: أنّه أبصر آدم في ذُريّته قوماً لهم نُور فقال: يا ربّ، مَن هُم؟ فقال: الأنبياء[۳] الخبر.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال وأبوه يسمع: «حدّثني أبي أنّ الله عزّ وجلّ قبض

---

۱. تفسير الرازي ۱۵: ٤٦.

۲. تفسير الرازي ۱۵: ٤٦، والآية من سورة الأعراف: ۱۰۲/۷.

۳. تفسير الرازي ۱۵: ٤٧.

قبضةً مِن تُراب التُّربة التي خلق منها آدم، فصَبّ فيها الماء العَذْب الفُرات، ثمّ تركها أربعين صباحاً، [ثمّ صبّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً]، فلمّا اختمرت الطِّينة أخذها فعرَكها عَرْكاً شديداً، فخرجوا كالذَرّ مِن يمينه وشِماله، وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النّار، فدخل أصحاب اليمين فصارتْ عليهم بَرداً وسلاماً، وأبىٰ أصحابُ الشِّمال أن يدخُلوها»[١].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «أخرج من ظهر آدم ذُريّته إلىٰ يوم القيامة؛ فخرجوا كالذَرّ، فعرّفهم نفسَه، [وأراهم صُنعه][٢] ولولا ذلك لَم يعرِف أحدٌ ربّه»[٣].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: كيف أجابوا وهُم ذَرّ؟ فقال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه»[٤].

وعنه عليه السلام: «لمّا أراد الله أن يخلُق الخَلقَ نثَرهم بين يدَيه، فقال لهم: مَن ربّكم؟ فأوّل مِن نطق رَسُول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام فقالوا: أنت ربُّنا، فحمّلهم العِلم والدِّين. ثمّ قال للملائكة: [هؤلاء حملة ديني وعلمي وأُمنائي في خلقي وهم المسؤولون. ثم قال لبني آدم: أقِرّوا لله بالربوبية ولهؤلاء النفر بالولاية والطاعة، فقالوا: نعم ربنا أقررنا، فقال الله للملائكة:] اشْهَدوا، فقال الملائكة: شهِدنا [على أن لا يقولوا غداً: إنا كُنّا عن هذا غافلين، أو يقولوا: إنما أشرك آباؤنا]»[٥].

وعن القمّي رحمه الله عنه عليه السلام في هذه الآية، أنّه سُئل: مُعاينةً كان هذا؟ قال: «نعَم، فثبتتْ المعرفة، ونسُوا الموقف وسيذكرونه، ولولا ذلك لَم يدْرِ أحدٌ مَن خالقه ورازقه، فمنهم مَن أقرّ بلِسانه في الذَرّ، ولَم يُؤمن بقلبه فقال الله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾»[٦].

أقول: نظائر هذه الأخبار كثيرة بحيث لَو ادّعىٰ أحدٌ تواترها المعنوي أو الإجمالي لا يُعَدّ مُجازفاً، فلا مَناص من الالتزام والقول بوجود عالَم الذَرّ، وعليه عامّة المُفسّرين وأهل الأثر كما ادّعاه الفخر الرّازي، ولا مَجال لإنكاره وتأويل الأخبار بما نقله الفَخر عن أصحاب النَظر وأرباب المَعقولات مِن أنّه تعالىٰ أخرج الذرية من أصلاب آبائهم، وذلك الإخراج أنّهم كانوا نُطفةً، فأخرجها الله تعالىٰ في أرحام اُمّهاتهم، وجعلها عَلَقةً ثمّ مُضْغةً، ثمّ جعلهم بشراً سَوَياً وخَلْقاً كاملاً، ثمّ أشهدهم على أنفسهم بما ركّب فيهم من دلائل وَحدانيّته وعَجائب خلقه وغَرائب صُنعه، فبالإشهاد صاروا كأنّهم قالوا: بلىٰ،

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٦٥٢/١٧٣، الكافي ٢: ٢/٥، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.
٢. في تفسير العياشي: وأراهم نفسه، وفي الكافي: فعرفهم وأراهم نفسه.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٦٥٤/١٧٣، الكافي ٢: ٤/١٠، التوحيد: ٩/٣٣٠، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٤٧/١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.
٥. الكافي ١: ٧/١٠٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢.
٦. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٢، والآية من سورة يونس: ٧٤/١٠.

وإن لَم يكن هناك قولاً باللِّسان، ولذلك نظائر منها قوله تعالىٰ: **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[١]، ومنها قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**[٢] فهذا النوع من المَجاز والاستعارة مشهورة في الكلام، فوجب حمل الكلام عليه[٣].

وقال بعضٌ آخر من العامّة في توجيه الآية: إنّه من باب التّمثيل والتخييل، نزّل تمكينهم من العِلم بُربوبيّته بنَصب الدّلائل الآفاقيّة والأنفسيّة، وخلق الاستعداد فيهم منزلة الإشهاد، وتمكينهم مِن معرفتها والإقرار بها منزلة الاعْتراف، فلَم يكُن هناك أخذ وإشهاد وسُؤال وجَواب، وباب التّمثيل بابٌ واسع في القُرآن والحديث وكلام البُلغاء، قال الله تعالىٰ: **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[٤].

وقال الفيض ﷺ في (الصافي): إنّ المُراد بالإشهاد إقامة الدّلائل والحُجَج علىٰ التّوحيد والرُّبوبيّة، ومن قولهم «بلىٰ شهِدنا علىٰ أنفسنا» أنّه ركّب في عُقولهم ما يدعُوهم إلىٰ الإقرار بـها، حتّىٰ صار بمنزلة الإشهاد علىٰ طَريقة التّمثيل، نظير قوله عزّ وجلّ: **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**، وقوله جلّ وعلا: **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[٥].

أقول: وإن كان يُشعر بذلك قول الصادق عليه السلام: «أنه جعل فيهم إذا سألهم أجابوه»[٦] إلّا أنّ قوله عليه السلام في رِواية القُمّي: «فمنهم مَن أقرّ بِلسانه في الذَرّ، ولَم يُؤمن بقلبه»[٧] كالصّريح في خلافه، ويُمكن القول بخلق ذُريّته في صُلبه بصُور كالذّرّ في الصِّغَر، ولا مادّة لها، وكان السُّؤال بلِسان المَلَك، والجواب بلِسان مُناسب لخلقهم، أو بلِسان الحال؛ لكون عُقولهم في ذلك العالَم سليمة عن شَوب الشّهوات والأهواء. وكانت الحِكمة في ذلك كون تِذكاره في عالَم الدُّنيا مُوجباً لتهييج رَغبتهم إلىٰ الإيمان.

ثمّ علّل سُبحانه هذا العهد بكراهته تعالىٰ من **﴿أَن تَقُولُوا﴾** عند مُؤاخذتكم علىٰ إنكار الرُّبوبيّة والتّوحيد احْتجاجاً علينا **﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾**: ربّنا **﴿إِنَّا كُنَّا﴾** في الدُّنيا **﴿عَنْ هَٰذَا﴾** الأمر **﴿غَافِلِينَ﴾** وبه جاهلين، ولا يجوز مُؤاخذة الجاهل والغافل **﴿أَوْ تَقُولُوا﴾** يومَ القيامة اعْتِذاراً من شِرككم: ربّنا **﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾** الأقدمون **﴿مِن قَبْلُ﴾** وأخترعوا هذا الدِّين وسنُّوه في الدُّنيا قبل وِلادتنا **﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾** جاهلة **﴿مِّن بَعْدِهِمْ﴾** لَم يكُن لنا طريق إلىٰ معرفتك بالرُّبوبيّة والوَحدانيّة، ولَم نقدِر علىٰ الاستدلال

---

١. فصلت: ٤١/١١. ٢. النحل: ١٦/٤٠. ٣. تفسير الرازي ١٥: ٥٠.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٣. ٥. تفسير الصافي ١: ٢٥١.
٦. تقدم آنفاً. ٧. تقدم آنفاً.

عليهما، ولذا اقتدينا بهم وقلّدناهم ﴿أَ﴾ تأخذنا ﴿فَتُهْلِكُنَا﴾ بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ﴾ قُدماؤنا ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المُضِلّون ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التفصيل والشرح البليغ البديع النّافع ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونشرح ﴿ٱلآيَاتِ﴾ الدالّة على صِدق القرآن وصِحّة نُبوّة محمّد ﷺ، ليقفوا على ما فيها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكُفر إلى الإسلام، وعن الباطل إلى الحقّ.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ [١٧٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد تَنبيه اليَهود على نِعَمه العظيمة الجِسمانيّة والرُّوحانيّة وأخذ العهد منهم على العمل بالتّوراة، بيّن أنّ أزهدهم وأعلمهم عصى وأعرض عن الهُدى فضلاً عن غيره بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمّد ﴿نَبَأَ ٱلَّذِى ءَاتَيْنَاهُ﴾ وعلّمناه ﴿ءَايَاتِنَا﴾ المُنزلة والكُتب السماويّة والاسم الأعظم، بحيث شَمَلته تِلك كالشَّمْلة[1]، بَل كالجِلد على بدنه ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ وانْخلع ﴿مِنْهَا﴾ بالكُلّية لغَلبة النّفس عليه ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ وأدركه ﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾ بعد أن كان ساعياً في لُحوقه وإدراكه ﴿فَكَانَ﴾ ذلك العالِم - بانسلاخه من العِلم وغَلبة النّفس والشّيطان عليه - ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ والرّاسخين في الغِواية والضّلال.

قصة بلعم بن باعورا

وعن ابن عبّاس وابن مسعود قالا: كان هو عابداً مِن عُبّاد بني إسرائيل، وكان في المدينة التي قصدها موسى عليه السلام، وكان أهلُ تِلك المدينة كُفّاراً، وكان عنده اسم الله الأعظم، فسأله مَلِكهم أن يدعو على مُوسى عليه السلام بالاسم الأعظم ليدفعه عن تِلك المدينة فقال لهم: دِينُه وديني واحد، وهذا شيءٌ لا يكون، وكيف أدعو عليه وهو نبيّ الله ومعه الملائكة والمُؤمنون؟ وأنا أعلم مِن الله ما أعلم، وإنّي إن فعلتُ ذلك أذهبتُ دُنياي وآخرتي. فلَم يزالوا به يفتُنونه بالمال والهَدايا حتّى فتنوه، فافتُتِن[2].

قيل: كانت لهذا الرّجُل الذي اسمُه بَلعم امرأة يُحبّها ويُطيعها، فجمع قومُه هدايا عظيمة فأتوا بها إليها وقبِلتْها، فقالوا لها: قد نزل بنا ما تَريْن، فكلّمي بَلعم في هذا، فقالت لبلعم: إنّ لهؤلاء القوم حقّاً وجواراً عليك، وليس مِثلُك يخذُل جيرانه عند الشدائد، وقد كانوا مُحسنين إليك، وأنت جديرٌ أن تُكافِئهم وتهتمَ بأمرهم، فقال لها: لولا أنّي أعلم أنّ هذا الأمر مِن عندِ الله لأجبتُهم. فلَم تزَل به حتّى صرَفتْه عن رأيه، فركِب أتاناً له مُتوجّهاً إلى الجبل ليدعو على مُوسى عليه السلام، فما سار على الأتان إلّا

---

١. الشَّمْلة: ثوب يُتوشّح به، أو كِساء من صوف أو شعر يُتغطّى به.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٦.

قليلاً فربَضَتْ، فنزل عنها فضربها حتّىٰ كاد يُهلكها فقامتْ فركبِها، فربَضتْ [فضربها]، فأنـطقها الله تعالىٰ فقالت: يا بلعم، وَيْحك أين تذهب، ألا ترىٰ إلىٰ هؤلاء الملائكة أمامي يرُدّونني عن وجهي، فكيف تُريد أن تذهب لتدعو على نبي الله وعلىٰ المؤمنين؟! فخلّىٰ سبيلها، وانطلق حتّىٰ وصل إلىٰ الجبل وجعل يدعو، فكان لا يدعو بسُوء إلّا صرَف الله به لِسانه علىٰ قومه، ولا يدعو بخير إلّا صرف به لِسانه إلىٰ مُوسى. فقال له قومُه: يا بلعم، إنّما أنت تدعو علينا وتدعو له، فقال: هذا والله الذي أملِكه، وأنطق الله به لِساني.

ثمّ امتدّ لِسانُه حتّىٰ بلغ صَدره فقال لهم: والله قد ذهبتْ مِنّي الآن الدُّنيا والآخرة، فلَم يبقَ إلّا المَكر والحِيلة، فسأمكُر لكم وأحتال، حَلُّوا النِّساء وزَيّنوهنّ وأعطُوهنّ الطِّيب، وأرسِلوهنّ إلىٰ العَسكـر، وآمرُوهُنّ لا تمنع امرأة نفسها عن رجل أرادها، فإنّهم إن زنىٰ منهم رجلٌ واحد كُفيتُموهم؛ فـفعلوا. فلمّا دخلَت النِّساء العسكر مرّتْ امرأة منهم برجُلٍ من عُظماء بني إسرائيل، فقام إليها وأخـذ بـيدها حين أعجبته بحُسنها، ثمّ أقبل بها إلىٰ مُوسىٰ عليه‌السلام فقال له: إنّي لأظنُّك أن تقول: هذه حَرام، قال: نعم، هي حَرام عليك، لا تَقْرَبْها، قال: فوالله لا نُطيعك في هذا. ثمّ دخل بها قبّته فوقع عليها، فأرسـل الله علىٰ بني إسرائيل الطّاعون في الوقت.

وكان فنحاص بن عازورا[1] صاحب أمر مُوسىٰ عليه‌السلام رَجلاً له بَسْطة في الخَلْق وقُـوّة فـي البَـطش، وكان غائباً حين صنع ذلك الرّجل بالمرأة ما صنع، فجاء والطاعون يجُوس في بني إسرائيل، فأُخبِر الخبَر، فأخذ حَربته وكانت مِن حديد كُلّها، ثمّ دخل القُبّة فوجدهما مُتضاجعين، فدقّهما بحربته حتّىٰ انتظمهما بها جميعاً، فخرج بهما يحمِلهما بالحَربة وأعـقابهما[2] إلىٰ السّـماء، والحَـربة قـد أخـذها بذراعه، واعتمد بمَرْفِقه، وأسند الحَربة إلىٰ لِحيته، وجعل يقول: اللّهم هكذا نفعل بمَن يعصيك، فرفع الطاعون مِن حينئذٍ عنهم، فحسب مَن هلَك مِن بني إسرائيل في ذلك الطّاعون، فوجدهم سبعين ألفاً في ساعةٍ مِن نهارٍ، وهُو ما بين أن زنىٰ الرّجل بها إلىٰ أن قُتل.

ثمّ أنّ مُوسىٰ عليه‌السلام وفتاه يُوشع بن نون حاربوا أهل تِلك البَلدة وغَلَبوهم، وقتلوا مِنهم وأسرَوا، وأتَوا ببلعم أسيراً فقتل، وجاءوا بما قَبِل من العَطايا الكثيرة وغنَموها[3].

عن القُمّي رحمه‌الله: نزلت في بلعم بن باعورا، وكان من بني إسرائيل، أُوتي عِلم بعضِ الكتُب[4].

وفي (المجمع): عن الباقر عليه‌السلام: «الأصل فيه بلعم، ثمّ ضربه الله مثلاً لكُلّ مُؤثر هواه علىٰ هُدىٰ الله

---

١. في تفسير روح البيان: فخاص بن العيزار.
٢. في تفسير روح البيان: بالحربة رافعاً بهما.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٧٧.
٤. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

مِن أهل القِبلة»[١].

والعياشي، عنه عليه السلام: «مَثَل المغيرة بن سعيد[٢] مثل بلعم الذي أُوتي الاسم الأعظم الذي [قال الله:] ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾[٣]».

عن القُمّي رحمه الله: عن الرضا عليه السلام: «أنّه أُعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيُستجاب له، فمال إلىٰ فِرعون، فلمّا مرّ فرعون في طلب مُوسىٰ عليه السلام وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادعُ الله علىٰ مُوسىٰ وأصحابه ليحبِسه علينا، فلمّا ركِب حِمارته ليمُرّ في طلب مُوسىٰ عليه السلام فامتنعت عليه حِمارته، فأقبل يضربها فأنطقها الله عزّ وجلّ فقالت: ويلك علىٰ ماذا تضرِبُني، أتُريد أن أجيءَ معك لتدعو علىٰ نبيّ الله وقوم مُؤمنين؟! فلَم يزَلْ يضرِبها حتى قتلها، وانْسلخ الاسمُ الأعظم من لِسانه، وهو قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾»[٤].

وعن ابن عبّاس، بعد أن ذكر نُزول الآية في بلعم قال: كان مُجاب الدّعوة وعنده اسمُ الله الأعظم، وأنّه دعا علىٰ مُوسىٰ عليه السلام فاستُجيب له، ووقع مُوسىٰ عليه السلام وبنو إسرائيل في التِّيْه بدُعائه، فقال مُوسىٰ عليه السلام: يا رب، بأيّ ذنبٍ وقعنا في التِّيْه؟ فقال: بدُعاء بلعم، فقال: كما سمِعتَ دُعاءه عليّ فاسْمَعْ دُعائي عليه، ثمّ دعا مُوسىٰ عليه أن يُنزَع منه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه الله مِمّا كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجتْ مِن صدره كَحمامة بيضاء[٥].

أقول: مُخالفة هذه الرِّواية لكِتاب الله واضحه، حيثُ إنّه ناطق بأن سبب وُقوع بني إسرائيل في التّيه عِصيانهم أمر مُوسى عليه السلام، وعدم دُخولهم بلد العَمالقة.

وقيل: إنّ الآية نزلتْ في أُمَيّة بن أبي الصَّلْت، وكان قد قرأ الكتُب، وعلِم أن الله مُرسل رَسُولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هُو، فلمّا أرسل الله محمّداً صلى الله عليه وآله حسده، ثمّ مات كافراً ولَم يُؤمن بالنبيّ، وهُو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: «آمن شَعرُه، وكفر قلبُه»[٦].

وقيل: نزلت في أبي عامر الرّاهب الذي سمّاه النبيّ صلى الله عليه وآله الفاسق، كان يترهّب في الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام خرج إلىٰ الشام، وأمر المُنافقين باتِّخاذ مسجد ضِرارٍ، [وأتى قيصر] واستنجده علىٰ

---

١. مجمع البيان ٤: ٧٦٩، تفسير الصافي ٢:٢٥٣.

٢. المغيرة بن سعيد: خبيث ملعون، كان يكذب على الإمام الباقر عليه السلام، فلعنه الإمام الصادق عليه السلام، وأذاقه الله حرّ الحديد، قتله خالد بن يزيد القسري، والقصة مذكورة في مستدركات علم الرجال ٧: ١٥١٢٢/٤٧٠، سير أعلام النبلاء ٥: ٤٢٦.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٦٦١/١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

٤. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٥٣.

٥. تفسير الرازي ١٥: ٥٤.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٥٤.

النبيّ ﷺ فمات هناك طريداً وحيداً. وقيل: نزلت في مُنافقي أهل الكِتاب، كانوا يعرفون النبيّ ﷺ. وقيل: هُو عام فيمَن عُرض عليه الهُدىٰ فأعرض عنه[1].

أقول: الحقّ أن الآية نزلتْ في بلعم، وجرتْ علىٰ كُلّ عالِمٍ مُتّبعٍ للهوىٰ، مُعرضٍ عن الهُدىٰ.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـآيَاتِنَا فَاقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ[١٧٦ و ١٧٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان انسلاخ بَلعم من الآيات وانسلاكه في الرّاسخين في الضّلال، بيّن أنّ تِلك الآيات كانت مُقتضية لرفع مقامه، إلّا أنّ حُبّه الدُّنيا واتباعه الهوىٰ أهواه في أسفل الدَّركات بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ رِفْعَة مقامه إلىٰ مَحلّ القُرب، وإيصاله إلىٰ جميع السّعادات الدُّنيويّة والأُخرويّة ببركة تِلك الآيات ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ إليه، وأوصلناه إلىٰ أعلىٰ دَرجة السّعادة والكرامة ﴿وَلٰكِنَّهُ﴾ لخُبث ذاته وبسُوء اختياره ﴿أَخْلَدَ﴾ ومال ﴿إِلىٰ ٱلأَرْضِ﴾ والدُّنياالدَنيّة واطْمأنّ بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ووافق شَهوته في إيثار الحُطام والزّخارف الفانية، واستِرضاء قومه، فانحَطّ غاية الإنْحِطاط، وهوىٰ في أسفل الدَّركات.

﴿فَمَثَلُه﴾ وحاله العَجب في حرصه على الدنيا، وهلعه إلى حطامها، وعدم اتّعاظه بالموعظة، وعدماهتدائه، إن تُرك ﴿كَمَثَلِ ٱلكَلْبِ﴾ في أسوء أحواله وأخسّ صِفاته، وهُو أنّه ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أيُّها المُخاطب بالزّجْر والطّرد ﴿يَلْهَثْ﴾ ويُخرج لِسانه ويتنفّس بِشدّة ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ ولا تتعرّض له ﴿يَلْهَثْ﴾ أيضاً، فكما أنّه دائم اللَّهْث، كذلك هذا العالِم المُتّبع لهواه لا يتغيّر حاله إن وُعظ أو تُرك ﴿ذٰلِكَ﴾ المثل السيء ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ﴾ عِلموا بَصفات محمّد ﷺ المذكورة في التّوراة وببِشارة مُوسىٰ ﷺ بظُهوره وبِعْثته، فحرّفوها وغيّروا اسمه و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُنزلة في الكتُب السّماويّة ﴿فَاقْصُصِ﴾ يا محمّد وأتْلُ عليهم تِلك ﴿ٱلقَصَصَ﴾ والأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ويتّعظون ويحذَرون سُوءَ عاقبة أعمالهم السيئة ﴿سَاءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُنزلة في الكتُب السماويّة من التّوراة والإنجيل والقُرآن، وساء الوصف الذي اتّصفوا به مِن إنكارها ومن جُحود الآيات، وتَكذيب الرّسُول معَ قِيام الحُجّة عليهم، وما ظلمونا بسُوء أعمالهم ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَنفُسَهُمْ

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٥٤.

﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لأنّ وَبالها لا يتخطّاهم.

مَن يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ[١٧٨]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ الهِداية والضّلال بتَوفيق الله وخِذلانه لا بالعِلم بقوله: **﴿مَن يَهْدِ ٱللهُ﴾** ويُرشده إلىٰ الحقّ وطريق الصّواب بتوفيقه، كائناً مَن كان **﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي﴾** لا غيره **﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾** الله عن الهُدىٰ ويُبعده عن الحقّ ويحرّفه عن سبيله بخِذلانه وإيكاله إلىٰ النّفس والهوىٰ المُردي والشّيطان المُغوي **﴿فَأُولٰئِكَ﴾** الضالّون **﴿هُمُ ٱلخَاسِرُونَ﴾** والمُتضرّرون في الدُّنيا والآخرة غاية الضّرَر.

قيل: في إفراد الضمير في الأول باعتبار اللّفظ، والجمع في الإشارة في الثاني باعتبار المعنىٰ، إشعارٌ باتّحاد المُهتدين لاتّحاد طريقتهم، وتشتُّت الضّالين لتشتُّت مَذاهبهم.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ[١٧٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان أنّ الهداية بتَوفيقه، والضّلالة بخِذلانه، نبّه علىٰ أنّ إعطاء التوفيق ومَنعه إنّما يكون لاخْتِلاف ذَوات النّاس وطيناتهم في الطِّيب والخُبث، وتَفاوُت اسْتعداداتهم في بَدْو الخلقة لقَبول الفَيض بقوله: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾** وخلقنا **﴿لِجَهَنَّمَ﴾** وللتّعذيب فيها **﴿كَثِيراً مِنَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ﴾** لكون طِينتهم من السجّين والماء الملح الأُجاج، فلا يختارون إلّا العمل الذي يُناسب ذاتهم وطِينتهم، ولذا يكون **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾** يعقِلون بها تدَبيرات أمور دُنياهم، ولكن **﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾** آيات الله ومَواعظه، ولا يعقِلون **﴿بِهَا﴾** بَراهين التّوحيد والمَعاد، ولا يُدركون قُبح الكُفر والمَعاصي وسُوء عاقبتهما **﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾** يُبصرون بها مَرئيّات هذا العالم، ولكن **﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾** صَنائع الله، وحُسن نِظام عالَم الوُجود الدالّين علىٰ وُجود الصّانع الفَرد القادر الحكيم، ومُعجزات الأنبياء الدالّات علىٰ صِدقهم، وسَبيل الهِداية المُوصلة إلى السّعادة الأبديّة **﴿وَلَهُمْ آذَانٌ﴾** يسمعون بها المَسموعات الدُّنيويّة، ولكن **﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾** كلمات الله، ودعَوة الرُّسُل وإنذارهم ونَصحهم.

عن القُمّي ﷺ: عن الباقر عليه السلام **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا﴾** يقول: «طبع الله عليها فلا تعقِل، **﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾** عليها غِطاء عن الهُدىٰ **﴿لَايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا﴾** جعل في أُذانهم وَقْراً فلم

يسمَعوا الهدى[١]».

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المُتَصفون بتِلك الصِّفات الخَسيسة ﴿كَالأَنعَامِ﴾ والبَهائم لمُشاركتهم لها فـي القُـوىٰ الخَمس الطبيعيّة والحَواس الخمس الظاهرة، وافتقادهم ما يمتاز به الإنسان من العقل والتـفكُّر فـي العواقب ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأخسّ مِن البهائم؛ لأنّها لا قُدرة لها علىٰ تحصيل المعارف والفضائل، وهُم قادرون عليه ومُكلَّفون به، وعاصون له ومُعرضون عنه.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام: «أنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بِلا شَهوة، وركّب في البهائم شَـهوةً بـلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمَن غلَب عقلُه شهوتَه فهُو خيرٌ الملائكة، ومَن غلَبتْ شهوتُه عقلَه فُهو شَرٌّ من البهائم»[٢].

وقيل: لأنّ الأنعام مُطيعة لله، والكافر غير مطيع له[٣].

وقيل: لأنّ الأنعام تعرِف ربَّها وتذكُره، والكافر لا يعرِف ربّه ولا يذكُره[٤].

وقيل: لأنّ الأنعام تعرِف مَنافعها ومَضارّها، فتسعىٰ في تحصيل مَنافعها، وتـحترز عـن مَـضارّها، والكُفّار أكثرهم يعلَمون أنّهم مُعاندون للحقّ، والعِناد يجرُّهم إلىٰ النّار، ومـعَ ذلك يُـصرّون عـليه ويُلقون أنفسهم في النّار والعذاب[٥].

وقيل: إنّ الأنعام تفِرّ إلىٰ ربّها ومَن يقوم بمصالحها أبداً، والكافر يهرُب عن ربّه وإلهه الذي أنعم عليه بنِعَم لا حَدّ لها[٦].

وقيل: لأنّها تَضِلّ إذا لَم يكُن معها مُرشد، فأمّا إذا كان معها مُرشد قلمّا تـضِلّ، وأمّـا الكـفار فـقد جاءهم رَسُولٌ مُرشد واُنزل عليهم الكِتاب، وهُم معَ ذلك يزدادون في الضَّلال[٧].

و﴿أُوْلَئِكَ﴾ المَخلوقون لجهنّم ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عن سُوء عاقبتهم وسُوء عاقبة أعـمالهم، وعـمّا أعدّ الله لأعدائه من العذاب الأليم الدّائم، ولأوليائه من النِّعَم الدّائمة الجِسمانيّة والرُّوحانيّة في الدُّنيا والآخرة، وهُم حُرموا منها، ولو كانوا مُلتفتين إلىٰ ذلك لَما طاب لهم العيش، بَل لَم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٨٠]

---

١. تفسير القمي ١: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.
٢. علل الشرائع: ١/٤، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.
٣ و٤. تفسير الرازي ١٥: ٦٥.
٥ -٧. تفسير الرازي ١٥: ٦٥.

ثمّ لمّا بيّن الله تعالىٰ أنّ الهِداية بتَوفيقه والضّلال بخِذلانه، وأن سبب الضّلال والخِذلان الغَفلة عنه وعن سُوء عاقبة عملهم، أمر نبيّه ﷺ بأن يأمُر العِباد بأن يذكروه في جميع الأحوال والأوقات، وأن يتضرّعوا إليه ويسألوه الهِداية إلىٰ الحقّ وإلىٰ كُلّ خَير بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصّة ﴿ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والصِّفات العُليا.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن الاسم، فقال: «صِفة لموصوف»[١]، وعن القُمّي: قال: الرّحمن الرّحيم[٢].

﴿فَادْعُوهُ﴾ وسمُّوه أو اسألوه ﴿بِهَا﴾ ولا تُسمّوه أو لا تسألوه بغيرها، ولا تذكُروا بها غيره.

عن الرضا عليه السلام: «إذا نزلتْ بكم شِدّةٌ فاستعينوا بنا علىٰ الله، وهُو قول الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾» قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام: نحن والله الأسماء الحُسنىٰ التي لا تُقبل مِن أحدٍ [طاعة] إلّا بمعرفتنا ـ قال: ـ «فادعوه بها»[٣].

﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ﴾ واترُكوا مَن يميلون فيها ويعدِلون بها عمّا هي عليه، بأن يُسمُّوا بها غيره كما سمّىٰ المُشركون أصنامهم آلهة.

وقيل: إنّ المُراد: ذَروا الّذين يصِفون الله بما لا يليق به، ويُسمّونه بما لا يجوز تَسميته به.

في (الكافي): عن الرضا عليه السلام: «أنّ الخالق لا يُوصف إلّا بما وصَف به نفسَه، وأنّى يُوصف [الذي] تعجِز الحَواسّ أن تُدركه، والأوهام أن تَناله، والخَطَرات أن تحُدّه، والأبصار عن الإحاطة به، جلّ عمّا يصِفه الواصفون، وتعالىٰ عمّا ينعَته النّاعتون»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي لا يُسمّىٰ بها غيرهُ، وهي التي وصفها في الكتاب فقال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ﴾ جهلاً بغير عِلم، [فالذي يُلحد في أسمائه بغير علم يُشرك وهو لا يعلم، ويكفرُ به وهو يظُنّ أنه يُحسن، فلذلك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٥]] وهم الذين يُلحِدون في أسمائه بغير عِلمٍ، فيضعُونها في غير موضعها»[٦].

ثمّ هدّد المُشركين المُلحدين بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ العذاب علىٰ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الإلحاد في أسمائه وصِفاته.

---

١. الكافي ١: ٨٨/٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤. ٢. تفسير القمي ١: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٦٦٢/١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٤.
٤. الكافي ١: ٣/١٠٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥. ٥. يوسف: ١٠٦/١٢.
٦. التوحيد: ١/٣٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[١٨١]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الإخبار بخَلق كثيرٍ من الجِنّ والإنس للنّار، أخبر بخَلق جَماعة منهم للجنّة، بقوله: **﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾** وجَماعة خُلقوا للجنّة، وهُم معَ كونهم مُهتدين بأنفسهم **﴿يَهْدُونَ﴾** النّاس ويُرشدونهم إلىٰ كُلّ خيرٍ وسَعادة **﴿بِالْحَقِّ﴾** والبُرهان المتين، أو إلىٰ الحقّ **﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** في أحكامهم بين العِباد.

وفي إعادة هذا الإخبار بعد ذِكره في قوم مُوسىٰ عليه السلام دلالةٌ علىٰ وجُود هذا الصِّنف في أُمّة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله أيضاً.

قال الجبّائي المعتزلي: إنّ الآية تدُلّ علىٰ أنّه لا يخلو زمان ألبَته عمّن يقوم بالحقّ، ويعمل به، ويهدي إليه، وأنّهم لا يجتمعون في شيءٍ من الأزمنة علىٰ الباطل؛ لأنّه لا يخلو أن يكون المُراد زمان وُجود محمّد صلى الله عليه وآله، أو أحد الأزمنة علىٰ الإجمال، أو جميع الأزمنة. أمّا الأوّل فباطل؛ لقطع الخَلق بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وأصحابه كانوا على الحقّ، فلا فائدة في الإخبار به، وأمّا الثاني فباطل أيضاً؛ لقطع النّاس بوُجودهم في زمانٍ من الأزمنة، فتعيّن الثالث وهُو الإخبار بُوجودهم في جميع الأزمنة.

قال الفخر الرّازي: أكثر المُفسّرين علىٰ أن المُراد منه قومُ محمّد صلى الله عليه وآله. وروىٰ قَتادة وابن جُريج عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّها هذه الأمّة». وروىٰ عنه صلى الله عليه وآله قال: «هذه فيهم، وقد أعطىٰ الله قومَ مُوسىٰ مِثلها».

وعن الربيع بن أنس: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية فقال: «إنّ مِن أُمّتي قوماً علىٰ الحقّ حتّىٰ ينزل عيسىٰ بن مريم»[١].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «هُم الأئمّة»[٢].

وفي (المجمع): عن أحدهما عليهما السلام قالا: «نحنُ هُم»[٣].

وعن القُمي: هذه الآية لآل محمّد عليهم السلام وأتباعهم[٤].

والعيّاشي: عن أمير المُؤمنين عليه السلام: «والذي نفسي بيده لتفترقنّ هذه الأُمّة علىٰ ثلاث وسبعين فِرقة كُلّها في النّار إلّا فِرقةً **﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** فهذه التي تنجو من هذه الأُمّة»[٥].

وعن (المجمع): عن النبي صلى الله عليه وآله: «هذه لكم، وقد أُعطي قومُ مُوسىٰ مثلها»[٦].

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٧٢، مجمع البيان ٤: ٧٧٣.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٦٣/١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.
٣. مجمع البيان ٤: ٧٧٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.
٤. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٦٦٥/١٧٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٥.
٦. تقدّم نحوه في تفسير الرازي ١٥: ٧٢، ولم يرد في (مجمع البيان) بهذا اللفظ، لكن ورد في (تفسير الصافي)

أقول: الظّاهر أنّ المُراد من قوله: «هذه لكم» أنّ مِن نِعم الله عليكم أنّه جعل فيكم جَماعةً بهذه الصِّفات، كما أُعطي قومُ مُوسىٰ مِثل هذه النِّعمة مِن أنّه جعل منهم هُداة مَهديّين، وعليه يُحمل قولُه تعالىٰ: **﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** فإنّ الظاهر أنّ المُراد من قوله: **﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** أنّ لهم مَلَكة العدل والهِداية بحيث لا يُمكن تخلّفهم عنهما، ومن المعلوم أنّ جميع الأمّه لا يكونون كذلك، بَل ولا جميع المهاجرين والأنصار، لُوضوح كَثرة العُصاة والجائرين فيهم، فلابُدّ من القول بأن المُراد بعضُهم، وقد أُجمعتْ الأمّة علىٰ أنّ علياً والمعصومين مِن ذُريّته عليهم السلام كانوا علىٰ تِلك الصِّفات، وهُم الباقون إلىٰ نُزول عيسىٰ، ولولا هؤلاء لساختَ الأرضُ بأهلها.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ[١٨٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الإخبار بُوجود أئمّة يهدون إلىٰ الحقّ بآياته، هدّد المُكذّبين بالآيات بقوله: **﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾** مِن أمّة محمّد صلى الله عليه وآله المَرفوع عنهم عذاب الاستئصال ببَركة نبيّهم **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾** ونُقرّبهم إلىٰ الهَلاك مُتدرّجاً بإكثار النِّعَم عليهم، وإغراقهم فِي اللّذّات والشّهوات، وإنسائهم التوبة حتّىٰ يقعوا في العذاب **﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** به ولا يُدركون ما يُراد بهم.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «هُو العبد يُذنب الذّنْب فتُجدّد له النِعمة، تُلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب»[1].

وعنه عليه السلام: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنِقمة ويُذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنِعمة ليُنسيه الاستغفار ويَتمادىٰ بها، وهو قول الله عزّ وجلّ: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ﴾** بالنِّعَم عند المَعاصي»[2].

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ[١٨٣]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ مِن جُملة أنحاء استِدراجهم إطالة أعمارهم بقوله: **﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾** وأمهِلُهم في الدُّنيا بإطالة أعمارهم ليتمادَوا في العِصيان والغَفْلة، ويزدادوا كُفراً وعُتوّاً **﴿إِنَّ كَيْدِي﴾** وأخذي

← منسوباً الى (المجمع)، والذي في (مجمع البيان): «هي لأُمّتي، بالحق يأخذون، وبالحق يعطون، وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩/٧]». مجمع البيان ٤: ٧٧٣، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦.

١. الكافي ٢: ٣/٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦.

٢. الكافي ٢: ١/٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٦.

العُصاة خُفيةً وغَفلةً منهم ﴿مَتِينٌ﴾ قويّ بحيث لا يقدِرون علىٰ دفعه.

أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ[١٨٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد ذمّ الكُفّار بغاية الغَفلة وعدَم الشُّعور، وبّخهم علىٰ ترك التفكُّر في كَمال عقل النبيّ ﷺ الذي هُو كالشمس في رائعة[١] النّهار؛ بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ قيل: إنّ التّقدير: أكذّبوا ولَم يتفكّروا في البراهين العقلية التي يُقيمها محمّد ﷺ علىٰ صِحّة دَعواه، والعُلوم التي تظهر منه ببَيانٍ يعجِز عن مِثله مَهَرة الفَصاحة والبَلاغة، ومُعجزاته القاهرة، وحُسن خُلقه، وطِيب عِشرته، ونقاوة سِيرته، ومَتانة آرائه، وغاية أمانته، حتّىٰ يعلَموا أنّه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ ونبيّهم الذي نشأ فيهم، شيءٌ وشائبةٌ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ واختِلال عَقل، لامتناع أن يكون المُتّصف بتِلك الصِّفات ناقص العقل فضلاً عن فاقده، بَل هُو قُدوةُ عُقلاء العالَم.

قيل: إنّ كُفّار قُريش لمّا رأوا النبيّ ﷺ مُعرضاً عن الدُّنيا، مُقبلاً إلىٰ الآخرة، مُبالغاً في الدّعوة إلىٰ التّوحيد، مُتغيّراً لونه عندَ نُزول الوَحي عليه، نسَبوه إلىٰ الجُنون، فردّهم الله بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لكم ولأهل العالَم، ومِن شأنه أن يكون بتِلك الصِّفات ﴿مُبِينٌ﴾ ومُبالغ في الإنذار، مُظهرٌ له غايةَ الإظهار.

رُوي أنّه ﷺ كان كثيراً ما يُحذّر قريشاً عُقوبةَ الله ووقائعه النّازلة في الأُمَم الماضية، فقام ليلاً علىٰ الصّفا وجعل يدعُوهم إلىٰ عِبادة الله تعالىٰ قبيلةً قبيلة: يا بني فُلان، يا بني فُلان، إلىٰ الصّباح، يُحذّرهم بأسَ الله، فقال قائلُهم: إنّ صاحبَكم هذا ـ يعني محمّداً ـ لمجنون، بات يُهوّت[٢] إلىٰ الصّباح[٣].

أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ[١٨٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تَوبيخهم علىٰ عدم التفكُّر في حال النبيّ ﷺ حتّىٰ يعلَموا صِدقه، وبّخهم علىٰ ترك النّظر والتأمُّل في شَواهد التّوحيد بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا﴾ قيل: إنّ التّقدير: أكذبوا محمّداً ﷺ في دَعوته إلىٰ التّوحيد، ولَم ينظُروا بنظَر الاعتبار ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولَم يتأمّلوا في مَمْلكة الله الوَسيعة، وآثار قُدرته وحِكمته ووَحدانيّته الظّاهرة فيها، ﴿وَ﴾ في ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وموجودٍ حقيرٍ أو جليل، صغيرٍ أو عظيم، حتّىٰ يطّلعوا علىٰ غاية عَظَمته وقُدرته وتَوحيده.

---

١. في النسخة: رابعة. ٢. هوّت به: صاح. ٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٨٩.

ثمّ أنّه حذّرهم الله من العُقوبة علىٰ تَرك النّظر بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ قيل: إنّ المعنىٰ: ألم ينظُروا في أنّه يُحتمل أن يكون موتُهم قريباً؛ فيموتون علىٰ الضّلال ويُبتلَون بالعذاب، فإنّ العَقل عند ذلك حاكمٌ بوُجوب المُسارعة في النّظر وتحقيق الحقّ، كي يأمنوا من العذاب قبل مَوتهم.

فإذا لَم يكتفوا في تحقيق الحقّ بالقُرآن، ولَم يُؤمنوا به معَ اشتماله علىٰ البَراهين المُتقنة علىٰ التّوحيد والرِّسالة والمَعاد، معَ إعجاز البيان ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وكلامٍ أو كِتابٍ ﴿بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أنّه لا يُمكن أن يكون حديثٌ أبين للحقّ وأحسن منه، فإذا لَم يُؤمنوا به فلا يُرجىٰ مِنهم الإيمان أبداً.

مَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[١٨٦]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه أنّ الذين لا يُؤمنون بالقُرآن لا يُؤمنون بغيره مِن الكُتب السّماويّة، بيّن غاية ضَلالتهم بقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللهُ﴾ عن سبيل الحقّ، ويحرّفه عنها إلىٰ الباطل بسَلْب تَوفيقه عنه، وإيكاله إلىٰ نفسه ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ من الأنبياء والرُّسُل، لعدم تأثير المَواعظ والكُتب السماويّة في هِدايته ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ ويترُكهم ﴿فِي﴾ حال ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ ومُشاقّتهم معَ الله والرّسُول وهُم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتجبّرون في جميع شؤونهم، لا يصِلُون إلىٰ خيرٍ أبداً.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَاتأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ[١٨٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بيان عدَم عِلمهم بوقت المَوت لإيجاب المُسارعة في تحصيل الدِّين الحقّ؛ لئلا يُدركهم الموتُ وهُم علىٰ الباطل، بيّن جَهل جميع الخَلق أيضاً بوقت قيام الساعة، واختِصاص العِلم به بذاته المُقدّسة بقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ والقِيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وأيَ وقتٍ يكونُ إتيانُها واستِقرارُها؟

عن ابن عبّاس: أنّ قوماً من اليَهود قالوا: يا محمّد، أخبِرنا متىٰ السّاعة إن كُنتَ نبيّاً، فإنّا نعلمُ متىٰ هي؟ وكان ذلك امتحاناً منهم مع عِلمهم بأنّه تعالىٰ استأثر بعِلمها، فنزلت[1].

وقيل: إنّ قُريشاً قالوا: يا محمّد، إنّ بيننا وبينك قَرابة، فاذكُر لنا متىٰ السّاعة؟ فنزلت[2].

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٨٠.
٢. تفسير الرازي ١٥: ٨٠.

وعن القُمّي: أنّ قُريشاً بعثتْ العاص بن وائل السّهمي، والنَضر بن الحارث بن كَلَدة، وعُقبة بن أبي مُعيط إلىٰ نَجران، ليتعلّموا مِن عُلماء اليَهود مَسائل يسألونها رَسُولَ الله ﷺ، وكان فيها: سَلُوا محمّداً متىٰ تقومُ الساعة، فإن ادّعىٰ عِلم ذلك فهُو كاذب، فإنّ قِيام السّاعة لَم يُطلِع الله عليه مَلَكاً مُقرَباً ولا نبيّاً مُرسلاً، فلمّا سألوه نزلت[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به، لَم يُطلِع عليه أحداً مِن خَلقه وإن كان مَلَكاً مُقرَباً أو نبيّاً مُرسلاً ﴿لا يُجَلِّيهَا﴾ ولا يُظهرها ﴿لِوَقْتِهَا﴾ وفي زمانها أحدٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالىٰ شأنُه، وإنّما يعلَمُها غيرُه تعالىٰ حينَ وُقوعها، فإذا وقعتْ ﴿ثَقُلَتْ﴾ وعظُمتْ ﴿فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ أهلهما مِن الملائكة والجِنّ والإنس، لشِدّة أهوالها، وعِظَم ما فيها مِن الشدائد.

وقيل: لأنّ فيها فناءهم وهلاكَهم. وقيل: ثقيلٌ علىٰ قُلوبهم لأنّهم يعلَمون أنّهم يصِيرون فيها إلىٰ البَعث والحِساب والسُّؤال[2].

وقيل: ثقُلتْ وقعتُها علىٰ السّماوات؛ لأنّ عندها تشقّقتْ السّماوات، وتكوّرتْ الشّمس والقَمر، وانتثرتْ النُّجوم، وثقُلتْ علىٰ الأرض؛ لأنّ فيها تُبدّل الأرض غير الأرض، وتَبطُل الجِبال والبِحار[3].

وقيل: يعني خَفِيتْ في السّماوات والأرض؛ أي لا يعلَم أحدٌ من الملائكة الأقربين والأنبياء المرسلين متىٰ يكونُ وقوعُها[4].

ثمّ أنه أكّد سُبحانه خَفاءها علىٰ غيره بقوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ أيُّها النّاس ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ وفَجاةً وعلىٰ حينِ غَفلة.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ السّاعة تَفْجَأ النّاس، فالرّجُل يُصلح موضعه، والرّجُل يسقي ماشيَته، والرّجُل يقوم بسِلعته في سوقه، والرّجُل يخفِض ميزانه ويرفَعه»[5].

وعنه ﷺ: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لتَقومَنّ السّاعةُ وإنّ الرّجُل ليرفع اللُّقمة إلىٰ فيه حتىٰ تحول السّاعةُ بينه وبين ذلك»[6].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة سُؤالهم بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عن السّاعة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ ومُبالغ في السؤال ﴿عَنْهَا﴾ شديد الطلَب لمَعرفتها حتّىٰ علِمْتَها، أو كأنّك بارٌّ لطيف بهم بحيث لا تمنعهم من عِلمها.

ثمّ بالغ تعالىٰ في جَهل غيره بها بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لَم يُعلِم بها أحداً من خَلقه

---

١. تفسير القمي ١: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٢٥٨.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ١٥: ٨١.
٥ و٦. تفسير الرازي ١٥: ٨١.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اختِصاص عِلمها، أو سبب اختصاص عِلمها به.

قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[١٨٨]

ثمّ لمّا كان النّاس يطلّبون منه الإخبار بالمُغيّبات وإعطاءهم الأموال الكثيرة والدّولة العظيمة، أمره الله بإظهار قُصور قُدرته الذاتيّة، وعدَم عِلمه بالمُغيّبات إلّا بإعلام الله، بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد لهم: ﴿لَّا أَمْلِكُ﴾ ولا أقدِر ﴿لِنَفْسِى﴾ علىٰ أن أجلّب ﴿نَفْعاً﴾ من المنافع الدُّنيويّة والأُخرويّة ﴿وَلَا﴾ علىٰ أن أدفَع ﴿ضَرّاً﴾ وشرّاً من المَضارّ والشُّرور ﴿إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه منهما، ولا عِلم لي بشيءٍ منهما إلّا بإعلامه تعالىٰ.

قيل: إنّ المراد: ولكن ما شاءَ الله منهما كائنٌ.

فمَن كان بهذه الدّرجة من العَجز والجَهل الذاتّيين، كيف يعلَم وقتَ قِيام السّاعة؟ وكيف يقدر علىٰ إخباركم به مِن قِبَل نفسه؟

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ ولازدَدْتُ في قُوتي ومالي وصِحَتي القُمّي: كنتُ أختار لنفسي الصِحّة والسّلامة[١] ﴿وَمَا مَسَّنِىَ﴾ وما أصابني ﴿ٱلسُّوءُ﴾ من الفَقر ـ كما عن الصادق عليه السلام[٢] ـ أو المَكاره من العَدُوّ والفَقر والمرض وغيرها، بل ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾ عبدٌ أرسلني الله إليكم؛ والرّسول ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُحذّر من الكُفر ومُخالفة أحكام الله ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بثَواب الله ورَحمته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبرِسالتي، فإنّهم المنتفعون بمَواعظي.

ومِن شأن النّذير والبَشير العِلم بأحكام الله وما يُرضيه ويُسخطه، وما يترتّب علىٰ طاعته ومُخالفته، لا العِلم بالمُغيّبات التي لا نفع فيها.

رُوي أنّ أهل مكّة قالوا: يا محمّد، ألا يُخبرك ربُّك بالرُّخص والغلاء حتى نشري فنربح، وبالأرض التي تُجدِب لنرتحل إلىٰ الأرض الخِصْبة، فنزلت[٣].

وقيل: لمّا رجَع رَسُول الله صلى الله عليه وآله مِن غَزوة بني المُصطلق، جاءت ريحٌ في الطريق فتفرق[٤] الدَوابّ منها، فأخبَر النبيّ صلى الله عليه وآله بمَوت رِفاعة في المدينة، وكان فيه غيظٌ للمنافقين، ثمّ قال: انظُروا أين ناقتي؟

---

١. تفسير القمي ١: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٥٨.
٢. معاني الأخبار: ١/١٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٥٨.
٣. تفسير الرازي ١٥: ٨٣.
٤. في تفسير الرازي: ففرت.

فقال عبدالله بن أُبيّ مع قومه: ألا تعجبون من هذا الرّجُل، يُخبر بموت رَجل بالمدينة ولا يعرِف أين ناقته؟! فقال ﷺ: «إنّ ناساً من المُنافقين قالوا كَيْت وكَيْت، وناقتي في هذا الشِّعب قد تعلّق زِمامُها بشجرة»، فوجدوها على ما قال[1].

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَعَوَا ٱللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[١٨٩ و ١٩٠]

ثمّ أنّه ﷺ بعد ادِّعاء الرِّسالة دعا النّاس إلىٰ التّوحيد بالبُرهان القاطع بقوله: ﴿**هُوَ**﴾ الإله القادر ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَكُم**﴾ جميعاً بقُدرته ﴿**مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ وهُو آدم ﴿**وَجَعَلَ**﴾ وأنشأ من ضِلع ﴿**مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ حَوّاء ﴿**لِيَسْكُنَ**﴾ آدم ويطمئنّ ﴿**إِلَيْهَا**﴾ اطْمِئناناً مُصحِّحاً للازْدِواج، ويستأنس بها ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾ وجامعها ﴿**حَمَلَتْ**﴾ وحَبِلت[2] في البَدء ﴿**حَمْلاً خَفِيفاً**﴾ بحيث لم تكترِثْ به ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾ وتحرّكت بالقِيام والقُعود، والذَّهاب والإياب، بسُهولةٍ وراحة كما كانت قبله، [كما] قيل[3].

﴿**فَلَمَّا أَثْقَلَت**﴾ حوّاء لكِبْر الجَنين في بطنها، استوحشتْ حواء واستوحشَ آدم من مآل الحَمل الذي لَم يَعهداه، فلِذا ﴿**دَعَوَا ٱللهَ رَبَّهُمَا**﴾ وتضرّعا إليه وقالا: يا ربّ، وعِزّتك ﴿**لَئِنْ آتَيْتَنَا**﴾ وأعطيتنا ولداً ﴿**صَالِحاً**﴾ سَوياً في الخِلقة، أو في أمر الدِّين، أو فيهما ﴿**لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ**﴾ لك هذه النِّعمة الجليلة الجديدة.

قيل: لمّا رأىٰ آدم حينَ أخذ المِيثاق علىٰ ذُرّيته أنّ منهم سَوِيّ الأعطاء ومنهم غير سَوِيّ، وأنّ منهم التّقِيّ ومنهم غير التّقيّ، سألا أن يكون هذا الولد سَوِيّ الأعضاء تقيّاً نقيّاً من المعَصية ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

عن ابن عبّاس قال: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ وهي نفس آدم، ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ أي حَوّاء خلقها [الله] من ضِلع آدم من غير أذىً، ﴿**فلمّا تغشّاها**﴾ آدم ﴿**حملتْ حَملاً خفيفاً... فَلَمَّا أَثْقَلَت**﴾ أي ثقل الولد في بطنها، أتاها إبليس في صُورة رَجل وقال: ما هذا يا حَوّاء؟ إنّي أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة، وما يُدريكِ من أين يخرُج، أمن دُبُركِ فيقتُلكِ، أو تنشقّ بطنُكِ؟ فخافت حوّاء

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٨٣.
٢. في النسخة: وأحبلت.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٤.

وذكرتْ لآدم ذلك، فلم يزالا في هَمٍّ من ذلك. ثمّ أتاها وقال: إن سألتِ الله أن يجعله صالحاً سَوِيّاً مِثلك ويُسهّل خُروجه من بطنكِ تُسمّيه عبد الحارث؛ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي لمّا آتاهما الله ولداً سَوِيّاً صالحاً جعلا له شركاء، أي جعل آدم وحوّاء له شريكاً، والمراد به الحارث[١].

أقول: فيه ما لا يخفىٰ من الإشكال.

وقيل: إن ضمير (جعلا) راجع إلىٰ صِنفين مِن أولاد آدم وحوّاء؛ الذُّكور والإناث، وكذا ضمير التّثنية في قوله: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾[٢].

وعن الرضا عليه السلام أنّه قال له المأمون: يا بن رَسُول الله، أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلىٰ»، قال: فما معنىٰ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾؟

فقال الرضا عليه السلام: «إنّ حوّاء ولَدتْ لآدم خمسمائة بَطْن، في كُلّ بَطن ذَكَر وأُنثىٰ، وإنّ آدم وحوّاء عاهدا الله تعالىٰ ودعَواه وقالا: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ من النَّسل خَلقاً سوِياً بريئاً من الزَّمانة والعاهة، كان ما آتاهما صِنفين [صنفاً ذكراناً، و] صنفاً إناثاً، فجَعل الصِّنفان لله شركاء فيما آتاهما، ولَم يشكُراه كشُكر أبويهما له عزّ وجلّ، قال الله عزّ وجلّ: «فتعال الله عمّا يُشركون». فقال المأمون: أشهد أنّك ابنُ رَسُول الله[٣].

وقيل: إنّ الآية ردٌّ علىٰ المشركين القائلين بأنّ آدم كان يعبُد الأصنام ويرجِع في الخَير والشّر إليهما[٤]. وقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ في معنىٰ الاستِفهام الإنكاري، والمُراد: ما جعلا له شركاء[٥]، وقوله: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالىٰ الله عن شِرك هؤلاء المشركين القائلين بالشِّرك، وينسُبونه إلىٰ آدم عليه السلام[٦].

وقيل: إنّ آدم وحوّاء جعلا علىٰ أنفسهما إن آتاهما الله صالحاً أن يجعلاه وَقْفاً علىٰ خِدمة الله وطاعته وعُبوديّته علىٰ الإطلاق، ثمّ بدا لهما في ذلك فتارةً كانوا ينتفعون به في مَصالح الدُّنيا ومَنافعها، وتارةً كانوا يأمرونه بخِدمة الله وطاعته[٧]، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

عن الباقر عليه السلام: «هُما آدم وحوّاء، وإنّما كان شِركهما شِرك طاعة وليس شِرك عِباده»[٨].

وقيل: إنّ الله تعالىٰ ذكر هذه القِصّة علىٰ طَريق ضرب المَثل، وتقريره كأنّه تعالىٰ يقول: هُو الذي

---

١. تفسر الرازي ١٥: ٨٥. ٢. راجع: تفسير الرازي ١٥: ٨٨.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٢٥٩. ٤. تفسير الرازي ١٥: ٨٧.
٥. في تفسير الرازي: التقدير: فلمّا آتاهما صالحاً أجعلا له شركاء. ٦. تفسير الرازي ١٥: ٨٧.
٧. تفسير الرازي ١٥: ٨٨. ٨. تفسير العياشي ٢: ١٦٦٨/١٧٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥٩.

خلق كُلّ واحدٍ منكم من نفسٍ واحدة، وجعل مِن جِنسها زَوجها إنساناً يُساويها في الإنسانيّة، فلمّا تغشّىٰ الزّوج زوجتَه وظهر الحَمل دعا الزّوجُ والزّوجة ربَّهما: لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوِيّاً لنكونَنّ من الشّاكرين لآلائك ونَعمائك، فلمّا آتاهما الله ولداً صالحاً سوِياً، جعل الزوج والزّوجة لله شُركاء فيما آتاهما، فتارةً ينسُبون هذا الولد إلىٰ الطّبائع كقول الطبائعيّين، وتارةً إلىٰ الكواكب كما هو قول المُنجّمين، وتارةً إلىٰ الأصنام كما هو قول عَبَدة الأصنام، ثمّ قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه الله عن ذلك الشِّرك[1].

وقيل: إن المُراد من النفس الواحدة وزوجها غيرُ آدم وحوّاء، بَل المُراد منها قُصَيّ، والخطاب لقُريش الذين كانوا في عهد رَسُول الله ﷺ، وجعل مِن جِنسها زوجها قرشية ليسكُن إليها، فلمّا آتاهما ما طَلَبا من الولد الصّالح السّوِيّ جعلا له شُركاء فيما آتاهما، حيث سَمّيا أولادهما الأربعة بعبد مَناف وعبد العُزّىٰ وعبد قُصي وعبد اللّات، وجعل الضمير في (يشركون) لهما ولأعقابهما الذين اقتدَوا بهما في الشِّرك[2].

وفيه: أنّ آباء النبيّ ﷺ كُلُّهم كانوا مُوحّدين.

أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ[١٩١]

ثمّ وبّخ الله المُشركين علىٰ عِبادة الجَماد العاجز من كُلّ شيء بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ هؤلاء الجُهّال بالله في الأُلوهيّة والعِبادة ﴿مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ من الأشياء ولَو كان في غاية القِلّة والحَقارة، مع أنّ المُستحقّ للعِبادة لابُدّ أن يكون خالقَ عابدِه.

ثمّ أكّد عدَم اسْتِحقاق الأصنام للعِبادة بقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بقُدرة الغير، والمَخلوقيّة في غاية المُباينة مع الأُلوهيّة واسْتِحقاق العِبادة.

قيل: إن إتيان الضمير الراجع إلىٰ العقلاء للأصنام إنّما هُو باعْتِقاد المشركين، فإنهم كانوا يُصوّرونها بصُورة العُقلاء ويزعُمون أنّها تُدرك وتشعُر.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ[١٩٢ و ١٩٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد سَلب القُدرة علىٰ الخَلق عنها، نفىٰ عنها القُدرة علىٰ إيصال النّفع لعَبَدتها بقوله:

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٨٧.
٢. تفسير الرازي ١٥: ٨٧.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إذا طرأ على عَبَدتها أمرٌ مُهمٌ ﴿لَهُمْ﴾ جَزاءً لِعبادتها ﴿نَصْراً﴾ وإعانةً بجَلب نَفع أو دفع ضَرَر، بَل ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ﴾ إذا أصابهم سُوءٌ ﴿يَنصُرُونَ﴾ بدفع ما يعتريها من السُّوء، كما إذا أراد أحدٌ كسرها أو لَطخها بالألواث.

قيل: إنّ المشركين كانوا يُلطّخون أفواه أصنامهم بالخَلُوق[1] والعسل، [وكان] يجتمع عليها الذُّباب، فلا تقدِر على دفع الذُّباب عن أنفسها[2].

ثمّ بالغ سُبحانه في سَلب أهليّة الأصنام للعِبادة بسَلب الحياة والشُّعور منها، وأهليّتها لكونها تابعة لعَبَدتها فيما هو صلاحها، بقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيُّها المشركون ﴿إِلَى﴾ شيءٍ من ﴿الْهُدَى﴾ والصواب ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ ولا يُوافقوكم في مُرادكم لعدَم حَياتهم وشُعورهم وعِلمهم بدعَوتكم.

ثمّ أكّد سُبحانه ذلك بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا تفاوُت في حقّكم ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى إنجاح حَوائجكم، أو إلى ما فيه صَلاحكم وخيركم ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ وساكتون عن دَعوتها.

قيل: إنّ المشركين كانوا إذا وقعوا في أمرٍ مُهمّ ومُعضِل تضرّعوا إلى الأصنام، فإذا لَم يحدُث منها في تلك الواقعة شيءٌ بقُوا ساكتين، فقيل لهم: لا فرق بين دُعائكم وبين أن تستمرّوا في صَمْتكم[3].

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٩٤]

ثمّ بالغ سُبحانه في بَيان عدم صلاحية الأصنام للعِبادة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبُدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وممّا سِواه، على فَرض حَياتهم وشُعوهم كما تعتقدون ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ مملوكون مُسخَرون تحت قُدرة خالقهم، والحالُ أنّها جَمادات لا شُعور لها ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ إلى كشف مَضارّكم وقضاء حوائجكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ دُعاءكم، ويقضوا ﴿لَكُمْ﴾ حَوائجكم، ويكشِفوا عنكم مَضارّكم، ويدفعوا عنكم الشّدائد والبَلايا ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعُون من كَونهم أحياء شاعرين قادرين، فإن ثبت كونُها فاقدات للحَياة والشُّعور، عاجزات عن إيصال النّفع، فلا يجوز بحُكم العقل عِبادتُها والالتِفات إليها.

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ

---

١. الخَلُوق: ضربٌ من الطِّيب أعظم أجزائه الزَّعفران. ٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٥.
٣. تفسير الرازي ١٥: ٩١.

ٱللهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ[١٩٥ و١٩٦]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أن الأصنام أدون من الإنسان، بل من سائر الحيوانات، ولا يجوز عِبادةُ الأشرف للأدون، بقوله تقريراً لهم: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا**﴾ كما أنها لكم، بَل لسائر الحيوانات ﴿**أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ**﴾ ويعمَلون أو يأخذون ﴿**بِهَا**﴾ ما يُريدون عمله أو أخذه، كما أنّ لكم أيدياً كذلك ﴿**أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ**﴾ المُبصرات ﴿**بِهَا**﴾ كما أنّ للحيوانات أعيُناً كذلك ﴿**أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ**﴾ الأصوات ﴿**بِهَا**﴾ كما أنّ للحيوانات آذاناً كذلك، فإذا لَم يكُن للأصنام هذه الجَوارح الحيّة الفاعلة التي تكون لكم بَل لسائر الحيوانات، فأنتُم بل سائر الحيوانات أفضل وأشرف منها، ولا يجوز عِبادة الأفضل والأشرف للمفضول والأوضع.

ثمّ لمّا كان المشركون يُخوّفون النبي ﷺ بآلهتهم، أمره بأن يُعلن بعدم قابليّتها لأن يخاف منها بقوله: ﴿**قُلِ**﴾ يا محمّد، للمشركين: ﴿**ٱدْعُوا**﴾ الأصنام التي تعتقدون أنها ﴿**شُرَكَاءَكُمْ**﴾ في أموالكم، وأنها أندادٌ لله في الألوهيّة ليُعينوكم علىٰ الإضرار بي ﴿**ثُمَّ**﴾ أنتم وشركاؤكم ﴿**كِيدُونِ**﴾ واسعَوا فيما تقدرون عليه مِن الإساءة إليّ ﴿**فَلَا تُنظِرُونِ**﴾ ولا تُمهلوني ساعة فإنّي لا اُبالي بكم.

﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ**﴾ وناصري عليكم، وحافظي مِن كُلّ سُوء هُو ﴿**ٱللهُ**﴾ الواحد القادر القاهر حيثُ إنّه ﴿**ٱلَّذِي**﴾ أكرمني بأن ﴿**نَزَّلَ**﴾ عليّ ﴿**ٱلْكِتَابَ**﴾ العزيز، وأوحىٰ إليّ القُرآن المجيد ﴿**وَهُوَ**﴾ بلُطفه ﴿**يَتَوَلَّى**﴾ وينصُر ﴿**ٱلصَّالِحِينَ**﴾ من عِباده علىٰ أعدائهم فضلاً عن أنبيائه، فكيف يخذُلني بينكم؟

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[١٩٧و١٩٨]

ثمّ بالغ في إظهار عدم المُبالاة بأصنامهم بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ**﴾ وتعبُدونهم ممّا سِوىٰ الله و﴿**مِن دُونِهِ**﴾ أيّها المُشركون بالغون من العَجز إلىٰ الغاية، حيثُ إنّهم ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ**﴾ علىٰ أحدٍ، ولا يقدِرون علىٰ إعانتكم في أمر، بل ﴿**وَ أَنْفُسَهُمْ**﴾ إن تأتيهم نائبةٌ ﴿**يَنصُرُونَ**﴾ بدفعها.

ثمّ أنّه تعالى بعد نَفي الحَواسّ والقُوىٰ عن الأصنام، نفاهما عن جميع المشركين لتأمين النبيّ ﷺ والمُؤمنين عن إساءتهم إليهم بقوله: ﴿**وَإِن تَدْعُوهُمْ**﴾ أيّها الرّسُول والمُؤمنون ﴿**إِلَى ٱلْهُدَىٰ**﴾ وما فيه خيرُهم مِن الإقرار بدِين الحقّ لا يهتدوا، كأنّهم ﴿**لَا يَسْمَعُوا**﴾ دُعاءكم فضلاً عن أن يكيدوا بكم ويتعاونوا علىٰ الإضرار عليكم ﴿**وَتَرَاهُمْ**﴾ يا محمّد أنّهم ﴿**يَنظُرُونَ**﴾ بأعينهم ﴿**إِلَيْكَ وَهُمْ**﴾ عُميٌ

قُلوبهم، ولعدم[١] انتفاعهم بُرؤية أبصارهم كأنّهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقيل: إنّ ضمائر الجمع كُلّها راجعة إلىٰ الأصنام، والمُراد المُبالغة في عَجزها وعدم اسْتِفادة المشركين بالاسْتِعانة منها في الإساءة إلىٰ النبيّ ﷺ، والمعنىٰ: إن تدعوا أيّها المُشركون أصنامكم إلىٰ أن يهدوكم إلىٰ إمدادكم في تحصيل مَقاصدكم لا يسمعوا دُعاءكم، وترىٰ أيّها الرّائي وتتخيّل أنّ الأصنام ينظُرون إليك ـ لِما أنّ المشركين صنعوا لها أعيُناً مُركّبة من الجواهر المُضيئة المُتَلألِئة، وصوّروها بصُورةِ مَن قَلّبَ حَدَقَته إلىٰ الشيء ينظُر إليه ـ والحالُ أنّهم لا يُبصرون، فلا سَمْعَ لهم ولا بَصَر.

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ[١٩٩]

ثمّ لمّا أمّن الله نبيّه ﷺ مِن كيد المشركين معَ كَونهم مُهدِّدين له ومُسيئين إليه، أمره الله بالعَفو عنهم والمُداراة معهم بقوله: ﴿خُذِ ٱلعَفْوَ﴾ عمّن أساء إليك، ولا تُجاوِزه بالسُّوء، ولا تُغلِظ عليه، وعاشر بحُسن الخُلُق، والتزم به.

روي عن النبيّ ﷺ [أنّه] سأل جَبرئيل: «ما الأخذ بالعفو؟» فقال: لا أدري حتّىٰ أسأل، ثمّ رجَع فقال: يامحمّد، إنّ ربّك أمرك أن تُعطيَ مَن حرَمك، وتصِلَ مَن قطَعك، وتعفُوَ عمّن ظلمَك، وتُحسِنَ إلى مَن أساء إليك[٢].

وقيل: إنّ المُراد: اقبَلْ مِن أفعال النّاس ما سهُل عليهم، ومن أموالهم ما تيسّر لهم، ولا تحمِل عليهم الكُلْفة، ولا تطلُب منهم مايشُقّ عليهم[٣].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لرَجلٍ من ثَقيف: «إيّاك أن تضرِب مُسلماً أو يَهوديّاً أو نَصرانيّاً في دِرْهَم خَراجٍ، أو تبيع دابّة عملٍ في دِرْهَم، فإنّا اُمرنا أن نأخُذ منه العَفْوَ»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله أدّب رَسُوله بذلك، أي خُذ منهم ما ظهر وتيسّر». قال: «والعَفو: الوسط»[٥].

﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمّد اُمّتك ﴿بِالعُرْفِ﴾ وبالجميل من الأفعال، والحميد مِن الأخلاق. ويدخُل فيه غَضُّ البصر عن المَحارم، وكَفُّ الجَوارح عن المآثم، والقِيام بالواجبات والمُستحبّات ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ﴾ سيّئات ﴿ٱلجَاهِلِينَ﴾ والسُّفهاء، ولا تُمارِهم ولا تُكافِئهم بمِثل سَفَهِهم.

عن الرضا عليه السلام: «أنّ الله أمر نبيّه ﷺ بمُداراة النّاس فقال: ﴿خُذِ ٱلعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

---

١. في النسخة: وعدم. ٢. تفسير الرازي ١٥: ٩٦، تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨. ٣. تفسير الصافي ٢: ٢٦٠.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٤/١٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٦٦٩/١٧٨، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.

ٱلْجَاهِلِينَ﴾»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله بمَكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمَكارم الأخلاق منها»[٢].

وعن سعيد بن هِشام قال: دخلتُ على عائشة فسألتُها عن أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، فقالت: [كان] خُلق رَسُول الله القُرآن، وإنّما أدّبه بالقُرآن بمِثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾[٤].

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٢٠٠]

ثمّ أنه رُوي أنه لمّا نزلت الآية[٥]، قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «كيف يا رَبّ والغضب»؟ فنزل ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾[٦] ويبعثنّك إلى الشرّ ﴿مِنَ﴾ قِبَل ﴿ٱلشَّيْطَانِ﴾ وبوَسْوسَته ﴿نَزْغٌ﴾ وباعثٌ، ويُهيّجكَ سَفية بإظهار سَفَهه ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ والتجئ ﴿بِٱللهِ﴾ من شرّ الشّيطان ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمَع اسْتِعاذتك والْتِجاءك به ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم حالك وما فيه صَلاحك. وهذا مِن باب إيّاكِ أعني واسْمعي يا جارة، حيثُ إنّ الخِطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله والمقصود أُمّته.

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله رأىٰ رَجُلاً يُخاصم أخاه قد أحمَرّ وجهُه وانتفختْ أوداجُه من الغضب، فقال صلى الله عليه وآله: «إنّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجِد، لَو قال: أعوذُ بالله مِن الشّيطان، لذهب عنه ما يجِد»[٧].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ[٢٠١ و٢٠٢]

ثمّ بيّن الله حال عِباده المُتّقين ترغيباً لغيرهم إلى الاسْتِعاذة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ الله وخافوا عِقابه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ وأصابهم ﴿طَائِفٌ﴾ ونازلةٌ خفيفة ﴿مِنَ﴾ وَسْوَسة ﴿ٱلشَّيْطَانِ﴾ واقتربوا من الوُقوع في الشرّ والعِصيان ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وأشعروا قُلوبهم عَظَمة الله وشِدّة عِقابه، أو الاسْتِعاذة به والتوكُّل عليه ﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب هذا التذكُّر ﴿مُبْصِرُونَ﴾ مَكائد الشّيطان، وطريق السّلامة من شرّه

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٥٦/٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.
٢. جوامع الجامع: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦١.
٣. لقمان: ١٧/٣١.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨، والآية من سورة المائدة: ١٣/٥.
٥. أي الآية المتقدمة.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٨.
٧. تفسير روح البيان ٣: ٢٩٩.

فيسلُكونه.

القُمّي: إذا ذكّرهم الشّيطان المعاصيَ وحمَلهم عليها يذكُرون اسمَ الله، فإذا هُم مُبصرون[١].

وعن الصادق عليه السلام: «هُو العبد يهِمُّ بالذّنب، ثمّ يتذكّر فيُمسك»[٢].

ويُمكن أن [يكون] المُراد من الطّائف جمعاً من الشياطين يطُوفون حوله ويُوسوِسُون في قلبه، ففيه مدَحهم بقوة العقل بحيث لا يقدِر علىٰ مسّهم، والشيطان واحد.

وأمّا أتباع الشّياطين ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ مِن الإنس؛ وهُم الّذِين لا يتّقون، يُعينون الشّياطين، و﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ وإضلال النّاس، وإيقاعهم في المعاصي بالتّزيين والتّرغيب إليها، أو المُراد أنّ الشّياطين يمُدُّون إخوانهم وأتباعهم مِن الإنس في الغَيّ والضَلال ﴿ثُمَّ﴾ الشّياطين وإخوانهم ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ ولا يسأمون مِن عملهم، بَل يجِدّون في الغَيّ غايتَه.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّى هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٢٠٣]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه سعي الشّياطين وأتباعهم من الإنس في الغَيّ والإضلال ذكر نوعاً مِن إضلالهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من القُرآن أو ممّا اقترحوها عليك وسألوها تعنُّتاً عنك، ولَم تُجبهم إلىٰ ما سألوا ﴿قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ وهلّا فعلتَها بنفسك أو باقْتِراحك علىٰ ربّك إن كُنتَ صادقاً في دَعوىٰ نُبوّتك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يامحمّد: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّى﴾ ولا أقترح عليه أمراً من الأمور، ولا أسأله شيئاً إلّا بإذنه، ولا أقدم علىٰ عملٍ إلّا بإجازته، فإن كان غرضُكم من سُؤال المُعجزة ثُبوت نُبوّتي فإنّه يكفيكم ﴿هَٰذَا﴾ القُرآن الذي هُو أعظم المعاجز، حيث يكون فيه ﴿بَصَائِرُ﴾ وأدلّة واضحة علىٰ صِدقي، نازلة إليكم ﴿مِن رَبِّكُمْ وَ﴾ يكون لكم ﴿هُدًىٰ﴾ ورَشاداً إلىٰ كُلّ حقّ وخير ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وتفضُّل عليكم منه، ولكن يكون نَفْعُه المُهمَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به؛ لأنّهم المُتدبّرون فيه، المُستفيدون منه العُلوم والمَعارف والسّعادة الأبدية، وما فيه صلاح دُنياهم وعُقباهم.

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[٢٠٤]

ثمّ أنه تعالى بعد بَيان إعجاز القُرآن ومَنافعه، أمر بالاستماع والإنصات له حينَ تِلاوته بقوله: ﴿وَإِذَا

---

١. تفسير القمي ١: ٢٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٧١/١٧٨، الكافي ٢: ٧/٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.

﴿قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ﴾ بمَسمعٍ منكم **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** بآذانكم وقُلوبكم **﴿وَأَنْصِتُوا﴾** له حين قِراءته، ولا تتكلّموا بشيءٍ تعظيماً له وتكميلاً للسَّماع **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** تفوزون بأعظم فوائده ومَنافعه و**﴿تُرْحَمُونَ﴾** بالرّحمة الخاصّة الإلهيّة.

عن ابن عبّاس قال: كان المُسلمون قبل نُزول هذه الآية يتكلّمون في الصّلاة، ويأمُرون بحوائجهم، ويأتي الرجلُ الجَماعة وهُم يُصلّون فيسألهم: كم صلّيتم، وكم بقي؟ فيقولون: كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإنصات عند الصّلاة، فأُريد مِن قراءة القُرآن الصلاة لكَونها مُعظم أجزائها[1].

وعنه أيضاً قال: قرأ رَسُول الله ﷺ في الصّلاة المكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فخلَطوا عليه، فنزلتْ الآية[2].

وعن الباقر عليه السلام: «إن كنتَ خلف إمام فلا تقرأنّ شيئاً في الأُولَيَين، وأنصِتْ لقراءته، ولاتقرأنّ شيئاً في الأخيرتين، فإنّ الله يقول[3]: **﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ﴾** يعني في الفريضة، خلف الإمام **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** والأخيرتان تتبع للأولَيَيْن»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كُنتَ خلف إمام تتولّاه وتثِق به فإنّه يُجزيك قراءته، وإن أحببتَ أن تقرأ فاقرأ فيما يُخافِتُ به، فإذا جهَر فأنصِت، قال الله تعالى: **﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**[5]».

وعن أحدهما عليهما السلام قال: «إذا كُنتَ خلف إمام تأتمُّ به فأنصِتْ وسبِّح في نفسك[6]».

أقول: فيه دَلالة علىٰ اجتماع الإنصات مع الذِّكر الخَفيّ، فعُلم أنّ في الجَماعة يجب الإنصاتُ لقراءة الإمام، وأمّا في غير الجَماعة فلا إشكال في استِحبابه، و[أمّا] الصلاة خلف الإمام غير المَرضيّ فحُكمه حُكم غير الجماعة.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن الرّجُل يؤُمّ القَومَ وأنت لا ترضىٰ به في صلاةٍ يُجهَر فيها بالقراءة، فقال: «إذا سمِعت كِتاب الله يُتلىٰ فأنصِتْ له». قيل: فإنّه يشهد عليّ بالشِّرك، قال: «إن عصىٰ الله فأطِع الله». فردَدْتُ عليه فأبى أن يُرخّص لي. قيل: أُصلّي إذن في بيتي ثمّ أخرُج إليه، فقال: «أنت وذاك».

وقال: «إنّ علياً عليه السلام كان في صلاة الصُّبح فقرأ ابن الكوّاء وهُو خلفه **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ**

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٠٣.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٠٢.
٣. زاد في من لا يحضره الفقيه وتفسير الصافي: للمؤمنين.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١١٦٠/٢٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٦٢.
٥. التهذيب ٣: ١٢٠/٣٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٦٧٧/١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣.

﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[١] فأنصت عليٌ عليه السلام تعظيماً للقرآن، حتّىٰ فرغ من [الآية ثم عاد في] قراءته، ثمّ أعاد ابن الكوّاء الآية، فأنصت عليٌ عليه السلام أيضاً، ثمّ قرأ فأعاد ابن الكوّاء، فأنصت عليٌ عليه السلام، ثمّ قال: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾**»[٢].

وَٱذْكُر رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِنَ ٱلْغَافِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ[٢٠٥ و ٢٠٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الأمر بالإنصات عند تِلاوة القرآن، أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله والمؤمنين بإخفات ذِكر الله لكونه أقرب إلىٰ الإخلاص، بقوله: **﴿وَٱذْكُر﴾** يا محمّد **﴿رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾** وفي الخُفْيَة بحيث لا يسمَع ذِكْرَك غيرُك، حالَ كونك تتضرَع إليه وتخاف منه **﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾**.

قيل: معنىٰ الذِّكر في النّفس: كون الإنسان عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها باللّسان، مُستحضِراً لصِفات الله الكمالية وعِزّه وعُلُوّه وجَلاله وعَظَمته.

وفي توصيف ذاته المُقدّسة بصِفة الرّبوبيّة في المقام إشعارٌ بكمال رَحمته وقُربه من الذّاكر، وفضله وإحسانه إليه.

وقيل: إنّ الخِطاب في الآية إلىٰ الإنسان، لا خصُوص النبيّ صلّى الله عليه وآله.

ثمّ رخّص سُبحانه في ترك المُبالغة في الإخفات، وأن يذكر بصوتٍ فوق الأخفات بقوله: **﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾** وفوق الإخفات، فيكون مُتوسّطاً بينهما.

وعن ابن عبّاس: إنّ المعنىٰ أن يذكُر ربّه علىٰ وجهٍ يُسمع نفسَه[٣]. **﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾** والصَباح والمَساء؛ لكونهما أفضل الأوقات **﴿وَلَا تَكُن﴾** في وقتٍ من الأوقات **﴿مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾** عن ربّك وذكره واللّاهين عنه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**﴿وَٱذْكُر رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً﴾** يعني: مُستكيناً **﴿وَخِيفَةً﴾** يعني: خوفاً من عذابه **﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾** يعني: دُون الجهر من القراءة **﴿بالغدو والاصال﴾** يعني: بالغَداة والعَشيّ»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن ذكر الله في السِرّ فقد ذكَر الله كثيراً، إنّ المُنافقين كانوا يذكُرون الله

---

١. الزمر: ٦٥/٣٩.
٢. التهذيب ٣: ١٢٧/٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٦٣، والآية من سورة الروم: ٦٠/٣٠.
٣. تفسير الرازي ١٥: ١٠٨.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٧٨/١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤.

علانيةً ولا يذكُرونه سِرّاً، فقال الله: **﴿يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً﴾**»[١].

وعن أحدهما عليهما السلام: «لا يكتُبُ المَلَكُ إلّا ما يسمع، وقال الله: **﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾** فلا يعلم ثوابَ ذلك الذِّكر في نفس الرَّجُل إلّا الله لعَظَمته»[٢].

وعنه عليه السلام، في هذه الآية قال: «تقول عند المساء لا إله إلّا هو[٣] وحده لا شَريك له، له المُلك وله الحَمد، يُحيي ويُميت، [ويميت ويحيي] وهُو على كُلّ شيءٍ قدير».

قيل: بيده الخير؟ قال: «إنّ بيده الخير، ولكن قُل كما أقول لك عَشر مرّات. وأعوذ بالله السّميع العليم [من هَمزات الشياطين، وأعوذ بك ربّ ان يحضُرون إن الله هو السّميع العليم]. حينَ تطلُع الشّمس وحينَ تغرُب عشَر مرّات»[٤].

ثمّ لمّا رغّب الله سُبحانه الرّسُول صلى الله عليه وآله وعامّة النّاس في الذِّكر باللِّسان صباحاً ومساءً وفي تذكُّره تعالىٰ، وإنّما قوّىٰ داعيتهم إليه ببَيان حال المُقرّبين عنده، بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾** من الملائكة معَ نِهاية شَرفهم، وكَمال طَهارتهم وعِصمتهم، ونَزاهتهم عن بَواعث الشّهوة والغَضب وعَوارض الحِقد والحَسد. وعن القُمّي يعني: الأنبياء والرُّسل والأئمّة[٥]، مع عِصمتهم **﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** ولا يتأنّفون **﴿عَنْ﴾** الخُضوع لله و**﴿عِبَادَتِهِ﴾** بَل هُم مُستغرقون فيها آناء اللّيل وأطراف النّهار **﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾** ويُنزّهونه من النقائص الإمكانيّة **﴿وَلَهُ﴾** وَحده **﴿يَسْجُدُونَ﴾**.

فإذا كانتْ الأنبياء والملائكة والمُقرّبون حالهم كذا، فالإنسان المُبتلىٰ بظُلمات الطّبيعة، المُنهمك في اللّذات النّفسانيّة والشّهوات الحَيوانيّة، أولىٰ بالمُواظبة علىٰ العِبادة والذِّكر والطاعة، وأن لا يخلو من ذِكره وتَسبيحه وتَقديسه.

---

١. الكافي ٢: ٢/٣٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤، والآية من سورة النساء: ١٤٢/٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٧٧/١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤.
٣. في تفسير العياشي وتفسير الصافي: إلّا الله.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٧٩/١٨٠، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤.
٥. تفسير القمي ١: ٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٤.

في تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلهِ وَٱلرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ [١]

ثمّ لمّا ختم سُورة الأعراف التي عُمدة مَطالبها إبطال الشِّرك، وتَهديد أهله بالعذاب، وبَيان غاية عَجز الأصنام، وأمْر النبيّ ﷺ بالأعلان بوثُوقه بالله تعالى في دفع كيدهم، والعَفو عمّن ظلمه، والإعراض عن الجاهلين، ومُداراة النّاس، والاسْتِعاذة بالله عند نَزغ الشّيطان، ومَدح المُتّقين بتذكُّر الله عند ذلك، أُردفتْ بسُورة الأنفال التي أهمّ مَطالبها إثبات صِحّة نُبوّة النبيّ ﷺ، وإيجاب طاعته، ومُلازمة التّقوى، وبَيان كيفيّة نَزغ الشيطان، وإيجاب رفع التّنازع بالصُّلح، وغير ذلك من الأُمور المُرتبطة بما في السُّور السّابقة، فابتدأ بذِكر الأسماء المُباركات على حَسب دأبه تعالى في كِتابه بقوله: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ افتتحها ببيان حُكم الغَنيمة التي وقع بين المُسلمين التّنازع فيها في وَقعة بَدْر بقوله: ﴿**يَسْئَلُونَكَ**﴾ يا رَسُول الله ﴿**عَنِ**﴾ حُكم ﴿**ٱلْأَنْفَالِ**﴾ ويستفتونك فيها ﴿**قُلِ**﴾ في جوابهم: ﴿**ٱلْأَنْفَالُ**﴾ كُلّها ﴿**لِلهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾ ليس لغيرهما فيها حَقّ.

رُوي أنّ المُسلمين اختلفوا في غَنائم بَدر وفي تقسيمها، فسألوا رَسُول الله ﷺ: كيف تُقسّم، وإلى أين تُصرف، ومَن الّذين يتولّون قِسمتها؛ أهُم المُهاجرون أم الأنصار؟[1] فنزلتْ[2].

وعن عُبادة بن الصامت قال: فينا معشر أصحاب بَدْر نزلتْ، حين اختلفنا في النَّفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فنزعه الله مِن أيدينا وجعله لرَسُوله، فقسّمه بين المُسلمين على السّواء[3].

ورُوي أن الشُّبّان يومَ بَدر قَتَلوا وأسَروا، والأشياخ وقفوا معَ رَسُول الله ﷺ في المَصافّ، فقال الشُّبّان: الغنائمُ لنا؛ لأنّا قَتَلْنا وهزَمنا، وقال الأشياخ: كُنّا رِدءاً لكم، ولو انهزمتُم لانحَزتُم إلينا، فلا تذهبوا

---

١. زاد في تفسير روح البيان: أم هم جميعاً.   ٢و٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١١.

بالغنائم دُوننا. فوقعت المُخاصمة، فنزلت[١].

ورُوي أنّ النبيّ ﷺ قسّم ما غنِموه يومَ بَدْرٍ على مَن حضر، وعلى أقوامٍ لَم يحضُروا أيضاً؛ وهُم ثلاثة من المهاجرين، و خَمسة مِن الأنصار، أمّا المُهاجرون فأحدهم عُثمان؛ فإنّه ﷺ تركه على ابنته لأنّها كانت مريضة، وطلحة، وسعيد بن زيد؛ فإنّه ﷺ كان بعثهما للتجسُّس عن خبر العِيْر، وخرجا في طريق الشّام. وأمّا الخمسة [من] الأنصار فأحدُهم أبو لُبابة مَروان بن عبد المُنذر، خلّفه النبي ﷺ على المدينة، وعاصم خلّفه على العالية، والحارث بن حاطب رَدّه من الرَّوحاء إلى عَمرو بن عوف لشيءٍ بلغه عنه، والحارث بن الصمّة أصابته عِلّة بالرّوحاء، وخوّات بن جُبير، فهولاء لَم يحضُروا وضرب لهم النبيّ ﷺ في تِلك الغنائم بسَهمٍ، فوقع مِن غيرهم فيه مُنازعة[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «نزلتْ يومَ بَدْر لمّا انْهزم النّاس، وكان أصحاب رَسُول الله ﷺ على ثلاث فِرق؛ فصنفٌ كانوا عند خَيمة النبيّ ﷺ، وصِنفٌ أغاروا على النَّهب، وفِرقة طلبتْ العَدُوّ وأسَروا وغنِموا، فلمّا جمَعوا الغنائم والأُسارى تكلّمتْ الأنصار في الأُسارى، فأنزل الله **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾**[٣]، فلمّا أباح الله لهم الأُسارى والغَنائم تكلّم سعد بن معاذ ـ أو سعد بن عثمان، على نسخة ـ وكان مِمّن أقام عند خَيمة النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلُب العَدُوّ زَهادةً في الجِهاد، ولا جُبناً من العَدُوّ، ولكنّا خِفْنا أن يعرَى موضعُك فتَميل عليك خَيلُ المُشركين، وقد أقام عند الخَيمة وجوهُ المُهاجرين واالأنصار، ولَم يَشُكَ أحدٌ منهم، والناسُ كثيرٌ يا رسول الله والغنائم قليلة، ومتى يُعطى هؤلاء لَم يبقَ لأَصحابك شيءٌ.

وخاف أنْ يُقسّم رسول الله ﷺ الغنائم وأسلاب القَتلى بين مَن قاتل ولا يُعطي مَن تخلّف عند[٤] خيمة رسول الله ﷺ شيئاً، فاختلفوا فيما بينهم حتى سألوا رسول الله فقالوا: لمَن الغنائم؟ فأنزل الله **﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾** فرجع الناس وليس لهم في الغنيمة شيء، ثمّ أنزل الله بعد ذلك **﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾**[٥] الآية، فقسّمه رسول الله ﷺ بينهم، فقال سعد بن [أبي] وقاص: يا رسول لله، أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تُعطي الضعيف؟ فقال النبيّ ﷺ: ثكلتْكَ أمُّك، وهل تُنصرون إلّا بضعفائكم؟!».

قال: «فلَمْ يُخمّس رسول الله ببَدْر، وقسّم بين أصحابه، ثمّ اسْتقبل بأخذ الخُمس بعد بدر»[٦].

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.
٣. الأنفال: ٦٧/٨.
٤. في النسخة: على.
٥. الأنفال: ٤١/٨.
٦. تفسير القمي ١: ٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.

وأمّا الأنفال، فعن ابن عباس وجَماعة أنّها غنيمة بَدْر[١]. وقيل: هي أنفال السّرايا[٢]. وقيل: هي ما شذّ من المشركين من عبدٍ أو جارية من غَير قِتال[٣].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «الفيء والأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هِراقة دم، أو قوم صُولحوا وأعطَوا بأيديهم، وما كان مِن أرضٍ خَربةٍ أو بُطون أودية، فهو كُلّه من الفيء والأنفال، فهذا كُلّه لله ولرَسوله، فما كان فهو لرسوله يضعه حيث يشاء، وهُو للإمام بعد الرسول»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «الأنفال ما لَم يُوجف عليه بخَيلٍ ولا رِكاب، أو قوم صُولحوا، أو قوم أعطَوا بأيديهم، وكُلّ أرضٍ خَربه وبُطون الأودية فهو لرسول الله، وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء»[٥].

وعنه عليه السلام: «مَن مات وليس له وارث، فماله من الأنفال»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «لنا الأنفال»، قيل: وما الأنفال؟ قال: «منها المعادن والآجام، وكُلّ أرض لا ربّ لها، وكُلّ أرض باد أهلُها فهو لنا»[٧].

وقال: «ما كان للمُلوك فهُو مِن الأنفال»[٨].

أقول: لا شكّ أنّ المُراد بالسؤال في الآية الغنائم؛ كما عن ابن عباس وعن الصادق عليه السلام، لوضُوح أنّه لَم يكُن في غنائم بَدر شيءٌ مِن الأمور المذكورة في الروايات، وإنّما هو المقصود من الأنفال الذي أُطلق في غير الآية، أو معناه الأعمّ من الأُمور المذكورة والغنائم، وإن وقع السؤال في بَدْر من الغنائم.

ولمّا كان التّنازع مُحرّماً أمر المُؤمنين بالتّقوى بقوله: **﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ﴾** وخافوا عِقابه أيّها البَدريّون، ولا تُقدِموا على معصية واترُكوا المُنازعة، وارْضَوا بما حكَم به الرسول صلى الله عليه وآله **﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** من الأحوال بالمُواساة فيما رزقكم الله والأقوال، ولا تَنازعوا.

ثمّ أكّد الأمر بالتّقوىٰ بقوله: **﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** في أوامره ونَواهيه **﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** بهما عن صميم القلب، فإنّ الإيمان لا يتِمّ إلّا بالطّاعة.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

١. مجمع البيان ٤: ٧٩٥.
٢. مجمع البيان ٤: ٧٩٦.
٣. تفسير الرازي ١٥: ١١٥.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٨٧/١٨٢، التهذيب ٤: ٣٧٦/١٣٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.
٥. الكافي ١: ٣/٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.
٦. تفسير الصافي ٢: ٢٦٦.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٦٩١/١٨٣، تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.
٨. تفسير الصافي ٢: ٢٦٧.

يُنْفِقُونَ[٢ و ٣]

ثمّ بيّن عِلّة مُلازمة الإيمان للطّاعة ببيان الصّفات النفسانيّة التي لا ينفكّ المؤمن الكامل منها بقوله: **﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾** الصادقون في الإيمان، الكاملون فيه هُم **﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾** عندهم، أو ذكروه **﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** وخافتْ أفئدتُهم مِن عَظَمته ومَهابته، ومن احْتِمال التّقصير في طاعته؛ فيستحقّوا عِتابه أو عِقابه **﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾** وقُرئت **﴿عَلَيْهِمْ﴾** وبمَسْمعٍ منهم **﴿آيَاتُهُ﴾** القُرآنيّة البالغة أعلى دَرجة الفَصاحة، المَشحونة بالعُلوم والمعارف والمواعظ والحِكَم **﴿زَادَتْهُمْ﴾** تِلك الآيات بالتفكّر والتدبّر فيها **﴿إِيمَاناً﴾** على إيمانهم لزِيادة مَعرفتهم بعَظَمته وقُدرته وحِكمته وصِدق رَسُوله **﴿وَ﴾** مِن المَعلوم بأنّ مِن آثار ازْدياد المعرفة وقُوّة اليقين بصِفاته الكَماليّة أنّهم **﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾** ومالِك اُمورهم، اللّطيف بهم **﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾** وعليه يعتمدون في اُمورهم، وإليه يُفوّضون جميع شؤونهم مِن حِفظهم ورِزقهم وتَدبير مَعاشهم، فلا يخافون ولا يرجُون غيره.

ورُوي أنّه «لا يكمُل إيمانُ المَرء حتّى يرى النّاس كالأباعير»[١].

فإذا حصل للمُؤمنين هذه الصّفات لا يكون نظرُه إلّا إلى تحصيل رِضا الله، فيقوم بطاعته ويبذُل نفسَه ومالَه في سبيله، ولذا وصفهم بعد تِلك الصّفات الحميدة النفسانيّة بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ﴾ التي هي أهمّ العِبادات البدنيّة مُراعياً لشرائطها المُعتبرة في صِحّتها وكَمالها **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾** وأعطيناهم من القُوى والعِلم والجاه والمال **﴿يُنْفِقُونَ﴾** في سبيله، ويبذُلون في مَرضاته. وإنّما خَصّ سُبحانه التوكّل من بين الصّفات النفسانيّة الباطنية، والصّلاة والإنفاق من بين الأعمال الخارجية الظاهريّة بالذِّكر تنبيهاً على شرفها وتَبعيّة سائر الصّفات الكماليّة والأعمال العِباديّة لها.

أُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرونَ[٤ـ٦]

---

١. ورد في (البحار) عن (مكارم الأخلاق) و (عدة الداعي) بلفظ: «لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتى يرى الناس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعر». بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٤ و ٧٧: ٨٥.

ثمَ أنه تعالى بعدَ حَصر المؤمنين الكُمّلين بالواجدين لتِلك الصّفات والأعمال، أكّده بقوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المُوصوفون بالصِّفات الجليلة المذكورة ﴿هُمُ﴾: بالخُصوص ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقّاً﴾ ثابتاً لا يشوبه شِركٌ جَليّ ولا خَفِيّ؛ لإحاطة نُور الإيمان بقُلوبهم وجَوارحهم، وظهور آثاره من بَواطنهم وظَواهرهم.

ثمَ بيّن سُبحانه اختِصاصهم بغاية الكرامة عنده بقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ رفيعة من الكرامة والشّرف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الدُّنيا والآخرة، ﴿وَ﴾ لهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وسَتْرٌ، أي سَتْرٌ لذُنوبهم وزَلّاتهم ﴿وَرِزْقٌ﴾ واسع هنيء ﴿كَرِيمٌ﴾ لاانقِطاع له، ولا تَعب، ولا كُدورة فيه في البَرْزَخ والآخرة.

عن القُمّي ﷺ: نزلت في أمير المُؤمنين، وأبي ذَرّ، وسلمان، ومِقداد[1].

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «بتَمام الإيمان دخل المُؤمنون الجنّة، وبالزِّيادة في الإيمان تفاضل المُؤمنون بالدّرجات عندَ الله، وبالنُّقصان دخل المُفرِّطون النّارَ»[2].

ثمَ أنه رُوي أنّ النبيّ ﷺ لمّا رأى كَثرة المُشركين يوم بَدر وقِلّة المسلمين قال: من قتَل قتيلاً فله سَلَبُه، ومَن أسَر أسيراً فله كذا وكذا، ليُرغّبهم في القِتال، فلمّا انهزم المُشركون قال سعد بن عُبادة: يا رسول الله، إنّ جماعةً من أصحابك وقومك فدَوك بأنفسهم ولَم يتأخّروا عن القِتال جُبناً ولا بُخلاً ببذل مُهجهم، ولكنّهم أشفقوا عليك من أن تُغتال، فمتى أعطيتَ هؤلاء ما سمّيته لهم بقيَ خَلقٌ من المسلمين بغير شيء، فأنزل الله ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ...﴾[3] ففوّض الله أمر الغنيمة إلى رَسوله يصنع فيها ما يشاء، فأمسك المُسلمون عن الطَّلب وفي أنفس بعضهم شيء مِن الكراهة[4].

وكذلك حينَ خَرج الرّسول ﷺ إلى القِتال يَوم بَدْر كانوا كارهين لتِلك المُقاتلة، فشبّه سُبحانه كَراهتهم اختِصاص الأنفال بالرّسول بكَراهتهم خُروج الرّسول ﷺ إلى قِتال بَدر بقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ﴾ الذي كنت فيه بالمدينة، أو من المدينة التي هي دار هِجرتك إلى قِتال بَدْر إخراجاً مَقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحِكمة والصّلاح ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك ﴿لَكَارِهُونَ﴾ خُروجك، فكما أنّ كَراهتهم لخُروجك كانت لِما هُو خيرٌ لهم، كذلك كراهتهم اختِصاصك بالغنيمة تكون كراهةَ ما فيه خيرُهم.

وقيل: إنّ المعنى: أنّ الموصوفين بتِلك الصِّفات هُم المُؤمنون حقّاً، كما أنّ حُكم الله بخُروجك من بيتك إلى القِتال حَقّ. قيل: إن جَبرئيل أتاه وأمره بالخُروج.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٥٥، تفسير الصافي ٢: ٢٦٨.
٢. الكافي ٢: ٣١/١، تفسير الصافي ٢: ٢٦٨.
٣. الأنفال: ١/٨.
٤. تفسير الرازي ١٥: ١٢٥.

في بيان واقعة بدر

روى بعضُ العامّة أنّ عِير قُريش ـ أي قافلتهم ـ أقبلتْ من الشّام وفيها تِجارة كثيرة عظيمة، ومعها أربعون راكباً منهم أبوسُفيان وعَمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، وكان في السنة الثانية من الهِجرة، فأخبر جَبرئيل رسول الله ﷺ بإقبالها، فأخبر المُسلمين، فأعجبهم تلقّيها لكَثرة المال وقِلّة الرِّجال، فلمّا خرجوا سَمِع أبوسفيان فاسْتأجر ضمضم بن عَمرو الغفاري، فبعثه إلى مكّة، وأمره أن يأتي قُريشاً فيستنفرَهم، ويُخبرهم أنّ مُحمداً قد اعترض لعِيركم فأدْرِكوها، فلمّا بلغ أهلَ مكّة هذا الخبر نادى أبوجهل فوق الكعبة: يا أهل مكّة، النَّجاء النَّجاء على كُلّ صَعب وذَلول، عِيركم وأموالكم ـ أي أدركوها ـ إن أصابها محمّد لن تُفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة اُخت العباس بن عبد المطلب قبل قُدوم ضَمضم مكّة بثلاث ليالٍ رُؤياً فقالت لأخيها: إنّي رأيتُ عَجَباً، كأنّ مَلَكاً نزل من السماء وأخذ صخرةً مِن الجبل ثمّ حلّق بها ـ أي رمى بها ـ إلى فوق، فلَم يبقَ بيت من بُيوت مكّة إلّا أصابه حجرٌ من تِلك الصّخرة، فحدّث بها العباس صديقاً له يُقال له عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وذكرها عُتبة لبنتٍ له، ففشا الحديث. فقال أبوجهل للعبّاس: يا أبا الفضل، أما يرضى رِجالُكم أن تنبّأوا حتّى تنبّأت نساؤكم، فخرج أبوجهل بأهل مكّة وُهم النّفير، فقيل له: إنّ العِير أخذتْ طريق السّاحل ونَجتْ، فارجِع بالناس إلى مكّة، فقال: لا والله، لا يكون ذلك أبداً حتّى ننحَر الجَزور، ونشرَب الخُمور، ونُقيم القِينات[1] والمَعازف ببَدر، فتتسامع جميعُ العرب بمَخرجنا، وإنّ محمداً لَم يُصب العير، وإنّا قد أغضضناه.

فمضى بهم إلى بَدر ـ وبدر ماءٌ كانت العرب تجتمع فيه لسُوقهم يوماً في السّنة ـ فنزل جَبرئيل فقال: يا محمّد، إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين؛ إمّا العِير، وإمّا قُريشاً، فاسْتشار النبيّ ﷺ أصحابه فقال: «ما تقولون، إنّ القوم قد خرجوا مِن مكّة على كُلّ صَعب وذَلول؟ فالعِير أحبُّ إليكم أم النّفير؟» فقالوا: بَل العِير أحبّ إلينا مِن لِقاء العَدُوّ. فتغيّر وَجْه رَسُول الله ﷺ، ثمّ ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضَتْ على ساحل البحر، وهذا أبوجهل قد أقبل» ـ يُريد النبيّ ﷺ بذلك أنّ تَلقّي النّفير وجِهاد المُشركين آثرُ عنده وأنفعُ للمُؤمنين من الظَّفَر بالعِير، لِما في تلقّي النّفير مِن كَسْر شوكة المُشركين، وإظهار الدِّين الحقّ على الأديان كُلّها، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعِير ودَعْ العَدُوّ.

فقام عندما غضِب رَسُول الله ﷺ أبوبكر وعُمر، فأحسنا الكلام[2] في اتّباع مُراد الرّسُول ﷺ، ثمّ

---

١. القينات: جمع قِينة، الأمة مغنية كانت أو غير مغنية.

٢. الذي في (صحيح مسلم): فتكلّم أبوبكر فأعرض عنه، ثم تكلّم عمر فأعرض عنه، ونص كلام أبي بكر وعمر الذي أعرض عن الرسول ﷺ سيأتي برواية القمي، ونقله أيضاً الواقدي في (المغازي) والمقريزي في (الامتاع والمؤانة). راجع: معالم المدرستين ١: ٢٣٥.

قام سيّدُ الخزرج سعد بن عُبادة فقال: انظُر في أمرك وامضِ، فو الله لَو سِرتَ إلى عدن أبيَن[١] ما تخلّف عنك رجلٌ من الأنصار. ثمَ قال المِقداد بن عمرو: يا رَسُول الله، امضِ لِما أمرك الله فإنّا معك حيثُما أحببْتَ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لمُوسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ**﴾[٢] ولكن نقول: اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكما مُقاتلون ما دامتْ عينٌ مِنّا تطرِف.

فتبسّم رسول الله ﷺ ثمَ قال: «أشيروا عليَّ أيُّها النّاس» وهُو يُريد الأنصار، أيَ بيِّنوا لي ما في ضميركم في نُصرتي ومُعاونتي؛ وذلك لأنّ الأنصار عاهدوا رسول الله ﷺ ليلةَ العَقبة أن ينصُروه مادام في المدينة، وإذا خرج منها لا يكون عليهم معاونته ونصرته، فأراد ﷺ أن يُعاهدهم على النُّصرة في هذه المعركة.

فقام سعد بن معاذ فقال: كأنّك تُريدنا يا رسول الله، قال: «أجل»، قال: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئتَ به هُو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عُهودَنا ومَواثيقنا على السّمع والطّاعة، فامضِ يا رسول الله لِما أردتَ، فوَ الّذي بعثك بالحقّ لَو استعرضتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضنا معك، ما تخلّف مِنا رَجُلٌ، وما نكره أن تلقى بنا عَدُوّنا، إنّا لصُبُرٌ عند الحَرب، صُدُقٌ عند اللّقاء، ولعلَ الله يُريك مِنّا ما تَقَرُّ به عينُك، فسِر بنا على بَركه الله. ففرِح رسول الله ﷺ ونشَطه قولُ سعد ثمَ قال: «سِيروا على بركة الله وابْشِروا، فإنّ الله وعدني إحدى الطّائفتين، والله لكأنّي انظُر إلى مَصارع القوم»[٣].

بيان قصة بدر الكبرى

عن القُمّي ﵀: أنّ عير قُريش خرجتْ إلى الشّام فيها خزائنهم، فأمر النبيّ ﷺ أصحابه بالخُروج ليأخُذوها، فأخبرهم أنّ الله تعالى قد وعده إحدى الطّائفتين؛ إمّا العِير أو قريش إن ظفِر بهم، فخرج في ثلاثمائة وثلاثة عشر رَجلاً، فلمّا قارب بَدْراً، كان أبو سفيان (لعنه الله) في العِير، فلمّا بلَغه أنّ رسول الله ﷺ قد خرج يتعرّض العِير خاف خوفاً شديداً، ومضى إلى الشّام، فلمّا وافى البَهْرَة[٤] اكترى ضمضم بن عمرو الخُزاعي بعشرة دنانير، وأعطاه قَلُوصاً[٥]، وقال له: امضِ إلى قُريش: وأخبرهم أنّ محمداً والصُّباة[٦] من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعِيركم، فأدركوا العِير. وأوصاه أن يخرِم[٧] ناقته ويقطع أُذُنها حتّى يسيل الدّم ويشُقّ ثوبه مِن قُبُل ودُبُر، فاذا دخل مكّة ولّى وجهه إلى ذَنَب البعير وصاح بأعلى صَوته: يا آل غالب يا آل غالب،

---

١. عدن أبين: مدينة على ساحل بحر العرب.
٢. المائدة: ٥/٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٥.
٤. بُهْرة: موضع بنواحي المدينة، وفي النسخة: النقرة.
٥. القلوص: الشابة من النوق.
٦. الصُّباة: جمع صابئ، وهو الخارج من دين إلى آخر، وكانت قريش تسمي أصحاب النبي ﷺ الصُّباة لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام.
٧. أي يشقّ ما بين مَنخِريها.

اللَطيمة[١] اللَطيمة، العِير العِير، أدركوا أدركوا، وما أراكم تُدركون، فإنّ محمّداً والصُّباة مِن أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعِيركم. فخرج ضمضم يُبادر إلى مكّة.

ورأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قُدوم ضمضم في منامها بثلاثة أيّام، كأنّ راكباً قد وافى مكّة يُنادي: يا آل غَدر، يا آل غَدر، اغدُوا إلى مَصارعكم صُبح ثالث. ثمّ وافى بجَمَلِه إلى أبي قُبيس، فأخذ حجراً ودَهدَهه مِن الجبل فما ترك داراً من دُور قريش إلّا أصابه منه فِلذَة، وكان وادي مكّة قد سال مِن أسفله دماً، فانتبهتْ ذَعِرة فأخبرتْ العبّاس بذلك، فأخبر العبّاس عُتبة بن ربيعة، فقال عُتبة بن ربيعة: تلك مُصيبة تحدُث في قُريش.

ففشت الرُّؤيا في قُريش، فبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما رأت عاتكة هذه الرُّؤيا، وهذه نبيّة ثانية في [بني] عبد المطّلب، واللّات والعُزّى لننتظرَنّ ثلاثة أيّام، فإن كان مارأت حقّاً فهُو كما رأت، وإن كان غيرَ ذلك لنكتُبنّ بيننا كِتاباً أنّه ما من أهل بيتٍ من العرب أكذبُ رِجالاً ونساءً من بني هاشم. فلمّا مضى يومٌ قال أبو جهل: هذا يومٌ قد مضى، فلمّا كان اليومُ الثّاني قال أبوجهل: هذان يومان قد مضَيا، فلمّا كان اليومُ الثّالث وافى ضمضم يُنادي في الوادي: يا آل غالب، يا آل غالب، اللَطيمة اللَطيمة، العِير العِير، أدركوا [أدركوا] وما أراكم تُدركون، فإنّ محمّداً والصُّباة مِن أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعِيركم التي فيها خزائنكم.

فتصايح الناسُ بمكّة وتهيّأوا للخُروج، فقام سهل بن عمرو وصفوان بن اُميّة وأبو البختري بن هشام ومنبه ونبيه ابنا الحجّاج ونوفل بن خويلد فقالوا: يا معشر قُريش [والله] ما أصابكم مُصيبة أعظم مِن هذه، أن يطمع محمّد والصُّباة مِن أهل يثرب أن يتعرّضوا لعِيركم التي فيها خزائنكم، فوالله ما قَرَشيّ ولا قَرَشيّة إلّا ولهما في هذه العِير نَشّ[٢] فصاعداً، وإنّه لذُلّ وصَغار أن يطمع محمّد في أموالكم ويُفرّق بينكم وبين مَتْجركم.

فأخْرَجوا وأخرَج صفوان بن اُميّة خمسمائة دينار وجهّز بها، وأخرج سُهيل بن عَمرو [خمس مائة]، وما بقي [أحدٌ] مِن عُظماء قُريش إلّا أخرجوا مالاً، وحمّلوا وقوّوا، وخرجوا على الصّعب والذّلول لا يملِكون أنفسهم كما قال الله: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾[٣]، وخرج معهم العبّاس بن عبدالمطّلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وأخرجوا معهم القِيان يشربون الخَمر ويضرِبون بالدُّفوف[٤].

---

١. اللطيمة: العير التي تحمل الطيب و بَزّ التجارة وقوله: يا آل غالب الطليمة، أي أدركوها.

٢. النشّ: نصف اُوقية، ويعادل عشرين درهماً. ٣. الأنفال: ٤٧/٨. ٤. في النسخة: بالدف.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رَجُلاً، فلمّا كان بقُرب بَدْر على ليلةٍ منها بعث بشير بن أبي الزّغباء ومحمّد بن عَمرو يتجسّسان خبر العِير، فأتيا ماء بَدر فأناخا راحِلتَيهما واستعذبا من الماء، وسمِعا جاريتين قد تشبّثتْ إحداهما بالأخرى، وتطالبها بدِرهم كان لها عليها، فقالتْ: عِيرُ قُريش نزلتْ أمس في موضع كذا، وهي تنزِل غداً هاهنا، وأعملُ لهم وأقضيكِ.

فرجعا فأخبراه بما سمِعا، فأقبل أبو سُفيان بالعير، فلمّا شارف بَدْراً تقدّم العِير وأقبل وحده حتّى انتهى إلى ماء بَدْر، وكان بها رجلٌ من جُهينة يُقال له الكسب الجهني فقال له: يا كسب، هل لك عِلمٌ بمحمد وأصحابه؟ قال: لا، قال: واللّات والعُزّى لئِن كتمتَنا أمَر محمّد، لا تزال قُريش. لك مُعادية آخر الدّهر، فإنّه ليس أحدٌ من قُريش إلّا وله في هذه العِير نَشٌّ فصاعداً، فلا تكتُمْني، فقال: والله مالي عِلمٌ بمحمد، وما بال محمد وأصحابه بالتجّار، إلّا أنّي رأيتُ في هذا اليوم راكبَين أقبلا فاستعذبا من الماء، وأناخا راحلتَيهما ورجعا، ولا أدري مَن هما. فجاء أبو سُفيان إلى موضع مَناخ إبلهما، ففَتّ أبعار الإبل، فوجد فيها النّوى فقال: هذه علائف يثرب، هؤلاء والله عُيون محمّد، فرجع مُسرعاً وأمر بالعِير فأخذ بها نحو ساحل البحر، وتركوا الطّريق ومرّوا مُسرعين.

ونزل جَبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره أنّ العِير قد أفلتَتْ، وأنّ قُريشاً قد أقبلتْ لتمنع عن عِيرها، وأمر بالقِتال ووعده النّصر، وكان نازلاً ماءَ الصّفراء[1]، فأحبّ أن يبلوَ الأنصار، لأنّهم إنّما وعدوه أن ينصُروه إذا كان في الدّار، فأخبرهم أنّ العِير قد أفلتتْ، وأن قُريشاً قد أقبلتْ لتمنع عن عِيرها، وأنّ الله قد أمرني بمُحاربتهم، فجزِع أصحابُ رسول الله ﷺ من ذلك، وخافوا خوفاً شديداً.

فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ» فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنّها قُريش وخُيَلاؤها، ما آمنتْ منذُ كفرتْ، ولا ذلّت منذ عزّت، ولم تخرُج على هيئة الحرب.

فقال رَسُول الله ﷺ «اجلِس» فجلس، فقال: «أشيروا عليّ»، فقام عمر فقال مثل مَقالة أبي بكر، فقال: «اجلِس»، ثمّ قام المِقداد فقال: يا رسول الله، إنّها قُريش وخُيَلاؤها، وقد آمنّا بك وصدّقناك وشهِدنا أنّ ما جئت به حَقٌّ من عندِ الله، ولَو أمرتنا أن نخوض جَمر الغَضى وشوك الهَراس[2] لخُضنا معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[3] ولكنا نقول: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون. فجزاهُ النبي ﷺ خيراً فجلس.

---

١. الصفراء: وادٍ من ناحية المدينة، كثير النخل والزرع، بينه وبين بدر مرحلة.

٢. الغضى: جمع غَضَاة، وهي شجرة الأثل صلبة الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً، والهراس: شجر كبير من الفصيلة القَرْنية، وله شوك كأنّه الحَسَك.

٣. المائدة: ٥/٢٤.

ثمّ قال: «أشيروا عليّ»، فقام سعد بن مُعاذ فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول‌الله، كأنّك أردتَنا، قال: «نعم»، قال: فلعلّك خرجتَ على أمرٍ قد أُمرتَ بغيره، قال: «نعم»، قال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، إنّنا قد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حَقٌّ مِن عندِ الله، فمُرنا بما شئت، وخُذ من أموالنا ما شِئت، واترُك منها ما شئت، والذي أخذت منه أحبّ إليّ مِمّا تركتَ، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخُضنا معك.

ثمّ قال: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله، والله ما خُضت هذا الطّريق قَطّ، ومالي به عِلم، وقد خلّفنا بالمدينة قوماً ليس نحنُ بأشدّ جِهاداً لك منهم، ولَو علِموا أنّه الحرب لَما تخلّفوا، ولكن نُعِدّ لك الرّواحل ونلقى عدوّنا، فإنّا صُبُرٌ عند اللّقاء أنجاد في الحرب، وإنّا لنرجو أن يُقِرّ الله عينك بنا، فإنْ يَكُ ما تُحبّ فهو ذاك، وإن يكُ غير ذلك قعدت على رواحلك فلحِقتَ بقومِنا.

فقال رسول الله ﷺ: «أوَ يُحدث الله غير ذلك، كأنّي بمَصرع فُلان هاهنا، [وبمصرع فُلان هاهنا] ومصرع أبي جهل، وعُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة، ومُنبّة ونُبيه ابني الحجّاج، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، ولَن يُخلف الله الميعاد» فنزل جَبرئيل [على رسول الله ﷺ] بهذه الآية ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾[1] الآية.

قيل: إنّ المعنى (أخرجك ربُّك) كأن[2] تترُك التوجّه إلى العِير وتؤثر عليه مُقاتلة النّفير في حال كراهة فريق من أصحابك ما آثرته من مُحاربة النّفير[3].

وهُم ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ ويُخاصمونك ﴿فِي ٱلْحَقِّ﴾ الذي هُو تلقّي النّفير لإيثارهم عليه تلقّي العِير ﴿بَعْدَ ما تَبَيَّنَ﴾ وظهر لهم بإعلامك أنّهم يُنصَرون أينما توجّهوا، قيل: كانوا يقولون: ما كان خروجُنا إلّا للعير، وهَلّا قُلتَ إنّ الخُروج لمُقاتلة النّفير لنستعِدّ ونتأهّب؟ فخرجوا كارهين ﴿كَأَنَّما يُساقُونَ﴾ بالعُنف ﴿إِلَى الْمَوْتِ﴾ والقَتل ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى أمارات الموت وأسبابه ويُشاهدونها عِياناً، وما كانت هذه المَرْتَبة من الخوف إلّا لقِلّة عَددهم وعدَم تأهُّبهم. وقد مرّ أنّه كان عددُهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، وأمّا تأهُّبهم فقد رُوي أنّه لم يكُن فيهم إلّا فارسان؛ الزُّبير والمِقداد، ولهم سبعون بعيراً، وسِتّ أدرُع، وثمانية أسياف[4].

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ

---

١. تفسير القمي ١: ٢٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٧١.
٢. في تفسير روح البيان: أخرجك ربك من بيتك لأن.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٦.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٣١٦.

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[٧ و ٩]

ثمّ شرع سُبحانه في بيان وقعة بَدر وكراهة قومه إيّاها، وكيفية نُصرته نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير أو النَفير ﴿أَنَّهَا﴾ تكون ﴿لَكُمْ﴾ ومُختصّة بكم ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تَوَدُّونَ﴾ وتُحبّون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ والقوّة من الطائفتين، وهي العِير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ حيث لَم يكُن فيها إلّا أربعون رجُلاً، وذات الشَوكة منهما، وهي النَفير، فإنّه كان عددُهم ألفاً، أو قريباً منه ﴿وَ﴾ لكن ﴿يُرِيدُ ٱللهُ﴾ إرادة تكوينيّة من تَوجيهكم إلى ذات الشَوكة ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ويُثبته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ وآياته الدالّة عليه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم ويُهلكهم بسُيوف المُسلمين.

ثمّ أكّد سُبحانه التّعليل بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ويُظهر دين الإسلام والتّوحيد ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ﴾ ويمحوَ مِن أرض الحِجاز الباطل ومَذهب الشِّرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ والطُّغاة العاصون.

قيل: إنّ المُراد من الأوّل بَيان سبب اختلاف الإرادتين، ومِن الثاني بَيان حِكمة تَوجيه الرسول ﷺ إلى النَّفير.

وفي رواية القُمّي: فأمر رسول الله ﷺ بالرّحيل حتّى نزل عِشاءً ماءَ بَدر، وهي العُدوة[1] الشاميّة، وأقبلتْ قُريش فنزلتْ بالعُدْوة اليَمانيّة، وبعثتْ عَبيدها تستعذب من الماء، فأخذهم أصحاب رَسُول الله ﷺ وحبسوهم، فقالوا [لهم]: مَن أنتُم؟ قالوا: نحنُ عَبيد قُريش، قالوا: فأين العِير؟ قالوا: لا عِلم لنا بالعِير، فأقبلوا يضربونهم، وكان رسول الله ﷺ يُصلّي، فانفتل من صلاته فقال: «إن صَدقوكم ضربتُموهم، وإن كذَبوكم تركتُموهم، عَلَيَّ بِهم»، فأتَوا بهم، فقال لهم: «مَن أنتُم؟» قالوا: يا محمّد، نحنُ عَبيد قُريش، قال ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: لا عِلم لنا بعدَدِهم، قال: «كَم ينحَرون في كُلّ يوم جزوراً؟» قالوا: تِسعة إلى عَشرة، فقال رسول الله ﷺ: «القوم تسعمائة إلى ألف» قال: «فمَن فيهم مِن بني هاشم؟» قالوا: العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، فأمر رسول الله ﷺ بهم فحُبسوا.

وبلغ قُريشاً ذلك، فخافوا خوفاً شديداً، ولقي عُتبة بن ربيعة أبا البَختَري بن هِشام فقال [له]: أما

---

١. العُدوة: المكان المرتفع أو شاطئ الوادي وجانبه.

ترى هذا البَغيَ، والله ما أبصر موضع قدمي، خرجنا لنمنع عيرنا وقد افلتَتْ، فجئنا بَغْياً وعُدواناً، والله ما أفلح قومٌ قَطّ بغَوا، ولَوَدِدْتُ أنّ ما في العِير مِن أموال بني عبد مناف ذهب كُلّه ولَم نسِر هذا المسير.

فقال له أبو البَخْتَري: إنّك سيّد من سادات قُريش، فسِرْ في النّاس وتحمّل العِير التي أصابها محمّد وأصحابه بنخلة، ودَم ابن الحَضْرمي فإنّه حليفك.

فقال عُتبة: أنت تُشير عليّ بذلك ولا لأحد[1] مِنّا خِلاف إلّا ابن حنظلة ـ يعني أبا جهل ـ فسِر إليه وأعلِمه أنّي تحمّلتُ العِير التي أصابها محمّد ودَم بن الحَضْرمي.

فقال أبو البَخْتَري: فقصدتُ خِباءه، فإذا هو قد أخرج دِرعاً له فقلتُ له: إنّ أبا الوليد بعثني إليك بِرسالة، فغضِب ثمّ قال: أما وجد عُتبة رسولاً غيرك؟ فقلتُ: أما والله لو أرسلني غيرُه ما جئتُ، ولكن أبا الوليد سيّد العشيرة، فغضِب غضبةً أُخرى فقال: تقول سيّد العشيرة، فقلتُ: أنا أقول وقُريش كُلّها تقول إنّه [قد] تحمّل العِير ودَم ابن الحَضْرمي.

فقال: إنّ عُتبة أطول الناس لِساناً، وأبلغهم في الكلام، ويتعصّب لمحمد، فإنّه من بني عبد مناف، وابنه معه، ويُريد أن لا يخذُله بين الناس، لا واللّاتِ والعُزّى حتّى نَقْحَم عليهم بيثرب، ونأخُذهم أُسارى، فنُدخِلهم مكّة، وتتسامع العرب بذلك، فلا يكون بيننا وبين متجرنا أحدٌ نكرهه. وبلغ أصحابَ رسول الله كَثرةُ قُريش، ففزعوا فَزَعاً شديداً، وشكَوا وبكَوا واستغاثوا، الخبر[2].

وفي روايةٍ عاميّة: أنّهم لمّا علِموا أنّه لابُدّ مِن القِتال، جعلوا يدعون الله قائلين: أي ربّ انصُرنا على عدوّك، يا غِياث المُستغيثين أغِثنا[3].

ورُوي أنّ رسول الله ﷺ نظر إلى المُشركين وهُم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، فاستقبل القبلة ومَدّ يديه يدعو ويقول: اللّهم أنجِز [لي] ما وعدتني، اللّهم إن تهلَك هذه العِصابة لا تُعبد في الأرض. فما زال كذلك حتّى سقط رِداؤه، فأخذه أبوبكر فألقاه على مَنكبه والتزمه مِن ورائه، وقال: يا نبيّ الله كَفاك مُناشدتك ربّك، فإنّه سيُنجِز ما وعدك[4].

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ

---

١. في المصدر: بذلك وما على أحد.

٢. تفسير القمي ١: ٢٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٧٥.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣١٧.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٣١٨.

بِهِ ٱلْأَقْدَامَ [١٠ و ١١]

فذكّرهم سُبحانه ذلك الوقت بقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وتسالونه النّصر والغلبة على عدُوّكم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأنجح مَسألتكم بأن أوحى إلى رَسُوله ﷺ ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ و مُؤيّدكم ﴿بِأَلْفٍ﴾ مُقاتل ﴿مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ﴾ حالَ كونهم ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ومُتابعين بعضهم إثْر بعضٍ، أو مُتابعين للمسلمين.

ثمّ نبّه سُبحانه على غِناه في نَصر المسلمين عن الملائكة، وإنّما كان إنزالهم ليراهم المسلمون فتطمئِنّ بهم قُلوبُهم، ويفرحوا برُؤية أنصارهم، بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أيُّها المسلمون وما أنزلهم ﴿إِلَّا﴾ ليكون نُزولُهم ﴿بُشْرَىٰ﴾ لكم ومُوجباً لسُرور قُلوبكم بمُشاهدة سبب نَصركم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ بإمدادهم وتستقرّ ﴿بِهِ﴾ من التّزلزُل الحاصل من الوَجَل مِن كَثرتهم وشَوكتهم، وقِلّة عدَدكم وعُدّتكم ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ فإن نَظَركم إلى الأسباب ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ والغَلبة لأحدٍ ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وبقُدرته وإرادته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على خلقه، وقويّ على إنفاذ إرادته بلا حاجةٍ إلى شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعاله، مُراعٍ للمصالح فيها.

قيل: إنّ الملائكة لم يُقاتلوا مُستدلاً بهذه الآية، وقيل: إنّهم قاتلوا وقُتلوا مُستدلاً بالرِّوايات.

رُوي عن ابن مَسعود أنّه قال له أبو جهل: مِن أين الصّوت الذي كُنّا نسمَع ولا نرى شخصاً؟ قال: هُو من الملائكة، فقال أبو جهل: هُم غلبونا لا أنتم[١].

ورُوي أنّ رَجُلاً مِن المسلمين بينما هُو يشتدّ في أثر رجل مِن المشركين إذ سَمِع صوت ضربه بالسوط فوقه، فنظر إلى المُشرك وقد خَرّ مُستلقياً وقد شُقّ وَجهُه، فحدّث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقتَ، ذاك مِن مَدَد السّماء[٢].

ثمّ أنه روى بعضُ أصحابنا أنّ رسول الله ﷺ نزل في موضع لا تثبُت فيه القَدم لكَثرة الرّمل، فلمّا أمسى رسول الله ﷺ وجنّه اللّيل اُلقي على أصحابه النُّعاس حتّى ناموا، واَحْتلم في تِلك اللّيلة بعضُهم، فأنزل الله عليهم السماء، فذكّرهم الله سُبحانه تِلك المِنّة بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ...﴾[٣].

وعن بعض العامّة: أنّ رسول الله ﷺ سار بأصحابه حتى نزلوا في كَثيب أعفر - أي في تَلٍّ من الرّمل الأحمر - تسُوخ فيه الأقدام - أي تدخُل فيه و تغيب - وعلى غير ماءٍ، بالجانب الأقرب من المدينة من الوادي، ونزل المشركون بجانبه الأبعد من المدينة الأقرب إلى مكّة والوادي بينهما، ثمّ

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٣٠.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٣٠.
٣. تفسير القمي ١: ٢٦١.

باتوا ليلتهم وناموا، ثمّ استيقظوا وقد أجنب أكثرُهم، وغلب المُشركون على ماء بَدْر وليس معهم ماء، فتمثّل لهم الشيطان فوَسْوَس إليهم وقال: أنتم يا أصحاب محمّد تزعُمون أنّكم على الحقّ، وأنّكم أولياء الله وفيكم رسوله، وأنّكم تُصلّون على غير وُضوء وعلى الجَنابَة، وقد عطِشتُم، ولَو كنتُم على الحقّ ما سبَقكم المُشركون إلى الماء، وما غلبوكم عليه، وما ينتظرون إلّا أن يُضعفكم العَطَش، فإذا قطع أعناقكم مشَوا إليكم فقتلوا مَن أحبَوا وساقوا بقيَّتكم إلى مكّة؛ فحَزنوا حُزناً شديداً وأشفقوا، فأنزل الله عليهم المطر ليلاً حتّى سال الوادي وامتلأ من الماء، فاغْتسل المُسلمون وتوضّأوا و شربوا وسقوا دوابّهم، وبَنوا على عُدْوته - أي جانبه - حِياضاً، واشتدّ الرَمْلُ وتلبّدت بذلك أرضُهم - وأوحلتْ أرضُ عدوّهم - حتّى ثبتَتْ عليها الأقدام، وزالتْ وَسْوَسة الشّيطان، فطابتْ نُفوسُهم، وقويتْ قُلوبُهم. وتهيّأوا للقِتال من الغد[1].

فذكَرهم الله ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ ويُحيط بكم ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ والنَّوم الخفيف العارض في البَدْء؛ لأنه وجَدتْ قلوبُكم ﴿أَمَنَةً﴾ مِن ضَرَر العدُوّ لا كَلالاً ولا إعياءً، وتِلك الأمَنة كانت ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى وبلُطفه، لا بالأمارات والأسباب العادية ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ الله ﴿عَلَيْكُم﴾ حال كَونكم نائمين ﴿مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعاً مُباركاً ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من حَدث الجَنابة وغيره ﴿وَيُذْهِبَ﴾ ويُزيل ﴿عَنكُمْ﴾ ذلك المطر ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ ووَسْوَسته المُخوّفة لكم، والشُّكوك العارضة لقُلوبكم - وقيل: اُريد بالرِّجز الجَنابة - ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ ويُقوّيها بالثِّقة بلُطفه وتأييده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ منكم على الأرض حتى تتمكّنوا وتقدِروا على المشي والكرّ بسُهوله، وقيل: يعني يُثبّت أقدامكم في الحرب.

عن القُمّي ﵀: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ وذلك أنّ بعض أصحاب النبيّ ﷺ احْتلم - إلى أن قال - وكان المطر على قُريش مثل العَزالي[2]، وكان على أصحاب رسول الله ﷺ رَذاذاً بقدر ما تُلبّد به الأرض، وخافت قُريش خوفاً شديداً فأقبلوا يتحارسون ويخافون البيات، فبعث رسول الله ﷺ عمّار بن ياسر و عبد الله بن مسعود فقال: «ادخُلا في القوم وآتونا بأخبارهم». فكانا يجولان بعَسكرهم فلا يرَون إلّا خائفاً ذعِراً، إذا صهَل الفرسُ وَثَب على جَحْفلته[3]، فسمِعوا مُنبّة بن الحجّاج يقول:

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٠.

٢. العَزالي: جمع عَزلاء، وهي مَصبّ الماء من القِربة، كِناية عن شِدّته.

٣. الجَحفلَة: شَفَة الفرس، بمعنى أنه يريد إسكاته عن الصهيل.

لا يترُك الجُوعُ لنا مَبيتا لا بُدّ أن نموتَ أو نُميتا

قالوا[١]: والله كانوا شِباعاً، ولكنّهم من الخوف قالوا هذا، وألقى الله في قُلوبهم الرُّعب، كما قال الله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾[٢].

فلمّا أصبح رسول الله ﷺ عبّأ أصحابه، وكان في عسكر رسول الله ﷺ فَرَسان، فرسٌ للزُّبير بن العوّام، وفرسٌ لمِقداد، وكان في عَسكره سبعون جملاً يتعاقبون عليها، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوي على جَملٍ يتعاقبون عليه والجمل لمَرْثَد، وكان في عسكر قُريش أربعمائة فرس، فعبّأ رسول الله ﷺ أصحابه بين يديه فقال: «غضّوا أبصاركم، ولا تبتدروهم بالقِتال، ولا يتكلّمنّ أحدٌ».

فلمّا نظرتْ قُريش إلى قِلّة أصحاب رسول الله قال أبو جهل: ما هُم إلّا أَكَلَة رأس[٣]، لَو بعثنا إليهم عَبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد، فقال عُتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً ومَدَداً؟ فبعثوا عمرو[٤] بن وَهْب الجُحمي، وكان فارساً شُجاعاً، فجال بفرسه حتى طاف [على] عسكر رسول الله، ثمّ صَعِد في الوادي وصوّت، ثمّ رجع إلى قُريش فقال: ما لهم كمين ولا مَدَد، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما ترونهم خُرْساً لا يتكلّمون يتلمّظون تلمّظ الأفاعي، ما لهم ملجأ إلّا سيوفهم، وما أراهم يولّون حتّى يُقْتَلوا، ولا يُقْتَلون حتّى يَقتُلوا بعَددهم، فارتأوا رأيكم. فقال له أبو جهل: كَذَبتَ وجَبُنْتَ وانتفخ سحْرُك[٥] حين نظرتَ إلى سُيوف أهل يثرب.

وفزِع أصحابُ رسول الله حين نظروا إلى كَثرة قُريش وقُوّتهم، فأنزل الله على رسوله ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٦]، وقد علِم الله أنّهم لا يجنحون ولا يُجيبون إلى السَّلم، وإنّما أراد بذلك تطييب قلوب أصحاب النبيّ، فبعث رسول الله ﷺ إلى قُريش فقال: «يا مَعشرَ قُريش، ما أحد [من العرب] أبغض إليّ مِن أن أبدأكم، فخلّوني والعرب، فإن أكُ صادقاً فأنتُم أعلا بِيَ عَيناً، وإن أكُ كاذباً كفَتْكُم ذُؤبان العَرب أمري؛ فارجِعوا».

فقال عُتبة: والله ما أفلح قَطّ الذين رَدّوا هذا. ثمّ ركِب جملاً له أحمر، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يجول في العسكر وينهى عن القِتال، فقال: «إن يكُن عند أحدٍ خيرٌ، فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يُطيعوه يرشُدوا».

---

١. في تفسير القمي: قال ﷺ.
٢. الأنفال: ١٢/٨.
٣. أي قليل يُشبعهم رأس واحد.
٤. في القمي: عمر.
٥. السُّحْر: كلّ ما تعلّق بالحلقوم من قلب ورئة، بمعنى: خِفتَ وجَبُنْتَ.
٦. الأنفال: ٦١/٨.

فأقبل عُتبة يقول: يا معشر قُريش، اجتمعوا واسمَعوا، ثمّ خطَبهم فقال: يُمْنٌ مع رَحْبٍ، ورَحْبٌ مع يُمن، يا معشر قُريش أطيعوني اليومَ واعْصُوني الدّهر، وارْجِعوا إلى مكّة و[اشربوا] الخُمور وعانقوا الحُور، فإنّ محمداً له إلٌّ وذِمّة وهو ابن عمّكم، فارجِعوا ولا تردّوا قولي[١]، وإنّما تُطالبون محمّداً بالعِير التي أخذها بنخلة، ودَم ابن الحضرمي وهُو حليفي وعليّ عَقْلُه[٢].

فلمّا سمِع أبو جهل ذلك غاظه وقال: إنّ عُتبة أطول الناس لِساناً وأبلغهم كلاماً، ثم قال: يا عُتبة، نظرتَ إلى سُيوف بني عبد المطلب وجبُنْتَ وانتفخ سَحْرُك، وتأمُر النّاس بالرُّجوع وقد رأينا ثارنا بأعيُننا، فنزل عُتبة عن جَمَله وحمَل على أبي جهل، وكان على فرس، فأخذ بشَعره فقال النّاس: يقتُله[٣]، فقال: أمثلي يجبُن؟! وستعلم قُريش اليوم أيّنا ألْأم وأجبن، وأيّنا المُفسد لقومه، لا يمشي إلّا أنا وأنت إلى الموت عِياناً، ثمّ قال:

هذا جناي وخِياره فيه وكُلّ جانٍ يده إلى فيه.

ثمّ أخذ بشعره يجُرّه، فاجْتمع إليه النّاس فقالوا: يا أبا الوليد، الله [الله] لا تفُتّ في أعضاد النّاس، تنهى عن شيءٍ وتكون أوّله، فخلّصوا أبا جهل من يده.

فنظر عُتبة إلى أخيه شَيبة ونظر إلى ابنه الوليد فقال: قُم يا بني، فقام ثمّ لبِس دِرعه، وطلبوا له بَيضة تسَعُ رأسَه فلَم يجِدوها لعِظَم هامته، فاعْتمّ بعِمامتين، ثمّ أخذ سيفه وتقدّم هُو وأخوه شَيبة وابنه الوليد ونادى: يا محمّد أخرِج إلينا أكفاءنا من قُريش، فبرز إليه ثلاثة نفر من الأنصار: عَوذ[٤] ومُعوِّذ وعوف [من] بني عفراء فقال عُتبة: مَن أنتُم؟ انتسِبوا لنعرفكم. فقالوا: نحنُ بنو عفراء أنصار الله وأنصار رَسول الله، فقال: ارجِعوا فإنّا لسنا إيّاكم نُريد، إنّما نُريد الأكفاء من قُريش، فبعث إليهم رَسُول الله ﷺ «أن ارجِعوا» فرجِعوا، وكرِه أن يكون أولّ الكرّة بالأنصار، فرجِعوا ووقفوا موقفهم.

ثمّ نظر رسول الله ﷺ إلى عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب؛ وكان له سبعون سنة، فقال له: «قُم يا عبيدة»، فقام بين يديه بالسّيف، ثمّ نظر إلى حمزة بن عبد المُطّلب فقال: «قُم يا عَمّ»، ثمّ نظر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: «قُم يا عليّ»؛ وكان أصغر القوم سِنّاً فقال: «اطلبوا بحقّكم الذي جعله الله لكم، فقد جاءت قُريش بخُيَلائها وفَخْرها تُريد أن تُطفئ نور الله ويأبى الله إلّا أن يُتِمّ نوره».

ثمّ قال: «يا عُبيدة عليك بعتُبة»، وقال لحمزة: «عليك بشَيبة»، وقال لعليّ عليه السلام: «عليك بالوليد بن عُتبة»، فمرّوا حتّى انتهوإلى القوم، فقال عُتبة: مَن أنتُم انتسبوا لنعرفكم. فقال عُبيدة: أنا عُبيدة بن

---

١. في المصدر: رأيي. ٢. أي دِيَته. ٣. زاد في المصدر: فعرقب فرسه.

٤. في مغازي الواقدي ١: ٦٨ مُعاذ، بدل: عوذ.

الحارث بن عبد المطلب، فقال: كُفوٌ كريم. [فقال:] فَمن هذان؟ فقال: حمزة بن عبد المُطلب وعلي بن أبي طالب، فقال: كُفوان كَريمان، لعن الله مَن أوقفنا وإيّاكم هذا الموقف، فقال شَيبة لحمزة: مَن أنت؟ فقال: أنا حمزة بن عبد المُطلب أسد الله وأسد رسوله، فقال له شَيبة: لقد لقيتَ أسدَ الحُلَفاء، فانظُر كيف تكون صَولتُك يا أسد الله؟

فحمل عُبيدة على عُتبة فضربه على رأسه ففلق هامته، وضرب عُتبة عُبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعاً، وحمل حَمزة على شَيبة فتضاربا بالسّيفين حتّى انثلما وكلّ واحد منهما يتّقي بدَرَقته، وحمل أمير المؤمنين عليه السلام على الوليد بن عُتبة فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه. فقال عليّ عليه السلام: «فأخذ يمينه المَقطوعة بيَساره فضرب بها هامتي، فظننتُ أن السّماء وقعتْ على الأرض». ثمّ اعتنق حَمزة وشيبة فقال المُسلمون: يا علي أماترى الكلب قد بَهَر[1] عمّك، فحمل عليه علي عليه السلام ثمّ قال: «يا عَمّ طأطئ رأسك» وكان حمزة أطول من شَيبة، فأدخل حمزة رأسه في صدره، فضربه أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه فطيّر نِصفه، ثم جاء إلى عُتبة وبه رَمَق فأجهز عليه، وحُمل عُبيدة بين حمزة وعلي حتّى أتَوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعبر، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي، ألستُ شهيداً؟ قال: «بَلى، أنت أوّل شهيد من أهل بيتي»، فقال: أما لو أنّ عمّك كان حيّاً لَعَلِم أنّي أولى بما قال منه، قال صلى الله عليه وآله: وأيّ أعمامي تعني؟ قال: أبو طالب، حيثُ يقول:

كذَبتُم وبيت الله نُبزَى[2] محمداً ... ولمّا نُطاعن دونه ونُناضلِ
ونُسْلِمه حتى نُصرّع حوله ... ونذهَل عن أبنائنا والحلائلِ[3]

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أماترى ابنه كالليّث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر في جِهاد الله بأرض الحبشة؟» فقال: يا رسول [الله]، أسخِطْتَ عليّ في هذه الحالة؟ فقال: «ما سخِطتُ عليك، ولكن ذكرتَ عمّي فانقبضتُ لذلك».

وقال أبو جهل لقريش: لا تعجَلوا ولا تبطَروا كما عجِل وبطِر ابناء ربيعة، عليكم بأهل يثرب فاجْزُروهم جَزراً، وعليكم بقُريش فخُذوهم أخذاً حتى نُدخلهم مكّة، فنُعرّفهم ضَلالتهم التي كانوا عليها.

وكان فئةٌ[4] من قُريش أسلموا بمكّة فحبسهم آباؤهم، فخرجوا مع قُريش إلى بَدر وهُم على الشكّ والارْتِياب والنّفاق؛ منهم: قَيس بن الوليد بن المُغيرة، وأبو قيس بن الفاكهة، والحارث بن ربيعة،

---

١. بَهَر: أي أجهده حتى تتابع نفَسُه.
٢. أي نُسلب، وأراد لا نُبزى.
٣. ديوان أبي طالب عليه السلام: ٢٥.
٤. في تفسير القمي: فتية.

وعليِ بن اُميّة بن خلف، والعاص بن المنبّة، فلمّا نظروا إلى قِلّة أصحاب محمّد ﷺ قالوا: مساكين هؤلاء غرَّهم دينهم فيُقتلون السّاعة.

إلى أن قال: فجاء إبليس إلى قُريش في صورة سُراقة بن مالك فقال لهم: أنا جارٌ لكم، ادفَعوا إليّ رايتكم؛ فدفعوها إليه، وجاء بشياطينه يُهوّل بهم على أصحاب رسول الله، ويُخيّل إليهم ويُفزعهم، وأقبلتْ قُريش يقدُمها إبليس معه الرّاية، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه: «غُضُّوا أبصاركم وعَضُّوا على النّواجذ، ولا تسُلّوا سيفاً حتّى آذن لكم» ثمّ رفع يده إلى السماء فقال: «يا رَبّ إن تهلَك هذه العِصابة لم تُعبد، وإن شئتَ أن لا تُعبد» لا تُعبد، ثمّ أصابه الغَشيُ فسُرّي عنه وهُو يسلُت[1] العرقَ عن وجهه ويقول: «هذا جَبرئيل قد أتاكم في ألفٍ من الملائكة مُردِفين». قال: فنظرنا فإذا بسَحابة [سوداء] فيها بَرق لائح قد وقعتْ على عَسكر رسول الله ﷺ وقائل يقول: أقدِم حَيزوم، [أقدم حَيزوم] وسمِعنا قَعْقعة السِّلاح مِن الجَو. الخبر[2].

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ[١٢ ـ ١٤]

ثمّ ذكَر الله المسلمين وقتَ الرّبط على قُلوبهم وتثبيت أقدامهم بقوله: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ**﴾ قيل: إنّ التقدير: اذكُر وقتاً يُوحي ربّك[3] ﴿**إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ**﴾ المأمورين بنُصرة المؤمنين ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ**﴾ بالنّصر والعَون، وقيل: إنّ التقدير: أن قولوا للمُؤمنين بالإلهام أو بتوسُّط الرّسُول: إنّ الله معكم ﴿**فَثَبِّتُوا**﴾ أيُّها الملائكة ﴿**ٱلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ في مَعركة القِتال والنِّزال بتَقوية قُلوبهم وإيمانهم، وبِشارتهم بالنّصر، وتكثير سَوادهم، وقولوا لهم: إنّي ﴿**سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ**﴾ منهم، والخَوف من سَطوتهم ﴿**فَاضْرِبُوا**﴾ أيُّها الملائكة، أو المؤمنون ﴿**فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ**﴾ وأعاليها التي هي المَذابح ﴿**وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ وأصابع. وقيل: إنّ المُراد ضَرب جميع الأعضاء مِن أعاليها وأسافلها.

﴿**ذٰلِكَ**﴾ المذكور مِن إلقاء الرُّعب في قُلوب الكُفّار، وضَرب أعضانهم ﴿**بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا**﴾ وعاندوا ﴿**ٱللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ وعارضوهما ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ**﴾ ويُعاند ويُعارض ﴿**ٱللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ ويسعى في إطفاء

---

١. أي يمسحه ويزيله. ٢. تفسير القمي ١: ٢٦١، تفسير الصافي ٢: ٢٧٧.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٢١.

نُورهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُعاقبه عِقاباً شديداً، لكونه تعالى ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَن أشرك به وعاده، وعادى أولياءه، وما نزل بهم في [هذا] اليوم قليل [إذا قيس] بما أعدّ لهم وحكم في حقّهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب العاجل من القَتل والخِزي، أيُّها الكفار ﴿فَذُوقُوهُ﴾ واطْعَموا طَعْمه في الدُّنيا ﴿وَ﴾ اعلَموا ﴿أَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الذي يكون ما نزل بكم بالنِّسبة إليه يسيراً في الغاية.

القُمّي ﵀: وخرج أبو جهل بين الصفّين فقال: اللّهم إنّ محمداً قطعنا الرحِمَ وأتانا بما لا نعرِفه فأهِنْه الغَداة ـ إلى أن قال القُمّي: ـ ثمّ أخذ رسول الله ﷺ كفّاً من حَصى فرمى به في وُجوه قُريش وقال: «شاهتْ الوُجوه»، فبعث الله رِياحاً تضرِب وُجوه قُريش، فكانت الهزيمة[١]، فقُتل منهم سبعون وأُسِر سبعون.

والتقى عَمرو بن الجَموح مع أبي جهل، فضرب [عمرو] أبا جهل على فَخِذه، وضرب أبو جهل عَمراً على يده، فأبانها من العَضُد فتعلّقت بجِلدة، فاتّكأ عَمرو على يده برجله، ثمّ نزا[٢] في السّماء حتى انقطعت الجِلدة ورمى بيده.

وقال عبد الله بن مسعود: انتهيتُ إلى أبي جهل وهو يتشحّط بدمه، فقلتُ: الحمدُ لله الذي أخزاك، فرفع رأسه فقال: إنّما أخزى عبدَ بن أمّ عبد[٣]، لمَن الدِّين، ولمَن المُلك [ويلك]؟ قلتُ: لله ولرَسُوله، وإنّي قاتِلُك، ووضعتُ رِجلي على عُنقه، فقال: لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعي الغَنم، أما إنّه ليس شيءٌ أشدّ مِن قتلِك إيّاي في هذا اليوم، لا يَولي قتلي إلّا رجلٌ مِن المطلبيين[٤] أو رجلٌ من الأحلاف، فقلعتُ بيضةً كانت على رأسه فقتلتُه، وأخذتُ رأسه وجِئت به إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله البُشرى، هذا رأس أبي جهل، فسجد لله شُكراً.

وأسَر أبو بِشر الأنصاري العباس بن عبد المُطلب وعقيل بن أبي طالب، وجاء بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «هل أعانك عليهما أحدٌ؟» قال: نعم، رَجلٌ عليه ثِياب بِيض، فقال رسول الله ﷺ: ذاك من الملائكة. ثمّ قال رسول الله ﷺ للعباس: «افدِ نفسك وابن أخيك»، فقال: يا رسول

---

١. زاد في المصدر: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام».

٢. نزا: وثب.

٣. في المصدر: إنّما أخزى الله عبدَ بن أُمّ عبد الله.

٤. في المصدر: هذا اليوم ألا تولى قتلى رجل من المطمئنين، ولعل الصواب: المُطيِّبين، وحلف المطيِّبين: اجتمع بنُو هاشم وبنُو زهرة وتيم في دار ابن جُدعان في الجاهلية، وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم فسموا المُطيِّبين، وتعاقدت بنو عبد الدار مع جُمَح ومخزوم وعَدِيّ وكَعْب وسَهْم حِلفاً آخر مؤكَّداً، فسُمّوا الأحلاف لذلك. النهاية ٣: ١٤٩.

الله، قد كنتُ أسلمتُ، ولكنّ القوم استكرهوني، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، إن يكُن ما تذكُر حقّاً فالله يُجزيك عليه، فأمّا ظاهر أمرك فقد كُنت علينا». ثم قال: «يا عباس، إنّكم خاصمتُم الله فخصَمكم»، ثمّ قال: «افدِ نفسك وابن أخيك» وقد كان العباس أخذ معه أربعين أُوقية من ذهب، فغنِمها رسول الله ﷺ، فلمّا قال رسول الله [للعباس]: «افدِ نفسك وابن اخيك» قال: يا رسول الله، احسُبها مِن فدائي، فقال رسول الله: «لا، ذاكَ شيءٌ أعطانا الله مِنك، فافدِ نفسك وابن أخيك»، فقال العبّاس: ليس لي مالٌ غير الذي ذهب مِنّي، قال: «بَلى، المال الذي خلّفته عند أمّ الفضل بمكّة، وقلتَ لها: إن حَدث عليّ حدَثٌ فاقسِموه بينكم»، فقال له: تتركني[1] وأنا أسأل النّاسَ بكفّي؟!

ثمّ قال رسول الله ﷺ لعقيل: «قد قتَل الله أبا جهل بن هشام، وعُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة، ومُنَبِّه ونَبِيه ابني الحجّاج، ونوفل بن خُويلد، وأُسِر سُهيل بن عمرو، والنَّضْر بن الحارث بن كَلَدة، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وفلان وفلان»، فقال عقيل: إذاً لا تنازع في تِهامة، فان كنت أثخنْتَ القوم وإلّا فاركَب أكتافهم، فتبسّم رسول الله ﷺ.

إلى أن قال القُمّي ﵀: فجمعوا الأُسارى وفرّقوهم في الجِمال[2]، وساقوهم على أقدامهم، وجمَعوا الغنائم. وقُتل من أصحاب رسول الله تِسعة رِجال؛ فيهم سعد بن خَيثمة، وكان من النُقَباء.

فرحل رسول الله ﷺ ونزل الأثيل عند غُروب الشمس، وهو مِن بَدر على سِتّة أميال، فنظر رسول الله ﷺ إلى عُقبة بن أبي معيط وإلى النَّضر بن الحارث، وهُما في قِران واحد، فقال النَّضْر لعُقبة: أنا وأنت مَقتولان، فقال عُقبة: مِن بين قريش؟ قال: نعم، لأنّ محمّداً قد نظر إلينا نظرةً رأيتُ فيها القتل. فقال رسول الله ﷺ: «يا عليّ عَلَيّ بالنَّضر وعُقبة» وكان النَّضْر رجلاً جميلاً، عليه شَعر، فجاء علي ﵇ فأخذ بشَعره، فجرّه إلى رسول الله ﷺ، فقال النَّضر: يا محمّد أسألك بالرَّحِم التي بيني وبينك إلّا أجريتني كرجُل مِن قُريش إن قتلتَهم قتلتني، وإن فاديتهم فاديتني، وإن أطلقتهم أطلقتني، فقال رسول الله ﷺ: لا رَحِم بيني وبينك، قطع الله [الرَّحِم] بالإسلام. قدِّمه يا عليّ فاضرِب عُنقه». [فقدّمه وضرب عُنقه].

فقال عُقبة: [يا محمّد] ألم تقُل: «لا تُصبَر قريش» ـ أي لا يُقتلون صبراً ـ قال: «أوَ أنت من قريش؟! إنّما أنت عِلجٌ مِن أهل صَفُّورية[3]، لأنت في الميلاد أكبر مِن أبيك الذي تُدعى له، قَدِّمْه يا عليّ

---

١. في المصدر: ما تتركني إلّا.

٢. كذا في النسخة والصافي، وفي تفسير القمي: وقرنوهم في الجمال، ولعلّه تصحيف: وقرنوهم في الحبال.

٣. صَفُّورية: بلدةٌ بالأُردُن.

فاضرب عُنقه»، فقدَّمَه فضرب عُنقه[١].

وعن ابن عباس: سوّى أصحابُ رسول الله صُفوفهم وقدّموا راياتهم، فوضعوها مَواضعها، فوقف رسول الله ﷺ على بعيرٍ له يدعو الله ويستغيث، فهبط جَبرئيل في خمسمائة على مَيمنتهم، وميكائيل في خمسمائة على مَيسرتهم، فكان المَلَك يأتي الرَّجلَ من المسلمين على صُورة رَجل ويقول له: دنوتُ من عسكر المُشركين فسَمِعتهم يقولون: والله لئِن حمَلوا علينا لا نثبُت لهم أبداً، فألقى الله في قُلوب الكَفَرة الرُّعب بعد قِيامهم للصَفّ[٢].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[١٥ و ١٦]

ثمّ لمّا ذكر الله نِعمته على أهل بدر بالثّبات والاستِقامة في الحرب، أمر المسلمين كافّة بالثّبات في مُطلق جِهاد الكفّار بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ﴾** وصادفتُم **﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** في أيّ وقت وأيّ مكان، حالَ كونهم **﴿زَحْفاً﴾** ومُقبلين إليكم للقِتال **﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾** ولا تجعلوا ظُهوركم نَحوهم فضلاً عن الفِرار، وإن كانوا أضعافكم.

ثمّ هدّدهم سُبحانه على الفِرار بقوله: **﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾** وحينَ التقائهم **﴿دُبُرَهُ﴾** وجعل ظَهره نحوهم بأيّ داعٍ من الدّواعي **﴿إِلَّا﴾** أن يكون المُولّي **﴿مُتَحَرِّفاً﴾** ومائلاً إلى طائفة اُخرى **﴿لِقِتَالٍ﴾** أو إلى جِهةٍ اُخرى ليتخيّل الكافر أنّه انْهزم فيتعاقبه ويبعُد عن أعوانه، ثمّ يكُرّ عليه وَحده **﴿أَوْ﴾** يكون **﴿مُتَحَيِّزاً﴾** ومُتوجّهاً **﴿إِلىٰ فِئَةٍ﴾** وجَماعة من المُسلمين ليستعين بهم، فليس المُولّي في هاتين الصُّورتين فارّاً من القِتال، بَل هُو مُتهيّئ ومُتقوٍّ للحرب، ومَن تولّى لغير هذين الغَرضين **﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾** شديدٍ كائنٍ **﴿مِنَ ٱللهِ﴾** القاهر الغالب، وأثر هذا الغضب أن يكون منزله **﴿وَمَأْوَاهُ﴾** في الآخرة النّار المُوقدة بذلك الغضب، تسمّى **﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾** والمَرجِع تِلك، فلا ترجِعوا من مُقابل الكُفّار إلى مأوىً تأمنون فيه من القَتل حتّى لا تبتلُوا بالرُّجوع إلى مأوىً من النّار.

عن الكاظم عليه السلام، **﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾** قال: «متطرّداً يُريد الكَرّة عليهم **﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ﴾** يعني مُتأخّراً إلى أصحابه مِن غير هَزيمة، فَمن انهزم حتّى يجُوز صَفّ أصحابه فقد باء بغضبٍ من الله»[٣].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٦٧، تفسير الصافي ٢: ٢٨٣. ٢. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٢.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧١١/١٨٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٦.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلٰكِنَّ ٱللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ ٱللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ [١٧ و ١٨]

ثمّ قوّى سُبحانه قُلوب المؤمنين في الجِهاد ببَيان أنّه هو القاهر للأعداء وقـاتِلهم وهـازمهم كـما قتَلهم وهزَمهم ببَدر، بقوله: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ**﴾ في غَزوة بَدر بقُوّتكم وقُدرتكم ﴿**وَلٰكِنَّ ٱللهَ**﴾ بقُدرته ﴿**قَتَلَهُمْ**﴾ حيث قوّى قُلوبكم، وأزال عنكم الخوف، وأيّدكم بالملائكة، وألقى فـي قُـلوبهم الرُّعب ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾ الحَصى أو التّراب في وُجوه قُريش يومَ بَدر ﴿ **إِذْ رَمَيْتَ**﴾ الحصى أو التُّراب يا محمّد ﴿**وَلٰكِنَّ ٱللهَ**﴾ في الحقيقة ﴿ **رَمَىٰ**﴾ حيثُ إنّه أمرك بالرّمي، وأوصل الحَصاة إلى عُيون المشركين.

رُوي أنّه لمّا طلعتْ قُريش من العَقَنْقَل ـ وهُو الكَثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي ـ قال ﷺ: «اللّهم هذه قُريش جاءت بخُيَلائها وفَخرها، يُكذّبون رَسُولك، اللّهم إنّي أسألك ما وعدتني» فأتاه جَبرئيل فقال: خُذ قَبضةً مِن تُرابٍ فارْمِهم بها، فلمّا التقى الجمعان قال لعليّ عليه السلام: «أعطني من صباء الوادي»، فرمى بها في وُجوههم وقال: «شاهتْ الوُجوه» ـ أي قبُحتْ ـ فما مِن المشركين أحدٌ إلّا أصاب عينيه ومِنخَريه تُرابٌ، فانهزموا وردَفهم المؤمنون يقتُلونهم ويأسِرونهم، ثمّ لمّا انصرفوا من المعركة غالبين غانمين، أقبلوا على التّفاخُر يقولون: قتلتُ وأسَرتُ وفعلتُ وتركتُ، فنزلت[١].

فحاصل الآية أنّ الرّمي وإن كان بيدك، إلّا أن إيصال ذرّات الحصى في وُجوه جميع المُشركين؛ بحيث لَم يبقَ فيهم عينٌ إلّا أصابها منه، لَم يكُن إلا بقُدرة الله تعالى وعلى خِلاف العادة.

وإنّما فعل ذلك ليمحَق الكافرين ﴿**وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ ويمتحنهم ﴿**مِنْهُ بَلاءً**﴾ وامتحاناً ﴿**حَسَناً**﴾ ليعلَم أنّهم يقومون بشُكره أم لا. وقيل: يعني: ليُنعِم عليهم نِعمةً عظيمةً من النّصر والغَلَبة ومُشاهدة الآيات ﴿**إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ**﴾ لدُعائهم واسْتِغاثتهم ﴿ **عَلِيمٌ**﴾ بنِيّاتهم وصَفاء ضمائرهم، وانْقِطاعهم عن الأسباب.

﴿**ذٰلِكُمْ**﴾ البَلاء الحَسَن للمؤمنين إحدى العِلَل، والثانية: أن يعلَم المؤمنون أنّ الله مُؤيّدهم ﴿**وَأَنَّ ٱللهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ**﴾ ومُبطل حِيَلهم في إطفاء نُور الحقّ، والإخلال في أمر نبيّه ﷺ.

وقيل: نزل قوله: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾ في يوم خيبر، فأخذ رسول الله ﷺ قوساً وهُو على باب خيبر فرمى سهماً، فأقبل السّهم حتّى قتل ابن أبي الحُقَيق، فنزلتْ[٢].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٥.

٢. تفسير الرازي ١٥: ١٤٠.

وقيل: نزلتْ في أُحد، وذلك أنّه أتى النبيَّ ﷺ خلف بعَظْمٍ رَميم وقال: يا محمد، مَن يُحيي هذا وهو رَميم؟ فقال ﷺ: يُحييه الله [ثم يُميتك، ثم يُحيك]، ثمّ يُدخلك النّار» فأُسِر يومَ بَدْرٍ، فلمّا افتُدِي قال لرَسول الله ﷺ: إن عندي فرساً أعتلفها كُلَّ يومٍ فَرَقاً[1] من ذُرَة كي أقتُلك عليها، فقال ﷺ: «بل أنا أقتُلك إن شاء الله».

فلمّا كان يومَ أحد أقبل أُبي يركُض على ذلك الفرس حتّى دنا من رسول الله ﷺ، فاعترض له رِجالٌ من المسلمين ليقتُلوه، فقال ﷺ: «استأخروا»، ورَماه بحَربةٍ فكسر ضِلعاً من أضلاعه، فحُمل فمات ببعض الطّريق، فنزلت[2].

ثمّ أنه رُوي أنّ أهل مكّة لمّا أرادوا الخُروج إلى بَدر تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهم انصُر أعلى الجُندَين، وأهدى الفِئتَين، وأكرمَ الحِزبَين، وأفضل الدِّينَين[3].

ورُوي أنّ أبا جهل قال يومَ بَدر: اللّهم انصُر أفضل الفَريقين وأحقّهما بالنّصر، اللّهم أيّنا أقطع للرَّحِم وأفسدُ للجَماعة فاقتُلْه[4].

إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٩]

فبيّن الله استِجابة دُعائهم في حقّ المؤمنين بقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ وتستنصِروا يا أهل مكّة لأعلى الجُندَين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ﴾ من قِبَل الله ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ والنُّصرة. وذلك على سبيل التّهكُّم. وقيل: إنّ التهكُّم في إطلاق الفتح على الهزيمة والخِزي.

ثمّ وعظهم بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ وترتدِعوا عن الكُفر والعِناد والعِصيان ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البَقاء عليها والابتِلاء بالحرب ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى مُحاربة الرّسُول ﴿نَعُدْ﴾ إلى نُصرته وتأييده، وخِذلانكم وقَهركم ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ ولن تَكُفّ، أو لن تدفَع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ وجَماعتكم التي تجمعونها ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ الفئة عدداً وعُدّة ﴿وَ﴾ اعْلَموا ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ بالنّصر والعَون ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بتَوحيده وبرَسُوله وكِتابه.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ

---

١. الفَرَق: مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصُع.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٤٠.
٣. تفسير الرازي ١٥: ١٤٢.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٢٨.

ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ[٢٠ـ٢٣]

ثمَ أنه تعالى بعدَ الأمر بالثَبات في جِهاد الكُفَار والتَهديد على التولّي عنهم، أمر بالثَبات في طاعة الرَسُول، وعدم التولّي عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع أوامره ونَواهيه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ ولا تُعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ ولا تُخالفوه في شيءٍ من الأمور ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن الذي أنزله الله عليه، الدالّ على نُبوّته باشتِماله على مَعاجزكثيرة، الناطق بوُجوب طاعته ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيُها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ إذا تُليت عليهم آياتُ الله ﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ تِلك الآيات سَماع فَهم وقَبول ﴿وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ﴾ سَماع القَبُول عن صَميم القلب، ولا ينتفعون بها شيئاً، بَل يستهزئون بها سِرّاً ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ﴾ والحَيوانات التي تدُبّ وتتحرّك في الأرض، أو البهائم التي تمشي على أربع، وأخسّها ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي حُكمه ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الّذين لا يسمعون الحقّ و﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطِقون به ﴿ٱلَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ﴾ الحقّ ولا يُدركونه ولا يُميّزون بينه وبين الباطل، فمَن لَم يسمع الآيات الإلهيّة سَماع القَبُول، ولَم يفهمها حقّ الفَهم، فهُو شرٌّ منهم عندَ الله، وإنّما كان اتّصافهم بتِلك الرّذائل لعدم الخَير فيهم أصلاً ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً﴾ سيَما من جِهة قابليّة الذّات وطيب الطينة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآيات والمَواعظ، وفهّمهم مَعانيها وحقائقها ﴿وَ﴾ لكن خبثت ذاتهم وطينتهم بحيث ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عن قَبولها، وما انتفعوا من سَماعها ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنها غير مُعتنين بها لعِنادهم.

عن الباقر عليه السلام: نزلت في بني عبد الدّار، لَم يكُن أسلم منهم غير مُصعَب بن عُمير، وحَليف لهم يُقال له شويبط»[١].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[٢٤]

ثمَ أكَد سُبحانه الأمر بإجابة دَعوة الرّسُول وطاعته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وبادِروا إلى قَبول دَعوتهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرّسول المُبلّغ عن الله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ حياة الأبد من المَعارف الإلهيّة، والعُلوم الحقّة، ومَحاسن الأخلاق، والأعمال الصّالحة، فإنّ جميعها سبب حَياة القلب التي لا موت بعدها.

---

١. مجمع البيان ٤: ٨١٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٨، وفي النسخة: سويط، بدل سويبط، راجع: أسد الغابة ٢: ٣٧٦، قاموس الرجال ٥: ٣٣٩/٣٤٦٥.

وقيل: هُو الدَعوة إلى الإيمان وقيل: إلى القُرآن: وقيل: إلى الجِهاد الذي هُو سبب الشهادة التي بها الحَياة الأبديّة.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في وِلاية علي عليه السلام»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «ولاية علي عليه السلام، فإنّ اتّباعكم إيّاه ووِلايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم».

والقُمّي: الحياة: الجنّة[٢].

ثمّ هدّد على ترك الأجابة بالخِذلان في الدُّنيا بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ قريبٌ منكم وأنتم في قبضة قُدرته بحيث ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ ونفسه وإرادته، بأن يصرِفه عنها.

القمي: أي يحول بينه وبين ما يُريد[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «يَحول بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار» وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمِل بها الإيمان، واعْلَموا أنّ الأعمال بخَواتيمها»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «يَحول بينه وبين أن يعلَم أنّ الباطل حقّ»[٥].

وعنه عليه السلام: «معناه لا يستيقِن القلبُ أنّ الحقّ باطلٌ أبداً، ولا يستيقِن القلبُ أنّ الباطل حقٌّ أبداً»[٦].

وعنه عليه السلام: «هو أن يشتهي الشيء، بسَمعه وبَصره ولِسانه ويَده، فإنْ هُو غَشي شيئاً مِمّا[٧] يشتهيه فإنّه لا يأتيه إلّا وقلبه مُنكر لا يقبَل الذي يأتيه لأنّه[٨] يعرف أنّ الحقّ ليس فيه»[٩].

أقول: كان في عِبارة الرّواية ـ بنظري ـ الاغْتِشاش، فغيّرتُها إلى ما فهمتُ مِن معناها.

وعن الباقر عليه السلام: «هذا الشيء يشتهيه الرّجُل بقَلبه وسَمعه وبَصره، لا تَتوق نفسُه إلى غير ذلك، فقد حِيل بينه وبين قلبه، فلا يتوجّه إلى ذلك الشيء»[١٠].

أقول: الظاهر أنّ التّهديد فيه بالخِذلان وصَرف القلب عن إرادة الخير.

ثمّ هدّدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يومَ القِيامة من القبور فيُجازيكم على أعمالكم، ويُعاقبكم على عِصيانكم أوامر الرّسول ونَواهيه، وعدم إجابتكم دعوته، فسارعوا إلى طاعته، وبادِروا إلى إجابته.

---

١. الكافي ٨: ٣٤٩/٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٢ و٣. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٤. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٧١٦/١٨٩، التوحيد: ٦/٣٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٧١٩/١٩٠، مجمع البيان ٤: ٨٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٧. في تفسير العياشي: أما إنّه لا يغشى شيئاً منها، وإن كان.
٨. في تفسير العياشي: الذي يأتي.
٩. تفسير العياشي ٢: ١٧١٧/١٨٩، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
١٠. تفسير العياشي ٢: ١٧١٨/١٨٩، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.

وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٢٥]

ثمّ هدّدهم بابتِلائهم بالفِتن والبَلايا في الدُّنيا بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا﴾ أيُّها المؤمنون بطاعة الرّسول ﴿فِتْنَةً﴾ وبَلاءً عاماً ﴿لَاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعصَوا الرّسول ﴿مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ بَل تعمّهم وغيرَهم ممّن أطاع؛ كافتِراق الكلمة، وظُهور البِدَع.

عن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «أصابتْ النّاس فِتنةٌ بعد ما قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله، حتّى تركوا علياً وبايعوا غيره، وهي الفِتنة التي فُتنوا بها، وقد أمرهم رسول الله باتِّباع عليّ والأوصياء من آل محمّد»[1].

وعن ابن عبّاس: لمّا نزلتْ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن ظَلَم علياً مَقعدي هذا بعدَ وفاتي، فكأنّما جحَد نُبوّتي ونُبوّة الأنبياء قبلي»[2].

وعن القُمّي: نزلتْ في طلحة والزُّبير لمّا حاربا علياً عليه السلام [وظلموه][3].

وعن الحسن: نزلتْ في عليّ وعمّار، وطَلحة والزُّبير، وهُو يوم الجَمل خاصّة[4].

روى الفخر الرازي: أنّ الزُّبير كان يُسامر النبيّ صلى الله عليه وآله يوماً، إذْ أقبل عليّ فضَحِك إليه الزُّبير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف حُبُّك لعليّ؟» فقال: يا رسول الله، أحبّه كحُبّي لوَلدي أو أشدّ، فقال: «كيف أنت إذا سِرتَ إليه تُقاتله؟»[5]

وقيل: نزلتْ في أهل بَدر اقتتلوا يوم الجَمل[6].

وعن الحدّادي في تفسيره: نزلتْ في عُثمان وعلي عليه السلام، أخبر الله تعالى النبيّ صلى الله عليه وآله بالفِتنة التي تكون بسببهما، قال: إنّها ستكون بعدَك تلقاها أصحابُك، تُصيب الظّالم والمظلوم، ولا تكون للظَلَمة وحدهم خاصّة، ولكنها عامّة. فأخبَر النبيُّ صلى الله عليه وآله بذلك أصحابه[7].

ثمّ بالغ في تهديدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿ٱعْلَمُوا﴾ أيُّها النّاس ﴿أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَن خالف الله ورسوله، وأهاج الفِتن بعد النبيّ صلى الله عليه وآله كالأوّل والثّاني والثّالث.

وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٠/١٧٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٨٩.
٢. مجمع البيان ٤: ٨٢٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.
٣. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٥: ١٤٩.
٦. مجمع البيان ٤: ٨٢١، تفسير الرازي ١٥: ١٤٩.
٧. تفسير روح البيان ٣: ٣٣٣.

فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٢٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد التّهديدات البليغة الأكيدة، رغّبهم في الطّاعة بقوله: **﴿وَٱذْكُرُوا﴾** أيّها المؤمنون المُهاجرون **﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾** في بَدْءِ إسلامكم **﴿قَلِيلٌ﴾** من حيثُ العدَد والعُدَة **﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾** ومَقهورون تحت أيدي كُفّار قُريش **﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾** التي كنتُم مُتوطّنين فيها؛ وهي مكّة، في حالٍ **﴿تَخَافُونَ﴾** مِن **﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾** ويستلِبكم **﴿ٱلنَّاسُ﴾** ويذهبوا بكم ويقتُلوكم **﴿فَآوَاكُمْ﴾** الله بلُطفه ورَحمته، وأسكنكم في المدينة **﴿وَأَيَّدَكُم﴾** وقوّاكم **﴿بِنَصْرِهِ﴾** إيّاكم على الكُفّار **﴿وَرَزَقَكُم مِنَ﴾** الغنائم **﴿ٱلطَّيِّبَاتِ﴾** المُحلّلات لكم **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** هذه النِّعمة الجليلة بالقيام بطاعة الرّسول ﷺ، وإجابة دَعوته.

القُمّي: نزلتْ في قُريش خاصّة[١].

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٢٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بطاعته وطاعة رسوله وإجابتهما، نهى عن خِيانتهما وغِشّهما بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ﴾** ولا تغُشّوهما.

رُوي أنّ النبيّ ﷺ حاصر بني قُريظة إحدى وعِشرين ليله، فسألوه الصُّلح كما صالح إخوانهم بني النَّضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرِعات وأريحا من بلاد الشام، فأبى عليه السلام إلّا أن ينزِلوا على حُكم سعد بن مُعاذ، فأبوا وقالوا: أرسِل إلينا إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر، وكان مُناصحاً لهم لأنّ عِياله [وماله] كانت في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: ماترى، هل ننزِل على حُكم سعد؟ فأشار [بيده] إلى حَلْقه [بالذبح]؛ أي إنّ حُكم سعد فيكم أن تُقْتَلوا صبراً، فلا تنزلوا على حُكمه[٢].

ورُوي عن الباقر عليه السلام قريبٌ منه: ثمّ قال: «فأتاه جَبرئيل فأخبره بذلك، قال أبو لُبابة: فوَ الله ما زالت قَدماي من مكانهما حتّى عرفتُ أنّي خُنتُ الله ورسوله. فنزلتْ الآية [فيه]، فلمّا نزلتْ شدّ نفسه على سارية مِن سَواري المسجد وقال: والله ما أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتّى أموت أو يتوب الله عليّ؛ فمكث سبعة أيّام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتّى خرّ مَغشيّاً عليه، ثمّ تاب الله عليه»[٣].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٧١، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٢. مجمع البيان ٤: ٨٢٣، تفسير روح البيان ٣: ٣٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٩٠.

٣. مجمع البيان ٤: ٨٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٩١.

القُمّي: عن الباقر عليه السلام: «فخِيانة الله ورسوله مَعصيتهما»[١].

ثمّ أنّه تعالى بعد النّهي عن خيانة نفسه وخيانة رسوله، نهى عن خيانة النّاس بقوله: ﴿وَ﴾ لا ﴿تَخُونُوا﴾ ولا تُضيّعوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ ولا تُفرّطوا فيها فيما بينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الخِيانة وقُبحها.

ومن المَعلوم أنّ من الأمانات أحكام الله وفرائضه التي ائتمن الله عِباده عليها، كما عن الباقر عليه السلام قال: «وأمّا خِيانة الأمانة، فكُلّ إنسانٍ مأمون على ما فرض الله عليه»[٢].

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا ٱللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ[٢٨ و ٢٩]

ثمّ لمّا كان الباعث إلى الخِيانة حُبّ المال والأولاد، كما كان ذلك في نفس أبي لُبابة، ذمّهما سُبحانه بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوا [أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ] أَنَّ ٱللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمَن آثر رضى ربّه على هوى نفسه، وأطاع حُكم الله، وراعى حُدوده وإن كان على ضَرَره وضَرَر أقاربه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقولَنّ أحدُكم: اللّهم إنّي أعوذ بك مِن الفِتنة؛ لأنّه ليس أحدٌ إلّا وهو مُشتمل على فِتنة، ولكن مَن اسْتعاذ فليستعِذ من مُضلّات الفِتن، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»[٣].

ثمّ بالغ سبحانه في التّرغيب إلى طاعته وطاعة رسوله والنُّصح له بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا ٱللهَ﴾ بالمُواظبة على طاعته وطاعة رسوله، والنُّصح لهما وترك الخِيانة في أماناتهما وأمانات النّاس ﴿يَجْعَل لَكُمْ﴾ بسَبب ذلك في قُلوبكم ﴿فُرْقَاناً﴾ ونُوراً تُميّزون به بين الحقّ والباطل، أو يُعرّفكم أُموراً تُفرّقون بها بين المُحقّ والمُبطل. عن القُمّي: يعني العِلم الذي به تُفرّقون بين الحقّ والباطل[٤].

﴿وَيُكَفِّرْ﴾ ويستُر ﴿عَنكُمْ﴾ في القِيامة ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وزَلّاتكم بأن يُبدّلها بالحَسنات ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذُنوبكم ومَعاصيكم بالعَفو والتّجاوز عنها ﴿وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والإحسان الجَسيم، ولِذا يُعطي الكثيرَ بالقليل، ويزيدكم من الثّواب على ما وعدكم به مِن الجنّة والنِّعم الدّائمة، والمَقامات

---

١. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩١.
٢. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩١، وفيهما: ما أفترض الله عزّ وجلّ عليه.
٣. مجمع البيان ٤: ٨٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.
٤. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩١.

العالية.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللهُ وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ [٣٠]

ثمّ ذكر سُبحانه خيانة النّاس برسوله، وحِفظه منها ليشكُر نِعمته، بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مُشركي قُريش ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويُوقِفوك في موضع لا تقدِر [على] الخُروج منه، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بأسيافهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة إلى غيرها ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويُدبّرون خُفيةً في شأنك ﴿وَيَمْكُرُ ٱللهُ﴾ ويُدبّر في رَدّ مَكرهم عليهم ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾ لا يرُدّ مَكرَه شيءٌ، ولا يُعبأ بمكر غيره عند مَكره.

روتْ العامّة أنّه لمّا رأت قُريش أنّ رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بَلدهم، ورأوا خُروج أصحابه من المُهاجرين إليهم، عرَفوا أنّهم قد نزلوا داراً وأصابوا سَعةً، فحذَروا خُروج رسول الله ﷺ، وعَرفوا أنّه قد أجمع لحَربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة؛ وهي الدّار التي بناها قُصَيّ بن كلاب بمكّة، وكانت قُريش لا تقضي أمراً إلّا فيها، وسُمّيت دار النّدوة لأنّهم ينتدون فيها، أي يجتمعون للمُشاورة، فتشاوروا في أمر النبيّ ﷺ، منهم عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، وأبو سُفيان والنَّضْر بن الحارث، وأبو البَخْتَري بن هِشام، وأُبيّ بن خلف، وزَمْعَة بن الأسود، وغيرهم من الرُّؤساء والأكابر.

فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير عليه ثيابٌ أطمار فجلس بينهم، فقالوا: ما لك يا شيخ، دخلتَ في خَلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجلٌ من أهل نَجد قدِمتُ مكّة، فأراكم حسنةً وُجوهكم، طيبةً روائحكم، فأحبَبْتُ أن أسمع حديثكم فاقتبِس منكم خيراً فدخلتُ، وإن كرِهتُم مَجلسي خرجتُ، وما جئتُكم إلّا لأنّي سمِعتُ باجْتِماعكم فأردتُ أن أحضر معكم، وأن لا تَعْدَموا[1] مِنّي رأياً ونُصحاً. فقالوا: هذا رجلٌ لا بأس عليكم منه.

فتكلّموا فيما بينهم، فبدأ عَمرو بن هِشام فقال: أمّا أنا فأرى أن تأخُذوا محمّداً فتجعلوه في بيتٍ تسُدّون عليه بابه، وتشُدّون عليه وَثاقه، وتجعلون له كُوَة تُدخلون عليه طَعامه وشَرابه، فيكون محبوساً إلى أن يموت، فقال إبليس: بئس الرأي، يأتيكم مَن يُقاتلكم من قومه ويُخلّصه مِن أيديكم، فقالوا: صدق والله الشيخ.

---

١. في تفسير روح البيان: ولن تعدَموا.

ثمّ تكلّم أبو البَختري بن هِشام فقال: أرى أن تحمِلوه على بعيرٍ فتشُدّوا وَثاقه عليه، ثمّ تُخرجوه مِن أرضكم حتّى يموت أو يذهب حيث شاء، فقال إبليس: بئس الرأي، تعمِدون إلى رجُلٍ أفسدَ جَماعتَكم، ومعه منكم طائفة، فتُخرجونه إلى غيركم، فيأتيهم فيُفسد منهم أيضاً جماعةً بما يرَون مِن حَلاوة كلامه وطَلاقة لِسانه، وتجتمع إليه العرب وتستمع إلى حُسن حديثه، ثمّ ليأتينّكم بهم فيُخرجكم مِن دِياركم ويَقتُل أشرافكم. فقالوا: صدق والله الشيخ.

فتكلّم أبو جهل فقال: أرى أن يجتمع من كُلّ بَطن منكم رجلٌ ويأخُذون السُّيوف فيضرِبونه جميعاً ضربةَ رجلٍ واحد، فيتفرّق دَمُه في القبائل، فلا يدري قومُه مَن يأخُذون به، ولا يقومون على حربِ قُريش كلّهم، وإذا طلبوا العَقْل عقَلْناه واسْترحنا، فقال إبليس: صدق والله [هذا] الشاب، وهُو أجودكم رأياً، القول قوله، فتفرّقوا على رأيه، فنزل جَبرئيل فأخبر النبيَّ ﷺ بذلك، وأمره أن لا يبيت في مَضجعه الذي كان يبيت فيه، وأمره بالهِجره إلى المدينة، فبيّت علياً عليه السلام على مَضجعه، وخرج هُو وأبوبكر إلى الغار[1].

وعن العيّاشي: عن أحدهما عليهما السلام: «أنّ قُريشاً اجتمعتْ فخرج من كُلّ بَطن أُناس، ثمّ انطلقوا إلى دار النّدوة ليتشاوروا فيما يصنعون برَسول الله ﷺ، فإذا شيخٌ قائم على الباب، فإذا ذهبوا ليدخُلوا قال: أدخِلوني معكم، قالوا: ومن أنت يا شيخ؟ قال: أنا شيخ من مُضَر، ولي رأيٌ أُشير به عليكم، فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس، وأجمعوا أمرهم على أن يُخرجوه، فقال: ليس هذا لكم برأي، إن أخرجتُموه أجلب عليكم[2] النّاس فقاتلوكم، قالوا: صدقتَ، ما هذا برأي.

ثمّ تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يُوثقوه، قال: ليس هذا برأي، إن فعلتُم هذا ومحمّد رجلٌ حُلوُ اللِّسان، أفسد عليكم أبناءكم وخَدَمكم، وما ينتفع أحدُكم إذا فارقه أخوه وابنُه وامرأتُه.

ثمّ تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتُلوه؛ يُخرجون من كُلّ بَطن منهم بشاهر فيضرِبونه بأسيافهم جميعاً عند الكَعبة». ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾[3].

وعن القُمّي: نزلتْ بمكّة قبل الهِجرة، وكان سَبب نزولها أنّه لمّا أظهر رسولالله ﷺ الدّعوة بمكّة قدِمتْ عليه الأوس والخَزرج، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تمنعوني وتكونون لي جاراً حتّى أتلو عليكم كِتاب ربّي وثَوابكم على الله الجنّة»، فقال سعد بن زُرارة والبَراء بن مَعْرُور وعبد الله بن حِزام: يا رسول الله، اشترط لربّك ولنفسك ما شِئت، فقال لهم: «موعدكم العَقبة في اللّيلة الوُسطى من ليالي

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٣٨.
٢. أجلب عليكم: جمع الناس عليكم وألّبهم.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٢٢/١٩٠، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.

التّشريق». فحجُّوا ورجَعوا إلى مِنى، وكان فيهم مِمّن قد حجّ بشرٍ كثير، فلمّا كان الثاني من أيّام التّشريق قال لهم رسول الله ﷺ: «إذا كان اللّيل فاحضَروا دارَ عبد المُطّلب على العقبة، ولا تُنبّهوا نائماً، ولينسلّ واحدٌ فواحد».

فجاء سبعون رَجلاً من الأوس والخَزرج فدخلوا الدّار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تمنعوني وتُجيروني حتّى أتلو عليكم كِتاب ربّي وثوابكم على الله الجنّة»، فقال سعد بن زُرارة والبَراء بن مَعْرُور وعبد الله بن حِزام: [نعم] يا رسول الله، اشترط لربّك ولنفسِك ما شئتَ، فقال: «أمّا ما اشترطُ لربّي، فأن تعبُدوه ولا تُشركوا به شيئاً، واشترطُ لنفسي أن تمنعوني مِمّا تمنعون أنفسَكم، وتمنعون أهلي ممّا تمنعون أهليكم وأولادكم».

فقالوا: فما لنا على ذلك، فقال: «الجنّة في الآخرة، وتملِكون العرب، ويدين لكم العجَم في الدُّنيا، وتكونون مُلوكاً في الجنّة». فقالوا: قد رضينا.

فقال: أخرجوا إليّ [منكم] اثنَي عشر نقيباً يكونون شُهداء عليكم بذلك، كما أخذ مُوسى عليه السلام من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، فأشار إليهم جَبرئيل فقال: هذا نقيب وهذا نقيب؛ تِسعة من الخَزرج وثلاثة من الأوس، فمِن الخزرج: سعد بن زُرارة، والبرّاء بن مَعْرُور، وعبد الله بن حِزام ـ أبو جابر بن عبد الله ـ، ورافع بن مالك، وسعد بن عُبادة، والمنذر بن عمر، وعبد الله بن رَواحة، وسعد بن الربيع، وعُبادة بن الصامت ومِن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان، وهو من اليمن، وأُسيد بن حُضَير[١]، وسعد بن خَيْثمة.

فلمّا اجتمعوا وبايعوا رسول الله ﷺ صاح إبليس: يا معشر قُريش والعرب، هذا محمّد والصُّباة من أهل يثرب على جمرة العقبه يُبايعونه على حَربكم، فأسمع أهل مِنى، وهاجتْ قُريش فأقبلوا بالسّلاح، وسمِع رسول الله ﷺ النِّداء فقال للأنصار: «تفرّقوا»، فقالوا: يا رسول الله، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا، [فعلنا]. فقال رسول الله ﷺ: «لَم أُوْمر بذلك، ولم يأذَن الله لي في محاربتم»، قالوا: أفتخرج معنا؟ قال: «انتظرُ أمرَ الله»، فجاءت قُريش على بَكْرة أبيها[٢]، قد أخذوا السّلاح، وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام ومعهما السّيف، فوقفا على العَقَبة، فلمّا نظرتْ قُريش إليهما قالوا: ما هذا الذي اجتمعتُم له؟ فقال حمزة: ما تجمّعنا وما هاهنا أحدٌ، والله لا يجوز هذه العقبة أحدٌ إلّا ضربته بالسيف.

فرجَعوا إلى مكّة وقالوا: لا نأمن أن يفسُد أمرُنا ويدخُل واحد من مَشايخ قُريش في دين محمّد،

---

١. في النسخة: أُسيد بن حصين، تصحيف، راجع: اسد الغابة ١: ٩٢، معجم رجال الحديث ٣: ٢١٢.
٢. أي جاءوا جميعاً.

فاجتمعوا في دار النَدوة، وكان لا يدخُل في دار النَدوة إلَا مَن أتى عليه أربعون سنة، فدخَل أربعون رجلاً من مَشايخ قُريش، فجاء إبليس في صُورة شيخ كبير، فقال له البوّاب: مَن أنت؟ قال: أنا شيخٌ من أهل نَجد لا يعدَمكم مِنّي رأيٌ صائب، إنّي حيثُ بلغني اجتماعُكم في أمر هذا الرّجل، فجئتُ لأُشير عليكم. فقال: ادخُل، فدخل إبليس.

فلمّا أخذوا مَجلسهم قال أبو جهل: يا مَعشر قُريش، إنّه لَم يكُن أحدٌ من العرب أعزّ منّا، نحنُ أهل الله، تفِدُ إلينا العربُ في السّنة مرّتين ويُكرموننا، ونحنُ في حرَم الله لا يطمعُ فينا طامعٌ، فلَم نـزل كذلك حتّى نشأ فينا محمّدُ بن عبد الله، فكُنّا نُسميه الأمين لصلاحه وسُكونه وصِدق لَهجته، حتّى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادّعى أنّه رسول الله، وأن أخبار السّماء تأتيه، فسَفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شَبابنا، وفرّق جماعتنا، وزعَم أنّ من مات من أسلافنا ففي النّار، فلَم يرِدْ علينا شيءٌ أعظم من هذا، وقد رأيتُ [فيه] رأياً، قالوا: ما رأيتَ؟ قال: رأيتُ أن ندُسّ إليه رجلاً منّا ليقتُله، فإن طلبتْ بنو هاشم بدَمه أعطيناهم عشر دِيات.

فقال الخبيث: هذا رأيٌ خبيث، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن قاتل محمّد مقتولٌ لا محالة، فمَن هذا الذي يبذُل نفسَه للقتل منكم، فإنّه إذا قُتل [محمّد] تعصّبت بنو هاشم وحُلفاؤهم من خزاعـة، وإنّ بني هاشم لا ترضى أن يمشى قاتل محمّد على الأرض، فتقع بينكم الحرب في حرَمكم وتتفانون.

فقال آخرٌ منهم: فعندي رأيٌ آخر، قال: وما هو؟ قال: نُثبته في بيتٍ ونُلقي إليه قُوته حتّى يأتي عليه رَيبُ المَنون فيموت كما مات زُهير والنابغة وامرئ القيس.

فقال إبليس: هذا أخبث من الآخر، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنّ بني هاشم لا ترضى بذلك، فإذا جاء موسم مَن مواسم العرب استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه.

وقال آخر: لا، ولكنّا نُخرجه من بِلادنا، ونتفرّغ نحن لعِبادة آلهتنا، قـال إبـليس: هـذا أخـبث مـن الرّأيين المُتقدّمين، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّكم تعمِدون إلى أصبح النّاس وجهاً، وأنـطق النّـاس لِساناً وأفصحهم لَهجةً، فتحمِلونه إلى بَوادي العرب فيخدَعهم ويسحرهم بلِسانه، فلا يفجأكـم إلّا وقد ملأها عليكم خيلاً ورَجْلاً. فبقَوا حائرين.

ثمّ قالوا لإبليس: فما الرأي فيه يا شيخ؟ قال: ما فيه إلّا رأيٌ واحد. قالوا: وما هو؟ قال: يجتمع مِن كُل بَطن من بُطون قُريش واحدٌ، يكون معهم من بني هاشم رَجلٌ، فيأخُذون سِكّينة أو حَديدة أو سيفاً، فيدخُلون عليه فيضربونه كُلّهم ضربةً واحدة، حتّى يتفرّق دَمُه في قُريش كُلّها، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلُبوا بدمه وقد شاركوا فيه، وإن سألوكم أن تُعطوا الدِيَة فأعطُوهم ثلاثَ دِيات. فقالوا: نعَم، عَشر

ديات.

ثمّ قالوا: الرأي رأي الشيخ النّجدي. فاجْتمعوا ودخل معهم في ذلك أبو لهب عمّ النبي ﷺ، ونزل جَبرئيل على رسول الله ﷺ، وأخبره أنّ قُريشاً اجتمعتْ في دار النّدوة يُدبّرون عليك، وأنزل عليه في ذلك **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾** إلى آخره. واجتمعتْ قُريش أن يدخُلوا عليه ليلاً فيقتُلوه، وخرَجوا إلى المسجد يُصفّرون ويُصفّقون.

إلى أن قال: فلمّا أمسى رسول الله ﷺ جاءوا ليدخُلوا عليه، فقال أبو لهب: لا أدعكم أن تدخُلوا عليه باللّيل، فإنّ في الدّار صِبياناً ونِساءً، ولا نأمن أن تقع بهم يدٌ خاطئة، فنحرُسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه، فناموا حول حُجرة رسول الله، وأمر رسول الله ﷺ أن يُفرش له ففُرش له، فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أفدِني بنفسك»، قال: «نعم يا رسول الله»، قال: «نَمْ على فِراشي، والتحِفْ ببُردتي». فنام علي عليه السلام على فِراش رسول الله ﷺ والتحف ببُردته، وجاء جَبرئيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قُريش وهُم نِيام، وهو يقرأ عليهم **﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾**[١]، وقال له جَبرئيل: خُذ على طريق [ثَور، وهو جبل على طريق] مِنى له سَنام كَسَنام الثّور، فدخل الغار وكان من أمره ما كان.

فلمّا أصبحتْ قُريش وثبوا إلى الحُجرة وقصَدوا الفِراش، فوثب عليٌّ عليه السلام في وُجوههم فقال: «ما شأنكم»؟ قالوا: أين محمّد؟ قال: «أجعلتُموني عليه رقيباً؟ ألستُم قلتُم نُخرجه من بِلادنا؟ فقد خرج عنكم»، فأقبلوا يضرِبون أبالهب ويقولون[٢]: أنت تخدعُنا منذ اللّيلة، فتفرّقوا في الجِبال، وكان فيهم رجلٌ مِن خُزاعة يُقال له أبو كُرز يقفو الآثار، فقالوا: يا أباكُرز، اليوم اليوم. فوقف بهم على باب حُجرة رسول الله ﷺ فقال: هذه قدم محمّد، والله لأُخت القدم التي في المقام، وكان أبو بكر استقبل رسول الله ﷺ فردّه معه، فقال أبو كُرز: وهذه قدمُ ابن أبي قُحافة أو أبيه، ثمّ قال: وهاهنا عَبر ابنُ أبي قُحافة، فما زال بهم حتّى أوقفهم على باب الغار، ثمّ قال: [ما] جاوزا هذا المكان، إمّا أن يكونا صَعِدا إلى السّماء أو دخلا تحتَ الأرض. وبعث الله العنكبوت فنسجَتْ على باب الغار، وجاء فارسٌ من الملائكة حتّى وقف على باب الغار، ثمّ قال: ما في الغار أحد، فتفرّقوا في الشِّعاب، فصرَفهم عن رسول الله[٣].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلَّا

---

١. يس: ٩/٣٦. ٢. في النسخة: يضربونه ويقولون.

٣. تفسير القمي ١: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٢٩٢.

أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[٣١و ٣٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان مَكرهم بالرّسول ﷺ، بيّن مَكرهم بآيات الله وفي دينه بقوله: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ**﴾ وتُقرأ ﴿**عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**﴾ القرآنية ﴿**قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا**﴾ هذه الكلمات المُلفَقة. ولكن ما سمِعوها في الحقيقة، لكونهم أظهر مَصاديق شَرّ الدَوابّ الذين قال الله في حقّهم: ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[١] ولذا قالوا مُكابرةً وعِناداً: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا**﴾ الكلام.

كيف لَم يكُن مُكابرةً وأنّه لَم يمنعهم مِن مشيئته شيءٌ، معَ أنّ النبيّ ﷺ تحدّاهم به مُدّة ثلاث عشرة سنة حتّى قال: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٢]. ثم أعلن بعجزهم عن ذلك بقوله: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾[٣] ومع ذلك لم يأتوا بسُورةٍ قصيرة، بَل ولا بآيةٍ مع حِرصهم على تكذيبه وتذليله والغَلَبة عليه، خُصوصاً فيما يتعلّق بالفَصاحة والبَلاغة التي هُم مَهَرة تِلك الصِّناعة.

قيل: إنّ قائل هذا الكلام النَّضْر بن الحارث من بني عبد الدّار، فإنّه كان يختلف تاجراً إلى فارس والرُّوم والحِيرة، فيستمع أخبار رُستم واسفنديار وأحاديث العجم، واشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكان يمُرّ باليَهود والنَصارى فيراهم يقرأون التّوراة والإنجيل ويركَعون ويسجُدون، فجاء مكّة فوجد رسول الله ﷺ يُصلّي ويقرأ القُرآن، فطفِق يقعُد مع المستهزئين، ويقرأ عليهم أساطير الأوّلين، وكان يزعُم أنّها [مِثل] ما يذكُره رسول الله ﷺ من قِصص الأنبياء والأمم الماضين[٤]. ويقول: ﴿**إِنْ هَٰذَا**﴾ الكلام الذي جاء به محمّد، وما هو ﴿**إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ والأباطيل المسطورة في دفاتر السّابقين.

ثمّ أنه رُوي أنّه قال له النبيّ ﷺ: «ويلك إنّه كلامُ الله»[٥] فذكر الله تَحاشيه عن قَبوله بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالُوا**﴾ حسداً للنبيّ ﷺ على نُزول الكِتاب عليه، أو إظهاراً لليقين بعدم كونه كلامَ الله: ﴿**ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا**﴾ القُرآن ﴿**هُوَ ٱلْحَقَّ**﴾ النّازل ﴿**مِنْ عِندِكَ**﴾ وصِدقاً وصحيحاً انتسابه إليك ﴿**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا**﴾ عُقوبةً لتكذيبنا إيّاه ﴿**حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ**﴾ كما أمطرتَ على قوم لُوط ﴿**أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ آخر تُهلكنا به.

قيل: نزل في النَّضْر بن الحارث بضع عشرة آية[٦].

---

١. الأنفال: ٢٣/٨.
٢. البقرة: ٢٣/٢.
٣. البقرة: ٢٤/٢.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٠.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٣٤١.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٤١.

وعن (الكافي): قاله الحارث بن عمرو الفِهري[1].

وعن القُمّي ﷺ: نزلتْ لمّا قال رسول الله ﷺ لقُريش: «إنّ الله بعثني أن أقتُل جميع مُلوك الدُّنيا وأجُرّ المُلكَ إليكم، فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه تملِكوا بها العرَب، وتُدين لكم بها العَجم، وتكونوا مُلوكاً في الجنّة». فقال أبو جهل: اللّهم إن كان هذا الذي يقول محمّد هو الحق من عندك [فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] حسداً لرَسول الله ﷺ[2].

وعن المجمع: عن الصادق عليه السلام، عن آبائه: «لمّا نصب رسول الله ﷺ علياً يوم غَدير خُم قال: من كنتُ مَولاه فعليٌّ مولاه. طار ذلك في البلاد، فقدِم على النبيّ ﷺ النُّعمان بن الحارث الفِهري فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله، وأمرتنا بالجِهاد والحَجّ والصَّوم والصَّلاة والزّكاة فقبِلناها، ثمّ لَم ترضَ حتّى نصبتْ هذا الغُلام فقلتَ: مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مَولاه، فهذا شيءٌ مِنك أو أمرٌ من عندِ الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلّا هو، إنّ هذا مِن الله، فولّى النُّعمان بن الحارث وهو يقول: ٱللَّهُمَّ إن كَانَ هٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ، فرماه الله بحَجَرٍ على رأسه فقتله[3].

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [٣٣]

ثمّ بيّن الله سُبحانه عِلّة عدم إنزال العَذاب عليهم مع غاية اسْتِحقاقهم له، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ وليس مُناسباً للُطفه بك ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بما عذّب به الأمَم الماضية ﴿وَأَنْتَ﴾ مع كونك رحمةً للعالَمين وأماناً لأهل السّماوات والأرضين ﴿فِيهِمْ﴾ وحيٌّ بينهم، بَل لَم يُعذّب اُمّة مِن الأمَم الماضية إلّا بعد خُروج نبيّهم من بينهم.

ثم ذكر عِلّةً أُخرى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم، أو في أصلابهم المؤمنون ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقيل: إنّ مرجِع الضمير الكُفّار، والمعنى: أنّهم لَو استغفروا لَم يُعذّبوا، والمقصود حَثُّهم على الاستغفار.

وقيل: إنّ المراد بالاستغفار الإسلام، والمعنى: وهُم يُسلِمون فيما بعد، فإنّه كان في عِلم الله أنّه يُسلم كثيرٌ منهم؛ كأبي سُفيان بن الحارث بن عبد المُطّلب، والحارث بن هِشام، وحكيم بن حِزام،

---

١. الكافي ٨: ١٨/٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٩٧.

٢. تفسير القمي ١: ٢٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩٨.

٣. مجمع البيان ١٠: ٥٣٠، تفسير الصافي ٢: ٢٩٩.

وأضرابهم.

عن ابن عبّاس أنّه قال: كان فيهم أمانان؛ نبيُّ الله، والاستغفار، أمّا النبي ﷺ فقد مضى، وأمّا الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القِيامة[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة): «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، فرُفع أحدُهما، فدُونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رُفع فرسول الله ﷺ، وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: إنّ لكم في حَياتي خيراً، وفي مَماتي خيراً. فقيل: يا رسول الله، أمّا حَياتك فقد علِمنا، فما لنا في وفاتك؟ فقال: أمّا في حَياتي فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، وأمّا في مَماتي فتُعرَض عليَّ أعمالُكم فاستغفر لكم»[٣].

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ[٣٤]

ثمّ صرّح سُبحانه بغاية استِحقاقهم العذاب، ووَعدهم بالعَذاب الأُخروي أو الدُّنيوي يومَ بَدر، أو يومَ الفتح بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ من السبب ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ويُسلّمهم مِنه بالكُلّية ﴿وَ﴾ الحال أنّ ﴿هُمْ يَصُدُّونَ﴾ أولياءه والمؤمنين به ﴿عَنِ﴾ دُخول ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والقُرب منه عامَ الحُدَيبية بادّعاء أنّهم أولياؤه وأولياءُ بيته ﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ بَل ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ﴾ وما أحبّاؤه أحدٌ ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الّذين يتحرّزون المُنكرات والقبائح؛ كالشِّرك والمُكاء والتّصدية وغيرها من المعاصي ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم ليسوا بأوليائه، وإنّما يعلَمه بعضُهم، ومع ذلك يدّعي أنّه وليُّ البيت، ويقول نصُدّ مَن نشاء ونُدخل مَن نشاء.

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[٣٥]

ثمّ استشهد سُبحانه على عدم كونهم أولياءه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ دُعاء المُشركين و﴿صَلَاتُهُمْ﴾ لله ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الحرام ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ وصَفيراً ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتَصفيقاً بضرب إحدى الكَفّين بالأُخرى، فإنّهم كانوا يفعلونهما عِوض التّسبيح والدُّعاء.

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٥٨.
٢. نهج البلاغة: ٨٨/٤٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٠.
٣. الكافي ٨: ٣٦١/٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٠.

عن ابن عبّاس قال: كانت قُريش يطوفون بالبيت عُراة الرّجال والنّساء، مُشبكين بين أصابعهم يصفِرون فيها، ويُصفّقون[١].

وعن الرضا عليه السلام: «سُميّت مكّة مكّة لأنّ النّاس يَمكُون فيها، وكانوا يقولون لمَن قصدها: قد مكا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالمُكاء: الصّفير، والتّصدية: صَفق اليدين»[٢].

وعن مُقاتل: كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا صلّى في المسجد قام رَجُلان من بني عبد الدّار عن يمينه ورَجُلان عن يساره، فيصفِرون كما يصفِر المَكّاءُ، ويصفِقون بأيديهم ليُخلّطوا على النبيّ صلى الله عليه وآله صلاته وقِراءته، وكانوا يفعلون كذلك بصلاة مَن آمن به[٣].

وعن مُجاهد: كانوا يُعارضون النبيّ صلى الله عليه وآله في الطواف، ويستهزئون به، ويصفِرون ويُخلّطون عليه طوافه وصلاته[٤].

ثمّ هدّدهم الله تعالى بقوله: ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ بالسّيف يومَ بَدر، أو بالنّار يومَ الحشر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وتُشركون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّهم على عِبادتهم البدنيّة، ذمّهم وهدّدهم على طاعتهم الماليّة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا من قُريش ﴿يُنفِقُونَ﴾ ويصرِفون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ ليُخِلّوا في أمر رِسالة الرّسول و﴿لِيَصُدُّوا﴾ النّاس ويمنعوهم ﴿عَن﴾ سُلوك ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والدُّخول في دين الإسلام، وقَبول اتّباع الرّسول.

ثمّ نبّه سُبحانه على غاية خسارتهم بقوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ بتَمامها ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ تِلك الأموال ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ونَدامة لذَهابها مِن أيديهم من غير حُصول المقصود ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في قِتال

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٣.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٠، تفسير الصافي ٢: ٣٠١.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٤٣.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

المُسلمين آخر الأمر.

قيل: نزلتْ في المُطعمين يومَ بَدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من أشراف قُريش[١]، يُطعم كُلَ واحد منهم عَسكر الكُفّار عشر جُزُر[٢].

وعن سعيد بن جُبير: نزلتْ في أبي سُفيان وإنفاقه المال على حرب النبيّ ﷺ يومُ أُحد، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سِوى من استجاش [من] العرب، وأنفق عليهم أربعين أُوقيّة، والأُوقيّة اثنان وأربعون مِثقالاً[٣].

ثمَ هدّدهم الله بعذاب الآخرة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ وأصرّوا واستمرّوا على كُفرهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها ﴿يُحْشَرُونَ﴾ ويُساقون في القيامة، ويكون ذلك الحشر ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ ويُفرّق ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الذي هُو الكافر ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الذي هُو المُؤمن، فإنّهم يُحشرون إلى الجنّة ﴿وَيَجْعَلَ﴾ ويضع ﴿ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ﴾ ويجمعُه ﴿جَمِيعًا﴾ قيل: إنّ المُراد من الخبيث: نفقة الكافر على عَداوة محمّد ﷺ، ومن الطيّب: نفقة المؤمن في نُصرته[٤]، فيضُم الله ذلك المال الخبيث بعضَه إلى بعضٍ ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ ويُلقيه ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ ليُعذّبهم به ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الكافرون المُنفقون أموالهم فيما يُسخط الله ﴿هُمُ﴾ بالخُصوص ﴿ٱلْخَاسِرُونَ﴾ في الدُّنيا والآخرة.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله مزج طينة المؤمن حين أراد خلقه بطينة الكافر؛ فما يفعلُ المؤمن من سيّئة فإنّما هُو مِن أجل ذلك المِزاج، وكذلك مزج طينة الكافر حين أراد خَلقه بطينة المؤمن؛ فما يفعلُ الكافر مِن حسَنة فإنّما هُو من أجل ذلك المِزاج». قال: «فإذا كان يومُ القيامَة ينزِع [الله] من العدُوّ النّاصب سِنخ المُؤمن ومِزاجه وطينته وجَوهره وعُنصره معَ جميع أعماله الصّالحة، ويرُدّه إلى المؤمن، وينزع الله مِن المؤمن سِنخ الكافر[٥] ومِزاجه وطينته وجَوهره وعُنصره مَع جميع أعماله السيّئة، ويرُدّه إلى النّاصب، عدلاً منه جلّ جَلالُه وتقدّستْ أسماؤه، ويقول للنّاصب: لا ظُلم عليك، هذه الأعمال الخَبيثة من طينتك ومِزاجك فأنت أولى بها، وهذه الأعمال الصّالحة من طينة المؤمن ومِزاجه وهو أولى بها ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾»[٦].

ثمَ قال: أزيدُك في هذا المعنى مِن القُرآن [أليس الله عزّ وجلّ] يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

٢. الجُزُر: جمع جَزُور، هو ما يصلُح لأن يُذبَح من الابل.

٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦٠.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٦١.

٥. في تفسير الصافي: الناصب.

٦. غافر: ١٧/٤٠.

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: **﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾**[٢].

قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ [٣٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المُشركين وتَهديدهم على عِباداتهم البدنيّة والماليّة، أمر نبيّه ﷺ بتَرغيبهم إلى قَبول الإسلام، وتَهديدهم على تركه بقوله: **﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا﴾** ويرتدعوا عن الشِّرك وعَداوة الرّسول وقبائح الأعمال، ويدخُلوا في دين الإسلام وتبعيّة الرّسول ﷺ، ويلتزموا بالصّالحات من الأعمال **﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾** منهم ويُعفى عن عُقوبة ما ارتكبوا في حال كُفرهم؛ من العقائد الفاسدة، والأعمال السيّئة وتَبِعاتها من الحُدود والقِصاص والضّمان وقَضاء الفوائت، كما رُوي أنّ الاسلام يجُبُّ ما قبله[٣]. **﴿وَإِن يَعُودُوا﴾** ويرجِعوا إلى قِتالك، وإلى ما كانوا عليه من الأعمال السّيئة، وأصرّوا على ما هم عليه من الكُفر والشِّقاق **﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾** وتبيّنتْ **﴿سُنَّتُ﴾** الله ومُعاملته مع الأمَم **﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾** والقُرون السّابقين الذين عارضوا الأنبياء، وتحزّبوا عليهم، وسمِعوا كيف دمّرهم الله وأهلكهم بعذابه، وجعل الأنبياء غالبين عليهم، فلينتظروا لأنفسهم مِثل تِلك المُعاملة.

عن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام أنّه قال له رجلٌ: إنّي كنتُ عاملاً لبني أُميّة، فأصبتُ مالاً كثيراً، فظننتُ أن ذلك لا يحِلّ لي، فسألتُ عن ذلك فقيل [لي]: إنّ أهلك ومالك وكُلّ شيءٍ لك حرامٌ. فقال عليه السلام: «ليسَ كما قالوا لك»، قال: فلي توبة؟ قال: «نعم، توبتُك في كِتاب الله **﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**»[٤].

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ [٣٩ و ٤٠]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَهديد الكُفّار بما أُنزل على الأُمَم الماضية من العذاب، أمر المؤمنين بقِتالهم بقوله:

---

١. النور: ٢٦/٢٤.
٢. بحار الأنوار ٦٧: ٢١/١٠٦، تفسير الصافي ٢: ٣٠٢.
٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦٣.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٢٧/١٩٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٢.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أيّها المؤمنون واقتلوهم ﴿حَتَّىٰ﴾ أن ﴿لَاتَكُونَ﴾ في الأرض ﴿فِتْنَةٌ﴾ وفساد من الشِّرك وقبائح الأعمال، ويضمحلّ دين الوثنيّة وسائر الأديان الباطلة بسبب انقراض أهلها أو رُجوعهم إلى الحقّ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ الذي بين النّاس ﴿كُلُّهُ﴾ خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ وارتدعوا عن الأديان الباطلة، ودخلوا في دين الإسلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيهم على انتهائهم عن دِينهم، ورُجوعهم إلى الحقّ أحسن الجَزاء ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قَبول دين الحقّ ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ وحافظكم في قِبالهم، فلا تُبالوا بعَدواتهم وكثرتهم وشَوكتهم، وهو ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والحافظ للصّلاح، فإنّه لا يُضيِّع مَن تولّاه واعتمد عليه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ والمُعين لا يُغلَب مَن نصره وأعانه.

الكافي: عن الباقر عليه السلام: «لَم يجيء تأويل هذه الآية بعد، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه، فلَو قد جاء تأويلُها لَم يقبل منهم، ولكنّهم يُقتلون حتّى يُوحِّدوا الله، ولا يكون شِرك»[1].

أقول: الظاهر أنّ المُراد: رخّص للمؤمنين أخذ الفِداء والجِزية، لحاجته وحاجة أصحابه.

وعن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام: «لَم يجيء تأويل هذه الآية، ولَو قام قائمُنا بعد، سيرى مَن يُدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلُغنّ دينَ محمّد ما بلغ اللّيلُ، حتّى لا يكون شِركٌ على وجه الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾»[2].

وقيل: إنّ المُراد مِن كَون الدِّين كُلّه لله في خُصوص أرض الحِجاز، كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يجتمع دينان في جَزيرة العرب»[3].

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ وَلٰكِن لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ[٤١ و ٤٢]

---

١. الكافي ٨: ٢٠١/٢٤٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٢٨/١٩٣، مجمع البيان ٤: ٨٣٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣ والآية من سورة النور: ٥٥/٢٤.
٣. تفسير الرازي ١٥: ١٦٤.

في بيان خمس الغنائم

ثمّ لمّا أمر الله سُبحانه بقِتال الكُفّار أردفه ببَيان حُكم الغنيمة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا﴾ أيّها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ وكُلّ الذي أصبتُم ﴿مِن شَىْءٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ من أموال الكُفّار بالقَهر والغَلَبة، ومِن التّجارات والصّناعات والزّراعات، والكُنوز والمَعادن، والغَوص في البحار، على تفصيلٍ مذكور في الفِقه، وعن الصادق عليه السلام: «هي والله الإفادة يوماً بيوم»[١] ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ قيل: إنّ التّقدير: فحُكمه أنّ لله ﴿خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو الإمام إجماعاً ﴿وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن آل هاشم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نحنُ والله [الذين] عنى [الله] بذي القُربى الذين قرَنهم الله بنفسه وبرَسوله فقال: ﴿ف... لله ... وللرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِنّا خاصّة». قال: «ولَم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً[٢]. أكرم الله نبيّه صلى الله عليه وآله وأكرمنا أن يُطعمنا أو ساخ [ما في] أيدي النّاس»[٣].

وعن الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ فقال: «لرَسول الله صلى الله عليه وآله، وما كان لرَسول الله فهُو للإمام». فقيل له: أرأيت إن كان صِنفٌ من الأصناف أكثر وصنف أقلّ، فما يُصنع به؟ قال: «ذلك إلى الإمام، أرأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله كيف يصنع، أليس إنّما كان يُعطي على ما يرى؟ كذلك الإمام»[٤].

عن أحدهما عليهما السلام: «خُمس الله وخُمس الرّسول للإمام، وخُمس ذي القُربى لقرابة الرّسول وهي للإمام[٥]، واليتامى يتامى آل الرّسول، والمساكين منهم، وأبناء السّبيل منهم، فلا يخرُج مِنهم إلى غيرهم»[٦].

وعن القُمّي: فمِن الغنيمة يُخرَج الخُمس، ويُقسّم على سِتّة أسهُم: سهمٌ لله، [وسهم لرَسول الله] وسهمٌ للإمام. فسهمُ الله وسهمُ الرّسُول يرِثه الإمام؛ فيكون للإمام ثلاثةُ أسهم مِن سِتّة، والثلاثة الأسهم لأيتام آل الرّسول ومَساكينهم وأبناء سَبيلهم. وإنّما صارت للإمام وَحده مِن الخُمس ثلاثة أسهم، لأنّ الله تعالى قد ألزمه بما ألزم النبيّ صلى الله عليه وآله من تربية الأيتام، و[مؤن] المسلمين، وقضاء ديونهم، وحَملهم في الحَجّ والجِهاد، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا اُنزل عليه ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٧]، وهُو أبٌ لهم، فلمّا جعله الله أباً للمؤمنين لزمه ما يلزَم الوالد لوَلده، فقال

---

١. الكافي ١: ١/٤٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٣.
٢. في الكافي: لنا سهماً في الصدقة.
٣. الكافي ١: ١/٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.
٤. الكافي ١: ١/٤٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.
٥. في التهذيب: الرسول والإمام.
٦. التهذيب ٤: ٣٦١/١٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.
٧. الأحزاب: ٦/٣٣.

عند ذلك: «مَن ترك مالاً فلورثته، ومَن ترك دَيْناً أو ضِياعاً فعلى الوالي»[١].

أقول: هذه الرّوايات قد عمِل بها الأصحاب، وما خالفها مؤوّل أو مَطروح. وممّا يجب فيه الخُمس: المالُ الحلال المُختلط بالحرام، ولا يتميّز صاحبُ الحرام أصلاً، والأرض التي اشتراها الذِمّي من مُسلم، وإنّما ثبت هذان الحُكمان بالرّوايات المُعتبرة المعمول بها.

ثمّ لما كان قَطْع المُجاهدين أطماعهم عن خُمس الغَنيمة صعباً عليهم، رغّبهم في الالتِزام به، وبيّن أنّه من لَوازم الإيمان، وأن التّسليم له شُكر لنِعَمه العِظام، بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾، والمعنى: فسلِّموا لهذا الحُكم وارْضَوا به إن كنتُم ﴿آمَنتُم﴾ عن صميم القلب وخالص النيّة ﴿بِاللهِ﴾ الواحد المالك لجميع الأشياء ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمّد ﷺ من النّصر والآيات ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ الذي فُرّق فيه بين الحقّ والباطل، بظُهور خَوارق العادات والمُعجزات الباهرات، الدالّة على صِدق نبيّنا وصِحّة دين الإسلام، وكان ذلك اليوم ﴿يَوْمَ الْتَقَى﴾ فيه ﴿الْجَمْعَانِ﴾ وتقابل الفريقان؛ فريقُ المؤمنين، وفريق الكُفّار والمشركين، بوادي بَدرٍ، فنصر الله المؤمنين مع ضَعْفهم وقِلّة عَددهم وعُدّتهم على الكافرين معَ كَثرتهم وشَوكتهم وقوّتهم بقُدرته ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وإيجاد كُلّ مُمكن من المُمكنات التي منها غَلبة الفِئة القَليلة على الفِئة الكثيرة ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُعجِزه عن إنفاذ إرادته شيءٌ، ولا يمنعه عنه مانعٌ.

فجِدّوا في الجِهاد، وتوكّلوا عليه، واطْمئنّوا بنَصره، وقد أراكم قُدرته على نَصركم وغَلَبتكم على أعدائكم يومَ بدر ﴿إِذْ أَنتُم﴾ كنتُم نازلين ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ والجانب الأقرب إلى المدينة مِن ذلك[٢] الوادي ﴿وَهُم﴾ كانوا نازلين ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ والجانب الأبعد من المدينة والأقرب إلى مكّة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ والعِير المُقبل مِن الشّام الذي كنتُم في طلبه، نازل في مكان هُو ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وقريب مِن ساحل البحر، بينه وبين المشركين ثلاثة أميال، وكان أهله مُستظهرين بهم.﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتُم وأعداؤكم على القِتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ وتخلّفتُم عنه، وخالفتُم الوَعد؛ لقِلّتكم وضَعفكم، وكَثرة عدوّكم وقوّتهم، واسْتِظهارهم بالرّكب الذي كان قريباً منهم، وكونهم بالعُدوة القُصوى القريبة من الماء ﴿وَلَٰكِن﴾ ما تواعدتُم، بَل جمعَ الله بينكم وبينهم بِلا سابقة وَعد ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ﴾ ويُتِمّ ﴿أَمْراً كَانَ﴾ حقيقاً[٣] بأن يكون ﴿مَفْعُولاً﴾ وواقعاً مِن نَصر أوليائه، وخِزي أعدائه، وظُهور آثار وَحدانيّته ورِسالة رَسوله. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ بالكُفر والطُّغيان ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ وحُجّةٍ واضحةٍ عظيمةٍ، وظُهور دَليل قويّ على بُطلان عقائدهم، وبعد مُشاهدة الآيات الباهرة على كَون مُعارضتهم للرّسول ﷺ

---

١. تفسير القمي ١: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٠٤.
٢. في النسخة: تلك.
٣. في النسخة: حقيقياً.

مُعارضةً للحقّ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ برُوح الإيمان، وتنوّر قلبه بنُور الإسلام ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وحُجّة واضحة على الحقّ، وصِدق الرّسُول، وصِحّة دينه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لمَقال الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾ بضَمائرهم وأحوالهم وتَدبير اُمورهم على حَسب استِحقاقهم.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[٤٣]

ثمّ أنّه رُوي أنّه أرى الله نبيّه ﷺ كُفّار قُريش في مَنامه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابَه فقالوا: رُؤيا النبيّ حقٌّ، والقوم قليلٌ، فصار ذلك سبباً لقُوّة قُلوبهم[١]. فذكّرهم الله تِلك النِّعمة بقوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ لتُخبر به أصحابك، فيكون تثبيتاً لقُلوبهم، وتشجيعاً لهم على قِتال عدُوّهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ﴾ في مَنامك ﴿كَثِيراً﴾ وأخبرتَ بكَثرتهم أصحابَك ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾ وجبَنتم في حربهم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الذي كنتُم فيه من قتالهم، واختلفت آراؤكم في الثّبات في حَربهم والفِرار منهم ﴿وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ أنعم عليكم بأن ﴿سَلَّمَ﴾ جَمعَكم من الفَشل والاختِلاف في الرّأي والتّنازُع والفِرار ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والمَكنونات في القُلوب، مِن قُوّة الإيمان وضَعفه، والجُرأة والخوف، والصّبر والجَزع.

القُمّي رحمه الله: المُخاطبة لرَسول الله ﷺ، والمعنى لأصحابه[٢].

عن الباقر عليه السلام: «كان إبليس يومَ بدر يُقلّل المُسلمين في أعيُن الكُفّار، ويُكثّر الكُفّار في أعين المُسلمين، فشدّ عليه جَبرئيل [بالسيف] فهرَب منه وهو يقول: يا جَبرئيل، إنّي مؤجّل»[٣].

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ[٤٤]

ثمّ ذكّرهم الله نِعمته الأُخرى بقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وحينَ بارزتُموهم ﴿فِى أَعْيُنِكُمْ﴾ معَ كَثرتهم ﴿قَلِيلاً﴾ من حيث العَدَد تصديقاً لرُؤيا النبيّ ﷺ، وتقوية لقُلوبكم.

عن ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيُننا حتّى قلتُ لرَجُلٍ إلى جَنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسَرنا رَجلاً منهم، فقلنا: كَم كنتُم؟ قال: ألفاً[٤].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٠.

٢. تفسير القمي ١: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

٣. الكافي ٨: ٤١٩/٢٧٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

٤. جوامع الجامع: ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣٠٦.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ الله ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ ليجترئوا عليكم قَبل اللقاء، حتّى قال قائلهم: إنّما هُم أكَلَة جَزُور. ثمّ كثّرهم في أعيُن الكُفّار لتفجأهم الكثرةُ ويُفترّهم الرُّعبُ عن القِتال ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ قيل: إن التّكرار لاختِلاف الفعل المُعلّل، وهُو الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأوّل، وتقليل كُلّ فريق في أعيُن الفريق الآخر في الثّاني ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وبيده تَصريفها يُغلِب مَن يشاء ويخذُل مَن يشاء، لا رادّ لأمره، ولا مُعقّب لحُكمه.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [٤٥-٤٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر نِعمه على المؤمنين ونُصرتهم على الكُفّار، أمرهم بالثّبات والتوكُّل عليه وطَلب النصر منه، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ وجَماعةً من الكُفّار في معركة القِتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ ووطّنوا أنفسكم على الصّبر والنّزال، ولا تخذُلوا أنفسكم بالفِرار ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللهَ﴾ بالتّكبير والتّهليل في مَواقع الشِدّة ﴿كَثِيراً﴾ واطلُبوا منه الصّبر والثّبات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بالنّصر والغَلَبة، والمَثوبة الأُخرويّة.

عن ابن عبّاس: أمر الله أولياءه بذِكره في أشدّ الأحوال، تنبيهاً على أنّ الإنسان لا يجُوز أن يُخلي قَلبَه ولِسانه عن ذِكر الله، ولَو أنّ رَجُلاً أقبل من المغرب إلى المشرق يُنفق الأموال سَخاءً، والآخر مِن المشرق إلى المغرب يضرِب بسيفه في سبيل الله، كان الذّكر أعظمَ أجراً[1].

ثمّ لمَا كان الجِهاد غير نافعٍ إلّا لمَن أطاع الله ورَسوله، أمر الله بطاعتهما بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جِهاد الكُفّار وغيره.

ثمّ نهى عن التّنازُع واختِلاف الكلمة بقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ في أمر الجِهاد، ولا تختلف آراؤكم فيه كما اختلفت[2] ببَدْر ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتفترُوا فيه وتضعُفوا عنه ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وشَوكتُكم، وتزول دَولتُكم، ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ على شَدائد الحرب ومَشاقّ مُنازلة الكُفّار ﴿إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ في جِهاد أعدائه بالنُّصرة والحفظ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيُّها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ وأوطانهم إلى حرب الله ورَسوله ﴿بَطَراً﴾ وافتِخاراً بكَثرة العُدّة والعدَد والنِّعم، وشَرف الآباء ﴿وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٧١.

٢. في النسخة: اختلف.

ليثنوا عليهم بالشّجاعة والسّماحة والغلَبة على الخَصم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النّاس ويمنعونهم ﴿عَن﴾ السُّلوك في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والدُّخول في دِينه.

ثمّ هدّدهم الله على تِلك القبائح بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من البَطر والرِّئاء والصَدّ، وغيرها من القبائح ﴿مُحِيطٌ﴾ ومُطّلع، فيُجازيهم عليها أسوأ الجَزاء.

رُوي أنّ قُريشاً لمّا بلَغوا الجُحْفة[1]، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجِعوا فقد سلِمتْ عِيرُكم من أصحاب محمّد ونَهْبهم، فقال أبو جهل: لا والله، حتّى نقدَم بدراً ونشرب بها الخمور، وتعزِف علينا [فيها] القِيان، ونُطعم بها مَن حضرنا من العَرب؛ فوافوها ولكن سُقوا كأس المَنايا بدل كأس الخُمور، وناحت عليهم النّوائح مكان تَغنّي القِيان، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم[2].

وقيل: إنّه لمّا بلغت[3] قُريش الجُحفة، بعث الحقّاف الكِناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل إليه بهدايا مع ابنٍ له، فلمّا أتاه قال: إنّ أبي يُنعمك صباحاً، ويقول لك: إن شِئت أن أمُدّك بالرِّجال أمدَدْتُك، وإن شِئتَ أن أزحف إليك بمَن معي من قرابتي فعلتُ.

فقال أبو جهل: قُل لأبيك جَزاك الله والرَّحِم خيراً، إن كُنّا نُقاتل الله كما يزعُم محمّد؛ فو الله ما لَنا بالله من طاقة، وإن كُنّا نُقاتل النّاس؛ فو الله إنّ بنا على النّاس لقوّة، والله لا نرجِع عن قِتال محمّد حتى نرِدَ بَدْراً فنشرَب فيها الخُمور، وتعزِف علينا فيها القِيان؛ فإنّ بدراً موسمٌ من مَواسم العرب، وسُوقٌ من أسواقهم، حتّى تَسمع العرب بهذه الواقعة[4].

قيل: إنّما ذكر الله العِلّتين الأولَيين ـ وهُما البَطر والرِّئاء ـ بصِيغة المصدر؛ لأنّ الاسم دالٌّ على التمكُّن والثُّبوت، وكان الوصفان المذكوران مُتمكِّنين فيهم ومَلَكتين لهم، وذكَر العِلّة الثّالثة ـ وهي الصَدّ ـ بصيغة المُضارع الدالّة على التَجدُّد والحُدوث. لأنّها حصلتْ في زمان النبيّ ﷺ[5].

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٤٨ و ٤٩]

---

١. الجُحفَة: قرية كبيرة على طريق مكة، على أربع مراحل.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٤.

٣. في النسخة: بلغ.

٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٢.

٥. تفسير الرازي ١٥: ١٧٣ «نحوه».

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ مِن عِلَل خِذلان قُريش إغواء الشّيطان لهم بقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة مِن مُعاداة النبيّ ﷺ وتحزُّبهم لقِتاله.

رُوي أنّ المُشركين حين أرادوا المَسير إلى بَدر، خافوا من بني بكر بن كِنانة؛ لأنّهم كانوا قتلوا منهم واحداً، فلَم يأمَنوا أن يأتيهم القوم مِن وَرائهم، فتصوّر الشّيطان لهم بصُورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم؛ وهو من بني بكر بن كِنانة، و[كان] مِن أشرافهم، في جُندٍ مِن الشّياطين[1]، ومعه راية[2] ﴿وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ولا قاهر عليكم أحد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ﴾ ودافعٌ عنكم بني كِنانة وغيرهم.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ والفَريقان؛ فَريق المُسلمين، وفريق المُشركين، ورأى إبليس نُزول الملائكة. قيل: كانت[3] يده في يد الحارث بن هِشام[4] ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ورجع القَهْقَرى وأراد الفِرار، وقال له الحارث: أتخذُلنا في هذه الحالة؟! فأعرض عنه ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِنكُمْ﴾ ومُعرض عنكم ﴿إِنِّى أَرَىٰ مَالَاتَرَوْنَ﴾ من جُنود الملائكة، فقال الحارث: ما نرى إلّا جعاشيش[5] أهل يثرِب[6]، فدفع الشّيطان في صدر الحارث وانهزم وقال: ﴿إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ مِن أن يُهلكني ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال قَتادة: صدق في قوله: ﴿إِنِّى أَرَىٰ مَالَاتَرَوْنَ﴾ وكذَب في قوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

قيل: لمّا رأى الملائكة ينزِلون من السّماء خاف أن الوقتَ الذي أُنظِر إليه قد حضر[7].

قيل: إنّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ليس من كلام إبليس، وإنّما هو كلام الله[8].

قيل: لمّا رجعتْ قُريش إلى مكّة قالتْ: هزَم النّاسَ سُراقة، فبلغ ذلك سُراقة فقال: والله ما شعرتُ بمَسيركم حتّى بلغتني هزيمتُكم. فعند ذلك تبيّن للقوم أنّ ذلك الشّخص لَم يكُن سُراقة، بَل كان شَيطاناً[9].

وعن الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام ما يقرُب منه، إلى قوله: حتّى بلغتني هَزيمتُكم. وزاد: «فقالوا: إنّك أتيتنا يوم كَذا، فحلَف لهم، فلمّا أسلموا علِموا أنّ ذلك كان شيطاناً»[10].

---

١. في النسخة: الشيطان.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.
٣. في النسخة: كان.
٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.
٥. الجَعاشيش: جمع جُعشُوش، وهو الرجل القصير الذميم.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٥٦.
٧. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.
٨. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.
٩. تفسير الرازي ١٥: ١٧٤.
١٠. مجمع البيان ٤: ٨٤٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٨.

عن العيّاشي: عن السّجّاد عليه السلام: «لمّا عطِش القومُ يومَ بَدْر، انطلق عليّ عليه السلام بالقِربة يستسقي وهو على القَليب[١]، إذ جاءت ريحٌ شديدة ثمّ مضتْ فلبِث ما بدا له، ثمّ جاءت ريحٌ اُخرى [ثمّ مضت، ثمّ جاءت اُخرى] كادت أن تَشغَله وهو على القَليب، ثمّ جلس حتّى مضتْ، فلمّا رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّا الرّيحُ الأولى ففيها جَبرئيل مع ألفٍ من الملائكة، والثّانية فيها ميكائيل مع ألفٍ من الملائكة، والثّالثة فيها إسرافيل مع ألفٍ من الملائكة، وقد سلّموا عليك، وهُم مَدَدٌ لنا، وهُم الذين رآهم إبليس فنكَص على عَقِبَيه يمشي القَهْقرى حين يقول: ﴿إِنِّى أَرَىٰ مَالَاتَرَوْنَ﴾»[٢].

ثمّ قيل: إنّ قوماً من الأوس والخَزرج كانوا مُنافقين، وأسلم قومٌ من قُريش وكان في قُلوبهم شكٌّ، ولِذا لَم يُهاجروا. ثمّ لمّا حثت[٣] قُريش إلى حَرب رسول الله صلى الله عليه وآله قال اُولئك: نخرُج مع قومنا، فإن كان محمّد في كَثرة خرَجنا إليه، وإن كان في قِلّة أقمنا في قومنا[٤].

فحكى الله تعالى قولهم حين رأوا قِلّة المُسلمين بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ من الأوس والخَزرج ﴿وَ﴾ يقول ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الشَكّ من قُريش، حين رأوا كَثرة المُشركين وقِلّة المُسلمين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾. عن ابن عبّاس رضي الله عنه: معناه أنّه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر يُقاتلون ألف رَجُل، وما ذلك إلّا أنّهم اعتمدوا على دِينهم[٥].

وقيل: معناه أنّ هؤلاء يسعَون في قتل أنفسهم رَجاءَ أن يُجعلوا أحياءً بعد الموت، ويُثابون على هذا القتل[٦].

وقيل: إنّهم قالوا: هؤلاء المؤمنون خرجوا مع قِلّة عَدَهم لحَرب قُريش مع كَثْرتهم وشَوكتهم، ولا شَكّ أنّ قُريشاً تغلِبهم. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويثِق به، ويُسلّم إليه اُموره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالبٌ على أمره، لا يخذُل مَن توكّل عليه واستجار به ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعاله، يفعل ما فيه صَلاح خَلقه وإن كان خارقاً للعادة.

وقد سبق عن القُمّي: أنّ فتيةً من قُريش أسلموا بمكّة. فاحتبسهم آباؤهم، فخرجوا مع قُريش إلى بَدر وهُم على الشكّ والارتِياب والنِّفاق؛ منهم قيس بن الوليد بن المُغيرة، وأبو قيس بن الفاكه، والحارث بن ربيعة، وعلي بن اُميّة بن خلف، والعاص بن المنبّه، فلمّا نظروا إلى قِلّة أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله قالوا: مساكين هؤلاء غرّهم دينُهم، فيُقتلون السّاعة. فأنزل الله [على رسوله]: ﴿إِذْ يَقُولُ

---

١. القَليب: البئر.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣/١٧٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٠٨.
٣. في النسخة: حث.
٤ و ٥. تفسير الرازي ١٥: ١٧٦.
٦. تفسير الرازي ١٥: ١٧٧.

﴿ٱلْمُنَافِقُونَ﴾[1] إلى آخره.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[٥٠ و ٥١]

ثمّ بيّن سُبحانه كيفيّة موت المُشركين في بَدر وتَعذيبهم، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمّد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقبِض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ المُوكَلون على قبض الأرواح، وهُم بعد قَبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بمَقامعٍ من حديدٍ تلتهب مِنها النّار ـ على ما قيل ـ ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وظُهورهم ـ وعن العيّاشي: إنّما أراد وأستاهَهم[2]، إنّ الله كريم يُكنّي[3] ـ ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿ذُوقُوا﴾ واطْعَموا أيُّها المُشركون بعد القَتل والخِزي في الدُّنيا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وألم النّار المُحرقة.

عن ابن عبّاس: قول الملائكة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ إنّما صَحّ لأنّه كان مع الملائكة مَقامع كُلّما ضُربوا بها التهبتْ النّارُ في الأجزاء والأبعاض[4].

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة استِحقاقهم بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من الضّرب، وذَوقهم عذاب النّار، يكون ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وما كسبتْ جَوارحكم باختياركم؛ من الشِّرك والمَعاصي، ومُعارضة الرّسول ﴿وَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يُعطي كُلّاً ما يستحِقّه، فلا يَدخل المُطيع النّار، ولا المُسيء الجنّة.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٥٢]

ثم بيّن سُبحانه أنّ عادة قُريش ودأبهم في مَعاندة الحقّ، ومُعارضة الرّسول ﷺ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ﴾ الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وسيرتهم في تَكذيب آيات الله ومُعجزات الرّسول، تكون كسيرتهم.

ثمّ كأنّه قيل: ما كان دأبُ آلِ فِرعون وأضرابهم؟ فأجاب بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾ وكذّبوا ﴿بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ ومُعجزات رُسُله ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ﴾ وعذّبهم بالغرَق والرّيح والصّاعقة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ المُوبقة، كما أخذ

---

١. تفسير القمي ١: ٢٦٦.
٢. الاست: العَجُز.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٥١/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣٠٩.
٤. تفسير الرازي ١٥: ١٧٨.

هؤلاء المُشركين بالقَتل والخِزي، بشِركهم ومُعارضتهم الرّسول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يُعجزه شيءٌ ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على المُشركين به، المُعارضين لرُسُله. وفيه تسليةُ النبيّ ﷺ، وتهديدُ سائر الكُفّار.

ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٥٣]

ثمّ نبّه سُبحانه على عِلّة عدم ابتلاء العاصي قبل المعصية بالعذاب، وعدم أخذه بالشّقاوة الذاتيّة التي تكون له في بطن اُمّه، بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ التّعذيب بعد النِّعمة، والأخذ بعد الاسْتِرسال، مُعلّلٌ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ مِن دأبه ومُقتضى حِكمته أن يكون ﴿مُغَيِّراً﴾ ومُبدِّلاً ﴿نِعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ وتفضّل بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مِن العَقل والصِحّة، والرّاحة وسَعة العَيش، وغيرها ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال والأخلاق والأعمال التي كانوا عليها حين وجدان تِلك النِّعمة، إلى أسوأها، كما غيّرتْ قُريش حالها[١] في صِلة الرّحِم وعدم التعرُّض للآيات، إلى قَطع الرَّحِم والتّكذيب بالآيات ومُعجزات الرّسول، ﴿وَ﴾ نظائرها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون في السّابق واللّاحِق، فيُرتّب على كُلٍّ منهما ما يليق به مِن إبقاء النِّعمة عليه وتَغييرها.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَايَتَّقُونَ[٥٤ـ٥٦]

ثمّ أكّد سُبحانه مُشابهة دأب مُشركي قُريش بدأب كُفّار الأُمَم السّابقة بقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ﴾ الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نُوح وعاد وثَمود، مِن حيثُ إنّهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المُنعِم عليهم، وجحَدوها ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أهلكنا عُتاة قُريش ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ومَن معه مِن القِبْط في البحر ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ على الله[٢] بتَضييع حُقوق نِعَمه، وعلى أنفسهم بتَعريضها للهَلاك.

قيل: هذه الآية تفصيلٌ للآية الأولى[٣].

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان مُساواة الكُفّار في الظُّلم، بيّن أنّ شرّهم الناقضون للعهد، بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ

---

١. في النسخة: حالهم. ٢. في النسخة: على أنّه. ٣. تفسير الرازي ١٥: ١٨١.

﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ والحيوانات المُتحرّكة[1] على وَجه الأرض ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي حُكمه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبداً، لخُبث ذاتهم، وشِدَة عِنادهم ولَجاجهم ﴿ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ﴾ بعضاً ﴿مِنْهُمْ﴾ مرّات ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ﴾ ويُخالفون ﴿عَهْدَهُمْ﴾ الذي أخذتَ منهم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ مِن مرّات المُعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله، ولا يحترزون سيّئة الغَدر، ولا يُبالون العارَ والنّار.

عن ابن عبّاس: هُم يَهود قُرَيْظة[2].

قيل: إنّهم عاهدوا رَسول الله ﷺ على أن لا يُعينوا عليه عدوّاً، فنقضوا [العهد] وأعانوا أهل مكّة يومَ بَدْر بالسّلاح، ثمّ قالوا: نسينا وأخطأنا، ثمّ عاهدهم عليه مرّة أُخرى فنكثوا وأعانوا المشركين عليه يومَ الخندق، وذلك أنّهم لمّا رأوا غلبة المسلمين على المشركين يومَ بدر قالوا: إنّه هُو النبيّ الموعود، بعثه [الله] في آخر الزّمان، فلا جَرَم يتمّ أمرُه، ولا يقدِر أحدٌ على مُحاربته، ثم [أنهم] لمّا رأوا يومَ أُحد ما وقع مِن نوع ضَعْف المسلمين شَكّوا، وقد كان احترق كَبِدهم بنار الحَسد من ظُهور دينه وقُوّة أمره، فركب كعب بن أسد سيّد بني قُريظة مع أصحابه إلى مكّة، وواثقوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فأدّى ذلك إلى غَزوة الخندق[3].

وعن القُمّي: هُم أصحابه الذين فرّوا يوم أُحُد[4].

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ [٥٧ و ٥٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ ذمّ الكُفّار النّاقضين للعهد بأنّهم شرّهم، أمر نبيّه ﷺ بالتّغليظ والتشديد عليهم، بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ وتظفرنّ بهم ﴿فِى﴾ تَضاعيف ﴿ٱلْحَرْبِ﴾ والقِتال ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ وفرّق بسبب قَتلهم وتَنكيلهم ﴿مَّنْ﴾ يكون ﴿خَلْفَهُمْ﴾ ومَن ورائهم من أعدائك، وأوقِع بالناقضين من النّكاية والقَهر ما يضطرب به حالُ غيرِهم من الكُفّار، ويخاف منك أمثالُهم، بحيث يذهب عنهم بالكُلّيّة ما يخطِر ببالهم من مُعاداتك ومُحاربتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويتّعظون بما شاهدوا من مُعاملتك مع النّاقضين، فيرتدعوا من نقض العهد ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ وتعلَمنّ بالأمارات ﴿مِن قَوْمٍ﴾ عاهدوك على أمر ﴿خِيَانَةً﴾ ونَقض عهد ﴿فَٱنبِذْ﴾ واطْرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عهدَهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وبطريق الاقتصاد، بأن تُخبرهم إخباراً واضحاً بأنّك ألغيتَ عَهدهم، وقطعتَ ما بينك وبينهم من الوُصْلة، ولا

---

١. في النسخة: المتحركين.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٨٢.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٢.
٤. تفسير القمي ١: ٣٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١١.

تُقدِم على حربهم في حال كَونهم على توهُّم بَقاء العهد، كي لا يُتوهّم في حقّك شائبة الخِيانة ﴿إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وفي هذا التذييل[١] دَلالةٌ على قُبح الخِيانة ومَبغوضيّتها لله مُطلقاً، سواءً كانت في العهد أو غيره، مع الرّسول أو مع غيره. القُمّي: نزلتْ في مُعاوية لمّا خان أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ[٥٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الأمر بتَشديد النبيّ صلى الله عليه وآله على النّاقضين للعهد ومُعاملته معهم مُعاملة يعتبِر بها غيرُهم، وقد فاتَه تعالى يومَ بَدر بعضَ مَن بلغ في أذيّة النبيّ صلى الله عليه وآله ونقض عهده مَبلغاً عظيماً، سلّاه سُبحانه ووعده بالظّفَر بهم، لئلّا يبقىٰ في قلبه الشّريف حَسرةٌ، بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ ولا يتوهّم[٣] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونقضوا عهد النبيّ صلى الله عليه وآله، ولَم يظفَر بهم أنّهم ﴿سَبَقُوا﴾ وأفلتوا مِن أن يُعاقبوا، فليعلَموا ﴿إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ﴾ الله من أن يظهَر بعد، أو المُراد: لا يجِدون الله الذي هو طالبهم عاجزاً مِن إدراكهم.

وقيل: إنّ المُراد أنّهم لا يحسَبوا بتخلُّصهم من الأسر والقَتل أنّهم يخلُصون من عِقاب الله وعَذابه في الآخرة، إنّهم لا يُعجزون الله بهذا السّبق والتخلُّص، من الانتِقام منهم في الآخرة.

وَأَعِدُّوا لَهُم مَااسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ[٦٠]

ثمّ أنه تعالى لمّا أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بتَشريد النّاقضين للعهد، ونَقض عَهد مَن يخاف منه النّقض، أمر المؤمنين بالإعداد لهؤلاء الكُفّار والتهيؤ لِقتالهم، بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لِقتال الكُفّار وهيّئوا ﴿لَهُم مَااسْتَطَعْتُم﴾ وما بلغ وُسعُكم ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ وعُدّة، كائناً ما كان مِن سِلاح وقِسِيّ وتُرُس وغيرها.

قيل: إنّه لمّا اتّفق لأصحاب[٤] النبيّ صلى الله عليه وآله في قضية[٥] بَدر أن قصَدوا الكُفّار بِلا آلةٍ ولا عُدّة، أمرهم الله أن لا يعودوا لمِثله، وأن يعُدّوا [للكفار] ما يُمكنهم مِن آلةٍ وقُوّة[٦].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قرأ هذه الآية على المِنبر وقال «ألا أنّ القُوّة الرّمْي» ثلاثاً[٧]. وقيل: هي الحُصون[٨].

---

١. في النسخة: التذليل. ٢. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١١. ٣. في النسخة: ولا يتوهن.
٤. في تفسيرالرازي: أصحاب. ٥. في تفسيرالرازي: قصة.
٦. تفسيرالرازي: ١٨٥/١٥. ٧. تفسير الرازي ١٥: ١٨٥، تفسير أبي السعود ٤: ٣٢.
٨. تفسير الرازي ١٥: ١٨٥.

وعن الصادق عليه السلام: «سَيف وتُرس»[١]. وفي الفقيه: عنه عليه السلام: «منه الخِضاب بالسّواد»[٢].

وعن القُمّي: السِّلاح[٣].

وقيل: عامٌ، في كُلّ ما يُتقوّى به على حَرب العَدُوّ[٤] مِن الآلات، والحُصون، والعُلوم المَربوطة به.

﴿وَمِن رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وأفراس مَربوطة في سبيل الله. وعن عِكرمة: الإناث منه[٥].

ورُوي: عليكم بإناث الخَيل، فإنّ ظُهورها حِرزٌ وبُطونها كَنزٌ[٦].

وفي الحديث: «مَن احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً به وتصديقاً بوعده، فإنّ شِبَعه ورَيّه ورَوْثَه وبَوْلَه في ميزانه [يوم القيامة]»[٧].

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة إيجاب الإعداد للحرب بقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ بالإعداد وتُرعِبون ﴿بِهِۦ﴾ كُفّار قُريش الّذين يكونون ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لكونكم أولياء الله ﴿وَ﴾ أعداء ﴿ءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ ومِمّن عَداهم مِن الكَفَرة؛ كاليَهُود والنّصارى والمُنافقين ﴿لَاتَعْلَمُونَهُمُ﴾ ولا تعرِفونهم جميعاً لنِفاقهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعرِفهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بتحصيل القُوّة للحرب، رغّب المُسلمين ببَذل المال [بقوله:] ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ووُجوه الخير التي أهمّها الجِهاد ﴿يُوَفَّ﴾ ويُوصل ﴿إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه كاملاً في الآخرة ﴿وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ﴾ بتَرك الإثابة أو تنقيصها.

عن ابن عبّاس قال: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي لا يضيع في الآخرة أجرُه، ويُعجّل الله عِوضه في الدُّنيا[٨]، ﴿وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ﴾ أي لا تُنْقَصون مِن الثّواب.

ورُوي أنّه «مَن أعان مُجاهداً في سبيل الله، أو غارِماً في عُسْرته، أو في مُكاتَباً في رقبته، أظلّه الله في ظِلّه يومَ لا ظِلّ إلّا ظِلّه»[٩].

وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٦١]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الأمر بالإعداد للحَرب، أمر بإجابة الكُفّار إذا سألوا الصُّلح بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ ومالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ والمُصالحة وطلَبوها منك ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ومِل إليها إن رأيتَ الصَلاح فيها ﴿وَتَوَكَّلْ

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٣/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.
٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٨٢/٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.
٣. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٢.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٥: ١٨٥.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٥.
٧. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٥.
٨. تفسير الرازي ١٥: ١٨٧.
٩. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٦.

عَلَى آللَّهِ﴾ وفوّض الأمر في مُعاهدتك معهم إليه، فإنّه ينصُرك عليهم إذا نقضوها وعدَلوا عن الوَفاء بها **﴿إِنَّهُ هُوَ آلسَّمِيعُ آلْعَلِيمُ﴾** لمقالاتهم الخَفيّة الخِداعية، وبضمائرهم السيّئة مِن إبطانهم المَكر في الصُّلح.

قيل: إنّها مَنسوخة بقوله: **﴿فَاقْتُلُوا آلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾**[1]، وقوله: **﴿قَاتِلُوا آلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾**[2].

وعن القُمّي: أنّها مَنسوخه بقوله: **﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى آلسَّلْمِ﴾**[3].

أقول: في الجميع نظر.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: ما السَّلم؟ قال: «الدُّخول في أمرنا»[4].

أقول: الرِّواية مُناسبة لقوله: **﴿آدْخُلُوا فِي آلسِّلْمِ كَافَّةً﴾**[5]، ولا رَبط لها بهذه الآية.

وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ آللهُ هُوَ آلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي آلْأَرْضِ جَمِيعاً مَاأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ آللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٦٢ و ٦٣]

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب التوكُّل عليه عند الخوف من نَقضهم العهد بقوله: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾** في طلب الصُّلح، ويمكُروا بك بنَقض العهد، فلا تُبالِ بهم **﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ آللهُ﴾** وكَفاك من شرّهم، وينصُرك عليهم، فإنّه تعالى **﴿هُوَ آلَّذِي أَيَّدَكَ﴾** وقوّاك **﴿بِنَصْرِهِ﴾** يومَ بَدر وغيره مِن أيّام عُمرك **﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾** من المُهاجرين والأنصار بعدَ بِعثتك **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** بعد أن كان بينها من التَباعُد والبَغضاء قبل الإيمان بك، بحيث **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي آلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾** لتُؤلّف قُلوبهم **﴿مَاأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** لامتِناعه بالأسباب العاديّة **﴿وَلٰكِنَّ آللهَ﴾** بقُدرته الكاملة **﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾** قلباً وقالباً، فصاروا بقُدرته وتَوفيقه كنَفسٍ واحدة **﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾** وغالب على أمره، لا يستعصي شيءٌ مِمّا يُريد **﴿حَكِيمٌ﴾** وعالِم بمَصالح الأُمور وتَدابيرها.

القُمّي: كان بين الأوس والخَزرج حَرب شديدة وعَداوة في الجاهلية، فألّف الله بين قُلوبهم ونصر بهم نبيّه صلّى الله عليه وآله[6].

---

١. التوبة: ٥/٩. ٢. تفسير الرازي ١٥: ١٨٧، والآية من سورة التوبة: ٢٩/٩.
٣. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٢، والآية من سورة محمد صلّى الله عليه وآله: ٣٥/٤٧.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٥/٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٢. ٥. البقرة: ٢٠٨/٢.
٦. تفسير القمي ١: ٢٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.

قيل: إنّ النبيّ ﷺ بُعث إلى قومٍ أنَفَتهم شَديدة، وحَميّتهم عظيمة، حتّى لو لُطِم رجلٌ من قبيلة لطمةً، قاتل عنه قبيلته حتى يُدركوا ثأره، ثمّ انقلبوا من تِلك الحالة حتّى قاتل الرّجُل [أخاه و] أباه وابْنه واتفقوا على طاعة النبيّ ﷺ، وصاروا أنصاراً، وعادُوا أعواناً[١].

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما وعد نبيّه ﷺ بالنّصر عند خَديعة الأعداء، وعده بالنّصر في جميع الأوقات، وعلى جميع الكفار بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللهُ﴾** وكافيك في دفع شرّ أعدائك، **﴿وَ﴾** كافيك **﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**، وقيل: إنّ المعنى: أنّ الله كافيك وكافي أتباعك[٢].

قيل: نزلتْ بالبَيداء في غزوة بَدر قبلَ القِتال تقويةً للنبيّ ﷺ وتسليةً لأصحابه[٣].

وقيل: لمّا أسلم عُمر وبلَغ بإسلامه عدَدُ المؤمنين أربعينَ نزلتْ الآية[٤].

وفي (نهج الحقّ): روى الجُمهور أنّها نزلتْ في عليّ ﷺ[٥]. وذكره[٦] صاحب (كشف الغُمّة) عن كِتاب عِزّ الدين بن عبد الرزّاق المحدّث الحنبلي[٧].

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُمْ مِاْئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ﴾[٦٥]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَقوية قلب نبيّه ﷺ أمره بتَحريض المؤمنين على القِتال بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** وحُثّهم **﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾** مع أعداء الله، وبالغ في تَرغيبهم إليه بوَعد الثّواب العظيم على فِعله، والعِقاب الشّديد على القُعود عنه، وقُل لهم: **﴿إِن يَكُن مِنكُمْ﴾** أيُها المؤمنون **﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾** على المُنازلة في معركة القِتال **﴿يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾** من الذين كَفروا **﴿وَإِن يَكُن مِنكُمْ مِاْئَةٌ﴾** صابرة **﴿يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وهذا الضّعف في الكُفّار مُعلّل **﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ﴾** ولا يُدركون الحقّ، ولا يعرِفون الله، ولا يعتقدون باليومِ الآخر حتّى يُقاتلوا تقرّباً[٨] إلى الله، وتوكّلاً[٩] عليه، ورجاءً للثّواب، بَل يُقاتلون بهوى النّفس، وبالأغراض الدُّنيويّة، ولِذا يستحقّون الخِزي والقَتل، ولا يستحقّون النّصر.

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٨٩.
٢. تفسير الرازي ١٥: ١٩١.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٦٨.
٥. نهج الحق: ١٨٥.
٦. في النسخة: وذكر.
٧. كشف الغمة ١: ٣١٢.
٨. في النسخة: متقرباً.
٩. في النسخة: ومتوكلاً.

وقيل: إذا كانوا يُقاتلون لهذه[١] الأغراض الفاسدة يشِحّون على أنفسهم وحياتهم، ولا يُعرّضونها للزّوال؛ ولِذا أُمر المُسلمون بالثّبات في مُقابل عَشر أمثالهم منهم.

ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ[٦٦]

ثمّ لمّا شقّ التّكليف على المُسلمين حتّى ضَجّ المُهاجرون ـ كما عن ابن عبّاس ـ وقالوا: يا رَبّ، نحنُ جِياعٌ وأعداؤنا شِباع، ونحنُ في غُربة وأعداؤنا في أهليهم، ونحن قد أُخرِجنا مِن دِيارنا وأموالنا وأولادنا وأعداؤنا ليسوا كذلك. وقال الأنصار: شُغِلنا بعَدُوّنا، وواسينا إخواننا، فنزل التّخفيف[٢] بقوله: **﴿ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾** برَفع التّكليف السّابق **﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾** عن المُقاومة في قِبال عَشر أمثالكم بأن يُقاتل الواحدُ عشراً، والعَشرةُ مائةً، والمائةُ ألفاً **﴿فَإِن يَكُن﴾** مِن بعد **﴿مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾** على مَشاقّ الحَرب، ثابتة الأقدام في مَعركة النِّزال **﴿يَغْلِبُوا﴾** ويقهَروا **﴿مِائَتَيْنِ﴾** مِن الكُفّار **﴿وَإِن يَكُن مِنكُمْ أَلْفٌ﴾** في مَيدان القِتال **﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾** من الكُفّار **﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾** وقُدرته وتَيسيره وتسهيله **﴿وَٱللَّهُ﴾** بنَصره وتأييده **﴿مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾** في جِهاد أعدائه.

رُوي أنّ النبيّ ﷺ كان يبعث العَشرة إلى وجه المائة، وبعث حمزة ﷺ في ثلاثين راكباً قبلَ بَدر إلى قومٍ، فلقِيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب، وأرادوا قِتالهم فمنعهم حمزة، وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن أنيس إلى خالد بن صَفوان الهُذَلي وكان في جَماعة، فابتدر عبدُ الله وقال: يا رسول الله، صِفْه لي، فقال: «إنّك إذا رأيتَه ذكرتَ الشّيطان، ووجدتَ لذلك قَشْعريرة، وقد بلَغني أنّه جمع لي، فاخرُجْ إليه واقتُلْه»، قال: فخرجتُ نحوه، فلمّا دَنوتُ منه وجدتُ القَشعريرة، فقال لي: مَن الرّجُل؟ قلتُ له: مِن العَرب، سمِعتُ بك وبجمعك. ومشيتُ معه حتّى إذا تمكّنتُ منه قتلتُه بالسّيف، وأسرعتُ إلى رسول الله ﷺ وذكرتُ أنّي قتلتُه، فأعطاني عصاً وقال: «أمسِكْها، فإنّها آيةٌ بيني وبينك يومَ القِيامة»[٣].

ثمّ إنّ هذا التّكليف شَقّ على المُسلمين فأزاله الله بهذه الآية.

وقال ابنُ عبّاس: أيّما رَجُل فَرّ من ثلاثةٍ فلَم يفِرّ، فإنْ فَرّ مِن اثنين فقد فَرّ[٤]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

---

١. في النسخة: بهذه. ٢. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤. ٣. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤.
٤. تفسير الرازي ١٥: ١٩٤.

«مَن فَرَ مِن رَجُلَين في القِتال مِن الزَحف فقد فَرَ مِن الزَحف، ومَن فَرَ مِن ثلاثةِ رِجالٍ [في القِتال مِن الزَحف] فلَم يفِرَ»[١].

وعن الصادق عليه السلام، في حديثٍ ذكر فيه هذه الآية فقال: «نسَخ الرَجُلان العَشرة»[٢].

قيل: كان فيهم قِلَة أوَلاً، فأُمروا بذلك، ثمَ لمَا كثُروا خفَف الله عنهم.

أقول: يُشَمَ ذلك من الآيتين، حيثُ ذكر في الآية الأُولى غَلبة العِشرين على مائتين، ومائة على ألف، وفي الثّانية غَلبة مائة على مائتين، وألف على ألفين.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٦٧]

ثمَ أنَه تعالى بعدَ بَيان حُكم الجِهاد، والأمر بالمُسالمة إذا طلبها الكُفَار، بيَن حُكم الأسارى والغَنائم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ مِن الأنبياء، وما صَحَ له ﴿أَن يَكُونَ﴾ ويثبُت ﴿لَهُ أَسْرَىٰ﴾ وسَبايا ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويُكثِر القَتل ويُبالغ فيه، حتَى يَذُلَ الكُفر ويَقِلَ حِزبه ويَعِزَ الإسلام.

رُوي أنَ النبيَ صلى الله عليه وآله أُتي يومَ بَدر بسبعين أسيراً فيهم العبَاس بن عبد المطَلب وعقيل بن أبي طالب، فاسْتشار فيهم، فقال أبو بكر: [هم] قومُك وأهلك، اسْتَبقِهم لعلَ الله يهديهم إلى الإسلام، وخُذ منهم فِدية تُقوِي بها أصحابك. وقال عُمر: كذَبوك، وأخرجوك مِن دِيارك، وقاتلوك، فاضْرِب أعناقهم، فإنَهم أئمَة الكُفر، مَكِّنِي مِن فُلان؛ نسيبٌ لي، و [مكّن] علياً مِن عقيل، وحمزةَ مِن العبّاس، فلنضرِب أعناقهم فلَم يَهْوَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «إنَ الله ليُليِّن قُلوبَ رِجالٍ حتَى تكون ألْيَن مِن اللَّبَن، وإنَ الله ليُشدِّد قُلوبَ رِجالٍ حتَى تكون أشدَ من الحِجارة، وإنَ مثلك يا أبابكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣]، ومِثلك يا عمر مثل نُوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾»[٤].

فخيَر أصحابه بأن قال لهم: «إن شِئتُم قتلتُموهم، وإن شئتُم أطلقتُموهم، بأن تأخُذوا من كُلّ أسير عِشرين أُوقية ـ والأُوقية أربعون دِرهماً في الدَراهم، وسِتَة دَنانير في الدَنانير ـ على[٥] أن يستشهد منكم بعِدَتهم»، فقالوا: بَل نأخذ الفِداء ويدخُل مِنَا الجنَة سبعون، فاستشهدوا يومَ أحد بسَبب قَولهم هذا وأخْذِهم الفِداء، فنزلتْ الآية في فِداء أُسارى بَدر، فدخل عُمر على رَسُول الله صلى الله عليه وآله وهُو وأبو بكر

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٥٨/٢٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.

٢. الكافي ٥: ١/٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣. ٣. إبراهيم: ٣٦/١٤. ٤. نوح: ٢٦/٧١.

٥. في تفسير روح البيان: إلاّ.

يبكيان، فقال: يا رسول الله، أخبرني، فإن أجدْ بُكاءً أبكي وإلّا تَباكيتُ، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفِداء، ولقد عُرض عليَّ عَذابهم أدنى مِن هذه الشجرة»[١].

ورُوي أنّه ﷺ قال: «لا تُخرِجوا أحداً منهم إلّا بفِداءٍ، أو بضرب عُنُق»، فقال ابن مسعود: إلّا سهيل[٢] بن بَيضاء، فإنّي سمِعتُه يذكُر الإسلام، فسكَت رسول الله ﷺ واشتدّ خَوفي، ثمّ قال من بعد: «إلّا سهيل بن بيضاء»[٣].

وعن ابن سيرين: كان فِداؤهم مائة أُوقية[٤].

ونُقل: أنّ الأسرى منهم مَن فُدي، ومِنهم مَن قُتل، ومِنهم مَن خُلّي سَبيلُه مِن غير فِداء، ومنهم مَن مات[٥].

ثمّ لامهم سُبحانه على أخذ الفِداء بقوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيُّها المؤمنون بأسرهم وأخذ الفِداء منهم ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزَخارفها التي تَزول ولا تبقى ﴿وَٱللهُ يُرِيدُ﴾ لكم ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وثَوابها الذي يكون قليلُه خيراً مِن الدُّنيا وما فيها، فعليكم بطَلَب الآخرة ﴿وَٱللهُ عَزِيزٌ﴾ وقادر يجمَع لكُم الدُّنيا والآخرة، ويُغلِّبكم على أعدائكم ﴿حَكِيمٌ﴾ بحِكمته يُدبّر مَصالح عِباده وأوليائه.

قيل: إنّ الله أمرنا بالإثخان ومنع عن الافتِداء حين كانت الشّوكة للمُشركين، ولمّا تحوّلتْ الحال وصارتْ الغَلَبة للمُسلمين، خيّر بَيْن المَنّ والفِداء[٦].

في الردّ على القول بعمل الأنبياء باجتهاد

قال بعضُ العامّة: الآية دالّة على أنّ الأنبياء مُجتهدون، لأنّ اللّوم لا يكون على ما صدر عن الوَحي، ولا على فِعلِ ما هُو صَواب، بَل يكون على ما كان خطأً[٧].

وفيه: أنّه بعد ما ثبت عِصمةُ النبيّ بالأدلّة العَقليّة والنقليّة عن الخطأ لا يُمكن نِسبته إليه، فلابُدّ من القول بأنه ﷺ كان عالِماً بخطأ الصّحابة في الإصرار بأخذ الفِداء، ولكنّه ﷺ لمّا كان رَحمة للعالَمين كان مأموراً بمُوافقتهم وعدَم تَخطئتهم، كي تنزِل آيةٌ فيها تَخطِئتُهم والعِتاب عليهم، ويظهر للمُسلمين أنّ أبا بكر وأضرابه كانوا طالبين للدُّنيا دُون الآخرة.

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَن فِى أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِر

---

١. تفسير الرازي ١٥: ١٩٧، تفسير روح البيان ٣: ٣٧٢.

٢. في النسخة: إسماعيل، وكذا ما بعدها. ٣ و ٤. تفسير الرازي ١٥: ١٩٨.

٥-٧. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٣.

لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٦٨ ـ ٧١]

ثمّ عاتبهم الله على أخذ الفِداء بقوله: ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ**﴾ وحِكمٌ وقَضاء ﴿**مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ**﴾ بحِلّ الغَنائم، أو بأن لا يُعذّب مَن أذنب بجَهالةٍ، أو بأن يُمهل طالبي الدُّنيا حتّى يقوم بـهم الأسـلام ﴿**لَمَسَّكُمْ**﴾ ولأصابكم ﴿**فِيمَا أَخَذْتُمْ**﴾ من الفِداء وبسببه ﴿**عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

ثمّ رُوي أنّ الصّحابة لمّا عُوتبوا على أخذ الفِداء أمسكوا عن الغنائم[١]، حتّى صرّح الله سُبحانه بحِلّها لهم بقوله: ﴿**فَكُلُوا**﴾ أيُّها المؤمنون ﴿**مِمَّا غَنِمْتُمْ**﴾ واستفدتُم مِن أمتعة الكُفّار وأموالهم فـي الحرب، حالَ كَونه ﴿**حَلَالاً**﴾ ومُباحاً لكم مِن الله و ﴿**طَيِّباً**﴾ وغير مَكروه لطِباعكم ﴿**وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ**﴾ في مُخالفة أحكامه ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ**﴾ لمَن فرّط منكم في استِباحة الفِداء قَبل إذْنه ﴿**رَحِيمٌ**﴾ بكم بإحلاله الغنائم لكم، معَ أنّها كانت مُحرّمة على الأُمَم الذين مِن قَبلكم.

عن ابن عبّاس: كانت الغنائم حَراماً على الأنبياء، فكانوا إذا أصابوا مَغنماً جعلوه للقُربان، فكـانت تنزل النّار من السّماء فتأكُله، ولله عِنايات بهذه الأُمّة لا تُحصى[٢].

ثمّ أنّه رُوي أنّه اُسِر العبّاس بن عبد المطّلب يومَ بَدر، وكان أحد العشَرة الذين ضمِنوا إطعام مَن خرج مِن مكّة لحِماية العِير، وكان قَد خرج بعشرين اُوقيّة من ذهب ليُطعم بها الكُفّار، فوقع القِتال قبلَ أن يُطعم بها، وبقيت العِشرون اُوقيّة معه، فاُخذتْ منه فـي الحـرب، فكـلّم النبيَّ ﷺ فـي أن يحتسب العِشرين أوقيّة من فِدائه، فأبى ﷺ وقال: «إنّما هُو شيء خرجتَ به لتستعين به علينا، فلا أترُكه لك». فكلّفه أن يفدي نفسه بمائة اُوقيّة زائداً على فِداء غيره لقطع الرّحِم، وكلّفه أن يفتدي ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونَوفل بن الحارث، كُلّ واحد بأربعين أُوقيّة، فقال: يا محمّد، تـترُكني أتكفّف قريشاً ما بقيتُ!

فقال ﷺ: «فأين [الذهب] الذي دفعته إلى اُمّ الفضل وقتَ خُروجك من مكّة، وقلتَ لها: إنّي لا أدري ما يُصيبني في وجهي هذا، فإن حدَث بي حَدثٌ فهُو لك ولعبد الله والفضل وقُثَم؟» فـقال العبّاس: وما يُدريك؟ قال: «أخبرني به ربّي»، قال: أشهد أنّك صادقٌ، وأن لا إلهَ إلّا الله، وأنّك رسول الله، والله لَم يطّلع عليه أحدٌ إلّا الله، ولقد دفعتُه إليها في سَواد اللّيل، ولقد كنتُ مُرتاباً في أمرك، وأمّا إذ أخبرتني بذلك فلا رَيب[٣].

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٣.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٤.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٥.

فنزلتْ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَن فِى أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ﴾ كالعبّاس وغيره: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ من الإيمان والخُلوص والنُّصح للرّسول ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ ويُعطيكم في الدُّنيا وفي الآخرة، أو فيهما مِن الثّواب ما يكون ﴿خَيْراً﴾ وأفضل ﴿مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفِداء والغَنيمة ﴿وَيَغْفِر لَكُمْ﴾ ذُنوبكم التي سلَفتْ منكم ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لذُنوب المُذنبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده المؤمنين.

عن السجّاد عليه السلام قال: «أتى النبيَ ﷺ بمالٍ دراهم[1] فقال: يا عبّاس ابسُط رِداءك وخُذ من هذا المال طَرَفاً، فبسَط رِداءه وأخذ طائفةً منه، ثمّ قال رسول الله: هذا مِن الذي قال الله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً... مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾»[2].

ورُوي أنّ العبّاس قال: فأبدلني الله خيراً ممّا اُخذ منّي، لي الآن عِشرون عبداً، وإنّ أدناهم ليضرِب ـ أي يتّجر ـ في عِشرين ألف دِرهم، وأعطاني سِقاية زَمزم، ما أُحبّ أنّ لي بها جميعَ أموال أهل مكّة، أنجز الله لي أحد الوَعْدَين، وأنا أرجو أن يُنجز لي الوَعد الثّاني[3].

ورُوي أنّه قدِم على رسول الله ﷺ مالُ البحرين ثمانون ألفاً، فتوضّأ لصلاة الظُّهر وما صلّى حتّى فرّقه، وأمر العبّاس أن يأخُذ منه، فأخذ ما قدَر على حَمله، وكان يقول: «هذا خيرٌ مِمّا اُخذ منّي، وأنا أرجو المغفرة»[4].

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بأن عَزموا على الثّبات على الكُفْر، وعدَم الوَفاء بما ضمِنوا من الفداء، أو بما عاهدتهم[5] عليه مِن عَدم العَود إلى مُحاربتك، وإلى مُعاهدة المشركين، فليس بِدْعاً منهم ﴿فَقَدْ خَانُوا ٱللهَ مِن قَبْلُ﴾ بما أقدموا عليه من مُحاربتك يومَ بَدر ﴿فَأَمْكَنَ﴾ الله المؤمنين ﴿مِنْهُمْ﴾ قتلاً وأسراً. وفيه بِشارة للرّسول ﷺ بتمكينه من كُلّ مَن يخُونه وينقُض عهده. وعن القُمّي رحمه الله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في عليّ، فقد خانوا الله مِن قبلُ فيك[6] ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم من إبطان الخُلوص والصِّدق، والخِيانة والغَدر ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعاله، يُراعي ما هو صَلاح مَملكته، ويُجازيهم على حَسب استِحقاقهم.

وفي رِوايةٍ عاميّة: أنّ العبّاس كان قد أسلم قبلَ وقعة بَدر، ولكن لَم يُظهر إسلامه، لأنّه كان له دُيون مُتفرّقة في قُريش، وكان يخشى إن أظهر الإسلام ضَياعها، وإنّما كلّفه النبيّ ﷺ الفِداء، لأنّه كان عليه ظاهراً لا له، ولمّا كان يومُ فَتح مكّة وقَهرهم الإسلامُ أظهر إسلامه، ولَم يُظهر النبيّ ﷺ إسلامه رِفقاً

---

١. في النسخة: بمأتي درهم.
٢. قرب الإسناد: ٧٣/٢١، تفسير الصافي ٢: ٣١٥.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٦.
٤. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٤.
٥. في النسخة: عاهدتم.
٦. تفسير القمي ١: ٢٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٥.

به، كَيْلايضيع مالُه عند قُريش، وكان قد استأذن النبيّ ﷺ في الهجرة، فكتب إليه: «يا عَمَ أقِم مَكانك الذي أنت فيه، فإنّ الله يختِم بك الهِجرة كما ختَم بي النّبوّة» فكان كذلك[١].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِن وَلَايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٧٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان قضيّة بَدر وثَبات المؤمنين فيها، وبَيان أحكام الجِهاد والغَنيمة والأسْر، شَرع في مَدح المؤمنين وذِكْر أقسامهم، بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ بالله ورَسوله وكِتابه ﴿**وَهَاجَرُوا**﴾ أوطانهم وأهليهم للالتِزام بخِدمة الرّسول ﷺ، والقِيام بطاعته ﴿**وَجَاهَدُوا**﴾ أعداء الله ﴿**بِأَمْوَالِهِمْ**﴾ بأن صَرفوها إلى المُحتاجين ولَوازم الجِهاد ﴿**وَأَنْفُسِهِمْ**﴾ بأن باشروا القِتال، وخاضوا في المَهالك ﴿**فِي سَبِيلِ ٱللهِ**﴾ وطلباً لنُصرة دينه، وحُبّاً لرَسوله ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ**﴾ وأسكنوا النبيّ ﷺ والمُهاجرين في بَلدهم ومَأواهم ﴿**وَنَصَرُوا**﴾ هم على أعدائهم، وعاونوهم على مَقاصدهم ﴿**أُولَٰئِكَ**﴾ المؤمنون بتِلك الصِّفات الفائقة ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ**﴾ ووارث ﴿**بَعْضٍ**﴾.

القُمّي: لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة آخا بين المُهاجرين والمُهاجرين، وبين الأنصار والأنصار، وبين المُهاجرين والأنصار، وكان إذا مات الرّجل يرِثه أخوه في الدِّين ويأخُذ المال، وكان له ما ترك دُون وَرَثته، فلمّا كان بعدَ بَدر أنزل الله: ﴿**ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾[٢] فنسختْ آيَةَ الأُخوَّة ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾[٣].

وفي (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أنّهم كانوا يتوارثون بالمُواخاة الأُولى[٤]، دُون التّقارب، حتّى نُسِخ ذلك [بقوله]: ﴿**وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾»[٥].

وعن ابن عبّاس: المُراد هُو الوِلاية في الميراث، وقال: جعل الله تعالى سبب الإرث الهِجرة والنُّصرة دُون القَرابة، وكان القريب إذا آمن ولَم يُهاجر لَم يرِث، من أجل أنّه لَم يُهاجر ولَم ينصُر[٦].

كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا**﴾ كسائر المؤمنين ﴿**مَا لَكُمْ**﴾ أيّها المؤمنون

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٧٦.
٢. الأحزاب: ٦/٣٣.
٣. تفسير القمي ١: ٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٣١٥.
٤. مجمع البيان ٤: ٨٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣١٦.
٥. تفسير الصافي ٢: ٣١٦.
٦. تفسير الرازي ١٥: ٢٠٩.

﴿مِن وَلَايَتِهِم﴾ في الميراث ﴿مِن شَيْءٍ﴾ وإن كانوا أقرب أقاربكم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

ثمّ لمّا كان مجال تَوهُّم وُجوب القَطع منهم في جميع الجِهات كالكُفّار، دفعه الله سُبحانه بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا بكم[1] على مَن يُعاديهم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ مِن الكُفّار ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لهم، وليسَ لكم أن تخذُلوهم ﴿إِلَّا﴾ إذا استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الكُفّار الذين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ﴾ وعهدٌ على أن لا تُقاتلوهم، فإنّه لا يجُوز لكم نَصر المؤمنين عليهم في هذه الصُّورة؛ لأنّ حُرمة نَقض الميثاق مانعة منه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطّاعة والعِصيان لأحكامه ﴿بَصِيرٌ﴾ ومُطّلع فيُجازيكم على ما صَدر عنكم على حَسب استِحقاقكم.

ورُوي أنّ لمّا نزل قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِن وَلَايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ قام الزُّبير وقال: فهل نُعينهم على أمرٍ إن استعانوا بنا؟ فنزل ﴿وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ الآية[2].

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ[٧٣]

ثمّ نهى الله المؤمنين عن مُوالاة الكُفّار ومعاونتهم بأيّ وَجه، وإن كانوا أقرب الأقارب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليسوا أولياءكم لانْقِطاع العَلاقة بينكم وبينهم بالإسلام، بَل ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لاشتِراكهم في السِّنخيّة، واتّفاقهم على الباطل ومُعاداة الرّسول ومُعارضته، فيجب عليكم التّباعُد منهم والتّعانُد معهم و﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ بأن تُخالطوهم وتُوالوهم ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ عظيمة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهيَ ضَعف المؤمنين وقُوّة الكُفّار ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ من جِهة رَغبة المُسلمين إلى الكُفّار، ورُجوعهم عن الإسلام إلى الكُفر بسَبب المُخالطة والمُوادّة.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[٧٤و ٧٥]

ثمّ مدح الله سُبحانه المؤمنين من المُهاجرين والأنصار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ الكفّار بأموالهم وأنفسهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا﴾ هم على الكُفّار ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ

---

١. في النسخة: عنكم. ٢. تفسير الرازي ١٥: ٢١١.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقًّا﴾ وصِدقاً وخالصاً لقِيامهم بلَوازمه، وعمَلهم بمُقتضاه ﴿لَهُم﴾ بسبب الإيمان الخالص، والعَمل الصَالح ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وسَترٌ لذُنوبهم السَابقة ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ واسع كثير بِلا مَنٍّ ولا تَعَب في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ﴾ ـ عن ابن عبّاس: بعد الحُدَيْبِية، وقيل: بعدَ بَدْر، وقيل: بعد نُزول الآية[١] ـ ولحِقوا بالسّابقين من المؤمنين في اعتِقاد التّوحيد، وتَبعيّة الرّسول ﷺ، وطاعة أوامره ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من أوطانهم إلى الرّسول ﷺ ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أعداءه ﴿مَعَكُمْ﴾ وفي جَماعتكم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ يُعدَون ﴿مِنكُمْ﴾ ويُحسَبون مِن زُمرتكم، ويكون لهم ما لكم.

ثمَ نَسخ سُبحانه حُكم التَوارث بالهِجرة والنُّصرة بقوله: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذَوو القَرابات النسبيّة من المؤمنين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحقّ في الإرث ﴿بِبَعْضٍ﴾ الأقرب إليهم ﴿فِى كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ وحُكمه المُنزل في القُرآن، أو المكتوب في اللّوح المَحفوظ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء، ومَصلحة من المَصالح ﴿عَلِيمٌ﴾ بذاته، ومُطّلع بإحاطته.

عن الصادق عليه السلام: «كان عليٌ عليه السلام إذا مات مَوليً له وترك قرابة، لَم يأخُذ من ميراثه شيئاً، ويقول: ﴿أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾»[٢].

القُمّي، قال: هذه الآية نسخت: [قوله]: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[٣].

أقول: نسخت إطلاقه.

عن الصادق عليه السلام: «لا تعود الإمامة في أخوين بعدَ الحَسن والحُسين عليهما السلام أبداً، إنّما جَرتْ من علي بن الحسين عليهما السلام كما قال الله: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ﴾، فلا تكون بعدَ علي بن الحُسين عليهما السلام إلّا في الأعقاب بعد الأعقاب»[٤].

أقول: لعلّ المُراد أنّ قَضاء الله في نصب الأئمّة طابق حُكمه في الميراث؛ لأنّ الإمامة داخلة في حُكم الإرث.

نقل الفخر الرّازي أن محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب تمسّك بهذه الآية في كِتابه إلى [أبي] جعفر المنصور على أنّ الإمام بعدَ رسول الله هُو علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: قولُه تعالى ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ يدُلّ على ثُبوت الأولويّة[٥]،

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٢١٣.

٢. الكافي ٧: ٥/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، والآية من سورة الأحزاب: ٦/٣٣.

٣. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، والآية من سورة النساء: ٣٣/٤.

٤. الكافي ١: ١/٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣١٧، وفيهما: إلّا في الأعقاب وأعقاب الأعقاب.

٥. في المصدر: الولاية.

وليس في الآية شيءٌ مُعيَن في ثُبوت هذه الأولويّة، فوجب حمله على الكُلّ إلّا ما خصّه الدّليل، وحينئذٍ يندرج فيه الإمامة، ولا يجُوز أن يُقال أنّ أبا بكر كان مِن أُولي الأرحام، لِما نُقل أنّه صلى الله عليه وآله أعطاه سُورة براءة ليُبلّغها إلى القوم، ثم بعث عليّاً خلفه، وأمر بأن يكُون المُبلّغ هُو عليّ عليه السلام وقال: «لا يُؤدّيها إلّا رَجُلٌ منّي» وذلك يدُلّ على أنّ أبا بكر ما كان مِنه.

ثم أجاب الفخر عنه: بأنه إن صحّت هذه الدّلالة، كان العبّاس أولى بالإمامة؛ لأنّه كان أقرب إلى رسول الله [من عليّ]. ثمّ قال: وبهذا الوَجه أجاب المنصور عنه[1].

أقول: بالوَجه الذي استدلّ محمّد بن عبدالله على أنّ أبا بكر ما كان منه، له الاستدلال على أنّ العباس ما كان منه، وإلّا لبعث العبّاس ليكون هُو المُبلّغ لبراءة، على أنّ آية ﴿**وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ**﴾ تُثبِت الإمامة للرَّحِم إذا كان واجداً لشرائط الإمامة من العِلم والعِصمة وغيرهما، فإذا فُرض أنّ عليّاً عليه السلام وأبابكر كانا واجِدين للشّرائط كان عليّ عليه السلام أولى بالآية، كما أنّ شَرط الإرث الإسلام، وعدم كون الوارث قاتلاً، معَ أنّ الآية تنفي الإمامة عن أبيبكر وتُثبته في أرحام رسول‌الله صلى الله عليه وآله، فيدور أمرُها بين علي عليه السلام والعبّاس، فإذا قارنها الإجماعُ على أنّ العبّاس لَم يكُن إماماً، دلّتْ الآية على إمامة عليّ عليه السلام، وعلى أي تقدير أبطلتْ الآية إمامة أبيبكر، وتجعلها في أرحام رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا بطلَتْ إمامة أبيبكر كان عليٌّ عليه السلام إماماً بالإجماع المُركّب، على أنّه ثبت بالنصّ والإجماع عند أصحابنا أنّ ابن العَمّ الأبَوَيْني أولى في الميراث من العَمّ الأبي[2].

الحمدُ لله المُتعال على التّوفيق لإتمام تفسير سورة الأنفال، نسأله أن يجعله ذُخراً ليومٍ لا بيع فيه ولا خِلال.

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٢١٣.

٢. يريد أن العباس أخو عبدالله (والد رسول الله صلى الله عليه وآله) لأبيه فقط، بينما أبوطالب (والد علي عليه السلام) أخو عبدالله لأمّه ولأبيه.

في تفسير سورة بَراءة

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[١]

ثمّ لمّا خُتمت سورة الأنفال أُردفت بسورة البراءة لكونهما في الجِهاد، وما رُوي عن الصادق عليه السلام وسعيد بن المسيّب من أنّهما واحد[١]، محمول على وحدتهما مَطلباً، لوُضوح كونهما سُورتين.

وقيل: إنّ في الأنفال ذِكر العُهود، وفي البراءة نبذها، فوُضعت بجَنب الأنفال[٢].

وقيل: إنّه تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يُوالي المؤمنون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا مُنقطعين عن الكُفّار[٣]، وفي البراءة التّصريح به.

ومن أسمائها سورة التوبة؛ لذِكر تَوبة المُهاجرين والأنصار، والثّلاثة الذين خُلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله. وعن حُذيفة: إنّكم تُسمّونها سورة التوبة، والله ما تركتْ أحداً إلّا نالت مِنه[٤].

ومِنها الفاضحة؛ عن ابن عبّاس قال: إنّها الفاضحة، ما زالتْ تنزِل فيهم وتنال مِنهم حتّى حسِبنا[٥] أن لا تدع أحداً[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تنزل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ على [رأس] سورة براءة؛ لأنّ ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ للأمان والرّحمة، ونزلتْ براءة لرفع الأمان بالسيف»[٧].

وعن ابن عبّاس قال: سألتُ عليّاً عليه السلام لِمَ لَم يكتب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بين الأنفال والبراءة؟ قال: «لأنّ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أمانٌ، وهذه السُّورة نزلتْ بالسّيف ونَبذ العُهود، وليس فيها أمان»[٨].

وحاصل الرّوايتين عدَم المُناسبة بين الرّحمة التي تدُلّ عليها البسملة، والإعلان بالحَرب ونَبذ العُهود اللّذَين يدُلّ عليها الإعلان بالبَراءة بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وقَطيعةٌ عظيمة، ونَبذةُ عهدٍ كائنة ﴿مِنَ﴾ قِبَل ﴿ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ مُرسلة أو موصولة ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُّم﴾ معهم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكّة،

---

١. مجمع البيان ٥: ٤.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٥: ٢١٦.
٤. تفسير الرازي ١٥: ٢١٥.
٥. في تفسير الرازي: خشينا.
٦. تفسير الرازي ١٥: ٢١٥.
٧. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير الصافي ٢: ٣١٨.
٨. تفسير الرازي ١٥: ٢١٦.

لظُهور الخِيانة منهم.

قيل: إنّ المُسلمين كانوا عاهدوا المُشركين مِن أهل مكّة وغيرهم بإذن الله وأمرِ الرّسول، فنكثوا إلّا بني ضَمرة وبني كِنانة، فأمر الله المُسلمين بنَبذ العَهد إلى الناكثين.

وقيل: إنّ عهدهم كان مَشروطاً بعدم أمر الله بقطعه.

وقيل: إنّه قد انقضتْ مُدّةُ عهدهم، وإنّما أعلن الله بعدم إعادة العهد معهم، وأنّ الرّسول مأمورٌ بمُحاربتهم.

فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَافِرِينَ[٢]

ثمّ أخبرهم الله بإمهالهم في القِتال أربعة أشهر بقوله: ﴿فَسِيحُوا﴾ وسِيروا أيّها المشركون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ آمنين من القَتل والغارة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ غير خائفين فيها من قِتال واغْتِيال، وأمّا بعد انقِضاء المُدّة فليس إلّا الإسلام أو السّيف ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ بسِياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ﴾ وغير فائتين منه بالهَرب والتّحصين ﴿وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَافِرِينَ﴾ ومُذلّهم في الدُّنيا بالقَتل والأسر، وفي الآخرة بعذابٍ أليم.

قيل: نزلتْ في أوّل شَوال، وكانت[1] الأشهر: شَوال وذو القَعْدة وذو الحِجّة ومُحرّم، وكان الإمهال صِيانةً للأشهر الحُرُم[2].

وقيل: كان أوّلها عاشر ذي الحِجّة، وآخرها عاشر رَبيع الآخر؛ لأنّ التّبليغ كان في يوم النّحْر[3].

روى الفخر الرّازي: أن فتح مكّة كان سنه ثَمان، وكان الأمير فيها عَتّاب بن أسيد، ونزول هذه السّورة سنة تِسع، وأمر رسول الله ﷺ أبابكر سنة تِسع بأن يكون على المَوسم، فلمّا نزلتْ هذه السّورة أمر علياً أن يذهب إلى أهل المَوسم ليقرأها عليهم، فقيل له: لو بعثت [بها] إلى أبي‌بكر؟ فقال: «لا يُؤدّي عنيَ إلّا رَجلٌ منّي».

فلمّا دنا على سَمعِ أبوبكر الرُّغاء، فوقف وقال: هذا رُغاء ناقة رسول‌الله، فلمّا لحِقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، ثمّ ساروا، فلمّا كان قبل التّروية خطَب أبوبكر وحدّثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يومَ النّحر عند جَمرة العَقَبة فقال: «يا أيُّها النّاس، إنّي رسول رسول الله إليكم» فقالوا: بماذا؟ فقرأ

---

١. في النسخه: وكان. ٢. تفسير الرازي ١٥: ٢١٩.

٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٣: ٣٨٣.

عليهم ثلاثين أو أربعين آية ـ وعن مُجاهد: ثلاث عشرة آية ـ ثم قال: «اُمرتُ بأربعٍ: أن لا يقرَب هذا البيت بعد هذا العام مُشركٌ، ولا يطُوف بالبيت عُريان، ولا يدخُل الجنّة إلّا كُلّ نَفس مؤمنة، وأن يُتَمّ إلى كُلّ ذي عهدٍ عَهدُه».

فقالوا عند ذلك: يا عليّ، أبلغ ابن عمّك أنا قد نبَذنا العَهد وَراء ظُهورنا، وأنّه ليس بيننا وبينه عَهد إلّا طَعنٌ بالرِّماح وضربٌ بالسُّيوف[1].

وعن الصادق عليه السلام: «نزلتْ هذه الآية بعدما رجَع رسول الله صلى الله عليه وآله من غَزوة تَبوك، في سنة تِسع من الهِجرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا فتح مكّة لم يمنع المُشركين من الحَجّ في تِلك السَّنة، وكان سُنّة العرب في الحجّ أنّه من دخل مكّة وطاف بالبيت في ثِيابه لَم يحِلّ له إمساكُها، وكانوا يتصدّقون بها، ولا يلبَسونها بعد الطّواف، فكان مَن وافى مكّة يستعير ثوباً ويطُوف فيه ثمّ يردّه، ومَن لَم يجِد عارية اكْترىٰ ثياباً، ومَن لَم يجد عاريةً ولا كِراءً ولَم يكُن له إلّا ثوب واحد طاف بالبيت عُرياناً، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبتْ عاريةً أو كِراءً فلَم تجِده، فقالوا لها: إن طُفتِ في ثِيابك احتجتِ إلى أن تتصدّقي بها، فقالت: وكيف أتصدّق بها وليسَ لي غيرها! فطافتْ بالبيت عُريانة، وأشرف عليها النّاس، فوضعتْ إحدى يديها على قُبُلها والاُخرى على دُبُرها، وقالت:

اليوم يبدو بعضُه أو كُلّه   فما بَدا منه فلا اُحِلّه

فلمّا فرغتْ من الطّواف خَطبها جماعةٌ، فقالت: إنّ لي زَوجاً.

وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل نُزول سورة براءة أن لا يُقاتل إلّا مَن قاتله، ولا يُحارب إلّا مَن حاربه وأراده، وقد كان نزل عليه في ذلك مِن الله عزّوجلّ: **﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾**[2]، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يُقاتل أحداً قد تنحّىٰ عنه واعْتزله حتّى نزلتْ عليه سورة براءة، وأمَر بقَتل المُشركين مَن اعتزله ومَن لَم يعتزِلْه إلّا الذين قد عاهدهم يومَ فَتح مكّة إلى مُدّة؛ منهم صَفوان بن اُميّة، وسُهيل بن عَمرو، فقال الله عزّ وجلّ: **﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾**، ثمّ يُقتلون حيثُما وُجدوا. فهذه أشهر السّياحة: عِشرون مِن ذِي الحِجّة، والمُحرّم، وصفَر، وشهر رَبيع الأوّل، وعشر من ربيع الآخر.

فلمّا نزلتْ الآيات مِن أول براءة، دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر وأمره بأن يخرُج إلى مكّة ويقرأها على النّاس بمِنى يومَ النّحر، فلمّا خرج أبو بكر نزل جَبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا

---

١. تفسير الرازي ١٥: ٢١٨.   ٢. النساء: ٩٠/٤.

محمد، لا يؤدّي عنك إلّا رجلٌ منك. فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين ؑ في طلبه، فلحِقه بالرَّوحاء وأخذ منه الآيات، فرجع أبوبكر إلى رسول‌الله فقال: يا رسول[الله]، أنزل فيّ شيءٌ؟ قال: إنّ الله أمرني أن لا يُؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجلٌ منّي»[1].

وعنه ؑ: «أنّ رسول الله ﷺ بعث أبابكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على النّاس، فنزل جَبرئيل ؑ فقال: لا يُبلّغ عنك إلّا عليّ، فدعا رسول الله ﷺ علياً ؑ فأمره أن يركب ناقته العضباء، وأمره أن يَلْحَق أبابكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على النّاس بمكّة، فقال أبوبكر: أسَخْطَةٌ؟ فقال: لا، إلّا أنّه أُنزل عليه أنّه لا يُبلّغ إلّا رجلٌ مِنك، فلمّا قدِم عليٌّ مكّة، وكان يوم النّحر بعد الظُّهر؛ وهُو يَوم الحَجّ الأكبر، قام ثمّ قال: إنّي رَسول رسول‌الله إليكم، فقرأها عليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ عِشرين من ذي الحِجّة، والمُحرّم، وصَفر، وربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر، قال: لا يطوف بالبيت عُريان ولا عُريانة ولا مُشرك إلّا مَن كان له عهدٌ عندَ رسول الله، فمُدّته إلى هذه الأربعة أشهر»[2].

وفي رواية محمّد بن مسلم: «قال أبوبكر: يا عليّ، هَل نزل فيّ شيءٌ منذُ فارقتُ رسول الله؟ قال: لا، ولكن أبى الله أن يُبلّغ عن محمّد إلّا رجلٌ منه. فوافى المَوسم، فبلّغ عن الله وعن رسوله بعَرفة والمُزْدَلِفة، ويومَ النّحر عند الجِمار، وفي أيّام التّشريق كُلّها يُنادي ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، ويقول: لا يطوفنّ بالبيت عُريان»[3].

وفي (المجمع): روى أصحابُنا «أنّ النبيّ ﷺ ولّاه أيضاً الموسم، وأنّه حينَ أخذ براءة من أبي‌بكر رجع أبوبكر»[4].

ثمّ اعلم أنّ الظاهر ممّا رَواه العامّة، فضلاً عمّا رواه الخاصّة، أنّ وَجه تَخصيص أمير المؤمنين ؑ بتبليغ براءة وقراءتها على النّاس، أنّه مَرتبة مِن الرِّسالة مِن الله، لأنّ نقض عهد المُشركين كان مِن الله لا مِن الرّسُول نفسه، ولا يُنافي ذلك قوله ؑ: إنّي رسول رسول الله.

ومن المَعلوم أنّ إنذار الكُفّار بالخِزي، وتبشيرهم بعذاب أليم، كان وظيفة الرّسُول، أو وظيفة مَن هُو قائم مَقامه ومَنزلته مِنه مَنزلة هارون مِن موسى، ولذا لَم يقُل جَبرئيل ؑ: «أو رجل من أقاربك» كما لَم يقُل ذلك رسول الله ﷺ، بل قال جَبرئيل ؑ: «أو رجل منك» وقال الرّسول ﷺ: «أو رجلٌ مِني»

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٣١٩.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٧٧١/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٠.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٧٢/٢١٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٠.
٤. مجمع البيان ٥: ٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

كما قال: «عليٌّ منّي وأنا منه».

وكفى هذا في فضيلة عليّ وإثبات خِلافته للرّسول، وعَدم قابلية أبي‌بكر لها، خُصوصاً على ما في رِوايات أصحابنا مِن أنه ﷺ أعطى أبابكر الآيات أوّلاً، ثمّ بعث عليّاً وراءه بأمر الله، وأمره بأخذها مِنه. فإنّ الدّلالة التي ذكرنا فيه أوضح، والإعلان أظهر.

قال الفخر الرّازي بعدَ نقل الرواية السابقة: اختلفوا في السّبب الذي لأجله أمر عليّاً عليه‌السلام بقراءة هذه السورة عليهم، وتبليغ هذه الرسالة إليهم، فقالوا: السبب فيه أنّ عادة العَرب أن لا يتولّى تقرير العَهد ونقضه إلّا رَجلٌ مِن الأقارب، فلَو تولّاه أبوبكر لجاز أن يقولوا: هذا خلاف ما نعرِف فينا مِن نقض العهد، فربّما لَم يقبَلوا فأُزيحت عِلّتهم بتَولية ذلك عليّاً[١].

وقيل: لمّا خَصّ أبابكر بتَولية إمارة الموسم، خَصّ عليّاً بهذا التبليغ تطييباً للقُلوب ورِعايةً للجوانب[٢].

وقيل: قرّر أبابكر على المَوسم، وبعث خلفه علياً لتبليغ هذه الرّسالة، حتّى يُصلّي عليّ خلف أبي‌بكر، ويكون ذلك جارياً مجرى التّنبيه على إمامة أبي‌بكر[٣].

أقول: في الوجوه المُلفّقة ما لا يخفى من الوَهن:

أمّا الأول: ففيه أنّ إلغاء العهد لَم يكُن من الرسول ﷺ، بَل كان من الله، وعلى ما ذكروه كان اللّازم أن يكون مُبلّغه هُو الله أو رسوله أو مَن هُو بمَنزلة نفس الرسول وهُو علي عليه‌السلام لآية ﴿أَنْفُسَنَا﴾[٤]، معَ أنّه لَو كان عادة العرب أن لا يتولّى نقض العهد إلّا أقارب المُعاهد، لم يقُل أصحابه المُطّلعون على تِلك العادة: لَو بعثتَ إلى أبي‌بكر، مُضافاً إلى احتِمال انقِضاء مُدّة عهد المسلمين، وكان المقصود من البراءة المنع من العَود إلى العَهد وتجديده، فلَم يكُن نقضُ عهدٍ حتّى يحتاج إلى أن يكون مُبلّغه الأقارب.

وامّا الوجه الثاني: ففيه أنه ﷺ أراد تَطييب قَلب علي عليه‌السلام أو قلب غيره؟ فإن قُلتم إنّه أراد تطييب قلب عليّ عليه‌السلام، فمِن المعلوم عنده ﷺ وعند أصحابه أنّ قلب عليّ عليه‌السلام كان طيّباً بما كان يفعله رسول الله ﷺ، ولَم يكُن يخطُر في قلبه خُطور سُوء بفِعله ﷺ، ولَو أهانه عند الأصحاب غاية التّوهين فإنّه لا يرى نفسه[٥] في مُقابل مرضاة النبيّ ﷺ. وإن أرادوا تطييب قلب غير عليّ عليه‌السلام، فمِن المعلوم أنّ بَعث عليّ عليه‌السلام بسُورة براءة كان أثقل على قُلوب كثير من الصّحابة مِن تنصيب أبي بكر

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٥: ٢١٨.
٣. تفسير الرازي ١٥: ٢١٩.
٤. آل عمران: ٦١/٣.
٥. كذا.

أميراً على المَوسم.

وأمّا الوجه الثّالث: فإنّ القول بصَلاة عليّ عليه السلام خَلف أبي‌بكر تخرُّص بالغَيب، وعلى فرض التّسليم لا تنبيه فيه على إمامة أبي‌بكر، وإلّا لكان في إمارة اُسامة على الجيش الذي فيه أبوبكر وعُمر وسائر أعيان الصّحابة سِوى عليّ عليه السلام، تَنبيه على إمامة اُسامة بعدَ الرّسول صلّى الله عليه وآله، معَ أنّه صلّى الله عليه وآله كان عالِماً بأنّ أكثر أصحابه وأمّته لا يعتنون بالنُّصوص الجَليّة الصّريحة على الإمامة، فكيف يعتمدون بالتّنبيهات والإشعارات[١].

فتبيّن أنّ الوُجوه الثّلاثة لَم تخرُج إلّا مِن القُلوب المشحونة بالعصبيّة وبُغض عليّ عليه السلام وحُبّ أبي‌بكر، حشرهم الله معه.

وَأَذَانٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد التّبرّي عن المشركين المُعاهدين، أعلن بالبراءة من جميع المُشركين بقوله: ﴿وَأَذَانٌ﴾ وإعلان عام كائن ﴿مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ مُرسَل ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من المُسلمين والمُشركين وغيرهم من الكُفّار ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ - عن ابن عبّاس: هو يوم عَرَفة[٢]، وقيل: يومَ النّحر[٣]، وقيل: جميع أيام مِنى[٤] - ﴿أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومُنقطعة عِصمتُه وعَلَقة وِلايتِه منهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿رَسُولُهُ﴾ فلا عِصمة بينه وبينهم ولا عهد، وليس لهم إلّا الإسلام أو السّيف، فإذا كان كذلك ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أيُّها المُشركون إلى الله، ودخلتُم في حِصن الإسلام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في الدُّنيا والآخرة من البَقاء على الكُفر، والإصرار على الغَدر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتُم عن التّوبة وقَبول دين الاسلام ﴿فَاعْلَمُوا﴾ وأيقنوا ﴿أَنَّكُمْ﴾ بسِياحتكم في الأرض مُدّةً قليلةً، وتَدبيركم وإعدادكم للحرب ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ﴾ وغير فائتين منه هرباً، وغير غالبين عليه قُدرةً وحرباً ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على الشِّرك والغَدر، وقُل لهم تهكُّماً: أبشِروا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من القَتل والأسر والخِزي في الدُّنيا، ومِن الدُّخول في النّار في الآخرة.

عن العيّاشي: عن السجّاد: «الأذان أمير المؤمنين عليه السلام»[٥].

---

١. كذا، والظاهر: الاشارات.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٢١.

٤. تفسير الرازي ١٥: ٢٢١.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٧٨١/٢١٧، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رِوايةٍ: «كنتُ أنا الأذان في النّاس»[١].

وهذا التأويل مَرويٌّ عن الصادق عليه السلام أيضاً وفيه: فقيل له: فما معنى هذه اللفظة ﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾؟ فقال: «إنما سُمّي الحَجّ الأكبر لأنّها كانت سَنةً حَجَّ فيها المُسلمون والمشركون، ولَم يحُجّ المشركون بعد تِلك السّنة»[٢].

وعنه أيضاً: ﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾: الوُقوف [بعرفة][٣] ورَمي الجِمار، والأصغر: العُمرة[٤].

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ[٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد الإعلان بالبراءة عن كُلّ المشركين الذي لازمه إلغاء عَهد جميعهم، استثنى عَهد غير النّاكثين بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ معهم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقيل: إنّ الاستثناء مُنقطع والمعنى: لا تُمهلوا النّاكثين فوق أربعة أشهر، ولكنّ الذين عاهدتُموهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد العهد ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ من شرائط العهد الذي يكون بينكم ﴿شَيْئاً﴾ ولم ينكُثوه ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ ولَم يُعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا﴾ أيُّها المُسلمون وأدّوا ﴿إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ كاملاً ﴿إِلَىٰ﴾ تَمام ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ ولا تجعلوا الوافين كالنّاكثين والغادرين ﴿إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمُتحرّزين عن مُخالفة أمره وتَضييع الحُقوق.

عن ابن عبّاس قال: بقي لِحَيٍّ مِن كِنانة من عهدهم تِسعة أشهر[٥].

رُوي أنه عَدَتْ بنو بكر على خُزاعة في حال غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله، وظاهرتْهم قُريش بالسّلاح، حتّى وفد عَمرو بن سالم الخُزاعي على رسول‌الله صلى الله عليه وآله فأنشده:

لا هُمّ إنّي ناشدٌ محمّدا	حِلْفَ أبينا وأبيك ألا تلدا
إنّ قُريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ذِمامك المُؤكّدا
هم بيّتونا بالحطيم هُجّدا	وقتلونا رُكّعاً وسُجّدا

فقال صلى الله عليه وآله: لا نُصِرتُ إن لَم أنصُركم[٦].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٢. معاني الأخبار: ٥/٢٩٦، علل الشرائع: ١/٤٤٢، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٣. في تفسير العياشي: الوقوف بعرفة وبجَمع.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٨٥/٢١٨، تفسير الصافي ٢: ٣٢١.

٥. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٤.

٦. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٤.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٥]

ثمَ أمر الله المُسلمين بالتَشديد على النّاكثين بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ وانقضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ﴾ التي هي ﴿ٱلْحُرُمُ﴾ لحُرمة القِتال فيها إمهالاً ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بأيَ نَحوٍ أمكنكم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وفي أيَ مكان لقيتُموهم من الحِلَ والحَرم، وفي أي حالٍ أدركتُموهم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسِرُوهم ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ في المَضائق، واجسوهم في المَحابس. وقيل: يعني امنَعوهُم من البيت الحَرام ﴿وَٱقْعُدُوا﴾ مُنتظرين ﴿لَهُمْ﴾ القَتل والأخذ ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وطَريق ترقَبون عُبورهم فيه إلى البيت أو التّجارة، وسُدّوا سَبيلهم ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشَرك بالدُّخول في الإسلام ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ المَفروضة ﴿وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ﴾ الواجبة التي هي من أعظم شعائر الاسلام ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ إلى البيت والذّهاب إلى مُهمّاتهم، ولا تتعرّضوا لهم بوَجهٍ أبداً ﴿إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف من ذُنوبهم بعد التّوبة والايمان ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إذا صدَقوا إيمانهم بالأعمال الصّالحات.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ[٦]

ثمّ نبّه سُبحانه على أنّ التَشديد على الكُفّار إنّما هُو لتماميّة الحُجّة عليهم، وأمّا مَن كان في طلب الحقّ وتَحقيق صِحّة دين الاسلام، فلا يجُوز التعرُّض له، بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أُمرتَ بالتَشديد عليهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ واستأمنك، وطلب الجِوار منك والأمان، لسَماع القرآن وتَحقيق الحَقّ ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وآمِنهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ﴾ الذي يتِمُّ بسَماعه الحُجّة على كُلّ أحدٍ لوُضوح إعجازه ﴿ثُمَّ﴾ بعد استِماعه القُرآن ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ من مَنزله أو قَبيلته إن لَم يُؤمن، ويكون ﴿ذٰلِكَ﴾ الحُكم بوُجوب تأمينه وإيصاله إلى مأمنه مُعلّلاً ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الكِتاب والدِّين وحقيقته، فلابُدّ من تأمينهم وإمهالهم حتّى يفهموا الحقّ، وينقطع عنهم العُذر.

عن ابن عبّاس قال: إنّ رَجُلاً من المُشركين قال لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: إن أردنا أن نأتي رسول الله بعدَ انقضاء الأجل لسَماع كلام الله، أو لحاجةٍ أُخرى، فهل نُقتل؟ فقال عليّ عليه السلام: «لا، إنّ الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى آخره»[1].

١. تفسير الرازي ١٥: ٢٢٦.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ[٧]

ثمَ أنكر سُبحانه حُسن مُراعاة العهد في حقّ النّاكثين بقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ واجب الرِّعاية والوَفاء ﴿عِندَ ٱللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ لهؤلاء المُشركين معَ إضمارهم الغَدر والنَّكث ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ ـ قيل: يعني: ولكن يجب مُراعاة العهد للذين عاهدتُموهم ـ وأكّدتُموه بإيقاعه ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وفي قُربٍ منه، وهُم بنو ضَمرة وبنو كِنانة، فإنّهم لَم ينقُضوا عَهدهم، ولَم يُضمروا الغَدر فيه ﴿فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ ووفَوا بعَهدهم ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ واثبتُوا على الوَفاء ﴿لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمُحترزين عن نَقض العهد.

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ[٨]

ثمَ أكد سُبحانه إنكار حُسن الوَفاء بعهد الناكثين بقوله: ﴿كَيْفَ﴾ يحسُن رِعاية عَهد المشركين ﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ويظفَروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ ولا يُراعوا ﴿فِيكُمْ﴾ أبداً ﴿إِلّاً﴾ وحِلفاً أو قَرابة ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ وعهداً.

ومِن الواضح أنّ وُجوب مُراعاة العَهد على كُلٍّ مِن المُتعاهدين مَشروطٌ بمراعاة الآخر، وهُم لا يُراعون بَل يُخادعون، ويَغدِرونكم بأنّهم ﴿يُرْضُونَكُم﴾ عن أنفسهم بإظهار الوَفاء والصَّفاء، ووَعد الايمان والطّاعة، واعْلَموا أنّ كُلّ ذلك يكون ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألسنتهم ﴿وَتَأْبَىٰ﴾ وتمتنع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ مِمّا يقولون لكم ويتفوّهون به عندكم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حُدود العقل، ومُتمرّدون عن طاعة أحكام الشّرع، ليست لهم عقيدةٌ مانعة ولا مُروءة رادعة.

قيل: في تخصيص الأكثر بالحُكم بالفِسق إشعارٌ بوُجود مَن يتعفّف عن فِعل ما يجُرّ إليه المَثالب والمَعائب في المشركين.

ٱشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ[٩]

ثمَ بالغ سُبحانه في ذمّهم بقوله: ﴿ٱشْتَرَوْا﴾ هؤلاء النّاكثون ﴿بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ الدالّة على التّوحيد ووُجوب الوَفاء بالعُهود، وأعرضوا عنها، وأخذوا بدلاً منها ﴿ثَمَناً﴾ وعِوضاً ﴿قَلِيلاً﴾ ويسيراً من حُطام الدُّنيا وشَهواتها الفانية ﴿فَصَدُّوا﴾ وعدِلوا ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أو صَرفوا النّاس عنها ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ

مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الاستيدال والصَدّ.

رُوي أنّ أبا سُفيان بن حرب جمع الأعراب وأطعمهم ليصُدّهم بذلك عن مُتابعة النبيّ ﷺ، وليحمِلهم على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول‌الله ﷺ، فنقضوه بسبب تِلك الأكلة[١].

لاَيَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَأَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ[١٠-١٢]

ثمّ ذمهم سُبحانه بعدم رِعاية أحد من المؤمنين بقوله: ﴿لاَيَرْقُبُونَ﴾ ولا يرعَون ﴿فِي﴾ حقّ ﴿مُؤْمِنٍ﴾ كائناً مَن كان ﴿إِلاًّ﴾ وحِلفاً أو قَرابة ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ وعهداً أو حقّاً ﴿وَأُولٰئِكَ﴾ المذمومون ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ والمُتجاوزون عن حُدود العقل والدِّين، فبلغوا غاية الشَرارة والظُّلم.

ثمّ أنّه تعالى بعد الإبلاغ في ذمّ المشركين بنَكث العهد والغَدر والصَدّ والظُّلم، أعلن بسَعة رحمته بقوله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ -مع هذه الذَمائم- عن الشِّرك والأعمال السيّئة، وحقّقوا إيمانهم بالالتزام بلَوازمه ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ﴾ التي هي أهمّ شعائره ﴿وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ﴾ التي هي أعظم آثاره ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ هؤلاء التائبون، فارضَوا لهم ما ترضَون لأنفسكم، كما تكونون كذلك في حقّ إخوانكم في النَّسَب، كذلك التفصيل ﴿وَ﴾ الشَرح البليغ ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونشرح ﴿ٱلآيَاتِ﴾ والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويفهمون الحُكم والمصالح، فإنّهم يُدركون حُسن تِلك الأحكام، ويلتزمون بها. وفيه غاية الحَثّ على مُحافظتها[٢].

عن ابن عبّاس قال: حرَمتْ هذه الآية دِماء أهل القِبلة[٣].

﴿وَإِن نَكَثُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُم﴾ وأحلافهم ﴿مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ المؤكّد بها، وتجاهروا بالشرّ والفَساد ﴿وَطَعَنُوا﴾ وقَدحوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الحَقّ، وعابُوه عِناداً له ﴿فَقَاتِلُو﴾ هُم إذَنْ، لكَونهم ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ ورُؤساء الضَّلال، ولا تُمهِلوهم ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ في الحقيقة، وإلّا لما نكثوها، أو المُراد: لا أمان لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ ويرتدِعون عن الكُفر وأعمالهم الشّنيعة.

عن القُمّي ﵀: نزلتْ هذه الآية في أصحاب الجَمل، وقال أميرالمؤمنين ﵇ يومَ الجَمل ما قاتلتْ

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٩٢.
٢. كذا، والظاهر: المحافظة عليها.
٣. تفسير الرازي ١٥: ٢٣٣.

هذه الفِئة النّاكثة إلّا بآيةٍ من كِتاب الله، يقول الله: **﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾** الآية[١].

عن الصادق عليه السلام قال: «دخل عليّ أُناسٌ من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزُّبير، فقلتُ لهم: كانا أئمّة الكُفر، إنّ علياً عليه السلام يومَ البصرة لمّا صفّ الخُيول قال لأصحابه: لا تعجَلوا على القوم حتّى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم. فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة، هل تجِدون عليّ جَوراً في حُكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قِسمة؟ قالوا: لا، قال: فرغبةً في دُنيا أخذتُها لي ولأهل بيتي دُونكم، فنقَمتُم عليّ فنكَثتُم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمتُ فيكم الحُدود وعطّلتُها عن غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بالُ بيعتي تُنكَث وبيعة غيري لا تُنكَث؟ إنّي ضربتُ الأمر أنفَه وعينَه فلَم أجِد إلّا الكُفر أو السيف. ثمّ ثنى إلى أصحابه فقال: إنّ الله تعالى يقول في كتابه: **﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾** الآية، ثمّ قال: والذي فلق الحبّة، وبرَأ النَّسَمه، واصطفى محمّداً صلّى الله عليه وآله بالنُبوّة، إنّهم لأصحاب هذه الآية، وما قُوتلوا منذ نزلتْ»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «عذَرني الله من طَلحة والزُّبير، إنّهما بايعاني طائعين غير مُكرهين، ثم نكَثا بيعتي من غير حدَثٍ أحدثته، والله ما قُوتل [أهل] هذه الآية منذُ نزلتْ حتّى قاتلتُهم **﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾** الآية»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن طعن في دينكم هذا فقد كفَر، قال الله: **﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾**» الخبر[٤].

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ[١٣]

ثمّ بالغ سُبحانه في الحثّ على قِتال المشركين النّاكثين، بإنكاره التّقاعُد عنه على المُؤمنين، وبَيان استِحقاقهم القَتل بقوله: **﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾** أيُّها المؤمنون **﴿قَوْماً نَكَثُوا﴾** ونقضوا **﴿أَيْمَانَهُمْ﴾** وعُهودهم المؤكّده بها معَ الرّسول والمؤمنين على أن لا يُعاونوا عليهم أعداءهم في الحُدَيبية ـ على ما قيل ـ **﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾** من مكّة حينَ تَشاوُرهم في دار النّدوة، وقيل: من المدينة لمّا أقدموا عليه من المَشورة والاجتماع على قتله[٥] **﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾** بالقِتال والقتل **﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** في بَـدْر، إذَن فما يمنعُكم عن قِتالهم **﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾** مِن أن يغلِبوا عليكم[٦]، أو يَنالوكم بمَكروه **﴿فَاللهُ﴾** القادر الغالب

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.
٢. قرب الإسناد: ٣٢٧/٩٦، تفسير العياشي ٢: ١٧٩٠/٢١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٥/٢٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٢٥.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٣/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٣٢٤.
٥. تفسير الرازي ١٥: ٢٣٥.
٦. كذا والظاهر: يغلبوكم.

المُدرك ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من غيره ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ وتَخافوه في مُخالفة أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بوَحدانيّته، وكَمال قُدرته، وشِدّة عِقابه على مَن خالفه وعَصاه. ومِن المَعلوم أنّ لازم هذا الإيمان أن لا يُخشى إلّا منه.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[١٤ و ١٥]

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب قِتالهم بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ﴾ بالقَتل والأسر ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ وسُيوفكم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلّهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ جميعاً ﴿وَيَشْفِ﴾ من ألم الحِقد وانتِظار الفتح ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: هُم خُزاعة، وعن ابن عبّاس: [هم] بَطنٌ من اليمن وسبأ، قدِموا مكّة [فأسلموا] فلقُوا من أهلها أذىً كثيراً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه، فقال: «أبشِروا، فإنّ الفرج قريبٌ»[1] ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ويُسكّن غَضبهم.

عن العيّاشي: عن أبي الأغرّ التميمي[2] قال: كنتُ واقفاً يوم صِفّين، إذْ نظرتُ إلى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو شاكٍ في السّلاح، إذْ هتف به هاتفٌ من أهل الشام يُقال له عِرار بن أدهم: يا عبّاس هَلُمّ إلى البِراز، ثمّ تكافحا بسيفهما مَليّاً لا يصِل واحدٌ منهما إلى صاحبه لكمال لأمَتِه، إلى أن حَطّ العبّاس دِرع الشامي فأهوى إليه بالسّيف فانتظم به جوانح الشامي، فخرّ الشامي صريعاً وكبّر الناس تكبيرةً ارتجّتْ لها الأرض، فسمعتُ قائلاً يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية. فالتفتُّ فإذا هُو أمير المؤمنين عليه السلام[3].

ثمّ أخبر الله بإسلام بعضهم بقوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ إسلامه وتَوبته من السيّئات من هؤلاء المُشركين ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه وعَوا قب أُمورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعاله، يُراعي مَصالح عِباده.

وفي الأخبار المذكور دَلالةٌ واضحة على صِدق النبيّ ﷺ، لوُقوع ما أخبر به، فإنّه أسلم بعد الآية عِكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عَمرو، وجمع آخر من المُشركين.

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٩٥.

٢. في النسخة: أبي الأعز اليمني.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٧٩٧/٢٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٢٥. ورواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١: ١٧٩، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٥: ٢١٩.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[١٦]

ثمّ أنكر سُبحانه على المؤمنين حِسبان عدَم افتِتانهم بالجِهاد وترك رِعاية القرابة والصّداقه ترغيباً لهم فيه بقوله: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ**﴾ وهَل توهَمتُم ﴿**أَن تُتْرَكُوا**﴾ على الحالة التي أنتُم فيها من الاختِلاط ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ**﴾ ولَم يُميّز ﴿**ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ**﴾ ممّن لا يُجاهد ﴿**وَ**﴾ لَم يُميّز الذين ﴿**لَمْ يَتَّخِذُوا**﴾ ولَم يختاروا لأنفسهم ﴿**مِن دُونِ ٱللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**﴾ وبطانة وصاحب سِرّ من غيره ﴿**وَٱللهُ خَبِيرٌ**﴾ وعالِم ﴿**بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ من الجِهاد وتَركه، واتّخاذ الوليجه وعدمه.

عن الباقر عليه السلام: «يعني بالمؤمنين آل محمّد، والوليجة: البِطانة»[١].

وعنه عليه السلام: «لا تتّخذوا من دُون الله وليجةً فلا تكونوا مؤمنين، فإنّ كُلّ سَبب ونَسبٍ وقَرابةٍ وَوليجةٍ وبِدعةٍ وشُبهةٍ مُنقطعٌ إلّا ما أثبته القُرآن»[٢].

وعن أبي محمّد العسكري عليه السلام: «الوليجة: الذي يُقام دون وليّ الأمر، والمؤمنون في هذا لموضع هُم الأئمّة الذين يؤمنُون على الله فيُجيز أمانهم»[٣].

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللهَ فَعَسَىٰ أُولٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ[١٧ و ١٨]

ثمّ رُوي أنّ المُشركين كانوا يفتخرون بعِمارة المسجد الحَرام وسِقاية الحاج، فبيّن الله أن لا فضيلة في هذين العمَلين مع الشِّرك؛ بقوله: ﴿**مَا كَانَ**﴾ وما صَحّ ﴿**لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ في حال شِركهم ﴿**أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ**﴾ [سواء] كان المسجدُ الحرام أو غيره، ولا نَفع لهم فيه، مع كونهم ﴿**شَاهِدِينَ**﴾ ومُعترفين ﴿**عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ**﴾ عملاً حيثُ ينصِبون الأصنام فيها ويعبُدونها، وقولاً حيثُ يقولون: نعبُدها ليُقرّبونا إلى الله ﴿**أُولٰئِكَ**﴾ المَطرودون عن ساحة رحمة الله ﴿**حَبِطَتْ**﴾ وبطُلتْ ﴿**أَعْمَالُهُمْ**﴾ الخيريّة التي يفتخِرون بها ﴿**وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾ في الآخرة لأنّ الشِّرك ظُلم عظيم، ومَعصية غير مَغفورة.

رُوي أنّ المُسلمين عيّروا أُسارى بَدْر، ووبّخ عليّ عليه السلام العبّاس بقِتال رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وقطيعة الرَّحِم،

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.
٢. الكافي ١: ٢٢/٤٨، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.
٣. الكافي ١: ٩/٤٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٢٦.

فقال العبّاس: تذكُرون مَساوءنا وتكتُمون مَحاسننا. فقالوا: ولكم مَحاسن؟! قال: نَعم، إنّما نعمُر المَسجد الحرام، ونحجُب الكعبة، ونسقي الحَجيج، ونفُك العاني، فنزلت[1].

ثمَ حصر الله العِمارة النّافعة بالمؤمنين بقوله: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ﴾** عِمارةً نافعةً **﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾** وبوَحدانيّته **﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾** ودار الجَزاء **﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ﴾** في القِيام بوَظائف دينه أحداً **﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾**.

قيل: مِن عِمارة المسجد: كَنسه وتَنظيفه، وتَنويره بالسِّراج، وصِيانته مِمّا لا يليق به؛ كحديث الدُّنيا والكَسب واللَغو واللَهو، والاشتِغال فيه بالعِبادة والذِّكْر، ودَرس العُلوم الدِينيّة.

في الحديث القُدسي: إنّ بُيوتي في الأرض المَساجِد، وإنّ زُوّاري فيها عُمّارها، فطُوبى لعبدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي، فحقٌّ على المَزور أن يُكرم زائره[2].

وفي الحديث النبويّ: «يأتي في آخر الزّمان أُناسٌ من أُمّتي يأتون المساجد، يقعُدون فيها حَلقاً، ذِكرُهم الدُّنيا وحُبّ الدُّنيا، لا تُجالسوهم فليس [لله] بهم حاجة»[3].

ثمّ وعد الله المُتّصفين بالكلمات العِلميّة والعَمليّة بالاهتِداء إلى الخير - بصِيغة الترجّي - قطعاً لطَمع المُشركين في الانتِفاع بعِمارتها؛ بقوله: **﴿فَعَسَىٰ﴾** ويُرجى في حَقّ **﴿أُولَـٰئِكَ﴾** المؤمنين **﴿أَن يَكُونُوا﴾** بأعمالهم الحَسنة **﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾**.

قيل: لَم يذكُر الايمان بالرّسول ﷺ في الآية؛ لاستِلزام الصّلاة المَعهودة الايمان بشارعها، ولأنّ من أجزائها الشّهادة بالرِّسالة، ولإجهار أنّ مقصود الرّسول تَبليغ مَعرفة المَبدأ والمَعاد دُون رئاسة نفسه، حتّى لا يتوهّموها في حقّه.

وقيل: إنّ في إقران الزّكاة بالصّلاة دَلالةً على عَدم قَبول أحدهما بدون الآخر[4].

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ [١٩]

ثمّ نُقل أنّه افتخَر طلحة بن شيبة والعبّاس وعليّ، فقال طلحة: أنا صاحب البَيت وبِيَدي مِفتاحه، وقال العبّاس: أنا صاحِب السِّقاية، وقال عليّ: «أنا صاحب الجِهاد»، فردّ الله على طَلحة والعبّاس بقوله: **﴿أَجَعَلْتُمْ﴾** أيُّها المفتخرون **﴿سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾** في الفضيلة والكَرامة

---

١. جوامع الجامع: ١٧٥، تفسير الصافي ٢: ٣٢٧.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٠.
٣. تفسير الرازي ١٦: ١٠.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٣٩٨.

عندَ الله ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وبوَحدانيّته ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾. قيل: إنَ التّقدير: أجعَلتُم أهلَ سِقاية الحاجّ كمَن آمَن، أو سِقايةَ الحاجّ كإيمان مَن آمن.

ثمّ أنّه تعالى بعد نَفيه التّساوي بين المُتّصفين بتِلك الصِّفات بإنكاره على مُدّعيه، صرّح بعدَم تَساويهم تأكيداً بقوله: ﴿لاَيَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾ ثمّ عيّن المَفضول بقوله: ﴿وَاللهُ لاَيَهْدِي﴾ إلى خَيرْ وفضله ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتَرك قَبول الاسلام، والقِيام في الجِهاد.

وقيل: إنّ المُشركين قالوا لليَهود: نحنُ سُقاة الحاجّ، وعُمّار المَسجد الحرام،أفنحن أفضل أم محمّد وأصحابه؟ فقالت اليهود: أنتم أفضل[١].

وقيل: إنّ عليّ عليه السلام اً قال للعبّاس بعدَ إسلامه: يا عمّي، ألا تُهاجرون، ألا تلحَقون برسول الله؟ فقال: ألستُ في أفضل من الهجرة؛ أسقي حاجّ البيت، وأعمُر المَسجد الحَرام. فلمّا نزلتْ هذه الآية قال: ما أراني إلّا تاركٌ سِقايتنا، فقال صلى الله عليه وآله: «أقيموا على سِقايتكم فإنّ لكم فيها خيراً»[٢].

وعن ابن عبّاس: لمّا أغلظ عليٌّ الكلام للعبّاس، [قال العباس]: إن كنتُم سبقتُمونا بالإسلام والهِجرة والجِهاد، فلقد كُنّا نعمُر المَسجد الحرام ونسقي الحاجّ[٣]، فنزلتْ.

وقال العلامة في (نهج الحق): رَوى الجُمهور في (الجمع بين الصحاح الستة): أنّها نزلتْ في عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا افتخر طلحة بن شَيبة والعباس، فقال طلحة: أنا أولى بالبيت لأنّ المِفتاح بيَدي، وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحِب السِّقاية والقائم عليها، فقال عليّ عليه السلام: «أنا أوّل الناس إيماناً، وأكثرهم جِهاداً». فانزل الله هذه الآية[٤].

وقال فَضل بن روزبهان: هذا صحيح مِن رواية الجُمهور[٥].

القمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: نزلتْ هذه الآية في عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ قوله: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾[٦].

وعنه: نزلتْ في عليّ عليه السلام والعباس وشَيبة، قال العباس: أنا أفضل لأنّ سِقاية الحاجّ بيَدي، وقال شَيبة: أنا أفضل لأنّ حِجابة البيت بيَدي، وقال عليّ عليه السلام: «أنا أفضل؛ فإنّي آمنتُ قبلَكما، ثمّ هاجرتُ وجاهدتُ»، فرَضوا برَسُول صلى الله عليه وآله الله [حكماً][٧] فأنزل الله [الآية].

وزاد في رواية: «وضربتُ خَراطيمكما بالسّيف حتّى آمنتُما صلى الله عليه وآله»[٨].

وعن أحدهما عليهما السلام: «نزلت في حمزة وعليّ وجَعفر والعباس وشَيبة، إنّهم فخَروا بالسِّقاية

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ١٦: ١١.
٤. نهج الحق: ١٨٢.
٥. دلائل الصدق ٢: ١٥٩.
٦. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.
٧. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.
٨. مجمع البيان ٥: ٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.

والحِجابة، فأنزل الله [الآية]، وكان عليّ وحمزة وجَعفر الّذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وجاهدوا في سَبيل الله»[١].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[٢٠ـ٢٢]

ثمّ عيّن الله الفاضل صريحاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وهُم عليّ عليه السلام وأضرابه، فإنّهم بسبب تِلك الصّفات ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأعلى مَنزلة، وأكثر كَرامة ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ مِمّن ليس له هذه الصّفات، وإن كان ساقي الحاجّ وعامر المَسجد الحرام ﴿وَأُولٰئِكَ﴾ المُتّصفون بتِلك الصّفات الفائقة ﴿هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾ بأعلى المقاصد، وهو أنّه ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الدُّنيا بلِسان الرُّسُل، وفي الآخرة بتوسّط الملائكة ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعجِز العُقول عن إدراكهما ووَصفهما ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبَساتين عديدة ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ ودائم لانَفاد له، حالَ كَونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ في تِلك الجنّات، مُقيمين ﴿فِيهَا أَبَداً﴾ ليس لهم خوفُ الخُروج منها ﴿إِنَّ ٱللهَ عِندَهُ﴾ على هذه الكَمالات النفسانيّة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقر عنده كُلّ أجر.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَتَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ[٢٣و٢٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد النّهي عن اتّخاذ الكُفّار وليجةً وبِطانة، نهى عن مُوالاتهم ولَو كانوا أقرب الأقارب، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله عن صَميم القلب ﴿لاَتَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ مع كَمال قُربهم إليكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء لأنفسكم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ﴾ ورجّحوه ﴿عَلَى ٱلْإِيمَانِ﴾.

ثمّ حذّرهم الله عن مُوالاتهم ومُخالطتهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ ويُوادّهم ﴿مِنكُمْ﴾ بأيّ مَرتبةٍ من

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٠٢/٢٢٦، الكافي ٨: ٢٤٥/٢٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٢٨.

الموالاة والمُوادّة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُوالون لهم ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على أنفسهم بتَعريضها للهَلاك والعَذاب.

عن ابن عباس قال: يُريد مشركاً مِثلهم؛ لأنّه رَضي بشِركهم، والرِّضا بالكُفر كُفرٌ، كما أنّ الرِّضا بالفِسْق فِسقٌ[١].

قيل: إنّهم ظالمون بوَضع المُوالاة في غير مَوضعها[٢].

عن الباقر عليه السلام: «الكُفر في الباطن، في الآية: وِلاية الأول والثاني، والايمان: ولاية عليّ عليه السلام»[٣].

ثمّ قيل: إنّ جَماعةً من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، كيف يُمكننا البَراءة منهم بالكُليّة، وإنّها تُوجب انقِطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعَشيرتنا، وذَهاب تِجارتنا، وهَلاك أموالنا، وخَراب دِيارنا[٤]؟ وقيل: لمّا اُمروا بالهِجرة كان يمنعُهم أقرباؤهم، فمنهم مَن كان يترُكها لأجلهم[٥].

وعن القُمّي: لما أذّن أمير المؤمنين عليه السلام بمكّة: أن لا يدخُل المسجد الحرام مُشركٌ بعد ذلك العام، جَزِعتْ قُريش وقالوا: ذهبتْ تِجارتُنا وضاع عِيالُنا، وخرِبتْ دُورنا[٦]، فردّهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ وأصبْتُموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾ وأمتعةٌ مُهيّأة للمُعاملة ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وفَوات أوان رَواجها لغَيبتكم من سُوقها ﴿وَمَسَٰكِنُ﴾ ومَنازل ﴿تَرْضَوْنَهَآ﴾ وتُحبّونها لأنفسكم ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وطاعتهما بالهِجرة إلى المدينة، ﴿وَجِهَادٍ﴾ معَ أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ وطلباً لمَرضاته ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ وانتظِروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ من عُقوبةٍ شَديدة عاجلة، أو أجلكم؛ لأنّكم عصَيْتُم الله بتَرجيح حُبّ غيره على حُبّه، وتقديم هوى أنفسكم وشَهواتها على مَرضاته ومَرضاة رسوله، وحُبّ الحِطام الفانية الدُّنيويّة على النِّعَم الأُخرويّة الدائمة، وحُبّ المَساكن الخَربة الزائلة على القُصور العالية. فإنّ ذلك لا يكون إلّا لضَعف الايمان، وعدم المَعرفة الصحيحة بالمَبدأ والمَعاد، والإقبال على الدُّنيا، والإعراض عن الدِّين، والخُروج عن حُدوده ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الخير، ولا يُوصل إليه ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والخارجين عن حُدود العقل والشَّرع.

وفيه وعيدٌ شديد لا يتخلّص منه إلّا الأوحديّ مِن أهل الايمان.

في الحديث: «لا يجِدُ [أحدكم] طعمَ الايمان حتّى يُحِبّ في الله ويُبْغِض في الله»[٧].

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨. ٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٣.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٠٣/٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩. ٤. تفسير الرازي ١٦: ١٩.
٥. جوامع الجامع: ١٧٦. ٦. تفسير القمي ١: ٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩.
٧. جوامع الجامع: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢٩.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍوَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ[٢٥ و ٢٦]

ثمّ لمّا كان حُبّ الأقارب لتوقّع النُّصرة منهم على الأعداء، نبّههم على أنّه خيرُ النّاصرين والحافظين لهم، بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ﴾ بقُدرته على الأعداء ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ من الحُروب، ومَقاماتٍ عديدةٍ في الجِهاد؛ كيوم بَدْر، وأُحُد، والأحزاب، وغيرها ﴿وَيَوْمَ﴾ غَزوة ﴿حُنَيْنٍ﴾ وهو ـ على ما قيل ـ وادٍ بين مكّة والطائف، ويُقال لها غَزوة أوطاس ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ وسرّتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾ وزِيادةُ نُفوسكم، وقُوّةُ شَوكتكم، حتّى قال أبوبكر لرسول الله ﷺ: لَن نُغلَب اليومَ مِن قِلّةٍ[١]، فساءته ﷺ مَقالتُه ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرةُ عددكم[٢] ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء، ولم تُفِدْكم قوّةُ شَوكتكم فائدةً أصلاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ فلا تجِدون مأمناً من بأسِ العدُوّ فيها ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومعَ سَعَتها من شِدّة الرُّعْب ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الأعداءَ ظُهورَكم، حالَ كَونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ ومُنهزمين منهم.

روى بعضُ العامّة: أنّ النبيّ ﷺ فتح مكّة لثلاثة أيّام بقيتْ من رَمضان ـ وقيل: لثلاثة عشر يوماً[٣] مضتْ منه ـ فمكث بها إلى أن دخل شوّال، وحين فُتحت مكّة أطاعه العرب إلّا هَوازن وثقيفاً، وكانوا طُغاة مَرَدة، فخافوا أن يغزُوهم رسولالله ﷺ وظنّوا أنّه ﷺ يدعوهم إلى الاسلام، فثقُل ذلك عليهم، فحشَدوا وبغَوا وقالوا: إنّ محمّداً لاقى أقواماً لا يُحسنون القِتال، فأجمعوا أمرَهم على قِتال النبيّ ﷺ، فأخرجوا معهم أموالهم ونِساءهم وأبناءهم وراءهم، فخرج رسول الله ﷺ يومَ السّبت السادس مِن شوّال إلى حُنين، واستعمل على مكّة عتاب بن أسيد يُصلّي بهم، ومَعاذ بن جبل يُعلّمهم السُّنَن والأحكام، وكان عَسكر رسولالله ﷺ اثني عشر ألفاً؛ عشرةُ آلاف مَن شهِد فتح مكّة مِن المُهاجرين والأنصار، وألفان من الطُّلَقاء، وهم أهل مكّة، وكان هَوازن وثقيف أربعة آلاف، سِوى الجَمّ الغفير من أمداد سائر العرب، وحمَلوا النِّساء فوق الإبل وَراء صُفوف الرّجال، ثمّ جاءوا بالإبل والغَنم والذَّراري وراء ذلك؛ كي يُقاتل كُلٌّ منهم عن أهله ومالِه، ولا يفِرُّ أحدٌ بزَعمِهم، فساروا كذلك حتّى نزلوا بأوطاس.

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢١.
٢. في النسخة: كثرة عدوّ.
٣. في النسخة: لثلاث عشرة أيام.

وقد كان ﷺ بعث إليهم عيناً ليتجسّس عن حالهم، وهُو عبدالله بن أبي حَدْرَد[١] مِن بني سُليم، فوصل إليهم فسمِع مالك بن عوف أمير هَوازن يقول لأصحابه: أنتم اليوم أربعة آلاف رجل، فإذا لقيتُم العدُوّ فاحمِلوا عليهم حَملةً واحدة، واكسِروا جُفون سُيوفكم، فَواللهِ لا تضرِبون بأربعةِ آلاف سَيف شيئاً إلّا فُرج.

فأقبل العَينُ إلى النبيّ ﷺ فأخبره بما سَمِع من مَقالتهم، فقال سَلمة بن سلامة الوقسي الأنصاري ـ أو أبوبكر؛ كما قال الفخر الرازي، وبعضٌ آخر من العامّة ـ: يا رسول الله، لن نُغلَب اليوم مِن قِلّةٍ، فساءت رسول الله ﷺ كلمتُه، فركِب رسول الله ﷺ بَغلته دُلْدُل، ولبِس دِرع داود التي لبِسها حينَ قتل جالوت، ووضع الألوية والرّايات مع المهاجرين، فلمّا كان بحُنين وانحدروا [في الوادي] وذلك عند غَلَس[٢] الصُّبح يومَ الثُّلثاء، خرج عليهم القوم وكانوا كمَنوا لهم في شِعاب الوادي ومضائقه، وكانوا رُماة، فاقتتلوا قِتالاً شديداً، فانهزم المُشركون وخلّوا الذّاري، فأكبّ المُسلمون عليهم، فتنادى المشركون: يا حَمَلة[٣] السُّوء، اذكروا الفضائح، فتراجعوا وحمَلوا عليهم، فأدركت المسلمين كلمةُ الإعجاب وشؤمها، فانكشفوا فلم يقوموا لهم مِقدار حَلْب شاة[٤].

قيل: بلغَ مُنهزَمُهم مكّة، وسُرَّ بذلك قومٌ من المشركين، وأظهروا الشّماتة حتى قال أخو صفوان بن اُميّة لاُمّه: ألا قد أبطل الله السِّحر اليوم. فقال له صَفوان؛ وهو يومئذٍ مُشرك: فضّ اللهُ فاك، والله لئِن يملِكني رجلٌ من قُريش أحبُّ إليّ مِن أن يملِكني رَجلٌ من هَوازن. فلمّا انهزموا بقي رسول الله ﷺ وحده وليس معه إلّا عمّه العباس آخذاً بلِجام بَغلته، وابن عمّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب آخذاً بركابه، وهو يركُض[٥] البغلةَ نحو المشركين ويقول:

«أنا النبيُّ لا كَذِب أنا بن عبد المطّلب

وكان يحمِل على الكُفّار فيفِرّون، ثمّ يحمِلون عليه فيقِف لهم، فعل ذلك بضع عشرة مرّة. قال العبّاس: كنتُ أكُفّ البغلة لِئلّا تُسرع [به] نحو المشركين. وناهيك بهذا شَهادةً على تناهي شجاعته حيثُ لَم يُخْفِ اسمَه في تِلك الحال، ولَم يَخَفْ الكُفّار على نفسه، وما ذلك إلّا لكونه مُؤيّداً مِن عندِ الله العزيز الحكيم.

فعند ذلك قال: يا ربِّ ائتني بما وعدتني، وقال للعباس ـ وكان جَهْوَريّ الصّوت ـ: «صِحْ بالنّاس»،

---

١. في النسخة: جذر، وفي المصدر: حذر، وكلاهما تصحيف، راجع: اُسد الغابة ٣: ١٤١.
٢. في تفسير روح البيان: غبش، والغَلَس كالغَبَش، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
٣. في تفسير روح البيان: حُماة.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٥.
٥. أي يضرِب جَنبها برِجْله ليُحثّها على السّير، والضمير عائد إلى رسول الله ﷺ.

فنادى الأنصار فخِذاً فَخِذاً، ثمّ نادى: يا أصحاب الشّجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكَرُّوا عُنُقاً واحدة[١] وهُم يقولون: لبّيك لبّيك، فأخذ رسول الله ﷺ بيده كَفّاً من الحَصاة فرماهم بها وقال: «شاهتْ الوُجوه».

فأخبره الله سبحانه بنُزول النّصر بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ورَحمته المُسكّنة للقُلوب ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل: إنّ بَغلته انخفضت حتى كادتْ بطنُها تمَسّ الأرض، ثمّ قبض قَبضةً مِن تُرابٍ فرمى به نحو المُشركين وقال: «شاهتْ الوُجوه»)، فلَم يبقَ منهم أحدٌ إلّا امتلاتْ به عَيناه، ثمّ قال ﷺ: «انهزموا وربّ الكعبة»[٢].

﴿وَأَنزَلَ﴾ الله لنَصره مِن السّماء ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾. عن سعيد بن جُبير قال: أيّد الله نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة[٣].

وعن سعيد بن المُسيَّب قال: حدّثني رجلٌ كان في المشركين يومَ حُنين، قال: لما كشَفنا المُسلمين جعلنا نسوقهم، فلمّا انتهينا إلى صاحب البَغلة الشّهباء تلقّانا رِجالٌ بِيض الوُجوه حِسان، فقالوا: شاهتْ الوُجوه، ارجِعوا فرجَعنا، فركِبوا أكتافنا[٤].

في ذكر قصة غزوة حنين

القُمّي ﵀: كان سبب غَزوة حُنين أنّه لمّا خرَج رَسُول الله ﷺ إلى فتح مكة، أظهر أنّه يُريد هَوازن، وبلغ الخبر هَوازن فتهيّأوا وجمعوا الجُموع والسِلاح، واجتمع رُؤساؤهم إلى مالك بن عَوف النضري فرأسُوه عليهم، وخرَجوا وساقوا معهم أموالهم ونِساءهم وذَراريهم، ومرّوا حتّى نزلوا أوطاس، فبلغ رسولالله ﷺ اجتِماعهم بأوطاس، فجمع القبائل ورغّبهم في الجِهاد ووعدهم النّصر، وأن الله قد وعده أن يُغنمه أموالهم ونساءهم وذَراريهم، فرغّب النّاس وخرجوا على راياتهم، وعقد اللّواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين ﵇، وكُلّ مَن دخل مكّة برايةٍ أمره أن يحمِلها، وخرج في اثني عشر ألف رجل، عشرة آلاف مِمّن كان معه[٥].

وعن الباقر ﵇: «كان معه من بني سُلَيم ألف رَجُل رئيسهم عبّاس بن مِرداس السُّلمى، ومن مُزَيْنَة ألف رجل».

---

١. أي حملوا جماعةً واحدة.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٦ ـ ٤٠٧.
٣. تفسير الرازي ١٦: ٢٢.
٤. تفسير الرازي ١٦: ٢٢
٥. تفسير القمي ١: ٢٨٥، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.

فمضوا حتّى كان من القوم مَسيرة بعض ليله، وقال مالك بن عَوف لقومه: ليُصيِّر كُلّ رَجلٍ منكم أهله وماله خَلف ظَهره، واكسِروا جُفون سُيوفكم، واكمُنوا في شِعاب هذا الوادي وفي الشّجر، فإذا كان في غَلَس الصُّبح فاحْمِلوا حملة رَجلٍ واحد، وهِدّوا القومَ، فإنّ محمّداً لَم يلْقَ أحداً يُحسن الحرب.

فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الغَداة انحدر في وادي حُنين، وهو وادٍ له انحدار بعيد، وكان بنو سُلَيم على مُقدّمته، فخرج عليهم كتائب هَوازن مِن كُلّ ناحية، فانهزمتْ بنُو سُلَيم وانهزم مَن وَراءهم، ولَم يبقَ أحدٌ إلّا انهزم، وبقي أمير المؤمنين يُقاتلهم في نفرٍ قليل، ومرّ المُنهزمون برَسول الله ﷺ لا يلوون على شيء، وكان العبّاس آخذاً بلِجام بَغلة رَسول الله ﷺ عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب عن يَساره، فأقبل رسول الله ﷺ يُنادي: «يا معشر الأنصار، إلى أين[١]؟ أنا رسول الله». فلَم يلْوِ أحدٌ عليه.

وكانت نسيبة بنت كعب المازنيّة تحثو في وُجوه المنهزمين التُّراب وتقول: إلى أين تفِرّون عن الله وعن رسوله؟ ومرّ بها عُمر فقالتْ: ويلك، ما هذا الذي صنعتَ؟ فقال لها: هذا أمرُ الله.

فلمّا رأى رسول الله ﷺ. الهزيمة ركَض نحوهم على بغلته وقد شهر سيفه وقال: «يا عبّاس اصعَد هذا الظِّرب[٢] وناد: يا أصحاب البقرة، ويا أصحاب الشّجرة، إلى أين تفِرّون؟ هذا رسول الله».

ثمّ رَفع رسول الله ﷺ يده فقال: «اللّهم لك الحمدُ، وإليك المُشتكى، وأنت المُستعان». فنزل عليه جَبرئيل فقال: يا رسول الله، دعوتَ بما دعا [به] موسى حيثُ فلَق الله له البحر ونجّاه من فِرعون، ثمّ قال رسول الله ﷺ لأبي سُفيان [بن] الحارث: ناولني كفّاً من الحصى فناوله، فرماه في وُجوه المشركين ثمّ قال: «شاهتْ الوُجوه»، ثمّ رفع رأسه إلى السّماء وقال: «اللّهم إن تهلِك هذه العِصابة لَم تُعبد، وإن شئتَ أن لا تُعبد لاتُعبَد».

فلمّا سمِعت الأنصار نِداء العباس، عطَفوا وكسَروا جُفون سُيوفهم وهُم يقولون: لبّيك، ومرّوا برسول الله ﷺ واستحيَوا أن يرجِعوا إليه، ولحِقوا بالرّاية، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «مَن هؤلاء يا أبا الفضل؟» فقال: يا رسول الله، هؤلاء الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «الآن حَمي الوَطيس»، ونزل النّصر من الله، وانهزمت هوازن، وكانوا يسمعون قَعقعة السّلاح في الجَوّ، وانهزموا في كُلّ وَجه، وغنّم الله رسوله أموالهم ونساءهم وذَراريهم، وهُو قول الله: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ**

---

١. زاد في القمي: المفرّ. ٢. الظِّرب: الجبل المنبسط.

حُنَيْنٍ﴾[١].

وقال رجلٌ من بني نصر بن معاوية يُقال له شجرة بن ربيعة للمُؤمنين؛ وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البُلق[٢]، والرِّجال عليهم الثياب البيض؟ فإنّما كان قَتلُنابأيديهم، وما كُنّا نراكم فيهم إلّا كهيئة الشّامة، قالوا: هم الملائكة[٣].

وعن الرضا عليه السلام، سئل: ما السكينة؟ فقال: «رِيحٌ من الجنّة، لها وجهٌ كَوجه الإنسان، أطيبُ ريحاً من المِسك، وهي التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وآله بحُنَين، فهُزم المشركون»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «قتَل عليُّ بن أبي طالب عليه السلام يومَ حُنين أربعين صلى الله عليه وآله»[٥].

ورُوي أنّه لمّا هزَم الله المشركين بوادي حُنين ولّوا مُدبرين، ونزلوا بأوطاس وبها عِيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً من الأشعريّين يُقال له أبو عامر، وأمّره على جيشٍ إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وهزَم الله المُشركين، وسبى المُسلمون عِيالهم، وهرب أميرُهم مالك بن عوف[٦].

﴿وَعَذَّبَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقَتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾ في الدُّنيا، ولَعذاب الآخرة أكبر.

ثمَ روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أتى الطائف، فحاصر أهله بقيّة ذلك الشهر، فلمّا دخل ذو القعدة انصرف عنهم، فأتى الجِعْرانة[٧] فأحرم منها بعُمرة بعد أن قام بها ثلاث عشرة ليلة، وقال: «اعتمر منها سبعون نبيّاً»، وقسّم بها غنائمهم، وكانت ستة آلاف نَفْس، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أُوقيّة فِضّة، وتألّف أُناساً فجعل يُعطي الرّجل الخمسين والمائة من الإبل، ولمّا قسّم ما بقي خصّ كُلّ رَجلٍ بأربعٍ من الإبل وأربعين شاةً، فقالت طائفةٌ: يا لَلْعَجب، إنّ أسيافَنا تَقْطُر من دِمائهم، وغنائمنا تُرَدّ إليهم! فبلغ ذلك النّبي صلى الله عليه وآله فجمعهم فقال: «يا معشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فقالوا: هُو الذي بلغك؛ وكانوا لا يكذِبون، فقال: «ألم تكونوا ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتُم أذِلّةً فأعزّكم الله بي، وكنتُم وكنتُم؟ أما ترضَون أن يَنْقَلِب النّاس بالشّياه والإبل، وتَنْقَلِبون برسول الله إلى بُيوتكم؟» فقالوا: بَلى رضينا يا رسول الله، والله ما قُلنا ذلك إلّا مَحبّةً لله ولرَسوله. فقال: «إنّ الله ورسوله يُصدّقانكم ويُعذرانكم»[٨].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.
٢. البُلق: جمع أبلق، وهو الذي يُخالط لونه السواد مع البياض.
٣. تفسير القمي ١: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.
٤. الكافي ٥: ٣/٢٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.
٥. الكافي ٨: ٥٦٦/٣٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٢.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٨.
٧. اسم موضع بين مكة والطائف.
٨. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٨.

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٢٧]

ثمّ أنّه أخبر الله بإسلام بعض هوازن بقوله: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ**﴾ تَوبته بتَوفيقه لقَبول الإسلام ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ**﴾ ومُتجاوز عمّا سلَف منهم مِن الكُفر والمَعاصي ﴿**رَحِيمٌ**﴾ بهم بإعطائهم الثّواب الجزيل.

رُوي أنّ أُناساً منهم جاءوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الاسلام، وقالوا: يا رسول الله، أنت خيرُ النّاس وأبرّهم، وقد سُبي أهلونا وأولادُنا، وأُخذت أموالُنا. فقال ﷺ: «إنّ عندي ما ترَون، إنّ خيرَ القول أصدقه، اختاروا إما ذَراريكم ونساءكم، وإمّا أموالكم». قالوا: ما كُنّا نعدِل بأحسابنا شيئاً.

فقام النبيّ ﷺ فقال: «إنّ هؤلاء جاءونا مُسلمين، وإنّا خيّرناهم بين الذّراري والأموال، فلَم يعدِلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سَبيٌ وطابتْ نفسُه أن يرُدّه فشأنه [وليفعل ما طاب له] ومَن لا فليُعطنا ولكن قرضاً علينا، حتّى نُصيب شيئاً فنُعطيه مكانه». قالوا: رضينا وسلّمنا.

فقال ﷺ: «إنّا لا ندري لعلّ فيكم مَن لا يرضى، فمُروا عُرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعتْ إليه العُرفاء أنّهم قد رضُوا.

ثمّ قال لوفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف؟» قالوا: يا رسول الله، هرب فلحِق بحِصن الطائف مع ثقيف، فقال ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مُسلماً ردَدْتُ إليه أهله وماله، وأعطيته مائة [من] الإبل»، فلمّا بلغه هذا الخبر نزل من الحِصن مُستخفياً خوفاً من أن تحبِسه ثقيف إذا علِموا الحال، ورَكِب فرسه وركضه حتّى أتى الدّهناء ـ محلاً معروفاً ـ ورَكِب راحلته ولحِق برسول الله ﷺ فأدركه بالجِعْرانة فأسلم، فردّ عليه أهله وماله، واسْتعمله على مَن أسلم من هَوازن، وكان هُو مِمّن فتح عامّة الشّام[1].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٢٨]

ثمّ منع الله المُشركين من دُخول المسجد الحَرام بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ وقَذَر، عن ابن عباس قال: أعيانهم نَجِسة كالكِلاب والخنازير[2] ﴿**فَلاَ يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ**﴾ فضلاً عن أن يدخُلوا فيه ﴿**بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا**﴾ الذي أنتم فيه.

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٠٨.

٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٤.

ثمّ قيل: إن أُناساً قالوا لأهل مكّة: ستلقَون الشِدّة من انقطاع السُبُل، وفَقد الحَمولات[1]، فوعد الله سَدّ خَلّة[2] المؤمنين بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ على أنفسكم ﴿عَيْلَةً﴾ وفقراً وحاجةً بسبب مَنع المُشركين من الحَجّ، وانقِطاع ما كانوا يجلُبونه إليكم من الأرزاق، وتَعطيل المكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ﴾ عنهم في إرزاقكم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجُوده ﴿إِن شَاءَ﴾ غَناءكم وسَعَة مَعائشكم.

وفي تعليق إغنائهم على مشيئته تنبيهٌ على وُجوب كونهم راجين بكَرَمه، مُتضرّعين إليه، وأنّ ما يصِل إليهم يكون بتفضُّله، وأنّ الوعد لا يعُمّ جميعَ الناس وجميع الأمكنة والأزمان، بَل هو لبعضٍ دون بعض.

في إيجاب الجزية على أهل الكتاب

قيل: إنّ الله أنجز وَعده بأن أرسل السَماء عليهم مِدراراً ووفّق أهل تَبالة وجُرَش[3] للاسلام، وامْتاروا[4] لَهم، ثمّ فتح عليهم البِلاد، ورزقهم الغنائم الوفيرة، ووجّه إليهم النّاس من أقطار الأرض[5].

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عِباده ومَصالحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يُعطي ويمنع على حَسب صَلاح الأشخاص ونِظام العالم.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَيُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بقِتال المشركين حتّى يُقتلوا أو يُسلِموا ويتوبوا، أمر بقِتال أهل الكِتاب حتّى يُعطوا الجِزية بقوله: ﴿قَاتِلُوا﴾ يا أهل الإسلام ﴿الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ حقّ الإيمان به ﴿وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ كما ينبغي ﴿وَلاَيُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ﴾ عليهم في كِتابه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في سُنّته ﴿وَلاَ يَدِينُونَ﴾ ولا يعتقدون أو لا يقبَلون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ الثّابت من الله وهو الاسلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السّماوي من التّوراة والإنجيل وغيرهما، واستمرّوا على قِتالكم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ والمال المَضروب عليهم منكم، حال كون عَطائهم إيّاه ﴿عَن يَدٍ﴾ منهم وبمُباشرتهم الإعطاء ﴿وَهُمْ

---

١. الحَمُولات: جمع الحَمولة، وهي الإبل وغيرها التي تحمل المؤن، وتُطلق الحَمُولة على نفس المؤن المحمولة على الإبل. ٢. الخَلّة: هي الفقر الحاجة.

٣. في النسخة: بتالة وحريش، وتَبالة: موضع ببلاد اليمن، وجُرَش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، قال المهلّبي: أسلم أهل تَبالة وجُرَش من غير حرب، فأقرّها رسول الله ﷺ في أيدي أهلها على ما أسلموا عليه، وجعل على كلّ حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً، واشترط عليهم ضيافة المسلمين. معجم البلدان ٢: ١٠و١٤٧.

٤. أي جمعوا المِيرة لأنفسهم، وهي الطعام والمؤن. ٥. تفسير روح البيان ٣: ٤١١.

﴿صَاغِرُونَ﴾ ذَليلون عندكم.

في أحكام الجزية

عن الباقر عليه السلام: «بعث الله محمّداً بخمسة أشياء»[١] إلى أن قال: «قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[٢] نزلت هذه الآية في أهل الذمّة، ثمّ نسخها قولُه سُبحانه: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ الآية، فمَن كان منهم في دار الإسلام لَم يُقبل منهم إلّا الجزية أو القتل، وما لهُم فيء، وذَراريهم سَبْيٌ، فإذا قبِلوا الجزية على أنفسهم حُرّم علينا سَبْيُهم، وحُرّمت أموالهم، وحلّتْ لنا مُناكحتهم، ومَن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سَبيُهم وأموالهم، ولَم تحِلّ مُناكحتهم، ولَم يُقبل منهم إلّا الدُّخول في الاسلام أو الجِزيه أو القتل»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عن المَجوس: أكان لهم نبيّ؟ فقال: «نعم، أما بلَغك كِتابُ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أهل مكّة: أن أسلِموا وإلّا فأْذَنوا بحربٍ، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: أن خُذ مِنّا الجزية ودَعنا على عِبادة الأوثان، فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّي لستُ آخذُ الجزية إلّا مِن أهل الكِتاب، فكتبوا إليه، يُريدون تكذيبه: زعَمتَ أنّك لا تأخُذ الجِزية إلّا مِن أهل الكِتاب، ثمّ أخذتَ الجزية مِن مَجوس هَجْر؟! فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله: أنّ المجوس كان لهم نبيٌّ فقتلوه، وكِتابٌ أحرقوه»[٤].

وفي (العِلل): عنه عليه السلام، أنّه سُئل عن النِّساء: كيف سقطتْ الجِزية ورُفعتْ عنهن؟ فقال: «لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن قَتل النِّساء والوِلدان في دار الحرب إلّا أن تُقاتل، وإن قاتلتْ [أيضاً] فأمسِك عنها ما أمكنك ولَم تخَفْ خلَلاً، فلمّا نهى عن قَتْلهِنّ في دار الحرب كان ذلك في دار الإسلام أولى، ولو امتنعتْ أن تُؤدّي الجِزية لم يُمكن قَتلها، فلمّا لم يمكن قَتلها رُفعتْ الجِزية عنها، ولو امتنع الرّجال وأبَوا أن يُؤدّوا الجزية كانوا ناقضين للعَهد، وحَلّت دِماؤهم وقَتلُهم، لأنّ قتل الرِّجال مُباحٌ في دار الشِّرك، وكذلك المُقْعَد مِن أهل الشِّرك والذِّمة، [والأعمى] والشيخ الفاني، والمرأة والوِلدان في أرض الحرب. ومِن أجل ذلك رُفعتْ عنهم الجِزية»[٥].

وعنه عليه السلام: «جَرتْ السّنّة أن لا تُؤخَذ الجِزية مِن المَعتوه، ولا مِن المَغلوب على عَقله»[٦].

والقُمّي رحمه الله: عنه عليه السلام، أنّه سُئل: ما حدُّ الجِزية على أهل الكتاب، وهَل عليهم في ذلك [شيء] مُوظَف لا ينبغي أن يجُوزوا إلى غيره؟

فقال: «ذلك إلى الإمام، يأخُذ من كُلّ إنسان منهم ما شاء على قَدر ماله وما يُطيق، إنّما هُم قومٌ فدَوا

---

١. في الكافي: أسياف. ٢. البقرة: ٢/٨٣. ٣. الكافي ٥: ١١/٢، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤.
٤. الكافي ٣: ٤/٥٦٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤. ٥. علل الشرائع: ١/٣٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٤.
٦. الكافي ٣: ٣/٥٦٧، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٠١/٢٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.

أنفسهم مِن أن يُستعبدوا أو يُقتلوا، فالجِزية تُؤخَذ منهم على قَدْر ما يُطيقون له أن يُؤخَذ منهم بها حتى يُسلِموا، فإنّ الله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وكيف يكون وهو لا يكترِث لِما يُؤخذ منه، لا حتّى يجد ذُلاً لِما يُؤخذ منه فيألم لذلك فيُسلِم»[١].

وعن الباقر عليه السلام، في أهل الذِّمّة: أيُؤخَذ من أموالهم ومَواشيهم شيءٌ سِوى الجِزية؟ قال: «لا»[٢].

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[٣٠]

ثمّ بيّن سُبحانه عَدم إيمانهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ واعتقدتْ أنّه ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ﴾.

عن ابن عبّاس: أتى جَماعةٌ من اليَهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وهُم سَلّام بن مِشْكم، والنُّعمان بن أوفىٰ، ومالك بن الصَّيف، وقالوا: كيف نتبعُك وقد تركتَ قِبلتنا، ولا تزعُم أنّ عُزيراً ابنُ الله؟ فنزلتْ الآية[٣].

وقيل: إنّ هذا القول كان شائعاً بينهم في ذلك العصر ثمّ انقطع، ولا عِبرة بإنكار اليَهود، فإنّ حِكاية الله عنهم أصدق.

وفي (الاحتجاج): أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله طالبهم فيه بالحُجّة، فقالوا: لأنّه أحيىٰ [لبني إسرائيل] التّوراة بعدما ذهبتْ، ولَم يفعل بها هذا إلّا لأنّه ابنُه.

فقال صلى الله عليه وآله: «كيف صار عُزيرٌ ابن الله دُون مُوسى، وهُو الذي جاءهم بالتوراة، ورأوا منه [من] المعجزات ما [قد] علِمتُم، فإن كان عُزيرٌ ابن الله لِما ظهر من إكرامه من إحياء التّوراة، فلقد كان موسى بالنبوّة أحقّ وأولىٰ»[٤].

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ﴾ ثمّ ردّهم بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ القول الباطل الذي صدَر منهم ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألسنتهم بِلا مُساعدة بُرهان عليه، بَل البراهين القاطعة على خِلافه، وهُم في هذا القول ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ ويُشابهون، يعني قولهم هذا يُشابه ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ بأنّ الملائكة، أو اللّات والعُزّى بناتُ الله.

ثمّ أظهر الغضب بالدُّعاء عليهم بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللهُ﴾ وأهلكهم كيف تصدُر من لِسانهم هذه الأباطيل، و ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وإلى أين يُصرَفون من الحقّ.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.
٢. الكافي ٣: ٧/٥٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.
٣. تفسير الرازي ١٦: ٣٣.
٤. الاحتجاج: ٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٣٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثٍ: «أي لعنهم، فسمّى اللّعنة قِتالاً»[١].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «اشتدّ غضبُ الله على اليهود حين قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ﴾، واشتدّ غضبُ الله على النّصارى حين قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ﴾، واشتدّ غضبُ الله على مَن أراق دَمي وآذاني في عِترتي»[٢].

ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ ٱللهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٣١]

ثمّ قَدح الله فيهم بإثبات شِركٍ آخر لهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوا﴾ هؤلاء اليَهود والنّصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وعُلماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ وزُهّادهم ﴿أَرْبَاباً﴾ ومُطاعين كأنّهم مَعبودون لهم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومُتجاوزين عنه.

عن الصادق عليه السلام: «أما والله ما دَعَوهم إلى عِبادة أنفسهم، ولَو دعَوهم إلى عِبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلُّوا لهم حَراماً وحرّموا عليهم حَلالاً فعبدوهم مِن حيثُ لا يشعُرون»[٣].

﴿وَ﴾ اتّخذوا ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أيضاً رَبّاً ومَعبوداً بعد ما قالوا إنّه آبنُ الله.

القُمّي: عن الباقر عليه السلام: «أمّا المسيح فعصَوه، وعظّموه في أنفسهم، حتّى زعَموا أنّه إله، وأنّه ابنُ الله، وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثةٍ [وطائفة منهم قالوا: هُو الله]، وأمّا أحبارهم ورُهبانهم فإنّهم أطاعوهم، وأخذوا بقولهم، واتّبعوا ما أمروهم به، ودانوا بما دعَوهم إليه، فاتّخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم، وتَركهم أمر الله وكُتبه ورُسله، فنبذوه وراء ظُهورهم». قال: «وإنّما ذكر هذا في كتابه لكي نتّعظ بهم»[٤].

﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ من قِبَل الله، وبحُكم عُقولهم، بشيءٍ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ وليُطيعوا ﴿إِلٰهاً وَاحِداً﴾ ولا يُطيعون غيره، وأمّا طاعة غيره بأمره فهي[٥] في الحقيقة طاعته.

ثمّ أكّد سُبحانه وَحدانيّته في الأُلوهيّة والرُّبوبيّة والعِبادة بقوله: ﴿لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثمّ نزّه ذاتَه المُقدّسة عن الشِّرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في الأُلوهيّة والعِبادة، وتعالى شأنه عن ذلك.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ[٣٢]

---

١. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٨١٠/٢٢٩، أمالي الطوسي: ٢٣١/١٤٢، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٣. الكافي ١: ١/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٤. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٣٦.

٥. زاد في النسخة: بأمره.

ثمّ أنه تعالى بعد بَيان سُوء عقيدتهم، بيّن سُوء أفعالهم المَوجب لاستِحقاقهم القتل والذِلّة بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ ويُخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ ويُبطلوا بَراهين توحيده وتنزُّهه عن اتّخاذ الولد، ويُخفوا أدلّة صِدق النبيّ عن عَوامّهم، ويُشوّشوا شواهد صِحّة شريعته بأقاويلهم الباطلة وشُبهاتهم الفاسدة التي يقولونها ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مع عدم اعتِقاد صِحّة مَعانيها في قُلوبهم، كأنّهم يسعَون أن يُطفئوا نورَ الشّمس بنَفخهم ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ ويمتنع ﴿إِلَّآ أَن﴾ يُثبت دينه، و ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ببُلوغه الغاية في الإضاءة والإنارة، ويُحِقّ الحقّ بنُصرة رسوله، وظُهور مُعجزاته، وإعلاء كلمته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ ذلك فضلاً عن أن لا يكرَهوه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، في هذه الآية: «يعني [أنّهم] أثبتوا في الكِتاب ما لَم يقُلْه الله ليَلبسوا على الخليقة، فأعمى الله قُلوبهم حتّى تركوا فيه ما دَلّ على ما أحدثوا فيه وحرّفوا منه»[1].

وعنه عليه السلام: «جعل [الله] أهل الكِتاب المُقيمين به، والعالمين بظاهره وباطنه، من شجرة أصلها ثابت وفَرعها في السّماء تُؤتي أكلها كُلّ حينٍ بإذن ربِّها، أي يظهر مِثل هذا العِلم لمُحتمليه في الوقت بعد الوقت، وجعل أعداءها أهل الشجرة المَلعونه الّذين حاولوا إطفاء نُور الله بأفواههم فأبى الله إلّا أن يُتِمّ نُوره»[2].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ[٣٣]

ثمّ بيّن الله إتمام نُورِ بظُهور رسوله صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ الذي جاءكم ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ ودلائل الصِّدق من القُرآن العظيم، والمُعجزات الباهرة الكثيرة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ المَرضيّ عندَ الله، والأحكام المُوافقة لصَلاح العِباد ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ وليُغلبه بالحُجّة والسّيف ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بحيث لا يبقى على وَجه الأرض غيره.

قيل: إنّ المُراد ظُهور الإسلام على سائر الأديان في جزيرة العرب، أو غَلَبته على سائر الأديان في الجُملة، فإنّه لَم يكُن أهلُ دينٍ إلّا وقهرهم المُسلمون؛ أمّا اليَهود فقد قهرهم المسلمون حتى أخرجوهم من جَزيرة العَرب، وأمّا النّصارى فقد غلَبوهم على بِلاد الشّام وما والاها إلى ناحية الرُّوم والمغرب، وامّا عَبَدة الأوثان فقد غَلبوهم على كثيرٍ من بِلادهم ممّا يلي التُّرك والهِند، وكذلك سائر الأديان.

---

١. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٣٣٧.
٢. الاحتجاج: ٢٥٢، تفسير الصافي ٢: ٣٣٧.

ورووتْ العامة عن أبي هُريرة أنّه قال: هذا وعدٌ من الله بأنّه تعالى يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان، وتَمام هذا يحصُل عند نُزول عيسى[١].

وعن السُّدي قال: ذلك عند خُروج المهدي، لا يبقى أحدٌ إلّا دخل في الاسلام، أو أدّى الخَراج[٢].

القُمّي قال: نزلتْ في القائم مِن آل محمّد. قال: وهو الذي ذكرناه ممّا تأويله بعد تَنزيله[٣].

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «والله ما نزل تأويلُها بعد، وما ينزِل حتى يخرُج القائم، فإذا خرج القائم لا يبقى كافر بالله العظيم ولا مُشرك بالإمام إلّا كرِه خُروجه، حتّى لو كان كافرٌ أو مُشرك في بَطن صخرة لقالتْ: يا مؤمن، في بطني كافر فاكسِرني واقتُلْه»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «وغاب صاحبُ هذه الأمر بإيضاح الغَدر له في ذلك؛ لاشتِمال الفِتنة على القُلوب، حتّى يكون أقرب النّاس إليه أشدّهم عَداوة له، وعندَ ذلك يُؤيّده الله بجُنودٍ لَم ترَوها، ويُظهر دِين نبيّه على يَديه على الدّين كُلّه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾»[٥].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «أنّ ذلك يكون عند خُروج المهدي من آل محمّد، فلا يبقى أحدٌ إلّا أقرّ بمحمّد صلّى الله عليه وآله»[٦].

وعن العياشي: عنه عليه السلام، ما في معناه، قال: وفي خَبر آخر قال: «ليُظهره الله في الرّجعة»[٧].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «لا يبقى على وَجه الأرض بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَر إلّا أدخله الله الإسلام إمّا بعِزّ عزيزٍ أو بذُلّ ذَليلٍ، إمّا يُعِزُّهم فيجعلهم الله من أهله فيُعِزُّوا به، أو يُذِلُّهم فيدينُون له»[٨].

وعن الباقر عليه السلام: «القائم مِنّا منصورٌ بالرُّعب، مُؤيّد بالنّصر، تُطوى له الأرض، وتظهَر له الكُنوز، ويبلُغ سُلطانه المَشرق والمَغرب، ويُظهر الله به دينه على الدّين كُلّه، فلا يبقى في الأرض خَرابٌ إلّا عُمّر، وينزِل روح الله عيسى بن مريم فيُصلّي خلفه»[٩].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أظَهر ذلك بعدُ؟» قالوا: نعم، قال: «كلا، فو الذي نفسي بيده، حتّى لا تبقى قرية إلّا وتُنادي بشَهادة أن لا إله إلّا الله، ومحمّد رسول الله، بُكرةً وعشيّاً»[١٠].

وعن الكاظم عليه السلام، في هذه الآية: «هُوَ ٱلَّذِي أمر رسوله بالولاية لوَصيّه، والولاية هي دين الحقّ ليُظهره على جميع الأديان عند قيام القائم، والله مُتِمٌّ ولاية القائم ولَو كرِه الكافرون بولاية عليّ عليه السلام».

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٦: ٤٠.
٣. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٤. كمال الدين: ١٦/٦٧٠، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٥. الاحتجاج: ٢٥٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٦. مجمع البيان ٥: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٨١٨/٢٣١، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٨. مجمع البيان ٥: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٩. إكمال الدين: ١٦/٣٣١، تفسير الصافي ٢: ٣٣٩.
١٠. تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.

قيل: هذا تنزيلٌ؟ قال: «نعم، هذا الحرف تنزيل، وأما غيره فتأويل»[١].

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكْنِزُونَ[٣٤ و ٣٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ أهل الكِتاب باتّخاذهم عُلمائهم أرباباً بالمعنى الذي ذكرنا، ذمّ عُلماءهم وزُهّادهم بأكل الرُّشا وغيره من المال الحَرام بإضلال النّاس؛ بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ وعُلماء اليَهود ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ وزُهّاد النّصارى والله ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وطريق الحرام كالرّشوة للحُكم بالجَور، وتغيير الأحكام الإلهيّة، وتَحريف الكُتب السماويّة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويمنعون النّاس بتَسويلاتهم وشُبهاتهم ﴿عَن﴾ سُلوك ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وقَبول دينِ الحقّ.

ولمّا كان استِمرارهم على أخذ الحرام مُشعراً بغاية حِرصهم على جمع الدّراهم والدّنانير، هدّد سُبحانه مَن له هذه الرّذيلة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ ويدّخرون ﴿ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [سواء أ] كانا مَسكوكين كالدّينار والدِّرهَم، أو غير مَسكوكين كالسّبائك ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والوُجوه الخيريّة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا محمّد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الذي يشتاقون إليه باشتِياقهم إلى سببه الذي هُو جمع الدّراهم و الدّنانير ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ ويُوقد ﴿عَلَيْهَا﴾ نارٌ ذات لَهبٍ وشِدّة حَرارة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ﴾ وتُحرَق ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

قيل: خَصّ الله الكَيّ بِتلك المواضع، لأنّ المقصود من الأموال حُصول الفَرح الذي يحصُل أثرُه في الوجه، والشّبَع الذي ينتفخ به الجَنْبان، وتحصيل ثِياب فاخرة تُطرح على الظّهر[٢].

وقيل: إنّ البخيل المُوسِر إذا رأى الفقير قبض جَبينه، وإذا جلس بجَنْبه تباعد منه، وولّاه ظَهره[٣].

وقيل: لأنّ في داخل هذه الأعضاء آلات ضعيفة يعظُم تألُّمها إذا وصل أدنى مُولِم إليها[٤].

وقيل: لأنّ ألطف أعضاء الإنسان جَبينه، ومُتوسّطها في اللُّطافة جَنْبه، وأصلبها ظهره، والمُراد بَيان إحاطة الكَيّ بجميع الأعضاء[٥].

وقيل: لأنّ كمال بَدن الإنسان بالجَمال والقُوّة، ومَحلّ الجَمال الوَجه، وأعزّ الأعضاء منه الجَبْهة،

---

١. الكافي ١: ٩١/٣٥٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٢ ـ ٥. تفسير الرازي ١٦: ٤٨.

ومَحلّ القُوّة الجَنب والظّهر، فإذا وقع الكَيّ في تِلك الأعضاء ذهب الجَمال والقُوة[١].

أقول: يُمكن كون العِلّة جميع الأمور المذكورة.

وعلى أيّ تقدير، يُقال لهم ازدِياداً لتحسُّرهم: ﴿**هٰذَا**﴾ المال هُو ﴿**مَا كَنَزْتُمْ**﴾ وادّخرتُم ﴿**لِأَنْفُسِكُمْ**﴾ لا تُنفقونه وتلتذّون به ﴿**فَذُوقُوا**﴾ واطْعَموا طَعم ﴿**مَاكُنْتُمْ**﴾ في الدُّنيا ﴿**تَكْنِزُونَ**﴾ من الدّنانير والدّراهم المُحماة بالنّار.

رُوي أنّه لمّا نزلتْ هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «تَبّاً للذّهب وتَبّاً للفِضّة» قالها ثلاثاً، فقالوا له: أيُّ مالٍ نتّخذ؟ قال: «لِساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجةً تُعين أحدكم على دِينه»[٢].

وقال ﷺ: «مَن ترك صَفراء أو بيضاء كُوي بها».

وتُوفّي رجلٌ وفي مِئزره دينار، فقال ﷺ: «كَيّة». وتُوفّي آخر فوُجد في مِئزره ديناران فقال ﷺ: «كَيّتان»[٣].

وعنه ﷺ: «الدّينار والدّرهم أهلكا مَن كان قبلكم، وهُما مُهلكاكم»[٤].

والقُمّي: عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «أنّ الله حرّم كَنز الذّهب والفِضّة، وأمر بإنفاقه في سَبيل الله». قال: «كان أبوذَرّ الغِفاري يغدو كُلّ يومٍ وهو بالشام فيُنادي بأعلى صوته: بَشّر أهل الكُنوز بكَيٍّ في الجِباه، وكَيٍّ في الجُنوب، وكَيٍّ في الظُّهور أبداً حتّى يتردّد الحَرُّ في أجوافهم»[٥].

وفي (المجمع): عن النبيّ ﷺ: «تبّاً للذّهب، تبّاً للفِضّة» يُكرّرها ثلاثاً، فشقّ ذلك على أصحابه، فسألوه: أيُّ المال نتّخذ؟ فقال: «لِساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجةً مؤمنةً، تُعين أحدَكم على دينِهِ»[٦].

وفي (الخصال) عنه ﷺ: «الدّينار والدِّرهم أهلكا مَن كان قبلكم، وهُما مُهلكاكم»[٧].

والقُمّي رحمه الله، في حديثٍ: «نظر عُثمان إلى كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق، ما تقول في رجلٍ أدّى زكاة ماله المفروضة، هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيءٌ؟ فقال: لا، ولَو اتّخذ لَبِنةً من ذهب ولَبِنة من فَضّة ما وجَب عليه شيءٌ، فرفع أبوذَرّ عصاه فضرب بها رأس كعب، ثمّ قال له: يابن اليَهوديّة الكافرة، ما أنت والنّظر في أحكام المسلمين، قولُ الله أصدقُ من قولك حيثُ قال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...**﴾ الآية»[٨].

عن أمير المؤمنين، بطريقٍ عامي قال: «كُلّ مالٍ زاد على أربعة آلاف فهو كنزٌ، أُدّيت زَكاته أو لَم

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٤٨.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٦: ٤٤.
٤. الخصال: ٣٧/٤٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.
٥. تفسير القمي ١: ٢٨٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.
٦. مجمع البيان ٥: ٤٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.
٧. تقدم آنفاً.
٨. تفسير القمي ١: ٥٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.

تُؤدّ»[١].

العيّاشي عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «إنّما عنى بذلك ما جاوز ألفَي دِرْهَم»[٢].

وفي (الأمالي): لمّا نزلتْ هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كُلّ مالٍ تُؤدّى زَكاتُه فليسَ بكَنزٍ وإن كان تحت سَبع أرضين، وكُلّ مالٍ لا تؤدّى زكاتُه فهو كنزٌ وإن كان فَوق الأرض»[٣].

عن الصادق عليه السلام: «مُوسّع على شيعتنا أن يُنفقوا ممّا في أيديهم بالمَعروف، فإذا قام قائمُنا حُرّم على [كُلّ] ذي كَنزٍ كَنزُه حتّى يأتيه به، فيستعين به على عدُوّه، وهو قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ...﴾»[٤].

أقول: يُمكن حَمل الأخبار الدالّة على حُرمة الكَنز على جَمع المال في وقتٍ يـجِبُ إنـفاقه فـي الجِهاد، وحِفظ شَوكة الإسلام والنُّفوس المُحترمة، وغير ذلك مِن المَصارف التي يجب صَرفُ المال فيها، كعصر النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وما شابهه، والأخبار الدالّة على الجَواز على غيره.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٦]

ثمّ لمّا أمر الله بقِتال المُشركين وأهل الكِتاب، ذكر الشُّهور التي يجُوز فيها القِتال، والتي لا يـجُوز بقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ القَمريّة التي هي ما بين الهِلالَين ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي حُكمه وقَضائه ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ مِن غيرِ زِيادة ونُقصان، مُثبتةٌ تِلك العِدّة ﴿فِي كِتَابِ ٱللهِ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه اللّوح المَحفوظ الذي كتب فيه أحوال مَخلوقاته بأسرها على التّفصيل[٥] ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وحين أبدع الأجرام اللّطيفة والكثيفة؛ لأنّ الشّمس والقَمر الّذَين بهما مَدار الأيام والشُّهور جُرمان في السّماوات ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يُحرّم القِتال فيها، وتُعظّم حُرمتَها، ثلاثةٌ منها سَرْدٌ[٦] متعاقبة: ذُو القَعدة وذُو الحَجّة والمُحرّم، وواحدٌ فَرد وهُو شهر رَجب.

قيل: كانتْ حُرمة تِلك الأشهر عند العرب بحيث لَو لقي الرجُل فيها قاتِلَ ابنِه، لَم يكُن يتعرّض له. ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من كَون الأشهر اثني عشر، والحُرم منها أربعة مُعيّنة، هُو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ والشّرع

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٤٥.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٢٠/٢٣١، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.
٣. أمالي الطوسي: ١١٤٢/٥١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٠.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٨٢١/٢٣١، الكافي ٤: ٤/٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٤١.
٥. تفسير الرازي ١٦: ٥١.
٦. السَّرد: المتتابع والمتعاقب.

الباقي المُستقيم الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا يُغيّر ولا يُبدّل ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا﴾ أيُّها العَرب ﴿فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بتَضييع حُرمتها وتَغيير شُهورها.

ثمّ بيّن الله حُكم قِتال المشركين فيها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ حالَ كونكم ﴿كَافَّةً﴾ ومُجتمعين ومُتناصرين، مُستحلّين لقتالها[1] ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ حالَ كونهم ﴿كَافَّةً﴾ ومُجتمعين على قِتالكم، مُستحلّين له فيها.

ثم وَعد الله المؤمنين النّصر بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيُّها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ بنَصره وتأييده ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والخائفين من الله في مُخالفة أوامره.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [٣٧]

ثمّ أنّ رَجلاً من كِنانة، كان يقف بالموسم ويقول: قد أحلَلْتُ دِماء المُحلّين طَي وخثعم في شهر المُحرّم وأنسأتُه، وحرّمتُ بدله صفراً، فإذا كان العام المُقبل يقول: قد أحللتُ صفراً وأنسأته، وحرمتُ بدله شَهر المُحرّم. على رِواية القمي[2].

فردّ الله سُبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ والتّأخير في الشّهر الحرام ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وبِدعة مُضافة إليه.

وقيل: إنّ أوّل مَن أحدث ذلك جُنادة بن عوف الكِناني، كان يقوم على جملٍ أحمر في الموسم فينادي: إنّ آلهتَكُم قد أحلّتْ لكم المُحرّم فأحِلّوه، ثمّ ينادي في القابل: إنّ آلهتَكُم قد حرّمتْ عليكم المُحرّم فحرِّموه[3].

وهذا التّأخير والنّسيء ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾ مِن قِبَل الله، أو الشّيطان ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ثمّ فسّر سُبحانه النّسيء بقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ ويُجوّزون القِتال فيه ﴿عَاماً﴾ ويمنَعون عن القِتال بَدَله في شهرٍ حرام ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ﴾ ويمنَعون القِتال في ذلك الشّهر الذي أحلّوه ﴿عَاماً﴾ آخر ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ ويُوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ مِن الأشهر. [﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ﴾]

عن ابن عبّاس: أنّهم ما أحلّوا شهراً من الحَرام إلّا حرّموا مكانه شهراً آخر من الحَلال، ولَم يُحرّموا

---

١. كذا، والظاهر: لقتالهم فيها.
٢. تفسير القمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.
٣. تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

شهراً من الحَلال إلّا أحلّوا مكانه شهراً آخر من الحَرام، لأجل أن يكون عدَد الأشهر الحُرم أربعة مُطابقة لِما ذكره الله[1].

ثمّ نسب سُبحانه هذا النسيء المُضاف إلى الكُفر إلى تَزيين الشّيطان بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ بتَسويلات الشّيطان ﴿سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقُبح أفعالهم ﴿وَٱللهُ لاَيَهْدِي﴾ إلى خير، ولا يُوصِل إلى صَلاح ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٣٨ و ٣٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان عقائدهم السيّئة وأعمالهم الشّنيعة، حَثّ المؤمنين على قِتالهم بإنكار التّثاقل والتّواني عليهم فيه؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ من العُذر والحالة المانعة عن الامتِثال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ من قِبَل الله والرسُول ﴿ٱنْفِرُوا﴾ واخرُجوا جميعاً إلى الجِهاد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وطلباً لمَرضاته ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ وتباطأتُم كأنكم لثِقَل أبدانكم مُتمائلون ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ مُخلدين فيها حُبّاً للحَياة، وطلباً للرّاحة، وكَراهة لمشاقّ السّفر، وخوفاً من العَدُوّ ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واطمأنتُم إليها، وسكنتْ قُلوبكم إلى شَهواتها ونَعيمها، بَدلاً ﴿مِنَ ٱلآخِرَةِ﴾ ونَعيمها الدائم[2] ﴿فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولَذائذها ونِعَمها ﴿فِي﴾ جَنب لَذائذ ﴿ٱلآخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ غير مُعتدٌ به عند العَقل والعُقلاء.

عن ابن عبّاس: أنّ هذه الآية نزلتْ في غَزوة تَبوك، وذلك لأنه لمّا رجع [النبيّ ﷺ] مِن الطّائف أقام بالمدينة، وأمر بجِهاد الرُّوم، وكان ذلك الوقت زَمان شِدّة الحَرّ، وطابتْ ثِمار المدينة وأينعت، واستعظموا غَزْوَ الرُّوم وهابوه. فنزلتْ[3].

وفي (الجوامع): كان ذلك في غَزوة تَبوك في سنة عشر، بعد رُجوعهم من الطّائف، استُنفِروا في وقت قَحْطٍ وقَيظ، مَع بُعْد الشُّقّة، وكَثرة العدُوّ، فشقّ ذلك عليهم[4].

القُمّي ﷺ: وذلك أنّ رسول الله ﷺ لم يُسافر سفراً أبعد ولا أشدّ منه، وكان سَبب ذلك أنّ

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٥٨.　　٢. في النسخة: الدائمة.　　٣. تفسير الرازي ١٦: ٥٩.
٤. جوامع الجامع: ١٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

الصيّافة[١] كانوا يقدَمون المدينة من الشّام معهم الدُّرمُوك[٢] والطّعام وهُم الأنباط، فأشاعوا بالمدينة أنّ الرُّوم قد اجتمعوا يُريدون غَزو رسول‌الله ﷺ في عسكرٍ عظيم، وأنّ هِرَقل قد سار في جُنوده وجلَب معهم غَسّان وجُذام وبَهْراء وعامِلة، وقد قدِم عساكره البلقاء، ونزل هو حِمص، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيُّوء إلى تَبوك، وهي من بلاد البَلْقاء، وبعث إلى القَبائل حوله وإلى مكّة وإلى مَن أسلم مِن خُزاعة ومُزَينة وجُهَينة، وحثّهم على الجِهاد، وأمر رسول الله ﷺ بعَسكره فضُرِب في ثنيّة الوَداع، وأمر أهل جُدَة أن يُعينوا مَن لا قوّة له، ومَن كان عنده شيء أخرجه، وحمَلوا وقوّوا وحثّوا على ذلك. ثمّ خطَب خُطبة ورغّب النّاس في الجِهاد. قال: وقدِمتْ القبائل من العَرب ممّن استنفرهم، وقعد عنه قومٌ من المُنافقين[٣].

فهدّدهم الله سُبحانه على التّقاعُد عنه بقوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ أيُّها المؤمنون، ولا تخرُجوا إلى الجِهاد ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله في الدُّنيا ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ ويُهلككم إهلاكاً فظيعاً بالقَتل وغَلَبة العدُوّ والقَحْط ـ كما قيل[٤] ـ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم، وأطوع لأمر الله ﴿وَلاَ تَضُرُّوهُ﴾ بتثاقُلكم عن الجِهاد ونُصرة دينه ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من الضَّرَر، لكونه تعالى غنيّاً عن العالَمين، لا يحتاج في إنفاذ إرادته إلى مُعين، أو المُراد: لا تضُرّوا النبيّ شيئاً، لأنّ الله عَصَمه من النّاس، ووعده النّصر.

عن ابن عبّاس قال: المُراد مِن القوم الآخرين التّابعون[٥]. وقيل: أهل اليمن[٦]. وقيل: أبناء فارس[٧]. واحتَمل بعضٌ أن يكون المُراد: أن يُخرج النبي ﷺ مِن بين أهل المدينة وينصُره بالملائكة[٨].

ثمّ أكّد غِناه بقوله: ﴿وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التّعذيب والتّبديل وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، فإذا وعد بالعِقاب لا يُخلف وَعدَه. وهُو غايةُ التّهديد.

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ ٱللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٤٠]

---

١. أي الذين يأتون في الصيف.

٢. الدُّرمُوك: الثياب والبُسُط.

٣. تفسير القمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٢: ٣٤٢.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٢٩.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٦١.

٦ و٧. تفسير الرازي ١٦: ٦١، تفسير أبي السعود ٤: ٦٥.

٨. تفسير الرازي ١٦: ٦١.

ثمَ بالغ سُبحانه في إظهار غِناه عن نُصرتهم بقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ في غَزوة تَبوك، فإنّ الله ناصِره، وليستْ نُصرته من الله تعالى أمراً بديعاً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ وأعانه على أعدائه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قُريش من مكّة، بأن اجتمعوا على قَتله فخرج منها، حالَ كونه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ واحد الرّجلَين، ولَم يكُن معه إلّا أبوبكر.

في ذهاب الرسول ﷺ إلى الغار

روتْ العامّة: أنّ بعد تفرّق قُريش عن دار النّدوة، واتّفاقهم على قَتل النبيّ ﷺ في اللّيل، أتاه جَبرئيل عليه السلام فأخبره بمَكر قُريش، وأمره بمُفارقة مَضجعه تِلك اللّيلة، فقال ﷺ لعليّ: نَمْ على فِراشي واتّشِح بردائي هذا الحضرمي، وكان ﷺ يشهد العِيدين في ذلك الرّداء، فلمّا مضت عَتمة[1] من اللّيل ـ يعني ثُلثه ـ اجتمعت[2] قُريش على باب رسول الله ﷺ وكانوا مائة، فجعلوا يتطلّعون مِن شَقّ الباب ويرصُدون متى ينام فيثِبون عليه ويقتُلونه، فخرج ﷺ عليهم وهُم ببابه، وقرأ ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[3]، فأخذ الله أبصارهم عنه ﷺ فلَم يُبصروه حتّى خرج من بينهم[4].

وفي روايةٍ: أنّه ﷺ أخذ قبضةً من تُراب فَذرّها عليهم، فأتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمّداً، قال: فقد خيّبكم الله، والله خرج من بينكم محمّد، ثمّ ما ترك رجلاً منكم إلّا وضع في رأسه التُّراب، وانطلق لحاجته، أفما ترَون ما بكم، فوضع كُلّ رجلٍ منهم يده على رأسه فإذا عليه التُّراب.

فدخلوا على عليّ عليه السلام فقالوا له: يا عليّ، أين محمّد؟ قال: «لا أدري أين ذهب» وكان قد انطلق إلى بيت أبيبكر، فلمّا دخل عليه قال: «إنّ الله أذِن لي في الخروج» فقال أبوبكر: الصُّحبة يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي، قال: نعم، قال أبوبكر: خُذ إحدى راحلَتي هاتَين، فإنّي أعدَدْتُهما للخُروج، فقال ﷺ: «نعم، بالثُّمن» وهي الناقة القُصوى أو الجدعاء، وأمّا الناقة العضباء فقد جاء أنّ ابنته فاطمة تُحْشَر عليها.

ثمّ استأجر رسول الله ﷺ وأبوبكر رجلاً من بني الدُّئل ليَدلّهما على الطريق للمدينة؛ وكان على دين قُريش، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غارَ جَبل ثَور بعدَ ثلاث ليالٍ أن يأتي بالرّاحلتين صباح اللّيلة الثّالثة، فمكث ﷺ في بيت أبيبكر إلى اللّيلة القابلة، فخرجا إلى طرف الغار، فمشى ﷺ ليلته على طرف أصابعه حتّى حَفِيتْ رِجْلاه. إلى أن قالوا: ولمّا دخل رسول الله ﷺ الغار، أمر الله شجرة ـ وهي التي يُقال لها القَتاد، وقيل: أمّ غَيْلان ـ فنبتَتْ في وَجْه الغار، فسترتْه بفُروعها[5].

---

١. في النسخة: مضى قسمة.
٢. في النسخة: اجتمع.
٣. يس: ٣٦/١-٩.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٣١.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٢.

وقيل: إنّه ﷺ دعا تِلك اللّيلة شجرة كانت أمام الغار، فأقبلت حتّى وقفت على باب الغار، وكانت مثل قامة الإنسان[١].

وقيل: إنّه ﷺ مرّ على ثُمامة ـ وهي شجرة صغيرة ضعيفة ـ فأمر أبابكر أن يأخُذها معه، فلمّا صار إلى باب الغار أمره أن يجعلها على باب الغار، وبعث الله العنكبوت فنسجَتْ ما بين فُروعها نسجاً مُتراكباً كنسج أربعين سنة[٢].

فلمّا فقد المشركون رسول الله ﷺ شقّ عليهم وخافوا، وطلبوه بمكّة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافَة في كُلّ وجه ليقفوا أثره، فوجد الذي ذهب إلى جَبل ثَور أثره انتهى إلى الغار، فقال: هاهنا انقطع الأثر، ولا أدري ذهب يميناً أو شِمالاً، أو صَعِد على الجَبل، فأقبل فِتيان قُريش مِن كُلّ بطن بعِصِيّهم وسُيوفهم، فلمّا انتهوا إلى الغار قال قائلٌ منهم: ادخُلوا الغار، فقال اُميّة بن خلف: ما أرى أنّه أتى الغار، إنّ عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمّد، ولَو دخل فيه لَما نسَج العنكبوت، وعند ما حاموا حول الغار حزِن أبوبكر خوفاً على رَسول الله[٣].

أقول: لم يكُن لَه بحال الخوف على رسول الله ﷺ إن كان مؤمناً برِسالته وصِدق أخباره، معَ مُشاهدته المُعجزات العظيمة منه؛ كمجيء الشجر على باب الغار، ونَسج العنكبوت عليه، بَل إنّما كان خوفُه دليلاً على عدم إيمانه بالرّسول، وحَمله مُعجزاته على السِّحر، وعليه كان خوفُه على نفسه، بحيث كاد أن يعلوَ صوتُه ويطّلع المُشركون على كون الرسول في الغار، فنصر الله رسوله.

﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ والمُشركون على بابه ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ الرّسول ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ والذي معه فيه وهُو أبوبكر: ﴿لَاتَحْزَنْ﴾ ولا تخَف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بحِفظه وعَونه ﴿مَعَنَا﴾.

وإنّما قال: ﴿مَعَنَا﴾ ولم يقل: «معي» لعِلمه بعدم سُكون قلبه بقوله: «إنّ الله معي»، ولو كان خوفُه على الرسول ﷺ لكفى في زواله قوله: «إن الله معي»، كما أنّه كفى في تَسكين قلبَ عليّ عليه السلام حينَ نَومه في فِراش الرّسول أنّه ﷺ بشّره بسَلامة نفسه.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار: اسكُن، فإنّ الله معنا وقد أخذتْهُ الرِّعْدة وهُو لا يسكُن، فلمّا رأى رسول الله ﷺ حالَه قال له: أتُريد أن اُريك أصحابي من الأنصار في مَجالسهم يتحدّثون، واُريك جعفراً وأصحابه في البحر يغوصُون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيَده على وَجهه، فنظر إلى الأنصار يتحدّثون، وإلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون». الخبر[٤].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٣.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٣، وفيه: أربع سنين.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٣٤.
٤. الكافي ٨: ٣٧٧/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.

في استدلال العامة على فضيلة أبي‌بكر وردّه

ثمّ أعلم أنّه استدلّتْ العامّة بهذه الآية على فضيلة أبي‌بكر، وأن إيمانه كان حقيقيّاً بوُجوهٍ ضعيفةٍ نقلها الفخر الرازي[1]:

الأوّل: أنّه ﷺ إنّما ذهب إلى الغار لأجل أنّه كان يخاف الكُفّار مِن أن يقدِموا على قتله، فلَولا أنّه كان قاطعاً على باطن أبي‌بكر بأنّه كان مِن المؤمنين المُحقّين الصادقين الصدّيقين لَما أصحبه نفسَه في ذلك الموضع؛ لأنّه لَو جوّز أن يكون باطنه بخِلاف ظاهره لخافه من أن يدُلّ عليه أعداءه، وأيضاً لخافه من أن يقدِم على قتله[2].

وفيه: أنّه يُمكن أن النبيّ ﷺ كان قاطعاً بأنّه لَو لَم يصحَبه معه مَع استِدعائه المُصاحبة كان يُفسِد في أمره، وكان عالماً بأنّه يحفَظه من أعماله السّيئة، ومِن أن يُخبر الكُفّار بمكانه إذا صَحِبه، معَ عِلمه ﷺ بعدم قُدرته معَ ضَعف بَدنه وقَلبه على الإساءة إليه وإصابته بمَكروه.

الثّاني: أن الهِجرة كانت[3] بأمر الله، وكان في خِدمة رسول الله ﷺ. جماعةٌ من المؤمنين المُخلصين، وكانوا في النّسَب إلى شجرة رسول الله ﷺ أقرب من أبي‌بكر، فلَولا أنّ الله أمره بأن يستصحب أبابكر في تِلك القضيّة الهائلة لَما كان يستصحبه، ولا يخُصّه بهذه الصُّحبة، وتَخصيص الله إيّاه بهذا التّشريف دَلّ على مَنصِبٍ عالٍ له في الدّين[4].

وفيه: أنّ صَريح رِوايتهم أنّه حين مُلاقاته النبيّ واطّلاعه على هِجرته، التَمس منه الصُّحبة، فأجابه النبيّ إليها، ولو كان استِصحابه بأمر الله لبشّره النبيّ به في بَدْو مُلاقاته، مَع أنّه يُمكن أنّ الله أمر النبي باستِصحابه خاصّةً لحِكَم؛ منها أنّه لَو لَم يستصحِبْه وأبقاه في مكّة، لَم يكُن على إسلامه الظّاهري؛ لأنّه كان منه على حَرْف، فاقتضتْ الحِكمة حِفظ إسلامه ليَقضيَ [الله] أمراً كان مفعولاً.

الثّالث: أنّ كُلّ مَن سِوى أبي‌بكر فارقوا رسول الله ﷺ، أمّا هو فما سبق رسول الله كغيره، بَل صبر على مُؤانسته ومُلازمته وخِدمته، عند هذا الخوف الشديد الذي لَم يبق معه أحدٌ[5].

وفيه: أنّ المُراد من الخوف الشّديد الذي لَم يبقَ معه أحدٌ، هو الحاصل من اتّفاق قُريش على قتله في دار النّدوة، واجتِماعهم على باب داره، لذلك فالظّاهر أنّه لَم يطّلع عليه أحدٌ من الأصحاب حتّى أبي‌بكر؛ لأن النبيّ ﷺ اطّلع عليه في مَساء ذلك اليوم بإخبار جَبرئيل، ولم يكُن أبوبكر في مُلازمته وخِدمته، بَل ذهب النبيّ ـ على ما رَوَوه ـ إلى بيت أبي‌بكر في قُرب من نِصف اللّيل، بعد أن أمر عليّاً عليه السلام بالمبيت على فِراشه. وعلى صِدق الرِّواية لعلّه كان ذَهابه إلى بيته لأجل شِرائه ناقته

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٦٣.
٢. تفسير الرازي ١٦: ٦٣.
٣. في النسخة: كان.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٦: ٦٣.

والاختِفاء عنده.

الرّابع: أنّه تعالى سمّاه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ فجعله ثاني محمّد، حال كونهما في الغار[١].

وفيه: أنّ المُراد بَيان أنّ الله نَصَر النبي ﷺ بطريقٍ خارق للعادة، حيثُ أخرجه من بين أظهُر الكُفّار ولَم يكُن معه إلّا رجلٌ واحد وكان النبي ﷺ ثانيه. وعليه،

فلا شُبهة في أنّ المُراد من ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ الثاني في العدد لا الثاني في الفضيلة والرُّتبة والمَنزلة عندَ الله.

ولعَمري إنّ هذا في الوُضوح بمَكان لا يخفى على أحدٍ حتّى الأحمق العَيّ، فكيف بالفاضل الزكيّ؟ والعَجب من الفخر وأضرابه أنّهم تخيّلوا أنّ المُراد الثاني في المَنزلة، معَ أنّهم قالوا: إذا حضر اثنان يُقال لكُلّ واحدٍ أنّه ثاني اثنين، أي هُو أحدهما.

ثمّ قال الفخر: والعُلماء أثبتوا أنّ أبابكر كان ثاني محمّد ﷺ في أكثر المناصب الدّينيّة، فإنّه ﷺ لمّا أرسل إلى الخلق وعرَض الإسلام على أبي‌بكر آمن به أبوبكر، ثمّ ذهب وعرَض الإسلام على طلحة والزُّبير وعُثمان بن عفّان وجَماعة آخرين مِن أجلّة الصّحابة، والكُلّ آمنوا على يديه، ثمّ إنّه جاء بهم إلى رسول الله بعد أيامٍ قلائل، فكان هُو ثاني اثنين في الدَّعوة إلى الله[٢].

أقول فيه: أولاً: لا نُسلِّم أنّه آمن بدَعوته [أحد] إلّا قليلٌ ممّن كان إيمانه كإيمانه؛ كطلحة الذي قال: إنّ محمّداً يُحرّم علينا نِساءه ويتزوّج هُو بنسائنا، لَئِن أمات الله محمّداً لنركضنّ بين خَلاخيل نِسائه، كما ركض بين خَلاخيل نسائِنا[٣]. وكعُثمان الذي ملأتْ مَطاعِنُه الدّفاتر.

وثانياً: كان جعفر بن أبي طالب أولى منه بأن يكون ثاني اثنين محمّد ﷺ في الدّعوة، حيث إنّه هاجر إلى الحبشة وآمن بدَعوته النّجاشي وجَماعةٌ كثيرة.

ثمّ قال: وأيضاً كُلّما وقف رسول الله ﷺ في غزوة، كان أبوبكر يقِف في خِدمته ولا يُفارقه، فكان ثاني اثنين في مَجلسه[٤].

أقول فيه: إنّ وُقوفه عند رسول الله ﷺ في الغزوات كان لجُبنه وضَعف قَلبه، وعدم كونه من رِجال الحَرب وباذلاً مُهجته للنبيّ ﷺ، ولذا لم يكُن مِمّن بايع رسول الله ﷺ على الموت في غَزوة اُحُد، معَ كونه عنده ﷺ.

ثمّ قال: ولمّا مرِض رسول الله ﷺ قام مَقامه في إمامة النّاس في الصلاة، فكان ثاني اثنين[٥].

أقول: العجب مِمّن لا يستحي من القول الباطل، كيف لَم يقُل إنّه أقامه رسول الله ﷺ مَقامه في

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.
٢. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩٥، بحار الأنوار ١٧: ٢٧.
٤ و ٥. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

الإمامة، ليثبُت له الفَضل؟ فإنّ قيامه مَقامه في الإمامة بغير إذن الرّسول لا فضل فيه، معَ توهُّم النّاس أنّه أرسله الرّسول ﷺ للإمامة، بل هو غَصْبٌ لمَقامه وجُرأة عليه ﷺ، كما أنّه جلس مَجلسه وغصَب مِحرابه ومِنْبره وخِلافته.

ثمّ قال الفخر: وطعن بعضُ الحمقى من الرّوافض في هذا الوجه، وقال: كونه ثاني اثنين للرّسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعاً لكُلّ ثلاثة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[1]، ثمّ أنّ هذا الحُكم عام في حقّ الكافر والمؤمن، فلمّا لم يكُن هذا المعنى من الله تعالى دالاً على فضيلة الإنسان، فلأن لا يدُلّ من النبيّ ﷺ على فضيلة الإنسان كان أولى.

والجَواب: أنّ هذا تعسُّف بارز، لأنّ المُراد هناك: كونه تعالى معَ الكُلّ بالعِلم والتّدبير، وكونه مُطّلعاً على ضمير كُلّ أحد، أما هاهنا فالمُراد بقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ تَخصيصه بهذه الصِّفة في مَعرض التّعظيم، وأيضاً قد دلّلْنا بالوُجوه الثلاثة المُتقدّمة، على أنّ كونه معه في هذا الموضع، دليلٌ قاطع على أنه ﷺ كان قاطعاً بأنّ باطنه كظاهره، فأين أحدُ الجانبين من الآخر[2].

أقول فيه: إنّه قد بيّنا أن المُراد من كون النبي ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ كونه أحد الرّجُلَين، ولا دَلالة له على أنّ أبي‌بكر ثاني النبي وتاليه في الفضيلة والمَنزلة عندَ الله، وإنّما كان سَوق الكلام في بَيان عَظَمة النبيّ وأنّ الله ينصُره ولَو لَم يكُن معه أحدٌ؛ كما نصَره يومَ الغار ولَم يكُن معه إلّا رجل كان وُجوده كعدمه، فأين هذا من بَيان الفضيلة لأبي بكر؟ وقد أوضحنا أنّ الوُجوه الثلاثة التي ذكرها من التُّرّهات التي لا تصدُر من العُقلاء.

ولعَمري، إنّ الاعتِماد عليها في إثبات الفضيلة لمَن له شائبة الفضل مِن أقوى الشّواهد على غاية الحُمْق، بَل الآية دالّة على عَدم فضيلة لأبي‌بكر، وكونه ساقطاً من نظر الرّحمة حيثُ خَصّ سُبحانه النبي بنُزول السّكينة والتّأييد بالملائكة بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ورَحمته الخاصّة التي تُوجب اطمِئنان قلب نبيّه ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ دُون صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ وقومه في بَدْر وغيره من المَواطن ﴿بِجُنُودٍ﴾ من الملائكة لإعانته على أعدائه، وأنتُم ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

عن الرضا عليه السلام[3]: [قيل له]: إنّهم يحتجُّون علينا بقول الله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، [فقال عليه السلام]: «وما لَهم في ذلك من حُجّة، فوَ الله لقد قال الله: ﴿فأنزل الله سكينه على رسوله﴾ وما

---

١. المجادلة: ٥٨/٧. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٦٤.

٣. في النسخة: عن الصادق عليه السلام.

ذكره ـ يعني: أبابكر ـ فيها بخير». قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: «هكذا قرأتُها»[١].

وعن الباقر عليه السلام، ﴿فأنزل الله سكينته على رَسوله﴾ قال: «ألاترى أنّ السكينة [إنّما] نزلت على رسوله»[٢].

أقول: الرّوايتان مَحمولتان على إرادة بَيان مَرجع ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾، لا بيان أنّه كانت في الآية ﴿على رسوله﴾ بدل ﴿عَلَيْهِ﴾ فحُرّفت.

ثمّ بيّن سُبحانه نتيجة نُصرته لرَسوله بقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ الله بقُدرته الكاملة ﴿كَلِمَةَ﴾ الشِّرك التي قالها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هي ﴿السُّفْلىٰ﴾ والدُّنيا أبداً إلى آخر الدُّنيا ﴿وَكَلِمَةُ ٱللهِ﴾ وهي تَوحيده، ورِسالة رسوله صلى الله عليه وآله، وصِحّة دينه ﴿هِيَ﴾ بالخُصوص الكلمة ﴿ٱلْعُلْيَا﴾ والأقوى بحيث لا تَعلو عليها كلمةُ باطل ﴿وَٱللهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره، وقادر على اضمِحلال الباطل وتَجْلية الحقّ ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وقضائه.

ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[٤١]

ثمّ أكّد سُبحانه الأمر بالجِهاد بقوله: ﴿ٱنفِرُوا﴾ أيُّها المؤمنون، واخرُجوا إلى الجِهاد جميعاً، حالَ كونكم ﴿خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ ورُكباناً ومُشاةً، أو شباباً وشُيوخاً، أو أغنياء وفُقراء، أو أصِحّاء ومَرضى، أو نُشّاطاً وغير نُشّاط، أو عزّاباً ومُتأهّلين، أو مُقلّين لسِلاحٍ أو مُكثِرين. وقيل يعني: على كُلّ حال[٣] ـ ﴿وَجَاهِدُوا﴾ الكُفّار ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وابذُلوهما ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ونُصرة دينه ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الجِهاد وبَذل الأموال والأنفس ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في الدُّنيا والآخرة من تَركه والاستِراحة والاشتِغال بلذّات الدُّنيا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ونتائج الأعمال، وتُدركون الخَير والنَّفع.

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[٤٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد التّرغيبات الكثيرة إلى الجِهاد، والتّهديد على التخلُّف عنه، وبّخ المُتخلّفين عنه

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٢٥/٢٣٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٢٦/٢٣٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤٤.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٦٧.

والمُتباطئين فيه بقوله: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دُعيتُم[1] إليه من غَزوة تَبوك ﴿عَرَضاً﴾ وغُنماً من أموال الدُّنيا ﴿قَرِيباً﴾ إليهم، وسَهلاً عليهم ﴿وَ﴾ كان ﴿سَفَراً قَاصِداً﴾ ومُتوسِّطاً لا تَعَب فيه ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ فيه، وأطاعوا أمرك به طَمعاً في الغَنيمة ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ﴾ مَسافة تَبوك وكثُرت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ والكُلفة، ولِذا يتخلَّفون عنك، ويتقاعدون فيه ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ اعتِذاراً إليك بعدَ رُجوعك إليهم فاتحاً ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ وأمكننا الخُروج من حيث التَّهيئة وصِحّة البَدن ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى السَّفر والغَزو، وما تخلّفنا عنكم. وهُم بتخلُّفهم عن الغَزو، وعِصيانهم الرَّسول ﷺ، وحَلفهم الكاذب، ويَمينهم الفاجرة ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالعذاب الدُّنيوي والأُخروي ﴿وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في دَعوىٰ عدم استِطاعتهم للخُروج.

عَفَا ٱللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ [٤٣]

ثمَ لمّا كان النبيّ ﷺ مأموراً بالرِّفق والمُداراة مع البَرّ والفاجر، فلهذا أذِن للمُنافقين في التخلُّف رِفقاً ومُداراةً لهم وتقبُّلاً لأعذارهم، أظهر الله سُبحانه غاية الغَضب عليهم بتَوجيه العِتاب إلى نبيّه ﷺ على الإذْن، بعدَ المُبالغة في تعظيم نبيّه ﷺ أوّلاً بقوله: ﴿عَفَا ٱللهُ عَنكَ﴾ حيث إنّ هذا الدُّعاء - على ما قيل - كان شائعاً في مَقام تعظيم الأعاظم والمُلوك. ثمّ وجّه العِتاب بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلُّف عنك في هذا الغَزو، ولَم تتأنّ في الإذن ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ﴾ المُعتذرون ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في اعتِذارهم من عدم خُروجهم إلى السَّفر بعدَم استِطاعتهم للخُروج مِن حيثِ المال والبَدن ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ منهم في اعتِذارهم، فإنّك لو توقّفتَ في إذنهم لعلِمتَ أن جميعهم كانوا كاذبين، وافتضح كُلّهم عندك بالنِّفاق.

عن الباقر عليه السلام: «يقول لتعرف أهل العُذر[2]، والذين جلسوا بغير عُذر»[3].

وفي (الجوامع): هذا من لطيف المُعاتبة الذي بدأه بالعَفْو قبل العِتاب، ويجُوز العِتابُ من الله فيما غيره [منه] أولى لا سيّما للأنبياء، وليس كما قال جار الله من أنّه كِناية عن الجِناية، وحاشا سيّد الأنبياء وخَير بني حَوّاء مِن أن يُنسب إليه الجِناية، انتهى[4].

ومِن التّفسير الذي ذكرنا يُعلم أنّه لا يَحتاج المَقام إلى الالتِزام بصُدور خِلاف الأولى منه ﷺ

---

١. في النسخة: ما دعوتم.
٢. في تفسيري العياشي والصافي: الغَدر.
٣. تفسير القمي ١: ٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٤٥.
٤. جوامع الجامع: ١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣٤٥.

واستِحقاقه العِتاب عليه، بَل الاستِفهام كِناية عن بَيان عدم قابليّة[1] هؤلاء للرِّفق بهم، وإن كان من شأن النبيّ هذا الرِّفق.

لاَ يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ[٤٤]

ثمّ نبّه سُبحانه على علامة الخُلوص بقوله: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ عن صَميم وخلوص النيّة ﴿بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ وليس من دأبهم الاستِجازة في ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ الكُفّار ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بَل يُبادرون إلى الجِهاد شوقاً إليه بِلا انتِظار لإذْنك، فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلُّف عنه. وقيل: إنّ المعنى: ليس مِن عادتهم أن يستأذنوك في التخلُّف كَراهة أن يُجاهدوا ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ ومُطّلع على أحوالهم وضمائرهم، ويُجازيهم بأحسن الجَزاء.

قال الفخر الرّازي: كان الأكابر مِن الصّحابة لا يستأذنون رسول الله ﷺ في الجِهاد، وكانوا بحيث لَو أمرهم رسول الله ﷺ بالقُعود عنه لشقّ عليهم ذلك، ألاترى أنّ عليّ بن أبي طالب لمّا أمره رسول الله ﷺ بأن يبقى في المدينة شقّ عليه ذلك، ولَم يرضَ إلى أن قال له الرّسول ﷺ: «أنت منّي بمنزلة هارون مِن موسى»؟[2]

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ[٤٥]

ثمّ بيّن سُبحانه علامة النِّفاق بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ المُنافقون ﴿ٱلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ﴾ عن صَميم القلب ﴿بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ في التخلُّف عن الجِهاد ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وخلَجتْ للشكّ فيها لا للجَزم بعدمها ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ وشكّهم المُستقرّ في قُلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ ويتحيّرون. وإنّما استعمل التَردُّد في التحيُّر؛ لأنّ عادة المُتحيّر التردُّد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن تردّد في الرّيب سبَقه الأوّلون، وأدركه الآخرون، ووطِئته سَنابك الشّياطين»[3].

وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِن كَرِهَ ٱللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ

---

١. مراده عدم استحقاق.
٢. تفسير الرازي ١٦: ٧٦.
٣. الخصال: ٧٤/٢٣٣، تفسير الصافي ٢: ٣٤٦.

اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ[٤٦]

ثمّ بيّن الله سُبحانه عدم إرادة المُنافقين المُعتذرين من أولَ الأمر الخُروج إلى تَبوك بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى تَبوك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ وتهيّأوا لسَفرهم في وقته ﴿عُدَّةً﴾ وأهْبة، عن ابن عبّاس: يُريد الزّاد والماء والرّاحلة؛ لأن سَفرهم بعيد وفي زَمان شديد، فَتركُهم العُدَة دليلٌ على أنّهم أرادوا التخلّف[١]، وَلو أراد الله خُروجهم بالإرادة التّكوينيّة، لخَرجوا وجاهدوا معكم ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ ونُهوضهم للخُروج لِما فيه من المَفاسد ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ وحبَسهم عن الخُروج بإلقاء الجُبن في قُلوبهم، والكَسل عليهم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم مِن قِبَل الرّسول ﷺ: أيّها المُنافقون ﴿اقْعُدُوا﴾ في أماكنكم ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ في بُيوتهم من النّساء والصّبيان. وفيه غاية ذَمّهم بإلحاقهم بالعَجَزة.

والظّاهر أنّ هذا القول هُو إذنهم الذي عاتب الله عليه بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

وقيل: إنّ القائل هُو الله؛ لأنّه كرِه انبِعاثهم، فنزل مَنزلة الأمر بالقُعود[٢].

وقيل: إنّ القائل بعضُهم[٣]، وقيل: هُو الشّيطان بوَسْوَسته[٤].

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[٤٧]

ثمّ شرَح الله مَفاسد خُروجهم بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُمْ﴾ أيُّها المُسلمون إلى الغَزو ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالاً﴾ وشرّاً ومَكراً وخَديعةً، أو غَيّاً أو اضْطراباً في الرأي، بالتّجبين و تَهويل أمر الكُفّار ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ومشَوا ﴿خِلاَلَكُمْ﴾ وفيما بينكم بالنميمة[٥]، أو أسرعوا رَكائبهم بينكم بإلقاء العَداوة، وما يُوجب الانهِزام فيكم، وهُم ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ ويطلُبون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ واختِلاف الكلمة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾ ونمّامون وجَواسيس ﴿لَهُمْ﴾ لينقُلوا إليهم ما سمِعوه منكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ومُحيط ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ظَواهرهم وبَواطنهم، أقوالهم و أعمالهم.

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ[٤٨]

ثمّ أخبر الله بأنّ التفتين هُو دأبهم السّابق بقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا﴾ وطلَبوا ﴿الْفِتْنَةَ﴾ والاختِلاف بين

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٧٨.

٢ ـ٤. تفسير الرازي ١٦: ٨٠، تفسير أبي السعود ٤: ٧١.

٥. في النسخة: بالنمام.

أصحابك **﴿مِن قَبْلُ﴾** قيل: هُو صَدُّ النّاسِ عن الدُّخول في الإسلام[١]. وقيل: هو ما فعله عبد الله بن أُبيّ يومَ أُحُد من انصِرافه مع أصحابه عن النبيّ ﷺ[٢]، وقيل: هو أن اثني عشر من المنافقين وقفوا على ثَنِيَة الوَداع ليلة العقبة ليفتِكوا به، فأخبره الله بذلك[٣]، وقيل: هُو إلقاؤهم شيئاً بين قوائم ناقة النبيّ باللّيل حتّى تنفِر وتُلقي النبيّ ﷺ عن ظهرها[٤] وقيل: هُو قولهم يومَ الأحزاب: **﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾**[٥] والحقّ أنّ الكُلّ داخل في الفِتنة.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبّروا في إطفاء نُورك الحِيَل، وكانوا مُصرّين ومُستمرّين على ذلك **﴿حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ﴾** من النّصر والتّأييد لك **﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللهِ﴾** ونُشِر دينُه وعلا شرفُه، على رغمٍ منهم **﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾** لذلك.

وحاصل المُراد: أنّه لَم يُؤثّر مَكرُهم وسَعيُهم في إثارة الفِتنة شيئاً، بَل كُلّما مكَروا رَدّ الله مَكرهم في نَحرهم، وقلَب مرادهم، وأتى بضِدّ مَقصودهم، وكذلك يكون فيما بعد. وفيه تسلية النبيّ ﷺ وأصحابه.

وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ٱئْذَن لِى وَلاَ تَفْتِنِّى أَلاَ فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [٤٩]

ثمّ بالغ سُبحانه في ذمّهم بقوله: **﴿وَمِنْهُم مَن يَقُولُ﴾** لك يا رسول الله: **﴿ٱئْذَن لِي﴾** في الإقامة في البلد، والقُعود عن السّفر **﴿وَلاَ تَفْتِنِّي﴾** ولا تَبْتَلِني بالوُقوع في عِصيانك بالقُعود بغَير إذنك، أو لا تُهلكني بسَبب السّفر في شِدّة الحَرّ معَ ضَعف الحال وقِلّة الطّاقة، أو لا تَبْتَلِني بتَلف العِيال والمال.

قيل: إنّه قال الجَدّ بن قيس: قد علِمتْ الأنصار أنّي مُغرَم بالنّساء، فلا تَفْتِنّي ببنات الأصفر ـ يعني: نِساء الرُّوم ـ لكنّي أُعينُك بمالي فاترُكْني[٦].

ثمّ ردّهم سُبحانه بقوله: **﴿أَلاَ﴾** تنبّهوا أيُّها المسلمون أنّهم **﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾** والشرّ من الكُفر بالله ورسوله وعِصيانهما **﴿سَقَطُوا﴾** وفي الخوف من المُسلمين والفضيحة بينهم بظُهور النِّفاق والحِرمان من السّعادات الدُّنيويّة والأُخرويّة وقعوا في الدُّنيا **﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾** في الآخرة **﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** لإحاطة أسباب دُخولها بهم في الدُّنيا، وهؤلاء المُنافقون منهم.

القُمّي: لقي رسول الله ﷺ الجَدّ بن قيس فقال له: يا أبا وهب، ألا تنفِر معنا في هذه الغَزوة، لعلّك

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٨٣.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٦: ٨٣، تفسير أبي السعود ٤: ٧١.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٤٣.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٤٣، والآية من سورة الأحزاب: ١٣/٣٣.
٦. تفسير الرازي ١٦: ٨٣.

أن تُختَفَد من بَنات الأصفر[1]؟ فقال: يا رسول الله، والله إنّ قومي ليعلَمون أنّه ليس فيهم أحدٌ أشدَّ عجباً بالنِّساء منّي، وأخاف إن خرجتُ معك أن لا أصبِر إذا رأيتُ بناتَ الأصفر؛ فلا تَفتِنّي، وأْذَن لي أن اُقيم. وقال لجَماعة من قومه: لا تخرُجوا في الحرّ، فقال ابنُه: ترُدّ على رسول الله وتقول ما تقول، ثمّ تقول لقومك لا تنفِروا في الحرّ! والله لينزلَنّ اللهُ في هذا قُرآناً يقرأه النّاس إلى يومِ القيامة، فأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ٱئْذَن لِي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾ الآية. ثمّ قال الجَدُ بن قيس: أيطمع محمّد أنّ حرب الرُّوم كحرب غيرهم، لا يرجِع من هؤلاء أحدٌ أبداً[2].

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ[٥٠]

ثمّ بيَن الله شِدّة عَداوتهم للرّسول، وحَسدهم عليه بقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا محمّد في غَزواتك وغيرها ﴿حَسَنَةٌ﴾ وفائدةٌ من ظَفر وغَنيمة وغيرها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتُحزِنهم، ذلك لفَرط عَداوتهم وحَسدهم عليك ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في غَزواتك ﴿مُصِيبَةٌ﴾ من جِراحةٍ، وشِدّة، وقَتل أصحابك كيومِ اُحُد ﴿يَقُولُوا﴾ فرحاً وشُكراً: نحن بحُسن آرائنا ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ وراعَينا حَزمنا ﴿مِن قَبْلُ﴾ باعتِزالنا في تِلك الواقعة فسلِمنا ممّا أصابهم ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ ويُعرضوا عن مَجلس أصحابهم إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مَسرورون بمَصائبك وسَلامة أنفسهم بقعُودهم عن الحرب.

القُمّي:عن الباقر عليه السلام: «أمّا الحَسنة فالغنيمة والعافية، وأمّا المُصيبة فالبَلاء والشِدّة»[3].

قُل لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَاكَتَبَ ٱللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ[٥١ و ٥٢]

ثمّ أمر الله رسوله ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَن يُصِيبَنَا﴾ شيءٌ من خيرٍ أو شرٍّ، أو رَخاءٍ أو شِدّةٍ أبداً ﴿إِلَّا مَاكَتَبَ ٱللهُ﴾ في اللّوح وقَدّره ﴿لَنَا﴾ فإنّه ما من حادثةٍ إلّا وهي مُنتهيةٌ إلى قضائه وقَدَره.

قيل: إنّ المُراد: ما كتَب الله لنا في عاقبة الأمر من الظَّفَر والغَلَبة على الأعداء، وإن أصابنا في أوّل

---

١. أي تُخْدَم من بنات الروم بعد أسرهنّ.
٢. تفسير القمي ١: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٧.
٣. تفسير القمي ١: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

الأمر شِدَّةً. فيكون فيه ردّ لفرحهم.

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿مَوْلَانَا﴾ ومُدبّر اُمورنا، وحافظ صَلاحنا، واللّطيف بنا، لا يُريد إلّا ما هُو خيرُنا وصَلاحُنا.

ثمّ ذكر ما هُو لازم مَعرفته بالوِلاية بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللهِ﴾ خاصّة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليعتمد العارفون في جميع اُمورهم عِلماً منهم بغاية فَضله، وسَعَة رَحمته عليهم، وعدم كون أحدٍ وشيءٍ من المَوجودات مَنشأ خيرٍ أو شرّ.

رُوي أنّه «لا يكمُل إيمانُ المرء حتّى يرى النّاس كأباعير»[١].

ثمّ ردّهم ثانياً بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ وتنتظِرون ﴿بِنَا﴾ أيّها المُنافقون شيئاً ﴿إِلَّا إِحْدَى﴾ العاقبتين ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إمّا الثّواب العظيم المُعَدّ للشُّهداء في الآخرة، والأجر الجَزيل على تحمُّل الشّدائد إن صِرنا مَغلوبين، وإمّا الغَنيمة والشّوكة ورَواج الإسلام مع الأجر إن صِرنا غالبين، ليس لكم أن تَوَدُّوا[٢] فينا غير العاقبتين المَذكورتين، وكُلّ واحدة منهما في غاية الجَلالة والرِّفعة ﴿وَ﴾ إنّا ﴿نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ وننتظِر في حقّكم إحدى العاقبتين السيّئتين إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللهُ﴾ في الدُّنيا ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيمٍ كائنٍ ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ من الصَّيحة والرَّجفة والصاعقة وغيرها، كما أصاب مَن قبلكم مِن الأمَم الظّالمة المُهلَكة ﴿أَوْ﴾ عذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ من القَتل والأسر، فإذا كان كذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظِروا عاقبتَنا وعاقبتَكم ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ذلك.

عن (النهج) و (الكافي): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وكذلك المَرء المُسلم البريء من الخِيانة ينتظر إحدى الحُسنيين؛ إمّا داعي الله، فما عندَ الله خيرٌ له، وإمّا رِزق الله، فإذا هُو ذو أهلٍ ومالٍ ومعه دينه وحَسَبه»[٣].

وعن الباقر عليه السلام، ﴿إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ قال: «إمّا موتٌ في طاعة الله، أو إدراك ظُهور الإمام، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِهِمْ﴾ معَ ما نحن فيه من الشِّدة ﴿أَن يُصِيبَهُمُ ٱللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ﴾ قال: هُو المَسخ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ وهُو القتل، قال [الله عزّ وجلّ]: ﴿فَتَرَبَّصُوا ...﴾ قال: التربُّص انتِظار وُقوع البَلاء بأعدائهم»[٤].

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ [٥٣]

---

١. بحار الأنوار ٧٢: ٥١/٣٠٤. «نحوه».   ٢. في النسخة: تتوددون.

٣. نهج البلاغة: ٢٣/٦٤، الكافي ٥: ٦/٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

٤. الكافي ٨: ٤٣١/٢٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٤٨.

ثمَ لمّا بيّن الله أنّ المنافقين مُستحقّين للعذاب، وأنّ جهنم مُحيطةٌ بهم، بيّن أنّ نَفقاتهم وصَدقاتهم غير مَقبولةٍ عندَ الله، وغير نافعةٍ لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المُنافقون: ﴿أَنفِقُوا﴾ على الفقراء والمجاهدين إن شِئتُم ﴿طَوْعاً أَوْ﴾ إن شِئتُم ﴿كَرْهاً﴾ واعلَموا أنّها على أيّ التقديرين ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ عندَ الله، ولَن تُثابوا عليها أبداً لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

ثمّ نبّه على العِلّة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيُّها المُنافقون ﴿كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن حُدود الإسلام إلى الكُفر.

عن ابن عبّاس: نزلتْ في الجَدّ بن قيس حين قال للنبيّ ﷺ: ائذَن لي في القُعود، وهذا مالي أُعينك به[١].

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ ٱلصَّلاَةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ[٥٤]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ الفِسق المانع عن قَبول الصّدقات هُو البالغ حَدّ الكُفر بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ وحرَمهم من ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ ويُثابون عليها شيئاً ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ وبدين الإسلام، ﴿وَ﴾ لِذا ﴿لاَ يَأْتُونَ ٱلصَّلاَةَ﴾ جَماعةً أو فرادى ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ ومُتثاقلون ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ﴾ أموالهم على الفُقراء والمُجاهدين ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ للإنفاق لعدَم اعتِقادهم النّفع فيهما، وعدم خَوفهم من العِقاب على تركهما.

رُوي أن الجَدّ بن قيس تاب بعد ذلك من نِفاقه، وحسن حالُه، ومات في خلافة عُثمان[٢].

عن الصادق عليه السلام: «لا يضُرّ معَ الإيمان عملٌ، ولا ينفعُ مع الكُفر عملٌ، ألاترى أنّه تعالى قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ الآية؟»[٣].

فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[٥٥]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ أموالهم وأولادهم مع أنّهما لا ينفعانهم في الدُّنيا، يكونان وبالاً عليهم واستِدراجاً في الدُّنيا، بقوله: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ﴾ ولا يحسُن في نظرك ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾ التي يظُنّون انتِفاعهم بهما، فإنّه ليس الأمر كما يظُنّون، بَل ﴿إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ﴾ أن يُملي لهم فيهما ﴿لِيُعَذِّبَهُم

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٨٨.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٤٨.
٣. الكافي ٢: ٣/٣٣٥، تفسير الصافي ٢: ٣٤٩.

﴿بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أمّا تَعَذُّبهم بالمال فبسَبب كَثره التَّعَب في جَمعها وحِفظها، والخَوف من تَلَفها، والحُزن على ذَهابها؛ وبالأولاد فبسَبب الابتِلاء بنَفَقتهم، وأمراضهم، وسُوء أخلاقهم، والحُزن على فِراقهم ومَوتهم ﴿وَ﴾ لأن ﴿تَزْهَقَ﴾ وتخرُج ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ وأرواحهم من أبدانهم ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لكون اشتِغالهم بهما سبباً لغَفلتهم عن التفكُّر في آيات التَوحيد والمَعاد.

روى بعضُ العامّة: أنّه سَأل مُعاوية امرأةً كانت تعرِف علياً عليه السلام، فقال لها: كيف رأيتِ علياً؟ قالت: كان رجلٌ لَم يُبطِره المُلك، ولم تُعجِبْه النِّعمة[1].

وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ[٥٦ و ٥٧]

ثمّ بيّن الله سُبحانه شِدّة نِفاق المنافقين، وإظهارهم المُوافقة للمؤمنين الخُلّص[2] بقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ نِفاقاً وكَذباً لكم ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ وفي زُمرتكم، وإيمانهم كإيمانكم ﴿وَمَا هُمْ مِنكُمْ﴾ ومن جُملتكم لكُفرهم وخُبث ذاتهم ﴿وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ويخافون منكم، ولِذا يُظهرون الإسلام تقيّةً، ويُؤكّدون دَعوتهم بالأيمان الفاجرة الكافرة.

ثمّ بيّن الله غاية خوفهم من المسلمين بقوله: ﴿لَوْ﴾ كانوا ﴿يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مَلْجَأً﴾ وحِصناً حصيناً يلجأون إليه، ويتحصّنون به من بأسكم ﴿أَوْ﴾ يجِدون ﴿مَغَارَاتٍ﴾ وكُهوفاً في الجِبال يختفون فيها، ويستتِرون منكم ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ ونَقْباً في الأرض يدخُلون فيه، أو قوماً يدخُلون فيهم وهُم يحفَظونهم، أو لا يُعرَفون من بينهم.

وعن الباقر عليه السلام: «أسراباً في الأرض»[3]، وعن القُمّي: موضعاً يلجأون إليه[4].

﴿لَوَلَّوْا﴾ وفرّوا ﴿إِلَيْهِ﴾ منكم فَرَقاً وخوفاً ﴿وَهُمْ﴾ في فِرارهم ﴿يَجْمَحُونَ﴾ ويُسرعون إسراعاً لا يُردّهم شيءٌ، وإنّما لَم يفِرّوا منكم، وبقَوا فيكم يُعاشرونكم، لأنّهم لا يجِدون المفرّ، ولِذا اضطرّوا إلى النِّفاق، ويحلِفون كَذِباً أنّهم لمِنكم ليُؤمّنوا أنفسهم من الأسر، وأموالهم من النَّهب، ولو يجِدون لأنفسهم حِيلةً غير النِّفاق لم يُنافقوا، بَل أظهروا كُفرهم وشِقاقهم.

وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ[٥٨]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٥٠.

٢. في النسخة: الخُلّصين.

٣. مجمع البيان ٥: ٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

٤. تفسير القمي ١: ٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ [ما] في بعضهم [من] الطّمع في الغَنائم والصّدقات بعثهم إلى النّفاق مُضافاً إلى الخَوف، بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ﴾ ويعيبُك ﴿فِي﴾ قِسمة ﴿ٱلصَّدَقَاتِ﴾ ويطعَنون عليك بأنّك تجُور فيها.

قيل: إنّهم كانوا يقولون: إنّه ﷺ يُؤثر بها أقاربه وأهل مودّته[1].

عن أبي سعيد الخُدري: بَيْنا رسول الله ﷺ يُقسّم مالاً، إذْ جاءه المِقداد بن ذي الخويصرة التّميمي؛ وهُو حُرقُوص بن زُهير، أصل الخَوارج، فقال: اعدِل يا رسول الله، فقال: وَيْلك، ومَن يعدِل إن لَم أعدِل!» فنزلتْ الآية[2].

وعن الكلبي: قال رجلٌ من المنافقين يُقال له أبو الجواظ لرَسول الله ﷺ: تزعُم أنّ الله أمرك أن تضع الصّدقات في الفُقراء والمَساكين ولَم تضعها في رِعاء الشّاء[3]. فقال رسول الله: «لا أباً لك، أما كان موسى راعياً، أما كان داود راعياً؟!» فلمّا ذهب قال ﷺ: «احذَروا هذا وأصحابه فإنّهم مُنافقون»[4].

ورُوي أنه ﷺ قال لرجُلٍ من أصحابه: «ما عِلمك بفُلان؟» فقال: ما لي به عِلمٌ، إلّا أنّك تُدنيه في المجلس، وتُجزل له العَطاء فقال ﷺ: «إنّه مُنافق أُداري عن نِفاقه وأخاف أن يُفسد عليّ غيره». فقال: لَو أعطيتَ فُلاناً بعضَ ما تُعطيه؟ فقال ﷺ: «إنّه مؤمن أكِلُه إلى إيمانه، وأمّا هذا فمُنافق أُداريه خوفَ إفساده»[5].

ثمّ نبّه سُبحانه على أنّ الباعث لهم على لَمْز الرّسول ﷺ كَثرة طَمعهم، بقوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ قَدر ما يُريدون ويطمَعون ﴿رَضُوا﴾ بالقِسمة واستحسنوها ﴿وَإِن لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ ذلك المِقدار، بَل أقلّ مِمّا طمِعوا ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ القِسمة ويغضبو منها[6] فوراً، بحيث لَم يُمكنهم التحمُّل والتأخير لِما اُجبِلوا عليه من حُبّ الدُّنيا والشَّرَه في تحصيلها.

عن القُمّي: لمّا جاءت الصّدقات جاء الأغنياء وظنُّوا أنّ رسول الله ﷺ يُقسّمها بينهم، فلمّا وضعها في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولَمزوه وقالوا: نحنُ الذين نقوم في الحَرب، ونَنفِر معه، ونُقوّي أمره، ثمّ يدفع الصّدقات إلى الذين لا يُعينونه ولا يُغنون عنه شيئاً[7].

عن الصادق عليه السلام: «أهلُ هذه الآية أكثر من ثُلثَي النّاس»[8].

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.
٢. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.
٣. في النسخة: وعاء الشاة.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٦: ٩٧.
٦. في النسخة: يغضبونها.
٧. تفسير القمي ١: ٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.
٨. تفسير العياشي ٢: ١٨٣٠/٢٣٤، مجمع البيان ٥: ٦٣، الكافي ٢: ٤/٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٠.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاآتَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ سَيُؤْتِينَا ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللهِ رَاغِبُونَ[٥٩]

ثمّ وبّخهم الله سبحانه ولامهم على سَخَطهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاآتَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾ وطابتْ أنفسُهم به وإن قَلّ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ﴾ وكفىٰ فضلُه وإحسانُه إلينا في جميع الأوقات، [سواء]كان لنا نصيبٌ في الصَدقات أو لَم يكُن، وإن قلّتْ قِسمتنا في هذه الصَدقات الحاضرة نرجو أنّه ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في قِسمة أُخرىٰ، ويُعطيانا[1] فيها أكثر مِمّا أعطيانا في هذه القِسمة ﴿إِنَّا إِلَى ٱللهِ رَاغِبُونَ﴾ ومُتوجّهون، ومنه طالبون أن يُغنينا من فضله، ويُوسّع علينا بجُوده وكَرمه، لكان خيراً لهم وأقوم من لَمز الرّسول والسَّخَط عليه.

وفي تقرين الله تعالى اسمَه العظيم باسْم رسوله في الموضعين، دَلالةٌ على غاية تعظيم الرّسول ﷺ، وتنبيه على أنّ مايفعله إنّما يكون بأمره.

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٦٠]

في بيان مصارف الزكاة

ثمّ بيّن الله سُبحانه مَصارف الصَّدقات لِئلّا يُطعن على رسوله ﷺ في صَرفها فيها بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ﴾ الواجبة من قِبَل الله على عِباده، المَوسومة بالزّكاة تكون ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ﴾ وقد مرّ تفسيرهما ﴿وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ والسّاعين لجَمعها وحَملها وحِفظها، [سواء أ]كانوا أغنياء أو فقراء، من بني هاشم أو من غيرهم ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من الكُفّار ﴿وَ﴾ للصّرف ﴿فِي﴾ فَكّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ وتَحرير المَماليك؛ بأن يُعان المُكاتَبون بشيءٍ منها على أداء مال الكِتابة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْغَارِمِينَ﴾ والمَديونين؛ بأن تُؤدّى دُيونُهم إذا لَم يقدِروا على أدائها، ولَم يَدِنْ[2] في المعصية ﴿وَ﴾ يُصرَف ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ووُجوه الخير؛ من تهيئة السِّلاح لِجهادٍ، والمَصارف اللّازمة لتَجهيز الجيش، وعِمارة الطُّرق والشّوارع والقَناطر والحمّامات العامّة والرِّباطات[3] وأضرابها، وتعظيم شعائر الله ﴿وَ﴾ في ﴿ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد مضى تفسيره.

وفي العُدول في الأصناف الأربعة الأخيرة من (اللام) إلى (في) دلالةٌ على عدم صَيرورة الزّكاة مُلكاً

---

١. في النسخة: ويعطيناني.
٢. كذا، والظاهر: يستدن.
٣. يُريد به رِباط الخيل ومَرابطها في الثغور ممّا يلي العَدُوّ.

للأربعة الأخيرة.

ثمَ أكّد الله سبحانه وجوب الزّكاة وصَرفها في المَصارف الثمانية دُون غيرها بقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ﴾ قِبَل ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى فالتزِموا بها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمَصالح العِباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأحكامه.

القُمّي: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن المَصارف الثمانية، فقال: «الفُقراء: هُم الذين لا يسألون، وعليهم مَؤونات من عِيالهم، والدّليل على أنّهم هُم الّذين لا يسألون قولُ الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... لاَ يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾[1]، والمساكين: هُم أهل الزّمانة[2] من العِميان والعِرجان والمَجذومين، وجميع أصناف الزُّمناء من الرّجال والنِّساء والصِّبيان، والعاملين عليها: هُم السُّعاة والجُباة في أخذها وجَمعها وحِفظها حتّى يُؤدّوها إلى مَن يُقسّمها، والمُؤلّفة قُلوبهم: قومٌ وحّدوا الله ولَم تدخُل المعرفة في قلوبهم أنّ محمداً رسول الله، [فكان رسول الله صلى الله عليه وآله] يتألّفهم ويُعلّمهم كيما يعرفون، فجعل الله لهم نصيباً في الصّدقات لكي يعرِفوا ويرغَبوا، وفي الرِّقاب: قومٌ قد لزِمهم كفّارات في قَتل الخطأ، وفي الظِّهار، وقتل الصيد في الحَرم، وفي الأيمان، وليس عندهم ما يُكفّرون وهُم مؤمنون، فجعل الله لهم سَهماً في الصّدقات ليُكفّر عنهم، و«الغارمين» قوم قد وقعتْ عليهم دُيون أنفقوها في طاعة الله من غير إسراف، فيجب على الإمام أن يقضي ذلك عنهم، ويكفيهم من مال الصّدقات، و«في سبيل الله» قوم يخرُجون في الجِهاد وليسَ عندهم ما يُنفقون، أو قومٌ من المسلمين ليسَ عندهم ما يحُجّون به، أو في جميع سبُل الخير، فعلى الإمام أن يُعطيهم من مال الصّدقات حتى يتقوّوا به على الحَجّ والجِهاد و«ابن السبيل» أبناء الطريق الذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيُقطع عليهم ويذهَب مالُهم، فعلى الإمام أن يرُدّهم إلى أوطانهم من مال الصّدقات. والصّدقات تتجزأ في ثَمانية أجزاء فيُعطى كُلّ انسان من هذه الثمانية على قَدر ما يحتاجون إليه بلا إسراف ولا تقتير، يقوم في ذلك الإمام يعمل بما فيه الصّلاح»[3].

أقول: الظاهر أنّ تجزئة الزّكاة ثمانية أجزاء وظيفةُ الإمام عندَ بَسط يده.

وعن الباقر عليه السلام: «ما كانتْ المُؤلّفة قُلوبهم قَطّ أكثر منهم اليوم، وهُم قوم وحّدوا الله وقد خرجوا من الشِّرك، ولم تدخُل مَعرفة محمّد صلى الله عليه وآله قُلوبَهم وما جاء به، فتألّفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وتألّفهم المؤمنون بعدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لكيما يعرفوا»[4].

---

١. البقرة: ٢٧٣/٢.
٢. الزّمانة: الأمراض المُزمنة.
٣. تفسير القمي ١: ٣٥١، تفسير الصافي ١: ٢٩٨.
٤. الكافي ٢: ٥/٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن مُكاتب عجَز عن مُكاتبته وقد أدّى بعضَها، قال: «يُؤدّى عنه من مال الصّدقة، إنّ الله عزّ وجلّ يقول في كِتابه: ﴿وَفِى الرِّقَابِ﴾»[١].

وفي (الكافي): عنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله: أيّما مُسلم أو مُؤمن مات وترك دَيْناً لَم يكُن في فسادٍ ولا إسراف، فعلى الإمام أن يقضيه، فإن لَم يقضِه فعليه إثمُ ذلك، إنّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ﴾ الآية، فهو من الغارمين، وله سهمٌ عند الإمام، فإن حبَسه فإثمه عليه»[٢].

وفيه؛ عنه عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُقسّم صدقة أهل البَوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحَضَر في أهل الحَضَر، ولا يُقسّمها بينهم بالسويّة وإنّما يُقسّمها على قَدَر ما يحضرها منهم وما يُرى، وليس في ذلك شيءٌ مُوقّت موظَف»[٣].

وعنه عليه السلام: «سهم المؤلَفة قُلوبهم وسَهم الرِّقاب عامّ والباقي خاصّ». يعني: خاصّ بالعارف لا يُعطى غيره[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «لا تحِلّ الصّدقة لبني هاشم إلاّ في وَجهين؛ إن كانوا عُطاشىٰ فأصابوا ماءً فشرِبوا، وصدقة بعضِهم على بعضٍ»[٥].

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ [٦١ و ٦٢]

ثمّ ذمّ الله تعالى المُنافقين بإيذاء النبيّ صلى الله عليه وآله وإساءة القول إليه؛ بقوله: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ وبعض المُنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ صلى الله عليه وآله بأقوالهم الشّنيعة؛ ومنها أنّهم يعيبون عليه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في شأنه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ وقليل الذّكاء، سَريع الاغتِرار بكُلّ ما يسمع.

رُوي أنّ رجُلاً منهم قال لقومه: إن كان ما يقوله محمّد حقّاً، فنحن شرٌّ من الحَمير، فسمِعها ابن امرأته فقال: والله إنّه لحَقٌّ وإنّك شرٌّ مِن حِمارك. ثمّ بلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال بعضُهم: إنما محمّد أُذن إن لقيتَه وحلَفتَ له ليُصدّقنّك، فنزلتْ[٦].

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٤٤/٢٣٩، من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٥٨/٧٤، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٤٦/٢٣٩، الكافي ١: ٧/٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.
٣. الكافي ٥: ١/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٣٥٢.
٤. الكافي ٣: ١/٤٩٦، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.
٥. الخصال: ٨٨/٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.
٦. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.

وعن ابن عبّاس: أنّ جَماعةً من المنافقين ذكَروا النبيّ ﷺ بما لا ينبغي من القول، فقال بعضُهم: لا تفعلوا، فإنّا نخاف أن يبلُغه ما نقول، فقال الجُلَاس بن سُويد: بل نقول ما شِئنا، ثمّ نذهبُ إليه ونحلِف أنّا ما قُلنا فيقبَل قولَنا، وإنّما محمّد أُذُن سامعة. فنزلتْ[1].

وعن القُمّي قال: كان سبب نُزولها أنّ عبدالله بن نُفيل كان مُنافقاً، وكان يقعُد إلى جنب رسول الله ﷺ فيسمَع كلامه وينقُله إلى المُنافقين وينِمُّ عليه، فنزل جَبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنّ رجلاً من المنافقين ينِمُّ عليك وينقُل حديثَك إلى المُنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «مَن هُو؟» فقال: الرجُل الأسود، الكثيرُ شعرِ رأسه، ينظُر بعَينين كأنّهما قِدران، وينطِق بلِسانه الشّيطان[2]، فدَعاه رسول الله ﷺ فأخبره، فحلَف أنّه لَم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: «قد قبِلتُ منك فلا تقعُد» فرجع إلى أصحابه فقال: إنّ محمّداً أُذُنٌ، أخبره الله أنّي أنِمُّ عليه وأنقُل أخباره فقَبِل، وأخبرتُه أنّي لَم أفعل فقَبِل. فأنزل الله على نبيّه [الآية]، الخبر[3].

قيل: أظهر الله للمنافقين وُجوهَ كُفرهم التي كانوا يستِرونها لتكون حُجّةً للرّسُول، ولينزجِروا، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾، ثمّ قال: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، ثمّ قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللهَ﴾[4] إلى غير ذلك من الإخبار عن الغيوب، وفي كُلّ ذلك دلائلّ على كَونه نبيّاً حقّاً[5].

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: نعَم، هُو أُذُنٌ، ولكن ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ فإنّ مَن يسمَع العُذْر فيقبَله خيرٌ ممّن لا يقبَله؛ لأنّ قَبول العُذر من الكرَم وحُسن الخُلق، فحمَل سُبحانه كلام النّاس الصادر منهم على جِهة الذّمّ على المَدح.

ثمّ فسّر الله سُبحانه أُذُن الخير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ ويُصدّق وحدانيّته وجَميع ما أنزل منه إليه ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويُصدّقهم فيما يقولون، لكونه نافعاً لهم حيثُ يقبَل مَعاذيرهم، ويتغافل عن جَهالاتهم، ولا يُؤاخذهم بما يعلم.

القُمّي: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يُصدّق الله فيما يقوله له، ويُصدّقك فيما تعتذِر إليه في الظّاهر دون الباطن، وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: للمُقرّين بالإيمان من غير اعتِقاد[6].

عن الصادق عليه السلام: «يعني يُصدّق الله ويُصدّق المؤمنين؛ لأنّه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين»[7].

﴿وَ﴾ هو ﴿رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ في الظّاهر، وإن كانوا كافرين في الباطن، حيثُ لا يكشِف

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.
٢. في المصدر: بلسان شيطان.
٣. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.
٤. التوبة: ٧٥/٩.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١١٦.
٦. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٣.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٨٥١/٢٤١، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.

أسرارهم ولا يهتِك أستارهم رِفقاً بهم وترحُماً عليهم.

ثمّ هدّدهم الله سُبحانه بقوله: **﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللهِ﴾** بالقَول أو الفِعل **﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** في الآخرة.

ثمّ قيل: إنّ المُنافقين كانوا يتكلّمون بالمَطاعن، ثمّ يأتون المؤمنين فيعتذِرون إليهم، ويُؤكّدون مَعاذيرهم بالأيمان الفاجرة ليعذِرُهم ويرضُوا عنهم، فذمّهم سُبحانه ولامهم بفِعلهم بقوله: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾** هؤلاء المنافقين **﴿لَكُمْ﴾** أيُّها المؤمنون على أنّهم ما قالوا ما نُقل إليكم من الطّعن في النبيّ ﷺ، وما يُورِث أذيّته **﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾** باعتِذارهم وحِلفهم عن أنفسهم **﴿وَٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾** أولى و **﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾** عن أنفسهم بالتّوبة ممّا ارتكَبوه من الطّعن والإيذاء ـ وفي إفراد ضمير **﴿يُرْضُوهُ﴾** دلالةٌ على أنّ المقصود بالذّات رضى الله، ورضى الرّسول تَبَعٌ ولازم له ـ **﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾** بهما واقعاً كما ادّعَوا.

القُمّي: نزلتْ في المُنافقين الّذين كانوا يحلِفون للمؤمنين أنّهم منهم، لكَي يرضى عنهم المؤمنون[1].

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ * يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ [٦٣ ـ ٦٥]

ثمّ وبّخهم الله على إيذائهم الرّسول ﷺ، وإصرارهم على النّفاق بقوله: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾** بعد مُبالغة الرّسول ﷺ في دَعوتهم وتَعليمهم ووَعظهم مُدّةً مَديدةً **﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾** ويُعارضهما بالعِصيان والطُّغيان؛ فيُخالف الله[2] ـ كما عن ابن عبّاس ـ **﴿فَأَنَّ لَهُ﴾** بالاستِحقاق غير القابل للعَفو **﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾** حالَ كونه **﴿خَالِداً﴾** ودائماً **﴿فِيهَا﴾** ومن الواضح أنّ **﴿ذٰلِكَ﴾** الخُلود في النّار هو **﴿ٱلْخِزْيُ﴾** والذّل **﴿ٱلْعَظِيمُ﴾** والنّدامة الشّديدة.

ثمّ أنّه روى القُمّي: أنّه كان [قومٌ] من المنافقين لمّا خرَج رسول الله ﷺ إلى تَبوك يتحدّثون فيما بينهم، ويقولون: أيَرى محمّد أن حَرب الرُّوم مِثل حَرب غيرهم، لا يرجِع منهم أحدٌ أبداً، فقال بعضُهم: ما أخلقه أن يُخبر الله محمّداً بما كُنّا فيه، وبما في قُلوبنا ويُنزل [عليه] بهذا قُرآناً يقرأه النّاس!

---

١. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤. ٢. تفسير الرازي ١٦: ١٢٠.

وقالوا هذا على [حَدَ] الاستهزاء[١].

فأخبر الله بذلك وهدّدهم بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ ويحترزون[٢] من اطّلاع المؤمنين على نِفاقهم بسبب ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ مِن الله ﴿سُورَةٌ﴾ وقِطعة من القرآن، تُخبر المؤمنين، و ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ تِلك السُّورة ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الشِّرك والنِّفاق والاستهزاء بالرّسول ﷺ؛ فتفضحهم بين المؤمنين، وتهتِك أستارهم، ويُحتمل رُجوع جميع الضمائر إلى المنافقين؛ لأنّ السُّورة إذا نزلتْ في شأنهم فهي نازلة عليهم، وهي بمَضمونها تقول لهم: إنّ في قُلوبكم كذا وكذا، وتُذيع أسرارهم.

ثمّ أمر الله النبيّ ﷺ بتَهديدهم بقوله: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمّد: ﴿ٱسْتَهْزِءُوا﴾ بي وبدِيني وكِتابي ﴿إِنَّ ٱللهَ مُخْرِجٌ﴾ من الكُمون إلى البُروز ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ منه من نُزول سورة فاضحة لكم.

وفي رِواية القُمّي: قال النبيّ ﷺ لعمّار بن ياسر: «الحَق القوم، فإنّهم قد احترقوا»، فلحِقهم عمّار فقال: ما قُلتم؟ قالوا: ما قُلنا شيئاً، إنّما [كُنّا] نقول شيئاً على حَدّ اللَّعِب والمِزاح. فنزلتْ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾[٣]، عمّا قالوا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الكلام، ونتحدّث لقطع الطريق بالحديث، كما هُو دأب الرَّكْب، ﴿وَنَلْعَبُ﴾ كما يلعب الصِّبيان.

ورُوي أنّ رجلاً من المنافقين قال في غَزوة تَبوك: ما رأيتُ مِثل هؤلاء القوم أرعب قُلوباً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبَن عند اللِّقاء - يعني: رسول الله ﷺ والمؤمنين - فقال واحدٌ من الصّحابة: كَذَبتَ ولأنت مُنافق، ثمّ ذهب ليُخبر رسول الله ﷺ فوجد القُرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرّجُل إلى رسول الله ﷺ وكان قد ركِب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنّا كُنّا نلعب ونتحدّث بحديث الرَّكب نقطع به الطَّريق، وكان يقول: إنّما كُنّا نخوض ونلعب، الخبر[٤].

ورُوي أنّه لمّا سار رسول الله ﷺ إلى تَبوك، قال المنافقون: أتُراه يظهر على الشام ويأخُذ حُصونها وقُصورها؛ هَيهات هيهات، فعند رُجوعه دَعاهم فقال: أنتُم القائلون كذا وكذا؟ فقالوا: ما كان ذلك بالجِدّ في قُلوبنا، إنّما كُنّا نخوض ونلعب[٥].

ورُوي أنّ المُتخلّفين عن رسول الله ﷺ سُئلوا عمّا كانوا يصنعون، وعن سبب تخلُّفهم، فقالوا هذا القول[٦]، فأمر الله رسوله بتَوبيخهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.
٢. في النسخة: ويحرزون.
٣. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٤.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.
٦. تفسير الرازي ١٦: ١٢٢.

قيل: إنّ المُراد بالاستِهزاء بقُدرته بعدَ قولهم: كيف يقدِر محمّد على أخذ حصون الشام؟! وقيل: هُو الاستِهزاء بتَكاليفه[١].

لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ[٦٦]

ثمَ أنّه تعالى بعد اعتِذار المُنافقين من استِهزائهم، ردّهم بقوله: **﴿لَاتَعْتَذِرُوا﴾** ممّا قُلتُم بتِلك المَعاذير، فإنّه لا يرتفع بها لَومُكم ولا استِحقاقُكم للعُقوبة، لأنه **﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾** عَلانية **﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** الذي كنتُم تُظهرونه باستِهزائكم بالرّسول.

ثمَ هدّدهم بقوله: **﴿إِن نَعْفُ عَن﴾** ذنبِ **﴿طَائِفَةٍ﴾** وجَماعة **﴿مِنكُمْ﴾** بسبب إيمانهم وتَوبتهم **﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾** اُخرى منكم البتّة **﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾** بإصرارهم على الكُفر والنِّفاق، وإيذاء الرّسول ﷺ.

قيل: إنّ الطّائفة الأُخرى المُعذّبة هُم المُستهزئون، والطّائفة المَعفوّ عنهم هُم الذين ضحِكوا عند استِهزاء هؤلاء.

وعن الباقر عليه السلام في قوله: **﴿لَاتَعْتَذِرُوا﴾**، قال: هؤلاء قومٌ كانوا مؤمنين صادقين، ارتابوا وشكّوا، ونافقوا بعد إيمانهم، وكانوا أربعة نفر، وقوله: **﴿إِن نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِنكُمْ﴾** كان أحدُ الأربعة مَخْشيَ[٢] بن حُمَيّر، فاعترَف وتاب، وقال: يا رسول الله، أهلكني اسْمي، فسمّاه رسول الله عبدالله بن[٣] عبد الرّحمن، فقال: يا رَبِّ اجْعلني شهيداً حيثُ لا يُعلم أين أنا، فقُتل يومَ اليَمامة، ولَم يعلَم أحدٌ أين قُتل، فهو الذي عُفي عنه[٤].

اَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[٦٧]

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٢٣.

٢. في النسخة وتفسير القمي: محتبر، تصحيف، راجع: أُسد الغابة ٤: ٣٣٨، وتاريخ الطبري ٣: ١٠٨، ومغازي الواقدي ٣: ١٦٩، وفي مغازي الذهبي: ٦٤٢، وسيرة ابن هشام ٤: ١٦٨: مخشن.

٣. في النسخة: أو.

٤. تفسير القمي ١: ٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥٥.

ثمّ أنّه تعالى بعد حَلف المُنافقين للمؤمنين على أنّهم منهم، ردّهم بقوله: ﴿ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ﴾ ليسُوا من المؤمنين، بَل ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ لاشتراكهم في الكُفر وعِصيان الرّسول، حيثُ إنّهم جميعاً ﴿يَأْمُرُونَ﴾ النّاس ﴿بِالْمُنْكَرِ﴾ من الكُفر ومُخالفة الرّسول وتكذيبه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالرّسول وطاعته ﴿وَيَقْبِضُونَ﴾ ويُمسكون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سَبيل الله، وإنّما فعلوا ذلك كُلّه لأنّهم ﴿نَسُوا ٱللهَ﴾ ولَهوا[1] عن ذِكره، وتركوا عِبادته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله وتَرك ذِكرهم بالرّحمة والإحسان والتّوفيق للهِداية.

ثمّ بالغ في بَيان عدم استِحقاقهم للرّحمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ عُموماً ﴿هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ والكاملون في الكُفر والطُّغيان ومَعصية الرّسُول.

وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ[٦٨]

ثمّ أكّد الله سُبحانه وَعيدهم بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ المُتجاهرين في الكُفر ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كَونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ وكافيهم عُقوبةً، فإنّه لا عُقوبة فوقها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللهُ﴾ وأبعدهم من رحمته، وأخزاهم غاية الخِزي والهَوان، وهُو العذاب الرُّوحاني.

ثمّ أكّد سُبحانه خُلودهم مع دَوام تألّمهم بالنّار واللّعن بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ودائم، فلا يُتوهَم أنّه يحصُل لهم طَبعٌ سَمَنْدَريّ[2] بسبب دَوامهم في النّار فينقطِع تألّمهم بها.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا أُوْلٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَأُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ[٦٩]

ثمّ بالغ سُبحانه في إرعاب المُنافقين بتَنظير حالهم بحال الأمَم السّابقة المُهلَكة، معَ الرُّجوع من الغِياب إلى مُخاطبتهم بقوله: ﴿كَالَّذِينَ﴾ ـ قيل التّقدير: أنتُم كالّذين كفروا ـ وكانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في القُرون القريبة من قَرنكم.

---

١. في النسخة: وألهوا.

٢. نسبة إلى السَّمَنْدر أو السَّمَنْدل، وهو دابة أو طائر في الهند والصين، يقال: إنه لا يحترق بالنار، أو نسيج من حيوان لا يحترق بالنار.

ثمّ كأنّه قيل: كيف كانَ حالُهم؟ فقال سبحانه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وأعظم قُدرة ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ وأوفر منكم ثَروةً وذُريّة ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ واستلذّوا ﴿بِخَلاقِهِمْ﴾ ونَصيبهم المُقدّر لهم من حُطام الدُّنيا ونَعيمها.

ثمّ بيّن سُبحانه وَجه شَبَههم بهم بقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ وانتفعتُم ﴿بِخَلَاقِكُمْ﴾ ونَصيبكم من الأمتعة الدُّنيويّة مُدّة عُمركم، حالَ كَونكم كافرين طاغين عاصين لله، لأجل الغُرور باللّذات ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ﴾ الأمَم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ حالَ كَونهم كافرين طاغين عاصين لله، لأجل الانهماك في الشّهوات ﴿وَخُضْتُمْ﴾ وانغمرتُم في الباطل كتَكذيب الأنبياء، والاستِهزاء والغَدر بهم ﴿كَالَّذِي﴾ ومِثل الباطل الذي ﴿خَاضُوا﴾ فيه ـ وقيل: إنّ التّقدير: كالفَوج الذي[1]، وقيل: كالقَوم الذّين، وحَذْف النُّون للتّخفيف[2]، وقيل: كالخَوض الذي ـ ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الأمَم المَذمومة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وبطَلَتْ حَسناتُهم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب الموت وانتِقالهم من الغِنى إلى الفَقر، ومِن العِزّ إلى الذُّل، ومن القُوّة إلى الضّعف ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ بسبب ضَياع ثَوابهم وابتِلائهم بالعِقاب ﴿وَأُوْلَٰئِكَ﴾ بالخُصوص ﴿هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ والمُتضرِّرون، حيثُ ضيّعوا عُمرهم الذي كان بمنزلة رأس مالهم، وأتعبوا أنفسهم في تحصيل العِزّ والجاه والنِّعَم، بالسّعي في تَكذيب الأنبياء ومُعارضتهم والغَدْر بهم، ولَم يستفيدوا إلّا الحِرمان من الخيرات الدُّنيويّة والأُخرويّة، والذُّلّ الدائم، والعُقوبة الأبديّة، فهم مع كونهم أقوى مِنكم كانت حالُهم تِلك، فأنتم معَ ضَعفكم بسَبب اشتِراككم معهم في الكُفر والطُّغيان أولى بحَبط الأعمال وغاية الخُسران.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[٧٠]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَشبيه المُنافقين بالأمَم المُهلَكة في الرّغبة في الدُّنيا والتمتُّع بها، والإعراض عن الآخرة والإصرار على الكُفر، وتكذيب الأنبياء، وغاية الخُسران، ذكَر طوائف مشهورة بتلك الصِّفات[3] منهم، وابتِلائهم بعذاب الاستئصال بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ وهَل لَم يبلُغهم ﴿نَبَأُ﴾ الأمَم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وخَبرهم الذي له شأنٌ عظيم؟

ثمّ كأنّه أجاب عن الاستِفهام وقال: نعم، بلَغهم نبأ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أنّهم أُهلِكوا بالطُّوفان ﴿وَ﴾ قوم

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٢.

٣. في النسخة: مشهورة بالصفات.

﴿عَادٍ﴾ أنّهم اُهلِكوا بالرّيح العقيم ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ أنّهم اُهلِكوا بالصّيحة والرّجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أنّهم اُهلكوا بالهَدم ﴿وَأَصْحَابِ﴾ بلد ﴿مَدْيَنَ﴾ وأهله وهُم قوم شُعيب، أنّهم اُهلكوا بالنّار ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ والقُرى المُنقلبات على أهلها، بحيث صار عالِيها سافلها.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن المُؤتفكات، قال: «اُولئك قومُ لوط»[١].

ثمّ كأنّه قيل: هل تمّتْ الحُجّة عليهم قبل هَلاكهم؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿أَتَتْهُمْ﴾ جميعاً ﴿رُسُلُهُم﴾ من جانب الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحُجَج الظاهرات، والبَراهين القاطعات، فلَم يعتنوا بهم، بَل كذّبوهم واستهزأوا بهم وآذَوهم، فاُهلكوا بعد إتمام الحُجّة عليهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللهُ﴾ وليسَ من شأنه والمُناسب لحِكمته وعَدله ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويُعذّبهم قبلَ إتمام الحُجّة عليهم، وبغير استِحقاق منهم ﴿وَلٰكِن كَانُوا﴾ بالمُشاقّة معَ الله ورُسُله ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ عرّضوها للهَلاك بقبائح الأعمال، معَ قُدرتهم على تَعليتها إلى أعلى دَرَجات الجنّة، وإيصالها بطاعة الأنبياء إلى النِّعَم الأبديّة.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٧١]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذَمّ المنافقين ووَعدهم العذاب، مدح المؤمنين المُخلصين بحُسن العقائد والأعمال بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ﴾ لاتّفاقهم على التّوحيد، والايمان بالرّسول وبما جاء به ﴿بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وكُلٌّ مُراعٍ لصَلاح الآخر، ولِذا ﴿يَأْمُرُونَ﴾ المؤمنين ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويبعثونهم إلى الخَيرات الدُّنيويّة والاُخرويّة من تَكميل الايمان بالله والرّسول، وطاعتهما ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ـهُم ﴿عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ والقَبيح والشرّ من الكُفر وسيّئات الأعمال ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ﴾ ويُداومون عليها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ الواجبة ويُؤدّونها إلى الجُباة والفُقراء، ولا يقبِضون أيديهم عن أدائها كما قبض المنافقون ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراهم به ونهَياهم عنه، وليسُوا فاسقين عن طاعتهما كالمُنافقين ﴿أُولٰئِكَ﴾ الموصوفون بتِلك الصِّفات الحميدة ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللهُ﴾ ويُفيض عليهم من البَركات والفُيوضات الدُّنيويّة والاُخرويّة ما لا يتصوّره مُتصوّر، ولا يبلُغه الوَهمُ والفِكر ﴿إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ﴾ وقادرٌ على إنجاز وَعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يُخلف وعده، ولا يُعطي شيئاً غير أهله.

---

١. الكافي ٨: ٢٠٢/١٨١، تفسير الصافي ٢: ٣٥٧.

وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[٧٢]

ثمّ شرح الله الرّحمة المَوعودة بقوله: ﴿**وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ**﴾ على إيمانهم وطاعتهم ﴿**جَنَّاتٍ**﴾ وبَساتين كثيرة الأشجار ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ**﴾ الكثيرة ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً**﴾ مَرضيّة -رُوي أنّها قُصور من اللُّؤلُؤ والزَبَرْجَد والياقوت[١] -كائنة ﴿**فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾ التي هي أبهى الجنّات وأعلاها وأسناها ﴿**وَرِضْوَانٌ**﴾ يَسير ﴿**مِنَ ٱللهِ**﴾ تعالى ﴿**أَكْبَرُ**﴾ وأعظم من تِلك الجنّات ونِعَمها؛ لأنّه مَبدأ جميع الخَيرات والسّعادات، وبه يُنال قُربه الذي هُو أعلى الحُظوظ، وأكمل المَثوبات ﴿**ذٰلِكَ**﴾ الرِّضوان ﴿**هُوَ ٱلْفَوْزُ**﴾ والحظّ ﴿**ٱلْعَظِيمُ**﴾ الذي يُستحقر عنده كُلّ فَوز وحَظّ.

عن النبيّ ﷺ: «عَدْن دارُ الله التي لَم ترَها عينٌ ولَم تخطِر في قلب بشَر، لا يسكُنها غير ثلاثة: النبيِّين، والصدِّيقين، والشُّهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمَن دخلكِ»[٢].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله يَهوديّ: أين يسكُن نبيُّكم من الجنّة؟ فقال: «في أعلاها دَرجة، وأشرفها مكاناً، في جنّاتِ عَدْنٍ». فقال: صدقتَ[٣].

رُوي أنّ الله خلق جنّة عَدن بيده بغير واسطة، وجعلها [له] كالقَلعة للمَلِك، وجعل فيها كثيباً ومقام الوسيلة، وغرس شجرة طُوبى بيده في جنّة عَدن، وأطالها حتى علَتْ فُروعُها سُور جنّة عَدن وتُركت مُظلِّلة على سائر الجنّات كُلّها، وليس في أكمامها ثَمرٌ إلّا الحُليَ والحُلَل[٤].

ورُوي أنّه تعالى يقول لأهل الجنّة: هل رضِيتُم؟ فيقولون: فما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لَم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: أما أُعطيكُم أفضلَ مِن ذلك؟ فيقولون: وأي شيءٍ أفضل مِن ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رِضواني، ولا أسخط عليكم أبداً[٥].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[٧٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد التّغليظ على المُنافقين ووَعدهم بالعُقوبة الشّديدة، ونُصحهم وتَهديدهم

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٤.
٢. مجمع البيان ٥: ٧٧، تفسير الصافي ٢: ٣٥٧.
٣. تفسير الصافي ٢: ٣٥٧.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٤.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١٣٤.

بالعُقوبات الدُنيويّة التي أنزلها على الأمم الماضية، أمر النبيّ بمُجاهدتهم بالحُجّة ما داموا مُستترين، وجِهادهم بالسّيف إذا أظهروا كُفرهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ المُتجاهرين في كُفرهم بالسّيف ﴿وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ المُستترين لكُفرهم بالحُجّة والنُّصح ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واَعْنُف[1] بهم ولا ترفُق معهم، هذا جزاؤهم في الدُّنيا، وأمّا في الآخرة فمنزلهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمُنقلب لهم مِن الدُّنيا.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «فجاهد رسول الله صلى الله عليه وآله الكُفّار، وجاهد عليّ عليه السلام المنافقين، فجِهاد[2] عليّ جِهاد رسول الله صلى الله عليه وآله»[3].

يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَنَصِيرٍ[٧٤]

ثمّ أكّد سُبحانه استِحقاق المُنافقين التّغليظ بقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ أنّهم ﴿مَا قَالُوا﴾ كلمة سوء ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ من سَبّ النبيّ، وإنكار رِسالته ﴿وَكَفَرُوا﴾ بإظهارهم ما في قُلوبهم من عَداوة النبيّ، وبُغضهم لِدين الإسلام ﴿بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ الظّاهري.

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أقام في غَزوة تَبوك شَهرين ينزِل عليه القُرآن، ويعيب المُنافقين المتخلّفين فقال الجُلَاس بن سُويد: والله، لئِن كان ما يقوله محمّد في إخواننا الذين خلّفناهم في المدينة حقّاً، مع أنّهم أشرافُنا، فنحنُ شرّ من الحَمير، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجُلَاس: أجل والله، إنّ محمّداً صادقٌ، وأنت شرٌّ من الحِمار، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فاستحضر الجُلَاس، فحلَف بالله أنّه ما قال، فرفع عامر يده وقال: اللّهمّ أنزِل على عبدِك ونبيّك تَصديق الصادق، وتَكذيب الكاذب، فنزلت الآية، فقال الجُلَاس: لقد ذكر الله التّوبة في هذه الآية، ولقد قلتُ هذا الكلام وصدق عامر، فتاب الجُلَاس وحسُنت تَوبتُه[4].

ورُوي أنّها نزلتْ في عبد الله بن أُبيّ لمّا قال: ﴿لَئِن رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا

---

١. في النسخة: واغضب، راجع تفسير روح البيان ٣: ٤٦٥.
٢. في تفسير الصافي: فجاهد.
٣. تفسير الصافي ٢: ٣٥٨.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

ٱلْأَذَلَّ﴾[١] وأراد به الرّسول، فسمع زيد بن أرقم ذلك وبلّغه إلى رسول الله ﷺ، فهَمَّ عُمر بقتل عبدالله بن اُبيّ[٢] [فجاء عبدالله وحلف أنّه لم يقُل، فنزلت هذه الآية[٣].

روى قَتَادة: أنّ رجُلين اقتتلا أحدهما من جُهينة والآخر من غِفار، فظهر الغِفاري على الجُهيني، فنادى] عبدالله بن اُبي وقال: يا بني الأوس، انصُروا أخاكم، واللهِ ما مِثلنا ومِثل محمّد إلّا كما قيل: «سمِّن كَلْبَك يأكُلك»، فذكروه لرَسول الله ﷺ، فأنكر عبدالله وجَعل يحلِف[٤].

ثمّ رُوي أنّ المُنافقين همُّوا بقَتل النبيّ ﷺ عند رُجوعه من تَبوك؛ وهُم خمسة عشر، تعاهدوا أن يدفَعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العَقبة باللّيل، وكان عمّار آخذاً بخِطام راحلته، وحُذيفة خلفها يسُوقها، فسمِع حُذيفة وقع خِفاف الإبل وقَعْقعة السّلاح، فالتفتَ فإذا قومٌ متلثّمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا[٥]، فلامهم الله بقوله: **﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾** من قتل النبي ﷺ، ومن المعلوم أنّهم حين اجتمعوا على قتل النبيّ ﷺ طعَنوا في نُبوّته، ونَسبوه إلى الكَذِب.

عن (المجمع): نزلتْ في أهل العقبة، فإنّهم أضمروا أن يقتُلوا رسول الله ﷺ في العقبة حين مَرجعهم من تَبوك، وأرادوا أن يقطعوا أنساع[٦] راحلته ثمّ ينخُسوا به، فأطلَعه الله على ذلك، وكان من جُملة مُعجزاته، لأنّه لا يُمكن مَعرفة ذلك إلّا بوحيٍ من الله، فبادر رسول الله [في العقبة] وحده، وعمّار وحذيفة يقود أحدُهما راحلته والآخر يسوقها، وأمر النّاس كُلّهم بسُلوك [بطن] الوادي، وكان الذين همّوا بقَتله اثني عشر رجلاً، أو خمسة عشر، عرفهم الرّسول: سمّاهم بأسمائهم. قال: وقال الباقر عليه السلام: «كان ثمانية منهم من قُريش، وأربعة من العرب»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا قال النبيّ ﷺ ما قال في غَدير خُمّ، وصاروا بالأخبية، فمرّ المِقداد بجَماعة منهم يقولون[٨]: إذا دَنا موتُه وفنيتْ أيّامه وحضر أجلُه، أراد أن يُولّينا عليّاً من بعده، أما والله ليعلمنّ. قال: فمضى المِقداد وأخبر النبيّ ﷺ، فقال: الصلاة جامعة. قال: فقالوا: قد رَمانا المِقداد، فقوموا نحلِف عليه. قال: فجاءوا حتّى جَثَوا بين يدَيه فقالوا: بآبائنا واُمّهاتنا يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ، والذي أكرمك بالنبوّة، ما قُلنا ما بلَغك، والذي اصطفاك على البشر، قال: فقال النبيّ ﷺ: **﴿بِسْمِ اللهِ**

---

١. المنافقون: ٦٣/٨. ٢. في النسخة: فخافة بدل ما في المعقوفات. ٣. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

٤ و٥. تفسير الرازي ١٦: ١٣٦.

٦. الأنساع جمع نِسْع: وهو سَيْر عريض طويل تُشدّ به الرِّحال على الدابّة.

٧. مجمع البيان ٥: ٧٩، تفسير الصافي ٢: ٣٥٩.

٨. زاد في تفسير العياشي: والله إن كُنّا وقيصر لَكُنّا في الخزّ والوشي والديباج والنساجات، وإنّا معه في الأخشنين، نأكل الخشن، ونلبس الخشن حتى.

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ ليلة العقبة»[١].

عن القُمّي: نزلتْ في الذين تحالفوا في الكعبة أن لا يرُدّوا هذا الأمر في بني هاشم، فهي [كلمة] الكفر، ثمّ قعدوا لرَسُول الله ﷺ في العقبة، وهمّوا بقتله، وهو قوله: **﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾**.

وقال في مَوضعٍ آخر: فلمّا أطلع الله نبيّه ﷺ وأخبره، حلَفوا له أنّهم لَم يقولوا ولَم يهُمّوا به، حتّى أنزل الله **﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ...﴾** الآية[٢].

ثمّ بيّن الله أنّ حقّ النبيّ ﷺ أن يشكُروه لا أن يهمّوا بقتله، بقوله: **﴿وَمَا نَقَمُوا﴾** وما كرِهوا شيئاً **﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾** وإحسانه، بسبب الغنائم والعَطايا، وهذا مُوجب للمَحبّة والشُّكر، لا العَداوة والكُفر.

قيل: إنّهم كانوا حينَ قُدوم رسول الله ﷺ المدينة في غاية شِدّة العَيش؛ لا يركبون الخَيل، ولا يحُوزون الغنيمة، فأثْرَوا بالغَنائم وكثُرت أموالُهم[٣].

وقيل: كان أحدُهم يبيع الرؤوس، وآخر يبيع الكُراع ويفتِل القَرامل[٤].

وقُتل للجُلَاس مولىً، فأمر رسول الله ﷺ بدِيَته اثني عشر ألف دِرهم، فاستغنى[٥].

وقيل: الضمير في **﴿أَغْنَاهُمُ﴾** للمؤمنين، أي غاظهم إغناؤه للمؤمنين[٦].

ثمّ استعطف قُلوبهم ودَعاهم إلى التّوبة بقوله: **﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾** من كُفرهم ونِفاقهم **﴿يَكُ﴾** ذلك التّوب **﴿خَيْراً لَهُمْ﴾** وأنفع في الدُّنيا والآخرة **﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾** ويُعرضوا عن قَبُول الإسلام والتَوبة خالصةً[٧] لله، واستمرّوا على ما هُم عليه من الكُفر والنِّفاق والغَدر **﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا﴾** بالقَتل والأسر ونَهب الأموال ـ وقيل: عند الموت[٨]، وقيل: في القبر[٩] ـ **﴿وَ﴾** في **﴿ٱلآخِرَةِ﴾** بالنّار وغيرها من أنواع العذاب المُعَدّ للكُفّار **﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾** بسَعتها وتَباعُد أقطارها، وكَثرة أهلها **﴿مِن وَلِيٍّ﴾** يحفَظهم منه بالشّفاعة **﴿وَلاَنَصِيرٍ﴾** يُنجيهم منه بالقُدرة والقُوة.

رُوي أنّه لمّا تلا رسول الله ﷺ الآية على المنافقين، قال بعضُهم: يا رسول الله، لقد عَرض الله عليّ التوبة، واللهِ لقد قبلت فتاب[١٠].

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٥٨/٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ٣٦٠.
٢. تفسير القمي ١: ٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٣٥٨.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.
٤. تفسير الصافي ٢: ٣٦٠، والقرامل: جمع القِرمِل، وهو ضفائر من شعرٍ أو غيره تصِل بها المرأة شعرها.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.
٧. في النسخة: خالصاً.
٨ و٩. تفسير الرازي ١٦: ١٣٧.
١٠. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٨.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ[٧٥و ٧٦]

ثمّ بيّن الله أنّ غَدر المُنافقين لا يختصّ بالنبيّ والمؤمنين، بَل يُجاهرون بالغَدر بالله ومُخالفة عهده بقوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللهَ**﴾ عهداً مُؤكّداً بالحَلف، حيثُ قال: واللهِ ﴿**لَئِنْ آتَانَا**﴾ الله ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ وخزائن رَحمته مالاً ﴿**لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ ولنُؤدّينَّ حُقوقه الواجبة ﴿**وَلَنَكُونَنَّ**﴾ البتّة ﴿**مِنَ**﴾ المؤمنين ﴿**ٱلصَّالِحِينَ**﴾ المُلتزمين بالعمل بأحكام الله. عن ابن عبّاس: يُريد الحجّ[1] ﴿**فَلَمَّا آتَاهُم**﴾ الله وأعطاهم ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ وكرمه مالاً، منعوا حقّ الله، و ﴿**بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا**﴾ وأعرضوا عن الوَفاء بعهدهم[2] معَ الله ﴿**وَهُمْ**﴾ قومٌ عادتهم أنّهم ﴿**مُعْرِضُونَ**﴾ عن طاعة الله وجميع العهود.

عن ابن عبّاس: أنّ حاطب بن أبي بلتعة، أبطأ عنه مالُه بالشّام. فلحِقه شِدّة، فحلَف بالله وهُو واقف في بعض مَجالس الأنصار: لئِن آتانا من فضله لأصدّقن ولأؤدّيَنّ منه حقّ الله[3].

في حكاية ثعلبة بن حاطب

ورُوي أنّ ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان مُلازماً لمسجد الرّسول ليلاً ونهاراً، وكان يُلقّب لذلك حَمامة المسجد، وكانت جَبهته كرُكبة البعير من كَثرة السُّجود على الأرض والحِجارة المُحماة بالشّمس، ثمّ جعل يخرُج من المسجد كُلّما فرَغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجَماعة من غير لَبثٍ واشتِغال بالدُّعاء، فقال ﷺ له يوماً: «ما لك [صِرت] تعمل عَمل المُنافقين بتَعجيل الخُروج؟» فقال: يا رسول الله، إنّي في غاية الفقر بحيث أنّ لي ولامرأتي ثوباً واحداً، وهُو الذي عليّ وأنا أُصلّي فيه وهي عُريانة في البيت، ثمّ أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه وتُصلّي فيه، فادْعُ الله أن يرزُقني مالاً، فقال ﷺ: «ويلك يا ثَعلبة، قليلٌ تُؤدّي شُكره خيرٌ من كثير لا تُطيقه». فراجعه، فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مِثل نبيّ الله، فوَالذي نفسي بيده لَو شئتُ أن تسير معي الجِبال ذهباً وفِضّةً لسارتْ، ولكن أعرِفُ أنّ الدُّنيا حظٌّ مَن لا حظّ له، وبها يغترّ مَن لا عَقل له».

فراجعه وقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ نبيّاً، لَو دعوتَ الله أن يرزُقني مالاً لأؤدّيَنّ كُلّ ذي حقّ حقّه، فقال ﷺ: «اللّهمّ ارزُق ثَعلبة مالاً» ـ ثلاث مرّات.

فاتّخذ غَنَماً، فنمتْ كما ينمو الدُود حتّى ضاقتْ بها أزقّة المدينة، فنزل وادياً حتّى فاتتْه الجماعة، لا يُصلّي بالجماعة إلّا الظُّهر والعَصر، ثمّ نمتْ وكثُرت فتنحّى مكاناً بعيداً حتّى انقطع عن الجَماعة والجُمعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه، فقيل: كثُر مالُه حتّى لا يسَعَه وادٍ، فخرج بعيداً، فقال ﷺ: «ويحَ ثَعلبة».

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٩.　　٢. في النسخة: بعهده.　　٣. تفسير الرازي ١٦: ١٣٨.

فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ استعمل النبيّ ﷺ رَجُلين على الصَدقات؛ رجلاً من الأنصار، ورجلاً من بني سُليم، وكتب لهما الصَدقة وأسنانها، وأمرهما أن يأخُذاها من النّاس، فاستقبلهما النّاس بصَدقاتهم، ومرّا بثَعلبة فسألاه الصَدقة، وأقرآه كِتاب رسول الله ﷺ فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلّا جِزية أو اُخت الجِزية، وقال: ارجِعا حتّى أرى رأيي، فلمّا رجَعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يُكلّماه: «ويح ثَعلبة» مرّتين، فنزلتْ.

فركِب عُمر راحلته ومضى إلى ثَعلبة وقال: ويحك يا ثَعلبة هلكتَ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فجاء ثَعلبة بالصَدقة، فقال ﷺ: «إنّ الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحثُو التُّراب على رأسه، فقال ﷺ: «هذا عملك»[1].

عن القُمّي: عن الباقر عليه السلام: هو ثَعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف، كان مُحتاجاً فعاهد الله، فلمّا آتاه بخِل به[2].

أقول: إنّما أمر الله أن لا يقبَل الرّسول ﷺ صَدقته لكونه إهانةً وعِبرةً لغيره، أو لكون صدَقته رِياءً لا خالصاً لوجه الله.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ [٧٧ و ٧٨]

ثمّ بيّن الله أثر البُخل والإعراض عن العهد بقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، وجعل عاقبة أمرهم، أو أثر بُخلهم وعَقِبه ﴿نِفَاقاً﴾ راسخاً ثابتاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مُستمرّاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ يرجِعون فيه إلى الله و﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام: اللّقاء [هو] البعث»[3]. وقيل: يومَ خُروجهم من الدُّنيا - ﴿بِمَا أَخْلَفُوا ٱللهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ وما وفَوا بما عاهدوه ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في أقوالهم وعُهودهم.

ثمّ وبّخهم الله على إبطانهم النِّفاق وطَعْنِهم سرّاً في النبيّ ﷺ ودِينه؛ بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ وما في قُلوبهم من الكُفر والنِّفاق، أو العَزم على التخلُّف ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يُفاوضونه من الطَعن في النبيّ ﷺ ودِينه، أو تسمية الزّكاة جِزيةً ﴿وَأَنَّ ٱللهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾ والمُطّلع على الخَفايا والأسرار، بحيثُ لا يخفى عليه خافيةٌ، فكيف يجترئون على ارتكاب القبائح؟

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٦٩.
٢. تفسير القمي ١: ٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٣٦٠.
٣. التوحيد: ٥/٢٦٧، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَايَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱللهُ لَايَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ[٧٩و ٨٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المُنافقين بلَمز النبيّ ﷺ وتَعييبه، ذَمّهم بلَمز المؤمنين والاستِهزاء بهم، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قيل التّقدير: هُم الذين ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ويَعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ والمُتنَفّلين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويغتابونهم ﴿فِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾ التي تصدّقوا [بها] لتجهيز جَيش غَزوة تَبوك ﴿وَٱلَّذِينَ لَايَـجِدُونَ﴾ للإنفاق ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ ومِقدار طاقتهم من الصّدقة، وإن كان في غاية القِلّة ﴿فَـيَسْخَرُونَ مِـنْهُمْ﴾ ويستهزِئون بهم، أُولئك ﴿سَخِرَ ٱللهُ مِنْهُمْ﴾ بأن جازاهم جَزاء السُّخرية، كما عن الرضا عليه السلام[١] ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عن ابن عبّاس قال: إنّ رسول الله ﷺ خطَبهم ذات يوم وحثّ على أن يجمعوا الصّدقات، فجاءه عبدُ الرّحمٰن بن عَوف بأربعة آلاف دِرْهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف دِرْهم؛ فأمسكتُ لنفسي ولِعيالي أربعة، وهذه الأربعة أقرضتُها ربّي. فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ، وفيما أمسكتَ»[٢]. قيل: قَبِل الله دُعاءه ﷺ فيه، حتّى صالحتْ امرأته عن رُبع الثّمن على ثمانين ألفاً.

وجاء عُمر بنَحوِ ذلك، وجاء عاصم بن عَدِيّ الأنصاري بسبعين وَسْقاً من تَمْرِ الصّدقة، وجاء عُثمان بن عفّان بصدقةٍ عظيمة، وجاء أبوعقيل بصاعٍ من تمر، وقال: آجرتُ اللّيلة الماضية نفسي من رَجُل لإرسال الماء إلى نَخيله، فأخذتُ صاعين من تَمر؛ فأمسكتُ أحدهما لنفسي ولِعيالي، وأقرضتُ الآخر ربّي، فأمر رسول الله ﷺ بوَضعه في الصّدقات.

فقال المنافقون على وَجه الطّعن: ما جاءوا بصَدقاتهم إلّا رياءً وسُمعة، وأمّا أبو عقيل فإنّما جاء بصاعه ليُذكر معَ سائر الأكابر، والله غنيّ عن صاعه، فأنزل الله هذه الآية[٣].

عن القُمّي: جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاعٍ من تَمر، فقال: يا رسول الله، كنتُ ليلتي أجيراً لجَرير حتّى عمِلتُ بصاعين من تَمر؛ فأمّا أحدهما فأمسكتُه، وأمّا الآخر فأقرضتُه ربّي، فأمر رسول الله ﷺ أن يَنْثُره في الصّدقات، فسخِر منه المنافقون فقالوا: واللهِ إن الله لغنيّ عن هذا الصاع، ما يصنع الله بصاعه شيئاً، ولكنّ أبا عقيل أراد أن يذكُر نفسه ليُعطى من الصّدقات، فنزلتْ[٤].

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩/١٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٤٤.
٣. تفسير الرازي ١٦: ١٤٥.
٤. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٢: ٣٦١.

وعن الصادق عليه السلام: آجر أمير المؤمنين عليه السلام نفسه على أن يستقي كُلَّ دَلْوٍ بتمرة يختارُها؛ فجمع تمراً، فأتى [به] النبيَّ صلى الله عليه وآله وعبد الرّحمن بن عَوف على الباب فلَمزه، أي وقع فيه، فأُنزلتْ هذه الآية[١].

ثمّ أنّه رُوي عن ابن عبّاس قال: عند نُزول الآية الأولى في المنافقين قالوا: يا رسول الله، استغفِرْ لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سأستغفر لكم». واشْتغلَ بالاستغفار لهم، الخبر[٢]، فردَعَ الله نبيّه صلى الله عليه وآله عن الاستِغفار بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فاخترْ أيّهما شِئتَ، فإنّهما متساويان في عدم النّفع لهم، بَل ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ قيل: إنّ السّبعين كِناية عن الكثير[٣] ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ﴾ أبداً لامتِناع المغفرة لهم ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ والكافر غير قابِل لِأن تَناله المغفرة وتَشْمَله الرّحمة ﴿وَٱللهُ لَايَهْدِي﴾ ولا يُوصل إلى خيرٍ ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ والمُتمرّدين عن حُدود الله وأحكامه.

وروي أنّهم كانوا تأتون رسول الله صلى الله عليه وآله فيعتذرون ويقولون: إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقاً، فنزلت[٤].

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ[٨١]

ثمّ بالغ سُبحانه في ذمّ المُتخلّفين عن الرّسول في غَزوة تَبوك بقوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين أجازهم رسول الله صلى الله عليه وآله في تخلُّفهم رِفقاً بهم، أو لِعلمه بأنّهم يُفسدون ويُشوّشون عليه. وقيل: هُم المُتخلّفون بغير الإجازة ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ وإقامتهم في المدينة، كما عن ابن عبّاس[٥] ﴿خِلَافَ رَسُولِ ٱللهِ﴾ ولعِصيان أمره، أو خَلف الرّسول صلى الله عليه وآله وبعده ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ أعداء الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ولطلب مَرضاته، لاعتِقادهم أنّه تَعريضٌ للمال والنّفس للتّلف، وتَرويجٌ للباطل.

ثمّ بيّن الله أنّهم مع تقاعُد أنفسهم عن الجِهاد وفرحهم به، سَعَوا في منع غيرهم من الخُروج بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لإخوانهم وأصدقائهم: ﴿لَاتَنْفِرُوا﴾ ولا تخرُجوا إلى سفرِ الغَزْو ﴿فِي﴾ زمان ﴿ٱلْحَرِّ﴾ والصّيف.

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٤٨/١٨٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٦٢.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٧٣.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١٤٦.

ثمَ ردّهم وهدّدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿أَشَدُّ حَرّاً﴾ من حَرارة الشّمس والصّيف في الدُّنيا، وقد اختَرتُموها لأنفسكم بقُعودكم عن الجِهاد، ومُخالفتكم الرّسول ﷺ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون بقُوّة العقل أنّ بعد هذه الدّار دارَ الجَزاء، وأنّ مَشقّة حرّها راحة بالنّسبة إلى مَشقّة حَرارة النّار في الآخرة، معَ أنّ الأُولى سريعة الزّوال، والثانية باقية.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٨٢]

ثمَ أنه تعالى بعدَ ذِكر فرح المنافقين بالقُعود، وكان الضّحك من لَوازم شِدّة الفرح، هدّدهم بغاية الحُزن في الآخرة على مَعاصيهم وابتِلائهم بالعذاب بقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ في الدُّنيا ضِحكاً ﴿قَلِيلاً﴾ وإن كان ضِحكُهم مُدّة عُمرهم، فإنّ مُدّة عُمر الدُّنيا قليلة، فكيف بمُدّة عُمرهم؟ ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ في الآخرة على أنفسهم بابتِلائهم بالعذاب بُكاءً ﴿كَثِيراً﴾ حيثُ لا انقِطاع له ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ لأنفسهم من المَعاصي والذُّنوب.

رُوي أنّ أهل النِّفاق يبكون في النّار عُمر الدُّنيا لا يرقأ لهم دَمعٌ، ولا يكتحِلون بنوم[١].

وفي رواية: أنّه يُرسِل الله البُكاء على أهل النّار فيبكون حتّى تنقطع الدُّموع، ثمّ يبكون الدم حتّى ترى وُجوههم كهيئة الأخدود[٢].

وقيل: إنّ القِلّة كِناية عن العدم، والكَثرة كِناية عن الدّوام، وعليه يجُوز أن يكون وقتهما في الدُّنيا، ويجُوز أن يكون في الآخرة[٣].

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: لو تعلمون ما أعلم لبكَيتُم كثيراً وضحِكتُم قليلاً[٤].

ورُوي أنّه خرج ذات يوم، فإذا قومٌ يتحدّثون ويضحكون، فوقف وسلّم عليهم، فقال: أكثروا ذكرَ هادم اللّذّات، قيل: وما هادمُ اللّذّات؟ قال: الموت[٥].

فَإِن رَجَعَكَ ٱللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُم رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ[٨٣]

ثمَ أنه تعالى بعد توضيح غاية خُبث المنافقين وكُفرهم وتَعييبهم النبيّ ﷺ والمؤمنين وتوهينهم

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٧٦.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٧٦.

٤ و٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٧٦.

إيّاهم، أمر نبيّه ﷺ بالإعراض عنهم، والاستِغناء عن نُصرتهم وكَونهم في جيش المُسلمين، بقوله: ﴿فَإِن رَجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ وأعادك من غزوة تَبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ تخلّفوا عنك في تِلك الغَزوة بغير عُذر وعِلّة ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ واستجازوا منك ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ من المدينة إلى غَزوة اُخرى بعد هذه الغَزوة ﴿فَقُل﴾ لهم إعراضاً عنهم: إنّكم ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ إلى غزوة ﴿أَبَدًا﴾ ولا تدخلوا في عِداد المُسلمين ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ من أعدائي ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾ وفرِحتُم ﴿بِٱلْقُعُودِ﴾ عن القِتال والتخلّف عن جيش المُسلمين، والإقامة بالمدينة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي الخَرجة السابقة، وهي الخُروج إلى تَبوك، إذَنْ ﴿فَٱقْعُدُوا﴾ في مكانكم ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ والتزِموا بُيوتكم مع المُتخلّفين من النِّساء والصِّبيان، فإنّكم مِثلهم، لا تَليقون للجِهاد. فأخرجهم الله من ديوان الغُزاة، ومحا أساميهم من دفتر المُجاهدين، ونحّاهم عن مَحفِل صُحبة النبيّ ﷺ، عُقوبةً لهم على تخلُّفِهم وإهانةِ نبيّهم، وإظهاراً لِنفاقهم وشِدّة كُفرهم.

وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَتَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[٨٤]

ثمّ أنّه تعالى بعدما أمر نبيّه ﷺ بإهانتهم وتَذليلهم في حال حياتهم، أمر بإهانتهم بعدَ موتهم بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمّد ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ بعدما ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ لتدعو وتستغفِر له ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تقِف عند تُربته للزِّيارة والدُّعاء.

قيل: كان النبيّ ﷺ إذا دُفن الميّت وقَف على قبره ودعا له[١].

ثمّ عَلّل سُبحانه وُجوب تَذليلهم، وحُرمة الاستغفار لهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مُدّة حَياتهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ومُتمرّدون عن طاعة الله، فلِذا يستحقّون الخِذلان والعذاب في الدُّنيا والآخرة.

عن ابن عبّاس: لمّا اشتكى عبدُالله بن اُبيّ، عادَه رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يُصلّي عليه إذا مات، ويقوم على قَبره. ثمّ إنّه أرسل إلى الرّسول ﷺ يطلُب قميصه ليُكفَن فيه، فأرسل إليه القميص الفوقاني، فردّه وطلب الذي يلي جِلده ليُكفّن فيه، فقال عمر: لِمَ تُعطي قميصك الرِّجسَ النِّجس؟ فقال ﷺ: «إنّ قميصي لايُغني عنه من الله شيئاً، فلعلّ الله أن يُدخِل به ألفاً في الاسلام»، وكان المُنافقون لا يُفارقون عبدُالله، فلمّا رأوه يطلُب هذا القميص ويرجوه أن ينفعه، أسلم منهم ألف.

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٥٣.

فلمّا مات جاء ابنُه يُعرّفه، فقال ﷺ لابنه: «صَلِّ عليه وادفِنْه». فقال: إن لَم تُصلِّ عليه يا رسول الله ﷺ، لَم يُصَلِّ عليه، مُسلمٌ، فقام ﷺ ليُصلّي عليه، فقام عُمر وحال بين رسول الله وبين القِبلة، لئلا يُصلّي عليه. فنزلتْ هذه الآية، وأخذ جَبرئيل بثَوبه، وقال: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً﴾ [1].

نقل كلام الفخر الرازي وردّه

قال الفخر الرّازي: إنّ هذا يدُلّ على مَنقبةٍ عظيمةٍ من مَناقب عُمر؛ لأنّ الوحي نزل على وَفْق قوله [2].

أقول: مَن اعتقد أنّ رأي عُمر كان أصوب مِن رأي رسول الله ﷺ فهو كافر، وأمّا اعتقادنا أنّ رسول الله ﷺ ما كان يُريد إلّا ما أراد الله، وأنه ﷺ كان يعلَمُ القُرآنَ جميعه قبل نُزوله، وإنّما كان مأموراً بإظهار الرِّفق وحُسن الخُلُق بالنِّسبة إلى البَرّ والفاجر حتّى ينزِل الوحيُ بردْعه، ويكون بذلك مَعذوراً في أنظار النّاس.

بَلْ نقول: إنّ الرّواية وأمثالها دالّة على قَدْحٍ عظيم في عُمر، وغاية جَسارته على الرسول ﷺ باعْتِراضه عليه، وحَيلولته بينه ﷺ وبين القِبلة، واعتِقاده أنّه أعقل منه ﷺ، ولِذا لَم يَرِدْ عن أمير المؤمنين عليه السلام أمثال ذلك، مع كونه أقرب النّاس إلى الرّسول ﷺ، وأعزّهم عليه، وأحبّهم عِنده، وأعقل الصّحابة وأعلمهم، بَل أعقل أهل العالَم سِوى الرّسول ﷺ، ولَم يكُن ذلك إلّا لغاية مَعرفته بشؤون الرّسول، وتَسليمه له، وتَبعيّته لإرادته.

عن القُمّي رحمه الله: لمّا رجَع رسول الله ﷺ إلى المدينة، مَرِض عبدُالله بن أُبيّ وكان ابنُه عبدُ الله مؤمناً، فجاء إلى النبيّ ﷺ وأبوه يجُود بنفسه، فقال: يا رسولَالله، بأبي أنت وأُمّي، إنّك إن لَم تأتِ أبي كان ذلك عاراً علينا، فدخل عليه رسول الله ﷺ والمُنافقون عنده، فقال له ابنُه عبدُ الله: يا رسول الله، استغفِرْ له. [فاستَغفر له] فقال عُمر: أَلَم ينهَك الله ـ يا رسول الله ـ أن تُصلّي عليهم أو تستغفِر لهم؟ فأعرض عنه رسول الله، فأعاد عليه، فقال له: «وَيْلك، إنّي خُيِّرتُ فاخْتَرتُ، إنّ الله يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَتَسْتَغْفِرْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ﴾».

فلمّا مات عبدُالله جاء ابنُه إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، إن رأيتَ أن تحضُر جَنازته؟ فحضَر رسول الله ﷺ وقام على قَبره، فقال له عُمر: أَلَم يَنهَك الله أن تُصلّي على أحدٍ منهم مات أبداً، وأن تقوم على قبره؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وَيلك، وهَل تدري ما قُلتُ؟ إنّما قُلتُ: اللّهمّ احشُ قبرَه ناراً، وجَوفه ناراً، واصْلِهْ النّارَ». فبدَا من رسول الله ﷺ ما لَم يكُن يُحبّ [3].

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٥٢.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٥٢.
٣. تفسير القمي ١: ٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لابن عبدُ الله بن أُبيّ: إذا فرَغْتَ من أبيك فأعلِمني، وكان قد توفّى، فأتاه فأعلمه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله نعْلَيه للقِيام، فقال عمر: أليس قد قال الله: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَتَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾؟! فقال له: «وَيْحك - أو ويلك - إنّما أقول: اللّهم احشُ قبرَه ناراً، و[املأ] جوفه ناراً، واصْلِهِ يومَ القِيامة ناراً»[1].

وفي رواية: «أنه صلى الله عليه وآله أخذ بيد ابنه في الجِنازة فمضى، فتصدّى له عُمر ثمّ قال: أما نهاك ربُّك عن أن تُصلّيَ على أحدٍ منهم مات أبداً، أو تقوم على قبره؟! فلم يُجِبْه، فلمّا كان قبل أن ينتهي إلى القبر أعاد عُمر ما قال له أوّلاً، فقال النبي صلى الله عليه وآله لعمر عند ذلك: ما رأيتَنا صلّينا له على جَنازة ولا قمنا له على قبر. ثمّ قال: إنّ ابنه رجلٌ من المؤمنين، وكان يحِقُّ علينا أداءُ حقّه، فقال عمر: أعوذُ بالله من سَخَط الله، وسخط رسوله»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «كان رسول الله إذا صلّى على ميّتٍ، كبّر وتشهّد، ثمّ كبّر وصلّى على الأنبياء، ثمّ كبّر ودَعا للمؤمنين، ثمّ كبّر الرّابعة ودَعا للميّت، ثمّ كبّر وانصَرف. فلمّا نهاه الله عن الصّلاة على المُنافقين، كبّر وتشهّد، ثمّ كبّر وصلّى على النبيّين، ثمّ كبّر ودَعا للمؤمنين، ثمّ كبّر الرّابعة وانصَرف ولَم يدعُ للميّت»[3].

وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[٨٥]

ثمّ أنه تعالى بعد التّأكيد في إهانة المُنافقين، والإعراض عنهم، والاستِغناء عنهم وعن مُعاونتهم، ردَع المؤمنين عن توهُّم أنّ كثرة مالِهم ووُلْدِهم مُوجبٌ لإعزازهم والاعتِناء بشأنهم؛ بقوله: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ﴾ ولا يحسُنْ في نظرك ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ وإن كثُرتْ ﴿وَأَوْلاَدُهُمْ﴾ وإن كانوا كثيرين مُقتدرين، فإنّهما موجبان لخُسرانهم لأجل أنّه ﴿إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ﴾ بتمتُّعهم بالأموال والأولاد ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ ما داموا ﴿فِي ٱلْدُّنْيَا﴾ بسَبب ما يَلْحَقهم من المصائب والهُموم ﴿وَ﴾ أن ﴿تَزْهَقَ﴾ وتخرُج ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ من أبدانهم أو من الدُّنيا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لاشتِغالهم بالتمتُّعات، وإصلاح مَفاسد ما أُعطوا[4] مِن الزِّينات الفانيات، وانهِماكهم في الشّهوات، والإلهاء عن النّظر في الآيات.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٨٦٢/٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٦٣/٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٣٦٤.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٦٤/٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٣٦٥.
٤. في النسخة: اعطى.

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ[٨٦]

ثمّ أنّ الله تعالى بعد ذمّ المنافقين بالتخلّف عن الرسول ومُخالفة أمره، ذمّهم بمُخالفة أمر نفسه الذي هُو في القُرآن، المُشتمل على إعجاز البَيان، الدالّ على كَونه من الله بقوله: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ﴾ من قِبَل الله ﴿سُورَةٌ﴾ تامّة، أو آية منها وكان مَضمونها: ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيُّها المُسلمون عن صميم القَلب ﴿بِاللهِ﴾ وآياته ودينه ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أعداء الله ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ تَراهم مع ذلك يَتثاقلون، و ﴿ٱسْتَأْذَنَكَ﴾ في القُعود منه ﴿أُولُوا ٱلطَّوْلِ﴾ والسَّعة والرِّئاسة ﴿مِنْهُمْ﴾ بأن جاءوا عندك ﴿وَقَالُوا﴾ لك: ﴿ذَرْنَا﴾ ودَعْنا ﴿نَكُن﴾ في المدينة ونقعُد في بُيوتنا ﴿مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ﴾ والمُعذِّرين عن الجِهاد من النِّساء والصِّبيان والمَجانين.

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولٰئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[٨٧و ٨٨]

ثمّ ذمّهم الله بقوله: ﴿رَضُوا﴾ حُبّاً للبقاء، وشوقاً إلى الشّهوات ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ والعَجَزة الذين وظيفتهم التخلُّف كالنِّساء والصِّبيان والمَجانين، أو المُراد: مع الذين لا خَير فيهم ﴿وَطُبِعَ﴾ الله و ختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بأن أظلمها وأقساها في الغاية ﴿فَهُمْ﴾ لذلك الطّبع والخَتم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الإيمان الحقيقي والجِهاد في سبيل الله من الخير وسَعادة الدّارين، وما في التخلُّف عنه، وتحمُّل مُنافيات المُروءة؛ من الذُّلّ والعار، ومِن الشّقاوة والنّكال.

ثمّ بيّن الله سُبحانه أنّ حال الرّسول والمؤمنين الذين عَقَلوا أنّ في الايمان والجِهاد في سبيل الله خيرَ الدّارين، بخِلاف حال المنافقين وأنّهم إن تخلّفوا عن الغَزْو، فقد بادر إليه الذين هُم خيرٌ منهم وأخلص؛ بقوله: ﴿لٰكِنِ﴾ إن تخلّف المُنافقون عن الجِهاد فقد بادَر ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿مَعَهُ﴾ وبتبعهم[١] إليه و﴿جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ طاعةً لله، وشوقاً إلى رضاه ﴿وَأُولٰئِكَ﴾ المجاهدون ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ﴾ الدُّنيويّة والأُخرويّة ﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ﴾ بالخُصوص ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدّارين، والفائزون بأعلى المقاصد والحظوظ التي لا تتصوّرها العُقول في النّشأتين؛ من النّصر والغَنيمة، والشّرف وحُسن الذِّكر، والجنّة والنِّعَم الدّائمة، والكَرامة

١. في النسخة: بتبعه.

الأبدية.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٨٩و ٩٠]

ثمّ ذكر أهمّ الحظوظ بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ وهيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذوات أشجارٍ كثيرةٍ مثمرةٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة المعهودة، حالَ كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً دائماً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفوز بالجنّة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

ثمّ أنّه تعالى بعدَ ذمّ المنافقين الذين كانوا في المدينة بتثاقُلهم في الجِهاد، وتباطُئهم في الخُروج، ذمّ أهل البَوادي منهم بقوله: ﴿وَجَاءَ﴾ إلى الرّسول ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ والمُعتذرون من أهل البَوادي بالأعذار غير الوجيهة ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القُعود عن الجِهاد ﴿وَقَعَدَ﴾ جمعٌ آخر منهم عنه بِلا استئذان واعتِذار، جُرأةً على الله ورَسوله، لظُهور أنّهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دَعواهم الإيمان بهما.

قيل: إنّ أقواماً تكلّفوا عُذراً بباطل، فهم الذين عنى الله بقوله: ﴿وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ وتخلّف الآخرون بِلا عُذرٍ ولا شُبهة عُذر، جُرأةً على الله تعالى، فهم المُرادون بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ﴾.

ثمّ هدّدهم سُبحانه بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ واستمرّوا على النّفاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أمّا في الدُّنيا فبالقَتل والأسر، ونَهب الأموال والإذلال، وأمّا في الآخرة فبالنّار، وسائر فُنون العذاب المُعَدّ للكُفّار.

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَيَجِدُونَ مَايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَأَجِدُ مَاأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ[٩١و ٩٢]

ثمّ أعذر سُبحانه المؤمنين العاجزين عن المُسافرة والجِهاد بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ﴾ كالهَرمىٰ والزّمنىٰ ﴿وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الذين لايُمكنهم السّفر لضَعف القُوى، أو ظَنّ الضّرر ﴿وَلاَ عَلَى﴾

الفُقراء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ على أنفسهم في السَفر لشِدَة فَقْرهم ﴿حَرَجٌ﴾ وبأس في التخلُّف عن السَفر والغَزو، ولكن ذلك ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ وأخلصوا قُلوبهم وأعمالهم ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يغُشُّوا الرَسول والمؤمنين لأنّهم المُحسنون في أعمالهم، و ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن أهل الإيمان شيءٌ ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ من العِقاب والعِتاب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذُنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، يُثيبهم على إيمانهم وإحسانهم أفضل الثواب ﴿وَلَا﴾ حَرجٌ أيضاً ﴿عَلَى﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ وحضَروا عندك والْتَمسوا منك ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على مركوبٍ، يُطيقون السير معك، مَع وِجدانهم النَفقة على أنفسهم، وأنت ﴿قُلْتَ﴾ في جَوابهم: إنّي ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فلمّا يئسوا منك ﴿تَوَلَّوا﴾ ورجَعوا من عندك ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ كأنّ كُلّها دَمعٌ فائضٌ ﴿حَزَناً﴾ على حِرمانهم من الجِهاد لأجل ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ من المال مِقدار ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في شِراء المَركوب.

قيل: الفُقراء الذين لَم يجِدوا ما يُنفقون على أنفسهم هُم مُزَينة وجُهَينة وبنو عُذْرة[١]، والذين لَم يجِدوا ما يُحمَلون عليه سبعةٌ من الأنصار، فإنّهم أتَوا رسول الله ﷺ فقالوا: نذَرْنا الخُروج، فاحمِلنا على الخِفاف المَرقوعة[٢] والنِّعال المَخصوفة، فنغزو معك، فقال: «لا أجِدُ»، فتولّوا وهُم يبكون[٣].

وعن ابن عبّاس: سألوه أن يحمِلهم على الدَوابّ، فقال ﷺ: «لا أجدُ ما أحمِلكم عليه» لأنّ الشُّقّة بعيدة، والرَجُل يحتاج إلى بعيرٍ يركَبه وبعيرٍ يحمِل عليه ماءَه وزاده[٤].

عن القُمّي ﵀: جاء البكّاؤن إلى رسول الله ﷺ وهُم سبعة نفرٍ؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمير، قد شهد بَدْراً لا اختلاف فيه، ومن بني واقف: هَرَمي[٥] بن عمير، ومن بني حارثة: عُلْبَة[٦] بن زيد، وهو الذي تصدّق بعِرْضه[٧]، وذلك أنّ رسول الله ﷺ أمر بالصّدقة، فجعل النّاس يأتون بها، فجاء عُلْبَة فقال: يا رسول الله، ما عندي ما أتصدقّ به، وقد جعلت عِرْضي حِلّاً، فقال له رسول الله ﷺ: قد قبِل الله صدَقتك. ومن بني مازن بن النّجار: أبو ليلى عبد الرّحمن بن كعب، ومن بني سلمة[٨]: عمرو[٩]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٤.
٢. في النسخة: المدبوغة.
٣. تفسير أبي المسعود ٤: ٩٢، تفسير روح البيان ٣: ٤٨٥.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.
٥. في النسخة: حرمي، وفي المصدر: هدمي (هرمي خ ل)، وقد اختلف في اسم أبيه أيضاً، ففي أسد الغابة: هرمي بن عبدالله، وفي طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي: هرمي بن عمرو. راجع: أسد الغابة ٥: ٥٨، طبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، مغازي الواقدي ٣: ٩٩٤.
٦. في النسخة والمصدر: علية، تصحيف، راجع: أُسد الغابة ٥: ١٠، طبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، مغازي الواقدي ٣: ٩٩٤.
٧. تصدَّقت بِعِرضه، أي تصدّق بعرضه على من ذكره بما يرجع إليه عيبة.
٨. في النسخة: بني سلمى، وما أثبتناه من المصدر وأُسد الغابة ٤: ١٢٣، وطبقات ابن سعد ٢: ١٦٥، ومغازي الواقدي ٣: ٩٩٤.
٩. في النسخة: عمر، وما أثبتناه من المصدر والمصادر المتقدمة، وقد وقع الاختلاف في اسم أبيه، ففي المصدر:

بن غنيمة، ومن بني زريق - أو رُزين -: سلمة بن صَخر، والعِرباض[١] بن سارية السّلمي. هؤلاء جاءوا إلى رسول الله ﷺ يبكون، فقالوا: يا رسول الله، ليس بنا قُوّة أن نخرُج معك، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَيسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ إلى قوله: ﴿ألَّا يَجِدُوا مَايُنفِقُونَ﴾ قال: وإنّما سأل البكاؤون نَعلاً يلبَسونها[٢].

وقيل: هُم بنو مُقرن، وكانوا سبعة إخوة كُلّهم صحِبوا النبيَ ﷺ، وليسَ في الصَحابة سبعة إخوة غيرهم[٣].

وقيل: إنّها نزلتْ في أبي مُوسى الأشعري وأصحابه[٤].

وقيل: إنّهم ثلاثة إخوة: معقل، وسُويد. والنّعمان، بنو مُقرِن، سألوا النبيَ ﷺ أن يحمِلهم على الخِفاف المَدبوغة والنِّعال المَخصوفة[٥].

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَتَعْتَذِرُوا لَن نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٩٣و ٩٤]

ثمَ أنّه تعالى بعد ما نفى السَبيل عن المؤمنين المُعذورين، أثبتها على غير المُعذورين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ من العِتاب والعِقاب والخِزي ثابت ﴿عَلَى﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في القُعود والتخلّف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون لأهبة السّفر والغَزو معَ السّلامة.

ثمَ كأنّه قيل: ما كانت عِلَة استِئذانهم؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وتحمّلوا الدّناءة والذِلّة والانتِظام في عِداد النّساء والعَجزة ﴿وَطَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ لذلك الطّبع ﴿لاَيَعْلَمُونَ﴾ مَنافع الجِهاد ومَضارَ القُعود عنه أبداً، ولِذا تنفروا عن الجِهاد.

قيل: كانوا ثمانين رجلاً من قبائلٍ شتّى[٦]، ذمّهم سُبحانه بالاعتِذار بالأعذار الباطلة الكاذبة بقوله:

← غنمة (عتمة خ ل)، وفي أُسد الغابة: غنمة، وفي طبقات ابن سعد: عنمة، وفي مغازي الواقدي: عتبة.

١. في النسخة: ومن بني الغرماء ضرة، وفي المصدر: ومن بني العرياض ناصر، تصحيف، راجع: المصادر المتقدمة، وأُسد الغابة ٣: ٣٩٩.

٢. تفسير القمي ١: ٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٧.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٥.

٤. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.

٥. تفسير الرازي ١٦: ١٦٢.

٦. تفسير القمي ١: ٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلُّف عنكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غَزوة تَبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾.

ثمّ لمّا كان الجَواب وظيفة الرسول، أمره الله بأن يُجيبهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد لهم: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ فإنّ فائدة الاعتِذار دَفع التوهُّم السُّوء في حقّ المُعتذِر، وهو لا يكون إلّا بتصديق المُعتذَر إليه، ونحن ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ولا نُصدّقكم في اعتِذاركم أبداً؛ لأنه ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ وأخبرنا بالوَحي بعضاً ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ المُوجب للعِلم بضَمائركم من الكُفر والشرّ والفَساد، فلِذا لا يُمكننا تَصديقكم فيما هُو معلوم الكَذِب عندنا ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ فيما بعد ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ من التَوبة، ونُصرة النبيّ ﷺ، والنُّصح له، وغيرها مِمّا له شَهادة على صِدق اعتِذاركم، ومن الغَدر والكُفر والفَساد ما هو مِن أدلّة كَذِبه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ وتُرجَعُون بالموت من الدُّنيا ﴿إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ ودار الجزاء المَستورة عن الأنظار ﴿وَ﴾ عالم ﴿ٱلشَّهَادَةِ﴾ وكشف السِّر عمّا في الضمائر، ورَفع الحِجاب عن الجنّة والنّار ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ الله عند ردّكم إليه ووُقوفكم بين يدَيه ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من السيِّئات السّابقة واللّاحقة، والحَسنات بما يحكُم به عليكم من العِتاب والعِقاب، ولكم من الإكرام والثّواب.

سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٩٥]

ثمّ بعد بَيان كذبهم في الاعتِذار، ذمّهم سُبحانه بحَلْفهم الكاذب عليه بقوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمَعاذيرهم الكاذبة ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ وانصرفتُم من سَفر الغَزو ﴿إِلَيْهِمْ﴾: إنّا ما قدَرنا على الخُروج، ولَو قدَرنا ما تخلّصنا، كما قيل: إنّه مَقالة جَدّ بن قيس، ومُعتِّب بن قُشَير وأصحابهما[1] ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ عن لَومهم وتَعنيفهم، وتصفَحوا عن تقصيرهم. قيل: إنّهم طلبوا إعراض الصَفح؛ فأمر الله المؤمنين بإعراض المَقْت[2] بقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

عن ابن عبّاس: يُريد تَرك الكَلام والسّلام[3].

وقيل: قال النبي ﷺ حين قدِم المدينة: «لا تُجالسوهم ولا تُكلّموهم»[4].

ثمّ نبّه سُبحانه على عِلّة الإعراض بقوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ وقَذَرٌ ذاتاً ورُوحاً، لا يتطهّرون بالتّقريع والنُّصح ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ ومقرّهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ لا ينجَون منها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكُفْر وقبائح الأعمال، فإذا كانوا كذلك تكون مُجالستهم ومُكالمتهم مُؤثِّرة في ظُلمة

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٩٥، تفسير روح البيان ٣: ٤٨٧.

٢ - ٤. تفسير الرازي ١٦: ١٦٤.

القلب وكُدورة الرُّوح، ومُوجبة للبُعد عن الله.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَايَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ[٩٦]

ثمّ لمّا كان المنافقون طالبين للإعراض معَ الصَفح والرِّضا، نهى الله المؤمنين عن ذلك بقوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالله ﴿لَكُمْ﴾ على صِدق مَعاذيرهم كَذِباً ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحَلفهم، وتعاملوا معهم مُعاملتكم مع المسلمين ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فقد خالفتُم الله في ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللهَ لَايَرْضَىٰ﴾ أبداً ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ والطّاغين عليه بالكُفر وفساد الأعمال، فعليكم أن لا ترضَوا عنهم أيضاً لأنّ رِضا المؤمن تابعٌ لرِضا الله.

القُمّي ﷺ: لمّا قدِم النبيّ ﷺ المدينة من تَبوك، كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون للمُنافقين ويُؤذونهم، وكانوا يحلِفون لهم أنّهم على الحقّ، وليسوا بمنافقين لكي يُعرضوا عنهم ويَرْضَوا عنهم، فأنزل الله هذه الآية[1].

عن (المجمع): عن النبيّ ﷺ: «مَن التمس رِضا الله بسَخَط النّاس رَضي الله عنه، [وأرضى عنه النّاس]، ومَن التمس رِضا النّاس بسَخَط الله [سَخِط الله]
عليه، وأسخط عليه النّاس»[2].

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَاأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَايُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوءِ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٩٧و ٩٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين من أهل المدينة، ذمّ أهل البادية منهم بقوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ وأهل البوادي منهم ﴿أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ من أهل الحضَر وسُكّان البلد. قيل: لأنّهم يشبهون الوُحوش من حيث إنّهم مجبولون على الامتِناع عن الطاعة والانقياد[3] ﴿وَ﴾ هم ﴿أَجْدَرُ﴾ وأولى ﴿أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَاأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الأحكام والعِبادات، لعدَم مُلازمتهم حُضوره، وبُعدهم عن استِماع القُرآن والمَواعظ الشافية وسُنن الرّسول ﷺ ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عِباده، بَدَويهم

---

١. تفسير القمي ١: ٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.
٢. مجمع البيان ٥: ٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٦٨.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٤٨٩.

وحَضَريهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يُجازي به مُحسنهم ومُسيئهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين من الأعراب لشِدّة الكُفر والنِّفاق والجَهل، ذمّهم بسُوء الأعمال بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ ويَعُدّ ﴿مَايُنْفِقُ﴾ من ماله في الظّاهر في سَبيل الله ﴿مَغْرَماً﴾ وخُسراناً وضَرَراً على نفسه، لاعتِقاده عدَم النّفع له فيه في الدُّنيا والآخرة، وإنّما يُنفِقه رياءً واتّقاءً من المسلمين ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ﴾ وينتظر في شأنكم ﴿ٱلدَّوَائِرَ﴾ والمُصيبات؛ من الموت والقَتل والأسر بأيدي الكُفّار بعدَ موت الرّسول ﷺ.

ثمّ دعا عليهم بمثل ما طلبوا للمسلمين بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوءِ﴾ والبَليّة المحيطة المكروهة من الخِزي والقَتل والأسر في الدُّنيا، والعذاب الشّديد في الآخرة، فلا يَرون في النبيّ ﷺ والمؤمنين إلّا ما يسُوءهم ﴿وَٱللهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم عند الإنفاق وغيره ﴿عَلِيمٌ﴾ بنِيّاتهم وما في ضمائرهم من الرِّياء والاتّقاء والكُفْر، وعَداوة النبيّ ﷺ والمؤمنين.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَايُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٩٩]

ثمّ مدح المؤمنين الخُلّص منهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ ويَعُدّ ﴿مَايُنفِقُ﴾ من أمواله في سبيل الله ﴿قُرُبَاتٍ﴾ ووَسائل حُصول الكرامة والمَثوبة ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ تعالى ﴿وَ﴾ ذَريعة ﴿صَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ﴾ عليهم، ودعائه لهم بالخير والبركة والغُفران.

ثمّ شهِد سُبحانه بصِحّة مُعتقدهم في نَفَقتهم بقوله: ﴿أَلاَ﴾ تنبّهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾ عظيمة، ووسيلة حُصول المنزلة العالية ﴿لَهُمْ﴾ عندَ الله، ومِن آثار قُربهم أنّه تعالى ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وجنّته، ويُحيط بهم فضله ونِعَمه ﴿إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ﴾ لسيّئاتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بأن يُوفّقهم لطاعته والعمَل بمَرضاته.

وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِىَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[١٠٠]

ثمّ لمّا مدح الله المؤمنين من الأعراب، ووعدهم الثواب، وأعلن بعدم رِضانه عن المنافقين والفاسقين، بيّن أفضليّة الصّحابة السّابقين في الإيمان والنُّصرة، ورِضاءه منهم بقوله: **﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾** في الإيمان والنُّصرة **﴿مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾** كأمير المؤمنين وحَمزة. وعنه عليه السلام: «لا يقع اسمُ الهِجرة على أحدٍ إلّا بمعرفة الحُجّة في الأرض، فمَن عرفها وأقرّ بها فهو مُهاجر»[1] **﴿وَ﴾** من **﴿ٱلْأَنصَارِ﴾** كالسّبعة الذين بايعوا الرّسول صلى الله عليه وآله في العَقَبة الأُولى والسّبعين الذين بايعوه في العقبة الثانية.

والقُمّي رحمه الله: هُم النُّقباء؛ أبو ذَرّ، والمِقداد، وسَلمان، وعمّار، ومَن آمن وصدّق وثبَت على وِلاية أمير المؤمنين عليه السلام[2].

وفي (نهج البلاغة): «اسمُ الهِجرة لا يقع على أحدٍ إلّا بمعرفة الحُجّة في الأرض، فمَن عرَفها وأقرّ بها فهو مُهاجر»[3].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ واقتدَوا بهم مُتلبّسين **﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾** من الأخلاق الحَسنة، والصّفات الكريمة، والأعمال الصّالحة.

عن الصادق عليه السلام في حديث: «فبدأ بالمهاجرين الأوّلين على دَرجة سَبْقهم، ثمّ ثنّىٰ بالأنصار، ثمّ ثلّث بالتّابعين بإحسان، فوضع كُلّ قومٍ على قَدر دَرجاتهم ومَنازلهم عنده»[4].

روَت العامّة: أنّه أُوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهو ابن أربعين سنة في مكّة، فبايعه جَماعةٌ من النّاس، فعدا عليهم كُفّار قُريش فظلَموهم ليرُدّوهم إلى ما كانوا عليه، فأمرهم النبيّ صلى الله عليه وآله بالهِجرة إلى أرض الحبشة، فخرجوا نحواً من ثمانين رجلاً، وهذه هي الهِجرة الأولى[5].

في نقل كلام الفخر الرازي وردّه

أقول: لا شُبهة أنّهم السّابقون في الهِجرة، ولَم يكُن فيهم أبوبكر، فما ذكر الفخر الرّازي ـ من أنّ السّبق إلى الهِجرة إنّما حصل لأبي بكر، فكان نصيبُ أبي‌بكر من هذه الفضيلة أوفر[6] ـ من الأغلاط؛ لأن المُهاجرين إلى الحبشة كانوا أسبق في الهِجرة من أبي‌بكر، وإن كان مُراده الهِجرة إلى المدينة، فمِن المعلوم أنّ مُصعب بن عُمير كان أسبق منه فيها، ونصيبه أوفر من نصيبه، حيثُ روَوا أنّه لمّا انصرف أهلُ العقبة الثّانية إلى المدينة، بعث النبيّ صلى الله عليه وآله معهم مُصعب بن عُمير ليُفقّه أهلها، ويُعلّمهم القُرآن، وكانت[7] هِجرته في السنة الثانية عشر[8].

---

١. نهج البلاغة: ١٨٩/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩.
٢. تفسير القمي ١: ٣٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩.
٣. تقدم آنفاً.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٨٧٢/٢٥٣، الكافي ٢: ١/٣٤، تفسير الصافي ٢: ٣٦٩.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٩٢.
٦. تفسير الرازي ١٦: ١٦٩.
٧. في النسخة: كان.
٨. تفسير روح البيان ٣: ٤٩٢.

ثمّ بشّر شبحانه المُهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان بـرِضانه عـنهم بـقوله: **﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾** بقَبُول طاعتهم وأعمالهم **﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾** بما نالوا من نِعَمه الدُّنيويّة والأُخرويّة.

قال الفخر الرّازي: فإذا ثبت هذا يعني كَون أبيبكر من السّابقين إلى الهِجرة، صار مَحكوماً عليه بأنّه رضي الله عنه ورضي هو عنه، وذلك في أعلى الدّرجات من الفَضل، فاذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد الرّسول، إذْ لَو كانت إمامته باطلة لاسْتحقّ اللّعن والمَقت، وذلك يُنافي مثل هذا التّعظيم، فصارتْ هذه الآية مِن أدلّ الدّلائل على فضل أبيبكر وعُمر، وصِحّة إمامتهما.

ثمّ أورد على نفسه: بأنّه لِمَ قُلتم أنّه بقي على تِلك الحالة، ولِمَ لا يجُوز أن يُقال أنّه تغيّر عن تِلك الحالة، وزالتْ عنه تِلك الفضيلة، بسبب إقدامه على الإمامة[١].

ثمّ أجاب عنه: بأنّ قوله تعالى: **﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾** يتناول جميع الأوقات والأحوال؛ بدَليل أنّه لا وقتَ ولا حال إلّا ويصِحّ استثناؤه منه، فيُقال: **﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾** إلّا في وقت طلب الإمامة، ومقتضى الاستِثناء إخراج ما لَولاه لدخَل تحت اللّفظ[٢].

أقول: فيه أنّ الظاهر من الآية رضاؤه تعالى عنهم في أوّل إيمانهم وهِجرتهم، وإنّه باقٍ ما لَم يصدُر منهم ما يُوجب الغَضب والسّخط، ولولا ذلك لزِم القولُ بـرِضانه تـعالى عـن عُـمر وعُـثمان حينَ فِرارهما من الزّحف يومَ اُحُد، وكون فِرارهما حقّاً، ولازم ذلك كَون ثَبات الرّسول ﷺ فـيه بـاطلاً، وعن جميع الصّحابة حينَ مُخالفتهم الرّسول ﷺ ومُعارضتهم له يومَ الحُدَيبية.

ومع القول بذلك لا معنى لقوله تعالى: **﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾**[٣] لأنّ رِضاءه حصل ولَم يزل، فكان الإخبارُ بحُدوثه بعدَ البيعة إخباراً بـحُصول مـا كـان حاصلاً، ولزِم القول برضانه تعالى عن الزُّبير حينَ خُروجه من بيت أمير المؤمنين ؑ بالسّيف، يومَ اجتِماع النّاس على بابه لإخراجه إلى بيعة أبيبكر، وكونه حقّاً، فكانت إمامة أبيبكر وبيعته باطِلتين.

وأيضاً لزِم كون قِتال طَلحة والزُّبير مع أمير المؤمنين ؑ حقّاً، ولا يقول به مُسلم، وكون تـخلُّف كثيرٍ من الصّحابة والسّابقين الأوّلين ـ كسعد بن عُبادة وأضرابه، عن بيعة أبيبكر، واجتماعهم على قَتل عُثمان ـ حقّاً، فكانت[٤] إمامة أبيبكر وعُثمان باطلة خُصوصاً بِناءً على ما قاله أكثرُ مُفسّري العامّة مِن أنّ الآية تتناول جميع الصّحابة؛ لأنّ جميعهم موصوفون بكَونهم سابقين أوّلين بالنّسبة إلى سائر المسلمين[٥].

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٦٩.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٧٠.
٣. الفتح: ١٨/٤٨.
٤. في النسخة: فكان.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١٧١.

ثمَ بشّرهم الله بالثّواب الأخروي بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ حالَ كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُقيمين ﴿فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ﴾ المذكور من رِضاء الله عنهم، وخُلودهم في الجنّة هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز ولا نَجاح أعظم منه.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ[١٠١]

ثمَ أنه تعالى بعد ذمّ المنافقين المشهورين في المدينة والبَوادي، أخبر بنِفاق بعض المسلمين المُبطنين للنِّفاق بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ وفي أطراف بلدكم ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وأهل البوادي المَشهورين بينكم بالإيمان ﴿مُنَافِقُونَ﴾ مَستورٌ نِفاقهم عنكم. قيل: هُم جُهَينة ومُزَينة وأسْلَم وأشْجَع وغِفار، كانوا نازلين حول المدينة[١] ﴿وَ﴾ بعض ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾ وعَتَوا واستمرّوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ وبلغوا في المَهارة فيه إلى دَرجة ﴿لَاتَعْلَمُهُمْ﴾ معَ كمال فِطنتك، وقُوّة فِراستك، و ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعرِفهم لإحاطتنا بضمائرهم وأسرارهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ قبل يومِ القِيامة ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرّةً في الدُّنيا، ومرّة في البَرزخ والقبر. وقيل: إنّ المُراد من ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ تكرُّر عذابهم في الدُّنيا[٢] ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قَدرُه.

وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٠٢]

ثمَ ذكر سُبحانه القِسم الثّالث من أهل المدينة بقوله: ﴿وَآخَرُونَ﴾ منهم ﴿ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ قيل: هُم المُنافقون الذين تابوا من نِفاقهم[٣]. وقيل: هُم جمعٌ من المسلمين تخلّفوا عن غَزوة تَبوك كَسَلاً لا نِفاقاً وكُفراً[٤]، ثمَ أقرّوا على أنفسهم بالعِصيان، وأظهروا النّدامة، وهُم ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً﴾ من حُضورهم في الغَزوات، واهتِمامهم بالعِبادات، ونَدمهم على القُعود عن غَزوة تَبوك، وتَوبتهم من التخلُّف ﴿وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ من المعاصي السّابقة واللّاحقة.

رُوي أنّهم كانوا ثلاثة: أبو لُبابة مَروان بن عبد المُنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام[٥].

وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم لمّا بلَغهم ما نزَل في المُتخلّفين وأيقنوا بالهَلاك، أوثقوا أنفسهم

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٧٣، تفسير أبي السعود ٤: ٩٧، تفسير روح البيان ٣: ٤٩٣.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٩٨، تفسير روح البيان ٣: ٤٩٤.

٣ و ٤. تفسير الرازي ١٦: ١٧٤. ٥. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.

على سَواري المسجد، فقدِم رسول الله ﷺ فدخل المسجد وصلّى رَكعتين، وكانت هذه عادته، فلمّا رآهم مُوثقين سأل عنهم، فذُكر له أنّهم حلَفوا أن لا يحُلّوا أنفسهم حتّى يكون الرّسول هو الذي يحُلّهم، فقال ﷺ: «وأنا أُقسِم أنّي لا أحُلّهم حتّى أُومر فيهم». فنزلتْ هذه الآية.

فأطلقهم وعذَرهم[١] لمّا أخبر الله بقبول تَوبتهم بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعود عليهم بالرّحمة والمغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذُنوب التّائبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ومُفضّل عليهم بالثّواب.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[١٠٣]

رُوي أنّهم قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا، وإنّما تخلّفنا عنك بسببها، فتصدّق بها وطهّرنا، فقال: ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً. فنزل قولُه تعالى[٢]: ﴿خُذْ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ التي أعطوك ﴿صَدَقَةً﴾ حالَ كونك ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذُّنوب التي خلَطوها بأعمالهم الصّالحة ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتُنمّي بتِلك الصّدقة أنفسهم بالكمال، وأموالهم في الدُّنيا والآخرة بالبَركة والثّواب ـ وقيل: يعني تُبالغ في تطهيرهم[٣]، أو تعظيم شأنهم وتُثني عليهم بها ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وادْعُ لهم بالخَير والبركة والغُفران ﴿إِنَّ صَلاتَكَ﴾ عليهم ودُعاءك لهم ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وطُمأنينة تطمئنّ بها قُلوبهم. وعن ابن عبّاس: إنّ دُعاءك رحمةٌ لهم[٤] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعتِرافهم وتَوبتهم ومَقالاتهم عند إعطائهم الصّدقة ودُعائك لهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الصِّدق والخُلوص.

قيل: إنّ رسول الله ﷺ أخذ ثُلث أموالهم لتكميل تَوبتهم، وتكفير ذُنوبهم التي منها تخلُّفهم عن الغَزو[٥].

عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللّهم صَلِّ عليهم»[٦].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية: أجاريةٌ في الإمام بعدَ رسول الله ﷺ قال: نعم[٧].

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ[١٠٤]

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٧٥.
٣. تفسير الرازي ١٦: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٤: ٩٩.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٨٤.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٩٥.
٦. مجمع البيان ٥: ١٠٣، تفسير الصافي ٢: ٣٧١.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٨٧٩/٢٥٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧١.

ثمَ لمَا لَم يُصرّح الله سُبحانه في الآية السّابقة بقَبُول تَوبتهم، صرّح به بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ من الذّنوب ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ المؤمنين المذنبين التّائبين ﴿وَيَأْخُذُ﴾ منهم ﴿ٱلصَّدَقَاتِ﴾ الصّادرة منهم عن خُلوص النيّة. ثمَ أكّد قَبول تَوبتهم بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ على المّذنبين، ومُبالغ في قَبول تَوبتهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

رُوي أنّ رسول الله ﷺ لمَا حكَم بصِحّة تَوبتهم، قال الذين لَم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا معنا بالأمس لا يُكلّمون ولا يُجالسون، فما لهم؟ فنزلتْ[١].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله يقول: ما مِن شيءٍ إلّا وقد وكّلت [به] مَن يقبِضه غيري إلّا الصّدقة فإنّي أتلقّفها بيدي تلقُّفاً، حتّى إنّ الرّجُل ليتصدّق بالتّمرة أو بشِقّ التّمرة فأُربّيها له كما يُربّي الرجل فِلْوَهُ[٢] وفَصيله، فيأتي يومَ القِيامة وهُو مثل اُحُد وأعظم من اُحُد»[٣].

وعن السجّاد عليه السلام: «ضمنتُ على ربّي أنّ الصّدقة لا تقع في يد العبد حتّى تقع في يد الرّبّ، وهو قوله: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ﴾»[٤].

وعنه عليه السلام: أنّه كان إذا أعطى السّائل قبّل يَد السائل، فقيل له: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: «لأنّها تقع في يدِ الله قَبْل يدِ العبد». وقال: «ليسَ مِن شيءٍ إلّا وُكّل به مَلَكٌ إلّا الصّدقة فإنّها تقعُ في يدِ الله»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «كان أبي إذا تصدّق بشيءٍ وضعه في يد السّائل ثم ارتدّه منه فقبّله وشمّه [ثم رده في يد السائل]»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا ناولتُم السائل شيئاً فاسألوه أن يدعوَ لكم فإنّه يُجاب له فيكم، ولا يُجاب في نفسه - إلى أن قال: - وليرُدّ الذي ناوله يَده إلى فيه فيُقبّلها، فإنّ الله تعالى يأخُذها قبل أن تقع في يده، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ﴾»[٧].

وعن الصادق عليه السلام في حديث: «والأخذُ في وَجه القَبول منه، كما قال: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ﴾ أي يقبَلها من أهلها ويُثيب عليها»[٨].

وقيل: إنّ قوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ ذكَر أنّ الآخذ هُو الرسول ﷺ، وفي هذه ذكَر أنّ الآخذ

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨٥.
٢. الفِلو: الجَحشُ أو المُهر يُفطم أو يبلُغ السنة.
٣. الكافي ٤: ٦/٤٧، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٨٨٦/٢٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٨٨٥/٢٥٧، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٨٨٢/٢٥٦، الكافي ٤: ٣/٩، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.
٧. الخصال: ١٠/٦١٩، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.
٨. التوحيد: ٢/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٢.

هُوالله، فيُفهم من الآيتين أنّ أخذَ الرّسول أخذُ الله، ففيه التّنبيه على عِظَم شأن الرّسول ﷺ[١].

وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[١٠٥]

ثمّ رغّب سُبحانه التّائبين على العمل بعدَ قَبول تَوبتهم، أو عُموم العِباد في مُطلق الخيرات، ورهّبهم من العِصيان بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ للتّائبين، أو لعُموم المؤمنين: ﴿ٱعْمَلُوا﴾ ما شِئتُم من الأعمال خيراً أو شرّاً ﴿فَسَيَرَى ٱللهُ﴾ ويعلَم البتّة ﴿عَمَلَكُمْ﴾ خيراً كان أو شرّاً، ظاهراً كان أو خَفِيّاً ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضاً يراه، بَل ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يرَونه.

عن الباقر عليه السلام: «هُو والله عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «هُم الأئمّة عليهم السلام»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إيّانا عنىٰ»[٤].

وعنه عليه السلام: «تُعرض على رسول الله ﷺ أعمال العِباد كُلّ صَباحٍ، أبرارها وفُجّارها؛ فاحْذروها، وهو قوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا ...﴾ الآية»[٥].

وعنه عليه السلام أنّه قُرئ عنده هذه الآية فقال: «ليس هكذا هي، إنّما هي (والمأمونون)، فنحن المأمونون»[٦].

أقول: ليس المُراد تغيير اللّفظ، بَل بَيان أن مادّة «مؤمنون» الأمن لا الإيمان.

ورُوي: لَو أنّ رَجُلاً عمِل في صَخرة لا باب لها ولا كُوَه، لخرج عمله إلى النّاس كائناً ما كان[٧].

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ وتُرجعون البتّة بعد الموت ﴿إِلَىٰ﴾ جَزاء أعمالكم، أو إلى دار الآخرة التي هي معنى ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ لغِيابه عن أنظار العامّة، ﴿وَ﴾ عالم ﴿ٱلشَّهَادَةِ﴾ لحُضوره عند النّاس، أو لشُهودهم حقائق الأعمال والأشياء فيه ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويُخبركم الله ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بإراءتكم جَزاءه.

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٨٦.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٨٨٩/٢٥٨، الكافي ١: ٥/١٧١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٩٣/٢٥٩، الكافي ١: ٢/١٧١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.
٤. الكافي ١: ٢/١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٨٩١/٢٥٩، الكافي ١: ١/١٧١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.
٦. الكافي ١: ٦٢/٣٥١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٣.
٧. تفسير الرازي ١٦: ١٨٩، تفسير روح البيان ٣: ٥٠١.

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[١٠٦]

ثمّ بيّن سُبحانه القِسم الآخر من النّاس بقوله: ﴿وَآخَرُونَ﴾ مِنهم قومٌ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ ومُؤخّرون في جَزائهم ﴿لأَمْرِ اللهِ﴾ وإلى نُزول حُكمه في شأنهم، أو إلى إرادته التّعذيب أو العَفو، فهُو تعالى ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ على ذُنوبهم إن سوّفوا التّوبة إلى أن يموتوا على ما هم عليه ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا عن خُلوص ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم من التّعذيب والعَفو.

رُوي عنهما عليهما السلام في هذه الآية: «أنّهم قومٌ مُشركون، قتلوا مِثلَ حَمزة وجَعفر وأشباههما من المؤمنين، ثمّ دخلوا في الإسلام، فوحّدوا الله وترَكوا الشِّرك، ولَم يعرفوا الإيمان بقُلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنّة، ولَم يكونوا على جُحودهم فيكفُروا فتجب لهم النّار، فهم على تِلك الحال إمّا يعذّبهم وإمّا يتُوب عليهم»[١].

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*لاَتَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ[١٠٧و١٠٨]

ثمّ ذمّ الله المُنافقين على بِناء مسجد ضِرار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وبنَوا ﴿مَسْجِداً﴾ بجَنب مسجد قُبا[٢]، ليكون أو ليضُرّوا به ﴿ضِرَاراً وَكُفْراً وَ﴾ ليُفرّقوا به ﴿تَفْرِيقاً﴾ ويُوقِعوا اختِلافاً ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَ﴾ يترصّدوا وينتظِروا ﴿إِرْصَاداً﴾ وانتظاراً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾.

في بيان علة بناء مسجد ضرار

عن ابن عبّاس وجمعٍ من مُفسّري العامّة قالوا: كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، بنَوا مَسجداً ليُضارّوا مَسجد قُبا[٣].

وقيل: إنّ أبا عامر الرّاهب ـ والد حنظلة، الذي غسّلته الملائكة ـ وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق، وقد تنصّر في الجاهليّة، وترهّب وطلب العِلم، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله عاداه لأنّه زالتْ رئاسته،

١. تفسير العيّاشي ٢: ١٩٠١/٢٦١ والكافي ٢: ١/٢٩٩ عن الباقر عليه السلام، تفسير القمي ١: ٣٠٤ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٣٧٤.

٢. مسجد قُبا: أصله اسم بئر في قرية تجمّع حولها بنو عمرو بن عوف، على ميلين من المدينة، وفيها مسجد التقوى، وهو أول مسجد صُلّيت فيه صلاة الجمعة.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٣. عن ابن عباس و مجاهد و قتاده وعامة أهل التفسير.

وقال: لا أجد قوماً يُقاتلونك إلّا قاتلتُك معهم، ولَم يزَل يُقاتله إلى يوم حُنين، فلمّا انهزمتْ هوازن خرج إلى الشّام وأرسل إلى المنافقين أن استعدّوا بما استطعتُم من قُوّة وسِلاح، وابنُوا لي مسجداً، فإنّي ذاهب إلى قيصر وآتٍ من عنده بجُندٍ فأُخرِجُ محمداً وأصحابه. فبنَوا هذا المسجد، وانتظروا مجيء أبي عامر ليُصلّي بهم في ذلك المسجد[1].

وعن (الجوامع) قال: رُوي أنّ بني عمرو بن عوف لمّا بنَوا مسجد قُبا، وصلّى فيهم رسول الله ﷺ حسَدتْهم إخوتُهم بنُو غَنْم بن عوف، وقالو: نبني مسجداً نُصلّي فيه ولا نحضُر جَماعة محمّد. فبنَوا مسجداً إلى جَنب مسجد قُبا، وقالوا لرَسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تَبوك: إنّا نُحبّ أن تأتينا فتُصلّي لنا فيه، فقال: «إنّي على جَناح سَفر». ولمّا انصَرف من تَبوك نزلتْ الآية، فأرسل مَن هدَم المسجد وأحرقه، وأمر أن يُتّخذ مكانه كُناسة تُلقى فيها الجيف والقُمامة[2].

ثمّ أخبر الله تعالى بنفاق البانين للمسجد بقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ بالله للرَسول ﷺ عند سؤاله عن عِلّة بنائه ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ وما قصَدنا ببِنائه ﴿إِلَّا﴾ الفِعلة أو الخصلة أو الإرادة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من الصّلاة والتّوسعة على ضُعفاء المؤمنين وقيل: إنّهم قالوا لرَسول الله ﷺ: إنّا قد بنينا مسجداً لذي العِلّة والحاجة، والشيخ الفاني، واللّيلة المُمطرة، واللّيلة الشّاتية[3]. فردّ الله سُبحانه عليهم، وكذّب قولهم وحَلْفهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

عن القُمّي قال: كان سبب نُزولها أنّه جاء قومٌ من المنافقين إلى رسولالله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أتأذن لنا أن نبني مسجداً في بني سالم للعَليل واللّيلة الممطرة، والشيخ الفاني؟ فأذِن لهم رسولالله ﷺ وهو على جَناح الخُروج إلى تَبوك، فقالوا: يا رسول الله، لَو أتيتنا وصلّيتَ فيه، فقال: «أنا على جَناح السّفر، فإذا وافيتُ ـ إن شاء الله ـ أتيتُه فصلّيتُ فيه».

فلمّا أقبل رسول الله ﷺ من تَبوك نزلَت هذه [الآية] في شأن المسجد وأبي عامر الرّاهب، وقد كانوا حَلفوا لرسولالله ﷺ أنّهم يبنون ذلك للصّلاح والحُسنىٰ، فأنزل الله على رسوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني: أبا عامر الرّاهب، كان يأتيهم ويذكُر رسول الله ﷺ وأصحابه[4].

قيل: إنّه كان من أشراف قبيلة الخزرج، وكان له عِلمٌ بالتّوراة والإنجيل[5]. وكان يذكُر صِفات

---

١. تفسير الرازي ١٦: ١٩٣.
٢. جوامع الجامع: ١٨٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧٥.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٠، تفسير الرازي ١٦: ١٩٤.
٤. تفسير القمي ١: ٣٠٥، تفسير الصافي ٢: ٣٧٥.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٥

النبيّ ﷺ لأهل المدينة قبل هجرته إليها، فلمّا هاجر إليها وآمن به أهلُها، تركوا صُحبة أبي عامر[١]، فحَسَد النبيّ ﷺ وقال له: ما هذا الدّين الذي جئتَ به؟ قال: «دينُ إبراهيم الخليل». قال: لا والله، ليس ذلك. فقال النبيّ: «بَل جئتُ بها بَيضاء نقيّة». فقال أبو عامر: أماتَ الله مَن [هو] كاذبٌ مِنّا طَريداً وحيداً غريباً. فقال النبي ﷺ: «آمين»، فهرب بعد غزوة بَدر ولحِق بكُفّار مكّة[٢].

وعن تفسير الإمام عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ كان تأتيه الأخبار عن صاحب دَومة الجَندل، وكان مَلك النواحي، له مملكةٌ عظيمة مِمّا يلي الشام، وكان يُهدّد رسول الله ﷺ بقَصْده وقَتل أصحابه، وكان أصحاب رسول الله خائفين وَجِلين من قِبَله ... ثمّ إنّ المنافقين اتّفقوا وبايعوا لأبي عامر الرّاهب الذي سمّاه رسول الله ﷺ الفاسق، وجعلوه أميراً عليهم، وبخِعوا له بالطّاعة، فقال لهم: الرأي أن أغيب عن المدينة لِئلّا أُتّهم إلى أن يتِمّ تَدبيرُكم، وكاتبوا أُكيدر صاحب دَومة الجندل ليقصُد المدينة[٣].

فأوحى الله إلى محمّد ﷺ وعرّفه ما أجمعوا عليه من أمره، وأمَرَه بالمسير إلى تَبوك، وكان رسول الله ﷺ كُلّما أراد غَزواً ورّىٰ بغيره إلّا غَزوة تَبوك، فإنّه أظهر ما كان يُريده، وأمر أن يتزوّدوا لها، وهي الغَزاة التي افتضح فيها المُنافقون، وذمّهم الله في تثبطهم عنها، وأظهر رسول الله ﷺ ما أُوحي إليه أنّ الله سيُظهره بكيدر - أو أُكيدر - حتّى يأخُذه ويُصالحه على ألف أُوقيّة من ذهب في رجب ومائتي حُلّة، وألف أُوقيّة في صفر ومائتي حُلّة، وينصرف سالماً إلى ثمانين يوماً، وقال لهم رسول الله ﷺ: إنّ موسى وعد قومه أربعين ليلةً، وأنا أعدكم ثمانين ليلة، ثمّ أرجعُ سالماً غانماً ظافراً بلا حرب تكون، ولا يُستأسر أحدٌ من المؤمنين. فقال المنافقون: لا والله، ولكنّها آخر كرّاته [التي] لا ينجبر بعدها، إنّ أصحابه ليموت بعضُهم في الحرّ ورِياح البوادي ومياه المواضع المُؤذية الفاسدة، ومَن سلِم من ذلك فبين أسير في [يد] أُكيدر، وقتيلٍ وجريح.

واستأذنه المنافقون بعِلَلٍ ذكروها؛ بعضُهم يعتلّ بالحَرّ، وبعضُهم بمرضٍ في جسده، وبعضُهم بمرض عِياله، وكان يأذن لهم.

فلمّا صحّ عزمُ رسول الله ﷺ على الرّحلة إلى تَبوك، عَمد هؤلاء المنافقون فبنَوا خارج المدينة مسجد ضِرار، يُريدون الاجتماع فيه، ويُوهمون أنّه للصّلاة، وإنّما كان ليجتمعوا فيه لعِلّة الصلاة فيتِمّ تَدبيرهم وتقع هناك ما يسهُل به لهم ما يُريدون.

ثمّ جاء جَماعةٌ منهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إنّ بُيوتنا قاصية عن مسجدك، وإنّا

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٥
٢. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٦.
٣. زاد في المصدر: ليكونوا هم عليه، وهو يقصدهم فيصطلموه.

نكره الصَلاة في غير جَماعة، ويصعُب علينا الحُضور، وقد بنينا مسجداً، فإن رأيت أن تقصُده وتُصلّي فيه لنتيمّن ونتبرّك بالصَلاة في مَوضعِ مُصلّاك، فلم يُعرّفهم رسول الله ﷺ ما عرّفه الله من أمرهم ونِفاقهم، فقال: ائتوني بحماري، فأُتي بيعفور فركِبه يُريد مسجدهم، فكُلّما بعثه هُو وأصحابه لَم ينبعث ولم يمشي، فإذا صرف رأسه عنه إلى غيره سار أحسن سيره وأطيبه، قالوا: لعلّ الحمار رأىٰ من الطريق شيئاً كرهه ولذلك لا ينبعث نحوه.

فقال رسول الله ﷺ: ائتوني بفرسٍ فركِبه، فلمّا بعثه نحو مسجدهم لَم ينبعث، وكُلّما حرّكوه نحوه لَم يتحرّك، حتّى إذا فتلوا رأسه إلى غيره سار أحسن سير، فقالوا: لعلّ هذا الفرس قد كرِه شيئاً في هذا الطريق، فقال ﷺ: تعالوا نمشِ إليه، فلمّا تعاطى هُو ومن معه المشي نحو المسجد جَثَوا في مواضعهم ولَم يقدِروا على الحركة، فإذا همّوا بغيره من المواضع خفّت حَركاتُهم، وخفّت أبدانُهم ونشطت قُلوبهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أمرٌ قد كرِهه الله، وليس يُريده الآن وأنا على جَناح سفرٍ، فأمهلوا حتّى أرجع إن شاء الله، ثمّ أنظُرَ في هذا نظراً يرضاه الله.

وجدّ في العزم على الخُروج إلى تَبوك، وعزَم المنافقون على اصطلام مخلّفيهم إذا خرجوا، فأوحى الله تعالى إليه: يا محمّد، العلي الأعلى يُقرئك السّلام، ويقول: إمّا أن تخرُج أنت ويُقيم عليّ، وإمّا أن يخرُج عليّ وتُقيم أنت، فقال رسولالله ﷺ: ذلك لعليّ، فقال علي عليه السلام: السّمع والطّاعة لأمر الله وأمر رسوله، وإن كنتُ أُحبّ أن لا أتخلّف عن رسول الله في حالٍ من الأحوال.

فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من مُوسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي. قال: رضيتُ يا رسول الله، فقال له رسول الله: يا أبا الحسن، إنّ [لك] أجرَ خُروجك معي في مَقامك في المدينة، وإنّ الله قد جعلك أُمّةً وحدك، كما جعل إبراهيم أُمّة، تمنع جَماعة المُنافقين والكُفّار هيبتُك عن الحركة على المُسلمين.

فلمّا خرج رسول الله ﷺ وشيّعه عليّ عليه السلام، خاض المنافقون وقالوا: إنّما خلّفه محمّد بالمدينة لبُغضه له ومَلاله منه، وما أراد بذلك إلّا أن يُبيّته المنافقون فيقتُلوه. فاتّصل ذلك برسول الله ﷺ، فقال عليّ عليه السلام: أتسمع ما يقولون يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: أما يكفيك أنّك جِلدة ما بين عَينَي، ونُور بصري، وكالرُوح في بدني.

ثمّ سار رسول الله ﷺ بأصحابه، وأقام عليّ عليه السلام بالمدينة، فكان كُلّما دبّر المنافقون أن يُوقعوا بالمسلمين فزِعوا من عليّ عليه السلام وخافوا أن يقوم معه عليهم مَن يدفعهم عن ذلك، وجعلوا يقولون فيما بينهم: هي كرّةُ محمّد التي لا يؤوب منها... إلى أن عاد رسول الله ﷺ غانماً ظافراً، وأبطل الله

كيدَ المنافقين، وأمر رسول الله ﷺ بإحراق مسجد ضِرار، وأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً ...﴾ الآيات.

ثمّ ذُكر أنّ أبا عامر الرّاهب كان عِجل هذه الأمّة كعِجل قوم مُوسى، وأنّه دمّر الله عليه وأصابه بقُولَنج وبَرص [وفالج] ولَقوة[١] وبقي أربعين صباحاً في أشدّ عذاب، ثمّ صار إلى عذاب الله»[٢]. وقيل: إنّه مات بالشّام طريداً وحيداً[٣].

وقيل: إنّه أمر الرّسول ﷺ مالك بن الدخشم[٤] ومعن بن عَديّ بخَراب المسجد وإحراقه، فألقوا فيه النّار فاحترق بعض من فيه[٥].

قيل: إنّ مَجمع بن جارية[٦] كان إمام مسجد ضِرار، ثمّ جاء إلى عُمر وطلب منه إمامة مسجد قُبا، قال عُمر: لا، إنّك كنتَ إمام مسجد ضِرار، قال مَجمع: مهلاً لا تعجل عليّ، إنّي كنتُ في ذلك الزّمان شابّاً وكان المُصلّون فيه شُيوخاً، وكنتُ قارئاً للقُرآن وهُم لا يعلمون منه شيئاً، وما كنتُ مُطّلعاً على أحوالهم، ولَو كنتُ مُطّلعاً ما أقمتُ معهم ساعة، فقبِل عُمر عُذره وأعطاه إمامة مسجد قُبا[٧].

ثمّ قيل: لمّا رجع النبيّ ﷺ من تَبوك هَمّ أن يذهب إلى مسجد ضِرار، فنهاه الله عنه[٨] بقوله: ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا محمّد للصّلاة ﴿فِيهِ أَبَداً﴾ والله ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبُني ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وخُلوص النيّة والأغراض الخيريّة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بُني - عنهما عليهما السلام: يعني مسجد قُبا[٩] - ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَن تَقُومَ﴾ للصّلاة ﴿فِيهِ﴾ من أن تقوم للصّلاة في مسجد أُسّس على العِصيان والضَّرَر على المسلمين.

روي أنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر من مكّة وقدِم قرية قُبا - وهي قرية بقُرب المدينة على نِصف فرسخ - نزل في بني عمرو بن عوف؛ وهُم بَطن من الأوس، على كلثوم بن هَرِم[١٠]، وكان شيخ بني عمرو بن عوف، أسلم قبل وُصول الرّسول ﷺ إلى قُبا أو بعده - على خِلاف فيه - فلمّا نزل قال عمّار بن ياسر: لابُدّ لرسول الله من أن يُجعَل له مكان يستظِلّ به إذا استيقظ ويُصلّي فيه، فجمع

---

١. القُولَنج: مرض مِعَويّ مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون، والبَرَص: بياض يقع في الجسد لعِلّة، واللّقوة: داء يعرض للوجه، يعوَجّ منه الشِدْق إلى أحد جانبي العنق، فيخرج البلغم والبصاق من جانب واحد، ولا يحسن التقار الشفتين، ولاتنطبق إحدى العينين.

٢. التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام: ٤٨١-٤٨٨، تفسير الصافي ٢: ٣٧٦.

٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٢١، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٦.

٤. في النسخة: مالك بن الدحشم، تصحيف، راجع: أُسد الغابة ٤: ٢٧٨.

٥. تفسير مجمع البيان ٥: ١١٠.

٦. في النسخة: مجمع بن حارث، تصحيف، راجع: أُسد الغابة ٤: ٣٠٣.

٧. الكشاف ٢: ٣١٢.

٨. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.

٩. تفسير العياشي ٢: ١٩٠٥/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٧٩.

١٠. في النسخة: كلثوم بن الهند، وفي تفسير روح البيان: كلثوم بن الهدم، تصحيف، راجع: أُسد الغابة ٤: ٢٥١.

حِجارة فأسّس رسولالله ﷺ مسجداً، واستتمّ بُنيانه عمّار، فعمّار أوّل مَن بني مسجداً لعُموم المسلمين، وكان مسجد قُبا أوّل مسجد صلّى فيه رسول الله ﷺ بأصحابه جَماعةً ظاهرين، فلبِث رسول الله بقُبا بقيّة يوم وُروده وهُو يوم الاثنين ويوم الثّلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس - وقيل: بِضع عشرة ليلة، وقيل: أربعة عشر يوماً - فلمّا تحوّل منه إلى المدينة كان يأتيه يومَ السّبت ماشياً أو راكباً ويُصلّي فيه، ثمّ ينصرف[١].

وقيل: إنّه ﷺ كان يأتيه في كُلّ سنة ويُصلّي فيه[٢].

وقيل: إنّ المُراد من المَسجد مَسجد الرّسول في المدينة[٣].

ورُوي أنّ رجُلين اختلفا فيه، فقال أحدُهما: مسجد قُبا، وقال آخر: مسجد الرّسول، فسألاه ﷺ، فقال: «هو مسجدي هذا»[٤].

ثمّ بيّن سُبحانه وَجه ترجيح مسجد المؤمنين بقوله: **﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾** مؤمنون **﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾** من الأقذار الجِسمانيّة؛ كالبول والغائط، بالماء والأحجار، ومن الأقذار الرُّوحانيّة؛ كالذُّنوب والأخلاق الرّذيلة، وأدناس الشكّ والشّرك، بالتّوبة والرّياضة، والجِدّ في القيام بوظائف العُبوديّة **﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾** ويُحيط بهم فضلُه ورحمتُه.

رُوي أنّه لمّا نزلتْ هذه الآية، مشى رسول الله ومعه المهاجرون حتّى وقف على باب مسجد قُبا، فإذا الأنصار جُلوس، فقال: مؤمنُون أنتم؟ فسكت القومُ، ثمّ أعادها، فقال عمر: يا رسول الله، إنّهم لمؤمنون، وأنا معهم، فقال: أترضَون بقَضاء الله؟ قالوا: نعم، قال: أتصبِرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: أتشكُرون في الرّخاء؟ قالوا: نعم، قال ﷺ: مؤمنون وربّ الكعبة. ثمّ قال: يا معشَر الأنصار، إنّ الله أثنى عليكم، فما الذي تصنعون في الوُضوء؟ قالوا: نتبع الماءَ الحجَر، فقرأ النبيّ: **﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ...﴾** الآية[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «هو الاستِنجاء بالماء»[٦].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «**﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾**: بالماء عن الغائط والبَول»[٧].

ورُوي أنّ أوّل من استنجى بالماء إبراهيم عليه السلام[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٤.
٢. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.
٣. جوامع الجامع: ١٨٦، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٧.
٤. تفسير الرازي ١٦: ١٩٥.
٥. تفسير الرازي ١٦: ١٩٦، تفسير البيضاوي ١: ٤٢١، تفسير روح البيان ٣: ٥٠٨.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٠٦/٢٦٣، تفسير الصافي ٢: ٣٧٩.
٧. مجمع البيان ٥: ١١١، تفسير الصافي ٢: ٣٧٩.
٨. تفسير روح البيان ٣: ٥٠٨.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ[١٠٩]

ثمّ أنكر سُبحانه اعتقاد التّساوي بين مسجد قُبا ومسجد ضِرار، أو فضيلة الثاني على الأوّل تنبيهاً على فضيلة الأول على الثاني بقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ والتقدير: أبعد ما عُلم حالُ المُتّقين، فمَن ﴿أَسَّسَ﴾ وأحكم قواعد دينه ومَسجده و ﴿بُنْيَانَهُ﴾ بوضعه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ وخوف ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ في مُخالفته ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ عظيم منه بالاشتِغال بطاعته ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿أَم مَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع أساس دينه ومَسجده و﴿بُنْيَانَهُ عَلَىٰ﴾ الباطل الذي هُو مِثل ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ وشَفير طين مُجتمع في طَرف السَّيل ﴿هَارٍ﴾ ومُشرفٍ على السُّقوط، في عدَم الثَّبات ﴿فَانْهَارَ﴾ وأهوى باطل المُبطل، ونِفاق المُنافق ﴿بِهِ﴾ بعد موته بسُرعة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؟ وحاصل المُراد، والله أعلم: أنّ البِناء الذي كان بغَرض التّقوى والخوف من الله، وبقَصد تحصيل مَرضاته لازم الإبقاء، ولبانيه الفَضيلة، والذي كان بغَرض الكُفر والنِّفاق لازم الهَدم، ولبانيه النار والعِقاب ﴿وَٱللهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يُوصل إلى النّجاة والنّجاح والخَير والصَّلاح ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بمَعصية الله والكُفر والنِّفاق.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[١١٠]

ثمّ بيّن الله سُبحانه ضَرر بِناء مَسجد ضِرار على أنفس المنافقين بقوله: ﴿لَا يَزَالُ﴾ ويكون دائماً ﴿بُنْيَانُهُمُ﴾ ومَسجدهم ﴿ٱلَّذِي بَنَوْا﴾ ضِراراً على أنفسهم، لأنّه زاد ﴿رِيبَةً﴾ وشكّاً ثابتاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حالاً بعد حال، لا خَلاص لهم منه ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قِطَعاً، وتتفرّق أجزاؤهم[١] تفريقاً بحيث لا يبقى لها قابليّة إدراك وإضمار، أو قابلية حياة، فما دامت قُلوبهم سالمة لا تخلو من الرَّيب.

قيل: إنّ المُنافقين عظُم فرحُهم ببناء المسجد، فلمّا أمر الرّسول ﷺ بتَخريبه ثقُل ذلك عليهم، وازداد بغضُهم له وارتيابهم في نبوته ﷺ[٢].

وقيل: إنّ الرّسول ﷺ لمّا أمر بتخريب المسجد، ظنّوا أنّه لأجل الحسد، فارتفع أمانُهم عنه، وعظُم خوفُهم منه، وصاروا مُرتابين في أنّه هَل يترُكهم أو يقتُلهم ويأمُر بنَهب أموالهم[٣].

﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بنِفاقهم وسُوء ضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بتَخريب مَسجدهم.

---

١. في النسخة: أجزائه. ٢ و٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٧.

إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِـى سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْـجِيلِ وَٱلْـقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[١١١]

ثمّ أنه تعالى بعد بَيان تخلُّف المنافقين عن الغَزو، وإصرارهم على القُعود عن الجِهاد، وتدبيرهم في تخريب الاسلام وذمّهم على ذلك، بيّن فضيلة المؤمنين الخلّص[١]، ورغّبهم في الجِهاد بقوله: **﴿إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ﴾** الخلّص[٢] ببَيعتهم ومُعاهدتهم معَ الرّسول ﷺ على نُصرته **﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾** كي يبذلوهما في تَقوية الإسلام وتَرويجه، وحِفظ الرّسول ﷺ ونُصرته **﴿بِأَنَّ لَهُمُ﴾** بالاستِحقاق في الآخرة **﴿ٱلْجَنَّةَ﴾** ونِعَمها أبداً، فهم وفاءً بهذه المُعاملة والمُبايعة **﴿يُقَاتِلُونَ﴾** الكُفّار والمشركين، ويبذُلون أموالهم وأنفسهم **﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾** وطلباً لمَرضاته **﴿فَيَقْتُلُونَ﴾** أعداءه **﴿وَيُقْتَلُونَ﴾** في نُصرة رسوله وحِماية دينه.

قيل: لمّا بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العَقبة الثانية بمكّة وهُم سبعون ـ أو أربعة وسبعون ـ نفساً قال عبدُ الله بن رَوَاحة: اشترط لربّك ولنفسك ما شِئت؟ فقال ﷺ: «أشترط لربّي أن تعبُدوه ولا تُشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: «الجنّة»، قالوا: ربح البيع لا نُقيل ولا نستقيل، فنزلت[٣].

وفي التّعبير عن الأمر بالجِهاد باشترائه أنفسهم وأموالهم؛ معَ كونه تعالى مالكهما، غاية التَلطُّف في الدَعوة إليه، والتّحريض عليه، وإشارةً إلى أنّ المؤمن مادام كونه مُتعلّق القلب بحَياته وماله، امتنع وصوله إلى الدّرجات العالية من القُرب والنِّعم الأُخرويّة.

ثمّ أكّد سُبحانه وعده بالجنّة بقوله: **﴿وَعْداً﴾** واجب الوَفاء **﴿عَلَيْهِ﴾** تعالى وفي عُهدته **﴿حَقّاً﴾** وثابتاً بحيث لا يُمكن تخلّفه عنه وتَرك وفائه به.

ثمّ لمّا كان من لَوازم البيع الذي يكون ثمنه مُؤجلاً أن يُكتب في كِتاب، أخبر سُبحانه عن الكِتاب الذي كُتب هذا البيعُ فيه بقوله: **﴿فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْـجِيلِ﴾** والتّقدير: أنّه يثبُت فيهما **﴿وَ﴾** في **﴿ٱلْقُرْآنِ﴾**.

وقيل: إنّ المُراد أنّه تعالى ذكر في التّوراة والإنجيل أنّه اشترى من اُمّة محمّد ﷺ أنفسهم وأموالهم،

---

١ و٢. في النسخة: الخلّصين.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٩، تفسير روح البيان ٣: ٥١٢.

بأنّ لهم الجنّة، كما بيّن ذلك في القرآن[١].

وعلى التفسير الأوّل تكون الآية دليلاً على ثُبوت الأمر بالجِهاد في الشّريعتين السّابقتين على الاسلام.

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب وَفائه بهذا العهد بقوله: ﴿وَمَنْ﴾ يكون ﴿أَوْفَىٰ﴾ وأعمل ﴿بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ والذّات المتّصف بالألوهيّة؛ مع كون الحِكمة والعَدل المُقتضيين للوفاء بالعهد، وامتناع التخلّف عنه عينَها، فإذا كان الأمر كذلك يمتنع أن يُساويه أحد في الوفاء فضلاً عن أن يكون أوفى منه، إذَن ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ وافرَحوا غاية الفرح أيّها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾ أنفسكم وأموالكم من الله بالجنّة، وقيل: أي بالثّمن[٢] ﴿ٱلَّذِي بَايَعْتُم﴾ أنفسكم وأموالكم ﴿بِهِ﴾ وفيه غاية التّقرير للبَيع، وإشعارٌ بغاية الرِّبح فيه، حيثُ إنّه مُبادلة الفاني بالباقي، والزائل بالدائم، مع كون البَدَلين له تعالى.

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والنّجاح الأكمل بأعلى المقاصد.

روى الخفر الرّازي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «ليس لأبدانكم ثمن إلاّ الجنّه فلا تبيعوها إلاّ بها»[٣].

وروى بعضُ العامّة عنه عليه السلام أنّه كان يقول: «يابن آدم اعرِف قَدر نفسِك، فإنّ الله عرّفك قَدرك، لَم يرضَ أن يكون لك ثمن إلّا الجنّة»[٤].

ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ [١١٢]

ثمّ عرّف سُبحانه المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بقوله: ﴿ٱلتَّائِبُونَ﴾ من الشِّرك - كما عن ابن عبّاس، أو منه ومن النِّفاق؛ كما عن بعض، أو من كُلّ معصية؛ كما عن آخرين[٥] - و﴿ٱلْعَابِدُونَ﴾ لله المعظّمون له في السرّاء والضرّاء - وعن ابن عبّاس: الذين يرَون عِبادة الله واجبة عليهم[٦] - و﴿ٱلْحَامِدُونَ﴾ له على كُلّ حال، الشّاكرون لنَعمائه الدُّنيويّة والأخرويّة، و﴿ٱلسَّائِحُونَ﴾ وهُم الصائمون - كما عن ابن عبّاس[٧]، أو الطالبون للعِلم، السائرون في الأرض لطلبه؛ كما عن عكرمة[٨]، أو المُجاهدون والمُهاجرون؛ كما عن بعض[٩] - و ﴿ٱلرَّاكِعُونَ﴾ لله ﴿ٱلسَّاجِدُونَ﴾ له؛ وهم

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٠١.

٢. تفسير مجمع البيان ٥: ١١٤.

٣. تفسير الرازي ١٦: ١٩٩.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٥١٣.

٥. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٢.

٦ و٧. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٣.

٨. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٤، تفسير روح البيان ٣: ٥١٩.

٩. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٤.

الحافظون للصّلاة، المُديمون عليها، و ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالله والرّسول وطاعتهما ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ من الشّرك والعِصيان ﴿وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللهِ﴾ من تكاليفه وأحكامه، المُراعون لها، المُجدّون في العمل بها.

ثمّ أنّه تعالى بعد أمره المؤمنين بالاستبشار في الآية السّابقة، أمر نبيّه ﷺ ببشارتهم بأعلى المَثوبات بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بثَوابٍ يجِلّ عن إحاطة الأفهام به، وبُلوغ الأوهام إليه، والتّعبير بالكلام عنه.

عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلتْ هذه الآية، يعني ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخره، قام رَجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا نبي الله، أرأيتك الرّجل يأخُذ لله سَيفه فيُقاتل حتّى يُقتل، إلّا أنّه يقترف من هذه المَحارم، أشهيدٌ هو؟ فأنزل الله على رسوله ﴿ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ﴾ الآية، فبشّر النبيّ ﷺ المُجاهدين من المؤمنين الذين هذه صِفتهم وحِليتهم بالشّهادة والجنّة».

وقال عليه السلام: «﴿ٱلتَّائِبُونَ﴾ من الذُّنوب، ﴿ٱلْعَابِدُونَ﴾ الذين لا يعبُدون إلّا الله، ولا يُشركون به شيئاً، ﴿ٱلْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمَدون الله على كُلّ حالٍ في الشِّدّة والرّخاء ﴿ٱلسَّائِحُونَ﴾ الصّائمون ﴿ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ﴾ الذين يُواظبون على الصّلوات الخَمس، الحافظون لها، والمُحافظون عليها برُكوعها وسُجودها، والخُشوع فيها، وفي أوقاتها ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بعد ذلك، والعاملون به، ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ والمُنتَهون عنه. قال: فبشّر مَن قتل وهُو قائم بهذه الشُّروط بالشّهادة والجنّة»[1].

عن العيّاشي قال: «هُم الأئمّة»[2].

وعن القُمّي قال: نزلتْ الآية في الأئمّة عليهم السلام، لأنّه وصفهم بصِفةٍ لا تجُوز في غيرهم، فالآمرون بالمعروف هُم الذين يعرِفون المَعروف كُلّه، صَغيره وكبيره، والنّاهون عن المُنكر هُم الذين يعرِفون المُنكر كُلّه، صَغيره وكبيره، والحافظون لحُدود الله هُم الذين يعرِفون حُدود الله، صَغيرها وكبيرها، دَقيقها وجَليلها، ولا يجُوز أن يكون بهذه الصِّفة غيرُ الأئمّة عليهم السلام[3].

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا

---

١. الكافي ٥: ١/١٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٩١١/٢٦٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.
٣. تفسير القمي ١: ٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨١.

عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَايَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[١١٣ـ١١٥]

ثمّ أنه تعالى بعدَ الأمر بالتبرّي عن المشركين، والتّأكيد من أوّل السّورة إلى هنا في إظهار عَداوتهم والقِتال معهم، وبَيان عدم فائدة الاستِغفار لهم، نهى النبيّ ﷺ والمؤمنين عن الاستِغفار لهم، وإن كانوا أقرب النّاس إليهم؛ بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يصِحّ ﴿لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا يستقيم لهم في حِكمة الله وحُكمه ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المُتجاهرين منهم بالشِّرك، أو المنافقين ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ومُنتسبين إليهم بالوِلادة أو المُصاهرة ﴿مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إصرارهم على الشِّرك ومَوتهم عليه ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وأهل النّار.

روى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه سمِع رجلاً يستغفر لأبويه المُشركَين، قال: «فقلتُ له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس استغفرَ إبراهيم لأبويه وهُما مُشركان؟ فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلتْ هذه الآية»[١] ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ ناشئاً عن سببٍ من الأسباب ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

قيل: إن إبراهيم كان يرجو إيمان آزر، ولِذا وعده أن يستغفِر له بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[٢]، وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[٣].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ لإبراهيم وظهر ﴿لَهُ﴾ بأن رآه مُصراً على الشِّرك ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ ولا يُؤمن به أبداً ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وتنزّه عن الاستِغفار له.

عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما يقول النّاس في قول الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾؟ فقيل: يقولون: إنّ إبراهيم وعَد أباه أن يستغفر له، قال: ليس هُو هكذا، إنّ أبا إبراهيم وعدَه أن يُسلِم فاستغفرَ له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾»[٤].

وفي رِوايةٍ: «لمّا مات تبيَّن له أنّه عدُوٌّ لله فلَم يستغفر له»[٥].

وعن القُمّي رحمه الله: إنّ إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: إن لَم تعبُد الأصنام استغفرتُ لك، فلمّا لَم يدَعْ الأصنام

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٠٩.
٢. سورة مريم: ٤٧/١٩.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٢، والآية من سورة الممتحنة: ٤/٦٠.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٩١٥/٢٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٩١٧/٢٦٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢.

تبرّأ منه[١].

أقول: لا مُنافاة بين التّفسيرين لجَواز وُقوع كِلا الوَعدين.

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة استِغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ وكثير التفجّع على خَلق الله، وشديد الرّأفة والشَّفَقة على النّاس ﴿حَلِيمٌ﴾ وصبُور على أذاهم، ولِذا كان يحلُم على أذى أبيه ويترحّم له، فيستغفر له.

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الأوّاه الخاشع المُتضرّع»[٢]. وفي رِواية اُخرى قال: «الدعاء»[٣].

وقيل: معناه أنّه كُلّما ذكر لنفسه تَقصيراً، أو ذُكر عنده شيءٌ من شَدائد الآخرة كان يتأوّه إشفاقاً منه، واستِعظاماً له[٤]. وعليه يكون قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ عِلّة للتبرّي من أبيه، والمعنىٰ: أنّه مع كونه بهذه الصِّفات، غلُظ قلبُه عليه، وتبرّأ منه بعدما ظهر إصراره على الشِّرك، فأنتم أولى بذلك.

ثمّ قيل: إنّ المؤمنين لمّا خافوا على أنفسهم من استِغفارهم لآبائهم وأقربائهم ممّن مات على الكُفر قبل نُزول الآية، وعلى المسلمين الذين ماتوا وكانوا في حياتهم يستغفرون للمُشركين[٥]، أزال الله خوفهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وليس من شأنه ومُقتضى حكمته وعَدله ﴿لِيُضِلَّ﴾ ويصرِف عن طريق الجنّة ﴿قَوْماً﴾ من الأقوام، ويأخُذ بالعذاب طائفةً من النّاس ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإسلام ووفّقهم لقَبوله ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾ ويُوضّح ﴿لَهُم﴾ بتوسُّط الرّسول الباطن، أو الرّسول الظّاهر ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون عنه من المُحرّمات ـ وعن الصادق عليه السلام قال: «ما يُرضيه ويُسخطه»[٦] ـ فلا عُقوبة من الله إلّا بعد إعلامهم بتكليفه، وإزالة العُذر عنهم، فإنّ العُقوبة بلا بَيان ـ معَ كون الجَهل عن قُصور الجاهل عُذراً عقليّاً ـ من الجَهل، ومِن البيِّن ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

في الاستدلال على البراءة في مشكوك الوجوب والحرمة

فالآية دالّة على أنّ الأصل في مَشكوك الوُجوب والحُرمة البَراءة. والجواب عنه بأنّه ـ بعد دَلالة الأدلّة المُعتبرة على وُجوب الاحتياط عند الشكّ في الحُرمة، لا يكون العِقاب عليه عِقاباً بلا بَيان ـ فاسدٌ، بأنّه مبنيٌّ على كون وُجوب الاحتياط نفسياً، وأمّا معَ كونه مُقدّمياً عِلمياً ناشئاً عن تنجُّز الواقع المَجهول، فالعِقاب يكون على الواقع المجهول الذي تنفي الآية صِحّته، ويحكُم العقل أيضاً بقُبحه.

وما قيل من أنّ الإضلال غير العُقوبة فلا رَبْط للآية بالبراءة المُتنازع فيها. ففيه: أنّ المِلاك واحد إن

---

١. تفسير القمي ١: ٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٢.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٦: ٢١١.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٢.
٥. تفسير الرازي ١٦: ٢١٢.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٩١٩/٢٦٧، الكافي ١: ٣/١٢٤، تفسير الصافي ٢: ٣٨٣.

لَم نقُل بالأولويّة، فلا بُدّ مِن حمل ما دَلّ على وُجوب الاحتِياط في المقام على الاستِحباب، أو على الحُرمة المَعلومة بالإجمال.

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [١١٦]

ثمّ لمّا كان ارتِكاب القبيح من العالِم بالقُبح قد يكون لأجل الحاجة، نفاها عن نفسه بإثبات سَعه مُلكه، وكَمال قُدرته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا حاجة له إلى شيء، و ﴿يُحْيِى﴾ بقُدرته المَوتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء، فليس له عَجز عن تحصيل مُراده.

ثمّ استدلّ على عدم إمكان صُدور العِقاب منه بلا بَيان بغاية لُطفه بعِباده بقوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيّها المؤمنون في عالم المُوجود ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وممّا سِواه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ وحافظ لصَلاحكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع للمَضارّ عنكم.

وقيل: إنّه قال قومٌ من المسلمين: لمّا أمرتنا بالانقِطاع عن المشركين فلا يُمكننا مُخالطة آبائنا وأبنائنا؛ لأنّه رُبّما كان كثيرٌ منهم كافرين، فسلّى سُبحانه قُلوبهم: بأنّكم إن صِرتُم مَحرومين عن مُعاونتهم ونُصرتهم، فالإله الذي هُو مالك السماوات والأرض، والمحيي والمُميت، ناصرُكم ووليُّكم، فلا يضُرّكم الانقِطاع عنهم[١].

أو المراد: أنّكم لا تخافوا من ضَرَر الكُفّار بالتبرّي منهم، فإنّ مالكَ عالَم الوُجود؛ القادر على كُلّ شيء، هُو ناصرُكم ووليُّكم، فلا يقدِرون على إضراركم. وعلى أي تقدير، فالآية دالّة على كَمال لُطفه بعِباده المؤمنين.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [١١٧]

ثمّ أنّه تعالى أظهر غاية لُطفه بخُصوص المُهاجرين والأنصار بقَبول تَوبتهم، ضامّاً للنبي المعصوم عن كُلّ ذَنب بهم، تعظيماً لهم، وتَطييباً لقُلوبهم؛ بقوله، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، قيل: إنّ نُكتة ضَمّ النبيّ بهم، أنّ قَبول التَوبة فضلُ الله ورَحمته المَخصوصة به، وكُلّ فَضل

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢١٣.

ورحمة ونِعمة يُريد إيصالها إلى العِباد لابُدّ من أن يكون عُبورها على وِلاية النُبوّة، ثمّ يفيض منها على المُهاجرين والأنصار وسائر الأمّة[١].

أقول: ولعلّه لتِلك النُكتة والحِكمة يُستحبّ الابتِداء بالصّلاة على النبي ﷺ عندَ طلَب الحاجة مِن الله تعالى، وعليه يُحمل ما روي عن الصادق عليه السلام، والرضا عليه السلام من أنهما قرءا: (لقد تاب الله بالنبي ﷺ على المهاجرين والأنصار)[٢]، وما في ذيل رِواية أبان بن تغلِب، عن الصادق عليه السلام من قوله: «إنّما تابَ الله به على أمّته»[٣].

ثمّ وصف الله المُهاجرين والأنصار بما يوجب قَبول تَوبتهم، وإنزال الرّحمة عليهم بقوله: ﴿**ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ**﴾ وخرَجوا معه ﴿**فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ**﴾ ونصرُوه في زمان الشِدّة ـ وهُو غَزوة تَبوك ـ فإنّه قد أصابتْهم فيها مَشقّة عظيمة من شِدّة الحَرّ وقِلّة المَركب؛ حتّى رُوي أنّه كانت العَشرة تعتقب على بعيرٍ واحد[٤]، ومِن قِلّة الزّاد؛ حتّى رُوي أنّه ربّما مَصّ التمرةَ الواحدة جَماعةٌ يتناوبونها حتّى لا يبقى منها إلّا النّواة، وكان معهم شيء من شعير مُسوّس، فكان إذا وضع أحدهم اللُّقمة في فيه أخذ أنفَه من نَتْن تِلك اللُّقمة، ومِن قِلّة الماء[٥].

في ذكر بعض المتخلّفين في غزوة تبوك عن النبي ﷺ

رُوي أنّ عمر قال: خرجنا في قَيظٍ شديدٍ، وأصابنا فيه عطشٌ شديد، حتّى [أن] الرّجُل لينحَر بعيره فيعصِر فَرْثه ويشرَبه[٦].

عن القُمّي رحمه الله: هُم أبوذَرّ، وأبوخيثمة، وعمر بن وهب، الذين تخلّفوا ثمّ لحِقوا برَسول الله ﷺ[٧].

قال: وتخلّف عن رسول الله ﷺ قومٌ من أهل نيات[٨] وبَصائر، لَم يكُن يلحَقهم شكٌّ ولا ارتِياب، ولكنّهم قالوا: نلحَق برسول الله، منهم أبوخيثمة وكان قوياً، وكان له زوجتان وعَريشان[٩]، وكانت زوجتاه قد رشّتا عريشيه [وبرّدتا له الماء، وهيئتا له طعاماً، فأشرف على عريشيه، فلمّا نظر إليهما] قال: والله، ما هذا بإنصاف، فإنّ رسول الله معَ أنّه قد غُفر له ما تقدّم من ذَنبه وما تأخّر قد خرج في الضّحّ[١٠] والرّيح، وقد حمل السِّلاح يُجاهد في سبيل الله، وأبوخيثمة قويّ قاعد في عريشَيه مَع

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٥.
٢. مجمع البيان ٥: ١٢٠، الاحتجاج: ٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٣.
٣. الاحتجاج: ٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤.
٤. تفسير الرازي ١٦: ٢١٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ١٦: ٢١٥.
٧. تفسير القمي ١: ٢٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤.
٨. في المصدر: ثبات.
٩. العَريش: كل ما يستظل به، وفي المصدر: عريشتان، والعريشة: الهودج.
١٠. الضّحّ: وهو الصوت الشديد يقرَع السمع، وهو صوت قَرْع الصخرة، وضَرْب الحديد على الحديد.

امرأتين حَسناوين، لا والله ما هذا بإنصاف. ثمّ أخذ ناقته فشدّ عليها رَحْله فلحِق برسول الله ﷺ، فنظر النّاس إلى راكبٍ على الطريق، فأخبروا رسول الله، فقال ﷺ: «كُن أبا خيثمة»، فكان أبا خيثمة، فأقبل وأخبر النبي ﷺ بما كان [منه]، فجزاه خيراً ودعا له.

وكان أبوذرّ تخلّف عن رسول الله ثلاثة أيّام، وذلك أن جَمله كان أعجف[1]، ووقف عليه في بعض الطّريق، فتركه وحمَل ثِيابه على ظهره، فلَحِق برسول‌الله ﷺ بعد ثلاثة أيّام، فلمّا ارتفع النّهار ونظر المسلمون إلى شخص مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أباذر»، فقالوا: هُو أبوذر، فقال رسول الله: «أدركوه بالماء فإنّه عطشان»، فأدركوه بالماء، فوافىٰ [أبوذرّ] رسول الله ﷺ ومعه إداوة[2] فيها ماء، فقال رسول الله ﷺ: «يا أباذرّ، معك ماء وعطِشت؟»، قال: نعم يا رسول الله، بأبي أنت وأُمّي، انتهيتُ إلى صخرةٍ وعليها ماء السّماء فذُقتُه، فإذا هُو عذِب باردٌ، فقلتُ: لا أشربه حتّى يشربَه حبيبي رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «يا أباذرّ، رحِمك الله، تعيش وحدَك، وتموتُ وحدَك، وتُبعث وحدَك، وتدخُل الجنّة وحدَك، يُسعد بك قوم من العِراق يتولّون غُسْلك وتَجهيزك [والصلاة عليك] ودَفنك»[3].

أقول: هؤلاء وإن تخلّفوا عن رسول الله ﷺ إلّا أنّ الظاهر أنّهم لَم يكونوا من أهل الذّنب الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿مِن بَعْدِمَا كَادَ﴾ وقرُب ﴿يَزِيغُ﴾ ويُميل ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عن الثّبات معَ الرّسول ﷺ، بأن همُّوا بالانصِراف من الغَزو بغير استئذان، لشدائد أصابَتْهم في ذلك السّفر، فعَصَمَهم الله فصبَروا وندِموا على ما خَطَر ببالهم.

قيل: إنّه تعالى بشّر بقَبول تَوبتهم قبل ذِكر ذَنبهم تطييباً لقُلوبهم[4].

وقيل: لم يهُمّوا بالرُّجوع، وإنّما خَطر في قُلوبهم، فخافوا أن يكون مَعصية[5].

ثمّ أكّد الله البِشارة بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لِئلّا يبقىٰ في قُلوبهم شكٌّ في قَبول توبَتهم. ثمّ بالغ سُبحانه في التأكيد بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِهِمْ رَؤُوفٌ﴾ لا يرضى بضَرَرهم، ولا اضطِراب قُلوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإيصال جميع الخَيرات إليهم.

رُوي أنّ الأصحاب شَكوا إلى النبيّ ﷺ عُسرة الماء [في غزوة تبوك] فقال أبوبكر: يا رسول الله، إنّ الله تعالى عوّدك في الدُّعاء خيراً، فادْعُ لنا، قال: «أتُحبّ ذلك؟» قال: نعم، فرفع يدَيه، فلَم يُرجِعهما حتّى أرسل الله سَحابةً، فمطَرتْ حتّى ارتوىٰ النّاس، واحتَملوا ما يحتاجون إليه، وتِلك السّحابة لم

---

١. الأعجف: الهزيل. ٢. الإدواة: الإناء الصغير لحمل الماء.
٣. تفسير القمي ١: ٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٣٨٤. ٤ و٥. تفسير الرازي ١٦: ٢١٦.

تتجاوز العسكر[١].

ورُوي أنّهم نزلوا يوماً في غَزوة تَبوك بفَلاةٍ من الأرض على غير ماء، وكادت عِتاق الخَيل والرِّكاب تقع عَطَشاً فدعاﷺ وقال: «أين صاحب المِيضأة»[٢]؟ قيل: هوذا يا رسول الله، قال: «جئني بمِيضأتك، فجاء بها وفيها شيء من الماء، فوضع أصابعه الشّريفة عليها فنبع الماء من أصابعه العشرة، فأقبل الناس واستقوا، وفاض الماء حتّى رووا وروَوا خيلَهم ورِكابهم، وكان في العسكر من الخيل اثني عشر ألفاً، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير، والنّاس ثلاثون ألف وقيل: سبعون[٣].

ورُوي أنّهم لمّا أصابهم في غَزوة تَبوك مَجاعةٌ، قالوا: يا رسول الله، لَو أذِنتَ لنا نحَرنا نواضحنا[٤] ورِكابنا وادّهنّا، فقال عُمر: يا رسول الله، إن فعلتَ فنى الظَهر، ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم، وادعُوا الله لهم فيها بالبركة، لعلّ الله أن يجعلها في ذلك، فقالﷺ: «نعم» فدعا بنِطْع[٥] فبسطه، ثمّ دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجُل يأتي بكفٍّ من ذُرَة، ويجيء الآخر بكفٍّ من تَمر، ويجيء الآخر بميرة، حتّى اجتمع على النِّطع من ذلك شيءٌ يسير، فدعاﷺ بالبَركة.

ثمّ قال: «خُذوا في أوعيتكم»، فأخذوا حتّى ما تركوا في العسكر وِعاء إلّا ملأوه، وأكلوا حتّى شبِعوا، وفضلتْ فَضلة فقالﷺ: «أشهد أن لا إلَه إلّا الله، وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍّ إلّا وقاه النار»[٦].

وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ[١١٨]

ثمّ عطف سُبحانه على قَبول تَوبة عُموم المُهاجرين والأنصار قَبول تَوبة الثّلاثة الذين كانوا مُرجَون لأمر الله بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن رَسول الله وأقاموا بالمدينة؛ وهُم كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة[٧] بن الرَّبيع العَنبري، وهِلال بن اُميّة.

قيل: كان لأحدهم أرض ثمنها مائة ألف دِرهم، فقال: يا أرضاه، ما خلّفني عن رسول الله إلّا أمرُك، اذهَبي فأنت في سبيل الله، فلأُكابِدَنّ المَفاوز حتّى أصل إلى رسول الله ففعل. وكان للثّاني أهلٌ، فقال:

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٩.
٢. المِيضأة: إناء يُتوضأ به.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٦.
٤. النّواضح: جمع ناضح، وهو البعير يُستقى عليه.
٥. النِّطع: البِساط من جِلد.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٦.
٧. في النسخة: زرارة، وما أثبتناه موافق للمصدرين الآتيين، وراجع: اسدالغابة ٤:٣٤٣.

يا أهلاه، ما خلَفني عن رسول الله إلّا أمرُك ولأكابِدَنّ المَفاوز حتّى أصل إليه وفعل. والثّالث ما كان له أهل ولا مال، فقال: ما لي سببٌ إلّا الضَنّ بالحياة، والله لأكابِدنّ المَفاوز حتّى أصل إلى رسول الله، فلحِقوا بالرّسول، فأنزل الله ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾[1].

وآخر قَبُول تَوبتهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومع سَعَتها؛ لأنّهم بسَبب إعراض النبيّ ﷺ والمؤمنين عنهم، صاروا بحيث كأنّهم لَم يجِدوا فيها مَوضع قَرار. وضِيق الأرض كِناية عن شِدّة الحَيْرة والوَحْشة.

وقيل: إنّهم لَم يلحَقوا بالنبيّ ﷺ، فنهى ﷺ عن مُجالستهم ومُكالمتهم، وأمر بمُباينتهم حتّى أمر نِساءهم بذلك، فضاقتْ عليهم الأرض[2] ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وامتلأتْ قُلوبهم بالوَحشة والغَمّ بحيث لَم يبقَ لهم فيها ما يسَع شيئاً من الرّاحة والسُّرور، ولخَوفهم من الله ومِن أن يموتوا ولا يُصلّي عليهم النبيّ والمؤمنون ـ وقيل: جاءتْ امرأة هِلال إلى النبيّ ﷺ وقالت: يا رسول الله، لقد بكى هِلال حتّى خِفتُ على بصره[3].

قيل: كانوا على تِلك الحالة خمسون يوماً[4] ﴿وَظَنُّوا﴾ واطمأنّوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ ومن سَخَطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ ولا مُخلَص من نَقِمته إلّا الاستِغفار والتضرُّع لَدَيْه.

ثمَ أكّد سُبحانه قَبُول تَوبتهم بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفَضله ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويرجِعوا إلى حالتهم السّابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على المُذنبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتّائبين ولَو عادوا في اليوم مائة مرّة.

عن القُمّي قال: تخلّف عن رسول الله ﷺ قومٌ من المنافقين، وقومٌ من المؤمنين المُستبصرين لَم يُعثر عليهم في نِفاق؛ منهم كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع، وهِلال بن أُميّة الواقفي، فلمّا تاب الله عليهم.

قال كعب: ماكنتُ قَطّ أقوى منّي في الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تَبوك، وما اجتمعتْ لي راحلتان إلّا ذلك اليوم[5]، فكنتُ أقول: أخرُج غداً، أخرُج بعدَ غدٍ، فإنّي قويّ وتوانَيتُ وبقيتُ بعد خُروج النبيّ ﷺ أياماً أدخُل السوق ولا أقضي حاجة، فلقِيت هِلال بن أميّة ومُرارة بن الرّبيع، وقد كانا تخلّفا أيضاً، فتوافقنا أن نُبكّر إلى السُّوق ولَم نقضِ [حاجة]، فمازلنا نقول: نخرُج غداً وبعدَ غد، حتّى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندِمنا.

فلمّا وافى رسول الله ﷺ واستقبلناه نهنّئه بالسّلامة، فسلّمنا عليه فلَم يرُدّ علينا السّلام فأعرض

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢١٧، تفسير روح البيان ٣: ٥٢٨.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ١٦: ٢١٨.
٥. في النسخة: إلى ذلك اليوم.

عنّا، وسلّمنا على إخواننا فلَم يردّوا علينا السّلام، فبلغ ذلك أهلينا فقطعوا كلامنا، وكُنّا نحضُر المسجد فلَم يُسلّم علينا أحدٌ ولا يُكلّمنا، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقُلن: قد بلغنا سَخَطُك على أزواجنا، أفنعتزِلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تعتزِلْنَهم، ولكن لا يَقْرَبوكُنّ».

فلمّا رأى كعب بن مالك وصاحباه ما قد حَلّ بهم قالوا: ما يُقعدنا بالمدينة ولا يُكلّمنا رسول الله ولا إخوانُنا ولا أهلونا، فهلُمّوا نخرُج إلى هذا الجَبل، فلا نزالُ فيه حتّى يتُوب الله علينا أو نموت، فخرَجوا إلى ذِناب[١] جبَل بالمدينة، فكانوا يصومون، وكان أهلوهم يأتونهم بالطّعام فيضعونه ناحيةً ثم يُولّون عنهم لا يُكلّمونهم، فبقُوا على هذه الحالة أياماً كثيرةً، يبكون باللّيل والنّهار، ويدعون الله أن يغفر لهم، فلمّا طال عليهم الأمر قال كعب: يا قوم، قد سخِط الله علينا، ورسوله قد سخِط علينا، وإخواننا سخِطوا علينا، وأهلونا سخِطوا علينا فلا يُكلّمنا أحدٌ، فلم لا يسخَط بعضُنا على بعضٍ، فتفرّقوا في اللّيل، وحلَفوا أن لا يُكلّم أحدٌ [منهم] صاحبَه حتّى يموت أو يتُوب الله عليه، فبقُوا على هذه الحالة ثلاثة أيام، كُلّ [واحد] منهم في ناحية من الجبل، لا يرى أحدٌ منهم صاحبه ولا يكلّمه.

فلمّا كان في اللّيلة الثالثة، ورسول الله ﷺ في بيت أُمّ سلمة، نزلتْ تَوبتُهم على رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ حيثُ لا يُكلّمهم رسول الله ﷺ ولا إخوانهم ولا أهلوهم، فضاقتْ المدينة عليهم حتّى خرجوا منها، وضاقت عليهم أنفسهم حيثُ حلَفوا أن لا يكلّم بعضُهم بعضاً، فتفرّقوا وتاب الله عليهم لمّا عرف صِدق نِيّاتهم[٢].

رَوى بعض العامّة عن كعب أنّه قال: أنزل الله تَوبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثُّلث الأخير من اللّيل، ورسول الله ﷺ عند أُمّ سلمة، وكانت أُمّ سلمة مُحسنة في شأني مُعينة في أمري، فقال ﷺ: «يا أُمّ سَلمة، تيب على كعبٍ»، قالت: أفلا أُرسلُ إليه فأُبشّره؟ قال: «إذَن يحطِم[٣] النّاس فيمنعوكم النومَ سائر اللّيلة»، حتّى إذا صلّى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أعلم بتَوبة الله علينا. قال: فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فتلقّاني النّاسُ فوجاً فوجاً يُهنّئوني بالتّوبة، حتّى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحَوله النّاس، فقام إليّ طلحة بن عبدالله يُهرول حتّى صافحني وهنّأني، والله ما قام إليَ رجلٌ من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطَلحة، وذلك لأنّه ﷺ كان أخى بينهما حينَ قدِم المدينة[٤].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ[١١٩]

---

١. الذِّناب من كلّ شيء: عقبه ومؤخّره.
٢. تفسير القمي ١: ٢٩٦-٢٩٨، تفسير الصافي ٢: ٣٨٦.
٣. أي يزدحمون.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٢٩.

ثمّ أنّه تعالى بعدَ قَبول تَوبة المُتخلّفين، أمر المؤمنين بطاعة الرّسول ومُلازمته في الجِهاد وغيره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في مُخالفته ومُخالفة رسوله ﴿وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ وهم الرّسول ﷺ، ومَن هُو بمنزلته في العِصمة عن الخطأ وبَيان خِلاف الواقع.

نقل كلام فخر الرازي في حجيّة الإجماع

قال الفخر الرّازي في تفسيره: إنّه تعالى أمر المؤمنين بالكَون مع الصّادقين، ومتى وجب الكون مع الصّادقين فلا بُدّ من وُجود الصّادقين في كُلّ وقت، وذلك يمنع من إطباق الكُلّ على الباطل، ومتى امتنع إطباق الكُلّ على الباطل، وجَب إذا أطبقوا على شيء أن يكونوا مُحقّين. فهذا يدُلّ على أن إجماع الأُمّة حُجّة[1].

ثمّ اعترض على نفسه بأنّه لِمَ لا يجُوز أن يكون الصادق هُو المعصوم الذي يمتنع خُلوّ زمانِ التّكليف منه؛ كما تقوله الشيعة[2]. ثمّ رَدّ ذلك الاعتراض بقوله: نحنُ نعترف بأنّه لا بُدّ من معصوم في كُلّ زمان، إلّا أنّا نقول: ذلك المعصوم هُو مجموع الأُمّة، وأنتم تقولون: ذلك المعصوم هُو واحدٌ منهم. فنقول: هذا الثاني باطل؛ لأنّه تعالى أوجب على كُلّ أحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين، وإنّما يُمكنه ذلك لَو كان عالماً بأن ذلك الصادق مَن هو، لا جاهلاً بأنّه مَن هُو، فلَو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليفاً بما لا يُطاق، وأنّه لا يجوز، لكنّا لا نعلَم إنساناً مُعيّناً مَوصوفاً بوَصفِ العِصمة والعِلم، [والعلم] بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة. فثبت أنّ قوله: ﴿كُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ ليس أمراً بالكون مع شخصٍ مُعيّن، ولمّا بطَل هذا، بقي أنّ المُراد منه الكون معَ مجموعِ الأُمّة، وذلك يدُلّ على أن قول مَجموع الأُمّة حَقٌّ وصَواب، ولا معنى لقولنا «الإجماع حُجّة» إلّا ذلك[3]، انتهى كلامُه بطوله المُمِلّ.

في إبطال استدلال الفخر على حجيّة الإجماع

وفيه: أنّ لفظ ﴿ٱلصَّادِقِينَ﴾ كالنصّ في أنّ المُراد الأشخاص، لا المَجموع المُركّب من الأشخاص، مع كون كُلّ واحد منهم كاذباً، أو مَن يجوز عليه الكَذِب. وعَدَم عِلم هذا الشّخص المُتعصّب بالشّخص الموصوف بالعِصمة لا يكون قَرينةً على إرادة المجموع مِن الأُمّة، مع قِيام الأدلّة القطعيّة والرّوايات المُتواترة على تَعيينه باسمِه ونَسَبه، في كُلّ زَمان وعصر عند مَن بَرِئ عن التعصُّب واللّجاج، وطابتْ طِينتُه، وطهُر مَولدُه، مع أنّ الوِجدان القطعي يشهد بعدَم تمكّن أحدٌ من المؤمنين حتّى المُجتهدين المُتبحّرين منهم، من العِلم باتّفاق مَجموع الأُمّة، بحيث لَم يشِذّ منهم واحدٌ على أمرٍ، حتّى في الزّمان المُتّصل بوَفاة الرّسول ﷺ الذي كان المسلمون بالنّسبة إلى الأعصار المُتأخّرة في غاية القِلّة، ولَو ادّعىٰ أحدٌ بالعِلم بذلك حِسّاً، نعلَم

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٢٠.
٣. تفسير الرازي ١٦: ٢٢١.

بحَسَب العادة بكَذبِه، معَ أنه لا شُبهة في أنّ المُراد من ﴿ٱلصَّادِقِينَ﴾ في زمان نُزول الآية شخص الرّسول ﷺ، وإرادة الشّخص المُعيّن منه في زمان، والهيئة المُركّبة من الأُمّة في زمانٍ آخر، تستلزم إرادة المَعنيَين المُستقلّين الحقيقي والمَجازي مِن استِعمال واحد؛ وهُو مُحال، وليسَ بينهما جامع عُرفي بكون اللّفظ مُستعملاً فيه، ويكون كُلّ واحدٍ منهما مِصداقه.

وفي (الإكمال): عن أمير المؤمنين أنّه قال في مَجمعٍ من المهاجرين والأنصار، أيّام خِلافة عُثمان: «أسألكم بالله، أتعلمون أنّه لمّا نزلَتْ هذه الآية قال سلمان: يا رسول الله، عامّةٌ هذه الآية أم خاصّة؟ قال ﷺ: أمّا المامورون فعامة المؤمنين أمروا بذلك، وأمّا الصادقون فخاصّة لأخي وأوصيائي مِن بعده إلى يومِ القيامة»، قالوا: اللّهمّ نعم[١].

وعن الباقر عليه السلام: «إيّانا عنى»[٢]. وعنه عليه السلام قال: «مع آل محمّد»[٣].

وعن الرضا عليه السلام: «الصّادقون هُم الأئمة»، الخبر[٤].

وقال العلّامة: رَوى الجُمهور: أنّها نزلتْ في علي عليه السلام[٥]. فلا ترتبط الآية بحُجيّة الإجماع، بَل هي دالّةٌ على عِصمة عليّ عليه السلام وأولاده الطيّبين وإمامتهم، رَغماً للنّواصب.

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ ٱللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٢٠ و ١٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بكون المؤمنين مع الرسول ﷺ في جميع غَزواته، أكّده بالنهي عن التخلّف عنه بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صحيحاً في حُكم الله ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ من المؤمنين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ والذين في أطرافهم من مؤمني أهل البَوادي كجُهَينة ومُزَينة وأسلم وأشجع وغِفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ ٱللهِ﴾ في غَزوة من غَزواته ﴿وَ﴾ أن ﴿لَا يَرْغَبُوا﴾ ولا يُعرضوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَن

١. كمال الدين: ٢٥/٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٣٨٨.
٢. الكافي ١: ١/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٨٧.
٣. مجمع البيان ٥: ١٢٢، تفسير الصافي ٢: ٣٨٨.
٤. الكافي ١: ٢/١٦٢، تفسير الصافي ٢: ٣٨٧.
٥. كشف الحق: ١٩٠.

﴿نَفْسِهِ﴾ ولا يُضايقوا من بذلوا[1] مُهجَهم دُونه، بَل عليهم أن يصبِروا معه على البأساء والضرَاء، وأن يفدُوا بأنفسهم لنفسِه برغبةٍ ونَشاط ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثَبات معه، أو الإلزام مِنّا على مُتابعته ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ إذا ثبتوا على الجِهاد معه، والتزموا بخِدمته ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ ولا يَنالهم عطشٌ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وتعبٌ في أبدانهم، ولَو كانا يَسيرين ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ومَجاعة، ولَو كانت قليلة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وتَرويج دِينه، وإعلاء كلمته ﴿وَلَا يَطَئُونَ﴾ بأقدامهم وحَوافر خُيولهم وأخفاف رَواحلهم ﴿مَوْطِئًا﴾ ومكاناً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ويَسوءهم وطْء المُسلمين فيه مِن أراضيهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ﴾ قِبَل ﴿عَدُوٍّ﴾ من أعداء الله ﴿نَيْلًا﴾ من آفةٍ ومِحنة، من قَتل وجِراحة وأسر وخَوف ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ في صحيفة أعمالهم، وثُبِّت ﴿لَهُم﴾ عند الله ﴿بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وحَسنة مَقبولة تُوجب الثَواب الجزيل، والأجر العظيم.

ثمَ أكَد سُبحانه وَعده وقرّره بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكَرمه وفَضله وعَدله ﴿لَا يُضِيعُ﴾ ولا يُبطل ﴿أَجْرَ﴾ إحسان ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وثَواب أعمال الصَالحين ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله وجِهاد أعدائه ﴿نَفَقَةً﴾ سَواءً كانت ﴿صَغِيرَةً﴾ كنَعْل فَرس، بَل تَمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ وكثيرة كألف دينار أو أزيد ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ ولا يتجاوزون في سَيْرهم ﴿وَادِيًا﴾ من الأودية ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ في دفتر أعمالهم ذلك الذي فعلوه مِن الإنفاق والسَير ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك العمل جَزاء ﴿أَحْسَنَ﴾ وأفضل من جَزاء سائر ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الخَيرات والعِبادات، أو أحسن من ذلك العمل الذي عمل، ومِن المال الذي بذل.

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[١٢٢]

ثمَ أنه رُوي عن ابن عبَاس ﵁ أنَ النبيَ ﷺ كان إذا خرج إلى الغَزو لَم يتخلَف عنه إلّا مُنافق أو صاحب عُذر، فلمّا بالغ الله سُبحانه في تَعييب المُنافقين في غَزوة تَبوك، قال المؤمنون: والله، لا نتخلَف عن شيءٍ من الغَزوات معَ الرَسول ﷺ ولا عن سَريَة، فلمّا قدِم الرَسول المدينة وأرسل السَرايا إلى الكُفّار، نفر المُسلمون جميعاً إلى الغَزو وتركوه وَحده بالمدينة[2]، فنهى المسلمين عن أن ينفِروا جميعاً إلى الغَزوات ويترُكوا النبيَ ﷺ في المدينة وَحده، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وما يَسوغ لهم ﴿لِيَنفِرُوا﴾ إلى الجِهاد ﴿كَافَّةً﴾ وعامّة، ويترُكوا النبيَ ﷺ وَحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ وخرج إلى الجِهاد ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ وجَماعةٍ كثيرة ﴿مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وجَماعة قليلة، وأقامتْ البقيّة عندَ

---

١. في النسخة: بذل. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٢٥، مجمع البيان ٥: ١٢٥.

الرّسول ﷺ **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾** ويتعلّموا أحكام الإسلام **﴿وَلِيُنذِرُوا﴾** ويُخوّفوا بالإرشاد إلى ما تعلّموه من الأحكام، وبَيان عُقوبة الله على مُخالفتها **﴿قَوْمَهُمْ﴾** النّافرين **﴿إِذَا رَجَعُوا﴾** مِن الجهاد **﴿إِلَيْهِمْ﴾** وحضَروا عندهم **﴿لَعَلَّهُمْ﴾** باطّلاعهم على الأحكام بتوسُّط المُقيمين المُتفقّهين من الرّسول **﴿يَحْذَرُونَ﴾** ويجتنبون عِصيانها بعدَ التعلّم.

عن الباقر عليه السلام: «كان هذا حين كثُر النّاس، فأمرهم [الله] أن تنفِر طائفةٌ منهم، وتُقيم طائفة للتفقُّه، وأن يكون الغَزو نُوَباً»[1].

وقيل: إنّ المُراد: تفقُّه الطّائفة النّافرة بمُشاهدة الآيات الإلهيّة الدالّة على صِدق النبيّ ﷺ، وصِحّة دين الإسلام، من غَلَبة عِدّة قَليلة من المسلمين؛ معَ قِلّة زادهم وسِلاحهم، على أضعافهم من المُشركين معَ كَمال قُوّتهم وشَوكتهم، وغيرها من الآيات الأُخَر **﴿لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾** النّافرين بما شاهدوه من الآيات **﴿لَعَلَّهُمْ﴾** باطّلاعهم على دلائل صِدق النبيّ ﷺ ودين الاسلام **﴿يَحْذَرُونَ﴾** الكُفر والضّلال[2].

وقيل: إنّ المُراد أنّ المُسافرة إلى الرّسول لطلَب العِلم وتعلُّم الأحكام ليس كالهِجرة والجِهاد واجباً على جميع المسلمين، بَل هُو واجب كِفاية عليهم، فليخرُج من القبائل وسَكَنة البِلاد طائفةٌ قليلة إلى حَضرة الرّسول ﷺ، ليتفقّهوا في الدّين، وَيتعلّموا الأحكام، ويعودوا إلى قبائلهم وأوطانهم، فيُنذِروا ويُرشدوا كلّ طائفة قومَهم، لكي يرجِعوا عن الكُفر ويهتدوا إلى الأحكام المُنزلة. وحاصل مَفاد الآية وُجوب النَّفر لطَلب العِلم والتفقُّه على مَن به الكِفاية.

عن الصادق عليه السلام، أنّه قيل له: إنّ قوماً يروُون أنّ رسول الله ﷺ قال: «اختِلاف أُمّتي رحمة»، فقال: «صدقوا»، فقيل: إن كان اختِلافهم رَحمة، فاجتِماعهم عذاب؟

قال: «ليسَ حيثُ تذهب وذَهبوا، إنّما أراد قولَ الله عزّ وجلّ: **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ...﴾** الآية، فأمرهم أن ينفِروا إلى رسول الله ﷺ ويختلِفوا إليه، فيتعلّموا ثمّ يرجِعوا إلى قومهم فيُعلّموهم، إنّما أراد اختِلافهم من البُلدان، لا اختِلافاً في دين الله، إنّما الدّين واحد»[3].

وعن (الكافي): قيل للصادق عليه السلام: إذا حدث على الإمام حدثٌ، كيف يصنع النّاس؟ فقال: «أين قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ...﴾** الآية» قال: «هُم [في عُذر] ما داموا في الطّلَب، وهؤلاء

---

١. مجمع البيان ٥: ١٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩. ٢. تفسير الرازي ١٦: ٢٢٦

٣. علل الشرائع: ٤/٨٥، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩، وزاد في المصدر: إنما الدين واحد.

الّذين ينتظرون هُم في عُذر حتّى يرجِع إليهم أصحابهم»[١].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «تفقّهوا في الدّين، فإنّ مَن لَم يتفقّه منكم في الدّين فهُو أعرابيّ، إنّ الله يقول في كِتابه: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾»[٢].

ثمّ اعلَم أنّه استدلّ كثيرٌ من العامّة والخاصّة بهذه الآية على حُجيّة خبر الواحد في الأحكام بوُجوه، والحقّ عدم دَلالتها عليها بوجهٍ؛ لأنّ الظاهر منها بَيان الطّريق العادي العُقلاني لتَحصيل العِلم بالأحكام، لا الحُكم الشّرعي التعبُّدي الطّريقي، ويشهد على ذلك استِدلال الإمام عليه السلام بالآية على وُجوب الفَحص عن الإمام بعد الإمام بتوسُّط المَبعوثين معَ الإجماع باعتِبار اليقين بإمامة الإمام.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ[١٢٣]

ثمّ أنه تعالى بعد إرشاد عِباده إلى طَريق العِلم بالأحكام، أرشدهم إلى أصوب طُرق الجِهاد مع الكُفّار؛ وهُو الابتِداء بالأقرب فالأقرب، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويُجاورونكم ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ ولا تَدَعوا الجِهاد معَ الأقرب وتُجاهدوا الأبعد لحِكَمٍ واضحة، عن الصادق عليه السلام قال: «الدَّيلَم»[٣]. وعن القُمّي رحمه الله: يجب على كُلّ قوم أن يُقاتلوا مَن يليهم مِمّن يقرب [بِلادهم] من الكُفّار ولا يَجُوزوا ذلك الموضع[٤] ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ ويُعاينوا ﴿فِيكُمْ﴾ حينَ الجِهاد وقَبله ﴿غِلْظَةً﴾ وخُشونة في القَول، وشَجاعة في القَلب، وقَساوة في القَتل، فإنّها أرعب لقُلوبهم، وأزجر لهم عن الكُفر والقبائح، ولازموا التّقوى واعتمِدوا في نَصركم عليهم على الله ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ﴾ بالنّصر والتأييد والحِفظ والتّسديد ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ[١٢٤ و ١٢٥]

---

١. الكافي ١: ١/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٩٣١/٢٧١، الكافي ١: ٦/٢٣، تفسير الصافي ٢: ٣٨٩.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٣٢/٢٧١، التهذيب ٦: ٣٤٥/١٧٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٠.

٤. تفسير القمي ١: ٣٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠٩.

ثمّ أخبر الله عن بعض أقاويل المنافقين المؤثّرة في تثبيط المؤمنين عن الجهاد بقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ﴾ من الله إلى الرّسول ﴿سُورَةٌ﴾ من سُوَر القرآن وسمعها المنافقون ﴿فَمِنْهُم مَن يَقُولُ﴾ لإخوانهم المنافقين استهزاءً وسُخريةً، أو لبعض المؤمنين صَرفاً لهم عن الإيمان، وتثبيطاً لهم عن الجهاد ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ﴾ السُّورة المُنزلة ﴿إِيمَاناً﴾ بمحمّد ﷺ ودينه.

ثمّ أجاب الله سُبحانه عنهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد، عن صَميم القلب، وبرئوا عن النِّفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السُّورة المُنزلة ﴿إِيمَاناً﴾ بالله وبرسالة محمّد ﷺ، ويقيناً بها لظُهور كونها كَلام الله، الخارج إتيان مِثلها مِن طَوق البشر ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون بنُزولها لِما يعتقدون بأنّ فيها المنافع الدّنيويّة والأُخرويّة لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ من الكُفر والشكّ والنِّفاق والكِبَر والحَسَد، وغيرها من الرّذائل ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ تِلك السّورة بسَماعها ﴿رِجْساً﴾ وكُفراً مُنضماً ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وكُفرهم السّابق لازدِياد حسَدهم الرّسول ﷺ على ما آتاه الله مِن فَضله، وإصراراً على عِنادهم للحقّ، حتّى أحاطتْ ظُلمة الكُفر على قُلوبهم فطُبع عليها ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

في الحديث: أنّ الله يرفع بهذا الكِتاب أقواماً ويضع به آخرين[1]، كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾[2].

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ[١٢٦]

ثمّ وبّخهم الله تعالى وأنكر عليهم الإصرار على الكُفر والنِّفاق مع وُفور دلائل الحقّ المُقتضية للإيمان والخُلوص، بقوله: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ﴾ والتّقدير: ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويُبتلَون امتِحاناً ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً﴾ من أعوام أعمارهم بالأمراض، والشّدائد المُوجبة لتفكُّرهم في العَواقب، وتذكُّرهم للموت، وتَنبيههم لفَناء الدُّنيا مرّة واحدة ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ـ قيل: هُو كِناية عن الكثرة[3] ـ ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿لاَيَتُوبُونَ﴾ ولا يرجِعون عن كُفرهم ونِفاقهم ﴿وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويتّعظون بتِلك الفِتن، ولا ينتبهون بسُوء عاقبة الكُفر ومُعاندة الله والرّسول.

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٤٠.

٢. البقرة: ٢/ ٢٦.

٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٤١.

صَرَفَ ٱللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ[١٢٧]

ثمّ أخبر سُبحانه عن غاية خُبث سَريرتهم، وحِيَلهم في إضلال النّاس، وأعمالهم الرّادعة لغيرهم عن الإيمان بالقُرآن بقوله ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ من الله ﴿سُورَةٌ﴾ من القُرآن على النبيّ ﷺ فيها فضائح المنافقين ضحِكوا، ثمّ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ نظراً مُفهماً للطَّعن فيها والاستِهزاء بها، وتغامزوا فيها إنكاراً لها، ويقولون لإخوانهم حينَ إرادتهم الخُروج من المَسجد، أو مِن مَحضر النبيّ ﷺ خوفاً من افتِضاحهم بالضحك من تِلك السُّورة، بعد غَلَبته عليهم: يا إخواننا، إن قُمتّم من المَجلس وانصرفتّم منه ﴿هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين أو لا، فإن يراكم أحدٌ منهم لا تخرُجوا وانتظِروا غَفلتهم عنكم، وعدم التِفاتهم إليكم، فعند ذلك قُوموا واخرُجوا، فكانوا يترصّدون ذلك، فإن لَم يَرهم أحدٌ من المؤمنين قاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا﴾ وخرجوا وتفرّقوا مَخافةَ الفَضيحة بضَحكهم، وذلك الانصِراف لأنّه ﴿صَرَفَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن قَبول الهِداية والإيمان، وطبع عليها.

وعن ابن عبّاس: عن كُلّ رُشْدٍ وخيرٍ وهُدىً[1].

وعن القُمّي ﵀: عن الحقّ إلى الباطل[2]. ويُحتمل كون الجُملة دُعائية.

ثمّ علّل سُبحانه صَرف قُلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ﴾ فوائد الإيمان والتّسليم، ومَضارّ الكُفر والنِّفاق وسُوء عاقبتهما.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ[١٢٨ و ١٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان فضائح المنافقين وعِنادهم للرّسول، أظهر مِنّته على النّاس، وعَظَمة نِعمته عليهم ببعث رسول من جِنسهم فيهم، وحُبّ ذلك الرّسول لهم وشَفقته عليهم، تحبيباً لقُلوب المنافقين إيّاه، وجَلباً لتوجُّههم إليه، بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها النّاس من جانب الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن رفيع المَنزلة، ومِن أفاضل مِنّته تعالى عليكم أنّه جعل ذلك الرّسول ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن جِنسكم، أي من البشر لا مِن الملائكة. ويُحتمل أن يكون الخِطاب إلى العرب، ويكون المُراد من قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من العرب.

عن ابن عبّاس قال: ليس في العرب قبيلة إلّا ولدتْ النبيّ ﷺ بسبب الجدّات؛ مُضَرها ورَبيعها

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٣٤.

٢. تفسير القمي ١: ٣٠٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩١.

ويَمانيها، فالمُضَريّون والرّبيعيّون هُم العَدنانية، واليَمانيّون هُم القَحطانيّة[١].

والمِنّة عليهم بذلك، لأنّ كُلّ ما يحصُل له من العِزّ والشّرف فهو عائد إليهم، معَ مَدخليّته التامّة في الشّفقة عليهم، ولِذا بيّن سُبحانه شَفقته عليهم بقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ وشاقٌّ ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ومَشقّتكم، وثَقيلٌ عليه تضرّركم وتحرّجكم، فحالُه بالنِّسبة إليكم حالُ الأب الشّفيق بالنِّسبة إلى وُلده ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ وشديد الطّلب لإيمانكم، وتَربية قُلوبكم، وتَزكية نُفوسكم، وتهذيب أخلاقكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كما أنّه على الكافرين شَديد غليظ.

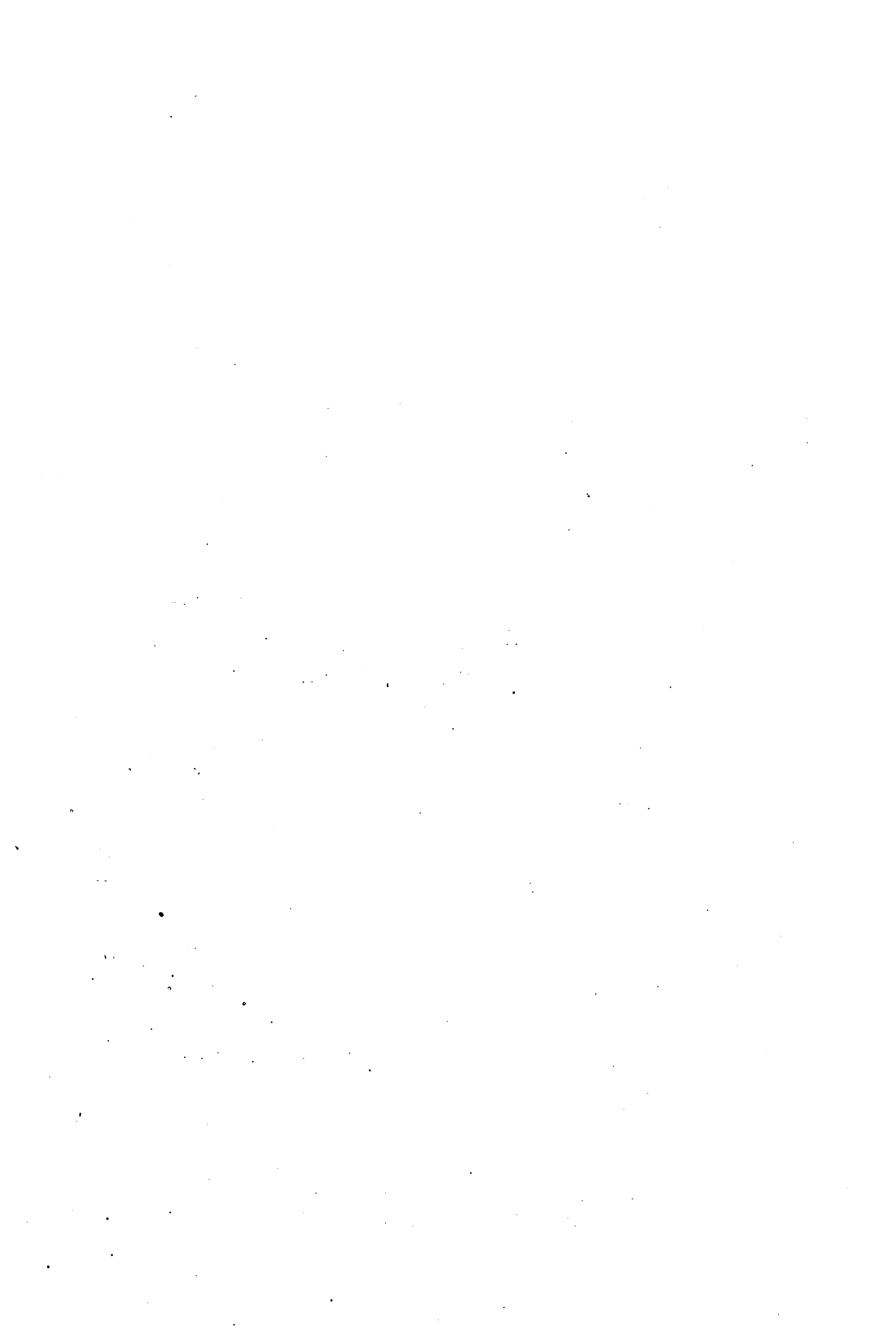
ثمّ ختَم سُبحانه السُّورة المُباركة بتَسلية قلب حبيبه على عِناد القوم، بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا معَ ذلك عن الإيمان بك، فلا تُبالِ بهم ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ وكَفاني ﴿ ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في جميع أُموري، ولِذا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو غيره، ولا أخاف إلّا منه؛ لأنّه القاهر على جميع المَوجودات ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «أي المُلك العَظيم»[٢].

رُوي «أنّه مَن قرأ سُورة الأنفال وبراءة في كُلّ شهرٍ لَم يدخُله النِّفاق، وكان مِن شيعة أمير المؤمنين عليه السلام[٣]، ويأكُل من مَوائد الجنّة مع شيعته حتّى يفرُغ النّاس من الحِساب»[٤].

---

١. تفسير الرازي ١٦: ٢٣٦.
٢. تفسير الصافي ٢: ٣٩٢.
٣. ثواب الأعمال: ١٠٦.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٧٦٨/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٣٩٢.



في تفسير سورة يُونس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ[١]

ثمّ لمّا ختم سُبحانه سُورة براءة ـ بذِكر استِهزاء المنافقين بالرّسول وكِتابه، وتَسليته، وأمره بالتوكُّل عليه وعدَم المُبالاة بهم، وبَيان استِحقاقه العُبوديّة، وكونه مُربّي الموجودات ـ أُردفتْ بسُورة يُونس ببَيان عَظَمة القُرآن الدالّ على صِدق الرّسول.

ثمّ تَوبيخ الكُفّار على التعجُّب من رِسالة رسولٍ من جِنسهم، وتَسلية الرّسول بذِكر توكُّل نُوح وعدَم مُبالاته بمُعارضة قومه، ونُصرته عليهم، ونُصرة موسى على فِرعون وقومه.

ثمّ شَرح رُبوبيّته للعَرش ببَيان كونه خالق السّماوات والأرض، ومُدبّر الموجودات، ابتدأ فيها بذِكر الأسماء المُباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾

وقد مرّ تفسيرُه.

ثمّ افتتحها بذِكر الحُروف المُقطّعات بقوله: ﴿الَر﴾ وقد مرّ تأويلها في بعض الطرائف، وبَيان حِكمة ذِكرها التي منها جَلب التوجُّه إلى ما يُذكر بعدها من المطالب المهمّة؛ التي منها عَظَمة شأن القُرآن، ولِذا ذكرها بعدها ردّاً على المُستهزئين بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التي في هذه السُّورة، أو المُنزلة من أوّل القُرآن إلى هُنا، أو في القُرآن كُلّه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ والقُرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ والمُستحكم المَصون من التّغيير والتّحريف والمَحو والاندِراس في كُرور الدّهر، أو المخزون عندَ الله، أو المُشتمل على الحِكَم غير المُتناهية، أو الحاكم بين النّاس بالحقّ ومميّزه عن الباطل، أو الدالّ على الحِكمة والصّواب، أو المحكوم فيه بالعَدل والإحسان وسائر المُحسّنات العقليّة، وبمَثوبة المُطيعين وعُقوبة العاصين.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ[٢]

ثمّ لمّا أثبت سُبحانه نُبوّة نبيّه ﷺ بتَعظيم كِتابه وتَوصيفه بما لا يُمكن أن يكون الموصوف به إلّا من الله، أنكر على مُنكريه التعجُّب من رِسالة البشر، أو رِسالة مِثل محمّد اليتيم الفقير، بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ وهُم كُفّار مكّة ـ على ما قيل[1] ـ ﴿عَجَباً﴾ من ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ﴾ كائن ﴿مِنْهُمْ﴾ جِنساً ونسباً، وقُلنا له بالوَحي: ﴿أَنْ أَنذِرِ﴾ وخوف ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بالعذاب على الشِّرك والعِصيان، كَي يرتدعوا عنهما ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوَحدانيّة الله ورِسالتك ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ وعملاً صالحاً، أو ثواباً مذخوراً ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومَليكهم.

وعن ابن عبّاس: لهم شفاعة نبيّهم، وهُو أمامهم إلى الجنّة، وهُم بالأثر[2].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ شفاعة محمّد ﷺ»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً: «هو رسول الله ﷺ»[4].

ثمّ كأنّه قال: لا مَجال للعجب من رِسالة البشَر، أو رِسالة محمّد، إنّما العَجب في أنّه لمّا أتاهم بالمُعجزات وأنذرهم ﴿قَالَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ عِناداً ولَجاجاً: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الرّجل المُدّعي للنُبوّة، الفاعل لخَوارق العادات ﴿لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ ومُشعبذ ظاهر.

أقول: فيه دَلالة على أنّهم رأوا منه مُعجزة لَم يُمكنهم مُعارضته.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ[٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد تَوبيخ الكُفّار على إنكار رِسالة الرّسول، بيّن أنّه تعالى خالق العالم ومُدبّره، تنبيهاً على كَمال حِكمته المقتضي لبعث الرّسول واستِحقاقه العِبادة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ومُدبّر أُموركم هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ بقُدرته ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ السّبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأوقات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ واستولى بالعِلم والتّدبير ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وسَرير سَلطنته، أو على جميع المَوجودات، وهو ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ويُنظّم شؤون الخلق على وَفق الحِكمة، ويُهيّئ مافيه صَلاح كُلّ شيء، ومن تَدبيره في نِظام العالم إرسال الرّسول، وإنزال الكُتب، وجعل القَوانين والأحكام والثّواب والعِقاب ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ في تَدبيره وثوابه وعِقابه ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ورِضاه؛ لأنّه تعالى أعلم بمواضع[5]

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٥.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٦.
٣. مجمع البيان ٥: ١٣٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٣.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٤٠/٢٧٤، الكافي ٨: ٥٥٤/٣٦٤، تفسير الصافي ٢: ٣٩٣.
٥. في النسخة: مواضع.

الحِكمة والصَّواب مِن جَميع خلقه؛ مَلَكاً كان أو نبيّاً أو رسولاً، فكيف بالأصنام التي هي جَمادات لا شُعور لها بشيء، ولا إدراك؟ وأعجب من كُلّ عَجب أنّ المشركين كانوا يتعجّبون من أن يكون البشر رسولاً، ولا يتعجّبون من أن يكون الحجَر المَنحوت أو الفِلِزّ المصنوع بأيديهم إلهاً أو شفيعاً عندَ الله.

ثمَ لمّا أثبت سُبحانه كمال قُدرته وحِكمته وتَدبيره وعَظمته، خصّ الرُّبوبيّة والأُلوهيّة، واستِحقاق العِبادة بذاته المُقدّسة بقوله: ﴿ذٰلِكُمُ﴾ الموصوف بالصِّفات الكماليّة والجَماليّة هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المُستحقّ للعِبادة، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومَليككم ومُدبّر اُموركم، لا غيره كوكباً كان أو صنماً، أو غيرهما، فإذا علِمتُم ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وَحده، واخضَعوا له بقُلوبكم وجَوارحكم، ولا تُشركوا به شيئاً في الرُّبوبيّة والعِبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنّ الإله والربّ لابُدّ أن يكون له تِلك الصِّفات، وأنّ الأصنام بمَعزل عن الأُلوهيّة واستِحقاق العِبادة.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[٤]

ثمَ لمّا أثبت سُبحانه تَوحيد المَبدأ، رتّب عليه المَعاد بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ومَعادكم بعدَ خُروجكم من الدُّنيا ﴿جَمِيعاً﴾ بحيث لا يَشِذّ منكم أحدٌ، وهذا الوعد يكون ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ الذي يستحيل منه الخُلف في وعده، بَل يحُقّ ﴿حَقّاً﴾ ويثبُت ثُبوتاً لا مَجال للشكّ فيه.

ثمَ استدلّ على إمكانه بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ﴾ ويُوجد الإنسان في هذا العالم، بِلا سَبق مِثال، من نُطفة أمشاج، للإيمان والعمَل الصّالح ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ البتّة لقُدرته على الإعادة والخَلق ثانياً، لكونه أهون عليه.

ثمَ استدلّ على وُجوبه بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوَحدانيّته وبرُسُله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ في الدُّنيا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ المُقتضي لعدم تَضييع أجر المُحسنين، وعدم التَسوية بينهم وبين المُسيئين.

قيل: إنّ المُراد: ليَجزيهم بقِسطهم وعَدلهم[١] في حُقوق أنفسهم؛ حيث لَم يظلموا عليها بالمَعاصي وتَعريضها للهَلاك والعَذاب، وفي حُقوق غيرهم من النّاس.

وإنّما لَم يُعيّن الجَزاء تنبيهاً على أنّه بما يليق بلُطفه وكَرمه، وكونه مِمّا لا عَين رأت، ولا أُذن سمِعت، ولا خطَر على قلب أحد.

---

١. جوامع الجامع: ١٩٠.

ثمَ قيل: لمّا لَم يكُن المقصود الأصلي في الخَلق هُو العَذاب[١]، غيّر سُبحانه النّظم في بَيان جَزاء الكُفّار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الدُّنيا بالله ووَحدانيّته ورُسله ﴿لَهُمْ﴾ بالاستِحقاق ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماءٍ حارٍ متناهٍ [في] حَرارته ﴿وَعَذَابٌ﴾ بالنّار ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

وقيل: إنّ نُكتة تغيير النّظم، التّنبيه على المُبالغة في استِحقاقهم[٢].

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِياءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٥]

ثمَ لمّا كان الأهمّ إثبات المَبدأ وكونه[٣] مُلازماً للقول بالمَعاد وسائر العقائد الحقّة، عاد إلى الاستِدلال عليه بقوله: ﴿هُوَ﴾ الإلَه القادر ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ بقُدرته ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ وخلقها لتكون ﴿ضِياءً﴾ للعالَم ﴿وَ﴾ خلق ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ ليكون في اللّيل ﴿نُوراً﴾ للنّاس ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ قيل: إنّ التقدير: وقدّر مَسير القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدّر القمر ذا مَنازل[٤] - وقيل: إنّ ضمير ﴿قَدَّرَهُ﴾ راجع إلى الكَوكبين، فاللّفظ مُفرد والمعنى تَثنية، ومَنازل الشّمس البُروج الاثنا عشر، ومَنازل القمر ثمانٍ وعشرون، فإذا كان في آخر مَنازله دَقّ واستقوس[٥] - وذلك التّقدير ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيّها النّاس بسَيرهما في مَنازلهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ للأوقات من الأيام والشّهور ﴿مَا خَلَقَ ٱللهُ ذٰلِكَ﴾ المذكور من الكَوكبين ومَنازلهما، بسببٍ من الأسباب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحِكمة وصَلاح نِظام العالَم، كذلك التّفصيل البديع لتِلك الآية ﴿يُفَصِّلُ﴾ ونذكُر مُتوالياً واحداً بعدَ واحد، ونشرح ونُبيّن ﴿ٱلآيَاتِ﴾ والدّلائل المُتقنة على قُدرتنا وحِكمتنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويعقِلون، أو يتفكّرون في المَوجودات وحِكَمها، ليطّلعوا على شؤون صانعها، فإنّهم المُنتفعون بها.

إِنَّ فِى ٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ[٦]

ثمَ أنّه تعالى بعد الاستِدلال بخَلق السّماوات والأرض والشّمس والقمر، وفائدتهما بفائدة سَير الكوكبين، استدلّ بفائدة اُخرى لسير الشّمس وبسائر الموجودات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٨.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٤٢٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩٤.
٣. في النسخة: ومكونه.
٤. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٠، تفسير الرازي ١٧: ٣٥.
٥. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٠.

﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ بالنُّور والظُّلمة وتغيّرهما بالطُّول والقِصَر، أو تعاقبهما وذَهاب أحدهما ومَجيء الآخر ﴿وَ﴾ في ﴿مَا خَلَقَ ٱللهُ فِي ٱلسَّماوَاتِ﴾ من الكَواكب السيّارة والثّابتة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من الجِبال والمَعادن والبِحار والحَيوانات والنّباتات، وسائر ما فيها من المُمكنات ﴿لَآيَـاتٍ﴾ عظيمة ودَلالات واضحة على كونها تحت قُدرة قادرٍ حكيم مُتفرّد بالصُّنع والتّدبير، وإنّما الانتِفاع بها يكون ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ سُوء العاقبة، ولِذا يتدبّرون فيها؛ فيزدادون مَعرفةً ويقيناً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٧ و ٨]

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات التّوحيد والمَعاد، هدّد مُنكريهما بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ يُنكرون المَعاد، و ﴿لاَ يَرْجُونَ﴾ ولا يظُنّون ﴿لِقَاءَنَا﴾ والبَعث لجزائنا بعدَ الموت، ولا يخافون الحشر[١]، كما عن ابن عبّاس[٢]، أو لا يطمَعون في الثّواب، كما عن غيره[٣] ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واخْتاروها وانْهمكوا في شَهواتها ﴿وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وسكنتْ قُلوبهم إلى لذّاتها وزَخارفها، بحيث لا توجّه لهم إلى غيرها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ ودَلائل تَوحيدنا ﴿غَافِلُونَ﴾ وعن النّظر إليها ذاهلون، لاستِغراقهم في التفكُّر فيما يُضادّها، واشتِغال قُلوبهم بما يُلهي عنها ﴿أُولٰئِكَ﴾ المُتّصفون بتِلك الرّذائل ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ ومَسكنهم في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ المُوقدة التي تطّلع على الأفئدة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكُفر، وقَساوة القَلب، والبُعد عن الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٩ و ١٠]

ثمَ بشّر سُبحانه الموحّدين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ تفكّروا في آيات الله، وتدبّروا فيها بعُقولهم السّليمة، ولذا ﴿آمَنُوا﴾ بالله ووَحدانيّته وصِفاته الجَمالية والجَلالية ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ وقاموا بوَظائف العُبوديّة سرّاً وعَلانية ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ في الآخرة بعدَ بَعثهم من قُبورهم ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ وبسبَب نُوره إلى الجنّة التي وَعد المُتّقون.

رُوي أنّ المؤمن إذا خرَج من قبره صُوّر له عملُه في صُورةٍ حسَنة، فيقول له: أنا عملُك، فيكون له

---

١. في تفسير الرازي: البعث.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٧: ٣٨.

نوراً[١].

وقيل: يعني: يُرشدهم ربّهم في الدُّنيا بسَبب إيمانهم إلى جميع الخيرات[٢].

وفي الآخرة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾ يعني تحت قُصورهم وسُرُرهم ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وبَساتين كثيرة النِّعَم ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في تِلك الجنّات، ودُعاؤهم أو عبادتهم ﴿فِيهَا﴾ أو قولهم، أو طَريقتهم في تَمجيد الله قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن التّسبيح، فقال: «اسمٌ من أسماء الله تعالى، ودَعوى أهل الجنّة»[٣].

قيل: إنّهم إذا مرّ بهم طَيرٌ يشتهونه قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم المَلَك بذلك المُشتَهى[٤].

وقيل: إنّ المعنى أنّه ليس تمنّيهم في الجنّة إلّا في تَسبيح الله وتَنزيهه وتَقديسه[٥]؛ لأنّ لذّتهم وسُرورهم وكَمال حالهم به.

وقيل: إنّ أهل الجنّة إذا دخلوها ووَجدوا نِعَمها العَظيمة، عرَفوا صِدق وَعْده تعالى. فعند هذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي نُسبّحك ونُنزّهك عن الخُلف في الوَعد والكَذِب[٦] في القول.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ وتكرمتهم من الملائكة في الجنّة، أو تحيّة بعضِهم لبعضٍ ﴿فِيهَا﴾ عند المُلاقاة ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، إذ فيه بِشارة بالأمن مِن كُلّ مَكروه ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ وخاتمة دُعائهم، أو أقوالهم، أو عِباداتهم ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قيل: إنّهم إذا أكلوا وشَبِعوا قالوا ذلك[٧].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ أهل الجنّة يُلهمون الحَمد والتّسبيح كما تُلهمون أنفاسكم»[٨].

وقيل: إنّهم يفتتحون بتَعظيم الله وتَنزيهه، ويختتمون بشُكره والثّناء عليه[٩]. وقيل: إنّ التّسبيح من نِعَم الله عليهم، ولِذا تأخّر الحَمد عنه، وخُتم به الذِّكر[١٠].

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[١١]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَهديد الكفّار ووَعدهم بالعذاب الأُخروي، نبّه على أنّ مَصلحة الإمهال منعَتْ من نُزول العذاب عليهم في الدُّنيا، معَ استِحقاقهم له بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ والعَذاب حَسَب استِحقاقهم واستِعجالهم فيه ﴿اسْتِعْجَالَهُم﴾ ونَحو تَسريعهم ﴿بِالْخَيْرِ﴾ من العافية والرّاحة

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٤١، تفسير روح البيان ٤: ١٩. ٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٢٣، تفسير روح البيان ٤: ١٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٤٤/٢٧٥، تفسير الصافي ٢: ٣٩٥. ٤ و٥. تفسير الرازي ١٧: ٤٤.
٦. تفسير الرازي ١٧: ٤٥. ٧-١٠. تفسير الرازي ١٧: ٤٦.

والحُطام الدُنيويّة ﴿لَقُضِيَ﴾ وأدّي ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في السّاعة ﴿أَجَلُهُمْ﴾ الذي عُيّن لعَذابهم، وأُميتوا وأُهلكوا دُفعةً وبلا مُهلة، ولكن لا يُعجّل ولا يُقضى ﴿فَنَذَرُ﴾ ونترُك الكَفَرة ﴿ٱلَّذِينَ لاَيَرْجُونَ﴾ ولا يتوقّعون ﴿لِقَاءَنَا﴾ والحَشر إلينا لجَزاء أعمالهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وعُتوّهم من الكُفر وإنكار الحَشر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتردّدون، إلزاماً للحُجّة، أو استِدراجاً، أو لُطفاً بهم لأجل أن يؤمنوا، أو بمَن في أصلابهم كي يخرُجوا إلى الدُّنيا ويُوفّقوا للإيمان.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بيان استِحقاق الكُفّار للعَذاب، بيّن أنّهم ـ مع غاية ضَعفهم، وقِلّة طاقتهم في تحمُّل مَكروهٍ من المَكاره الجُزئية الدُّنيوية، وتضرُّعهم إلى الله، ودَفْعه تعالى ذلك المكروه والضَّرَر عنهم ـ أعرضوا عنه، وتجرّأوا عليه، وعبَدوا الأصنام، وكفروا بنِعَمه بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وأصاب ﴿ٱلْإِنْسَانَ﴾ الشقيّ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ والمَكروه من فَقرٍ أو مرض، أو غيرهما من المَضارّ، جَزِع و ﴿دَعَانَا﴾ لكشفه من غاية عَجزه وضَعفه، وتضرّع إلينا لدَفعه، في جميع أحواله [سواء أ]كان مُلقىً ﴿لِجَنْبِهِ﴾ على الأرض، أو مُضطجعاً في الفِراش ﴿أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ لا يفتَر عن الضَراعة في حالٍ من حالاته.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ ودفعنا ﴿عَنْهُ﴾ لإخلاصه في دُعائه ﴿ضُرَّهُ﴾ وأزلنا عنه ما كرِهه، نسِيَنا، ونسي ابتِلاءه وتضرُّعه، وتفضُّلنا عليه، و ﴿مَرَّ﴾ ومضى على المَسلك الذي كان عليه قبل تضرُّره؛ من الشِّرك والطُّغيان ﴿كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ ولَم نمُنّ عليه بشيءٍ من النِّعم حتّى نستحِقّ عليه الشُّكر ﴿كَذٰلِكَ﴾ التّزيين الحاصل في نظير هذا الكافر لكُفران النِّعمة والطُّغيان على المُنعم ﴿زُيِّنَ﴾ من قِبَل النَفس والشّيطان ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ والمُتجاوزين عن حُدود العقل، والمُتعدّين على أنفسهم باختيار الشِّرك، والانهماك في الشّهوات، والغَفلة عن شُكر المُنعم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الله، ومُعارضة الرُّسل، وارتِكاب القبائح.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُـجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[١٣ و ١٤]

ثمّ أنه تعالى بعد تَهديد المشركين بعَذاب الآخرة، وإظهار مِنّته عليهم ـ بإمهالهم في الدُّنيا معَ

استِحقاقهم نُزول العذاب عليهم فيها، والتَنبيه على عِلَة استِحقاقهم؛ وهي الجُرأة على الله، وكُفرانهم نِعَمه، بعدَ تَنبيههم على غاية ضَعفهم، وعدم طاقتهم على تحمُّل أقلّ قليلٍ من المَضارّ الدُنيويّة، فكيف بعذاب الاستئصال في الدُنيا، وعذاب النّار في الآخرة؟ ـ وعَظهم سُبحانه ببَيان ما نزل على الأمم السَابقة لكُفرهم وعدَم إيمانهم بالرُسل، اعتِباراً لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال؛ كالغَرق والخَسف والصَيحة والصَاعقة وغيرها ﴿ٱلْقُرُونَ﴾ والأمَم الذين كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أيّها المشركون، وفي الأعصار السّابقة على عصركم أيُّها الظّالمون ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بتَعريضها للهَلاك، بسبب الإصرار على الشِّرك، وتَكذيب الآيات ﴿وَ﴾ الحال أنّه قد ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ من قِبَل الله ﴿رُسُلُهُم﴾ مُستدلّين على دَعواهم ﴿بِالبَيِّنَاتِ﴾ والحُجَج الواضحات من المُعجزات الباهرات، والبَراهين السّاطعات ﴿وَمَا كَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالله ورُسُله، لشِدّة قَساوتهم، ورُسوخ حُبّ الدّنيا في قُلوبهم، وفساد أخلاقهم، فصاروا بحيث لا يُرجى منهم الهِداية ﴿كَذٰلِكَ﴾ الجَزاء الفَضيع ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في كُلّ عصرٍ وزمان.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيُّها المُشركون في هذا العصر ﴿خَلَائِفَ﴾ وأبدالاً لهم في السُّكونة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والتعيُّش فيها ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وبعد إهلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ﴾ نظر الاختِيار، ونعلَم بالشُّهود ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في أيّام حياتكم، أتعملون خيراً أو شرّاً؟ فنُجازيكم حَسب أعمالكم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[١٥]

ثمّ لمَا بيّن سُبحانه تَكذيب الأمَم الماضية المُهلَكة لرُسُلهم، ذكَر تَكذيب مُشركي مكّة للنبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ المُنزلة من القُرآن، مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدّلالات على صِدق النبيّ، وكونها كَلام الله ﴿قَالَ﴾ المُشركون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ولا يؤمنون باليوم الآخر حتّى يخافوا من التّكذيب والاستِهزاء بالقُرآن: ﴿ٱئْتِ﴾ يا محمّد ﴿بِقُرْآنٍ﴾ آخر ﴿غَيْرِ هٰذَا﴾ الذي أتيتَ به ترتيباً ونَظماً ومَطلباً، فإنّ فيما أتيتَ به ما نستبعده من أمر البَعث، وما نكرَهه من ذَمّ آلهتنا وتَحقيرهم ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وغيِّرْهُ من حيث المَطلب وإن أبقيتَه على ما هُو عليه من النَظم والتَرتيب.

وقيل: إنّ الفَرق بين إتيان الغَير والتّبديل أنّ المُراد من الأوّل: إتيان كِتاب آخر مُغاير لِما أتى به في المطلب، معَ إبقاء الأوّل على حاله، ومن الثاني: تَغيير ما أتى به. وعلى أيّ تقديرٍ، كان المقصودُ إظهارَ

أنّه كلامٌ تقوّله مِن قِبَل نفسه، وأنّه كاذبٌ فيما يدّعيه من أنّه من الله[١] أو السُّخرية والاستِهزاء به.

عن ابن عبّاس: أنّ خمسة من الكُفّار كانوا يستهزئون بالنبيّ ﷺ وبالقُرآن: الوليد بن المُغيرة المَخزومي، والعاص بن وائل السّهمي، والأسود بن المُطّلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله كُلّ واحدٍ منهم بطريق آخر، كما قال الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٢]، فذكر الله أنّهم إذا تُتلى عليهم آيات القُرآن، قال الّذين لا يرجون لقاءنا: إئت بقُرآن غير هذا أو بدّله[٣].

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بجَوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمُستهزئين: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ولا يُمكنني ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ من قِبَلي و ﴿مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ لأنّه ليس بكلامي وكلام غيري من البَشر، بَل إنّما هُو كلام ربّي، و﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ فيما أتلو عليكم ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قِبَل ربّي، بِلا تصرُّف وتغيير منّي فيه ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتّغيير في كلامه، أو التّبديل فيه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإنّ العاصي مُستحقّ له؛ ولَو كان على فرض المُحال أحبُّ الخلق إليه.

وإنّما اقتصرَ في الجواب على بَيان عدم قُدرته على التّبديل، لفَهم عدم قُدرته على التّغيير بالأولويّة.

قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[١٦]

ثمّ أمره الله سُبحانه بالاستِدلال على عدم كون القُرآن مِن تِلقاء نفسه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا أتلو عليكم القُرآن، ما أوحاه إليّ، و ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ لعَجزي عن إتيان هذا الكِتاب المُحتوي على العُلوم الكثيرة، وتَفاصيل المبدأ والمَعاد، والمعارف والحِكم والأحكام، وتواريخ الأنبياء وأُمَمهم، وغيرها ممّا لا يُحيط به البشر، معَ إعجاز البَيان بحيث لا يقدِر على إتيان سُورة منه جميعُ الفُصحاء؛ ولَو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، فلا بُدّ مِن كونه بوَحي الله وتَعليمه ﴿وَ﴾ لَو شاء ﴿لاَ أَدْرَاكُمْ﴾ وأعلمكم، أو أنذركم ﴿بِهِ﴾ ـ كما عن ابن عبّاس[٤] ـ مع أنّكم تعلَمون أنّي لا أعرف الخطّ، وما طالعتُ الكُتب، وما جالستُ عالِماً قَطّ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ ومكثتُ ﴿فِيكُمْ﴾ وبين ظَهْرانِيكم ﴿عُمُراً﴾ طويلاً، ومُدّة مَديدة ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ ماكنتُ أتلوه ولا أعلَمه ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ وتُدركون أنّ مَن لَم يقرأ كِتاباً، ولَم يُجالس عالِماً، ولم يُمارس بَحثاً، لا يُمكنه أن يأتي بمِثل هذا الكِتاب العظيم الشّأن، الفائق على الكُتب السّماوية، فلا بُدّ أن يكون بتَعليم الله ووَحْيه.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣، تفسير الرازي ١٧: ٥٥ـ٥٦، مجمع البيان ٥: ١٤٧.
٢. الحجر: ٩٥/١٥.
٣. تفسير الرازي ١٧: ٥٥.
٤. تفسير الرازي ١٧: ٥٨.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ[١٧]

ثمَ أكّد تنزُّهه عن الاختِلاق بإظهار عِلمه بغاية قُبح الافتِراء على الله، وسُوء عاقبته بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه بتَعريضها للهَلاك، وعلى غيره من النّاس بإضلالهم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ﴾ بإسناد ما ليسَ له إليه ﴿كَذِباً﴾.

ثمَ ساوىٰ بين المُفترين على الله والمُكذّبين لآياته، في كونهم أظلم خَلق الله، تهديداً لهم بقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المُنزلة منه، واستهزأ بها؛ كالمُشركين المُستهزئين بالقُرآن.

ثمَ بالغ في تَهديدهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ﴾ ولا ينجُو ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من العَذاب، ولا يفوزون بمَطلوب.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لاَ يَعلَمُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَلاَ فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[١٨]

ثمَ لمَا كان التِماسهم تَغيير القُرآن لتضمُّنه شَتم الأصنام وتَحقيرها، وبَخهم سُبحانه على عِبادتها بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ويُشركون به في العِبادة والخُضوع ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾ شيئاً إن لَم يعبُدوه ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ قليلاً إن عبَدوه، لأنَه جَمادٌ لا شُعور له ولا قُدرة، واللاّئق للعِبادة هُو الحيَ المُدرِك القادر على كُلّ شيءٍ، والعجب أنّهم مع ذلك كانوا يُشيرون إلى أصنامهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عن جَهالةٍ وسَفاهة: ﴿هٰؤُلاَءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا﴾ في مُهمّاتنا وحَوائجنا ﴿عِندَ ٱللهِ﴾.

قيل: إنّ وَجْه اعتِقاد المشركين شَفاعة الأصنام، أنّهم توهَموا أنّهم ليسُوا أهلاً لعِبادة الله، وإنّما الأهل واللاّئق لها الأرواح المُدبّرة لهذا العالم، أو الكواكب المُؤثّرة في المواليد؛ كالشّمس والقَمر، وسائر السيّارات.

في ذكر مبدأ عبادة الأصنام

ثمَ لمّا كانت الأرواح غير مُشاهدة، والكواكب غاربة، وضعوا لكُلّ رُوحٍ أو لكُلّ كَوكب صَنَماً، فاشتغلوا بعِبادته باعتِقاد أنّ ذلك الرُّوح أو الكوكب يشفع لهم عندَ الله[١].

وفيه: أنّ ظاهر الآيات أنّهم كانوا يعتقِدون أنّ نفس الأصنام يشفعون لهم، ويُمكن أن [يكون] وَجه اعتِقاد مُبدعي هذا المذهب في أوّل الأمر ذلك، ثمَ بعد تَمادي الزّمان غلَب الجهلُ على أتباعهم،

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٥٩.

واعتقدوا ذلك في نفس الأصنام باعتِقاد أنّ قُدماءهم أيضاً كانوا مُعتقدين لذلك.

قيل: إنّ أوّل ما حدثتْ عِبادةُ الأصنام في قومِ نُوح، وذلك أنّ آدم كان له خمسةُ أولاد صُلحاء؛ وهم: وَدّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، فمات وَدّ وحزِن النّاس عليه حُزناً شديداً، فاجتمعوا حول قَبره ولا يكادون يُفارقونه، وذلك بأرض بابل، فلمّا رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صُورة إنسان، وقال لهم: [هل] لكم أن أُصوّر لكم صُورةً إذا نظرتُم إليها ذكرتُموه؟ قالوا: نعم، فصوّر لهم صُورته، فصار كلّما مات منهم واحدٌ صوّر صورته، وسمَّوا تِلك الصُّور بأسمائهم، ثمّ لمّا تقادم الزّمن وتناستْ الآباء والأبناء، وأبناء الأبناء، قال لمَن حدث بعدَهم: إنّ الذين كانوا قبلَكم يعبُدون هذه الصُّور؛ فعبَدوها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام فنهاهم عن عِبادتها، فلَم يُجيبوه إلى ذلك، وكان بين آدم ونوح عليهما السلام عَشرة قُرون كُلّهم على شريعةٍ من الحقّ، ثمّ أن تِلك الصُّور دفنها الطُّوفان في ساحل جدّه، فأخرجها اللّعين.

وأوّل من نصب الأوثان في العرب عمرو بن لُحَيّ بن خُزاعة، وذلك أنّه خرج من مكّة إلى الشام في بعض أُموره، فرأىٰ بأرض البَلْقاء العَماليق[١] وهُم يعبُدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه؟ قالوا: هذه أصنام نعبُدها فنستمطِرُها فتُمطرنا، ونستنصِرُها فتنصُرنا. فقال لهم: أفلا تُعطونني منها صَنَماً فأسير به إلى أرض العرب، فأعطَوه صَنماً ـ يُقال له هُبَل ـ من العَقيق، على صُورة إنسان، فقدِم به مكّة فنصبه في بطن الكعبة على يُسراها، وأمر الناس بعِبادته وتَعظيمه، فكان الرّجل إذا قدم من السّفر بدأ به قبل أهله بعد طَوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده[٢].

فردّهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، تقريعاً لهم، وتهكُّماً بهم: ﴿أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ﴾ وتُخبرونه، وهُو علّام الغُيوب ﴿بِمَا لاَ يَعلَمُ﴾ في عالَم الوُجود، لا ﴿فِي ٱلسَّماوَاتِ﴾ وعالَم الملَكوت ﴿وَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وعالم المُلك. ومَعلومٌ أنّ ما لا يعلَمه الله لا وُجود له.

القُمّي رحمه الله قال: كانت قُريش يعبُدون الأصنام، ويقولون: إنّما نعبُدهم ليُقرّبونا إلى الله زُلفى، فإنّا لا نقدِر على عبادة الله، فردّ الله عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لاَ يَعلَمُ﴾ أي ليس يعلم[٣]، فوضع حرفاً مكان حرف، أي ليس له شريك يُعبَد[٤].

ثمّ نزّه ذاته المُقدّسة عن الشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، وتبرّأ وجَلّ عن هذا النّقص.

---

١. زاد في تفسير روح البيان: وُلد عِملاق بن لاود بن سام بن نوح.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٥.
٣. في النسخة: أي يعلم أنّه ليس، وما أثبتناه من تفسير الصافي.
٤. تفسير القمي ١: ٣١٠، تفسير الصافي ٢: ٣٩٧.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[١٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد تبرئة نفسه عن اتّخاذ الشّريك، نبّه على أنّ حُدوث مذهب الشّرك إنّما كان بالأهواء الزّائغة والآراء الفاسدة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ من زمان آدم إلى زمان نُوح عليه السلام ـ على ما قيل[١] ـ ﴿إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجَماعةً مُتفقة على مِلّة التّوحيد والمَذهب الحقّ ـ كما مَرّ ـ وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: كانوا على دين الإسلام في عهد آدم عليه السلام وعهد وُلده[٢]، وقيل: إنّ المُراد من النّاس: العرب[٣]، فإنّهم كانوا على مَذهب التّوحيد من زَمان إبراهيم عليه السلام ـ ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ ـ على التّفسير الأوّل ـ في عهد نوح، وعن ابن عبّاس: عندَ قَتل قابيل هابيل[٤]، وعلى أنّ المُراد من النّاس: العرب، عند تغيير عَمرو بن لُحَي دين إسماعيل، فمنهم مَن بقي على التّوحيد ودين الحقّ، ومنهم مَن أشرك وكفر.

قيل: إنّ الغرض من بَيان بَدْء حُدوث الشّرك تَرك تعصّب العرب لنُصرته، بَل الاستِدلال به على بُطلانه، لكون آدم والأطايب من أولاده على دين التّوحيد دليلٌ على بُطلان مذهب الشّرك[٥].

وقيل: إنّ المُراد أنّ النّاس كانوا على فِطرة التّوحيد فاختلفوا بواسطة الآباء[٦].

وقيل: كانوا على الكُفر فاختلفوا بواسطة الأنبياء. وعليه يكون الغرض تَسلية النبيّ صلى الله عليه وآله وقطع رَجائه بإيمان الكُلّ[٧].

ثمّ نبّه سُبحانه على استِحقاق المُخالفين لأهل الإيمان التّسريع في تَعذيبهم، والتّعجيل في إهلاكهم، وإنّما اقتضتْ الرّحمة وصَلاح نِظام العالَم إمهالهم إلى أجلهم، بقوله: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من قوله: سبَقَتْ رَحمتي غضبي[٨]، ومن قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[٩] ـ على قول ـ ومِن إخباره تعالى بأنّ التّكليف باقٍ على العِباد وإن كانوا به كافرين ـ على قولٍ آخر[١٠] ـ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التّوحيد والشّرك، وقضائه بإنزال العذاب على المُشركين والرّحمة على المؤمنين، وإنّما الرّحمة الواسعة، ومَصلحة نِظام العالَم على الوَجه الأتمّ، وكرامة النبيّ صلى الله عليه وآله الأكرم اقتضتْ إمهال المُشركين وتأخير تَعذيبهم إلى ما بعد الموت ويومِ القِيامة.

والحاصل: أنّ الحِكمة اقتضتْ أن تكون هذه الدّار الفانية دار بَلاءٍ واختِيار، والدّار الآخرة دار ثَواب

---

١. تفسير الرازي ٦٢/١٧، تفسير أبي السعود ١٣٢/٤.
٢. تفسير الرازي ١٧: ٦١.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٣٢.
٤. مجمع البيان ٥: ١٤٩، منسوب إلى القيل.
٥. تفسير الرازي ١٧: ٦٢.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٧.
٧. تفسير الرازي ١٧: ٦٢.
٨. الأحاديث القدسية: ٢٣٠، تفسير الرازي ١٧: ٦٣.
٩. الأنفال: ٣٣/٨.
١٠. تفسير الرزاي ١٧: ٦٣.

وعِقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ[٢٠]

ثمَ أنه تعالى بعد إبطال مَذهب الشِّرك، وبَيان استِحقاق المشركين التَعجيل في عُقوبتهم والتَسريع في إهلاكهم، حكى سُبحانه تعنُّتهم على النبيّ ﷺ، واقتِراحهم عليه مُعجزة أُخرى، سِوى ما رأوه منه من القُرآن، وسائر ما نسَبوه إلى السّحر؛ بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تعنُّتاً ولَجاجاً: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومُعجزة سِوى القُرآن ﴿مِن رَبِّهِ﴾ مع كِفاية القُرآن لإثبات نُبوّته لِما فيه من وُجوه الإعجاز.

ولمَا كان إنزال الزائد على الكِفاية مَنوطاً بمصلحة لا يعلمُها إلّا الله، أمر سُبحانه نبيّه ﷺ أن يرُدّهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ والعِلم بالمَصالح الواقعيّة خاصّ ﴿لِلَّهِ﴾ لا يُشركه فيه غيرُه ﴿فَانتَظِرُوا﴾ مشيئته وفِعله ﴿إِنِّي مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك.

وقيل: إن المعنى: انتظروا لِما يفعل الله بكم بجُحودكم الآيات المُنزلة[١].

وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ[٢١]

ثمَ بيّن سُبحانه أنّ تَكذيبهم المُعجزات وتعنُّتهم إنّما يكون لبَطَرهم بالرّاحة، وسَعَة العيش بقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ قيل: يعني مُشركي مكّة ﴿رَحْمَةً﴾ من سَعَةٍ وصِحّة[٢] ﴿مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ من فَقر ومَرض ﴿إِذَا لَهُم﴾ حينَ إذاقتهم الرّحمة ﴿مَكْرٌ﴾ وسَعي بليغ ﴿فِي﴾ تكذيب ﴿آيَاتِنَا﴾ ومُعجزات نبيّنا ﷺ.

رُوي أنّ الله سلّط القَحط على أهل مكّة سبع سِنين، ثمَ أنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثمَ أنهم نسَبوا تِلك الرّحمة إلى أصنامهم، وطفِقوا يقدحون في آيات الله، ويكيدون الرّسول، فقابلوا نِعمة الله بالكُفران[٣].

ثمَ أمر الله نبيّه ﷺ بتَهديدهم بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد لهم: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ وأعجل عُقوبةً ممّا تأتون به في إبطال الحقّ، فإنّه يُزيل عنكم تِلك النِّعمة بتَسليط المسلمين عليكم، وابتِلائكم بالقَتل

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٣١، تفسير روح البيان ٤: ٢٨.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩.
٣. تفسير الرازي ١٧: ٦٥، تفسير روح البيان ٤: ٢٩.

والأسر، أو الانقِياد للرّسُول قبلَ أن تنالوا بمَطلوبكم؛ مِن الإخلال بأمر الرّسول ﷺ، والإفساد في دينه.

ثمّ بالغ في تَهديدهم بقوله: **﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾** من الملائكة الكَتَبَة لأعمال النّاس **﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾** وما تَحتالون في تَكذيب الآيات، في صحائف أعمالكم، ثمّ يُعرض عليكم يومَ القِيامة لتزداد فَضيحتكم وخِزيكم.

وقيل: إن المُراد أن لا يخفى على الحَفَظة شيءٌ من خَفيّات أعمالكم، فكيف بالله المُطّلع على السرائر[١]؟

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [٢٢ و ٢٣]

ثمّ ذكر سُبحانه أحد مَصاديق الرّحمة بعد الضّرّ بقوله: **﴿هُوَ﴾** القادر الرحيم **﴿ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾** ويُمكّنكم لقطع المسافة **﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾** على الأقدام، وظَهر الدَوابّ **﴿وَ﴾** في **﴿ٱلْبَحْرِ﴾** بالسُّفن والزّوارق، لنَيل مَقاصدكم وأنتم ذاهلون عن ألطافه **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾** اتّفق في التسييرات[٢] أنكم **﴿كُنتُمْ﴾** مُتمكّنين **﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾** والسُّفن، ثمّ عدَل سُبحانه عن الخِطاب إلى الغَيبة مبالغةً في تعجيب حالهم وإنكارها عليهم؛ بقوله: **﴿وَجَرَيْنَ﴾** تِلك السُّفُن **﴿بِهِم﴾** على الماء **﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾** ليّنة، مُوافقة لمَقصودهم **﴿وَفَرِحُوا﴾** وسُرّوا **﴿بِهَا﴾** لطيبها ومُوافقتها، فإذا تلقّتْ تِلك الرّيح، أو الفُلك، و **﴿جَاءَتْهَا﴾** من الطَرف المُخالف **﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾** شديدة، بحيث استولَتْ على الأولى الطَيّبة **﴿وَجَاءَهُمُ﴾** لشِدّة الرّيح وتَلاطُم البحر **﴿ٱلْمَوْجُ﴾** كالجِبال **﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾** وجانب **﴿وَظَنُّوٓا﴾** لذلك **﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾** الهلاك وسُدّت عليهم المَسالك، فارتعدتْ فَرائصهم من الخوف، وصاروا مُنقطعي الرّجاء من الخَلق، إذن **﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾** وتضرّعوا إليه بالفِطرة، حالَ كَونهم **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾** غير مُشركين به، قائلين في دُعائهم: يا رَبّ، والله **﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾** المَهلَكة

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٣٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٠.

٢. في النسخة: التيسيرات.

﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتّة بعد ذلك ﴿مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾ لنِعَمك التي منها نِعمة النجاة المسؤولة بتَخصيصك بالعِبادة والطّاعة.

رَوى الفخر الرّازي عن الصادق عليه السلام أنّه قال له رَجُلٌ: اذكُر دليلاً على إثبات الصانع؟ فقال: أخبِرني عن حِرفتك؟ فقال: أنا رَجلٌ اتّجر في البحر، فقال: صِف لي كيفيّة حالك؟ فقال: ركِبتُ البحر، فانكَسَرتْ السّفينة، وبقيتُ على لوحٍ واحد من ألواحها، وجاءت الرّياح العاصفة. فقال جعفر الصادق عليه السلام: هَل وجدتَ في قلبك تضرّعاً ودُعاء؟ فقال: نعم، فقال جعفر: فإلهك هُو الذي تضرّعتَ إليه في ذلك الوقت[1].

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ الله من الوَرطة، وما غشِيهم من الكُربة؛ إجابةً لدَعوتهم الخالصة، ووجدوا السّلامة التي هي أعظم النِّعم ﴿إِذَا هُمْ﴾ في حال السّلامة والرّاحة ﴿يَبْغُونَ﴾ ويظلِمون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويُفسدون في أقطارها ـ عن ابن عبّاس: يُريد به الفَساد والتّكذيب، والجُرأة على الله تعالى[2] ـ حالَ كَونهم مُتديّنين ﴿بِغَيْرِ﴾ دين ﴿ٱلْحَقِّ﴾ وهو التّوحيد، أو حال كَونهم مُبطلين في بَغيهم لا مُحقّين؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وآله ببني قُريظة، أو مُبطلين في اعتِقادهم.

ثمّ وعظهم سُبحانه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الباغون ﴿إِنَّمَا﴾ يكون ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وظُلمكم، أو إفسادكم في الأرض، ضَرَر عظيم ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ وجَزاؤه لاحقٌ بكم، لا على مَن تبغون عليه، أو المُراد: إنّما يكون بغيُكم على أمثالكم، وأبناء نوعكم الّذين هُم كأنفسكم، فتمتّعوا ﴿مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وانتفِعوا بلذّاتها، فإنّها لا تبقى إلّا مُدّةً قليلة، ثمّ تَزول بسُرعة ﴿ثُمَّ﴾ يكون ﴿إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وإلى مَحضر عَدلنا مَصيركم ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ ونُخبركم ﴿بِمَا كُنتُم﴾ في الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتَعذيبكم أشدّ العذاب عليه.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أسرع الخير ثواباً صِلة الرّحِم، وأعجل الشّر عِقاباً البَغي واليَمين الفاجرة[3].

ورُوي أيضاً: ثنتان يُعجّلهما الله في الدُّنيا: البَغي، وعُقوق الوالدين[4].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: لو بغى جبلٌ على جبلٍ لاندَكّ الباغي[5].

وعن الصادق عليه السلام: ثلاثٌ يرجِعنَ على صاحبِهنَّ: النّكث، والبَغي، والمَكر. ثمّ تلا هذه الآية[6].

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٦٧.
٢. تفسير الرازي ١٧: ٧١.
٣. تفسير الرازي ١٧: ٧١.
٤. تفسير الرازي ١٧: ٧١، تفسير روح البيان ٤: ٣٣.
٥. تفسير الرازي ١٧: ٧١.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٤٨/٢٧٥، تفسير الصافي ٢: ٣٩٩.

يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَمْ تَـغْنَ بِالْأَمْسِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٢٤]

ثمّ لمّا نبّه سبحانه على فَناء الدُّنيا وزَوال لذّاتها، أوضحه بضَرب المَثل بقوله: **﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾** وحالها العجيبة في سُرعة الزّوال والفَناء، بعد اغتِرار النّاس بها **﴿كَمَاءٍ﴾** نافع **﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾** بالأمطار على أرضٍ ميتة، فاخضرّتْ بسَبب المطر **﴿فَاخْتَلَطَ﴾** وكَثُف **﴿بِهِ نَبَاتُ﴾** تلك **﴿ٱلْأَرْضِ﴾** بأنواعه المُختلفة النافعة **﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾** كالزُّروع والبُقول **﴿وَ﴾** ما يأكل **﴿ٱلْأَنْعَامُ﴾** كالحشائش، فيبقى ذلك النّبات مُختلطاً ومُشتبكاً **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ﴾** من ذلك النّبات **﴿زُخْرُفَهَا﴾** وغاية حُسنها كالعَروس التي لبِست الثّياب الفاخرة، المُختلفة الألوان **﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾** بجميع الألوان التي تتزيّن بها **﴿وَظَنَّ﴾** أصحاب تِلك الأرض و **﴿أَهْلُهَا أَنَّهُمْ﴾** مُتمكّنون من حَصاد تِلك الأرض، و **﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾** وعلى رفع غَلّتها **﴿أَتَاهَا﴾** بَغتةً **﴿أَمْرُنَا﴾** وحُكمنا بخَرابها، وهَلاك ثِمارها بآفةٍ من الآفات **﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا﴾** بسَبب نُزول الآفة أرضاً مَلساء، كأنّ زرعَها وحَشيشها صار **﴿حَصِيداً﴾** من أصله، بَل **﴿كَأَن لَمْ تَغْنَ﴾** ولَم ينبُت فيها شيءٌ **﴿بِالْأَمْسِ﴾** وفي الزّمان السّابق **﴿كَذٰلِكَ﴾** التّوضيح والتفصيل البَديع **﴿نُفَصِّلُ﴾** ونُوضّح، أو نذكُر واحدةً بعد اُخرى **﴿ٱلْآيَاتِ﴾** القُرآنية التي منها الآيات المُنبّهة على زَوال الدُّنيا، وعدم لِياقتها للاغتِرار بها **﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** فيها، ويقفون على دَقائقها.

وَٱللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٢٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد تَنفير النّاس من الدُّنيا ولذّاتها، رغّبهم في الآخرة بقوله: **﴿وَٱللهُ يَدْعُوا﴾** النّاس من دار البَلاء **﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ﴾** ويُرغّبهم فيها.

عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ السلام هو الله عزّ وجلّ، وداره التي خلقها لعِباده ولأوليائه الجنّة»[١].

قيل: إنّ وَجه تسمية الله نفسه بالسّلام سلامته ـ لوُجوب ذاته ـ من الآفات والتّغيير والاحتياج، أو سلامة النّاس مِن ظُلمه، أو أنّه مُعطي السّلامة من الآفات والمَكاره والعُيوب[٢].

وقيل: إنّ دار السّلام الجنّة، لسَلامة مَن دخل فيها من الضّرَر والآفة والمَكروه، أو لأنّ الله يُسلّم على

---

١. معاني الأخبار: ٢/١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٣٩٩.　　٢. تفسير الرازي ١٧: ٧٥.

أهلها[١]؛ كما قال تعالى: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[٢]، وتُسلّم الملائكة عليهم، ويُسلّم بعضُهم على بعض.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَثلي ومَثلكم شِبه سيّدٍ بنى داراً، ووضع مائدةً، وأرسل داعياً، فمَن أجاب الدّاعي دخل الدّار، وأكل من المائدة، ورضي عنه السّيد، ومَن لَم يُجب الدّاعي لَم يدخُل الدّار، ولَم يأكُل من المائدة، ولَم يرضَ عنه السيّد، فالله السيّد، والدّار دار السّلام، والمائدة الجنّة، والدّاعي محمّد»[٣].

وعنه ﷺ: «ما من يومٍ تطلّع فيه الشّمس إلّا وبجَنْبَيها مَلَكان يُناديان بحيث يسمَع كُلّ الخلائق إلّا الثّقلين: أيّها النّاس هلُمّوا إلى ربّكم، والله يدعو إلى دار السّلام»[٤].

ثمّ أنّه تعالى بعدَ دَعوته العامّة، خصّ لُطفه وتَوفيقه بالذّوات الطَيّبة المُستعدّة بقوله: ﴿وَيَهْدِي﴾ الله بلُطفه وتَوفيقه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هِدايته وتَوفيقه ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطَريقٍ مُوصلٍ إلى تِلك الدّار؛ وهُو مَعرفة الله بالتّوحيد والصِّفات الكَماليّة، ومَعرفة مَلائكته ورُسله وحُجَجه بالرِّسالة والعِصمة، ووُجوب الطّاعة.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٢٦]

ثمّ لمّا دَعا الله سُبحانه عِباده إلى الجنّة، بشّرهم بما أعدّ لهم فيها من الحُظوظ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بتَحصيل العقائد الحقّة، والمَعارف الصّحيحة، والأعمال الصّالحة في الدُّنيا، المَثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والجَزاء الأوفىٰ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها من فَضله وكرمه.

عن أمير المؤمنين ﷺ: «الزّيادة غُرفة من لُؤلُؤة واحدة، لها أربعه أبواب»[٥].

وعن الباقر ﷺ: «أمّا الحُسنىٰ فالجنّة، وأمّا الزِيَادَة في الدُّنيا[٦]، ما أعطاهم الله في الدُّنيا لَم يُحاسبْهم به في الآخرة»[٧].

وعن القُمّي ﷺ: هي النّظر إلى رَحمة الله[٨].

أقول: وعليه يُحمَل ما رَوته العامّة مِن أنّه إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة، يقول الله تعالى: تُريدون شيئاً

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٧٥.
٢. يس: ٥٨/٣٦.
٣ و٤. تفسير الرازي ١٧: ٧٤.
٥. مجمع البيان ٥: ١٥٨، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.
٦. في تفسير القمي وتفسير الصافي: وأمّا الزيادة فالدنيا.
٧. تفسير القمي ١: ٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.
٨. تفسير القمي ١: ٣١١، وفيه: إلى وجه الله عزّ وجل، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.

أزيدكم؟ فيقولون: ألَم تُبيّض وُجوهنا، ألم تُدخلنا الجنّة، ألم تُنجّنا من النّار؟ قال: فيكشف لهم الحِجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

ثمّ بشّرهم سُبحانه بالصّون عن المَكاره كُلّها بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ ولا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ في الجنّة ﴿قَتَرٌ﴾ وغُبار فيه سَواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وهَوان. قيل: إنّ نَفي الوَصفين كِناية عن نَفي مُوجبات الخَوف والحُزن، ليُعلَم أنّ نَعيمهم غير مَشوبٍ بمَكروه يُوجب سَلب نَضارة الوجه[2] ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُحسنون هم﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وأهلها، و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾دائمون مأمونون من الخُروج منها.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٢٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بَيان حُسن حال المُحسنين، بيّن سُوء حال المُسيئين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ وحصّلوا العقائد والأعمال ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ في الدُّنيا فلهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ صدَرتْ منهم ﴿بِمِثْلِهَا﴾ بلا زِيادة لمُنافاتها العَدل. قيل: إنّ التّقدير: وجَزاء الذين كسَبوا السيّئات جَزاء سيئةٍ بمثلها[3] ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ وتَغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومَهانة. وفي إسناد الذِلّة إليهم دُون وُجوههم، دَلالةٌ على إحاطتها بهم ﴿مَا لَهُم مِّنَ﴾ عَذاب ﴿اللَّهِ﴾ تعالى ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ وحافظ، ويَسوَدون ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ وأُلبستْ ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ حالَ كونه ﴿مُظْلِمًا﴾ لشِدّة سَوادها بسَبب سَواد الجَهل، ولظُلمة الكُفر والضّلال. عن الصادق عليه السلام: «أما ترى البيت إذا كان اللّيل كان أشدّ سَواداً فكذلك[4] [هم] يزدادون سَواداً»[5] ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُسيئون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقيمون أبداً، كُلّما أرادوا أن يخرُجوا منها أُعيدوا فيها.

القُمّي رحمه الله، عن الباقر عليه السلام: «هؤلاء أهل البِدَع والشُّبهات والشّهوات، يُسوّد الله وُجوههم ثمّ يَلْقَونه. قال: ويُلبسهم الله الذِلّة والصَّغار»[6].

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٨.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٣٣.
٤. في الكافي: سواداً من خارج فلذلك.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٥٢/٢٧٧، الكافي ٨: ٣٥٥/٢٥٢، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.
٦. تفسير القمي ١: ٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ[٢٨]

ثمّ بيّن الله تعالى زيادة خِزي المشركين بقوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ نُحيي الكُفّار والمؤمنين، و﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ في القُبور إلى القِيامة ﴿جَمِيعاً﴾ لايشِذّ منهم أحدٌ ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ من بَينهم ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بربّهم غيرَه في الألوهيّة والعِبادة: الزَموا أيها العابدون والمَعبودون ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ولا تبرَحوا عنه ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ الذين تدعُون من دُون الله، حتّى ننظُر في أمركم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ وفرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين شُركائهم الذين كانوا يعبُدونهم، وانقطعتْ أطماعهم من شَفاعتهم. عن القُمّي: يبعث الله ناراً تُزيل بين الكفار والمؤمنين[1] ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ ومَعبُودوهم من الملائكة والبَشر والأصنام وغيرهم، بعدَما أنطق الله الجَمادات منهم: أيُّها المُشركون ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وإنّما كنتُم تعبُدون أهواءكم، وتُطيعون الشّياطين الآمرين لكم بالشِّرك.

فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٢٩و٣٠]

ثمّ لا يكتفون بالتّبري عن المُشركين بالإنكار، بَل يستشهدون بالله على قولهم، بقوله: ﴿فَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ العالِم بحقائق الأمور ﴿شَهِيداً﴾ ومُطّلعاً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ في ﴿إِن كُنَّا﴾ في الدُّنيا﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لعدم الحَياة والشُّعور للجَماد، ولعدم الرّضا بها من غيره ﴿هُنَالِكَ﴾ المُقام، وفي ذلك المَوقف ﴿تَبْلُوا﴾ وتَختبِر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النُّفوس ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ وقدّمتْ من العقائد والأعمال، فتعلم خَيرَها وشَرّها، ونَفعها وضَرّها، وأعرضوا عن مطاوعتهم الباطل ﴿وَرُدُّوا﴾ وأرجعوا ﴿إِلَى﴾ حُكم ﴿اللهِ﴾ الذي هُو ﴿مَوْلاَهُمُ﴾ ومُطاعهم ﴿الْحَقِّ﴾ وإلى جَزائه وعِقابه. وقيل: يعني صاروا مُلجَأين إلى الإقرار بألوهية الله[2] ووَحدانيّته ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُم﴾ في ذلك المَقام ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله بادّعاء ألوهيّته وشَفاعته.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ

---

١. تفسير القمي ١: ٣١٢، تفسير الصافي ٢: ٤٠٠.　　٢. تفسير الرازي ١٧: ٨٥.

فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلاَلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ[٣١ـ٣٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان فضائح المشركين، أمر نبيّه ﷺ بإقامة الحُجّة على فَساد مَذهبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للمشركين احتِجاجاً على صِحّة التّوحيد، وبُطلان الشِّرك ﴿مَن﴾ الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ بإنزال الأمطار النّافعة ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بإنبات النّباتات التي هي غِذاؤكم وغِذاء الحَيوانات التي تأكُلونها؟ ﴿أَمَّن﴾ الذي ﴿يَمْلِكُ﴾ ويخلُق لكم ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ﴾ اللذَين هُما أعظم أعضائكم، وأنفعها لكم؟ وقيل يعني: من يَحْفَظهما من الآفات معَ كَثرتها[١]؟ ﴿وَمَن﴾ الذي ﴿يُخْرِجُ﴾ ويخلُق بقُدرته الحَيوان ﴿ٱلْحَيَّ﴾ ﴿مِنَ﴾ المَبدأ ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ كالنُّطفة ﴿وَيُخْرِجُ﴾ ويخلُق الشيءَ ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ كالمَنيّ ﴿مِنَ﴾ الحَيوان ﴿ٱلْحَيِّ﴾؟ وقيل: إنّ المُراد من الحَيّ: المؤمن، ومن الميت: الكافر[٢] ﴿وَمَن﴾ الذي ﴿يُدَبِّرُ﴾ ويَنظّم ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ في عوالِم الوُجود عُلويّاً وسُفليّاً، وجِسمانيّاً ورُوحانيّاً ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: إنّه ﴿ٱللهُ﴾ وَحده، لاعتِقادهم بأنّه صانع العالَم ومُدبّره، وإنّما كانوا يعبُدون الأصنام لقولهم بأنّهم شُفعاء.

فإذا اعترفوا بذلك ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الله في أن تجعلوا له شُركاء في العِبادة معَ اعتِرافكم بأنّ جميع الأُمور بيده، وأنّ الأصنام مَقهورون تحتَ قُدرته وتدبيره ﴿فَذٰلِكُمُ ٱللهُ﴾ القادر القاهر المُدبّر بالخُصوص ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتة رُبوبيّته، لا ما أشركتُم به. فإذا ثبت أن التّوحيد هُو الدِّين الحقّ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ﴾ دِين ﴿ٱلْحَقِّ﴾ وغير مِلّة التّوحيد ﴿إِلَّا ٱلضَّلاَلُ﴾ لعدم الواسطة بين الحقّ والباطل، فمَن تخطّىٰ أحدهما وقع في الآخر، فإذا عرَفتُم هذا الأمر الواضح ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقّ؟ وكيف تَعْدِلون عنه إلى الباطل و الضّلال؟ ﴿كَذٰلِكَ﴾ الحقّ الذي ثبت عند كُلّ أحدٍ له عَقل ﴿حَقَّتْ﴾ وثبتَتْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحُكمه وقَضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وتمرّدوا عن طاعة الله ورُسُله، وخرَجوا عن قابليّة الهِداية، وذلك الحُكم والقضاء الثابت ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أبداً، لعِلمه تعالى بخُبث طينتهم، والطَّبع على قُلوبهم.

وقيل: إنّ المُراد: ثبَت عذابُ ربّك عليهم لأنّهم لا يؤمنون[٣]، بَل يموتون كُفّاراً.

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٤١، تفسير روح البيان ٤: ٤٣.

٢. مجمع البيان ٥: ١٦٢، تفسير الرازي ١٧: ٨٦.

٣. تفسير الرازي ١٧: ٨٨.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَهْدِى إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَ يَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[٣٤و ٣٥]

ثمّ أكّد سُبحانه الحُجّة عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ ومَعبوداتكم ﴿مَن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾ ويُوجده أوّلاً بِلا مِثالٍ سابق، من نُطفة أمشاج ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويُخلقه ثانياً بعد إماتته وصَيرُورته تُراباً.

فلمّا كان الجَواب في القضيّتين في غاية الوُضوح، لسُطوع بُرهانه، وإن كانوا جاحدين للمَعاد، أمر نبيّه ﷺ بأن ينُوب عنهم في الجَواب بقوله: ﴿قُلِ ٱللهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لا غيرُه؛ كائناً ما كان، فلمّا ظهر ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وإلى أين تُقلَبون عن سبيل الحقّ؟

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد الحُجّة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ الّذين تدعُون من دُون الله ﴿مَن يَهْدِي﴾ أحداً ﴿إِلَى﴾ الدّين ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بنَصب الحُجَج والبَراهين، وإرسال الرّسُول، وإنزال الكِتاب، وتوفيق النّظر والتدبُّر فيها ﴿قُلِ ٱللهُ﴾ بلُطفه ﴿يَهْدِي﴾ جميع الخَلق ﴿لِلْحَقِّ﴾ ويُرشدهم إليه بتوسُّط الهُداة، فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَمَن يَهْدِي﴾ النّاس ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهُو الله الهادي لعِباده إلى كُلّ خَير ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَن﴾ يُطاع و﴿يُتَّبَعَ﴾ في أحكامه ﴿أَمْ مَن لاَ يَهِدِّي﴾ ولا يهتدي إلى شيءٍ من مَنافعه ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ بتوسُّط غيره.

قيل: إنّ المُشركين لمّا كانوا مُعتقدين بأُلوهيّة الأصنام عبّر الله عن أصنامهم بما يُعَبّر عن العاقل العالِم[1].

وقيل: إنّ المُراد من قوله: ﴿مَن لاَ يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ هُم العُقلاء من آلهتهم؛ كالملائكة، وعيسى عليه السلام، وعُزير[2].

فإذا كان اتّباع الهادي إلى الصّراب واجباً بحُكم العَقل والوِجدان ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وأيّ داعٍ يدعوكم إلى اتّباع الجَماد الذي لا هِداية له، و ﴿كَيْفَ﴾ وأنتم عُقلاء ﴿تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يحكُم به عاقلٌ، وتلتزمون بما لا يلتزم به شاعر.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٩١.

٢. تفسير البيضاوي ١: ٤٣٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٤.

يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللهِ وَلٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٣٦ و ٣٧]

ثمَ ذكر سُبحانه عِلَة عِبادتهم الأصنام بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في اعتِقاد اُلوهيّة الأصنام، وكونها شُفعاء لهم ﴿إِلَّا ظَنّاً﴾ ضعيفاً حاصلاً لهم مِن تقليد آبائهم. وفيه إشعارٌ بأنَ بعضَهم كانوا عالِمين بالتَوحيد، وكانوا يُكابرون في إنكاره عِناداً.

ثمَ أبطل سُبحانه اتِّباعهم الظنَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ وإن كان في غاية القوّة ﴿لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والواقع ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء، ولا يكفي في التديّن بأمر، ولا يقوم مَقام العِلم واليقين أبداً.

ثمَ هدَدهم سُبحانه على اتِّباع الظنَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتِّباع الظَن، والإعراض عن البُرهان.

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات التَوحيد، شَرع في إثبات النُبوّة بدَفع دَعوى المشركين أنَ القُرآن هُو كَلام البشر بقوله: ﴿وَمَا كَانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ﴾ معَ ما هُو عليها من وُجوه الإعجاز ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ قيل: إنَ المعنى: ليُفترى[١]، أو افتِراءً واختِلاقاً ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وصادراً من غيره تعالى، لعدم قُدرة غيره على ترتيب مِثله ﴿وَلٰكِن﴾ يكون ﴿تَصْدِيقَ﴾ الكِتاب ﴿ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومُطابقاً لِما نزَل مِن الله قبلَه في المَعارف والمَواعظ، وبَيان أحوال الأنبياء وقَصَص الأُمَم الماضين، معَ كون مَن أتى [به] اُميّاً لَم يقرأ الخَطَ، ولَم يُطالع الكُتُب، ولَم يُجالس العُلماء، ولَم يتلمذ عند أحدٍ، فلَو لَم تكن مطالبه مطابقة لِما في الكُتُب، لبالغ المُعاندون في الطَعن والقَدح فيه، ولمّا لَم يطعَن أحدٌ فيه معَ شِدّة حِرص الكُفّار عليه وعِنادهم له، عُلم مُطابقته.

ثمَ ثنّىٰ سبحانه الدَليل على صِدق كَون القُرآن كلام الله بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ﴾ وتَبيين ما شُرّع من الأحكام المُوافقة للعَقل وصَلاح الكُلّ إلى يوم القِيامة، ولِذا ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أنّه نازلٌ ﴿مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[٣٨]

ثمَ أنّه تعالى بعد الاستِدلال على صِدق القُرآن بالدّليلين المُتقنَين، أنكر على المشركين نِسبة الافتِراء إليه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إنّ محمّداً اختلق القُرآن و﴿ٱفْتَرَاهُ﴾ على الله. ثمَ أمر نبيّه ﷺ

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٩٤.

بالتحدّي به بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: إن كان القُرآن كلام البشر ﴿فَأْتُوا﴾ أيّها المَهَرة في الفَصاحة والبَلاغة ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة صغيرة ﴿مِثْلِهِ﴾ في الفَصاحة والبَلاغة والحَلاوة ﴿وَٱدْعُوا﴾ لإعانتكم على ترتيب سورة مِثل القُرآن ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دَعوته ﴿مِّن دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادّعاء أنّه كلام البشر، وأنّي افتريته، فان ما افتَراه أحدٌ من النّاس يقدِر على إتيان مثله غيرُه، فعَجز الكُلّ مِن عملٍ، معَ كثرة المَهَرة فيه، دليل قاطع على أنّه من الله، خُصوصاً معَ تحدّي مُدّعي النّبوّة به.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ[٣٩]

ثمّ ذكَر سبحانه عِلّة تَكذيبهم بقوله: ﴿بَلْ﴾ لشِدّة النّفور عن مُخالفة آبائهم في الدّين، سارعوا إلى أن ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولَم يُعطوه حقّ النّظر ليَفهموا مَعانيه وحقائقه ودقائقه، ويقِفوا على كُنْهه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ﴾ ولَم يقع بعدُ ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ وما أخبر الله به من الأُمور المُستقبلة، ليَعلموا صِحّة أخباره الغيبيّة بصدق النبيّ ﷺ وكِتابه ﴿كَذٰلِكَ﴾ التّكذيب الصادر من قومك بِلا تأمّل في مُعجزتك ﴿كَذَّبَ﴾ الأمَم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم.

ثمّ هدّد سُبحانه المُكذّبين بقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد نظر الاعتِبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المُكذّبين ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتَعريضها للهَلاك بعَذاب الاستئصال، أو بإيقاعها في أشدّ الخُسران، لأنّهم طَلبوا الدُّنيا وتركوا الآخرة، فلمّا ماتوا فاتتهم الدُّنيا والآخرة، ووقعوا في أشدّ العَذاب.

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ[٤٠]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَهديد المُكذّبين بالعذاب، نبّه على عِلّة تأخيره عنهم، وإمهالهم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيما بعد، أو في قلبه، ويُكذّب عِناداً ﴿وَمِنْهُم مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبداً، لا ظاهراً ولا باطناً، لفَرط غَباوته، وقِلّة تَدبُّره. عن الباقر عليه السلام: هُم أعداء محمّد وآل محمّد [من] بعده[١]. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ والمُعاندين الذين أفسدوا فِطرتهم الأصليّة؛ فيُعاقبهم أشدّ العِقاب.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ

---

١. تفسير القمي ١: ٣١٢، تفسير الصافي ٢: ٤٠٣.

مِمَّا تَعْمَلُونَ[٤١]

ثمّ أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بالمُداراة مع المُشركين، أو زَجْرهم ورَدْعهم، أو إظهاراً لليأس منهم بقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمّد، في ادِّعاء الرِّسالة والتّوحيد بعدَ إلزامهم بالحُجّة ﴿فَقُل﴾ في جوابهم: ﴿لِّي عَمَلِي﴾ من الايمان بالله وطاعته، أو جَزاء عملي ﴿وَلَكُمْ﴾ أيُّها المشركون ﴿عَمَلُكُمْ﴾ من الشّرك والطُّغيان، أو جَزاء عمَلكم ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ﴾ وغير مسؤولين ﴿مِمَّا أَعْمَلُ﴾ فلا تُؤاخذون به ﴿وَأَنَا﴾ أيضاً ﴿بَرِيءٌ﴾ وغير مسؤول ﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا أُؤاخذ بعَملكم.

وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبصِرُونَ[٤٢ و ٤٣]

ثمّ بالغ سُبحانه في بَيان شِدّة عَداوة المُكذّبين بالقُرآن بحيثُ لا يُرجى إيمانهم؛ بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القُرآن وتُعلّمه أصحابك؛ وهُم كالصُّمّ لا يفهمون كَلامك، ولا يلتفتون إلى مَحاسنه لشِدّة بُغضهم لك ونُفرتهم من القُرآن، فلا تقرأ عليهم القُرآن، ولا تُجهِد نفسك في دَعوتهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ بقُدرتك البشريّة، وتُفهم كلامك ﴿ٱلصُّمَّ﴾ الذين سَدّ أسماع قُلوبهم الشّهواتُ، وحُبّ الدُّنيا، وشدّة العَداوة مِن إدراك الكلام ومَحاسنه ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ فإنّ تَفهيم الكلام للأصمّ العاقل لَو كان مُمكناً لفِراسته، لا يُمكن تَفهيمه للأصمّ المَجنون ﴿وَمِنْهُم مَن يَنظُرُ﴾ ببَصره الظّاهر ﴿إِلَيْكَ﴾ وإلى مُعجزاتك الواضحة، ولكنّهم لعَمى قُلوبهم لا يَرون نُورك وجِهات إعجاز مُعجزاتك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ﴾ وفاقدي البصر إلى طريق الحقّ ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبصِرُونَ﴾ بعَين قُلوبهم الطّريق.

وقيل: إنّ المقصود من الآيتين تَسلية النبيّ ﷺ بتَشبيه المُكذّبين المُصرّين على الكُفر بالأصمّ الذي لا عَقل له، والأعمى الذي لا بَصيرة له، فكما يمنع الصَّمَم في الأذن، والعَمى في العين عن إدراك مَحاسن الكلام ومُشاهدة مَحاسن الصُّورة ـ خصوصاً إذا انضمّ إلى الصّم عدم العَقل، وإلى العمى عدم البَصيرة ـ كذلك تمنع شِدّة بُغض المُكذّبين للحقّ، وعَداوتهم للرّسول، ونفرتهم عن القُرآن، وعن قَبولهم الهِداية، وكما أنّ الطَّبيب إذا رأىٰ مريضاً لا يُمكن علاجه، أعرض عنه بِلا استيحاش من عدم قَبوله العِلاج، كذلك يجب على الرّسول الإعراض عن هؤلاء المُكذّبين بِلا استيحاش من عدم قَبولهم الحقّ[١].

---

١. الرازي ١٧: ١٠١.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [٤٤ و ٤٥]

ثمَ نبّه سُبحانه على أنّ قطع الرّحمة عنهم مع سَعتها إنّما هو بسيِّئات أعمالهم؛ بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ**﴾ ولا يقطع عنهم رَحمته، ولا ينقّصهم مِمَا يتعلّق بمَنافعهم الدّنيويّة والأُخرويّة؛ من السّمع والبَصر، والعَقل والبَصيرة، واستِعداد الهِداية ﴿**شَيْئاً**﴾ ولَو كان يسيراً ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ**﴾ بسيّئات أعمالهم ﴿**أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ حيثُ إنّهم لانهِماكهم في الشّهوات يُضيّعون استِعدادهم، ويُفسدون عُقولهم، ولِذا يُحرَمون من السّعادات الأُخرويّة.

ثمَ هدّد سُبحانه المُكذّبين المُضيّعين لفِطرتهم الأصليّة وعُقولهم السّليمة بقوله: ﴿**وَيَوْمَ**﴾ يُحيي الله المُكذّبين و ﴿**يَحْشُرُهُمْ**﴾ فيه، وحالهم أنّ مُدّة أعمارهم في الدُّنيا، أو إقامتهم في القُبور ﴿**كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا**﴾ ولَم يمكثُوا فيها ﴿**إِلَّا سَاعَةً**﴾ وزماناً قليلاً ﴿**مِنَ ٱلنَّهَارِ**﴾.

قيل: إنّ الساعة كِناية عن أقلّ زَمان، وتَخصيصها بالنّهار لكون ساعاته أعرف حالاً من ساعات اللّيل[١].

ثمَ بالغ سُبحانه في تَقليل مَكثهم بقوله: ﴿**يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ**﴾ في ذلك اليوم؛ كما يعرف بعضُهم بعضاً في الدُّنيا، كأنّهم لَم يُفارقوا إلّا مُدّةً قليلة، ثمَ ينقطع التّعارف إذا عايَنوا الأهوال.

وقيل يعني: يعرِف بعضُهم بعضاً بما كانوا عليه من الكُفر والطُّغيان[٢].

قيل: إنّ استِقلالهم الأعمار إنّما يكون لصَرفها فيما لا نَفْع فيه، أو لِما يُشاهدون من أهوال القِيامة، أو لطُول مَقامهم ووُقوفهم في المحشر[٣].

ثمَ أخبر سُبحانه بغاية خُسرانهم بقوله: ﴿**قَدْ خَسِرَ**﴾ المشركون ﴿**ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ**﴾ وأنكروا الحشر للحِساب وجَزاء الأعمال ﴿**وَمَا كَانُوا**﴾ في الدُّنيا ﴿**مُهْتَدِينَ**﴾ إلى مَنافعهم ومَصالحهم.

وقيل: إنّه كلام المُشركين، والمعنى: ويومَ يحشُرهم حالَ كَونهم مُتعارفين وقائلين قَد خسِر الذين ... إلى آخره[٤].

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٩.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٧: ١٠٤.

٤. تفسير الرازي ١٧: ١٠٥.

مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[٤٦ و ٤٧]

ثمَ أنه تعالى بعد تَهديد المُكذبين، عاد إلى تَسلية نبيّه بقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في الدُّنيا ﴿بَعْضَ﴾ العَذاب ﴿ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ على تَكذيبك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ونُخرجنَك من الدُّنيا قبل أن نريَنك عَذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومَصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللهُ شَهِيدٌ﴾ ومُطَلع ﴿عَلَىٰ مَا﴾ كانوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من تَكذيبك فنُرينَك إذاً مُجازاتهم كما تُحبّ.

وقيل يعني: أنّ الله شاهد عليهم، يشهد بأعمالهم القبيحة على رُؤس الأشهاد يومَ القيامة؛ ليَزداد خزيُهم[١].

وقيل: إنّ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار على الإخبار، أو بمعنىٰ الواو[٢].

ثمَ بالغ سُبحانه في تَسلية نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأُمَم من زَمان آدم إلى اليوم ﴿رَسُولٌ﴾ مَبعوث من جانب الله؛ لهِدايتهم ودَعوتهم إلى التَوحيد والمَعاد، على حَسب حِكمته ولُطفه ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ إلى كُلّ اُمَة ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالبيّنات والمُعجزات القاهرات، كذّبتْه اُمّته، فإذَن ﴿قُضِيَ﴾ من قِبَل الله بَين الرّسول و ﴿بَيْنَهُم﴾ بأن يحكُم بنجاة الرّسول والمؤمنين به، وهَلاك المُكذّبين له، وهُو الحُكم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل على المُكذّبين ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء المُوجب لتَعذيبهم، لكونه نتيجة أعمالهم بعد إتمام الحُجَة عليهم، وقَطع أعذارهم ببَيانات الرّسول، وإقامته الدّلائل على الحقّ.

وقيل: إنَه تعالى لمَا قال: ﴿ٱللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ يوم القيامة، بيّن أنَه مع ذلك يحضرهم في مَوقف القِيامة مع رَسولهم، ليشهد عليهم بتِلك الأعمال، حتّى يظهر عَدله تعالى غاية الظُّهور[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «تفسيرها في الباطن أنّ لكُلّ قَرن من هذه الأُمّة رسولاً من آل محمّد ﷺ يخرُج إلى القَرن الذي هُو إليهم رسولٌ؛ وهُم الأولياء وهُم الرُّسُل. وأمّا قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ فإن[٤] معناه: أنّ رُسُل الله يقضون بالقِسط وهُم لا يُظلمون»[٥].

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٤: ٥٠.

٣. تفسير الرازي ١٧: ١٠٦.

٤. في تفسير العياشي: قال.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٥٨/٢٧٨، وزاد فيه: كما قال الله، تفسير الصافي ٢: ٤٠٥.

يَستَقْدِمُونَ[٤٨ و ٤٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَهديد المُكذّبين بالعذاب، حكى استِهزاءهم به بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك يا محمّد، وللمؤمنين بك استِهزاءً، أو استِبعاداً لِما وَعدْتَهم من العذاب: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون وُقوع ﴿هٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي وعدتُمونا به ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم؟

ثمّ أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بأن يُجيبهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد: إنّي ﴿لاَ أَمْلِكُ﴾ ولا أقدِر ﴿لِنَفْسِي﴾ على أن أدفع ﴿ضَرّاً﴾ وإن كان يسيراً ﴿وَلاَ﴾ أن أجلُب ﴿نَفْعاً﴾ وإن كان حقيراً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ﴾ أن أدفعه من الضرّ، أو أجلُبه من النّفع؛ لأنّه تعالى مالكهما، وهُو لَم يُعيّن لوَعده وقتاً، إنّما المَعلوم عندنا[١] ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ وعَد بتَعذيبهم ﴿أَجَلٌ﴾ ووقتٌ مُعيّنٌ لعَذابهم، خاصٌ بهم في عِلمه، يحُلّ بهم العذاب الموعود عند حُلوله، و﴿إِذَا جَاءَ﴾ كُلّ أمّة ﴿أَجَلُهُمْ﴾ المَضروب لهَلاكهم، أنجز الله وعدَه ﴿فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ولا يُمهلون ﴿سَاعَةً﴾ وزماناً قليلاً ﴿وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه.

عن الصادق عليه السلام: «هو الذي سُمّي لمَلَك الموت في ليلة القَدر»[٢].

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَستَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[٥٠ ـ ٥٣]

ثمّ أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بلَوم المُكذّبين في تَعجيلهم العذاب بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أيُّها المُكذّبون ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونزَل بكم ﴿عَذَابُهُ﴾ المَوعود ﴿بَيَاتاً﴾ وليلاً ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ وأنتُم تشتغلون بأمور مَعاشكم ﴿مَاذَا﴾ وأيّ نَفع تتصوّرون للعَذاب الذي ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أيّ مَقصود لهم في استِعجاله، معَ أنّ العاقل يستأخره ويفِرّ مِنه لشِدّة مَرارته وصُعوبة تَحمُّله.

وفي وَضع المُجرمين مَوضع الضمير، تنبيهٌ على عِلّة استِحقاقهم العذاب، وعلى مُقتضى فِرارهم منه، ومُباينة حالهم للاستِعجال فيه.

ثمّ كأنّه قال سُبحانه: إن كان غرَضهم من الاستِعجال عِلمهم بصِدق النبيّ، وإيمانهم بتَوحيد الله وصِدق وَعده، فليعلَموا أنّ الإيمان بعدَ مُشاهدة العذاب لا ينفعُهم في الخَلاص والوُصول إلى ثَوابه،

---

١. زاد في النسخة: أن، قبل الآية، وحذفناها لما يترتب عليها من تغيير الموقع الإعرابي للفظ الآية وتفسيرها بحيث يكون (أجلاً ووقتاً معيناً ...).

٢. تفسير العياشي ٢: ١٩٥٩/٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٤٠٥.

بَل يُقال لهم عند إيمانهم بعد رُؤية العذاب تَوبيخاً وتقريعاً لهم: **﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾** العذاب، وهَل بعدَ نُزوله عليكم وسُقوط الايمان عن النَفع في حقّكم **﴿آمَنتُم بِهِ﴾** وصدّقتُموه؟!

ثمَ أكّد سُبحانه التَوبيخ والتَقريع عليهم بقوله: **﴿آلْآنَ﴾** وهَل في هذا الحين تُؤمنون بالله وبرسالة الرَسول، وترجُون الانتِفاع بالايمان والخَلاص به من العذاب **﴿وَقَدْ كُنتُم﴾** قَبل نُزوله **﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾** تكذيباً لوعد الله، واستِهزاءً بالرَسول؟

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ بعدَ نُزول العذاب **﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** بوَضع تَكذيب الرَسول موضع تَصديقه، والكُفر مَوضع الإيمان: **﴿ذُوقُوا﴾** واطعَموا **﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾** والدَائم، كما أذقتُم الرَسول والمؤمنين جُرَعَ الغُصَص، وكؤوس الكُروب **﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾** اليومَ بسببٍ **﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ﴾** في الدُنيا **﴿تَكْسِبُونَ﴾** لأنفسكم من الكُفر والعِصيان، وفيه تَنبيهٌ على أنّه تعالى خلق الخَلق للرَحمة، وإنّما العَذاب هُو نتيجة أعمالهم.

ثمَ أنّه تعالى بعد حِكاية استِهزاء المُكذّبين بوَعدهم بالعذاب، حكى عنهم السُؤال عن صِدق هذا الوعد بقوله: **﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾** ويَستخبرون منك يا محمّد، بعدَ إخبارك إيّاهم بالعذاب **﴿أَحَقٌّ﴾** هذا الوَعد، وصِدقٌ **﴿هُوَ﴾** أم صِرف تَخويف لا واقع له؟ **﴿قُلْ﴾** في جَوابهم: **﴿إِي وَرَبِّي﴾** ونَعم والله **﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾** حَقيقٌ بالقَبول، وصِدقٌ لا مَجال للرَيب فيه. عن الباقر عليه السلام: «ويستنبئك[1] أهلُ مكّة عن عليّ: أ إمامٌ هو **﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾**»[2] **﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾** ربّكم من إدراكِكم، وفائتين عنه بالهَرب حينَ إرادته تَعذيبكم.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[٥٤]

ثمَ بالغ سُبحانه؛ بعد نَفي قُدرتهم على الهرب من العذاب، في بَيان عدم تمكّنهم من الخَلاص ببَذل الفِداء بقوله: **﴿وَلَوْ﴾** فُرض **﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾** من النُفوس التي **﴿ظَلَمَتْ﴾** بالإشراك - وعن القُمّي: آلَ محمّد حقّهم[3] - **﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾** من خَزائنها وكُنوزها وأمتعتها **﴿لَافْتَدَتْ﴾** تِلك النَفس **﴿بِهِ﴾** وبذلَته بإزاء نَجاتها من العذاب - عن القُمّي: يعني في الرَجعة[4] - لا يُقبَل منها **﴿وَأَسَرُّوا﴾** وأخفَوا **﴿النَّدَامَةَ﴾** على ما ارتكَبوه من الشِرك والعِصيان، كَراهةً لشَماتة الأعداء -كما عن

---

١. زاد في الأمالي: يا محمد.
٢. أمالي الصدوق: ١٠٤٧/٧٧١، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.
٣ و٤. تفسير القمي ١: ٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.

الصادق عليه السلام[١] ـ أو عَجزاً عن النُّطق لغاية الحَيْرة والدَّهشة ﴿لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾. وقيل: إنّ ﴿أَسَرُّوا﴾ هنا بمعنى أظهروا[٢]؛ لأنّه ليس بيوم تَصبُّرٍ ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ جميعاً؛ المشركين منهم وغير المُشركين، من سائر فِرق الكُفّار والطُّغاة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل، ويُحكَم عليهم بالعَذاب اللّائق بهم ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ فيما فُعِل بهم من العَذاب، لكَونه نتيجة سيّئاتهم.

أَلاَ إِنَّ لِلّٰهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٥٥ و ٥٦]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ نَفْي الكَذِب في وَعده، ونَفي قَبوله الفِداء لرَفع العَذاب، أعلن بغِناه المُطلق، وعدم تَطرُّق الكَذِب في وَعده بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ لِلّٰهِ﴾ وَحده ﴿مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يَحتاج إلى أخذ الفِداء، وليس لكم مال تفدُون به ﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بالثَواب والعِقاب ﴿حَقٌّ﴾ وصِدقٌ لا يُمكن الخُلف فيه، لقُبحه المُنافي لحِكمته، وكَمال قُدرته على إنجازه ﴿وَلٰكِنَّ﴾ النّاس ﴿أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لقُصور عُقولهم، وكَمال غَفلتهم، بسَبب انهِماكهم في الشَهوات، فيقولون ما يقولون.

ثمّ أكّد سُبحانه كَمال قُدرته بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر الذي ﴿يُحْيِي﴾ المَيّت ﴿وَيُمِيتُ﴾ الحَيّ، بلا دَخل لأحدٍ في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ كما أنّكم منه تبدأون.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[٥٧]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَحذير النّاس من الكُفر وتَكذيب الرُّسل، وَجّه خِطابه إليهم، استِمالةً لهم نحو الحَقّ وقَبوله؛ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ثمّ دَعاهم إلى اتِّباع القُرآن بذِكر فَوائده العَظيمة بقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم﴾ الآياتُ القُرآنيّة التي هي ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ لكم، وتَذكرة بعَواقب أعمالكم ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللَطيف بكم ﴿وَ﴾ هي ﴿شِفَاءٌ﴾ وبُرْء ﴿لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ والقُلوب من الأمراض الرّوحانيّة كالجَهل والشكّ، ورَذائل الأخلاق. عن الصادق عليه السلام: أنّه شِفاء مِن أمراض الخَواطر، ومُشتبهات الأمور[٣]. وفي رِوايةٍ: من نَفْث الشيطان[٤] ﴿وَ﴾ هي ﴿هُدىً﴾ ورَشاد إلى الحقّ وسائر الخَيرات ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وفَضل خاصّ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُتدبّرين فيها، المُقتبسين من أنوارها.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٦١/٢٧٩، تفسير القمي ١: ٣١٣، مجمع البيان ٥: ١٧٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٦.
٢. تفسير الرازي ١٧: ١١١.
٣. تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.
٤. الكافي ٨: ٨/٤٤، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

قيل: شبّه الله نبيّه ﷺ بالطَبيب الحاذِق وكِتابه بكِتابٍ فيه دُستور مُعالجة المريض[١].

ولمّا كان أوّل التّدبير في مُعالجته نَهْيه عن تَناول ما يضُرّه، وصَف القرآن أولاً بكونه مَوعظةً، وزاجراً عن المعاصي وارتِكاب المُبعِدات والمُلهيات عن الله. ثمّ استِعمال الأدوية المُنقّية لمِزاجه من الأخلاط الفاسدة المُوجبة للمَرض، وصَف القرآن ثانياً بكونه شِفاءً، والمُراد منه المُجاهدة في إزالة الأخلاق الرّذيلة، فإذا زالت حصَل الشِّفاء للقَلب والصَفاء للرُّوح. ثمّ استِعمال الأدوية المُقوّية للمِزاج، وصَف القُرآن ثالثاً بكونه هُدىً، والمُراد منه تَجلية الأنوار القُدسيّة في القَلب. ثمّ استِعمال ما يوجب تزايد القوّة من مَرتبة الصِحّة إلى مَرتبة الكَمال القابل، وصف القُرآن رابعاً بكونه رحمةً، والمُراد منها إيصال جَوهر الرُّوح إلى أعلى دَرجات القُرب، وهذا خاصٌ بالمؤمنين الكاملين في الإيمان والعَمل.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٥٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الإشارة إلى مَراتب تفضُّله ورَحمته بعِباده المؤمنين، أمر نبيّه بأن يأمُر المؤمنين بتَخصيص فَرحهم وسُرورهم لهما بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمؤمنين: ﴿بِفَضْلِ ٱللهِ﴾ وهو رسوله ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وهي القُرآن فليفرحوا، وإن فرِحوا بشيءٍ في العالَم ﴿فَبِذٰلِكَ﴾ المَذكور من الفَضل والرّحمة بالخُصوص ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بشيءٍ آخر؛ لأنّ ما ذُكر من الفَضل والرَحمة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ وأفضل وأنفع ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من زَخارف الدُّنيا الفانية، وحُطامها الكاسد.

عن النبيّ ﷺ: «فَضْلُ الله: نُبوّة نبيّكم، و رحمتُه: وِلاية عليّ بن أبي طالب، ﴿فَبِذٰلِكَ﴾ قال: بالنُبوّة والوِلاية ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني: الشّيعة ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: مُخالفيهم، من الأهل والمال والوَلَد، في دار الدُّنيا»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «فضل الله: رسول الله ﷺ، و رحمته: علي بن أبي طالب»[٣].

وزاد القُمي رحمه الله: فبذلك فليفرح شيعتُنا، هو خير ممّا أُعطي أعداؤنا من الذّهب والفِضّة»[٤].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ ٱللهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ٱللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللهِ تَفْتَرُونَ﴾[٥٩]

---

١. تفسير الرازي ١٧: ١١٥.

٢. أمالي الصدوق: ٨٠٣/٥٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

٣. مجمع البيان ٥: ١٧٨، جوامع الجامع: ١٩٥، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٠٧.

ثمَ أنه تعالى بعد إبطال مَذهب الشِّرك، وتَوعيد المشركين على تَكذيب الرَسول ﷺ واستِهزائهم به وبالقُرآن، وبَخهم على بِدَعهم ومُفترياتهم على الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمُشركين: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ وأخبروني ﴿مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ من السّماء ﴿مِن رِزْقٍ﴾ حَلال بسَبب الأمطار، وتأثير الشّمس وسائر الكواكب، في نَضْجه وتَربيته وتَلوينه. وقيل: إنّ المُراد من الإنزال من السّماء: التّقدير فيه[1]، وقيل: الخَلق والإنشاء[2] ﴿فَجَعَلْتُم﴾ بعضاً ﴿مِنْهُ حَرَاماً﴾ على أنفسكم كالسّائبة وأخواتها ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿حَلاَلاً﴾.

ثمَ أكّد سُبحانه الأمر بالاستِخبار بالتّكرار بقوله: ﴿قُلْ﴾ توبيخاً لهم: ﴿ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا الجَعل والتّبعيض، فتمتثلون أمره تعالى ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأهوائكم ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وفي نِسبة ذلك إليه تكذِبون؟ فإن تقولوا إنّ الجعل على سَبيل الافتِراء، فقد التزمتُم بما اتّفق العُقلاء على بُطلانه وقُبحه، وتستحقّون العُقوبة عليه، وإن تقولوا إنّه بإذن الله، فمِن المعلوم أنّه ما شافَهكم الله به، فلا بُدّ أن تلتزموا بمجيء رسول منه إليكم، معَ أنكم تُنكرون الرّسالة، وتُبالغون في تَكذيب مُدّعيها، فثبَت أنكم مُفترون.

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ[٦٠]

ثمَ أظهر سُبحانه التعجُّب من جُرأتهم على الله في هذا الافتِراء بقوله: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الحَكم ﴿ٱلْكَذِبَ﴾؟ وأيَ توهُّم لهم أن يَصنَع بهم ويتعامل معهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الذي هُو يوم عَرض الأعمال والأقوال، والمُجازاة عليها مِثقالاً بمِثقال؟ أيتوهّمون أنّهم لا يُسألون عن افتِرائهم، ولا يُجازَون عليه، أو يُجازَون ولكن لا يُجازَون جَزاءً شديداً، ولِذا لا يُبالون بما يرتكبون؟ كلّا بَل يُعذّبون عذاباً شديداً، بَل أشدّ العذاب؛ لأنّ عِصيانهم أشدّ المَعاصي وفي ذِكر الكَذِب مع الافتِراء؛ الذي هُو عين الكَذِب، مُبالغةٌ في قُبحه.

ثمَ أكّد سُبحانه استِحقاقهم العَذاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً بإعطائهم القُوى والعَقل المُميّز بين الحَسَن والقَبيح، والحقّ والباطل، وبإرسال الرّسُل، وإنزال الكُتب، وتَعليم الشّرائع، وبالإرشاد إلى طُرق تَحصيل المَعاش والمَعاد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ الله على تِلك النِّعَم بالقِيام بوظائف العُبوديّة، وصَرف القُوىٰ الظاهريّة والباطنيّة فيما خُلقت له، ولِذا يستحقّون العَذاب،

---

١. تفسير أبي المسعود ٤: ١٥٦، تفسير روح البيان ٤: ٥٥.

٢. تفسير الرازي ١٧: ١٢٠.

ويُبتلون بأشدّ العِقاب.

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ[٦١]

ثمّ أنه تعالى بعد ذِكر إصرار المُشركين على الكُفر وتَكذيب النبيّ ﷺ واستِهزائهم بالقُرآن، وأمر النبيّ ﷺ بالجَواب عن مَقالاتهم والمداراة معهم، وتَهديدهم بالعَذاب، بالغ في تَسلية النبيّ والمؤمنين، وتَهديد الكُفّار ببَيان أنّ جميع أحوالهم وأعمالهم بعَين الله بقوله: **﴿وَمَا تَكُونُ﴾** يا محمّد **﴿فِي شَأْنٍ﴾** من الشؤون، وحالٍ من الأحوال الظّاهرة والباطنة والخَفِيّة، من اُمور الدُّنيا أو من جميع الاُمور، ثمّ خصّ شأن تِلاوة القُرآن بالذِّكر تعظيماً له بقوله: **﴿وَمَا تَتْلُوا﴾** تِلاوة هي بعض شأنك والمُعظَم **﴿مِنْهُ﴾** يكون **﴿مِن قُرْآنٍ﴾**.

وقيل: إنّ ضمير **﴿مِنْهُ﴾** راجع إلى القُرآن من باب الإضمار قبلَ الذِّكر؛ لتَعظيم القُرآن[١]. ثمّ جمع في الخِطاب بين النبيّ ﷺ والمؤمنين بقوله: **﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾** جليلٍ أو حقير، ظاهر أو خَفيّ **﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾** ورُقباء حافظين له **﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾** وتخُوضون **﴿فِيهِ﴾** وتشتغِلون به **﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾** ولا يبعُد **﴿عَن رَبِّكَ﴾** ولا يغيب عن عِلمه المُحيط بجَميع الأشياء **﴿مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾** وما يُساوي وزن نَملة صغيرة أو هَباءة لا **﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾** وهُما كِناية عن عالَم الوُجود **﴿وَلاَ﴾** شيء **﴿أَصْغَرَ مِن ذٰلِكَ﴾** الذَرّة **﴿وَلاَ أَكْبَرَ﴾** منها **﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** و [هو] اللّوح المَحفوظ.

وقيل: إنّ المعنى: لا يعزُب عن ربّك شيءٌ من الأشياء، ولكنّ جميع الأشياء في كِتاب مُبين، فكيف يعزُب عنه شيء[٢]؟ فإذا كان كذلك فليَخفْ الكافرون عذابَ الله، ولا يخَفْ المؤمن منهم.

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ[٦٢]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَقوية قَلب النبيّ ﷺ والمؤمنين بقوله: **﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ﴾** وأحبّاءه من النبيّ والمؤمنين **﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾** في الدّارين من نَيل مَكروهٍ **﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** لفَوت مأمول ومَطلوب.

---

١. تفسير الرازي ١٧: ١٢٢.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٥٨.

عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل عن أولياء الله، فقال: «هُم الذين يُذكر الله بـرُؤيتهم»، يـعني فـي السَّمْت والهَيئة[١].

وعن الصادق، عن النبيّ ﷺ: «من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبَطنه من الطّعام، وعنّى نفسه بالصِّيام والقِيام. قالوا: بآبائنا وأُمّهاتنا يا رسول الله، هؤلاء أولياء الله؟ قال: إنّ أولياء الله سكتوا فكان سُكوتُهم ذِكراً، ونظروا فكان نَظَرُهم عِبرةً، و نطقوا فكان نُطقُهم حِكمةً، ومشَوا فكان مَشْيُهم بين النّاس بَرَكةً، لَولا الآجال التي كتَب الله عليهم لَم تقِرّ أرواحُهم في أجسادهم خوفاً من العِقاب[٢]، وشوقاً إلى الثّواب»[٣].

عن الباقر عليه السلام قال: «وجدنا في كتاب علي بن الحُسين عليهما السلام: **﴿أَلَاۤ إِنَّ أَوْلِيَاۤءَ ٱللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** إذا أدّوا فَرائض الله، وأخذوا بسُنن رسول الله، وتورّعوا عن مَحارم الله، وزهِدوا فـي عاجل زَهرة الدُّنيا، ورغِبوا فيما عندَ الله، واكتسبوا الطيّبات مـن الرّزق، لا يُـريدون [بـه] التّـفاخُر والتّكاثُر، ثمّ أنفقوا فيما يلزَمهم من حُقوقٍ واجبة، فأُولئك الّذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويُثابون على ما قدّموا لآخرتهم»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «طُوبى لشيعةِ قائمنا المُنتظرين لظُهوره في غيبته، المُطيعين له فـي ظُـهوره، أُولئك أولياء الله الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون»[٥].

ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ [٦٣ و ٦٤]

ثمّ وصف سُبحانه أولياءه بقوله: **﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** عن صَميم القلب بكُلّ ما جاء من عندِ الله **﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** الأعمال السيّئة، والأخلاق الذّميمة، وحُبّ الدُّنيا، وما ألهى عن ذِكر الله.

وقيل: يتّقون مِمّا سِوى الله، وهُو التّقوى الحقيقي[٦].

ثمّ نبّه الله على نَتيجة وِلايته بقوله: **﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾** بالسّلامة من كُلّ شرّ ومَكروه **﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾** وبالرّحمة المَوصولة، والنِّعَم بعد الموت **﴿وَفِي ٱلآخِرَةِ﴾**.

وقيل: إنّ **﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بَيان لتَولّيهم الله تعالى[٧]، وقوله: **﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾** بَيان لتَولّي الله إيّاهم.

---

١. جوامع الجامع: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٢. في الكافي: العذاب.
٣. الكافي ٢: ٢٥/١٨٦، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٦٥/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٥. إكمال الدين: ٥٤/٣٥٧، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٦. تفسير أبي السعود ٤: ١٥٩.
٧. تفسير البيضاوي ١: ٤٤٠.

عن النبيّ ﷺ: «﴿ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الرُّؤيا الحَسنة يَراها المؤمن، فيُبشَّر بها في دُنياه»[١].

وعنه ﷺ في روايةٍ عاميّة: «هي في الدُّنيا الرُّؤيا الصالحة، يَراها المؤمن لنَفسه، أو تُرى له، وفي الآخرة الجنّة»[٢].

وفي (الفقيه): وأمّا قوله ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ فإنّها بِشارة [المؤمن] عندَ الموت، يُبشَّر [بها] عندَ موته أنّ الله عزّ وجلّ قد غفر لك ولمَن يَحمِلُك إلى قبرك[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «يُبشّرهم بقِيام القائم وبظُهوره، وبقَتل أعدائهم، وبالنّجاة في الآخرة، والوُرود على محمّد وآله الصّادقين على الحَوض»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الرّجُل إذا وقعتْ نفسُه في صَدره، يرى رسول الله ﷺ، فيقول له: أنا رسول الله، أبْشِر. ثمّ يرى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فيقول: أنا عليّ بن أبي طالب الذي كُنتَ تُحبّه، أنا[٥] أنفعك اليوم. قال: وذلك في القُرآن قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «إنّما أحدكم حين تبلُغ نفسُه هاهنا ينزِل عليه مَلَكُ الموت فيقول له: [أمّا] ما كُنتَ تَرجو فقد أُعطيتَه، وأمّا ما كنتَ تخافه فقد أمِنتَ منه. ويُفتح له بابٌ إلى منزله من الجنّة، ويُقال له: انظُر إلى مَسكنك من الجنّة، وانظُر هذا رسول الله وأمير المؤمنين والحسَن والحُسين رُفقاؤك، وهو قول الله تَبارك وتعالى وتقدّس: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الآية»[٧].

ثمّ أكّد سُبحانه الوَعد بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تَغيير ﴿لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾ ولأقواله، ولا خُلف في وَعده ﴿ذَٰلِكَ﴾ التّبشير في الدّارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فَوز فَوقه.

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٦٥]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بِشارة النبيّ والمؤمنين بالأمن مِن كُلّ مَكروه، وكان المُشركون في تَدبير إهلاك النبيّ ﷺ وإبطال أمره، نهاه تعالى عن المُبالاة بهم والتأثُّر بأفعالهم وأقوالهم بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ وتَكذيبهم وتَشاوُرهم في تَدبير إهلاكك.

---

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٦/٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٢. تفسير الرازي ١٧: ١٢٧، تفسير روح البيان ٤: ٦١، جوامع الجامع: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.
٣. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٦/٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٠٩.
٤. الكافي ١: ٨٣/٣٥٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.
٥. في الكافي: تحبّه تُحبّ أن.
٦. الكافي ٣: ٨/١٣٣، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٩٦٧/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٠.

ثمّ كأنّه قيل: لِمَ لا يحزن معَ قِلّة أنصاره وكَثْرة أعدائه؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ والقُوّة والغَلَبة ﴿لِلَّهِ﴾ وَحده ﴿جَمِيعاً﴾ في مَملكته وسُلطانه، لا قُدرة لأحدٍ غيره، فهُو يغلِبهم وينصُر رُسُله والمؤمنين، و ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمَقالات المُعاندين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما عزَموا عليه، وهُو مُجازيهم أشدَّ الجَزاء. ففيه مع تأمينه من القَتل والإيذاء، تبشيرٌ له بالغَلَبة والنُّصرة.

أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[٦٦]

ثمّ أكّد سُبحانه كَمال قُدرته، ونُفوذ سُلطانه بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ﴾ وَحده بِلا شِركة أحدٍ من مَخلوقاته ﴿مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ﴾ مِن الملائكة ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الجِنّ والإنس، فإنّ الجميع - معَ كَونهم شاعرين عاقلين قادرين - مَقهورون تَحت قُدرته وسُلطانه، فكيف بغيرهم مِن الحَيوانات والنّباتات والجَمادات؟

ثمّ أنّه تعالى بعدَ إثبات قُدرته وتَوحيده في الأُلوهيّة والسّلطنة، ذَمّ المُشركين بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ المُشركون ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه من الأصنام، بتَوهُّم أنّهم ﴿شُرَكَاءَ﴾ لله في الأُلوهيّة والعِبادة بُرهاناً ويقيناً، بَل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ شيئاً ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل من عمل الآباء والكُبَراء ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويُخمّنون من عند أنفسهم.

وقيل: أي يكذِّبون في قولهم: أنّها آلهة.

وقيل: إنّ (ما) في قوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ استفهامية، والمعنى: أيُّ شيءٍ يتبعُ المُشركون؟ والجواب: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[1]، وقيل: إنّها مَوصولة[2]، والمعنىٰ لله ما يتّبع المُشركون[3].

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ[٦٧ و ٦٨]

---

١. تفسير الصافي ٢: ٤١١، تفسير البيضاوي ١: ٤٤١.

٢. في تفسير البيضاوي: موصولة ومعطوفة على (مَن) في الآية ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ...﴾.

٣. تفسير الصافي ٢: ٤١١، تفسير البيضاوي ١: ٤٤١.

ثمّ بالغ سُبحانه في تَقرير قُدرته الكاملة الدالّة على اختِصاص العِزّة به بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿لَكُمُ اللَّيلَ﴾ وجعله مُظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ من تَعب طَلب المَعاش ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ومُضيئاً، لتتحرّكوا فيه لتَحصيل مَعاشكم ومَصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ الجَعل ﴿لَآيَاتٍ﴾ بيّنات، وبَراهين ساطعات على التّوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الدّلائل، أو آيات القُرآن سَماع تدبُّر وتفهُّم واعتِبار.

ثمّ أنه تعالى بعدَ إبطال القول بوُجود الشّريك له، شَرع في إبطال القول بوجود الوَلد له بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ﴾ واختار لنفسه ﴿وَلَداً﴾ من الملائكة؛ كما هُو قول مُشركي العرب، أو مِن البشر؛ كعيسى وعُزير. ثمّ نزّه ذاته المُقدّسة عن هذه النِّسبة، أو أظهر التعجُّب من كَلمتهم الحَمقاء بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ كيف يكون له الوَلد و ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق، واتّخاذ الولد من آثار الحاجه؟!

ثمّ أكّد غِناه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما، ولا يُمكن أن يكون الولدُ مُلكاً لوالده.

ثمّ أكّد بُطلان قولهم، بقوله مُخاطباً لهم: ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ وما لكم ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ وبُرهان ﴿بِهٰذَا﴾ القول، وكفى في بُطلانه عدم البُرهان به.

ثمّ وبّخهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتختلقون ﴿عَلَى اللّهِ﴾ العظيم ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من القول ببُرهان ساطع! ومِن المَعلوم أنّ الالتِزام بما لا يُعلَم عين السَّفَة، ومُباين لطَريقة العُقلاء.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [٦٩ و ٧٠]

ثمّ أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بتَهديدهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ﴾ ويقولون عليه ﴿الْكَذِبَ﴾ من اتّخاذه الشّريك والوَلد ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾ ولا يفوزون بنعمة الآخرة، ولا ينجُون من عَذابها.

ثمّ كأنّه قيل: كيف وكثيرٌ منهم مُتنعّمون بالنِّعم[1]؟ فأجاب سُبحانه: ذلك ﴿مَتَاعٌ﴾ وتلذّذٌ يَسير ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ زائل بسُرعة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ بعدَ الموت ﴿مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٦٤.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَومِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ[٧١]

ثمّ ذكر سُبحانه مُعارضة نُوح قومه تسليةً للمؤمنين، وتهديداً للكفّار بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ وخَبره الذي له شأن مِن مُعارضته لقومه الّذين هُم أضراب قومِك في الكُفر والعِناد، ليتدبّروا وينزجِروا عمّا هُم عليه من الشِّرك والشِّقاق، وتثبُت نُبوّتُك بسَبب مُوافقة ما تُخبر به لِما ثبَت في الكُتُب السّماويّة وغيرها، معَ عِلمهم بأنّك اُميّ لَم تقرأ كِتاباً، وما جالستَ عالِماً ويظهر لهم أنّ العِزّة لله، ويطمئنّ المؤمنون بأنّ الله ينصُر أولياءه، ويقوىٰ قلبُك في معارضة قومك وعَدم المُبالاة بهم وبأقوالهم ﴿إِذْ قَالَ﴾ نوحٌ ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بعد تكذيبهم قوله وإيذائهم له: ﴿يَاقَومِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ وشَقّ ﴿عَلَيْكُم﴾ وثقُل على قُلوبكم ﴿مَقَامِي﴾ فيكم، ومَكثي بينكم لطُول مُدّته، ونُفرتكم عن دَعوتي، أو قيامي للوَعظ ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إيّاكم ﴿بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ وبَراهين اُلوهيّته ووَحدانيّته ﴿فَعَلَى ٱللهِ﴾ وَحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثِقتُ في جَميع اُموري مُنذ عرفته، فلا اُبالي بكم، ولا أخاف من كَيدكم ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أنتم ﴿أَمْرَكُمْ وَ﴾ اعزِموا على السّعي في إهلاكي الذيهُو مَطلوبكم، أو اجمَعوا ذَوي الأمر منكم، أو وُجوه كَيدكم، وادعُوا إلى إعانتكم عليه ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ وأصنامكم.

وقيل: إنّ الواو بمعنىٰ (مع)[1].

وقيل: إنّ التّقدير: أجمِعوا أمرَ شُركائكم[2]. وعلى أيّ تقدير، هُو مَبنيٌّ على التهكُّم.

ثمّ بالغ في دَعوتهم إلى مُبارزته وإظهار عَدم المُبالاة بهم بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ومَقصودكم هذا ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ومَستوراً، بَل اجعَلوه ظاهراً مَكشوفاً لعدَم الدّاعي إلى سَتره مَع عَدم خَوفكم منّي، واستِحالة هَربي منكم عند اطّلاعي على تجمُّعكم على قتلي. وقيل: إنّ المعنىٰ: لا يكُن أمرُكم وحالُكم؛ الذي يعتريكم من كَراهة مقامي وتَذكيري عليكم، غُمّةً وكُربةً، بَل عجّلوا في تَخليص أنفسكم بإهلاكي[3]. وعن القُمّي: لا تغتمّوا[4] ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا﴾ وأدّوا ﴿إِلَيَّ﴾ إهلاكي الذي تتوهّمون أنّه حقّي عليكم، أو المراد: أوصِلوه إلَيّ ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ ولا تُمهلوني ساعةً، بل عجّلوا بذلك غاية التّعجيل، فإنّي مع ثِقتي بالله وبحِفظه إيّاي حَسَب وَعده، أعلم أنّكم لَن تجِدوا إلى ذلك سبيلاً.

---

١. تفسير الرازي ١٧: ١٣٧، تفسير روح البيان ٤: ٦٦، تفسير أبي السعود ٤: ١٦٤.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٦٤.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٦٥.

٤. تفسير القمي ١: ٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٤١١.

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ[٧٢ـ ٧٤]

ثمَ بيّن أنّه لا عِلّة لإعراضهم عنه، وإرادتهم إهلاكه بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عنّي وعن نُصحي وتَذكيري، فقد فعلتُم ما لا سَبب له ولا باعث، فإن تخيّلتُم أنّي أطمع في أموالكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ بمُقابل وَعْظي وتَذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وعِوَضٍ تُؤدّونه إليّ من أموالكم، حتّى يُؤدّي ذلك إلى إعراضكم لثِقْله عليكم، أو لدَلالته على أنّ قَصدي من دَعوتي طلَب الدُّنيا لا امتِثال أمرِ الله، واعلَموا أنّ قَصدي إطاعة أمر الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما عِوَض عمَلي ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ لأنّ العمل له، وعِوَضه عليه، وهُو لا يُضيع أجر العاملين له، وإن لَم تنفعْكم دَعوتي، وتولّيتُم عن الإصغاء لكلامي، فإنّ عَلَيّ العمل بما اُمرت به ﴿وَ﴾ أنا ﴿أُمِرْتُ﴾ من قِبَل عقلي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمُنقادين لأوامره، ولِذا لا اُخالف أمره، ولا أرجو الثّواب إلّا منه.

وقيل: إنّ المعنى: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْتسلِمِينَ لِما يُصيبني من البَلاء في طاعته[١].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد إتمام الحُجّة عليهم، وإيضاح المَحجّة لهم، كتَكذيبهم قبله، فلمّا ظهر أنّ تولّيهم ليس إلّا من العُتوّ والطُّغيان، فلا جَرَم حقّتْ عليهم كلمةُ العذاب ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن﴾ كان ﴿مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ الذي صنعه بأمرنا، وكانوا ثَمانين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ﴾ في الأرض من الهالكين برَحمتنا التي [هي] من شؤون الرُّبوبيّة ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالطُّوفان الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ غضباً عليهم بمقتضى جَرائمهم الموبقة ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد، أو أيّها الإنسان، نَظر التعجُّب والاعتِبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وإلى مآل أمرهم. وفيه تَهويلٌ لِما جرى عليهم، وتهديدٌ لمُكذّبي الرّسول وتَسليةٌ له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ بالرّسالة ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ وبعد انقِضاء رِسالته بالموت ﴿رُسُلاً﴾ كثيرة، عظيمة الشّأن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهُود إلى عاد، وصالح إلى ثَمود، وإبراهيم إلى أهل بابل، وشُعيب إلى أهل مَدين، وغيرهم مِمَن قصّ أحوالهم أو لَم يقْصّ ﴿فَجَاءُوهُم﴾ وأتوا بينهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمُعجزات

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٦٥.

الباهرات، لا بأن يأتي كُلّ رسول بمُعجزة واحدة، بَل لكُلّ واحدٍ منهم مُعجزاتٍ عديدة، خاصّة به حَسب اقتِضاء الحِكمة البالغة ﴿فَمَا كَانُوا﴾ هؤلاء الأقوام ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾ أن يرَوا المُعجزات، ولَم يُرْجَ منهم أن يُصدّقوهم في رِسالتهم التي أنكروها في أوّل بِعثتهم، أو في عالم الذَرّ، لشِدّة إصرارهم على العُتوّ والتمرّد والعِناد للحَقّ، والطّبع على القُلوب ﴿كَذٰلِكَ﴾ الطّبع المُحكم ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ الكُفّار ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾ المُتجاوزين عن حُدود العقل، المُتجافين عن قَبول الحَقّ وسُلوك طَريق الرُّشد، فلَم يُمكن إيمانُهم بسُوء اختيارهم وانهِماكهم في الشّهوات والضّلال.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ[٧٥ـ٧٧]

ثمّ حكى سُبحانه إرسال موسى عليه السلام بعد أُولئك، ومُعارضة قومه معه، وتَوكّله على الله بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ بالرِّسالة ﴿مِن بَعْدِهِم مُوسَىٰ﴾ بن عِمران ﴿وَ﴾ أخاه ﴿هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وأشراف قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التّسع، فأتياهم وبلّغاهم الرِّسالة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قَبول قولهما واتّباعهما ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ مُتمرّنين على العتوّ والطُّغيان، ومُعتادين لارتِكاب العِصيان، فلِذا اجترأوا على تَكذيبهما ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ الآيات البيّنات التي كُلّها ﴿الْحَقُّ﴾ الذي عَرفوه ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا﴾ عُتوّاً وعِناداً: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الذي جاء به وسمّاه مُعجزة ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعبذة ظاهرة، لا مَجال للشكّ فيه، فلا يجُوز الاعتِماد عليه في الإيمان بموسى واتّباعه، ولا الاغتِرار به.

فلمّا كذّبوه ونسَبوا ما أتى به من المُعجزة الظّاهرة [إلى السحر] ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ للمُكذّبين تعجُّباً من قولهم، وتَوبيخاً لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هُو أبعد شيءٍ من السِّحر ـ الذي هُو الباطل البحت ـ ما تقولون، أو تعيبونه وتطمَعون فيه ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ ووقفتُم عليه من غير تدبُّر وتأمُّل؟!

ثمّ بالغ في تَوبيخهم بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هٰذَا﴾ المُعجز الذي إعجازه في غاية الظُّهور، بحيث لا يُمكن أن يرتاب فيه أحدٌ؟ وكيف يُمكن أن أكون من السّاحرين، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّه ﴿لاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا يفوزن بمَطلوب، ولا ينجُون من مَكروه، معَ أنّي ظافر بكُلّ مَطلوب ومَصُون من كُلّ مَحذور؟

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا

جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ[٧٨ـ٨٢]

ثمَ كأنّه قيل: ما قال فِرعون ومَلَؤهُ لموسى في جوابه؟ فأجابهم سُبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ عَجزاً عن مُحاجّته: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ وتصرِفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عِبادة الأصنام، وتمنَعنا من تَقليدهم في الشِّرك ﴿وَتَكُونَ﴾ باتّباعنا ﴿لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ﴾ والسَلطنة والتفوُّق علينا ﴿فِي﴾ تِلك ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ومَملكة مِصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا﴾ البتّة ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبكُما مُصدّقين في دَعوى النُبوّة، وتَوحيد الإلَه، ولا نُؤثر رناستكما على رناستنا. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لخَدَمه ومَلأه: ﴿ٱئْتُونِي﴾ من كُلّ ناحية ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسِّحر، حاذقٍ فيه، حتّى يُعارضوا موسى بمثل ما أتى به، فذهب الخَدَمة وأتوا بهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ووقفوا في مُقابل موسى عليه السلام لمُعارضته ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ إظهاراً لعدم مُبالاته بهم: ﴿أَلْقُوا﴾ أيّها السَحَرة ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من الحِبال والعِصِيّ ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حِبالهم وعِصيّهم، واسترهَبوا النّاس بسِحرهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم وهُو غير مُكترث بهم وبعمَلهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ وما صنَعتُموه هُو ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ البيِّن الذي يعرفه كُلّ أحدٍ، واعلَموا ﴿إِنَّ ٱللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ ويمحَقه، بما يُظهره على يَدَي من المُعجزة، أو المُراد أنّ الله يُظهر بُطلانه للنّاس ويفضَح فاعلَه.

ثمَ بيَن سُبحانه عِلّة إبطاله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يُصْلِحُ﴾ ولا يُثبت على حاله ﴿عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سواءً أ]كان سِحراً أو غيره، لأنّه لا يرضى بالفساد في الأرض ﴿وَيُحِقُّ ٱللهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويُثبته ويُديمه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ ومَواعيده التي وَعدها على لِسان رُسُله، أو بما سبَق من قضائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المُصرّون على العِصيان. وفيه تَسليةٌ للنبيّ صلى الله عليه وآله.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ[٨٣ـ٨٦]

ثمَ ألقى موسى عَصاه، وأبطل سِحر السَحَرة، وأتى بمُعجزات كثيرة أُخرى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ مع ذلك ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ وجَماعة قليلة، أو حَديثو السِنّ ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل، عن ابن عبّاس قال: لفظ

«الذُّرّيّة» يُعبَّر [به] عن القوم على وَجه التّحقير والتّصغير[١]. وقيل: أُريد بالذُّرّيّة أولاد مَن دَعاهم، وأمّا الآباء فقد استمرّوا على الكُفْر[٢]. وقيل: أُريد من «قومه» قوم فِرعون: وهُم آسية، وخازنة، وامرأة خازنة وماشِطتُها، ومؤمن آل فرعون[٣] ـ وعلى أي تقدير، كان إيمانُهم ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ وقيل: إنّ ضمير الجَمع راجعٌ إلى فِرعون لما يُعتاد في ضمائر الأعاظم[٤]. وقيل: عبّر عن قوم فِرعون باسمِه[٥]. وقيل: إنّه راجع إلى الذُّرّيّة؛ لأن آباءهم كانوا يمنعونهم من الإيمان خوفاً عليهم من فِرعون[٦] ـ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ويُعذّبهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ وغالب، أو مُتكبّر وعاتٍ ﴿فِي﴾ تِلك ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي ملَكها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظُّلم والفَساد بتَعذيب الضُّعفاء، وسَفك الدِّماء، أو في الكِبَر والعُتُوّ حتّى ادّعى الرُّبوبيّة، واسترقّ أبناء الأنبياء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ للمؤمنين لمّا اشتدّ خوفُهم من فِرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ﴾ عن صَميم القلب، وعرَفتُموه بالقُدرة الكاملة والرّحمة والرأفة ﴿فَعَلَيْهِ﴾ وَحده ﴿تَوَكَّلُوا﴾ واعتمدوا في حِفظكم، وإن نزل بكم بَلاءٌ فاصبِروا ﴿إِن كُنتُم مُسْلِمِينَ﴾ ومُستسلمين لقَضائه، راضين برِضاه ﴿فَقَالُوا﴾ مُجيبين له من غير رَيث إظهاراً لكَمال الإيمان والخُلوص: ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ وَحده ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع أُمورنا.

ثمّ قالوا مُتوجّهين إلى الله ومُتضرّعين إليه: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا﴾ بمُقتضى رُبوبيّتك ولُطفك ﴿فِتْنَةً﴾ ومَورد عَذاب ﴿لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أو لا تُسلّطهم علينا فيفتِنونّنا عن دينك، أو يُفتَنوا بنا بتَخيُّلهم أنّا لو كُنّا على الحقّ ما أصابنا منهم ضَررٌ. عنهما عليهما السلام: «لا تُسلّطهم [علينا] فتفتِنهم بنا»[٧] ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ﴾ صُحبة ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ وسُوء جِوارهم، أو من ظُلمهم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٨٧]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ إظهار القوم إيمانهم وتوكّلهم عليه وتضرُّعهم إليه، أمر موسى وهارون باتّخاذ المَساجد لهم، والاهتِمام بالصّلاة، وتبشير المؤمنين بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أو اتّخذا، أو هيّئا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ يسكُنون فيها، ويرجِعون إليها للعِبادة ﴿وَٱجْعَلُوا﴾ أنتُما وقومكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تِلك ﴿قِبْلَةً﴾ ومُصلّى، أو مساجد مُتوجّهة إلى القِبلة ـ عن

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٧: ١٤٤.
٣. تفسير الرازي ١٧: ١٤٤، تفسير البيضاوي ١: ٤٤٤.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٤٤٤.
٥. تفسير الرازي ١٧: ١٤٥.
٦. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٠.
٧. مجمع البيان ٥: ١٩٣، تفسير الصافي ٢: ٤١٤.

ابن عبّاس: كانت الكعبة قِبلة مُوسى[1]. ومن غيره: كانت قِبلته جِهة بَيت المَقدس[2]. وقيل: يعني: اجعلوا بيوتكم مُتقابلة، والمَقصود حُصول الجَمعيّة، وتعاضُد بعضِهم ببعض[3]. وقيل يعني: صلّوا في بُيوتكم لِئلّا يظهَر عليكم الكُفّار فيُؤذوكم ويفتِنوكم عن دينكم[4]. وقيل يعني: استقبِلوا البُيوت لأجل الصّلاة[5] ﴿وَأَقِيمُوا﴾ جميعاً ﴿ٱلصَّلَاةَ وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُّصرة في الدُّنيا إجابةً لدُعائكم، وبالجنّة في الآخرة.

وإنّما خاطب سُبحانه خُصوص موسى وهارون في اتّخاذ المَساجد لأنّه وظيفة الرُّؤساء، وخاطب الكُلّ في الأمر بجَعل البُيوت مساجد والصّلاة فيها، لأنّه وظيفة الكُلّ، وخاطب موسى في الأمر بالبِشارة لأنّه وظيفة الرّسول.

عن العيّاشي: أنّ رسول الله ﷺ خطَب النّاس فقال: أيُّها «النّاس، إنّ الله عزّ وجلّ أمر موسى وهارون أن يبنِيا لقومهما بمِصر بُيوتاً، وأمرهما أن لا يَبيت في مَسجدهما جُنُب، ولا يقرَب فيه النّساء إلّا هارون وذُريّته، وإنّ عليّاً منّي بمَنزلة هارون من مُوسى، فلا يحِلّ لأحدٍ أن يقرَب النّساء في مَسجدي، ولا يبيتُ فيه جُنُب، إلّا عليّ وذُريّته، فمَن ساءه ذلك فهاهنا». فضرب[6] بيده نحو الشام[7].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيما وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٨ـ٨٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ أمر مُوسى ببِشارة المؤمنين بالنّصر والغَلَبة على الأعداء إجابةً لدُعائهم، حكى دُعاء موسى عليه السلام على الكُفّار بعدَ بَيان سَبب طُغيانهم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ غضباً على فِرعون وقومه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ وأعطيتَ ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ ومَفاخر كثيرة؛ كالجَمال والقُوّة والشّوكة ونظائرها ﴿وَأَمْوَالاً﴾ وَفيرةً ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فألهتْهم تِلك الزّينة والأموال عن ذِكرك وذِكر الآخرة، فاشتغلوا بإضلال عِبادك، كأنّك ﴿رَبَّنَا﴾ أعطيتَهم تِلك ﴿لِيُضِلُّوا﴾ النّاس ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ ويَصرِفوهم عن تَصديق رَسولك واتّباع دينك.

---

١ ـ٤. تفسير الرازي ١٧: ١٤٨.
٥. تفسير الرازي ١٧: ١٤٧.
٦. في المصدر: وأشار.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٤/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤١٤.

وعن القُمّي: يفتِنون النّاس بالأموال ليعبُدوهم ولا يعبُدونك[١]. وقيل: إنّ الكلام على سَبيل التعجُّب المَقرون بالإنكار، والمعنى: آتيتَهم ذلك ليُضلّوا. وقيل: إنّ ﴿لِيُضِلُّوا﴾ دُعاءٌ عليهم كما يُقال: ليغفِر الله للمؤمنين وليُعذّب الكافرين[٢]. وقيل: إنّ اللّام للعاقبة[٣]، والمعنى: صار عاقبة إحسانك إليهم إضلالهم.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾ وأورِد الهَلاك، أو التّغيير ﴿عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ﴾ حتى لا ينتفِعوا بها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وأقسِها ﴿فَلاَ يُؤْمِنُوا﴾ بشيءٍ من الحقّ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا﴾ ويُعاينوا ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ في الدُّنيا، أو في الآخرة، فلا ينفعُهم الإيمان إذ ذاك.

عن ابن عبّاس: أنّ موسى كان يدعو، وهارون كان يُؤمّن[٤].

عن النبيّ ﷺ: «دعا موسى وأمّن هارون وأمّنتْ الملائكة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ ومَن غزا في سَبيل الله استُجيب له كما استُجيب لكما يومَ القيامة[٥].

وعن ابن عبّاس: بلغنا أنّ الدّراهم والدّنانير صارتْ حِجارة مَنقوشة كهَيئتها[٦].

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ وأثبتا على ما أنتُما عليه من الدّعوة ولا تستعجلا، فإنّ ما طلبتُما كائنٌ ولكن في وقته ﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ﴾ ولا تَسلُكا ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وطَريق الجُهّال في الاستِعجال، وعدم الوُثوق بوَعد الله، أو لا يعلمون أنّ عادة الله تَعليق الأُمور بالحِكَم والمَصالح.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ[٩٠]

ثمّ أخبر سُبحانه بإنجازه وَعده لمُوسى والمؤمنين بالنّصر، وكيفيّة إهلاك فِرعون وقومه بقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وعبّرناهم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ بتَجفيفه وحِفظهم، حتّى خرَجوا منه إلى السّاحل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ ولحِقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ وذهبوا في أثرهم ليرتكبوا ﴿بَغْياً﴾ وظُلماً عليهم، أو إفراطاً في قَتلهم ﴿وَعَدْواً﴾ وتَجاوُزاً في ظُلمهم، أو المعنى: حالَ كونهم باغين في القَول، عادين في الفِعل، وذلك أنّ موسى ﵇ لمّا خرج ببني إسرائيل على حِين غَفلة من فِرعون، سمِع بخُروجهم فِرعون وتبِعهم حتّى وصل إلى ساحل البحر، وبنو إسرائيل خرجوا منه ومَسلكهم باقٍ على حاله يبَساً، فسلكه بجُنوده أجمعين، فلمّا دخلوا في مَسلكهم الذي كان في البحر غشِيهم من اليَمّ ما غشِيهم.

---

١. تفسير القمي ١: ٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤١٥.
٢. تفسير الرازي ١٧: ١٥٠.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٢.
٤. تفسير الرازي ١٧: ١٥٢.
٥. الكافي ٢: ٨/٣٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٥.
٦. تفسير الرازي ١٧: ١٥٢.

عن العيّاشي مرفوعاً: «لمّا صار موسى عليه السلام في البحر أتبعه فِرعون وجُنوده، قال: فتهيّب فَرسُ فِرعون أن يدخُل البحر، فتمثّل له جَبرنيل على رَمَكة[1]، فلمّا رأى فرس فِرعون الرَمَكة أتبعها فدخل في البحر هُو وأصحابه فغرِقوا»[2].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ﴾ ووصل به ﴿الْغَرَقُ﴾ وعاين الموت ﴿قَالَ﴾ إلجاءً واضطِراراً ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ﴾ وأخلصتُ له دِيني كما أخلصوا له دِينهم ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمُنقادين له كما هُم كذلك. وإنّما أظهر تبعيّته لهم في الإيمان رجاءَ أن يكون تَبَعاً لهم في النّجاة.

قيل: كرّر المعنى الواحد بثلاث عِبارات، حيثُ قال أوّلاً: ﴿آمَنْتُ﴾، ثمّ قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ﴾، ثمّ قال: ﴿أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ حِرصاً على القَبول المُفضي إلى النّجاة[3].

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [٩١-٩٢]

ثمّ وبّخه الله سُبحانه على تأخيره الإيمان إلى وقتٍ لا نفعَ له بقوله: ﴿آلْآنَ﴾ وهَل في هذا الوقت الذي لا ينفعُك الإيمانُ فيه تُؤمِن وتتوب ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ ربّك ﴿قَبْلُ﴾ وفي زمانٍ ينفعُك فيه الإيمان والتّوبة ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، المُبالغين في الضّلال والإضلال؟ وفيه غاية التّوبيخ والتّقريع.

عن الصادق عليه السلام: «ما أتى جَبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله إلّاكئيباً حزيناً، ولَم يزل كذلك مُنذ أهلك الله فِرعون، فلمّا أمره الله بنُزول هذه الآية ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ نزل عليه وهو ضاحك مُستبشر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أتيتني يا جَبرئيل إلّا وقد تبيّن الحُزن في وَجهك حتّى السّاعة؟ قال: نعم يا محمّد، لمّا أغرق الله فِرعون قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأخذتُ حَمأة[4] فوضعتُها في فمه، ثمّ قلتُ له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وعملتُ ذلك من غير أمر الله، ثمّ خِفتُ أن تلحَقه الرّحمة من الله ويُعذّبني الله على ما فعلتُ، فلمّا كان الآن وأمرني الله أن أُودّي إليك ما قلته لفِرعون، آمنتُ وعلِمتُ أنّ ذلك كان لله تعالى رِضاً»[5].

أقول: في الرّواية بنظري إشكالات لا مجال لذِكرها، وإنّما يُسهّل الخَطْب أنّها من الآحاد التي لا

---

١. الرّمَكة: أُنثى الفرس تُتّخذ للنّسل.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٥/٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٤١٦.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٣.

٤. الحَمَأ: الطين الأسود المنتن، والقطعة منه: حَمَأةٌ.

٥. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٦.

تُوجب عِلماً ولا عَملاً.

وعن الرضا عليه السلام أنه سُئل: لأيّ عِلّة أغرق الله فِرعون وقد آمن به، وأقرّ بتَوحيده؟ قال: «لأنّه آمن عند رُؤية البأس، والإيمان عند رُؤية البأس غير مَقبول، وذلك حُكم الله تعالى ذكره في السّلف والخَلف». الخبر[١].

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ونُنقذك من البحر ﴿بِبَدَنِكَ﴾ وجُثّتك بعد مَوتك، ونُلقي جِيفتك الخَبيثة على نَجْوة مِن الأرض، ليتيقّن بنو إسرائيل بعد رُؤيتك هالكاً بإنجاز الله وَعده إيّاهم بـهَلاكك، كـما عـن القُمّي: أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل أنّ الله قد أغرق فِرعون فلَم يُصدّقوه، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فلفظ به على الساحل حتّى رأوه ميّتاً[٢].

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ وبقي بعدك من القائلين بألوهيّتك ورُبوبيّتك ﴿آيَةً﴾ ودليـلاً عـلى نِـهاية عَجزك؛ كما قيل: أراد الله أن يُشاهده الخَلق على الذُلّ والمَهانة، بعد ما سمِعوا منه قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ لينزجِروا عن مِثله[٣].

قيل: تَخصيصه من بين المُغرَقين بهذه الحالة العجيبة، آية عظيمة على كَمال قُدرته تعالى، وعلى صِدق مُوسى عليه السلام[٤].

عن الرضا عليه السلام في روايةٍ: «وأمّا فرعون فنبَذه الله وحده وألقاه بـالسّاحل ليـنظَروا إليـه وليـعرِفوه، ليكون لمَن خلفه آية، ولِئلّا يشُكّ أحدٌ في هَلاكه، إنّهم كانوا اتّخذوه ربّاً، فأراهم الله إيّاه جيفةً مُلقاة على السّاحل، ليكون لمَن خلفه عِبرة ومَوعظة»[٥].

وعنه عليه السلام: «أنّه كان من قَرنه إلى قَدمه في الحديد قد لبِسه على بدنه، فلمّا غرِق ألقاه الله تعالى على نَجوة من الأرض [ببدنه]، ليكون لمَن بعده عَلامةً فيرَونه مع ثِقله بالحَديد على مُرتفعٍ من الأرض، وسَبيل الثّقيل أن يرسُب ولا يرتفع»[٦].

وعن ابن عبّاس: كان عليه دِرعٌ من ذهب يُعرَف بها، فأخـرجـه الله [مـن المـاء] مـع ذلك الدِّرع ليُعرف[٧].

ثمّ وبّخ سُبحانه النّاس على إعراضهم عن الآيات بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧/٧٧، تفسير الصافي ٢: ٤١٧.
٢. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٧.
٣. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.
٤. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.
٥. تفسير القمي ١: ٣١٦ وتفسير الصافي ٢: ٤١٨ عن الباقر عليه السلام.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧/٧٨، تفسير الصافي ٢: ٤١٧.
٧. تفسير الرازي ١٧: ١٥٧.

لا يتفكّرون فيها، ولا يعتبرون بها مع وُفورها.

عن الصادق عليه السلام: «كان بين قول الله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، وبين أخذ فِرعون أربعون سنة»[1].

عن الباقر عليه السلام: «أملى الله لفِرعون ما بين الكَلمتين أربعين سنة، ثمّ أخذه الله نَكال الآخرة والأولى، وكان بين أن قال الله لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ وبين أن عرّفهما الله الإجابة أربعون سنة»[2].

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[٩٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ ذِكر غَضبه على فِرعون بالغَرق والإهلاك، بيّن رَحمته على بني إسرائيل بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ وأسكنّا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد إنجائهم من ظُلم فِرعون، وإهلاك أعدائهم ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ ومنزلاً صالحاً مَرضياً، ومَسكناً محموداً؛ وهُو الشّام ومِصر ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ كالمَنّ والسَلوىٰ، والأثمار اللّذيذة ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا﴾ في اُمور دينهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بصِحّة جميعها، والاطّلاع بسبب تِلاوة التّوراة على جَميع الشرائع والأحكام، ووُجوب التّوحيد واتّحاد الكلمة.

عن ابن عبّاس: المُراد ببني اسرائيل بني قُريظة، وبني النَضير، وبني قَيْنُقاع، الّذين كانوا في عصر النبي صلّى الله عليه وآله، أنزلهم الله بين المدينة والشّام مِن أرض يثرب، ورزقهم من الرُّطَب والتّمر الّذي لا يُوجد مِثله في البِلاد، فما اختلفوا في أمر محمّد صلّى الله عليه وآله إلّا من بعد ما علِموا صدقه، فآمن به بعضُهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، وكفر به آخرون. والمُراد بالعِلم: القُرآن العظيم[3].

ثمّ وعد سُبحانه المؤمنين، وأوعد الكافرين منهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَقْضِي﴾ ويحكُم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإثابة المؤمنين، وتَعذيب الكافرين.

فَإِن كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ[٩٤و ٩٥]

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٥/٢٨٤، بحار الأنوار ١٣: ٥٥/١٤٠.

٢. الخصال: ١١/٥٣٩، بحار الأنوار ١٣: ٢٩/١٢٨. ٣. تفسير روح البيان ٤: ٧٩ عن ابن عباس.

ثمّ أنه تعالى بعد بَيان اختِلاف بني إسرائيل في اُمور الدّين، بيّن إعجاز القُرآن بكونه مُوافقاً للكُتُب السّماويّة، مع كَون مَن أتىٰ به اُميّاً؛ بقوله مُخاطباً لرَسوله صلى الله عليه وآله في الظّاهر، ولاُمّته في الواقع: **﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾** من القَصص التي من جُملتها قصّة موسى وفرعون، وإنجاء بني إسرائيل وإسكانهم الأرض المُقدّسة **﴿فَسْأَلِ﴾** عن صِحّتها العُلماء **﴿الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾** السّماوي النّازل **﴿مِن قَبْلِكَ﴾** ومِن قَبل كِتابك؛ كعبد الله بن سلام وتَميم الدّاري وأضرابهما من عُلماء أهل الكِتاب، فإنّ جميع ما نزَل عليك مُحقّق عندهم، ثابتٌ في كُتبهم.

وقيل: إنّ الخِطاب في الظّاهر والواقع للرّسول صلى الله عليه وآله، ولا يستلزم القضيّة الشرطية إمكان تحقّق مُقدّمها، بَل تصِحّ مع امتِناعه وامتِناع جَزائه؛ كقوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾**[1]. فلا دَلالة في الآية على إمكان وجود الشكّ للرّسول.

وقيل: إنّ الخِطاب لكُلّ مَن يسمع، والمعنىٰ: إن كُنتَ أيُّها الإنسان أو السّامع في شكٍّ[2].

وعن الهادي عليه السلام أنّه سأله أخوه موسى عن هذه الآية، حين كتب إليه يحيى بن أكثم يسأله عن مسائل فيها: أخبرني مَن المُخاطب بالآية، فإن كان المُخاطب هو النبي صلى الله عليه وآله فليس قد شكّ[3]، وإن كانَ المخاطب غيره؛ فعلى غيره إذن اُنزل الكِتاب؟ قال موسى: فسألتُ أخي ـ عليّ بن محمّد عليهما السلام ـ عن ذلك، فقال: «المُخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، ولَم يكن في شكٍّ ممّا أنزل الله[4]، ولم يكن يسأل، ولكن ليتّبعهم كما قال تعالى: **﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[5]، وكذلك عَرف النبيّ أنّه صادق فيما يقول، ولكن أحبّ أن يُنصف من نَفسه»[6].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «لا أشُكّ ولا أسأل»[7].

وعن القُمّي رحمه الله: عن الصادق عليه السلام: «لمّا اُسري برَسول الله صلى الله عليه وآله إلى السّماء وأوحى [الله] إليه في عليّ عليه السلام ما اُوحى من شَرفه ومِن عظمته عندَ الله، ورد إلى البيت المَعمور، وجَمَع له النبيّين وصلّوا خلفه، عَرض في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله من عِظَم ما اُوحي إليه في عليّ عليه السلام، فأنزل الله **﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾** يعني: الأنبياء، فقد أنزلنا إليهم في

---

١. الزخرف: ٨١/٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٨٠.

٣. زاد في تفسير العياشي: فيما أنزل الله.

٤. هناك كلام طويل في المصدر أسقطه المؤلف للاختصار، وأبدله بعبارة (ولم يكن يسأل).

٥. آل عمران: ٦١/٣. ٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٧/٢٨٤، علل الشرائع: ١/١٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤١٩.

٧. علل الشرائع: ٢/١٣٠، تفسير الصافي ٢: ٤١٩.

كُتبهم في فضله ما أنزلنا في كِتابك. إلى أن قال: فوالله، ما شكّ وما سأل»[1].

ثمَ أكّد سُبحانه صِدق ما أخبر به بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مَجال للرَّيب فيه ﴿مِن رَبِّكَ﴾ لظُهور حَقّانيّته بالآيات الباهرة والحُجَج القاطعة، فإذا علِمتَ أنّ ما أُنزل إليك مُوافق لِما في سائر الكُتب السماويّة، ولا يُمكن أن يكون ما أخبر به ربُّك مُخالفاً للواقع ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكّين فيه، بَل دُمْ على ما أنت عليه من اليقين كما كنتَ من قبل.

ثمَ أنّه تعالى بعد النَهي عن الشكّ، وبَيان طَريق تَحصيل اليقين للنّاس، أعلن بغاية قُبح التكذيب به بالنّهي عنه مَن لا يُتصوّر في حقّه إمكان صُدوره منه بقوله: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ﴾ البتّة ﴿مِنَ﴾ الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ﴾ مع عِظَم قَدرك، وعُلُوّ مَقامك، وغاية قُربك إلى ربّك ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ في الدُّنيا والآخرة أنفساً وأعمالاً، ومن المُكذّبين عُقوبةً ونَكالاً بذلك التّكذيب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُم كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ [٩٦ و ٩٧]

ثمَ أنّه تعالى بعدَ النّهي عن الشكّ في نُبوّة نبيّه ﷺ، وصِحّة دينه، وصِدق ما أخبر به في كِتابه، والتّنبيه على طَريق إزالة الشكّ لَو فُرض وُجوده، وتَحصيل اليقين، وبَيان غاية قُبح التّكذيب بآيات الله والتّهديد عليه بغاية الخُسران في الدّارين، بيّن شِدّة إصرار جَماعة من الكُفّار معَ ذلك على كُفرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وثبَتَتْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في اللّوح المَحفوظ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحُكمه بأن يبقَوا على الكُفر ويُخلّدوا في العذاب ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بكَ وبكِتابك أبداً ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُم﴾ من قِبَل ربّك ﴿كُلُّ آيَةٍ﴾ ومُعجزة اقترحُوها، بَل يُصرّون على الكُفر ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا﴾ في الدُّنيا، أو بعدَ الموت ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذٍ لا ينفعُهم الإيمان، كما لَم ينفع فِرعون وأضرابه.

فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ [٩٨]

ثمَ لامهم ووبّخهم سُبحانه بقوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القُرى، وأهالي بَلدة من البُلدان ﴿آمَنَتْ﴾ قبل رُؤية العَذاب ﴿فَنَفَعَها إِيمَانُهَا﴾ بأن يَقبَله الله منها، ويكشِف بسَببه العذاب عنها ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ بن مَتّى فإنّهم من بين أهل القُرى مَخصوصون بهذا الإيمان النّافع بعدَ التّكذيب. وقيل:

---

١. تفسير القمي ١: ٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٤١٩.

إن الاستثناء مُنقطع، والمعنى: ولكنّ قوم يُونس. ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ حينَ رأوا أمارات العَذاب، وبادروا إلى التّوبة ﴿كَشَفْنَا﴾ ودفعنا ﴿عَنْهُمْ﴾ بإيمانهم ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال المُوقع لهم في ﴿الْخِزْيِ﴾ والهَوان والفَضيحة ونجّيناهم منه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لكون إيمانهم في وقت الاختيار وبقاء التّكليف ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ مَتاع الدُّنيا بعدَ كشف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وزمانٍ قدّرناه لهم في عِلمنا.

روتْ العامّة: أنّ يونس عليه السلام بُعث إلى نِينَوىٰ من أرض المَوصِل فكذّبوه، فذهب عنهم مُغاضباً، فلمّا فقَدوه خافوا نُزول العذاب، فلبِسوا المُسُوح وعَجّوا أربعين ليلةً، وكان يونس قال لهم: إنّ أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهَلاك آمنّا بك. فلمّا مضتْ خمسٌ وثلاثون ليلة ظهر في السّماء غَيْم أسود شديد السّواد، فظهر منه دُخان شديد، وهبط ذلك الدُّخان حتّى وقع في المدينة وسوّد سُطوحهم، فخَرجوا إلى الصحراء، وفرّقوا بين النِّساء والصِّبيان، وبين الدّواب وأولادها، فحَنّ بعضُها إلى بعض، فعلَتْ الأصوات وكثُرت التضرُّعات، وأظهروا الإيمان والتّوبة، وتضرّعوا إلى الله تعالى، فرحِمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يومَ عاشوراء يومَ الجُمعة[1].

وعن ابن مسعود: بلَغ من تَوبتهم أن ردّوا المَظالم، حتّى إنّ الرجل كان يقلع الحَجر بعد أن وضع عليه بِناء أساسه، فيرُدّه إلى مالكه[2].

عن الفضل بن عبّاس: أنّهم قالوا: إنّ ذنوبنا قد عظُمتْ وجلّتْ، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعَلْ بنا ما أنت أهلُه، ولا تفعل بنا ما نحنُ أهله[3].

وقيل: إنّهم خرجوا إلى شيخ من بقيّة عُلمائهم، فقالوا: قد نزل بنا العذاب فماترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حَيّ حينَ لا حيّ، ويا حيّ يا مُحيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت. فقالوا، فكشَف الله عنهم العذاب[4].

في قصة نزول العذاب على قوم يونس ورفعه بالتوبة

وعن الباقر عليه السلام يقول: «[وجدنا في بعض] كُتُب أمير المؤمنين عليه السلام، قال: حدّثني رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّ جَبرئيل حدّثه أنّ يونس بن مَتّى عليه السلام بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتريه الحِدّة، وكان قليل الصّبر على قومه والمُداراة لهم، عاجزاً عمّا حُمّل مِن ثِقل حِمل أوقار النُّبوّة وأعلامها، وإنّه تفسّخ تحتها كما يتفسّخ الجِذع تحت حِمله، وإنّه أقام فيهم يدعُوهم إلى الإيمان بالله والتّصديق به واتّباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلَم يُؤمن به ولَم يتّبعه من قومه إلّا رجُلان؛ اسم أحدهما رَوبيل، واسم الآخر تنوخا، وكان روبيل من أهل بيت العِلم والنُّبوّة والحِكمة، وكان قديم الصُّحبة ليونس بن مَتّى من قَبل أن يبعثه الله بالنُّبوّة، وكان تنوخا

---

١ ـ ٤. تفسير الرازي ١٧: ١٦٥.

رجلاً مُستضعفاً عابداً زاهداً مُنهمكاً في العِبادة، وليس له عِلمٌ ولا حُكم، وكان روبيل صاحب غَنم يرعاها ويتقوّت منها، وكان تنوخا رجلاً حَطّاباً يحتطب على رأسه ويأكل من كَسبه، وكان لروبيل مَنزلة من يُونس غير مَنزلة تنوخا؛ لعِلم روبيل وحِكمته وقَديم صُحبته.

فلمّا رأى يونس عليه السلام أنّ قومه لا يُجيبونه ولا يؤمنون، ضَجِر وعرف من نفسه قِلّة الصَّبر، فشكا ذلك إلى ربّه، وكان فيما شكا أن قال: يا ربّ إنّك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة، فلبِثتُ فيهم أدعوهم إلى الايمان بك والتّصديق برسالتي، وأُخوّفهم عذابك ونَقِمتك ثلاثاً وثلاثين سنة، فكذّبوني ولَم يُؤمنوا بي، وجَحدوا نُبوّتي واستخفّوا برِسالتي، وقد توعّدوني وخِفتُ أن يقتلوني، فانزِلْ عليهم عذابك فإنّهم قومٌ لا يُؤمنون.

قال: فأوحى الله إلى يونس: إنّ فيهم الحَمل والجَنين، والطّفل والشّيخ الكبير، والمرأة الضعيفة والمُستضعف المَهين، وأنا الحَكَم العَدْل، سبقتْ رَحمتي غضبي، لا أُعذّب الصِّغار بذُنوب الكِبار من قومك، وهُم يا يُونس عبادي وخَلقي، وبَريّتي في بلادي، وفي عَيلتي، أُحبّ أن أتأنّاهم وأرفِقَ بهم وانتظِرُ تَوبتهم، وإنّما بَعثتُك إلى قومك لتكون حفيظاً عليهم، تعطِف عليهم بسِجال[1] الرّحمة الماسّة منهم، وتأنّاهم برأفة النّبوّة، وتصبر عليهم بأحلام الرّسالة، وتكون لهم كهيئة الطيب المُداري العالم بمُداراة الدّاء[2]، فحرّجت[3] بهم ولَم تستعمل قُلوبهم بالرّفق، ولَم تسُسْهم بسِياسة المُرسلين. ثم سألتني عن سوء نظرك العذابَ لهم عند قِلّة الصّبر منك، وعبدي نُوح كان أصبر منك على قومه، وأحسن صُحبةً، وأشدّ تأنّياً في الصّبر عندي، وأبلغ في العُذر، فغضِبتُ له حين غضِب لي، وأجبتُه حينَ دَعاني.

فقال يونس: يا رَبّ، إنّما غضِبتُ عليهم فيك، وإنّما دعوتُ عليهم حينَ عصَوك، فوَعِزّتك لا أتعطّف عليهم برأفةٍ أبداً، ولا أنظُر إليهم بنَصيحةِ شَفيقٍ بعد كُفرهم وتَكذيبهم إيّاي وجَحْدهم نُبوّتي، فأنزِلْ عليهم عَذابك، فإنّهم لا يُؤمنون أبداً.

فقال الله تعالى: يا يُونس، إنّهم مائة ألف أو يزيدون من خَلقي، يعمُرون بلادي ويلِدون عِبادي، ومحبّتي أن أتأنّاهم للذي سبق [من] عِلمي فيهم وفيك، وتَقديري وتَدبيري غير عِلمك وتَقديرك، وأنت المُرسَل وأنا الرّبّ الحَكيم، وعِلمي فيهم يا يونس باطنٌ في الغيب عندي لا يُعلم ما مُنتهاه،

---

١. السِّجال: جمع سَجل، وهي الدلو العظيمة المملوءة، والمراد هنا: المقدار العظيم من الرحمة.

٢. في تفسير العياشي: المداوي العالم بمداواة الدواء.

٣. في تفسير العياشي: فخرقت، ومعنى حرّج به: ضيّق عليه، وخرق به: لم يرفق به، ولم يحسن معاملته.

وعِلمُك فيهم ظاهرٌ لا باطن له.

يا يونس، قد أجبتُك إلى ما سألتَ من إنزال العذاب عليهم، وما ذلك يا يونس بأوفر لحظِّك عندي، ولا أحمد[1] لشأنك، وسيأتيهم عذابٌ في شوّال يومَ الأربعاء وسَط الشهر بعدَ طُلوع الشمس، فأعلِمْهم ذلك. فسَرَّ [ذلك] يُونس ولَم يَسُؤْه، ولم يدْرِ ما عاقبتُه.

فانْطلق يُونس عليه السلام إلى تنوخا العابد فأخبره بما أُوحي إليه من نُزول العذاب على قومه في ذلك اليوم، وقال له: انطلق حتّى أُعلِمَهم بما أوحى الله إليّ من نُزول العذاب، فقال تنوخا: فدَعْهم في غَمْرتهم ومَعصيتهم حتى يُعذّبهم [الله]. فقال له يُونس: [بل] نلقى روبيل فنُشاوره، فإنّه رَجُلٌ عالِم حكيم من أهل بيت النُبوّة، فانطلقا إلى روبيل، فأخبره يونس بما أوحى الله إليه من نُزول العذاب على قومه في شوّال يومَ الأربعاء في وسط الشهر بعدَ طُلوع الشّمس، فقال له: ماترى، انطلق بِنا حتّى أُعلِمهم ذلك؟

فقال له روبيل: ارجِع إلى ربّك رَجعة نبيٍّ حكيم، ورسول كريم، واسأله أن يصرِف عنهم العذاب، فإنّه غنيٌّ عن عذابهم، وهُو يُحبّ الرِّفق بعِباده، وما ذلك بأضرّ لك عنده، ولا أسوأ لمَنزلتك لديه، ولعلّ قومك بعد ما سمِعتَ ورأيتَ من كُفرهم وجُحودهم يُؤمنون يوماً، فصابِرهم وتأنّاهم.

فقال له تنوخا: وَيحك يا روبيل، ما أشرتَ على يُونس وأمرته [به] بعد كُفرهم بالله، وجَحْدهم لنبيّه، وتَكذيبهم إيّاه، وإخراجهم إيّاه من مَساكنه، وما همّوا به من رَجْمه.

فقال روبيل لتنوخا: اسكُتْ، فإنّك رجلٌ عابد لا عِلم لك.

ثمّ أقبل إلى يونس عليه السلام فقال: أرايتَ يا يونس إذا أنزل الله العذاب على قومك، أفيُهلكهم جميعاً أو يُهلك بعضاً ويُبقي بعضاً؟ فقال له يونس: بَل يُهلكهم جميعاً؛ وكذلك سألتُه، ما دخلتْني لهم رَحمة تعطُّف، أُراجع الله فيهم وأسأله أن يصرِف عنهم. فقال له روبيل: أتدري يا يونس، لعلّ الله [إذا] أنزل عليهم العذاب فأحسّوا به، أن يتُوبوا إليه ويستغفروا، فيرحمهم الله فإنّه أرحم الرّاحمين، ويكشِف عنهم العذاب من بعد ما أخبرتَهم عن الله تعالى أنّه يُنزل عليهم العذاب يومَ الأربعاء، فتكون بذلك عندهم كذّاباً.

فقال له تنوخا: وَيحك يا روبيل، لقد قُلت عظيماً، يخبرك النبيّ المُرسَل أنّ الله أوحى إليه أنّ العذاب ينزِل عليهم، فتردّ قولَ الله، وتشُكّ فيه وفي قول رسوله، اذهبْ فقد حبِط عملُك.

فقال روبيل لتنوخا: لقد فَسَد رأيُك.

---

١. في تفسير العياشي: أجمل.

ثمّ أقبل إلى يونس عليه السلام فقال: أنزل الوحيِ والأمر مِن الله فيهم على ما أُنزل عليك فيهم من إنزال العَذاب عليهم؟ وقولُه الحقّ، أرايتَ إذا كان ذلك فهلك قومُك كُلّهم، وخرِبت قريتُهم، أليس يمحو الله اسمَك من النّبوّة وتبطُل رِسالتك، وتكون كبعض ضُعفاء النّاس، ويهلِك على يديك مائة ألف[1] من النّاس؟

فأبى يونس عليه السلام أن يقبَل وصيّته، فانطلق ومعه تنوخا إلى قومه، فأخبرهم أنّ الله أوحى إليه أنّه مُنزل العَذاب عليهم يومَ الأربعاء في شوّال في وسط الشهر بعدَ طُلوع الشّمس، فردّوا عليه قوله [وكذّبوه] وأخرجوه من قريتهم إخراجاً عنيفاً.

فخرج يونس عليه السلام ومعه تنوخا من القرية، وتنحّيا عنهم غير بعيد، وأقاما ينتظران العذاب، وأقام روبيل مع قومه في قريتهم، حتّى إذا دخل عليهم شوّال صرخ روبيل بأعلى صوته في رأس الجبل إلى القوم: أنا روبيل الشّفيق عليكم، الرّحيم بكم، قد أنكرتُم عذابَ الله، هذا شوال قد دخل عليكم، وقد أخبركم يُونس نبيّكم ورسول ربّكم أنّ الله أوحى إليه أنّ العذاب ينزِل بكم في شوّال في وسط الشهر يومَ الأربعاء بعدَ طُلوع الشمس، ولَن يُخلف الله وَعده رُسُله، فانظُروا ماذا أنتُم صانعون. فأفزعهم كلامُه فوقع في قُلوبهم تحقيق نُزول العذاب، فأقبلوا نحو روبيل وقالوا له: ماذا أنت مُشير به علينا يا روبيل؟ فإنّك رَجلٌ عالِم حَكيم، لم نزَل نعرِفُك بالرِقّة علينا والرّحمة لنا، وقد بلَغنا ما أشرتَ به على يونس [فينا]، فمُرنا بأمرك وأشِرْ علينا برأيك.

فقال لهم روبيل: إنّي أرى لكم وأُشير عليكم أن تنظُروا وتعمِدوا إذا طلع الفجر يومَ الأبعاء في وسط الشهر، أن تعزِلوا الأطفال عن الأمّهات في أسفل الجَبل في طريق الأودية، وتوقفوا النساء في سفح الجبل، ويكون هذا كُلّه قبل طُلوع الشّمس، [فإذا رأيتم ريحاً صفراء أقبلت من المشرق] فعُجّوا عَجيجاً، الكبير منكم والصغير بالصُّراخ والبُكاء والتضرُّع إلى الله، والتّوبة إليه والاستغفار له، وارفعوا رُؤوسكم إلى السّماء وقولوا: ربّنا ظلَمنا أنفسنا، وكذّبنا نبيّك، وتُبنا إليك من ذُنوبنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنَكونَنّ من الخاسرين المُعذّبين [فأقبَل توبتنا] وارحمنا يا أرحم الرّاحمين. ثمّ لا تمَلّوا من البُكاء والصُّراخ والتضرُّع إلى الله والتّوبة إليه، حتى تُوارى الشّمس بالحِجاب، أو يكشف الله عنكم العذاب قبلَ ذلك. فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم روبيل.

فلمّا كان يوم الأربعاء الذي توقّعوا العذاب، تنحّىٰ روبيل عن القرية حيثُ يسمع صُراخهم ويرى العذاب إذا نزل، فلمّا طلع الفَجر يومَ الأربعاء فعل قومُ يونس ما أمرهم روبيل به، فلمّا بزغتْ الشّمس

---

١. زاد في العياشي: أو يزيدون.

أقبلتْ ريحٌ صفراء مُظلمة مُسرعة لها صَرير وحَفيف [وهدير]، فلمّا رأوها عجّوا جميعاً بالصُّراخ والبُكاء والتضرُّع إلى الله، وتابوا واستغفروا، وصرَختْ الأطفال بأصواتها تطلب أمّهاتها، وعجّت سِخال البَهائم تطلُب الثّدي، وثَغَت[١] الأنعام تطلُب الرَّعي، فلَم يزالوا بذلك، ويونس وتنوخا يسمعان صَيحتهم وصُراخهم، ويدعُوان الله بتَغليظ العذاب عليهم، وروبيل في موضعه يسمع صُراخهم وعجيجهم ويرى ما نزل، وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

فلمّا أن زالتْ الشمس، وفُتحت أبواب السّماء، وسكن غضب الربّ تعالى، رحِمهم الرّحمٰن، واستجاب دُعاءهم وقَبِل تَوبتهم، وأقالهم عَثرتهم. وأوحى إلى إسرافيل أن اهبِط إلى قوم يُونس فإنّهم عجّوا إليّ بالبُكاء والتضرُّع، وتابوا إليّ واستغفروني، فرحِمتهم وتُبتُ عليهم، وأنا الله التّواب الرّحيم، أُسرِعُ إلى قَبول توبة عبدي التائب من الذّنب، وقد كان عبدي يُونس ورسولي سألني نُزول العذاب على قومه وقد أنزلته عليهم، وأنا الله أحقّ مَن وفى بعهده، ولَم يكُن اشترط يونس عليه السلام حين سألني أن اُنزل عليهم العذاب أن اُهلكهم. فاهبِطْ إليهم واصرِف عنهم ما نزل بهم من عذابي.

فقال إسرافيل: يا رَبّ، إنّ عذابك بلغ اكتافهم وكاد أن يُهلكهم، وما أراه إلّا وقد نزل بساحتهم، فإلى أين أصرِفه؟

فقال الله: كلا، إنّي قد أمرتُ ملائكتي أن يصرِفوه ولا يُنزلوه عليهم، حتّى يأتيهم أمري فيهم وعَزيمتي، فاهبِط يا إسرافيل عليهم واصرِفه عنهم، واصرِف به الى الجِبال وناحية مفاض[٢] العُيون ومَجاري السُّيول، في الجِبال العاتية العادية المُستطيلة على الجِبال، فأذِلّها به وليّنها حتّى تصير مُلتئمة حديداً جامداً. فهبط إسرافيل فنشر أجنحته، فاستاق بها ذلك العذاب حتّى ضرب بها تِلك الجِبال التي أوحى الله إليه أن يصرِفه إليها».

قال أبو جعفر عليه السلام: «وهي الجِبال التي بناحية المَوصِل اليوم، فصارتْ حديداً إلى يوم القيامة.

فلمّا رأى قومُ يونس أن العذاب قد صُرف عنهم، هبَطوا إلى منازلهم من رُؤس الجِبال، وضمّوا إليهم نِساءهم وأولادهم وأموالهم، وحمِدوا الله على ما صرف عنهم. وأصبح يونس وتنوخا يوم الخميس في موضعهما الذي كانا فيه، لا يشُكّان أنّ العذاب قد نزل بهم وأهلكهم جميعاً لمّا خفِيتْ أصواتُهم عنهما، فأقبلا ناحية القرية يومَ الخميس معَ طُلوع الشّمس ينظُران إلى ما صار إليه القوم، فلمّا دنَوا من القوم واستقبلتْهم الحطّابون والحمّارة[٣] والرُّعاة بأغنامهم، ونظروا إلى أهل القرية

---

١. أي صاحت.
٢. في تفسير العياشي: الجبال بناحية مفائض.
٣. الحمّارة: أصحاب الحمير.

مُطمئنّين، قال يونس لتنوخا: كذّبني الوَحي، وكذِب وَعدي لقومي، لا وعِزّة ربّي لا يَرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذّبني الوحي.

فانطلق يونس عليه السلام هارباً على وجهه مُغاضباً لربّه ناحية بحر إيلة، متنكّراً فِراراً مِن أن يراه أحدٌ من قومه فيقول له: يا كذّاب، فلذلك قال الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ...﴾ [1] الآية، ورجع تنوخا إلى إلى القرية فلقي روبيل، فقال له: يا تنوخا، أيّ الرأيين كان أصوب وأحقّ، رأيي أو رأيك؟ فقال تنوخا: بَل رأيك كان أصوب، ولقد كنتَ أشرتَ برأي العُلماء والحكماء.

وقال تنوخا: أما إنّي لم أزل أرى أنّي أفضل منك لزُهدي وفَضل عِبادتي، حتّى استبان فضلُك بفضل عِلمك، وما أعطاك ربُّك من الحِكمة مع التقوى أفضل من الزُّهد والعِبادة بلا عِلم. فاصطحبا فلَم يزالا مُقيمين مع قومهما.

ومضى يونس على وجهه مُغاضباً لربّه، فكان من قِصّته ما أخبر الله به في كتابه: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾» [2].

قال أبو عُبيدة: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: كم كان غاب يونس عن قومه حتى رجَع إليهم بالنُبوّة والرّسالة، فآمنوا به وصدّقوه؟ قال: «أربعة أسابيع؛ سبعاً منها في ذَهابه إلى البحر، وسبعاً في بطن الحوت، وسبعاً تحت الشجرة بالعَراء، وسبعاً منها في رُجوعه إلى قومه».

فقلتُ له: وما هذه الأسابيع، شُهور أو أيام أو ساعات؟ فقال: «يا أبا عُبيدة، إنّ العذاب أتاهم يومَ الأربعاء في النّصف من شوّال، وصُرف عنهم من يومهم ذلك، فانطلق يونس عليه السلام مُغاضباً فمضى يومَ الخميس، سبعة أيامٍ في مسيرة إلى البحر، وسبعة أيام في بطن الحوت، وسبعة أيّام تحت الشجرة بالعَراء، وسبعة أيّام في رُجوعه إلى قومه، فكان ذَهابه ورُجوعه [مسير] ثمانية وعشرين يوماً. ثمّ أتاهم فأمنوا به وصدّقوه واتّبعوه، فلذلك قال الله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾» [3].

أقول: في الرّواية إشكالات غامضة لا تنحلّ إلّا بارتِكاب التأويل في ظواهرها، والتكلُّف في تَوجيهها، بما لا يُنافي عِصمة الأنبياء، وكونهم أعقل اُمّتهم، وأعلمهم، وأطوعهم لأوامر الله، وأسلمهم لمَرضاته.

وعنه عليه السلام: «أنّ يُونس لمّا آذاه قومه دَعا الله عليهم، فأصبحوا أوّل يومٍ ووُجوههم صُفر، وأصبحوا اليوم الثاني ووُجوههم سود. قال: وكان الله واعدهم أن يأتيهم العذاب، فأتاهم حتّى نالوه برِماحهم،

---

١. الأنبياء: ٨٧/٢١.　٢. الصافات: ١٤٨/٣٧.　٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٧٩/٢٨٥، تفسير الصافي ٢: ٤٢١.

ففرّقوا بين النّساء وأولادهنّ، وبين البقر وأولادها، ولبِسوا المُسوح والصُّوف، ووضعوا الحِبال في أعناقهم والرّماد على رُؤوسهم، وضجّوا ضجّةً واحدة إلى ربّهم، وقالوا: آمنّا بإله يونس، فصرف الله عنهم العذاب، وأصبح يونس وهو يظُنّ أنّهم هلكوا، فوجدهم في عافية»[١].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: لأيّ عِلّة صرَف الله العذاب عن قوم يونس؛ وقد أظلّهم، ولَم يفعل كذلك بغيرهم من الأمم؟» قال: «لأنّه كان في عِلم الله أنّه سيصرِفه عنهم لِتوبتهم، وإنّما ترك إخبار يونس عليه السلام بذلك لأنّه عزّ وجلّ أراد أن يُفرّغه لعِبادته في بطن الحُوت، فيستوجب بذلك ثوابه وكَرامته»[٢].

وعنه عليه السلام: «أنّ جَبرئيل عليه السلام استثنى في هَلاك قوم يونس، ولَم يسمَعه يونس عليه السلام»[٣].

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[٩٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ حِكاية عدم نَفع جُهد يُونس في إيمان قومه، وإنّما هُم آمنوا أخيراً بتَوفيق الله، بيّن أنّ إيمان جميع النّاس مَنوطٌ بمشيئته وتَوفيقه، لا بجُهد الرّسل في إيمانهم وإكراههم لهم؛ بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانَ النّاس بالإكراه والاضطِرار ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيثُ لا يشِذّ منهم أحدٌ حال كونهم ﴿جَمِيعاً﴾ ومُتّفقين عليه. ولكن لَم يشأ ذلك لمُنافاته للحِكمة البالغة التي عليها أساس التّكوين والتّشريع، بَل مُقتضى الحِكمة أن يشاءَ لهم ما يشاءون لأنفسهم من الكُفر والإيمان، حَسب اقتِضاء طِينتهم، تَكميلاً لحُكم القَبضتين، وتَحصيلاً لأهل النّشأتين.

فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا محمّد ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على الإيمان الذي لم يشأ الله إكراههم عليه ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا﴾ بإكراهك عليه ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ ليسَ ذلك عليك ولا مقدورك، إنّما عليك البَلاغ والإنذار والنُّصح.

وفيه دَلالةٌ على كَمال حِرصه على إيمان قومه، وتسلية قلبه الشّريف بقطع رَجائه في إيمان جميعهم.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ[١٠٠]

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٨١/٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٤٢٦.

٢. علل الشرائع: ١/٧٧، تفسير الصافي ٢: ٤٢٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٧٤، تفسير الصافي ٢: ٤٢٧.

ثمّ بيّن سُبحانه إناطة الإيمان بمشيئته وتوفيقه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صَحّ ﴿لِنَفْسٍ﴾ من النُّفوس ﴿أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بسَببٍ من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتوفيقه وتَسهيله ولُطفه، لا بالمُعجزات وتقرير الدَّلائل ودَفع الشُّبهات والمُبالغة في الوَعظ والنُّصح، وإن كان لها دخل.

ثمّ بيّن أنّ الكُفر أيضاً يكون بخِذلانه، الناشئ عن قِلّة العقل وكَثرة الجَهل؛ بقوله: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ الله ﴿الرِّجْسَ﴾ والكُفر المُستقذَر لشِدّة قَباحته ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلائل التَوحيد والنُبوّة والمَعاد، ولا يتدبّرون فيها.

عن الرضا عليه السلام أنّه سأله المأمون عن هذه الآية، فقال: «حدّثني أبي، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ المُسلمين قالوا لرَسول الله صلى الله عليه وآله: لَو أكرهتَ يا رسول الله مَن قدَرتْ عليه مِن النّاس على الإسلام لكَثر عددُنا وقوينا على عدُوّنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كنتُ لألقى الله ببِدعة لَم يُحدث إليّ فيها شيئاً، وما أنا من المُتكلّفين. فأنزل الله عليه: يا محمد ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ على سبيل الإلجاء والاضطِرار في الدُّنيا، كما يؤمنون عند المُعاينة ورُؤية البأس في الآخرة، ولَو فعلتُ ذلك بهم لَم يستحقّوا منّي ثواباً ولا مدحاً، ولكنّي أُريد منهم أن يُؤمنوا مُختارين غير مُضطرّين، ليستحقّوا منّي الزُّلفى والكَرامة، ودَوام الخُلود في جنّة الخُلد ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وأمّا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فليس ذلك على سَبيل تَحريم الإيمان عليها، ولكن على معنى أنّها ما كانت لتُؤمن إلّا، بإذن الله وإذنُه أمرُه لها بالإيمان ما كانت مُتكلّفة متعبّدة، وإلجاؤه إيّاها إلى الإيمان عند زَوال التّكليف والتعبُّد عنها». فقال المأمون: فرّجت [عني فرّج الله عنك][1].

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١٠١]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الإشارة إلى أنّ الكُفر إنّما يكون بسَبب عدم التعقُّل والتدبُّر في الآيات، وأنّ الايمان مَوقوفٌ على تعقُّلها والتفكُّر فيها، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله ببَعث النّاس إلى النّظر والتفكُّر في الآيات السّماويّة والأرضيّة بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد للنّاس عُموماً، أو لأهل مكّة ﴿انْظُرُوا﴾ بنَظر التفكُّر والاعتِبار ﴿مَاذَا﴾ من الآيات الدالّة على التّوحيد ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأيّ شيءٍ بديعٍ فيهما من عجائب الصُّنع الدالّة على كَمال قُدرة الله وحِكمته.

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٤٢٧.

عن النبيّ ﷺ: «تفكَروا في الخَلق، ولا تتفكَروا في الخالق»[١].

ثمّ ذمّ الكُفّار الذين لا يتأثّرون بالآيات بقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ﴾ وعجائب المَصنوعات، والبَراهين الساطعات على التوحيد ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ والمَواعظ، أو الرُّسُل المُنذِرون ﴿عَن قَوْمٍ﴾ علِم الله أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وحكم عليهم بأنّهم أهل النّار لخُبث طينتهم، وغاية شَقاوتهم، وشِدّة قَساوتهم.

عن الصادق عليه السلام: «﴿ٱلْآيَاتُ﴾ الأئمة عليهم السلام، و ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ الأنبياء عليهم السلام»[٢].

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ[١٠٢]

ثمّ ذمّهم سُبحانه وهدّدهم على عدم الإيمان بقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ هؤلاء المُصرّون على الكُفر في إيمانهم شيئاً ﴿إِلَّا﴾ يوماً ﴿مِثْلَ أَيَّامِ﴾ المُشركين المُعارضين للرّسُل من الأُمَم ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضَوا من الدُّنيا بعَذاب الاستئصال، وواقعة عظيمة من الوقائع العِظام التي كانت للمُكذّبين الذين كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السّابقة على عَصرهم ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، تهديداً لهم: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ ما هو عاقبة أمركم من الابتِلاء بالعَذاب أيضاً ﴿إِنِّي مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك لأنّكم لا تستحقّون غيره. وقيل يعني: انتظروا لهلاكي، وإنّي [معكم] من المُنتظرين لهَلاككم[٣].

عن الرضا عليه السلام: «انتِظار الفَرج من الفَرَج، إنّ الله يقول: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾»[٤].

ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٠٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان إنزال العذاب على الأُمَم السّابقة، بيّن لُطفه بالرُّسُل والمؤمنين بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ والمُراد: أنّا كُنّا نُنزل العذاب على أُمَمٍ، ثمّ نُنجّي رُسُلنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بهم من ذلك العذاب حينَ نُزوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإنجاء الذي كان لهم في الأعصار السّابقة حقّ ﴿حَقّاً﴾ وثبُت ثُبوتاً ﴿عَلَيْنَا﴾ بمُقتضى الحِكمة والعَدل ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الرُّسُل وأتباعهم في كُلّ عَصر، من الشّدائد والبَلايا. وإنّما أدخل الرُّسُل في المؤمنين للإشعار بأنّ مَلاك النّجاة هُو الإيمان.

عن الصادق عليه السلام: «ما يمنعُكم [من] أن تشهدوا على مَن مات منكم على هذا الأمر أنّه من أهل

---

١. تفسير الرازي ١٧: ١٦٩.

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٠، الكافي ١: ١/١٦١، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٨٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٨٥/٢٩٧، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.

الجنّة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[١].

قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّالِمِينَ [١٠٤-١٠٦]

ثمّ أنه تعالى بعد أمر الرّسول ﷺ بالدّعوة إلى التّوحيد، وأمر النّاس بالنّظر في الآيات الدالّة عليه، أمر رسوله ﷺ بإعلام النّاس بدينه وهُو التّوحيد والبَراءة من الشِّرك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ ما، وتَرديدٍ ﴿مِنْ دِينِي﴾ الذي اخترتُه لنفسي، ولا تتيقّنوا به ﴿فَلاَ أَعْبُدُ﴾ أبداً الآلهة ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ لعِلمي بعَدم قابليّة شيء منها للعِبادة ﴿وَلٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللهَ ٱلَّذِي﴾ بقُدرته ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وبإرادته يُميتكم.

وقيل: يعني أعبُد الذي وَعدني بأن يتوفّاكم ويُهلككم ويُبقيني، فإنّه الذي يجب أن يُخاف منه، دون ما هو بمَعزل عن القُدرة على التصرّف في مَوجود من المَوجودات كأصنامكم. وإنّما قدّم ترك عِبادة الغير في الذِّكر على تَخصيص عِبادته بالله، لتقدُّم التّخلية، وللإيذان في أوّل الأمر بالمُخالفة[٢].

وقيل: إنّ المُراد: إن كنتُم في شكٍّ من صِحّة ديني، فاعلَموا أنّ ديني الإخلاص في العِبادة لمَن بيده ناصية كُلّ شيء، ورَفض عِبادة غيره مِمّا لا يضُرّ ولا ينفَع، فانظُروا بعُقولكم أيّهما أولى بالعِبادة، فإن تفكّرتُم علِمتُم أن لا مَجال للشكّ في صِحّة ديني فضلاً عن القطع بعدمه، أو إن كنتُم في الشكّ من ثَباتي على ديني، فإنّي لا أترُكه أبداً[٣].

﴿وَأُمِرْتُ﴾ من قِبَل خالقي وعَقلي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله، المُوحّدين له ﴿وَ﴾ قيل لي: ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ووَجه عَقلك وقَلبك وشَراشر وُجودك ﴿لِلدِّينِ﴾ القَيّم، وأقبِل بكُلّك إليه، حالَ كونك ﴿حَنِيفاً﴾ ومُعرضاً عن غيره من الأديان الباطلة ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ﴾ البتّة في آنٍ من عُمرك ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اعتقاداً وعَملاً ﴿وَلاَ تَدْعُ﴾ ولا تعبُد بوَجهٍ من الوُجوه ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه ﴿مَا لاَ يَنفَعُكَ﴾ بإيصال مَحبوبٍ إليك، أو دَفع مَكروه عنك إن دَعوتَه ﴿وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ بشيءٍ أبداً إن تركتَه، لعدم قُدرته على شيء، وعدم شُعوره بشيء ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ما نُهيت عنه من عِبادة غير الله ﴿فَإِنَّكَ

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٨٦/٢٩٧، مجمع البيان ٥: ٢٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٢٨.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٩.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٧٩، تفسير البيضاوي ١: ٤٤٨.

إِذاً﴾ لسُوء اختيارك ﴿مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على الله بتَضييع حُقوقه وكُفران نِعَمه، وعلى نفسك بتَعريضها للهَلاك والعذاب الدائم.

القُمّي: مُخاطبة للنبيّ ﷺ، والمَعنيّ النّاس[١].

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ[١٠٧]

ثمّ أنه تعالى بعدَ بَيان عَجز غيره عن الضُرّ والنَفع، بيّن أنّ جميع المَنافع والمَضارّ بيده تعالى وَحده بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ ويُصِبْك ﴿بِضُرٍّ﴾ ومَكروهٍ ﴿فَلاَكَاشِفَ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من الخَيرات الدُنيويّة والأُخرويّة ﴿فَلاَ رَادَّ﴾ ولا مانع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ وإحسانه وإنعامه، لعَجز الغير عن مُعارضته.

قيل: إنّما ذكر الإرادة مع الخير والمَسّ مع الضُرّ، للإيذان بأنّ الخير مَطلوبه تعالى أوّلاً وبالذّات، والضُرّ ثانياً[٢] وبالعرض، أو للإشعار بأنّ الضُرّ كُلّه وُجودي، وأمّا الخير فقد يكون عدمياً.

لمّا نبّه سُبحانه على أنّ الخير إنّما هُو بفَضله لا بالاستِحقاق، قرّر ذلك بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أن يتفضّل عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ مؤمناً كان أو كافراً، فتعرّضوا له بالمسألة والطّاعة، ولا تيأسوا منه بسَبب العِصيان، إذ هُو المُفضل المُحسن ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[١٠٨]

ثمّ بالغ سُبحانه في السُّورة المُباركة في إثبات التّوحيد والنُبوّة والمَعاد بذِكر الدّلائل المُتقنة، والبَراهين المُحكمة عليها، المُوجبة لاهتِداء جميع العُقلاء به، ختَمها بأمر نبيّه ﷺ بالدعوة إلى الإيمان بالقُرآن، والاهتِداء به، وإعلام النّاس بإتمام الحُجّة به عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لقومك: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قد تمّت عليكم الحُجّة، وانقطعتْ عنكم المَعذرة، حيثُ إنه ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾ القُرآن العظيم الذي هُو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المُشتمل على جميع ما تحتاجون إليه من المَعارف والأحكام، والبيّنات والهُدى ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحقّ بالإيمان به، والعَمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ إلى المَنافع الدُنيويّة والأُخرويّة التي تكون ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لا تتعدّى إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾

---

١. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٢: ٤٢٩.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٨٧.

وانحَرف عن طريق الحقّ بالكُفر به والإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ عن سَبيل كُلّ خير، ووَباله ﴿عَلَيْهَا﴾ وضَرَر راجع إليها، فلا نفعَ لله ولي في إيمانكم، ولا ضَرر عليه وعليّ بكُفركم ﴿وَمَا أَنَا﴾ من قِبَل ربّي ﴿عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وحَفيظ حتّى أجبُركم على الإيمان، وأقهَركم على قَبول الحقّ والعَمل به، بل إنّما تكون وَظيفتي التّبليغ والإنذار والتّبشير، وقد عمِلتُ بها.

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ[١٠٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ أمر نبيّه ﷺ بدَعوة النّاس إلى الإيمان بالقُرآن والعمل به، وإتمام الحُجّة عليهم، أمره تعالى بأن يتّبعه بنفسه الشّريفة، وإن لَم يُؤمن ولَم يعمل به أحدٌ، والصّبر على أذى قومه بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ يا محمّد ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من الآيات القُرآنية، والتزم بالإيمان والعمل بها، وإن أعرض عنها جميع النّاس ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على كُلّ ما أصابك من المَكاره والأذى لاتّباعك وَحي ربّك، ودُمْ على ذلك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ فيهم بما يستحقّون من العَذاب والهَلاك، ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل القاضين، وأصوبهم في الحُكم، لا يجُور ولا يخطأ.

رُوي عن النبيّ ﷺ: «مَن قرأ سورة يُونس أُعطي له من الأجر عشر حسنات بعدد مَن صدّق بيُونس وكذّب به، وبعدَد مَن غرِق مع فِرعون»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قرأ سورة يونس في كُلّ شَهرين أو ثلاثة لَم يُخَف [عليه] أن يكون من الجاهلين، وكان يومَ القيامة من المُقرّبين»[٢]. إن شاءالله.

والحمدُ لله رَبّ العالَمين على إتمام تفسيرها، وأسأله التّوفيق لإتمام ما يتلوها.

---

١. مجمع البيان ٥: ١٣١.

٢. ثواب الأعمال: ١٠٦، مجمع البيان ٥: ١٣١، تفسير الصافي ٢: ٤٢٩.

في تفسير سورة هُود

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[١]

ثمّ لمّا خُتمت سورة يونس؛ وكانت سورة هود أنسب السُّور بها، لاشتراكهما في التّصدير بالحُروف المُقطّعة، وبَيان كون الآيات مُحكمة، وفي الدّعوة إلى التّوحيد، ودَفع شُبهات المُشركين فيه وفي النّبوّة والمَعاد، والتحدّي بسُور القُرآن وتَهديدهم بالعذاب، وفي بَيان هَلاك الأُمَم الماضية به، وفي مُحاجّة الأنبياء وكَمال توكُّلهم وصَبرهم، إلى غير ذلك من المَطالب العالية، أردفها بسورة هود فافتتحها بذِكر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثمّ بذِكر الحُروف المُقطّعة بقوله: ﴿الَر﴾ وقد مرّ تفسيرُها[١].

ثمّ شرع في إثبات النّبوّة بإثبات عَظمة القُرآن بقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ والتّقدير: هذا القُرآن العظيم كِتابٌ رفيع الشّأن، الذي ﴿أُحْكِمَتْ﴾ ونُظِمت ﴿آيَاتُهُ﴾ نَظماً رصيفاً مُحكماً، بمعنى أنّه لا يعتريه النّقص والخَلَل، أو لا يطرأ عليه النّسخ[٢] بكِتاب بعده، أو بمعنى كثير الحِكمة، أو مؤيّده بالحُجَج القاطعة الدالّة على صِدقه ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بفُصول من المَعارف والأحكام، والقَصَص والمَواعظ، ومُهمّات المَعاش والمَعاد.

وقيل: فُصّلتْ يعني فُرّقت في التّنزيل مُنجّمة بحَسب المَصالح[٣]، أو فَرّقتْ بين الحقّ والباطل[٤]. وقيل يعني: زُيّنتْ بإعجاز البَيان، وكَثرة الفوائد؛ كما تُزين القلائد بالفَرائد[٥].

ونُزّلتْ ﴿مِن لَدُنْ﴾ إلهٍ ﴿حَكِيمٍ﴾ لا نِهاية لحِكمته ﴿خَبِيرٍ﴾ بخَفيّات الأمور. وأمّا وَصف ذاته المقدّسة بالوَصفين، تنبيهاً على كَون كِتابه حاوياً للحِكَم التي لا تُحصى، والعُلوم التي لا تنتهي.

---

١. مرّ تفسيرها في الطرفة (١٨) من مقدمة التفسير.
٢. في النسخة: لا يطرأه النسخ.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٨٢.
٤. تفسير الرازي ١٧: ١٧٩.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٩٠.

أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنَّنِى لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[٢ـ٤]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ إنزال هذا الكِتاب الذي هُو أفضل الكُتب السّماويّة لأجل ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ أيُّها النّاس شيئاً ﴿إِلَّا ٱللهَ﴾ ولا تَخْضَعوا إلّا له. قيل: إنّ كلمة (أن) مُفسِّرة لمعنى القول[1] المُشرب في «فُصّلتْ»، والتّقدير: إنّ القول المُفصّل فيه أن لا تعبُدوا، أو للأمر، والمعنى: لتأمر النّاس يا محمّد أن لا يعبُدوا إلّا الله، وتقول لهم: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِنْهُ﴾ تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُخوّف من عذابه على ترك عِبادته، والتوجُّه إلى عِبادة غيره ﴿وَ﴾ لكم ﴿بَشِيرٌ﴾ بثَوابه على عِبادته. وإنّما قدّم الإنذار لكَونه أدخل في الرّدع من التّبشير.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ واطلُبوا منه سَتر ذُنوبكم بالتّوبة ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ من ذُنوبكم ﴿إِلَيْهِ﴾ عن صِدق وخُلوص. وقيل يعني: استغفِروا من الشِّرك، ثمّ ارجِعوا إليه بالطّاعة، أو توبوا إليه من المعاصي[2]. إذَن ﴿يُمَتِّعْكُم مَتاعاً حَسَناً﴾ ويُعيشكم عيشاً رغيداً مرضِيّاً، لا يفوتكم فيه شيءٌ من مُشتهياتكم، ولا ينقُصه شيء من الكُدورات ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ وعُمركم المَقدور، ومَوتكم الطّبيعي ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ﴾ تائب ﴿ذِي فَضْلٍ﴾ ومَزيّة في الأعمال والأخلاق، والكَمالات العِلميّة ﴿فَضْلَهُ﴾ ومَزيّته في الجَزاء في الدّارين ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وتُعرضوا عمّا أدعوكم إليه من التّوحيد والاستِغفار والتّوبة، وتُصرّوا على ما أنتُم عليه من الشّرك والعِصيان ﴿فَإِنِّي﴾ بمُقتضى شَفَقتي ورَحمتي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وأتوقّع في حقّكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شأنه، عظيمٍ أهواله وشَدائده، وهُو يومُ القِيامة.

والقُمّي: يعني: الدُّخان والصّيحة[3].

ثمّ قرّر سُبحانه كِبَر اليوم بقوله: ﴿إِلَى ٱللهِ﴾ وَحده بعدَ الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومآبكم في ذلك اليوم؛ فيُعاقبكم على أعمالكم ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه تَعذيبكم بعدَ الإماتة والبَعث.

أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[٥]

---

١. تفسير الرازي ١٧: ١٨٠.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٨٤.
٣. تفسير القمي ١: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣١.

ثمّ لمّا كان مَجال للسؤال عمّا قابلوا النبيّ صلّى الله عليه وآله من القَبول والإعراض، أجاب سُبحانه بقوله: ﴿أَلَآ﴾ يا أهل العَقل تعجّبوا من فِعلهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد ما سمِعوا المَقال الذي ينبغي أن تخُرّ منه صُمّ الجِبال ﴿يَثْنُونَ﴾ ويعطِفون ﴿صُدُورَهُمْ﴾ على ما فيها من الكُفر وعَداوة النبيّ صلّى الله عليه وآله عَطف الثّياب على ما فيها من الأشياء المَستورة ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ من الرّسول، أو من الله ويستتروا ﴿مِنْهُ﴾ لِئلّا يطّلع على ما هُم عليه.

عن الباقر عليه السلام: «أخبرني جابر بن عبدالله أن المُشركين كانوا إذا مرُّوا برَسول الله صلّى الله عليه وآله حول البيت، طأطأ أحدُهم ظَهره ورأسه ـ هكذا ـ وغطّىٰ رأسه بثَوبه حتّى لا يَراه رسول الله. فأنزل الله هذه الآية»[١].

ورُوي أنّ طائفة من المُشركين قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا، وأرسلنا سُتورنا، واستغشَينا ثيابنا، وثنَينا صُدورنا على عَداوة محمّد، فكيف يعلم بنا؟[٢]

وعن ابن عبّاس: أنّها نزلتْ في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حُلو المَنطق، حسَن السّياق للحديث، يُظهر المَحبّة لرَسول الله، ويُضمر في قلبه ما يُضادّها[٣].

وعن ابن شداد: أنّها نزلتْ في بعض المُنافقين، كان إذا مرّ برسول الله صلّى الله عليه وآله ثنى صَدره وظَهره، وطأطأ رأسه، وغطّى وَجهه، كيلا يراه النبيّ صلّى الله عليه وآله، قيل: إنّما صنع ذلك لأنّه لَو رآه النبيّ صلّى الله عليه وآله لَم يمكنه التخلُّف عن حُضور مَجلسه، والمُصاحبة معه، ورُبّما يُؤدّي ذلك إلى ظُهور ما في قلبه من الكُفر والنّفاق[٤].

ثمّ هدّدهم الله بقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ويُغطّونها عليهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في صُدورهم من الكُفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ويُظهرون بأفواههم من الطّعن على النبيّ صلّى الله عليه وآله وكِتابه؛ فيُعاقبهم عليه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بذاته ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وضمائر القُلوب من الأسرار والنيّات التي لا يطّلع عليها أحدٌ، فكيف يخفى عليه ضمائرهم؟

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما نبّه على عِلمه بالضمائر والظّواهر، أكّده ببَيان تكفُّله لأرزاق الحَيوانات، المُتوقّف على عِلمه بأحوالها بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ﴾ وحَيوان مُتحرّك ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من ظَهرها

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٨٨/٢٩٩، الكافي ٨: ١١٥/١٤٤، تفسير الصافي ٢: ٤٣١. ٢. تفسير الرازي ١٧: ١٨٥.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٤: ٩٤.

وتُخومها، ذكراً أو أنثىٰ، صغيراً أو كبيراً، وحشيّاً أو أهليّاً، بَرّياً أو بحريّاً، طائراً أو غير طائر ﴿إِلاَّ عَلَى ٱللهِ﴾ الخالق لها ﴿رِزْقُهَا﴾ وما تعيش به[١] من الغَذاء والشَّراب وغيرهما، مُدّة حَياتها، تفضُّلاً وإحساناً ﴿وَيَعْلَمُ﴾ قبلَ وُجوها وبعدَه ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ ومَسكنها في الأرض ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ومَحلّاً تكون مُودعةً[٢] فيه من أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات، وما يجري مَجراها من البَيضة ونَحوها.

وقيل: المُستقرّ: مَحلّ التعيُّش، والمُستودع: مَحلّ الموت[٣]. وقيل: إنّ الأوّل أصلاب الآباء، والثّاني أرحام الأمّهات[٤].

ثمّ بالغ سُبحانه في عِلمه بقوله: ﴿كُلٌّ﴾ من الدَوابّ وأرزاقها ومُستقرّها ومُستودَعها مَكتوبٌ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واللَّوح المَحفوظ الذي تظهر فيه جميعُ المُقدّرات لمَن ينظُر إليه من الملائكة، والنُّفوس المُقدّسة.

في (نهج البلاغة): «قسّم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعدَد أنفاسهم، وخِيانة أعينهم وما تُخفي صُدورهم من الضّمير، ومُستقرّهم ومُستودَعهم من الأرحام والظُّهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات»[٥].

رُوي أنّ موسى عليه السلام عند نُزول الوَحي إليه، تعلّق قلبه بأحوال أهله، فأمره الله تعالى أن يضرِب بعَصاه على صخرة، فانشقّتْ وخرجتْ صَخرة ثانية، ثم ضرب بعصاه عليها فانشقّتْ وخرجتْ صَخرة ثالثة، ثمّ ضربها بعصاه فانشقّتْ وخرجتْ منها دودة كالذرّة، وفي فمها شيء يجري مَجرى الغِذاء لها، ورُفع الحِجاب عن سَمْع موسى فسمِع الدُّودة تقول: سُبحان من يَراني، ويسمع كلامي، ويعرِف مكاني، ويذكُرني ولا يَنساني[٦].

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [٧]

ثمّ أشار سُبحانه إلى عِلّة إحاطة عِلمه بجَميع المَوجودات؛ وهي قَيموميّته عليها بقوله ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي﴾ بقُدرته ﴿خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قد مرّ تفسيرُه[٧].

---

١. في النسخة: وما يعيش بها.
٢. في النسخة: يكون مودعاً.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٤: ٩٦.
٥. نهج البلاغة: ١٢٣ الخطبة ٩٠.
٦. تفسير الرازي ١٧: ١٨٦.
٧. تقدّم في الآية (٥٤) من سورة الأعراف، والآية (٣) من سورة يونس.

ثمّ بالغ سُبحانه في إظهار قُدرته بقوله: ﴿وَكَانَ﴾ قبلَ خَلقها ﴿عَرْشُهُ﴾ وسَريرُ سَلطنته؛ مع كونه أعظم الأشياء، مُستقرّاً ﴿عَلَى ٱلْمَاءِ﴾ الذي لا يستقرّ عليه الثّقيل، وهو تعالى بقُدرته التي لا حَدّ لها أمسكه عليه بغير عَمَد.

رُوي عن النبيّ ﷺ: «كان الله ولَم يكن معه شيءٌ، وكان[1] عرشه على الماء»[2].

أقول: في اقتِران القضيّتين دَلالةٌ على أنّ المُراد بالعَرش والماء غير مَعناهما الظّاهر، وإلّا لنافتْ القضية الأولى.

وعن كعب الأحبار: خلق الله تعالى ياقوتة خَضراء، فنظر إليها بالهَيبة، فصارت ماءً يرتعد من مَخافة الله، ثمّ خلق الرّيح فجَعل الماء على مَتنها، ثمّ وضع العرش على الماء[3].

القُمّي رحمه الله: كان [ذلك] في مَبدأ الخلق[4]. [وكان عرشه على الماء و] الماء على الهواء، والهواء لا يُحَدّ، ولَم يكُن يومئذٍ خلقٌ غيرهما، والماء عذب فُرات[5].

أقول: يُمكن أن يكون المراد من العَرش: الوُجود المُنبسط الذي يُعبّر عنه بنَفس الرّحمٰن، ومن الماء: عِلمُه تعالى بعَلاقة كَونهما سَبب حَياة كُلّ شيء.

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ ابتدَع الأشياء كُلّها بعِلمه على غير مِثال كان قَبله، فابتدَع السّماوات والأرضين؛ ولَم يكُن قبلَهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ﴾؟»[6].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ﴾، فقال: «ما يقولون [في ذلك]؟» قيل: يقولون إنّ العَرش كان على الماء، والربّ فوقه. فقال: «كَذَبوا، مَن زعَم هذا فقد صيّر الله مَحمولاً ووصفه بصفة المَخلوقين، ولزِمه أنّ الشيء الذي يحمِله أقوى منه». ثمّ قال: «إنّ الله حمّل دِينه وعِلمه الماءَ، قبل أن تكون سماء أو أرض، أو جِنّ أو إنس، أو شَمس أو قَمر»[7].

أقول: يُحتمل أن يكون علمه مُبتدأً، والماء خبره، والمعنىٰ أنّ العرشَ دِينُه، والماء عِلمُه. ويُمكن أن يكون المُراد من الماء: الأئمّة المَعصومين وأشباحهم، والمعنىٰ: حمّل دِينه وعِلمه النبيّ ﷺ وأوصياءه. والحاصل أنّ هذه الرّوايات من المُتشابهات التي يجب رَدُّ عِلمها إليهم عليهم السلام.

ثمّ بيّن سُبحانه حِكمة الخَلق بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويُعامل معكم مُعاملة المُمتحن لأحوالكم بعدَ

---

١. في تفسير الرازي ثم كان.
٢. تفسير الرازي ١٧: ١٨٨.
٣. تفسير الرازي ١٧: ١٨٧.
٤. تفسير القمي ١: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.
٥. تفسير القمي ٢: ٦٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.
٦. الكافي ١: ٢/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.
٧. الكافي ١: ٧/١٠٣، التوحيد: ١/٣١٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.

خلق هذه الدّار، وإسكانكم فيها، والإنعام عليكم بفنون النِّعَم، وتكليفكم وتعريضكم للثّواب والعِقاب ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

رُوي أنّ المعنى: تَمتاز دَرجات أفرادكم في العِلم والمَعرفة والعَقائد الحقّة، وتبين مَراتب أعمالكم الجَوانحيّة والجَوارحيّة؛ فيُجازيكم حَسب استِحقاقكم.

رُوي عن النبيّ ﷺ، «يعني: أيُّكم أحسن عقلاً، وأورع عن مَحارم الله، وأسرع في طاعة الله»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «ليس يَعني أكثركم عملاً، ولكن: أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خَشية الله والنِّيّة الصادقة»[٢].

ثمّ لمّا كان لازم الابتِلاء بالتّكاليف وُجود عالَم آخر للحِساب والجَزاء، وبّخ المشركين على إنكاره بقوله: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمّد للنّاس: ﴿إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ لجَزاء أعمالكم، مُستدلاً على صِحّة قولك بالقُرآن النّاطق، الذي هُو أعظم مُعجزاتك ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم: ﴿إِنْ هٰذَا﴾ القُرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعبذة ظاهرة، أو ما قولُك هذا إلّا خديعة باطلة مِثل السِّحر الظّاهر.

وقيل: إنّ وَجه تعلُّق الآية بما قبلها، أنّ البَعث لمّا كان خَلقاً جديداً، كأنّه تعالى قال: هو الذي خَلق جميعَ المَوجودات ابتِداءً لهذه الحِكمة، ومع ذلك إن أخبرتَهم بأنّه تعالى يُعيدكم تارةً اُخرى، يقولون ما يقولون، مع أنّ الإعادة أهون من الابتِداء[٣].

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ حِكاية تَكذيبهم الرّسول، حكى استِهزاءهم بوَعده بالعَذاب بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي وَعدتَهم به ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وطائفةٍ من الأيام ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ وقليلة. القُمّي: عن أمير المؤمنين عليه السلام: يعني به الوَقت[٤]. وقيل يعني: إلى انقِراض جَماعة قليلة من المُتوعَّدين بالعذاب[٥] ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاءً بوَعيدك ﴿مَا﴾ ذا ﴿يَحْبِسُهُ﴾ وأيّ مانع يمنعه من النُّزول علينا.

ثمّ ردّهم سُبحانه بقوله: ﴿أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العَذاب المَوعود، وحانَ حينُه ﴿لَيْسَ مَصْرُوفاً﴾ ومَدفوعاً ﴿عَنْهُمْ﴾ البتّة، بَل وقع عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب. وإنّما أخبر بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقُّق وُقوعه، ومُبالغةً في التّهديد.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٠٠، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.
٢. الكافي ٢: ٤/١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٢.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ١٨٨.
٤. تفسير القمي ١: ٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.
٥. تفسير الرازي ١٧: ١٨٩.

عن القُمّي: يعني: إن متّعناهم في هذه الدُّنيا إلى خُروج القائم؛ فنرُدّهم ونُعذّبهم ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي يقولون: ألا يقوم القائم، ألا يخرُج؟ على حَدّ الاستِهزاء[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الأُمّة المَعدودة أصحاب القائم الثّلاثمائة وبضعة عشر»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «هو القائم وأصحابه»[٣].

وعنه عليه السلام: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ يعني عِدّة كعِدة بَدر ﴿لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ قال: العذاب»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «أصحاب القائم الثّلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، هُم والله الأُمّة المَعدودة التي قال الله في كِتابه»، وتلا هذه الآية. الخبر[٥].

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [٩ و ١٠]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الإخبار بتحتُّم العَذاب على المُستهزئين، بيّن شِدّة كُفرهم في حال الشِّدة والرَخاء بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأعطيناه نِعمةً من صِحّة وجِدَة وأمن وغيرها، بحيث يجِدُ أقلّ قليل من لذّتها وطَعم حَلاوتها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾ وسلبناها ﴿مِنْهُ﴾ مع شِدّة تعلّقه بها وحِرصه عليها، بسَبب عِصيانه وشُؤم نفسه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ من تِلك النِّعمة، وشديد القُنوط من رَوحه، ومُنقطع الرَجاء من عَود النّعمة إليه، لاعتِقاده أنّ سَبب النِّعمة اتّفاقي، فإذا انْعدم يبعُد عَودُه، وهُو حينَ وُجوده ﴿كَفُورٌ﴾ لتِلك النِّعمة لا يُؤدّي شُكرها، لعدم اعتِقاده أنّها من الله ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ من الصِّحة والرّاحة والأمن وغيرها ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ ونَقلناه من الشِّدّة إلى الرَخاء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غُروراً بدَوام تِلك النِّعَم: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ﴾ وزال المَصائب والمَضارّ ﴿عَنِّي﴾ فلا تعود إليّ أبداً، إذَن ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ وبَطِر بتِلك النِّعَم، و﴿فَخُورٌ﴾ على النّاس بها، مَشغول عن القيام بشُكرها، لكون الدُّنيا أكبر همّه، والفوز بسَعاداتها أعظم مَطالبه.

وفي التّعبير عن نَيل النِّعَم بالذَوق؛ الذي هُو إدراك الطَّعم، وعن الابتِلاء بالضرّاء بالمَسّ؛ الذي هُو مَبدأ الوُصول، إشعارٌ بأنّ ما يجِده الإنسان في هذا العالَم أُنموذج لما يجِده في الآخرة. وفي إضافة الأوّل إلى ذاته المُقدّسة دُون الثّاني، تنبيهٌ على أنّ الخَيرات بتفضُّله، والشُّرور بسيّئات الأعمال.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣. ٢. تفسير القمي ١: ٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٥/٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٣/٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٤/٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٣.

عن القُمّي ﷺ قال: إذا أغنى الله العبدَ ثمّ افتقر، أصابه الإياس والجَزع والهَلع[١].

إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [١١ و ١٢]

ثمّ بيّن حال المؤمنين الصّابرين بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في البَلايا والشّدائد ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ عند النّعمة والرّاحة شُكراً ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الصّابرون الشّاكرون ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للذُّنوب، ونَجاة من الشّدائد الأُخرويّة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وثَواب عَظيم، والنِّعَم الدّائمة بما صبروا في الدُّنيا على البَلايا، وشكروا للنِّعم.

ثمّ لمّا كان المشركون يُكذّبون القُرآن ويستهزئون به، بحيث كان يَضيق صَدرُ النبيّ ﷺ أن يُبلّغ إليهم ما لا يقبَلونه ويضحَكون منه، هيّجه الله سُبحانه لأداء الرّسالة، وعدَم المُبالاة باستِهزائهم به بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾ للقِيام بوَظيفة الرّسالة، ويُتوقّع منك أن لا تُبلّغ ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من الآيات الدالّة على صِدق نُبوّتك، المُنادية بأنّها من عندِ الله، أو مِمّا يُخالف رأي المشركين كإبطال مَذهبهم، وذَمّ آلهتهم وسبّها، وإلزامهم بتَرك تَقليد آبائهم ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ بتَبليغه قلبُك، وعارضٌ لك ﴿بِهِۦ﴾ من الغَمّ ما لا يسَعه ﴿صَدْرُكَ﴾ مع أنّك أفسح النّاس صَدراً، وأصبرهم في جَنب الله، وكان ذلك لأجل ﴿أَن يَقُولُوا﴾ تكذيباً لك واستِهزاءً بك ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ إليه، وهَلّا أُلقي ﴿عَلَيْهِ﴾ من السّماء ﴿كَنزٌ﴾ ومالٌ وافر يُنفقه في أُموره واستِتْباع النّاس له كالمُلوك، ويُستدلّ به على صِدقه ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ من الملائكة يُصدّقه في دَعوى رِسالته، ويُعينه على عَدُوّه.

قيل: إن القائل عبدُ الله بن أُميّة المخزومي[٢].

وعن ابن عبّاس ﷺ: أنّ رُؤساء مكّة قالوا: يا محمّد، اجعل لنا جِبال مكّة ذهباً إن كُنتَ رسولاً. وقال آخرون: آتِنا بالملائكة حتّى يشهدوا على نُبوّتك، فقال: لا أقدِر على ذلك. فنزلتْ[٣]، فردّهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ومأمور من قِبَل ربّك لوَعظ النّاس، وتَخويفهم من الشِّرك والعِصيان، بتِلاوة ما أُوحي إليك من القُرآن عليهم، غير مُبالٍ بتَكذيبهم وردّهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ﴿وَكِيلٌ﴾ وحَفيظ؛ فيُجازيهم عليها أسوأ الجَزاء، فتَسَلّ ولا يَضيق صَدرُك.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٤. ٢. تفسير أبي السعود ٤: ١٩١.
٣. تفسير الرازي ١٧: ١٩٢، تفسير أبي السعود ٤: ١٩١.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا نزل قُدَيْداً[1] قال لعليّ عليه السلام: إنّي سألتُ ربّي أن يوالي بيني وبينك ففعل، وسألتُ ربّي أن يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألتُ ربّي أن يجعلَك وصيّي ففعل. فقال رَجُلان من قُريش: والله لصاعٍ [من] تَمر في شَنٍّ[2] بالٍ أحبُّ إلينا مِمّا سأل محمّدٌ ربَّه، فهلّا سأل ربّه مَلَكاً يعضُده على عَدُوّه، أو كنزاً يستغني به عن فاقته، والله ما دَعاه إلى حقّ أو باطل إلّا أجابه إليه. فأنزل الله إليه ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ ...﴾ الآية»[3].

وزاد العيّاشي: «ودَعا رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام في آخر صَلاته رافعاً بها صوته: اللّهم هَب لعليٍّ المَودّة في صُدور المؤمنين، والهَيبة والعَظَمة في صُدور المُنافقين. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّاً﴾[4] فقال رمع: والله لصاعٍ [من] تمر في شَنٍّ بالٍ أحبُّ إليّ مِمّا سأل محمّدٌ ربَّه، أفلا سأل ربّه مَلَكاً يعضُده، أو كنزاً يستظهر به على فاقته. فأنزل فيه عَشرَ آيات من هُود أوّلها: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية»[5].

عن العيّاشي: عن زيد بن أرقم، قال: إنّ جَبرئيل الرُّوح الأمين نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله بوِلاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام عشيّة عَرفة، فضاق بذاك رسول الله صلى الله عليه وآله مَخافة تَكذيب أهل الإفك والنِّفاق، فدعا قوماً أنا منهم، فاستشارهم في ذلك ليقوم به في الموسم، فلم نَدْرِ ما نقول له، وبكى فقال له جَبرئيل: يا محمّد، أجزِعت من أمر الله؟ فقال: «كلا يا جَبرئيل، ولكن قد علِم ربّي ما لقيتُ من قُريش إذْ لَم يُقرّوا لي بالرّسالة حتّى أمرني بجِهادهم، وأهبط إليّ جُنوداً من السّماء فنَصروني، فكيف يُقرّون لعليّ بعدي؟» فانصرف عنه جَبرئيل، فنزل عليه ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ﴾ الآية[6].

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِن دُونِ ٱللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [١٣]

ثمّ ضرب سُبحانه عن ذكر عدم اعتِنائهم بالوَحي، وتهاوُنهم به، واقتِراحهم عليه، وذكر ما هو أشدّ قُبحاً وهُو نسبة القُرآن إلى الافتِراء بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، قيل المعنىٰ: بَل أيقولون[7] في شأن القُرآن عِناداً ولَجاجاً: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿ٱفْتَرَاهُ﴾ ونسَبه كَذِباً إلى الله، مع أنّه ليس منه ﴿قُلْ﴾ يا محمّد في

---

١. قُدَيد: اسم موضع قرب مكّة.
٢. الشَّنُّ: القِربة الصغيرة يوضع فيها الماء ليبرد.
٣. الكافي ٨: ٥٧٢/٣٧٨، تفسير الصافي ٢: ٤٣٤.
٤. مريم: ٩٦/١٩.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٧/٣٠٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٥.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٦/٣٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٥.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ١٩١، تفسير روح البيان ٤: ١٠٥.

جوابهم تعجيزاً لهم: إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم أيضاً؛ مع كونكم مَهَرة فَنّ الكلام، وحَذَقة صِناعة الفَصاحة والبَلاغة، مُمارسين الخُطَب والأشعار، مُزاولين أساليب النُّظْم والنَّثْر، مُطّلعين على الوَقائع والأيّام ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ في الفَصاحة والبَلاغة، والحَلاوة وحُسن النَظم ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ ومُختلَقات من عندِ أنفسكم ﴿وَٱدْعُوا﴾ للاستِظهار في المُعارضة، وتَرتيب السُّوَر المُختلقة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دُعاءه والاستِعانة به مِن آلهتكم التي تستمدّون بها في اُموركم، والكَهَنة الذين تلتجِئون إليهم في مُهمّاتكُم، وكُلّ مَن ترجُون منه مُساعدتكم، حالَ كونكم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومُتحازين عنه تعالى، لأنه القادر على ذلك دُون غيره ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعوى أنّي افتَريتُه، فإنّ ذلك يستلزم أن يقدِر غيري من البَشر على إتيان مِثل هذا القُرآن، ولا أقلّ مِن سُوَر قليلة منه.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلمِ ٱللهِ وَأَن لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُسْلِمُونَ[١٤]

ثمّ خاطب سُبحانه رسولهﷺ بصيغة الجمع تعظيماً له، أو إيّاه مع المؤمنين بقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ هؤلاء الكُفّار المُكذّبون ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقدِروا على إتيان ما سألتُموه منهم، مع شِدّة حِرصهم على إبطال قولكم، وإظهار افترائكم، وتبيّن عَجزهم عن المُعارضة، ولو مع الاستِعانة بغيرهم من الإنس والجنّ ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أنّ إتيان مِثله خارج عن طَوق البشر وغيره من المَخلوقين، و﴿أَنَّمَا أُنزِلَ﴾ من القُرآن اُنزل ﴿بِعِلمِ ٱللهِ﴾ وقُدرته الكاملة خاصّة من دُون دَخل غيره فيه. واثبتوا على الإيمان به.

وفي التّعبير عن الإتيان بالمِثل بالاستِجابة إشعارٌ بَل دَلالةٌ على أنّ النبيﷺ بَل والمؤمنين يأمُرونهم بالإتيان بمِثله، ودعَوهم إليه مع إرادتهم منهم وقُوعه، مع عِلمهم بعَجزهم منه.

ثمّ لمّا ثبَت كون القُرآن النّاطق بالتّوحيد وبُطلان الشِّرك، نازلاً من عندِ الله، ثبَت أنّ الشِّرك فاسد ﴿وَأَن لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أيُّها المؤمنون بعدَ وُضوح صِحّة مَذهب التّوحيد، وصِدق النبيّ في دَعوى النُبوّة، وصِدق كِتابه ﴿مُسْلِمُونَ﴾ عن صَميم القَلب، مُخلصون في الإيمان.

وقيل: إنّ ضمائر الجمع في الآية كُلّها راجع إلى المُشركين، والمعنى: إن لم يستجب لكم آلهتُكم في الإعانة على المُعارضة، فاعلَموا أيُّها المُشركون أنّ هذا القُرآن أنّما اُنزل بعِلم الله، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعدَ لُزوم الحُجّة عليكم، أم تُصرّون على الشِّرك والكُفر عِناداً ولَجاجاً؟

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ

يُبْخَسُونَ * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٥ و ١٦]

ثمّ لمّا كان غَرض الكُفّار ـ من مُعارضة النبيّ ﷺ، وتَكذيب القُرآن، واقتِراحهم عليه بجَعل جِبال مكّة ذهباً، وتَعْييره بعدم نُزول كَنز عليه ـ طلب الدُّنيا وحُبّ زَخارفها، لا طلب الحقّ والآخرة، هدّدهم بغاية الخُسران، وعَذاب النِّيران في الآخرة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويطلُب ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وزَخارفها بأعماله الخَيريّة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ ونُعطِهم كاملاً ما يساوي ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ من الأجر الدُّنيوي ﴿فِيهَا﴾ لأنّ هِمَمَهم مَقصورة على تحصيل الدُّنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ ولا يُنقصون شيئاً من أجورهم، بحيث إذا خرَجوا منها لم يكُن معهم أثرها، حتّى لا يستحقّون شيئاً من الثّواب المَوعود عليها في الآخرة ﴿أُولٰئِكَ﴾ الطّالبون للدُّنيا هُم ﴿ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لعدم لِياقتهم إلّا لها ﴿وَحَبِطَ﴾ وفسَد ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ من الأعمال الصّالحة، لعَدم كونها لوَجه الله ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ رياءً وسُمعةً، لعدم صُلوحه في نفسه لتَرتيب الأجر عليه.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ[١٧]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بيان سوء حال الكُفّار في الآخرة وغاية خُسرانهم، وضِعة مَحلّهم، بيّن حُسن حال النبي ﷺ والمؤمنين، ورِفعة مَقامهم، بإنكار التّساوي بينهما بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ قادراً ومُستولياً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحُجّة واضحة كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ على صِحّة دينه، وبُرهان على كُلّ حقّ وصَواب، ويتبَع ذلك البُرهان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أو يتبَع ذلك الذي كان على بيّنة ﴿شَاهِدٌ﴾ ومُصدّق ﴿مِنْهُ﴾ يشهد له على صِدقه ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ تَشهد له التّوراة التي هي ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ حال كونه ﴿إِمَاماً﴾ وتَبَعاً﴿وَرَحْمَةً﴾ ونِعمة للنّاس، كمَن يُريد الكُفر والضّلال طلباً للدُّنيا وزِينتها، لا يكون ذلك أبداً، فكيف وبينهما بَونٌ بعيد؟

وقيل: إنّ وَجه النّظم بين الآيتين وسابقتهما، أنّه لمّا أمر الله المؤمنين بأن يزدادوا يَقيناً بنُزول القُرآن بعِلم الله، بعد ظُهور عَجز البَشر عن الإتيان بمِثله، وبيّن أنّ الكُفّار لا حَظّ لهم في الآخرة، كان مَجال توهُّم الحَظّ لهم فيها بسَبب الأعمال الخَيريّة، دفع الله ذلك التوهُّم بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ

ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية[١]، ثمّ عاد سُبحانه إلى التّرغيب في الايمان بالقُرآن والتّوحيد والإسلام بقوله: **﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّهِ﴾**.

ثمّ أنّه قد كثُر الاختِلاف بين مُفسّري العامّة في المُراد من الآية، فمنهم مَن قال: إنّ المُراد مِن **﴿مَن كانَ عَلَىٰ بَيِّنَة﴾** هُو النبيّ، ومِن البينة هو القرآن، ومن التلاوة قِراءة القُرآن، ومن الشاهد جَبرئيل[٢]، وقيل: لِسان النبيّ ﷺ[٣]، وقيل: مُعجزاته[٤]، وقيل: هو أمير المؤمنين عليه السلام؛ كما نقله الفخر الرازي، وقال: المُراد بكلمة (منه) تَشريف الشّاهد بأنّه بعضٌ [من] محمّد ﷺ[٥]، فيكون حاصِل المُراد: أن النبيّ ﷺ على بيّنة عظيمة على نُبوّته، وصِحّة دينه وهي القُرآن، ويتلوه ويقرأه أميرُ المؤمنين عليه السلام الذي هُو جُزء من محمّد ﷺ، وبمَنزلة نفسه.

وروى العلّامة في (نهج الحق)، عن الجُمهور: أنّ **﴿مَن كانَ عَلَىٰ بَيِّنَة﴾** رَسول الله ﷺ، والشاهد عليّ عليه السلام[٦].

وقال القاضي في (إحقاق الحق)، بعد نقل إنكار فضل بن روزبهان الناصبي كَونه من تفاسير أهل السنة: إنّ ما نَسب المُصنّف روايته إلى الجُمهور، قد رواه ابن جرير الطّبري، وذكره الثّعلبي، وكذا الحافظ أبونعيم بثلاثة طُرق عن عبدالله بن عبدالله الأسدي، والفلكي المُفسّر عن مجاهد وعن عبدالله بن شدّاد، وغيرهم مِن قُدماء أهل السُّنّة، ومِن المُتأخّرين فَخر الدّين الرازي، ثمّ نقل عِبارة الفَخر التي ملخصها ما ذكرنا.

ثمّ قال القاضي: ولا رَيب أنّ شاهد النبيّ ﷺ على اُمّته يكون أعدل الخَلائق سيّما إذا تشرّف بكَونه بعضاً مِنه ﷺ كما ذكر الرّازي، فكيف يتقدّم عليه غيرُه؛ معَ كَون ذلك الشّاهد مِن النبيّ ﷺ، لأنّ (مِن) هاهنا لتَبيين الجِنس، فيُؤذن بأنّ عليّ بن أبي طالب مِن جِنس الرّسول ﷺ وقوله: **﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنه﴾** فيه بَيان لكون عليّ عليه السلام تالي الرّسول من غير فَصْل بينهما بتالٍ آخر، فمَن جعله تالياً بعد ثلاثة فعليه الدّلالة، لأنّ التالي هُو مَن يَلي غيره على أثره من غير فَصل بينهما[٧].

أقول: الظّاهر أن (مِن) للتّبعيض ـ كما ذكره الفَخر ـ ودَلالته على فَضل أمير المؤمنين عليه السلام أقوى من كون (مِن) لتبيين الجِنس، وكون عليّ عليه السلام بعضاً من الرّسول ﷺ لكونه نفسَه، كما دلّت عليه آية المُباهلة، فما دام كون نَفس النبيّ ـ التي هي بَعض مَجموع من نفسه وبَدنه ـ مَوجوداً بين النّاس، كان

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٩٤.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.
٤. تفسير أبي السعود ٤: ١٩٥.
٥. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.
٦. نهج الحق: ١٩٥.
٧. إحقاق الحق ٣: ٣٥٧ و٣٥٨.

النبي مَوجوداً بينهم، فلا معنى لرُجوع النّاس إلى غيره.

ولو قُلنا أنّ (يتلوه) مأخوذ مِن تِلاوة القُرآن وقراءته ـ كما ذكره الفخر ـ فمعناه أنّه كالرّسول وبمَنزلته في تَبليغ كِتاب الله إلى الأمّة، فيكون مَفاده مَفاد قوله ﷺ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى».

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما مِن رَجُلٍ من قُريش إلّا وقد أُنزلت فيه آيةٌ أو آيتان من كِتاب الله. فقال رَجلٌ من القوم: فما نزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآية التي هي في هُود ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ محمّد على بيّنة مِن ربّه، وأنا الشّاهد»[١].

وفي (الأمالي): «وأنا الشّاهد، وأنا منه»[٢].

وفي (البصائر): «وأنا الشّاهد له فيه، وأنا أتلوه معه»[٣].

وفي (الاحتجاج)، أنّه سُئل عن أفضل مَنقبة له، فتلا هذه الآية وقال: «أنا الشّاهد من رَسول الله ﷺ»[٤].

وفيه، في حديثٍ: قال له بعض الزّنادقة: وأجد الله يُخبر أنّه يتلُو نبيَّه شاهدٌ منه، وكان الذي تلاه عَبَدة الأصنام بُرهةً من دَهره. فقال: «وأمّا قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فذلك حُجّة الله، أقامها الله على خَلقه، وعرّفهم أنّه لا يستحقّ مَجلس النبيّ إلّا مَن يقُوم مَقامه، ولا يتلُوه إلّا مَن يكون في الطّهارة مِثله وبمنزلته، لِئلّا يتّسع مَن مَسّهُ رِجسُ الكُفر في وقتٍ من الأوقات، انتِحال الاستِحقاق لمَقام الرّسول». الخبر[٥].

وعن الكاظم والرضا عليهما السلام: أميرُ المؤمنين؛ الشّاهد على رسول الله، ورسول الله على بيّنة من ربّه»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما أُنزل ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إماماً ورحمةً ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾»[٧].

أقول: هذه الرّواية مَحمولة على أنّ قوله: ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ حالان للشّاهد، لوُضوح عدم التّحريف في الكِتاب المَجيد.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٩/٣٠٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.
٢. أمالي الطوسي: ٨٠٠/٣٧٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.
٣. بصائر الدرجات: ٢/١٥٣، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.
٤. الاحتجاج: ١٥٩، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.
٥. الاحتجاج: ٢٤٥ و٢٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٣٨.
٦. الكافي ١: ٣/١٤٧ عن أبي الحسن عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.
٧. تفسير القمي ١: ٣٢٤، تفسير الصافي ٢: ٤٣٧.

وقيل: إنّ المُراد مِن ﴿مَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أصحاب النبيّ ﷺ ومِن (البينة) القُرآن، ومِن (الشاهد) النبيّ ﷺ[1].

وقيل: إنّ الشّاهد اشتِمال القُرآن على أعلى مَرتبة الفَصاحة والبَلاغة، بحيث لا يقدِر البشر على إتيان مِثله[2].

عن الحسين بن عليّ عليه السلام: «الشّاهد مِن الله محمّد ﷺ»[3].

وقيل: إنّ المُراد مِن ﴿مَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ مؤمنو أهل الكِتاب كعبد الله بن سلّام وأضرابه[4]، واستشهدوا له بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون بكَونهم على بيّنة على الدّين الحقّ من مَذهب التّوحيد والإسلام ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حقّ الايمان، لتَوافُق البُرهان ونَصّ القُرآن المُشتمل على إعجاز البَيان، ودَلالة تَوراة مُوسى بن عمران على صِحّته، وصِدق النبيّ الجائي به، ولذا بلَغ في القُوة والظُّهور إلى ما لا مَزيد عليه.

ثمّ هدّد سُبحانه الكافرين بالقُرآن بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ ويَجحده ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والقَبائل من أهل مكّة، الذين تحزّبوا واجتمعوا على إبطال الحقّ وإطفاء نُور الرّسول، أو المُراد حِزب أهل الكِتاب، وحِزب المُشركين، وحِزب المُنافقين ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يومَ القيامة حَسبما وَعدهم الله بقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد صِدق القُرآن، أو صِدق الوَعيد المَذكور بقوله: ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمّد، أو يا إنسان ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشكّ ﴿مِنْهُ﴾ بعدَ ظُهور صِدقه، وكونه من عندِ الله بالشّواهد المَذكورة، أو بعدَ وُضوح كَون الكافرين بالقُرآن من أعداء الله، ومِن المُتوعَّدين بالنّار. وعن الصادق عليه السلام: «﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ مِن وِلاية عليّ عليه السلام»[5] ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الثّابت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اللّطيف بك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقُصور عَقلهم ونَظرهم، أو لعِنادهم ولَجاجهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِين كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ[١٨]

ثمّ قيل: إنّ بعض الكُفّار كانوا شديدي الحِرص على الدُّنيا، فردّهم الله بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، وبعضُهم كانوا قادحين في مُعجزات النبيّ ﷺ، فردّهم الله بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٧: ٢٠٢.
٣. مجمع البيان ٥: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ٤٣٨.
٤. تفسير الرازي ١٧: ٢٠١.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٧/٣٠٣.

مِنْ رَبِّهِ﴾، وبعضُهم كانوا مُفترين على الله بالقول بشَفاعة الأصنام، فردّهم الله بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله، وعلى نفسه ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ بقوله: هؤلاء الأصنام شُفعاؤنا عندَ الله. لا والله، لا يكون أحدٌ أظلمَ منه، لأنّ الشِّرك ظُلم عَظيم[1].

ثمّ هدّدهم الله بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ الظّالمون ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويُحضَرون عنده ﴿وَيَقُولُ﴾ أهل المَوقف، أو الملائكة الحَفَظَة، أو الأنبياء، أو الأئمّة الّذين هُم ﴿ٱلْأَشْهَادُ﴾ على النّاس يومَ القيامة تَفضيحاً لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اللّطيف بهم، المُحسن بنِعَمه عليهم، المالك لنَواصيهم بقولهم: الأصنام شُركاءُ الله في الألوهيّة، وشفعاؤنا عندَه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ﴾ وغَضبه وعَذابه ﴿عَلَى﴾ هؤلاء ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على الله بالافتِراء عليه، وعلى أنفسهم بتَعريضها للهَلاك.

رُوي أنّ الله تعالى يُدني المؤمن يومَ القيامة، فيستُره من النّاس فيقول: أي عبدي، أتعرفُ ذَنبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رَبِّ. فإذا أقرّه بذُنوبه قال: فإنّي قد سترتُها عليك في الدُّنيا، وقد غفرتُها لكَ اليوم، ثمّ يُعطى كِتاب حَسناته. وأمّا الكُفّار والمُنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ يَفضحونهم بما كانوا عليه في الدُّنيا ويُبيِّنون أنّهم مَلعونون عندَ الله بسَبب ظُلمهم[2].

القُمّي: يعني بالأشهاد الأئمّة عليهم السلام ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ آل محمّد حقّهم[3].

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[١٩]

ثمّ ذمّهم سُبحانه بأسوأ أعمالهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويمنَعون النّاس بشُبهاتهم ﴿عَن﴾ الدُّخول في ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ودين الحقّ وقَبوله ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ ويطلُبون لها ﴿عِوَجاً﴾ وانحِرافاً، بأن يصِفوها بالبُعد عن الحقّ، أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها بتَعويج دَلائلها المُستقيمة.

القُمّي: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ عن طَريق الله؛ وهي الإمامة ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ حرّفوها إلى غيرها[4].

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ﴾ بالخُصوص ﴿كَافِرُونَ﴾ ليسَ كُفر غيرهم في جَنب كُفرهم بشيء.

أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولٰئِكَ

---

١. تفسير الرازي ١٧: ٢٠٣-٢٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٤: ١١٢.
٣. تفسير القمي ١: ٣٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٩.
٤. تفسير القمي ١: ٣٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٩.

ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٢٠ و ٢١]

ثمّ عاد إلى تَهديدهم بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المَلعونون ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله ومانِعيه من تَنفيذ إرادته ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالهَرب منه والمُدافعة عن عَذابه ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ يومَ القيامة ﴿مِن دُونِ ٱللّٰهِ﴾ ومِمّا سِوا بعضاً ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأنصار يُنجونهم من العَذاب بالقَهر، فلا حِيلة لهم في الخَلاص منه، بَل هُم لكُفرهم بالمَبدأ والمَعاد، وجَمعهم بين ضَلال أنفسهم وإضلال غيرهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وقيل: تَضعيفُ العَذاب حِكْمة تأخيره عنهم[١].

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة شِدّة كُفرهم وتَماديهم في الضَّلالة بقوله: و ﴿مَا كَانُوا﴾ لفَرط تَصامُمِهم عن الحقّ، وامتِناعهم عن الإذعان بالقُرآن الذي طريق تلقّيه السَمع ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ والإصغاء إليه ﴿وَمَا كَانُوا﴾ لشِدّة بُغضهم للنبيّ ﷺ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ مُعجزاته ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ اشتَروا الضَّلالة بالهُدى، وعِبادة الأصنام بعِبادة الله، والعَذاب بالمَغفرة، فلِذا ﴿خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ غاية الخُسران، وأشدّ الضَرر ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُم﴾ في ذلك اليوم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشَفاعتها.

وعن القُمّي: بطَل الذين دعوا [غير] أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٢٢ و ٢٣]

ثمّ بالغ سُبحانه في الإعلام بغاية خُسرانهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ ولا بُدّ، أو لا شكّ، أو حقّاً ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ بحيث لا يُدانيهم أحدٌ في الخُسران.

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان سُوء حال الكُفّار في الآخرة وغاية خُسرانهم، بيّن حُسن حال المؤمنين وكَثرة رِبحهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾ وأطمأنّوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ورَحمته، أو خضَعوا له ﴿أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ومُلازموها، و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومُقيمون أبداً لا يَخافون الخُروج منها.

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[٢٤]

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ١٩٧.

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٣٩.

ثمَ أوضح سُبحانه سُوء حال الكُفّار وحُسن حال المؤمنين، بضَرب المَثل بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ فَريق الكُفّار وفَريق المؤمنين وحالهم العَجيبة، ببَيان أوضح: أنّ فَريق الكُفّار ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ الذي يكون مُتحيّراً في جميع اُموره، لا يهتدي إلى شيءٍ من مَصالحه ومَنافعه ﴿وَ﴾ فريق المؤمنين مثل ﴿ٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ الذي يهتدي إلى كُلّ خَير ﴿هَلْ﴾ الفَريقان ﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ وحالاً؟ كلّا، لوُضوح أنّ الأوّل يتخبّط في المَسالك ويقَع في المَهالك، والثاني يمشي مُطمئناً ويهتدي إلى جَميع مَطالبه إلى أقطار الأرض ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾؟ قيل: إنّ التقدير: أتعقلون عن هذا التّفاوت بينهما، فلا تذكّرون؟ أو فلا تتألّمون في هذا المَثل، معَ أنّ العاقل لا ينبغي له الغَفلة وعدم التذكُّر. وفي المَثل تَقريرٌ لعدم التّساوي بين مَن كان على بيّنة، وغيره[1].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ *قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ [٢٥ـ٢٨]

في بيان كيفية دعوة نوح ومعارضته قومه

ثمَ أنّه تعالى بعدَ تَهديد الكُفّار بالعذاب الاُخروي، ذكَر قِصّة نُوح وهَلاك قومه، عِبرةً وتَهديداً لهم بالعَذاب الدُّنيوي، وتَسليةً للنبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فقال: يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ ومُخوّفٌ بالعذاب على الشِّرك والطُّغيان ﴿مُبِينٌ﴾ لإنذاري أكمل بَيان، ومُوضّحٌ له أوضح تِبيان.

وقيل يعني: مُبين ما أعدّ الله للمُطيعين من الثّواب[2].

ثمَ بيّن سُبحانه كيفيّة إنذاره، وما أنذر به بقوله: ﴿أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ﴾ ولا تُشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن خالفتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ من جِهة ما يقع فيه من العذاب ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكانوا ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ في جَوابه، تَمادياً في الكُفر، وعِناداً للحقّ: ﴿مَا نَرَاكَ﴾ يا نُوح ﴿إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ تأكل وتَنام وتَمشي ﴿وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ وآمن بك ﴿إِلَّا﴾ الصَعاليك ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وأدانينا ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ وظاهر الأنظار من غير تَعمُّق، أو بِلا حاجة إليه لوُضوحه، فلا عِبرة باتّباعهم لك، لأنّهم ليسوا بذَوي عَقل رَزين، ورأيٍ أصيل ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ١٩٩.

٢. تفسير الرازي ١٧: ٢١٠.

مِن فَضْلٍ﴾ ومَزِيّة من حيث العَقل والشَرف والمال، تُوجب اختِصاصكم بالنُبوّة، والقُرب من الله ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ جميعاً ﴿كَاذِبِينَ﴾ في دَعوى التَوحيد والنُبوّة.

﴿قَالَ﴾ لهم نُوح بلُطف ولين: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني عن عَقلٍ وإنصاف ﴿إِن كُنتُ﴾ في دَعوى نُبوّتي ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ عَظيمةٍ، وحُجَةٍ واضحةٍ من كَمال العِلم والمَعرفة، والمُعجزة الباهرة ﴿مِن رَبِّي﴾ ومَليكي الذي أرسلني إليكم ﴿وآتَانِي رَحْمَةً﴾ عظيمة، ونعمةً جَسيمةً ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ وبلُطفه وقُدرته، من النُبوّة والمُعجزة ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ واشتبهتْ حقيقةُ الأمر ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لسُوء أخلاقكم، وتقولون إنّه لَم تظهر عندكم نُبوّتي ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ونَجبُركم على قَبولها والاهتِداء بها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وعنها مُعرِضون، لعدم إقبال قُلوبكم إليها، وعدم تأمّلكم فيها.

وحاصل الجَواب: أخبروني إن كانت لي حُجَة ظاهرة، وأنتم لا تُسلّمون لها لخَفائها عنكم، بسَبب حسَدكم وعِنادكم، هل نقدِر على إلزامكم بقَبولها، معَ عدم نظَركم إليها، وعدم تأمّلكم فيها، وإعراضكم عنها؟ كلا، لا نقدِر على ذلك. وفيه إظهارُ غاية تمرُّدهم، واليأس عن إيمانهم.

وقيل: إنّ المَقصود صَرفهم عن الإعراض، وحثّهم على التدبُّر في حُجَجه ومُعجزاته[1].

وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى آللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ آلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ[٢٩]

ثمّ لمّا كان من مُوجبات الإعراض أو توهُّم الكَذِب توهُّمُهم طَمعه في أموالهم، أعلَمهم ببَراءته عن الطَمع في أموالهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إن كان سَبب إعراضكم عنّي، وتَكذيبكم قولي توهُّم طَمعي في أموالكم، فاعلَموا أنّي مأمور من قِبَل ربّي بتَبليغ دينه، ولِذا ﴿لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مَالاً﴾ وإن كان يسيراً؛ لأنّ عَملي ليس لكم حتّى استحقّ عليكم أجرَه ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما جَزاء عَملي على أحدٍ ﴿إِلَّا عَلَى آللهِ﴾ لأنّي عاملٌ له، فلا تحرِموا أنفسكم عن السّعادة في الدّارين، باحتِمال طَمعي في أموالكم، وتَضرّركم بسَبب قَبول قولي والإيمان بي، وأمّا اعتِراضكم بأن أتباعي الفُقَراء وأداني النّاس، فلا وقع له، لأنّي رسول الله إلى النّاس، وإنّما غرضي هِدايتهم، ولِذا لا يتفاوت في نظري كون المُهتدي غنياً أو فقيراً، شريفاً أو وَضيعاً ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ آلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَحدانيّته من مَجلسي ومِن حَولي، وإن كانوا أفقر خَلق الله وأرذلهم، حيث ﴿إِنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، فيشكون إليه طاردهم ويُخاصمونه.

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠١.

أو المراد: كيف أطردُهم، مع أنّهم أعظم الناس قَدراً، وأعلاهم منزلةً؟ لأنّهم ملاقو ربّهم، والفائزون بقرْب مَليكهم، بسَبب إيمانهم وحُسن عَملهم. ثمّ أنتُم ترَون أنفسكم أعقل وأعلم منّي ومنهم ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ بالواقعيّات، وما وَراء المَحسوسات، وعَواقب الأمور، وتغترُّن بالظَّواهر لقُصور نظَركم، وعدم تدبُّركم، ولِذا تدّعون أنهم أرذل النّاس وتسألون طَردهم.

وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ ٱللهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللهُ خَيْراً ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ [٣٠ و ٣١]

ثمّ بالغ في الاعتِذار عن عدَم طَردهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي﴾ ويُنجيني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللهِ﴾ ويدفع عنّي عِقابه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وأبعدتُهم من حَولي، معَ أنّي مأمورٌ بتَقريبهم وإكرامهم؟ ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أنّ هذا أبلغ الإعذار في تَرك طَردهم؟

ثمّ لمّا كان في قوله: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ﴾ إيهامٌ بغِناه المُطلق، وفي دَعوى رِسالته إيهامٌ بكَونه مَلَكاً في اعتِقاد القائلين بأنّه بشر، وفي قوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ إيهامٌ بكونه عالِماً بالبَواطن والمُغيّبات، وفي قوله: ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيهامٌ بكونه عالِماً بما في أنفسهم من الخُلوص في الإيمان، وكُلّ ذلك كان مَورداً لتكذيبهم؛ لغاية استِبعاده في نَظرهم، دفع جميع التوهُّمات بقوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللهِ﴾ وبيدي مَفاتيح كُنوزه، ولي الغِنى المُطلق، حتّى تجحَدوا ذلك وتقولوا: ﴿مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فإنّ النّبوّة لا تُنال بالمال والجاه ﴿وَلاَ﴾ أقول: إنّي ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتّى تستبعدوه منّي ﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من المَلائكة، حتّى تُكذّبوني وتقولوا: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾، فإنّ البشريّة مِن مَبادئ النّبوّة لا مِن مَوانعها ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ وتسترذِلوهم في أنظاركم: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللهُ خَيْراً﴾ كما تقولون ذلك في شأنهم، أو آتاهم جميعَ الخَيرات بخُلوص إيمانهم. وإنّما أنظُر أنا بظاهر حالهم ومَقالهم، و﴿ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الخُلوص والنِّفاق ﴿إِنِّي إِذاً﴾ والله ﴿لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على نفسي بادِّعاء ما ليسَ لي، وعلى المؤمنين بطَردهم وتَحقيرهم.

قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ [٣٢ و ٣٣]

فلمّا رَدّ نُوح شُبَهَهم، وألزمهم بالحُجَج والبَيّنات الواضحة، ضاقتْ عليهم الحِيَل و﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ وخاصَمْتنا في إثبات نُبوّتك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ وأطلته حتّى مَلَلْتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب العاجل، على تَرك إيماننا بك، وبما ادّعيتَ من التّوحيد ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دَعوى نُبوّتك ووَعيدك، فإنّ مَواعظك ومُناظرتك لا تُؤثّر فينا ﴿قَالَ﴾ نُوح: أنا لا أقدِر على إتيان العَذاب، بَل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ﴾ القادر على كُلّ شيء ﴿إِن شَاءَ﴾ إتيانه عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له ومانعيه من تَعذيبكم بالهَرب والدِّفاع.

وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٣٤]

ثمّ نبّههم بكَونه ناصحاً لهم لا مُجادلاً، وأظهر يأسه عن إيمانهم مُتأسّفاً عليهم بقوله: ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ﴾ ولا يُؤثّر فيكم ﴿نُصْحِي﴾ ومَوعظتي ﴿إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ وأرشدكم بما فيه خَيركم، وأزجُركم عمّا فيه ضُرّكم وشَرّكم، لا تسمَعوا قولي، ولا تعتنوا إلى نُصحي ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ويُضلّكم عن صِراط الحقّ لخُبث طينتكم وسُوء اختياركم وإعمالكم له ذلك، إذ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومالك أمركم، العالِم بطينتكم وسُوء أخلاقكم وأعمالكم، حيثُ إنّه خلَقكم أوّلاً، وربّاكم في مُدّة عُمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ آخراً؛ فيُجازيكم بما تستحقّون.

عن الرضا عليه السلام: «يعني: الأمر إلى الله يهدي مَن يشاء»[١].

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ[٣٥]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ حِكاية مُحاجّة نُوح معَ قومه ـ التي [هي] من الأخبار الغيبيّة بالنّسبة إلى النبيّ الأمّي، والدّلائل الواضحة على صِدق القُرآن ـ وبّخ المُشركين بنسبة الافتِراء إليه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المُشركون في شأن القُرآن العظيم: إنّ محمّداً ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من عندِ نفسه ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المُعاندين المُصرّين على الكُفر واللّجاج: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ كما تقولون ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ وعُقوبة ذَنبي، وإن كنتُ صادقاً في نِسبة القُرآن إلى ربّي؛ وأنتُم تُكذّبوني، فعليكم عِقاب ذَنبكم ووَبال جُرمكم ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إسناد الافتِراء إليّ، فلا وَجه لمُعاداتكم لي.

وقيل: هذه الآية تَتِمّة قول نُوح، والضّمير المَنصوب في ﴿افْتَرَيْتُهُ﴾ راجع إلى الوَحي الذي ادّعاه[٢].

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٢/٣٠٤، وفيه: يهدي ويُضلّ، تفسير الصافي ٢: ٤٤٢.
٢. تفسير الرازي ٢٢٠/١٧.

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[٣٦]

ثمّ لمّا كان يَئِسَ نُوح عليه السلام من إيمان مُعارضيه دُون غيرهم مِن الكُفّار ومَن في أصلابهم، أخبره سُبحانه بعدَم إيمان المَوجودين في عَصره، ولا مَن في أصلابهم أبداً بقوله: ﴿وَأُوحِيَ﴾ من قِبَل الله ﴿إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ ومَن في أصلابهم أحدٌ أبداً ﴿إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ بك، فلا تحتمل في حقّهم وفي حقّ نَسْلهم الإيمان، ثمّ أنّهم إن عَصَوكَ وكذّبوك ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزَن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من العِصيان والإيذاء، وبما كانوا يرتكِبون من التّكذيب والاستِهزاء، لأنّه قد انتهتْ مُدّة إمهالهم، وقرُبتْ ساعةُ مُجازاتهم.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ نُوحاً [كان] إذا جادل قومه ضَربوه حتّى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللّهمّ اهْدِ قومي فانّهم لا يعلَمون»[١].

قيل: لمّا جاء هذا الوَحي، دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ ...﴾ الآية[٢].

عن الباقر عليه السلام: «أنّ نُوحاً عليه السلام لبِث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً، يدعوهم سِرّاً وعَلانيةً، فلمّا أبَوا وعَتَوا قال: ﴿رَبِّ إِنّى مَغلُوبٌ فَانتَصِر﴾، فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ...﴾ الآية. فلذلك قال نوح: ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[٣]. الخبر[٤].

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُم كَمَا تَسْخَرُونَ[٣٧ و ٣٨]

ثمّ أمره الله بصُنع الفُلك بقوله: ﴿وَاصْنَعِ﴾ يا نُوح ﴿الْفُلْكَ﴾ حال كَونك محفوظاً ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحِفظنا إيّاك مِن أن يمنعك الكُفّار مِن صُنعه، أو من الخَطأ فيه، أو بحِفظ الملائكة المُؤيّدين لك المُوكّلين بحِفظك وإعانتك، وليَكُن صُنعك إيّاه بتَعليمنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيفيّة صُنعه.

عن ابن عبّاس: لَم يعلَم نُوح كيفيّة صَنعة الفُلك، فأُوحي إليه أن يصنعَها مِثل جُؤجُؤ الطائر، فأخذ القَدوم وجعل يضرِب ولا يخطأ[٥].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٢.

٢. تفسير روح البيان ٤: ١٢٢، والآية من سورة نوح: ٢٦/٧١.

٣. سورة نوح: ٢٦/٧١.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٤/٣٠٥، الكافي ٨: ٤٢٤/٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٤٤٢.

٥. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.

ورُوي أنّه أمر بغَرس الأشجار، فنمتْ تِلك الأشجار في مُدّة عِشرين سنة، فلَم يولد في تِلك المُدّة مَولود، وبلغتْ الأطفال التي وُلدتْ مِن قَبل، وكفروا وعارضوا نُوحاً تَبَعاً لآبائهم[١].

ثمّ لمّا كان نوح عليه السلام كثيرَ الشَفقة على قومه، أوحى الله إليه بقوله: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي﴾ ولا تُراجعني ﴿فِي﴾ شأن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكُفر والطُّغيان، ولا تشفَع لهم في دَفع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطُّوفان لا محالة في حُكمي وقضائي، فلا يُمكن صَرفه عنهم.

﴿وَ﴾ كان نُوح ﴿يَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ التي أُمر بصُنعها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ﴾ وأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إمّا لعدَم مَعرفتهم بنَفعها ـ قيل: إنّ قومه قالوا: ما تصنع يا نُوح؟ فقال: أصنعُ بيتاً يمشي على الماء، فتعجّبوا وسخِروا منه ـ وإمّا لأنّه كان يصنعُها في أبعد مَوضع من الماء في وقت غاية عِزّته[٢]، وكان القوم يتضاحكون ويقولون: يا نُوح، صِرتَ نجّاراً بعدما كُنتَ نبيّاً، ويقولون: أتجعل للماء إكافاً[٣]، فأين الماء[٤]؟!

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ نوحاً عليه السلام لمّا غَرس النّوى، مَرّ عليه قومه فجعلوا يضحَكون ويسخَرون ويقولون: قد قعد غرّاساً، حتّى إذا طال النّخل، وكان جَبّاراً طُوالاً، قطعه ثمّ نحته، فقالوا: قد قعد نجّاراً. ثمّ ألّفه فجعله سَفينةً، فمرّوا عليه فجعلوا يضحَكون ويسخَرون ويقولون: قد قعد مَلّاحاً في فَلاةِ الأرض؛ حتّى فرغ منها»[٥].

وقيل: إنّه كان يُنذرهم بالغَرق، فلمّا طال مَكثه فيهم ولَم يُشاهدوا منه عيناً ولا أثراً، عَدُّوه من المُحالات، ثمّ لمّا رأوا اشتِغاله بأسباب الخَلاص منه سخِروا منه[٦].

فلمّا رأى نوح عليه السلام سُخريتهم ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذا وقع عليكم الغَرق في الدُّنيا، والحَرق في الآخرة ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنّا.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ[٣٩]

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعن قريبٍ تَشهدون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ عظيمٌ في الدُّنيا ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويُذلّه، وهُو الطُّوفان ﴿وَيَحِلُّ﴾ ويَردُ ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ بالنّار ﴿مُقِيمٌ﴾ دائمٌ لا انْقِطاع له أبداً.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.
٢. أي قِلّته.
٣. الإكاف: البَرذَعة أو البَردعة، وهي ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه كالسّرج للفرس.
٤. تفسير روح البيان ٤: ١٢٥.
٥. الكافي ٨: ٢٨٣/٤٢٥، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.
٦. تفسير الرازي ١٧: ٢٢٤.

قيل: صنَع نُوح السفينة في سنتَين، واستأجَر أجَراءَ ينحِتون معه[١].

وعن الصادق عليه السلام: «كان مَنزل نُوح وقومه في قريةٍ على مَنزلٍ من الفرات مِمّا يلي غَربي الكُوفة، وكانَ نُوحٌ رَجُلاً نجّاراً، فجعَله الله نبيّاً وانتَجبه، ونُوح أوّل مَن عمِل سفينة تجرى على ظَهرِ الماء».

قال: «ولبِث نُوح في قومه ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عاماً يدعُوهم إلى الهُدى، فيَمرّون به ويسخَرون منه، فلَمّا رأى ذلك منهم دَعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـافِرِينَ دَيَّـاراً ...﴾[٢]، فأوحى الله إليه: يا نُوح، اصنَعْ الفُلْكَ وأوسِعْها وعَجِّل عمَلها بأعيُننا ووَحْينا، فعمِل نُوحٌ سَفينته في مسجِد الكُوفة بيده يأتي بالخشب مِن بُعدٍ، حَتّى فرَغ مِنها.

فسُئِل[عليه السلام]: في كَم عَمِل نُوحٌ سَفينته حتّى فرَغ منها؟ قال: في دَوْرَيْن. قيل: وكَم الدّوران؟ قال: ثَمانون سنة. قيل: إنّ العامّة يقولون: عمِلها في خَمسمائة عام، فقال: كَلّا والله، كيفَ والله يقول: ﴿وَوَحْيِنَا﴾»[٣].

قيل: إنّ المُراد بالوَحي السُّرعَةُ والعَجَلة[٤].

وعن (حياة الحيوان): أنّ أوّل مَن اتّخذ الكَلب للحِراسة نوحٌ عليه السلام، قال: يا رَبّ أمرتني أن أصنَع الفُلك، وأنا في صِناعته أصنعُ أيّاماً فيجيئون باللّيل فيُفسِدون كلّ ما عمِلتُ، فمتى يلتئم لي ما أمرتني به، قد طال عليّ أمري؟ فأوحى الله إليه: يا نُوح، اتّخذ كلباً يحرُسك. فاتّخذَ نوحٌ كلباً، وكان يعمَل بالنّهار وينام باللّيل، فإذا جاء قومُه ليُفسِدوا باللّيل يَنبَحُهم الكَلب، فينتبِه نُوح فيأخُذ الهِراوة[٥] ويثِب إليهم فينهزمون منه، فالتأم ما أراد، وفعَل السَّفينة[٦].

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ[٤٠]

ثمّ أنّه كان مُشتغلاً بصُنع الفُلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ للتنُّور بالفَوَران، أو عذابُنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ ونبَع الماءُ منه بشِدّةٍ كغَلَيان القِدْر. قيل: كانَ التَّنُّور في مسجد الكُوفة، والسَّفينة أيضاً فيه[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «كان التنُّور في بيتِ عَجوزٍ مؤمنة في دُبُر قِبْلةِ مَيْمَنةِ المَسجد» يعني مسجِد الكوفة، فقيل له: فإنّ ذلك مَوضع زاوية باب الفيل اليومَ. ثمّ سُئل: أوَكان بَدْو خُروجِ الماء مِن ذلك

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.
٢. نوح: ٢٧/٧١.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٥/٣٠٥، الكافي ٨: ٤٢١/٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.
٤. تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.
٥. الهِراوة: العَصا الضّخمة.
٦. تفسير روح البيان ٤: ١٢٣.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٨.

التنُّور؟ قال: «نَعم، إنّ الله أحَبَّ أن يُري قومَ نُوحٍ آيةً»[١].

وعنه عليه السلام: «جاءت امرأةُ نوحٍ إليه، وهُو يعمَل السّفينة، فقالت له: إن التنُّور قد خرج منه ماء، فقام إليه مُسرعاً حتّى جعل الطّبَق عليه، فختمه بخاتَمه فقام الماء[٢]، فلمّا فرَغ من السّفينة جاءَ إلى خاتَمه، ففضّه وكشَف الطّبَق ففار الماء»[٣].

في بيان ركوب نوح في السفينة وحمل الحيوانات فيها

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ نُوحاً لمّا فَرغ من السّفينة، وكان ميعادُه فيهما بَينه وبين رَبّه في إهلاك قومه أن يَفُور التنُّور، ففارَ فقالَتْ امرأتُه: إنّ التنُّور قَد فار، فقام إليه فختَمه، فقام الماء». الخبر[٤].

ثمّ ﴿قُلْنَا﴾ لنوح: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ معَك ﴿مِن كُلٍّ﴾ مِن أنواع الحَيوان التي لابُدّ من وُجودها في الأرض ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الذّكر والأنثى، لِئلا ينقرِض نَسْلُها.

رُوي أنّ نُوحاً عليه السلام قال: يا رَبّ، كيف أحمِلُ مِن كُلٍّ زَوجين اثنَين؟ فحشَر الله إليه السِّباع والطّير، فجعَل يضرِب يَدَيه في كُلّ جِنس، فيقعُ الذُّكر في يدِه اليُمنى والأُنثى في اليُسرى، فيجعلُها في السّفينة[٥].

وقيل: لَم يحمِل فيها إلّا ما يلِد ويبيض، دون ما يتولّد من التّراب كالحشَرات[٦].

وقيل: أوّل ما حمَله الذرة[٧]، وآخر ما حمله الحِمار، فلمّا دخَل صَدرُه تعلّق إبليسُ بذَنبه فلَم تستقلّ رِجلاه، فجعل نُوح عليه السلام يقول: وَيحك ادخُل، فينهض فلا يستطيع، حتّى قال نوح عليه السلام ادخُل والشّيطان معك، فلمّا قال نُوح عليه السلام ذلك خَلّى الشّيطان سبيله، فدخل ودخل الشّيطان معه، فقال نُوح عليه السلام: ما أدخلك يا عَدُوّ الله؟ قال: ألم تقُل: ادخُل والشّيطان معك؟ قال: اخرُج عنّي يا عَدُوّ الله. قال: مالَك بُدٌّ مِن أن تحمِلني معك[٨].

ونُقل أنّه عليه السلام قال للحمار: ادخُل يا مَلعون، فدخل الحمار [السفينة] ودخَل معه إبليس، فلمّا كان بعدَ ذلك رأى نُوح إبليسَ في السّفينة، فقال له: دخلْتَ السّفينة بغير أمري؟ فقال إبليس: ما دخلتُ إلّا بأمرك، فقال له: أنا ما أمرتُك، فقال: أمرتني حينَ قُلتَ للحمار: ادخُل يا مَلعون، ولَم يكُن ثَمّة مَلعون

---

١. الكافي ٨: ٤٢١/٢٨١، مجمع البيان ٥: ٢٤٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.
٢. قام الماء: إذا ثَبت لا يجِد منفذاً.
٣. تفسير العياشي: ٢: ٢٠٠٨/٣٠٧، الكافي ٨: ٤٢٣/٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.
٤. الكافي ٨: ٤٢٢/٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٣.　　٥ و٦. تفسير روح البيان ٤: ١٢٦.
٧. الذَرُّ: صِغار النّمل.　　٨. تفسير روح البيان ٤: ١٢٦.

إلّا أنا فدخلْتُ، فترَكه[١].

عن الصادق عليه السلام: «حمَل نُوح في السّفينة الأزواجَ الثّمانية التي قال الله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[٢]، فكان من الضّأن اثنَين؛ زَوجٌ داجِنة يُربّيها النّاسُ، والزّوجُ الآخر التي تكون في الجِبال وحشِيّة، أُحِلّ لهم صَيْدُها»[٣].

القُمّي: عنه عليه السلام: «لمّا أرادَ الله هَلاك قَومِ نُوح عقّم أرحام النِّساء أربعين سَنةً، فلَم يولد لهم مَولودٌ، ولمّا فرَغ نُوح عليه السلام مِن إيجاد السّفينة أمره الله أن يُنادي بالسّريانيّة أن تجتمع جَميعُ الحَيوانات، فلَم يَبْقَ حَيوانٌ إلا حضَر، فأدخَل مِن كُلّ جِنسٍ مِن أجناس الحَيوان زَوجين، ما خَلا الفَأر والسِّنَّوْرَ، وإنّهم لَمّا شَكَوْا مِن سِرْقين[٤] الدّواب والقَذَر، دَعا بالخِنزير فمسَح جَبينه فعطَس، فسقط مِن أنفه فأرٌ، فتناسَل، فلمّا كثَروا شَكَوا إليه منها، فدعا بالأسد فمسَح جَبينه فعطَس، فسقط مِن أنفه زَوج سِنَّوْر».

وفي روايةٍ: «شَكَوا العَذِرة[٥]، فأمر الله الفيلَ فعطَس فسقَط الخِنزير»[٦].

وعنه عليه السلام: «كانَ طُول سَفينة نُوح ألف ذِراع ومأتي ذِراع، وعَرضها ثمانمائة ومائتي [ذراع]، وطولُها في السّماء ثمانين [ذراعاً]»[٧].

وفي رواية أُخرى: «طولُها ثمانمائة [ذراع] وعرضها خَمسمائة [ذراع]»[٨].

وعن الرضا عليه السلام: «اتّخذ نُوح عليه السلام في الفُلك تِسعين بيتاً للبهائم»[٩].

وفي رِواية: «وكانَ نوح عليه السلام قد اتّخذ لكُلّ ضَربٍ من أجناس الحيوان مَوضعاً في السّفينة، وجمَع لهم فيها ما يحتاجون إليه من الغِذاء»[١٠].

وقيل: كانَت مِن خَشب السّاج، وجُعلتْ ثلاثة بُطونٍ؛ حمل في البَطن الأوّل الوحوش والسِّباع والهوامّ، وفي البَطن الأوسط الدّوابّ والأنعام، وفي البَطن الأعلى هو ومَن معه، مع ما يحتاجون إليه من الزّاد، وحمَل معه جَسَد آدم[١١].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٢٧.
٢. الزمر: ٦/٣٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٢/٣٠٨، الكافي ٨: ٤٢٧/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.
٤. السِّرقين: السِّرجين، وهو زِبل الحيوان.
٥. العَذِرة: الغائط.
٦. مجمع البيان ٥: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥، تفسير القمي ١: ٣٢٦ «قطعة منه».
٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٢/٣١٠، الكافي ٨: ٤٢٦/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.
٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٤٤، تفسير الصافي ٢: ٤٤٦.
٩. الخصال: ١/٥٩٨، عن ابن عباس، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.
١٠. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤.
١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٦.

وقيل: جعل في الأوّل الدّوابّ والوّحوش، وفي الثّاني الإنس، وفي الأعلى الطّير[١].

﴿وَ﴾ احمِل معَكَ ﴿أَهْلَكَ﴾ وهُم: امرأتُه وبَنُوه و نِساؤهم - عن النبيّ ﷺ: «كانوا ثمانية: نوحٌ وأهلُه: وبَنُوه الثّلاثة، ونساؤهم»[٢] - ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ في عِلمي ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والحُكمُ بأنه مِن المُغرَقين، وهُو ابنُه كنْعان، وأُمُّه غانلة، لأنّهما كانا كافِرين ﴿وَ﴾ احْمِلْ ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بكَ مِن سائر النّاس ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وعن الصادق عليه السلام، في روايةٍ: «وكان الّذين آمنوا به مِن جَميع الدُّنيا ثَمانين رَجُلاً». الخبر[٣].

وعنه عليه السلام: «آمن مَع نُوح من قومِه ثَمانيةُ نَفرٍ»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «ليسَ كُلُّ مَن في الأرض مِن بني آدم من وُلد نُوح، قال الله في كِتابه: ﴿احمل فِيها مِن كُلّ زَوجَ اثْنَيْن ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن آمَنَ﴾ وقال: ﴿ذُرِّيَّة مَن حَمَلْنا مَعَ نُوح ...﴾»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ نوحاً حمَل الكَلب في السّفينة، ولَم يحمِل وَلَد الزّنا»[٦].

وعنه عليه السلام: «ينبغي لوَلَد الزّنا أن لا تَجوزُ له شَهادةٌ، ولا يَؤمَ النّاس، لَم يَحْمِلْه نوح في السّفينة، وقد حمَل فيها الكَلب والخِنزير»[٧].

وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللهِ مَجْرِيٰها وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُن مَعَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنى مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ [٤١-٤٣]

ثمّ أنه رُوي عن الصادق عليه السلام: «ثمّ [إنّ الله] أرسل [عليهم] المَطَر يفيضُ فيضاً، وفاضَ الفُراتُ فَيضاً، والعَيونُ كُلُّهنّ فيضاً»[٨].

وفي روايةٍ أُخرى عنه عليه السلام: «وانكسَفَتْ الشّمسُ، وجاء من السّماء ماءٌ مُنهمِرٌ صَبٌّ بِلا قَطْرٍ،

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٠٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ١٢٨.
٣. تفسير القمي ١: ٣٢٧.
٤. مجمع البيان ٥: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤.
٥. تفسير الصافي ٢: ٤٤٤، والآية من سورة الاسراء: ٣/١٧.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٣/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠١٤/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٥.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٧/٣٠٧.

وتَفجَرت الأرضُ عُيوناً ﴿فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾»[١].

﴿وَقَالَ﴾ نُوحٌ لمَن معَه مِن المُؤمنين بعدَ حَمْل الأزواج في السَّفينة: ﴿ٱرْكَبُوا﴾ أيُّها المُؤمنون، وادخُلوا ﴿فِيهَا﴾ حالَ كَونكم مُستعينين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أو قائلين: له ﴿مَجْرِيٰهَا﴾ وحينَ سَيْرِها على الماء ﴿وَمُرْسَاهَا﴾ ووَقتُ وُقوفها عَليه.

وعن الصادق عليه السلام: «أي مَسيرُها ومَوقِفُها»[٢].

وقيل: إن المَعنى: بِسْمِ الله إجراؤها وإرساؤها، فكان عليه السلام إذا أراد أن تجري قال: بسْمِ الله؛ فَجَرَتْ، وإذا أراد أن تَرسُوَ قال: بسْم اللهِ؛ فرسَتْ[٣].

ثمّ بَيّن نُوحٌ عليه السلام عِلّة نَجاتهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمُؤمنين، ولذا أنجاكم مَعَ زَلّاتكم وفرَطاتكم.

قيل: سارَتْ السَّفينةُ لأوّلِ يَومٍ من رَجَب، أو لعَشْرٍ منه[٤].

فرَكِبَ نُوحٌ عليه السلام والمُؤمنون في السَّفينةِ مُسَمِّينَ ﴿وَهِيَ﴾ كانتْ ﴿تَجْرِي﴾ على الماء، وتَسير ﴿بِهِمْ فِي﴾ خلال ﴿مَوْجٍ﴾ ومِياهٍ مُرتفعة على الماء لشِدّة الرِّياح، وكانَتْ الأمواج في عَظَمتها وارْتِفاعها ﴿كَالْجِبَالِ﴾.

عن الرضا عليه السلام: «أنّ نُوحاً عليه السلام لمّا رَكِب السَّفينة أوحى الله إليه: يا نُوح، إن خِفْتَ الغرَقَ فَهلِّلْني ألفاً، ثمّ سَلْني النّجاة، أُنجِك ومَن آمن معَك مِنَ الغرَقِ. قال: فلمّا استوى نُوح ومَن آمن معه في السَّفينة ورَفَع القَلْس[٥]، عصفَتْ الرِّيحُ عليهم، فلَم يأمَن نُوح عليه السلام [الغرقَ]، وأعجلَتْهُ الرِّيحُ فلَم يُدرِك أن يُهَلِّلَ [الله] ألف مَرّةٍ، فقال بالسريانيّة هيلوليلا[٦] ألفاً ألفاً، يا ماريا اتقن[٧]. قال: فاسْتَوى القَلْسُ واستقرّتْ السَّفينةُ، فقال نُوح عليه السلام: إنّ كَلاماً نجّاني اللهُ بِه من الغرَق لحَقيقٌ أن لا يفارقني. قال: فنقَش في خاتمِهِ: لا إلهَ إلّا اللهُ ألفَ مَرّة، يا رَبِّ أصلح»[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ نُوحاً عليه السلام لمّا ركِب السَّفينةَ وخافَ الغرَق، قال: اللّهُمّ إنّي أسألك بمحمد[٩] وآل محمّد لَمّا أنجَيْتني مِن الغرَق، فنَجّاه الله عزّ وجلّ»[١٠].

---

١. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٤، والآية من سورة القمر: ١٢/٥٤.

٢. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٤: ١٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٧: ٢٢٩.

٥. القَلس: العَظيم من حِبال السَّفينة.

٦. في تفسير الصافي وعيون أخبار الرضا عليه السلام: هيلوليا.

٧. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: أيقن.

٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٦/٥٥، وفيه: يا رب أصلحني، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧.

٩. في الاحتجاج: بحقّ محمد.

١٠. الإحتجاج: ٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧.

﴿وَنَادَىٰ نوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كَنْعان، وقيل: اسمُه يام[١].

وقيل: إنّه كان رَبيبَهُ[٢]، ابن واغلة[٣] الكافرة[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه قرأ: «ابنها»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «ليسَ بابنِه، إنّما هُو ابنُ امرأتِه، وهو لُغةُ طَيِّئ، يقولون لابْنِ المرأة: ابْنَهَ»[٦].

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وناحيةٍ بعيدة من نوح: ﴿يَا بُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السَّفينة ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ وتغرَقْ وتَهْلِك. عن الصادق عليه السلام: «نظَر نُوح إلى ابنِه يقَعُ ويقُوم، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ ٱرْكَب ...﴾[٧] الآية». ﴿قَالَ﴾ ابنُه: ﴿سَآوِي﴾ وألْتَجِئُ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ مِن الجِبال العَظيمة المُرتفعة، فإنّه ﴿يَعْصِمُنِي﴾ ويَحْفَظني بارْتِفاعه ﴿مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ والغَرق، فلا أحتاجُ إلى سَفينتك ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: يا بُني ﴿لَا عَاصِمَ﴾ ولا حافِظ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لأحدٍ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وعَذابه ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ العِبادَ، وهو الله تعالى.

قيل: إنّ المَعنى: لا مَعصومَ مِن العَذاب إلّا مَن رَحِمه الله[٨].

عن الصادق عليه السلام: «أنّه قال حينَ أشرفَ على النَّجَف: هو الجَبل الذي اعتَصم بِه ابنُ جَدّي نوح عليه السلام، فقال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾، فأوحى الله إليه: يا جَبلُ، أيعتصِمُ بكَ مِنّي أحدٌ، فغارَ في الأرض وتَقطّع إلى الشّام»[٩].

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ فانْقطع كَلامُهما بسَبب الحَيْلُولة ﴿فَكَانَ﴾ كَنعان بن نُوح ﴿مِنَ﴾ جُملة ﴿ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ والمُهلَكين.

عن ابن عبّاس أنّه قال: أمطَرتِ السّماءُ أربعينَ يوماً وليلةً، وخرَج ماءُ الأرض كذلك، فارتفع الماءُ على أطول جَبلٍ في الأرض بخَمسة عشر ذِراعاً، أو بثلاثين، أو بأربعين، وطافَتْ بهم السَّفينةُ الأرضَ كُلّها في خَمسة أشهرٍ لا تستقرّ على شيء، حتّى أتَتْ الحَرَم فلَم تَدخُله، ودارتْ حَول الحرَم أُسبوعاً، وقد اعتَق اللهُ البَيتَ مِن الغرَق[١٠].

القُمّي: عن الصادق عليه السلام في حديثٍ: «فَدارتْ السّفينةُ وضربَتْها الأمواجُ، حتّى وافَتْ مكّةَ وطافَتْ بالبَيت، وغرِق جميعُ الدُّنيا إلّا مَوضِع البَيت، وإنّما سُمّي البَيتُ العَتيق، لأنّه أُعتِقَ مِن الغَرَق، فبقيَ الماءُ

---

١. مجمع البيان ٥: ٢٤٩، تفسير روح البيان ٤: ١٣٠.
٢. الرّبيبُ: ابنُ امرأةِ الرّجل مِن غيره.
٣. في تفسير روح البيان: واعلة.
٤. تفسير روح البيان ٤: ١٣٠.
٥. تفسير الرازي ١٧: ٢٣١.
٦. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير العياشي ٢: ٢٠١٧/٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٤٧، وابْنَهَ: بفتح الهاء، أي: ابنها.
٧. تفسير القمي ١: ٣٢٧، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.
٨. تفسير روح البيان ٤: ١٣٢.
٩. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦١٢/٣٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ١٣٣.

ينصَبُّ مِن السّماء أربعينَ صباحاً، ومِن الأرض العُيون، حتّى ارتفعَتْ السّفينةُ فسحَت[١] السّماء. قال: فرفع نوحٌ عليه السلام يدَه فقال: يا رَهمان أتقِن، وتفسيرُها: يا رَبِّ، أحسِن»[٢].

وعنه عليه السلام: «ارتفعَ الماءُ على كُلّ جبلٍ وكُلّ سَهْل خَمسة عشر ذِراعاً»[٣].

وقيل: رُفِع البيتُ الذي بَناه آدم إلى السّماء السّادسة[٤]، واسْتُودِع الحَجرُ الأسود أبا قُبيس إلى زَمن إبراهيم[٥].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ نُوحاً كان في السّفينة، وكان فيها ما شاء الله، وكانَت السّفينة مأمورة، فطافت بالبَيت، وهو طَوافُ النِّساء»[٦].

وفي رِوايةٍ: وسَعَتْ بين الصَّفا والمَرْوة[٧].

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْـمَاءُ وَقُـضِى ٱلْأَمْـرُ وَٱسْتَوَتْ عَلى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ[٤٤]

وعن الصادق عليه السلام، بعدَ حِكاية دُعاء نوح عليه السلام: «فأمر الله عزّ وجلَ الأرضَ أن تبلَعَ ماءَها بقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾، قال: نزلَتْ بلُغة الهِند: اشْرَبي»[٨]. ﴿وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ وأمْسِكي ماءك ﴿وَغِيضَ﴾ ونقَص ﴿ٱلْمَاءُ﴾ من وَجه الأرض ﴿وَقُضِي﴾ وتَمّ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ وهُو إنجازُ ما وعد، وفرغ مِن إهلاك الكافرين وإنجاء المُؤمنين.

وفي رِوايةٍ: «فبلعَتِ الأرضُ ماءها، فأراد ماءُ السّماء أن يدخُلَ في الأرض،فامتنَعتِ الأرضُ من قَبوله، وقالت: إنّما أمرني الله أن أبلعَ مائي، فبقي ماءُ السّماء على وَجه الأرض ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السّفينةُ، واستقرّت ﴿عَلى﴾ جَبل ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ وهُو جَبلٌ عظيم بالمَوصِل، فبعثَ اللهُ عزّ وجلّ جَبرئيل، فساق الماءَ إلى البِحار حَول الدُّنيا»[٩].

وفي روايةٍ عن الكاظم عليه السلام: «فأوحى اللهُ إلى الجِبال: إنّي واضع سَفينة نُوح عبدي على جَبلٍ منكُنّ، فتطاولَت وشَمَختْ، وتَواضَعَ الجُوديُّ، وهو جَبل عندكم، فضَربَت السّفينةُ بجُؤجُؤها[١٠] الجبل، قال:

---

١. سحَّتِ السماء: صَبَّتِ الماء.
٢. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.
٣. الكافي ٨: ٤٢٨/٢٨٤، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.
٤. زاد في تفسير روح البيان: وهو البيت المعمور.
٥. تفسير روح البيان ٤: ١٣٣.
٦. الكافي ٢: ١٢/١٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٢/٣١٠، الكافي ٨: ٤٢٦/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٠/٣١٠، تفسير الصافي ٢: ٤٤٨.
٩. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.
١٠. الجُؤجُؤ: صدر السَّفينة.

فقال نوح عندَ ذلك: يا ماري أتقِن، وهو بالسّريانيّة: رَبِّ أصلِحْ»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «سمَع نوح صَرير السّفينة على الجُوديّ، فخاف عليها، فأخرج رأسه من كُوّةٍ كانت فيها، فرفع يَده وأشار بإصْبعه وهو يقول: يا رَهمان[٢] أتقِن، تأويلُها: رَبِّ أحسِنْ»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى نوح وهُو في السّفينة أن يطوفَ بالبيت أُسبوعاً، فطاف كما أوحى [الله تعالى] إليه، ثمّ نزل في الماء إلى رُكبتَيه، فاسْتخرج تابوتاً فيه عِظام آدم عليه السلام، فحمله في جَوف السّفينة، حتّى طافَ ما شاء الله أن يطُوف، ثمّ ورَد إلى باب الكُوفة في وسط مسجدها، ففيها قال الله للأرض: ﴿ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾، فبلعَت [ماءها] مِن مسجد الكُوفة كما بَدأ الماءُ منه، وتفرّق الجَمعُ الذي كان معَ نوح عليه السلام في السّفينة» الخبر[٤].

﴿وَقِيلَ﴾ على سَبيلِ اللّعْنِ والطَّرْد: ﴿بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾[٥] قيل: إنّ القائل هو الله[٦]، وقيل: نوحٌ[٧].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل: كَم لبِث نوح عليه السلام ومَن معه في السّفينة حتّى نضَبَ الماءُ وخرجوا منها؟ فقال: «لَبِثُوا فيها سبعةَ أيّامٍ ولَياليها، وطافت بالبَيت أُسبوعاً، ثمّ استَوَتْ على الجُوديّ، وهو فُرات الكُوفة»[٨].

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ * قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ [٤٥ـ٤٧]

ثمّ حكى سُبحانه اعْتِراض نوح عليه السلام عندَ هَلاك كَنعان بالغَرق، مَع وَعْدِه إيّاه بإنجاءِ أهله؛ بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ﴾ حُزناً على ابنِه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي﴾ كنعان ـ أو يام ـ كان ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ الّذين وَعدْتَني إنجاءهم في قولك: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ هذا، بَل جميع وعودك[٩] ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والصِّدق، لا يُمكن تَطرّق الخُلْفَ إليه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ وأعدَلُهم ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ

---

١. الكافي ٢: ١٢/١٠١، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.
٢. في تفسير العياشي: ربعمان.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٦/٣١١، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.
٤. التهذيب ٦: ٥١/٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٤٩.
٥. تفسير الرازي ١٧: ٢٣٥.
٦. مجمع البيان ٥: ٢٥٠.
٧. مجمع البيان ٥: ٢٥٠.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٠٧/٣٠٧، الكافي ٨: ٤٢١/٢٨١، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.
٩. في النسخة: وعدك.

﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الّذين وعَدْتُك بنَجاتهم؛ لأنّه لَم يكُن على دينِك ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وفيه مُبالغةٌ في ذَمّه.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله قال لنُوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنّه كان مُخالفاً له، وجعلَ مَن اتَّبعه مِن أهله»[1].

وفي رِوايةٍ: «نَفَاه عنه حينَ خالفه في دينه»[2].

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَنبيه نوح عليه السلام بخَطأه، وأن وَلَده كان مِمّن سبق عليه القولُ، عاتبه على عَدم تأمُّلِه في حُسن مَطلوبه بقوله: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ ولا تطلُب مِنِي عملَ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ وبصَلاحه وصَوابه ﴿عِلْمٌ﴾ أجِد مثلَ هذا السُّؤال [ليس] من شأنك الرّفيع ومَقامك المَنيع عندي، و﴿إِنِّي﴾ لحُبّي لك وشَفَقتي عليك ﴿أَعِظُكَ﴾ وأنصحُك كَراهةَ ﴿أَن تَكُونَ﴾ في آنٍ ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بعُلُوّ مَنزلتك المُنافي للسُّؤال الذي يكون تَركُه أولى وأفضل، فإنّ حسَنات الأبرار سَيِّئات المُقرّبين.

﴿قَالَ﴾ نوحٌ مُعتذراً من تَرْكِه الأوْلى، ومُستغفراً من زَلّته: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ لا أملِكُ لنفسي أن أحفَظها مِن مِثلِ هذه الزَلّات، و﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ وألْتجئُ إليك وإلى حفظك في بقيّة عُمري مِن ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ فيما بَعد ﴿مَا لَيْسَ لِي﴾ برِضاك ﴿بِهِ﴾ وما صوّبته[3] عندَك ﴿عِلْمٌ﴾ فضلاً عمّا أعلمُ فسادَه وعدَم رِضاك به، فاغْفِر لي ما صدَر منّي ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ زَلّتي ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بقَبُول تَوبتي ومَعْذِرتي ﴿أَكُن﴾ ألبَتّة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أعمالاً، فإنّ الانصِرافَ عن شُكر نِعمك، والاشْتِغال بما ليسَ فيه رِضاك؛ كطَلَب نَجاة مَن يستحقّ العَذاب، خُسرانٌ ظاهرٌ، وغُبْنٌ فاحِش. وفيه غايةُ التّذَلُّل والاسْتِكانة.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ[٤٨]

وإنّما أخّر سُبحانه ذِكر نداء نوح عليه السلام عن ذكر زَوال الطّوفان معَ كونه في بَدْوِه، رِعايةً للتّرتيب بَينَ تَوبتِه واعْتِذاره، وبَيْن إظهار غاية لُطفهِ به بأمره تعالى بنُزوله مِن الفُلْك بسَلامٍ وبَركاتٍ عليه وعلى أتباعه بقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ وانزِلْ من الفُلك على الأرض مُتلبّساً ﴿بِسَلاَمٍ﴾ وأمْنٍ من الآفات والمَكارِه، وحِفْظٍ كاملٍ كائِنٍ ﴿مِنَّا﴾ أو تَحيّةٍ عظيمةٍ من قِبَلنا ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ كَثيرةٍ وخَيراتٍ ناميةٍ فائضة ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ﴾ وجَماعاتٍ كثيرةٍ مُؤمنةٍ مُتَولّدةٍ ومُنشعبةٍ ﴿مِمَّن مَعَكَ﴾.

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٨/٣١٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣/٧٥، مجمع البيان ٥: ٢٥٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٠.

٢. تفسير العياشي ٢٠٢٨/٣١٢/٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣/٧٦، تفسير الصافي ٢: ٤٥١.

٣. كذا، والظاهر صوابيّته.

قيل: لمَا خرَج نوح عليه السلام من السَفينة خاف من الشِدَّة وضِيق المَعاش، لعِلمه بفَناء ما على الأرض مِمَا ينتفع به البَشر، فبشَره الله بالسَلامة المُستلزمة للأمن من الآفات، والسَّعَة في العَيش، وبالبَركات وهي الثَّبات والبَقاء ببَقاء نَسْله، حيثُ إنَه لَم يكُن معه إلّا نَسْله، أو كان ولكن ماتَ مَن لَم يكُن من نَسْله، ولذا قالوا إنَه آدم الثاني[١].

وعن الصادق عليه السلام في رِوايةٍ: «فنزَل نوح عليه السلام بالمَوصل من السَفينة مع الثَمانين، وبنَوا مدينة الثَمانين، وكانت لنُوح ابنَةٌ رَكِبت معه السَفينة، فتَناسل النَاس منها، وذلك قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله: نوحٌ أحدُ الأبَوَيْن»[٢].

ثمَ أنَه تَعالى بعدَ تَبشيره بحُسن حال المُؤمنين من ذُريّته وذُرّيّة مَن معه، بيّن حال الكُفّار منهم بقوله: ﴿وَأُمَمٌ﴾ وجَماعاتٌ منهم ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدُّنيا قليلاً ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ ويُصيبهم بعدَ المَوت وفي الآخرة ﴿مِنَّا﴾ عُقوبة على كُفرهم وسُوء أعمالهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لايُقادَر قَدْرُه.

قيل: إنَه لمَا رَستْ السَفينة على الجُوديّ كشَف نُوح عليه السلام الطَبَق الذي فيه الطَير، فبعثَ الغُراب لينظُرَ هل غرِقتْ البِلاد، وكم بقِي من الماء، فيأتيه بخبر الأرض؟ فأبصر جِيفةً، فوقع عليها واشْتغل بها ولم يرجِع، ثمَ أرسل الحَمامة فَلم تَجِد موضعاً في الأرض، فجاءت بوَرق الزَيتون في مِنقارها، فعرَف نوح عليه السلام أنّ الماء قد نقَص، وطهرَت الأشجارُ، ثمَ أرسلها فوقعتْ على الأرض، فغابتْ رِجْلاها في الطَين قَدْرَ حُمْرَتها، فجاءت إلى نوح عليه السلام فأرَتْهُ، فعرَف أنّ الأرض قد ظهرَتْ، فبارك على الحَمامة وطوّقها الخُضرة التي في عُنقها، ودعا لها بالأمان، فمِن ثَمّ تألَف البُيوت، ودعا على الغُراب بالخَوف، فلذلك لا يألَف البُيوت، وتَتَشأَمُ العربُ به»[٣].

عن الصادق عليه السلام: «لمَا حسَر الماءُ عن عِظام المَوتى، فرأى ذلك نوح عليه السلام جزِع جَزعاً شديداً واغْتَمَ لذلك، فأوحى الله عزّ وجلّ [إليه] هذا عَمَلُك[٤]، أنت دعوْتَ عليهم، فقال: يا رَبِّ إنّي أسْتغفرُكَ وأتوبُ إليك. فأوحى اللهُ إليه أن كُلِ العِنَب الأسودَ ليذهبَ غَمّك»[٥].

وقيل: لمَا ارتفَع الطُّوفانُ قسّم نوح عليه السلام الأرض بين أولاده الثَلاثة، فأمَا سام فأعطاه بِلاد الحِجاز واليَمن والشَام، فهُو أبو العرَب، وأمَا حام: فأعطاه بِلاد السُّودان، فهو أبو السُّودان، وأمَا يافث فأعطاه بِلاد المَشرق، فهو أبو التُّرك»[٦].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٦.
٢. تفسير القمي ١: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٥١.
٣. تفسير روح البيان ٤: ١٤٢.
٤. زاد في الكافي: بنفسك.
٥. الكافي ٦: ٢/٣٥٠، تفسير الصافي ٢: ٤٥٤.
٦. تفسير روح البيان ٤: ١٤١.

عن الصادق عليه السلام: «كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة»[1].

وعنه عليه السلام: «عاش نوح عليه السلام ألفي [سنة] وثلاثمائة سنة، منها ثمانمائة وخمسون سنة قبل أن يُبعث، وألف سنة إلّا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم، وخمسمائة عام بعد ما نزل من السّفينة، ونضَب الماءُ فَمصّرَ الأمصار، وأسكن وُلْدَه البُلدان. ثمّ إنّ ملَك المَوت جاءه وهو في الشّمس، فقال: السّلامُ عليك، فردّ عليه نُوح فقال: ما جاء بِك يا ملَك الموت؟ فقال: جئتُك لأقبِضَ روحَك، قال: دَعْني أدخُل من الشّمس إلى الظِلّ، فقال له، نَعَم، فتَحَوّل ثمّ قال: يا ملَك المَوت كُلُّ ما مَرّ بي من الدُّنيا مِثل تَحويلي من الشّمس إلى الظِلّ، فامْضِ لِما اُمرتَ به، فقَبض روحَه»[2].

وعنه عليه السلام: «عاش نوحٌ بعدَ الطُّوفان خمسمائة سنة، ثمّ أتاه جَبرئيل فقال: يا نوح، إنّه قد انْقضَتْ نُبوّتُك، واستكملت أيّامك، فانظُر إلى الاسْمِ الأكبر، وميراثِ العِلم، وآثارِ النُّبوّة التي معك، فادْفَعْها إلى ابنِك سام، فإنّي لا أترُك الأرضَ إلّا وفيها عالِمٌ تُعرَفُ به طاعتي، ويُعرَفُ بِهِ هُدايَ، ويكون نجاةً [فيما] بَيْن مَقْبَضِ النبيّ ومَبْعث نَبيٍّ آخر، ولَم [أكن] أترُك النّاس بغَير حُجّةٍ [لي] وداعٍ إليّ وهادٍ إلى سَبيلي، وعارِفٍ بأمري، فإنّي [قد] قضَيْتُ أن أجعَلَ لِكُلّ قومٍ هادياً أهدي به السُّعداء، ويكون حُجّةً لي على الأشقياء. قال: فدفَع نوح عليه السلام الاسْمَ الأكبَر، وميراث العِلم، وآثار النُّبوّة إلى سام، وأمّا حام ويافث فلَم يكُن عندهما ما يَنتفعان به. قال: وبشّرهم نوح عليه السلام بهُودٍ، وأمرَهم باتّباعه، وأمرهم أن يفتحوا الوصيّةَ في كُلّ عامٍ، وينظُروا فيها، ويكون عيداً لهم»[3].

تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [٤٩]

ثمّ نبّه سُبحانه على إعجاز القُرآن من جِهة تضمُّنِه للمُغَيّبات، إثباتاً لصِدقه وصِدق النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ القِصّة التّي قصَصْناها عليك مِن تفصيل دَعوة نوح، ومُحاجّته مع قومه، وصُنعه الفُلك، واستِهزاء قومه به، وغَرقهم بالطُّوفان، ومُكالمته مع ابْنه كنعان، إلى آخرها، كُلّها ﴿مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ومن الأخبار التي لا يعلَم بها أحدٌ إلّا بطَريق الوَحْي، ونحنُ ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ بتَوسُّط جَبرئيل ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ﴾ وإن لَم تَكُن اُميّاً ﴿وَلَا﴾ يعلَمُها ﴿قَوْمُكَ﴾ بهذا التّفصيل ﴿مِن قَبْلِ﴾ نُزول ﴿هَٰذَا﴾ القُرآن، وإن علِموا بها إجمالاً، فمعَ هذه المُعجزة العظيمة إن أصرُّوا على تَكذيبك في النُّبوّة،

---

١. كمال الدين: ٢/٥٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٤.
٢. الكافي ٨: ٢٨٤/٤٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤٥٤.
٣. الكافي ٨: ٢٨٥/٤٣٠، تفسير الصافي ٢: ٤٥٤.

وتَكذيب كِتابك ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تَكذيبهم وإيذائهم، كما صبَر نوح عليه السلام سِنينَ مُتطاولة على ذلك، وابْشِر بأنّه كما كانت عاقبةُ صَبْر نوح النَّصر والظَّفَر والفَرَحَ والسُّرور، تكون عاقبةُ صَبْرِك كذلك، بل نَقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة في الدُّنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمؤمنين الصّابرين كافَّةً، [سواء أ] كانوا رسلاً أو غيرهم. وفيه تَسْلية النبيّ صلى الله عليه وآله والمُؤمنين.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[٥٠ و ٥١]

ثمّ أردف سُبحانه قِصّة نوح بقصّة هود، ازدياداً للاعْتِبار والتّسلية بقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومَن هو من قَبيلتهم، وكان اسمُه ﴿هُوداً﴾ وهذه القَبيلة كانت من العَرَب، بناحية اليمن، على ما قيل[1].

ثمّ أنه عليه السلام دَعاهم إلى التّوحيد، و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وَحده، فإنّه ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ﴾ ومَعبودٍ مُستحِقٍّ للعِبادة ﴿غَيْرُهُ﴾ تعالى، لدَلالة جَميعِ المَوجودات على ألوهِيّته ووَحدانيّته ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ وماكنتُم ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وكاذبون في دَعوى كَون غَيره شريكاً له في الألوهِيّة، لظُهور آثار الحُدوث في غيره، الدّالّة[2] على كونه مَخلوقاً مِثلكم.

ثمّ دفَع تَوهُّم طَمَعِه في أموالهم، اسْتِجلاباً لقُلوبهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن تَحْتَرزوا مِن قَبول قَولي لِتوهُّمِكم طَمعي في أموالكم، فاعْلَموا أنّي بعَملي هذا من الدّعوة والهِداية إلى التّوحيد ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وعِوَضاً من أموالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما عِوَض عملي ﴿إِلَّا عَلَى﴾ الله ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخَلقني بقُدرته، أتُنكرون تَوحيده ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أنّه حقٌّ لا مَحيصَ عنه بحُكم العَقل السّليم؟ وإنّي بَريءٌ من الطَّمع في أموالكم.

وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ[٥٢]

ثمّ حثّهم على تَرك الشِّرك والتّوبة منه بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا﴾ واسْألوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ سَتر ما سلَف من إشراككُم به ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ وارجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالنّدَم على عِصيانكم، وبالعَزم على عَدم العَوْد إلى

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٩. ٢. في النسخة: الدلالة.

مِثله، فإن فعلتُم ذلك يقبَلُ الله تَوبتَكم، و﴿يُرْسِلِ﴾ ويُمطر ﴿ٱلسَّماءَ عَلَيْكُم﴾ برَحمته، حالَ كَونه ﴿مِدْرَاراً﴾ ومُتتابعاً في أوقاتِ الحاجة إليه، فعندَ ذلك تكثُر نِعَمُكم وتَوْفُر حُظوظُكم ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ معَ ذلك ﴿قُوَّةً﴾ في الجِسم ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ التي تكون في الحال، فلِذا تتمكّنون مِن كَمال الانْتِفاع بتِلك النِّعَم، فتجتمع لكم السَّعادةُ الجِسمانيّةَ والماليّة.

ثمَ أكّد أمره بالمَعروف بنَهْيه عن المُنكر بقوله: ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تُعرِضوا عن نُصحي وإرشادي لكم إلى خَيْركم، حالَ كَونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وعاصين لرَبّكم، مُستحقّين لعُقوبة مَليككم.

قيل: إنّهم كانوا أصحابَ زُروعٍ وبَساتينَ وعِماراتٍ، حُرَاصاً عليها أشدّ الحِرص، وكانتْ بَساتينُهم في غاية اللُّطف والبَهْجة، وكانوا أحوجَ شيءٍ إلى الماء، وكانوا في غاية القُوّة والبَطْش، مَحفوظين بها من العَدُوّ، مَهيبينَ في كُلّ ناحيةٍ[١]، مُفتخرين بكَثْرةِ المال والقُوّة، ولِذا وَعدهم هُود بالزِّيادة فيها.

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[٥٣]

ثمَ أنّ القومَ بعدَ ما سمِعوا دَعوةَ هود إلى التَوحيد، وتَرغيبَهم إلى التَوبةِ من الشِّرْك ﴿قَالُوا﴾ تَكذيباً له: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وما أقمتَ حُجّةً على نُبوّتك، وصِدق قَولك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عِبادةِ ﴿آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا التي كُنّا نلتزمُ بها تَقليداً لآبائنا، حال كَون التَّرْك صادراً ﴿عَن﴾ مُجرّد ﴿قَوْلِكَ﴾ بلا حُجّة ولا مُعجزة دالّة على صِدقه ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولقَولك بمُصدّقين.

إِن نَقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ ٱللهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٥٤-٥٦]

ثمَ لَم يكتفُوا بتكذيبه، بَل نَسبُوه إلى الجُنون بقوله: ﴿إِن نَقُولُ﴾ في شأنك ﴿إِلَّا﴾ قولاً خاصّاً وصِدقاً، وما نعتقدُ إلّا اعتقاداً صائباً، وهُو أنّه ﴿ٱعْتَرَاكَ﴾ وأصابَك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا ﴿بِسُوءٍ﴾ وجُنونٍ، لأنّك تشتُمُهم، وتمنَعُ عن عِبادتهم، وتحُطُّهم عن مَقام الألوهيّة بقولك: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾، فلا اعْتِداد بقَولك، ولا ينبغي للعاقل تَصديقُك والإيمانُ بك.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٤٧.

وفي تَنْكير السُّوء، ونِسْبتِه إلى بعض آلهتِهم، إشعارٌ بعدَم مُبالغتهم فيه، وإن بالغوا في تَكذيبه بدَعوى عدَم قابليَة كلامِه للتَصديق ونَظْمِه في الهِدايات، ولِذا بالغ هُو عليه السلام أيضاً في الإجهار بعدَم ألوهيَة أصنامهم، و﴿قَالَ﴾: يا قوم ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا﴾ جميعاً ﴿أَنِّي بَرِيءٌ﴾ ما دامت حَياتي ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ﴾ صنماً كان أو غيره، فإن اسْتَثْقلتُم قولي، ونصَبتُم لي العَداوة، وصدَقتم في دَعوى قُدرة أصنامكم على الإساءة بي ﴿فَكِيدُونِي﴾ واحْتالُوا أنتم وأصنامكم ﴿جَمِيعاً﴾ في قتلي ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ احْتِيالكم ﴿لاَ تُنْظِرُونِ﴾ ساعةً ولا تَمْهَلُوا فِيَّ لَحظةً، فإنّي لا أُبالي مَع انْفرادي منكم مَعَ كَثْرتكم وقُوَتكم، وشِدَة بَطْشكم وبأسكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ومالِكي ومالِكِكُم، ووَثِقْتُ به، والْتَجأْتُ إليه، فانّه القادرُ على حِفظي فيكم، ودَفْعِكم عنّي، لوُضوح أنّه ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ في الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى مالِكُها، والقاهِرُ عليها، يُصرِّفها حيثُ يَشاء، كأنّه تَعالى ﴿آخِذ بِنَاصِيَتِهَا﴾ لا تَقْدِرُ على أن تتحرّك إلّا بإرادته تَعالى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من الحَقِّ والعَدل، ولِذا لا يَكادُ يُسلِّطُكم عَلَيَّ، ويُضيِّعُ مَن توكّل عليه واعْتَصم به.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني أنّه على الحَقّ، يَجزي بالإحسان إحساناً، وبالسَّيءِ سَيِّئاً، ويَعْفُو عمَن يَشاءُ ويَغْفِر [سُبحانَه وتَعالى]»[1].

فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[٥٧]

ثمّ أعلَمهم بتَماميَة الحُجّة عليهم بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وتُعرِضوا عن قَبُول قَولي، وتُصِرُّوا على تَكذيبي ﴿فَقَدْ﴾ أتممْتُ عليكم الحُجَة، حيثُ إنّي ﴿أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ بِلا تَفْريط منّي في أداء رِسالتي، وتَقصيرٍ منّي في القِيام بوَظيفتي، وإنّما التَفريطُ من قِبَلكم، حيثُ إنّكم معَ وضوح الحَقّ عندَكم أبَيْتُم إلّا الجُحودَ والتَكذيب، فاحْذَرُوا مِن أن يُهلِكَكُم اللهُ على كُفركم عن آخِركم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي﴾ في دِياركم وأموالكم بعدَ إهلاكِكم ﴿قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ وفَريقاً سِواكم، أطوعُ له منكم، ﴿وَ﴾ أنتم ﴿لاَ تَضُرُّونَهُ﴾ بتَولّيكم وإعراضكم عن قَبول دَعوةِ رسوله، والإيمانِ بتَوحيده ﴿شَيْئاً﴾ يَسيراً، ولا تُنقِصُون من مُلكه وسُلطانه نَقيراً ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ ومُسْتَولٍ ورَقيبٌ، فكيف يقدِر شيءٌ على الإضرار به؟

وقيل: يعني هو مُطّلعٌ على كُلِّ شيءٍ، فَلا يَخفى عليه عِصيانُكم وطُغيانُكم، فيُجازيكم عليه أسوأ

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٢٩/٣١٢، تفسير الصافي ٢: ٤٥٦.

الجَزاء. أو هو مُطّلعٌ على عَملي وعَملكم، فيحفَظني من مَكْرِكم وشَرِّكم.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[٥٨]

ثمّ أنهم بعدَ تِلك المَواعظ والتّهديدات، بالَغوا في الإصرار على الكُفر ومُعارضة الرّسول، فاستحقُّوا عذاب الاسْتِئصال، فأخبر سُبحانه بنُزوله عليهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ونزَل عذابُنا ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهُم أربعةُ آلافٍ ـ على ما قيل[١] ـ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿مِنَّا﴾ وهي التّوفيق للإيمان الذي أنعمناه عليهم، والهِداية له.

ثمّ بيّن سُبحانه المُراد من الأمر، وما نجّاهم منه بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وشديدٍ، أنزلناه على الكافرين.

وقيل: أُريدَ بالتّنجية الثّانية عذابُ الآخرة[٢].

وإنّما ذكره لبَيان تَكملةِ النِّعمةِ عليهم بالنّجاة في الدّارَين، وتَشديده فيها على الكُفّار.

عن القُمّي رحمه الله: أنّ عاداً كانتْ بِلادهم في البادية من المشرق[٣] إلى الأجفر أربعة مَنازل، وكان لهم زرعٌ ونَخل كثير، ولهم أعمار طويلة وأجساد طَويلة، فعبَدوا الأصنام، وبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخَلع الأنداد، فأبَوا ولم يُؤمنوا بهود وآذَوْهُ، فكَفّت السّماءُ عنهم سَبع سِنين حتّى قحَطُوا. وكانَ هوداً زرّاعاً، وكان يسقي الزّرع، فجاء قومٌ إلى بابه يُريدونه، فخرجَتْ إليهم امرأةٌ شَمطاء عَوراء فقالت: مَن أنتم؟ قالوا: نحنُ مِن بلاد كَذا وكَذا، أجدبَتْ بِلادُنا فجِئنا إلى هود نسأله أن يدعُوَ اللهَ حتّى تُمطَرَ وتخصَبَ بِلادُنا، فقالت: لَو اسْتُجيبَ لهودٍ لدَعا لنفسه، فقد احترقَ زَرعُه لقِلّة الماء. قالوا: فأينَ هو؟ قالت: في موضع كذا وكذا، فجاءوا إليه فقالوا: يا نبيَّ الله، قد أجدبَتْ بِلادُنا ولم تُمطَر فاسأل الله أن تَخْصَبَ بِلادُنا وتُمطَرَ. فتهيّأ للصلاة وصَلّى ودَعا لهم فقال: ارجِعُوا فقد اُمطِرْتُم وأخصَبَتْ بِلادُكم، فقالوا: يا نبيَّ الله، إنّا رأينا عَجَباً، قال: وما رأيتُم؟ قالوا: رأينا في مَنزلك امرأةً شمطاءَ عَوراء قالت لنا: مَن أنتُم [وما] تُريدون؟ فقلنا: جِئنا إلى هود ليَدعُوَ اللهَ لنا فنُمْطَر، فقالتْ: لو كانَ هود داعياً لدَعا لنفسه، فإنّ زَرعه قد احْترق. فقال هود: هي أهلي، وأنا أدعُو اللهَ أن يطول لها البَقاء. فقالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّه ما خلَق اللهُ مُؤمناً إلّا وله عَدوٌّ يُؤذيه، وهي عَدُوٌّ لي، فلَئِن يكون عدو مِمَّن أملِكُه خيرٌ من أن يكون عدوّ مَن يملكُني.

---

١ و٢. مجمع البيان ٥: ٢٦٠.

٣. في المصدر: الشقيق.

فبقي هود عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله، ويَنهاهم عن عِبادة الأصنام حتّى أخصبَتْ بِلادُهم، وأنزل الله عليهم المطَر، وهو قوله عزّ وجلَ: ﴿يَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآيات.

فَلمّا لَم يُؤمنوا أرسَل الله عليهم الرِّيحَ الصَّرْصَر ـ يعني: الباردة ـ وهو قوله تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[1]، وحكى في سورة الحاقّة فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[2]، قال: كانَ القمرُ مَنحوساً بزُحَل سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام[3].

وقيل: إنّ العذابَ الغَليظ هو السَّموم[4]، كانت تدخُل أنوف الكَفَرة، وتخرُج من أدبارهم، فتُقطِّعهم إرْباً إرْباً[5].

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ[٥٩ و ٦٠]

ثمّ ذَمّهم اللهُ بعدَ إهلاكهم بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ القَبيلة المُهلَكة ﴿عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ودَلائل تَوحيده، ومُعجزات نَبيّه ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ جميعاً بعِصيانهم هوداً، لكَون جَميعِهم على قولٍ واحد ﴿وَٱتَّبَعُوا﴾ في الكُفْر والعِصيان ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ ومُتَمرِّدٍ عن الحَقّ ﴿عَنِيدٍ﴾ ومُعارض له.

قيل: «تِلْكَ» إشارة إلى قُبُورهم[6].

ثمّ بيّن سُبحانه سوء عاقبتهم عِبرةً للنّاس بقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ وأردِفوا باتِّباعهم رُؤساءِ الضَّلال، الدُّعاةِ إلى الكُفر بالآيات، وتَكذيب الرُّسُل ﴿فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وبُعداً عن الرّحمة وعَن كُلّ خَيرٍ، بحيث لا يُفارقهم أبداً، بَل يدور معهم حيثُما دارُوا ﴿وَ﴾ كذا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ويكونُ أثَرُ بُعْدِهم الدُّخولَ في النّار، والخُلودَ فيها.

ثمّ بالغ سُبحانه في تَفضيح حالهم، والحَثِّ في الاعْتِبار بهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ونِعَمَه، وجَحدوا وَحْدانيّتَه. ثمّ دَعا عليهم بالهَلاك تَسجيلاً لاسْتِحقاقهم له بقوله: ﴿أَلَا بُعْداً﴾ وهَلاكاً قَطعيّاً ﴿لِعَادٍ﴾. ثمّ بيّن المُراد مِن عادٍ بقوله: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ لِئَلا يشتبه بعادٍ الثانية؛ وهُم عاد بن إرم.

---

١. القمر: ١٨/٥٤ و١٩.　٢. الحاقة: ٦/٦٩ و٧.　٣. تفسير القمي ١: ٣٢٩، تفسير الصافي ٢: ٤٥٧.
٤. السَّمُوم: هي الريح الحارّة، والحَرُّ الشديد النافذ في المَسام.
٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢١٩.　٦. تفسير البيضاوي ١: ٤٦١.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ[٦١]

ثمَ أتبع سُبحانه قِصَةَ ثَمود بالقصَتين ازدياداً لعِبرة المُشركين، وتَسلِيةً للنبيّ ﷺ والمُؤمنين بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قَبيلة ﴿ثَمُودَ﴾ الّذين هُم من العرَب سُمُّوا باسْم أبيهم الأكبر[١]، أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ ورَجُلاً منهم سُمّي ﴿صَالِحاً﴾ قيل: هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عتيد بن حادر[٢] بن ثمود[٣] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده لأنَه ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

ثمَ استدَلّ على اسْتِحقاقه العِبادة بنِعَمه الدالّة على كَمال قُدرته ورحمته حثّاً لهم عليها بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ وخلَقكم بقُدرته من آدم، أو مِن المَنِيَ المُتكوّن من الأغـذية النَباتيَة، ومَعلومٌ أنّ آدم أو النَبات مَخلوقٌ ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وتُرابِها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ واسْتبقاكـم مُـدّةً طـويلة، أو أقـدركم عـلى العِمارة ﴿فِيهَا﴾ أو جعلها لكم نَحو العُمري[٤]، بأن أسكنكم فيها مُدّة حَياتكم، ثمّ جعَلها بعدَ مَوتكم لغيركم، فإذا كان اللهُ بهذه المَرتبة من القُدرة عليكم، والإحسان إليكم، المُقتضِيَين للخَوف مِن عِصيانه والشُّكرِ له ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ عمّا صدَر منكم من العِصيان وكُفران النِّعمة ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ وارجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالإيمان بوَحْدانيّته، والنَدم على الشِّرك، والعَزْم على عدَم العَود إليه ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ منكم عـلماً وإحاطةً، يسمَع اسْتِغفاركم، ويَرى تَضرُّعكم، أو قريبُ الرَحمةِ منكم ﴿مُجِيبٌ﴾ لدُعائكم.

قيل: إنّ قَوله: (قَريب) ناظِرٌ إلى أمره بالتَوبة، و(مُجيب) إلى أمره بالاسْتِغفار، كأنَه قال: ارجِعُوا إليه فإنَه قَريبٌ، واسْألوه المَغفرة فإنَه مُجيب[٥].

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِى مِنَ ٱللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ* وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ ٱللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٤: ١٥٣.

٢. في تفسير أبي السعود: ماشح بن عبيد بن جادر، وفي تفسير روح البيان: ماسح بن عبيد بن خاور.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٤: ١٥٣.

٤. العُمري: من عقود التمليك، كأن تقول: هذه الدار لك عُمرك، أي مادمت حياً.

٥. تفسير روح البيان ٤: ١٥٤.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [٦٢ـ٦٤]

ثمّ أنّ القوم بعدَما دَعاهُم صالحٌ إلى القَول بالتّوحيد ﴿قَالُوا﴾ في جَوابه: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً﴾ ومَحَلّاً للآمال مِن حَيث قُوّة عَقلك، ورَزانة رَأيك، وحُسن تَدبيرك، وكَمال شَفقتك. عن ابن عبّاس: يعني فاضلاً خيراً نُقدِّمُك على جَميعِنا[1] ﴿قَبْلَ هٰذَا﴾ الوقت الذي ادّعيتَ بُطلان مَذهبنا وفَساد عَقائدنا، ودَعوتَنا إلى التّوحيد وتَرك عِبادة الأصنام، يالَلعَجَب ﴿أَتَنْهَانَا﴾ عن ﴿أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الأقدمون، وتأمُرنا بأن نترُك تَقليد أسلافنا الأكرمين؟! إذَن قد انقطَع رَجاؤنا عنك، وتَبيّن خَطَؤنا فيك ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا﴾ من التّوحيد وتَرك عِبادة الأصنام، وذلك الشّكّ فيما تدعونا ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وموقع للقَلق والاضطِراب في قُلوبنا، أو نحنُ في[2] رِيبةٍ عظيمة.

وقيل: إنّ الشّكّ هُو تَساوي الاحتِمالين، والرّيْب هُو رُجحان احتِمال السُّوء والفَساد[3].

﴿قَالَ﴾ صالح برفقٍ ولين: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبِروني ﴿إِن كُنتُ﴾ في ادّعائي ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحُجَةٍ ظاهرةٍ، أو معرفةٍ وبَصيرةٍ كاملةٍ كائنةٍ ﴿مِن رَبِّي﴾ ومَليكي ﴿وَآتَانِي مِنْهُ﴾ في الواقع والحقيقة ﴿رَحْمَةً﴾ ورِسالةً، أو مُعجزةً قاهرةً ﴿فَمَن يَنْصُرُنِي﴾ ويحفَظُني ﴿مِنَ﴾ عَذاب ﴿ٱللّٰهِ﴾ وبأسه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وخالفتُ أمره بتَبليغ رِسالته إليكم، ونَهيه [عن] المُساهلة فيه والمُداراة معكم ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذَن بتَوقّعكم السُّكوت عن دَعوتكم إلى التّوحيد، والمُوافقة معكم في الشِّرك، شيئاً ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وتَضرُّر، حيثُ إنّه ليسَ في مُوافقتكم إلّا التّعرُّض لسَخَط الله وعَذابه.

وقيل: إنّ المُراد: ما تَزيدونني بما تقولون غيرَ أن [أنسبكم إلى الخُسران و] أقولَ لكم إنّكم لخاسرون[4].

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إن تُريدون منّي آية ومُعجزة دالّة على صِدق نُبوّتي وصِحّة ما أدعوكم إليه مِن التّوحيد، فانظُروا ﴿هٰذِهِ﴾ الجُثّة العظيمة ﴿نَاقَةُ ٱللّٰهِ﴾ التي خَلقها بقُدرته من الصّخرة بهذه الصُّورة دُفعةً من غير وِلادة، وهي ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ عظيمةً، وحُجّةً ظاهرةً على نُبوّتي، وصِدق قولي، ولا يثقُل عليكم كَونُها فيكم، لأنّكم ليسَ عليكم عُلوفَتها[5] ﴿فَذَرُوهَا﴾ وخَلُّوها ﴿تَأْكُلْ﴾ النّباتات والحشائش التي تجِدُها ﴿فِي أَرْضِ ٱللّٰهِ﴾ وإنّما عليكم أن لا تُؤذوها ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا﴾ ولا تُصيبوها ﴿بِسُوءٍ﴾ من ضَربٍ وقَتلٍ لبُغضكم إيّاها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ وينزِل عليكم إذَن ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ سَريع النُّزول.

في قصة ناقة صالح

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «لمّا دَعا صالح قَومَه إلى الله كذّبوه، فضاقَ صَدرُه فسأل

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢١.
٢. في النسخة: ذو.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٨.
٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.
٥. أي عَلَفُها.

رَبّه أن يأذَنَ له في الخُروج من عِندهم، فأذِنَ له، فخَرج فانْتهى إلى ساحل البَحر، فإذا برَجُلٍ يمشي على الماء، فقال له صالح: وَيْحَك مَن أنتَ؟ فقال: أنا مِن عِباد الله، كنتُ في سَفينةٍ كانَ قوْمُها كَفَرة غيري، فأهلكهم الله ونَجّاني منهم، فخرَجْتُ إلى جَزيرةٍ أتعبّد هناك، فأخرُج أحياناً وأطلُب شيئاً من رِزق الله، ثمّ أرجع إلى مَكاني.

فمضى صالح فانْتهى إلى تَلٍّ عظيم، فرأى رَجلاً فانْتهى إليه وسلّم عليه فرَدّ عليه السّلام، فقال له صالح: مَن أنت؟ قال: كانَتْ هاهنا قَرية كانَ أهلُها كُفّاراً غيري، فأهلكهم الله ونَجّاني منها، فجعلْتُ على نفسي أن أعبُد الله تعالى هاهنا إلى المَوت، وقد أنبتَ الله لي شجرةَ رُمّانٍ، وأظهر عَينَ ماءٍ، آكُلُ مِن الرُّمان، وأشرَبُ من ماء العَين وأتوضّأ منه. فذهب صالح وانْتهى إلى قرية كانَ أهلُها كُفّاراً كُلّهم غير أخَوين مُسلِمَين يَعملان عمَل الخُوص.

فضرب النبيّ ﷺ مثلاً وقال: لَو أنّ مُؤمناً دخل قريةً فيها ألف رَجل كُلّهم كُفّار وفيهم مُؤمن واحد، فلا يسكُن قَلْبُه معَ أحدٍ حتّى يجِد المُؤمنَ. ولَو أنّ مُنافقاً دخل قريةً فيها ألف رجل كُلُّهم مؤمنون وفيهم مُنافق واحد لَم يسكُن قلبُ المُنافق معَ أحدٍ ما لَم يجِد المُنافق.

فدخل صالح وانْتهى إلى الأخوَين، فمكث عندَهما أيّاماً، وسأل عن حالهما، فأخبرا أنّهما يَصبِران على أذى المُشركين، وأنّهما يعمَلان عمَل الخُوص، ويُمسِكان قُوتهما ويتصدّقان بالفَضْل، فقال صالح: الحمدُ لله الذي أراني في الأرض مِن عِباده الصّالحين الذين صبَروا على أذى الكُفّار، فأنا أرجِع إلى قومي وأصبِر على أذاهم، فرجَع إليهم وقد كانوا خَرجوا إلى عيدٍ لهم، فدَعاهم إلى الإيمان، فسألوه آيةً، فقال: أيّ آيةٍ تُريدون؟ فأشار سَيِّدُهم جندع بن عمرو إلى صَخرةٍ مُنفردةٍ يُقال لها الكائنة، وقال له: أخرِجْ من هذه الصّخرة ناقةً واسعة الجَوف، كثيرة الوَبَر، عَشراء - أي أتَتْ عليها مِن يوم أُرسِل الفَحلُ عليها عَشرةُ أشهُرٍ - فإن فعلْتَ صدّقناك، فأخذ عليهم مَواثيقهم: لَئِن فَعلْتُ ذلك لتُؤمِنُنّ، قالوا: نعم، فصلّى ودَعا ربّه، فتمخّضتْ الصّخرة تمخُّض النتوج بولدها، فانشقّت عن ناقةٍ عَشراء جَوفاء وَبْراء كما وصفوا، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً ...﴾، فآمن جندع في جَماعةٍ وامْتنَع الباقون»[١].

وفي روايةٍ أُخرى: «ومنَع الباقين [من الإيمان] دواب بن عمرو، والحبّاب صاحب أوثانهم، ورَباب كاهنهم، فمكثَتْ النّاقة مع ولدها ترعى الشّجر وترِد الماء غِبّاً[٢]، فما تَرفع رأسها من البِئر حتّى تَشرب

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٥٧.

٢. وترد الماء غِبّاً: أن تشرب يوماً وتترُك يوماً.

كُلّ ما فيها، ثمّ تتفحّج[١] فيحلِبون ما شاءوا حتّى تمتلئ أوانيهم فيشرَبون ويدّخِرون»[٢]، وهُم تسعمائة أهل بيت، وقيل: ألف وخمسمائة.

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ[٦٥ و ٦٦]

ثمّ أنّه عليه السلام لمّا خاف عليها لِما شاهد مِن إصرارهم على الكُفر، قال: **﴿لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾** وكانت تَصِيفُ بظهر الوادي فتهرُب منها أنعامُهم إلى بَطنه، وتَشْتُو ببَطن الوادي فتهرُب مَواشيهم إلى ظَهره، فشَقّ عليهم ذلك **﴿فَعَقَرُوهَا﴾** واقْتَسموا لَحمها فرَقي فَصِيلُها[٣] جبلاً اسمُه قارة فرَغا[٤] ثلاثاً، فقال لهم صالح: أدرِكُوا الفَصيل عسى أن يُرفعَ عنكُم العَذاب، فلَم يقدِروا عليه، وانفجرتْ الصَخرةُ بعدَ رُغائِهِ فدخلها[٥] **﴿فَقَالَ﴾** لهم صالح: **﴿تَمَتَّعُوا﴾** وتعيّشوا **﴿فِي دَارِكُمْ﴾** ومَنازلكم، أو في الدُّنيا **﴿ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾** بِلا نقصٍ وزيادة **﴿ذٰلِكَ﴾** الوعد الذي وعدتكم من نزول العذاب بعد ثلاثة أيام **﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾** فيه، أو غير كَذِب لا يتطرّق إليه الخُلف.

ثمّ حكى سُبحانه إنجاء صالح والمُؤمنين بقوله: **﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾** وحكَمنا بنُزول العَذاب، أو نَزل عَذابُنا **﴿نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾** واتّبعوه **﴿بِرَحْمَةٍ﴾** عظيمةٍ فائضةٍ عليهم من النُّبوّة وخُلوص الإيمان، أو برأفةٍ خاصّة بهم **﴿مِنَّا﴾** من عَذاب الاسْتِئصال **﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾** وذِلّةٍ وفَضيحةٍ كائنةٍ لهم حينئذٍ من المَوت بالصَيحة، أو من خِزي يومِ القيامة، وهُو أنّه **﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾** يا محمّد **﴿هُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾** القادِر على كُلّ شيءٍ **﴿ٱلْعَزِيزُ﴾** الغالِبُ على جَميع خَلقه، المُسلّط على إنفاذ إرادته.

وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ[٦٧ و ٦٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ إخباره بما هُو الأهمّ مِن نَجاة أوليائه، أخبر بهَلاك أعدائه بقوله: **﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** بظُلمهم **﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾** التي فيها صَوتُ كُلّ صاعقةٍ، وصَوتُ كُلّ شيءٍ في الأرض ـ على ما

---

١. أي تُباعد ما بين رِجْلَيها ليحلبوها.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.
٣. الفصيل: ولد الناقة.
٤. أي صوّت وضَجّ.
٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٢.

قيل[١]، وقيل: المُراد صَيحةُ جَبرئيل[٢] ـ فتقطّعت قُلوبُهم ـ وقيل: لمّا وقع بعدَها التموُّج في الهَواء، وقعَتْ بعدَها الرَّجفةُ التي أخبر الله بها في سورة الأعراف[٣] ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصارُوا ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ ومساكنهم، أو بِلادهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ خامدين، لا صَوت لهم ولا حركة ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا﴾ في الدُّنيا، أو في ديارهم ومَساكنهم، ولَم يتعيّشوا ﴿فِيهَا﴾ أبداً.

ثمّ أعلن سُبحانه بذَمّهم وشِدّة اسْتِحقاقهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ولَم يُؤدّوا شُكرَ نِعَمِه، ولِذا اسْتحقّوا أشدَّ العَذاب ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ مِن الرّحمة ﴿لِثَمُودَ﴾ وهَلاكاً فَضيعاً لهم.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [٦٩ـ٧١]

في ذكر قصة لوط وقومه

ثمّ عقّب سُبحانه قِصّتهم بقِصّة قوم لُوط بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ﴾ الملائكة الّذين هُم ﴿رُسُلُنَا﴾ إلى قومِ لُوط لإهلاكهم، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أوّلاً ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ والخَبر المُوجب لسُرور قَلبه، وهُو إخباره بِولادة إسحاق مِن سارة؛ كما عن العيّاشي[٤]، أو بولادة إسماعيل مِن هاجر؛ كما عن الباقر عليه السلام[٥]، أو بسَلامة لُوط وإهلاك قومه؛ كما قيل[٦].

وعن ابن عبّاس: كانوا ثلاثة: جَبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «كانوا أربعة: جَبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، وكَروبيل»[٨].

وقيل: هُم جَبرئيل، واثنا عشر مَلَكاً على صُورة الغِلْمان الذين يكونون في غاية الحُسْن[٩]. وقيل: كانوا تسعة[١٠].

فلمّا حضَروا عندَ إبراهيم ﴿قَالُوا﴾: نُسلّم عليك ﴿سَلَامًا﴾، وقيل: يعني قالوا قولاً ذا سَلام، أو ذكروا سلاماً[١١] ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ عليه السلام مُجيباً لهم: عليكم ﴿سَلَامٌ﴾ كاملٌ تامٌّ من ربِّكم، أو مِنّي. قيل: إنّه عليه السلام كانَ كثيرَ المَحبّة للضِّيافة، ومَرّ عليه خَمسَ عَشْرةَ ليلة لا يأتيه الضَيف، فاغْتَمّ لذلك، ثمّ جاءته

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٣.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٣، تفسير روح البيان ٤: ١٦٠.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٢/٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٦ و٧. تفسير الرازي ١٨: ٢٣.
٨. مجمع البيان ٥: ٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٩. تفسير الرازي ١٨: ٢٣.
١٠. تفسير الرازي ١٨: ٢٣، مجمع البيان ٥: ٢٧٢.
١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٤.

المَلائكة في صُورة الأضياف ليُسَرَ برُؤيتهم، فلمَا رآهم بصُورة لَم يرَ مثلهم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وما توقّف حتّى ﴿أَن جَاءَ﴾ عندهم ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ومَشوِيّ في حُفرة من الأرض بحِجارة مُحْماة بغير تَنور ومَسِّ نار، كفِعْل أهل البادية[1].

وعن الباقر عليه السلام: يعني: «زكِيّاً مَشوِيّاً نَضيجاً»[2].

وعن الصادق عليه السلام: يعني: «مَشوِيّاً نضيجاً»[3].

وقيل: يعني: مَشوِيّاً يقطُر مِنه دَسَمُه[4].

وعنه عليه السلام: «قال عليه السلام[5]: كُلُوا، فقالوا: لا نأكُل حتّى تُخبِرنا ما ثَمَنُه، فقال: إذا أكلتُم فقُولوا: بِسْم الله، وإذا فَرَغتُم فقولوا: الحَمدُ لله». قال الصادق عليه السلام: «فالْتفتَ جَبرئيل إلى أصحابه؛ وكانوا أربعةً رئيسُهم جَبرئيل، فقال: حَقٌّ للهِ أن يتّخذ هذا خَليلاً»[6].

فلَم يأكُلوا مِن العِجل، ولَم يمُدُّوا أيديَهم إليه ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾ إبراهيم عليه السلام أن ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ بَل كانوا ينكُتون بقِداحٍ كانت في أيديهم في اللّحم ويأكُلون منه ـ على ما رُوي[7] ـ وكانَ تَرْكُ الأكلِ أمارةَ إرادةِ السُّوءِ بالمُضِيف ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وكرِه ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ وأدرك في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لظَنّه مِن عدَم أكلهم الطّعام إرادتهم السُّوء به، أو أنّهم ملائكة أرسلهم الله إليه لأمرٍ أنكره عليه، أو لتَعذيب قومه.

فلمّا رأت الرُّسُل تَشويش قَلبه الشّريف ﴿قَالُوا﴾ تَسكيناً له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ مِنّا على نفسِك وقومِك ﴿إِنَّا﴾ مَلائكةٌ ﴿أُرْسِلْنَا﴾ من جانب الله بالعَذاب ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ خاصّة، فطِبْ نفساً.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ ابنة عمّه هاران بن ناحور[8] ـ على ما قيل[9] ـ ﴿قَائِمَةٌ﴾ وراء السِّتْر، أو في المَجلس للخِدمة ـ لكَون خِدمة الضِّيفان مِن مَكارم الأخلاق ـ فسَمِعت كلامهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سُروراً بزَوال الخَوف عن إبراهيم، أو بالبِشارة بهَلاك أهل الفَساد، أو بهما، أو بقَول جَبرئيل: حَقٌّ لمِثْل هذا الرّجُل أن يتّخِذَه رَبُّه خَليلاً، أو مُوافقة قَول المَلائكة لقولها لإبراهيم عليه السلام قَبل مَجيئهم: إنّ اللهَ لا يترُك قومَ لُوطٍ حتّى يُعذّبهم، أو برُؤيتها أنّ الملائكة أحيَوا العِجل المَشويّ حينَ سألهم إبراهيم عليه السلام مُعجزةً دالّة

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٤/٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٤، تفسير روح البيان ٤: ١٦٢.
٥. أي إبراهيم عليه السلام.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣٢/٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥٩.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٤.
٨. في مجمع البيان: هاران بن ياحور.
٩. مجمع لبيان ٥: ٢٧٣.

على كَونهم رُسُل الله، على ما قيل[١].

وقيل: إنّ معنى «ضحكت» تعجّبت، كما عن الباقر عليه السلام[٢]. أو حاضَت من الفَزَع. وعن الصادق عليه السلام: «يعني حاضت»[٣]. وعن القُمّي: أي حاضت، وقد كانَ ارْتفع حَيضُها منذ دَهرٍ طويل[٤].

﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ بتوسُّط أُولئك الرُّسُل ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ عقيب سُرورها أو تَعجُّبها ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ وبَعده ﴿يَعْقُوبَ﴾، قيل: لمّا حاضَتْ بُشّرت بالوَلد[٥].

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هٰذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ رَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ *فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ[٧٢-٧٤]

فمّا سمِعتْ سارة تِلك البِشارة ﴿قَالَتْ﴾ إظهاراً لفَضاعة هذا الخَبر، وتَعجُّباً منه: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ ويا عَجَباً ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ بِنت تِسعة وتِسعين سنة، كما قيل[٦]، أو تِسعين سنة، كما عن أحدهما عليهما السلام[٧] ﴿وَهٰذَا﴾ الرَجُل ﴿بَعْلِي﴾ وزَوجي ترَوْنَه ﴿شَيْخاً﴾ ابن مائة سنة، كما قيل[٨]، أو ابن مائة وعِشرين سنة، كما عن أحدهما عليهما السلام[٩]. لا يكون ذلك بحَسَب العادة ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الخَبر الذي تُخبِرون به لَو وقع ﴿لَشَيءٌ عَجِيبٌ﴾ وقع بالنِّسبة إلى عادة الله المَسلوكة في عِباده. وإنّما كان مَقصُودُها اسْتِعظام الأمر، لا إظهارَ الشّك في قُدرة الله.

فلمّا رأى الرُّسُل تعجُّبها مِمّا بشّروها به ﴿قَالُوا﴾ مُنكرين عليها: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ يا سارة ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللهِ﴾ وشأنه بسَبب إيجاد الوَلد من الكَبيرَين الفانِيَيْن، معَ أنّ قُدرته أعظم من ذلك، حيثُ إنّه خلق الإنسان من تُراب، وسُنّته في عُموم النّاس غير سُنّته في خَواصّ أوليائه إظهاراً للآية. واعلمي أنّه تكون ﴿رَحْمَةُ ٱللهِ﴾ ونِعَمه الفاضلة ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ النامية وخَيْراته المُتكاثرة نازلتَيْن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُحيطَتَيْن بكم، لازمتَيْن لكم يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ ومنها إكرامكم بهذه الوِلادة.

قيل: إنّ الرّحمة هي النّبوّة، والبركات هي الأسباط[١٠].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٦.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٣١/٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.
٤. تفسير القمي ١: ٣٣٤، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٦.
٦. مجمع البيان ٥: ٢٧٣.
٧. علل الشرائع: ٦/٥٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.
٨. مجمع البيان ٥: ٢٧٣.
٩. علل الشرائع: ٦/٥٥١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٠.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ١٦٤.

ثمّ حَثُّوها على الحَمْد والثّناء على الله بقوله: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ ومَحمود بذاته، أو مُستحقّ للحَمد مِن عِباده ﴿مَجِيدٌ﴾ فيما يُنعِم عليهم. قيل: إن المَجيد الشّريف ذاته، الجَميل أفعاله، الجَزيل عَطاؤه[1].

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ وزال ﴿عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ والخَوف الذي طرأ عليه[2] من عدَم أكل الرُّسُل عنده، لمَا عرِف أنّهم الملائكة ولَم يجيئوا لتَعذيب قومه ﴿وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بنَجاة قومه، أو بالوَلد، كان ﴿يُجَادِلُنَا﴾ ويُكلّمنا بمُكالمة رُسُلنا ﴿فِي﴾ شأن ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ ورَفْع العَذاب عنهم بشفاعته.

قيل: إنّه قال لهم ـ حينَ قالوا: إنّا مُهلكو أهل هذه القرية: أرأيتم إن كان فيها خَمسون رَجلاً من المُؤمنين، أتُهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتّى بلَغ العَشرة، قالوا: لا، قال: فرَجُلٌ واحدٌ مسلم؟ قالوا: لا، قال: إنّ فيها لُوطاً[3].

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هٰؤُلاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا ٱللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[٧٥ـ٨١]

ثمّ لمَا كان الباعث على المُجادلة صِفاته الحَميدة، مَدحه اللهُ بها بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ومُساهِل في الانْتِقام مِن المُسيئين ﴿أَوَّاهٌ﴾ وشديد الأسَف على المُذنبين ﴿مُنِيبٌ﴾ ورَجّاع إلى الله، ضَرّاع إليه.

ثمّ قالتْ الرُّسُل: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ﴾ وكُفّ ﴿عَنْ هٰذَا﴾ الجِدال والتَرحُّم بمَن ليس أهلاً للرّحمة، والإشفاق على مَن لا يَليق بالشَّفقة ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وبلَغ وقتُ جَرَيان قَدَرِه على وَفق قَضائه في حَقّ قومِ لُوط ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ ونازلٌ عليهم ﴿عَذَابٌ﴾ شديدٌ ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ ولا مَدفوع عنهم بجِدالٍ أو شَفاعة ودُعاء.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ١٦٤.
٢. في النسخة: طرأه.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٩.

عن ابن عبّاس: ثمّ انْطلقوا من عند إبراهيم إلى لُوط، وبين القَريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه على صُورة شُبّان مُرْد من بني آدم، وكانوا في غاية الحُسْن[١].

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً﴾ ورآهم بتِلك الصِّفة من الحُسن والجَمال ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ وخاف من قومِه عليهم، أو على نفسِه حيثُ منَعوه من أن يدخُل عليه الضَّيف ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ وقلّت بمَكانهم طاقةُ تحمُّلِه، أو ضاق صَدرُه أو قلبُه وانْقبَض مِن وُرُودهم عليه، لعِلمه بخُبث قومه، وعَجزه عن دِفاعهم عنهم ﴿وَقَالَ﴾ تَلَهُّفاً: ﴿هٰذَا﴾ اليومُ ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وشَديد عَلَيَّ أمرُه.

رُوي أنّ الله تعالى قال للملائكة: لا تُهلكوهم حتّى يَشهَد عليهم لُوطٌ أربعَ شَهادات، فلمّا مَشى مُنطلقاً بِهم إلى مَنزله قال لهم: أما بلَغكم أمرُ هذه القرية؟ قالوا: وما أمرُها؟ قال: أشهدُ بالله أنّهم لَشرُّ قومٍ في الأرض عملاً ـ يقول ذلك أربع مرّات ـ فدخلوا مَنزله ولَم يعلم بذلك أحدٌ، فخرجَتْ امرأتُه فأخبرتْ به قومَها وقالتْ: إنّ في بيت لُوط رِجالاً ما رأيتُ مثلَ وُجوهِهم قَطُّ[٢].

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ وهو في بَيته معَ أضيافه، وهُم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ ويُسرعون ﴿إِلَيْهِ﴾ لشِدّة طَلبهم الفاحشة من أضيافه ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ ويرتكبون القَبائح، ويتمرّنون عليها، بحيث لَم يبقَ في نظرهم قُبحُها[٣]، ولِذا كانوا مُتجاهرين بها، غير مُسْتَحْيين منها. فلمّا رآهم لُوط وعلِم بقَصْدهم ﴿قَالَ﴾ لَهم وِقايةً لأضيافه، وإظهاراً لغاية كَرامةِ نَفسه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن تُريدون قَضاء الشَهوة فانظُروا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ النِّسوة ﴿بَنَاتِي﴾ فاقضُوا بهِنّ الشَهوة ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وأنزَه.

قيل: كانوا يَطلُبونهُنّ مِن قبلُ ولا يُجيبهم، لخُبثهم وعدَم كفاءتهم[٤]، ولَم يقُل ذلك على الجِدّ والحَقيقة، وإنّما قاله طمعاً في أن يستَحْيُوا أو يرِقُّوا له، فينزجِروا عمّا أرادوا.

وعن القُمّي: عَنى به أزواجهم، وذلك أنّ النبيّ أبو اُمّته، فدَعاهم إلى الحَلال، ولَم يكُن يدعُوهم إلى الحرام[٥].

وحُكي ذلك عن مُجاهد وسَعيد بن جُبير[٦].

ثمّ نصَحهم بقوله: ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ﴾ في ارْتِكاب الفاحشة بإتيان الذُّكْران، ثمّ تضرّع إليهم بقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تَفضحوني، أو لا تُخجِلوني عندَ النّاس ﴿فِي﴾ شأن ﴿ضَيْفِي﴾ هؤلاء ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ومُهتدٍ إلى الحَقّ، ومُنكِرٌ لفِعل القَبيح يرُدّ هؤلاء الأوباش.

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٣١.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٧.
٣. في تفسير روح البيان ٤: ١٦٧ واستمروا حتى لم تعب عندهم قباحتها.
٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٨.
٥. تفسير القمي ١: ٣٣٥، تفسير الصافي ٢: ٤٦١.
٦. مجمع البيان ٥: ٢٧٩.

عن أحدهما عليهما السلام: «أنّه وضع يَده على الباب، ثمّ ناشدهم فقال: «اتّقوا الله ولا تُخزونِ في ضيفي، ثمّ عرضَ عليهم بَناتَه بنِكاح»[١].

ثمّ أنّهم معَ جميع ذلك ﴿قَالُوا﴾ مُجيبين له: يا لُوط ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بعدَ إقامتك فينا مُدّة طويلة أنّه ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وحاجة في رَفع الشّهوة، أو حَقّ تمتّع، لأنّهنّ لَسْنَ لنا بأزواج، ولا تميل طِباعُنا أيضاً إليهنّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وما نشتهي، وهو مُواقعة الذُّكْران، ولا ننصرِف عنها.

فلمّا يَئس لُوط من انْصِرافهم عمّا هُم عليه ﴿قَالَ﴾ تمنّياً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ وعلى دَفعكم قُدرة بنفسي ﴿أَوْ آوِي﴾ وألْتجِئ ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وناصرٍ قاهرٍ امتنعُ به عنكم.

وقيل: يعني: أو أنّ لي أحدَ الأمرين لفَعَلْتُ ما فَعَلْت[٢].

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «رحِم اللهُ أخي لُوطاً، كان يأوي إلى رُكن شديد»[٣].

عن الباقر عليه السلام: «رحِم اللهُ لُوطاً لو يدري مَن معه في الحُجرة لعلِم أنّه مَنصورٌ حيثُ يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي رُكنٍ أشدُّ مِن جَبرئيل؟»[٤].

رُوي أنّه أغلق أبوابه دون أضيافه، وأخذ يُجادلهم من وَراء الباب، فتسوّروا الجِدار، فلمّا رأت المَلائكة كَرْب لُوط وعَجْزه عن مُدافعتهم ﴿قَالُوا﴾ تَسليةً له: ﴿يَا لُوطُ﴾ لا تغْتَمّ ولا تُبالِ بهم ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ وإنّهم ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسُوءٍ ومَكروه، فافْتح الباب ودَعنا وإيّاهم[٥].

وفي (الجوامع): قال جَبرئيل: إنّ رُكنَك لشَديد، افْتَح الباب ودَعنا وإيّاهم، ففتح الباب فدخلوا[٦]، فاسْتأذن جَبرئيل رَبّه في عُقوبتهم فأذِن له، فقام جَبرئيل في الصُّورة التي يكون فيها، فنشَر جَناحه، ولَه جَناحان، وعليه وِشاح من دُرّ مَنظُوم، وهو بَرّاق الثّنايا، فضرب بجَناحه وُجوههم فطَمس أعيُنَهم وأعماهم، فصاروا لا يعرِفون الطَّريق، فخرَجوا وهُم يقولون: النَّجاء النَّجاء، فإنّ في بَيت لُوط قوماً سَحَرة[٧].

ثمّ قالوا للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وعِيالك ﴿بِقِطْعٍ﴾ وطائفة ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ واخْرُجوا جميعاً من القرية ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظُر إلى الوَراء ﴿مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أنت وأهلُك. قيل: لِئَلّا يُبطِئوا في السَّير، أو لِئَلّا يرَوا ما ينزِلُ بالقوم من العَذاب، فيرِقُّوا[٨] لهم، أو المُراد: لا يتخلّف منكم [أحد] ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٤٠/٣١٨، تفسير الصافي ٢: ٤٦١.

٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩.

٣. تفسير الرازي ١٨: ٣٥، تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩.

٤. الكافي ٥: ٥/٥٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٢.

٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩.

٦. جوامع الجامع: ٢٠٨.

٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩، تفسير روح البيان ٤: ١٦٩.

٨. تفسير روح البيان ٤: ١٦٩.

رُوي أنّه لمّا أسرى بأهله تَبِعَتْهم، فلمّا سمِعت هدّة العَذاب الْتَفَتَتْ وقالت: يا قَوماه، فأدركها حَجرٌ فقتلها[١].

والظّاهر؛ كما عن الأكثر، الاسْتِثناء راجعٌ إلى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ لا إلى قوله: ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، والمعنىٰ: فأسر بأهلك إلّا امرأتك ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِن العَذاب لا محالة، فتكُون مِن الهالكين.

ثمّ ذكروا عِلّة خُروجه باللّيل بقولهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ﴾ ووَقت نُزول العذاب عليهم هُو ﴿ٱلصُّبْحُ﴾ رُوي أنّهم لمّا قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ قال لُوط: اُريد أعجَلَ من ذلك، بَل السّاعة، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٢].

قيل: إنّ عِلّة تَوقيت العَذاب بالصُّبح أنّه وَقت الدَّعَة والرّاحة، والعذابُ فيه أشدّ[٣].

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [٨٢ و ٨٣]

ثمّ حكى سُبحانه كيفيّة العذاب وشِدّته بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وعَذابُنا، أو وقتُ نُزوله على القُرى السّبعة[٤]، وفيها أربعمائة ألف ألف ـ على ما قيل[٥] أو أمرنا به بقولنا: (كُن)، أو أمرُنا للمَلائكة بإهلاكهم، قَلَبْناها، بأن ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بتَوسُّط جبرئيل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ بعدَ قَلْبها ﴿حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ﴾ قيل: إنّه مُعرّب «سَنْگ گِل»[٦]. وقيل: إنّه «سِجين» قُلبت نُونُه لاماً[٧]. وقيل: يعني: مِن طينٍ، فإنّ أصلَ الحَجر الطّين[٨]، وقيل: مأخوذ مِن (سِجِلّ)، والمَعنىٰ أنّه مِمّا كَتَب الله أن يُعذّبهم به[٩]. وقيل: إنّه اسْم سَماء الدُّنيا[١٠]. وقيل: مَعناه مَوضع الحِجارة، وهي جِبال مَخصوصة[١١]، وذلك السِجّيل[١٢] ﴿مَنْضُودٍ﴾ ومَوضُوع بعضُه فَوق بعض، ليكون مُعَدّاً للعَذاب، أو المعنىٰ كان ذلك المطَر مُتتابعاً بنُزول بعضِه إثْر بَعضٍ؛ كقَطر الأمطار. وكُلّ حِجارة ﴿مُسَوَّمَةً﴾ ومُعلَمة بخُطُوط حمراء مثل الجَزْع[١٣]، أو بنُقَطٍ فيها ـ كما عن القُمّي[١٤] أو بأمثال الخَواتيم، أو بسِيماء لا تُشارك حِجارة الأرض، أو

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٣٦، تفسير أبي السعود ٤: ٢٢٩.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٣٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠، تفسير روح البيان ٤: ١٧٠.
٤. في تفسير أبي السعود: قرى قوم لوط، وهي التي عبّر عنها بالمؤتفكات، وهي خمس مدائن.
٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٠.
٦ ـ ١١. تفسير الرازي ١٨: ٣٨.
١٢. هذا التعبير لايتناسب مع قوله: ﴿مَنْضُودٍ﴾ من حيث الإعراب، فهو يقتضي أن يكون (منضودة) بالرفع.
١٣. الجَزع: ضربٌ من العقيق بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.
١٤. تفسير القمي ١: ٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.

بأنه كان عليها اسْمُ مَن رَمى بها. وعلى أيّ تقدير كانت تِلك الحِجارة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفي خَزائنه لا يَتصرَّف فيها غيرُه.

ثمّ هدّد سُبحانه مُشركي عصر النبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ الّذين هُم في هذا العصر ﴿بِبَعِيدٍ﴾.

عن النبيّ ﷺ أنّه سأل جَبرئيل عن هذا، فقال: يعني ظالمي أُمّتِك، ما مِن ظالم منهم إلّا وهُو بمَعْرض حَجرٍ يسقُط عليه من ساعةٍ إلى ساعة[١].

عن الباقر عليه السلام: «﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [من] ظالمي اُمّتِك، إن عمِلوا ما عمِل قَومُ لُوط»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن مات مُصِراً على اللّواط لَم يَمُت حتّى يَرميَهُ اللهُ بحَجَرٍ من تِلك الحجارة تكون فيه مَنِيّتُه، ولا يَراه أحدٌ»[٣].

وعنه عليه السلام: «ما مِن عبدٍ يخرُج مِن الدُّنيا يَسْتحِلُّ عمَلَ قوم لُوط إلّا رَمى اللهُ كَبْده من تِلك الحِجارة تكُون مَنِيّتُه فيها، ولكنّ الخَلق لا يرَونه»[٤].

وقيل: إنّ المُراد: ليسَتِ القُرى المُؤتفكات مِن مُشركي مكّة ببعيد، لأنّها كانت في الشّام، وهُو قريب من مكّة[٥].

عن الباقر عليه السلام: «كان قومُ لُوط من أفضل قومٍ خلَقهم اللهُ، فطلَبهم إبليسُ الطّلَبَ الشّديد، وكان من فَضلهم وخَيرهم أنّهم إذا خرَجوا إلى العَمل خَرجوا بأجمعهم وتبقى النّساء خَلفهم، فلم يزَل إبليس يَعتادهم، وكانوا إذا رجَعوا خرّب إبليسُ ما كانوا يعمَلون، فقال بعضُهم لبعضٍ: تعالَوا نرصُد هذا الذي يُخرّب مَتاعنا، فرصَدوه فإذا هُو غُلامٌ أحسن ما يكون مِن الغِلمان، فقالوا له: أنت الذي تُخرّب مَتاعنا مرّةً بعدَ مرّة، فاجتمعَ رأيُهم على أن يقتُلوه، فجَعلوه عندَ رجُل، فلمّا كان اللّيلُ صاح، فقال له: مالك؟ فقال: كان أبي يُنوّمني على بَطنه، فقال له: تعالَ فنَم على بَطني، قال: فلم يزل بذلك الرّجل حتّى علّمه أن يفعل بنفسه، فأوّلاً علّمه إبليس والثانية علّمه هُو، ثمّ انْسَلّ ففرّ منهم، وأصبحوا وجعل الرّجُل يُخبر بما فعل الغُلام ويُعجّبهم مِنه وهُم لا يعرِفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتّى اكْتفى الرّجالُ بالرّجال بَعضُهم ببعض، ثمّ جعلوا يرصُدون مارّةَ الطّريق فيفعلون بهم، حتّى تنكّب[٦] مَدينتَهم النّاسُ، ثمّ تركوا نِساءهم وأقبلوا على الغِلمان.

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٣٩.
٢. الكافي ٥: ٥/٥٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٤٦/٣٢١، الكافي ٥: ٩/٥٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.
٤. تفسير القمي ١: ٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٣٩.
٦. أي أعرض عنها وتجنّبها.

فلمّا رأى أنّه قد أحكمَ أمرَه في الرّجال، جاء إلى النِّساء فصيَّر نفسَهُ امرأةً، ثمّ قال: إن رِجالكُنّ يفعل بعضُهم ببعض، قلن: نعم، قد رأينا ذلك. وكُلّ ذلك يعِظُهم لُوط ويُوصيهم، وإبليس يُغويهم حتّى استغنى النِّساءُ بالنِّساء.

فلمّا كمُلتْ عليهم الحُجّة بعثَ الله جَبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زِيّ غِلمان عليهم أقبية، فمرُّوا بلُوط وهُو يحرُث فقال: أين تُريدون؟ ما رأيتُ أجملَ منكم قَطّ، قالوا: إنّا أرسلنا سَيِّدُنا إلى رَبِّ هذه المدينة. قال: أو لَم يبلُغ سَيِّدَكم ما يفعلُ أهلُ هذه المدينة؟ يا بَنِيَ إنّهم والله يأخُذون الرّجال فيفعلون بهم حتّى يخرُج الدّمُ، قالوا: أمرنا سيّدُنا أن نمُرّ وسَطها، قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: وما هي؟ قال: تصبِرون هاهنا إلى اختلاط الظّلام، فجلسوا، فبعث ابْنَتَه فقال: جيئي لهم بخُبزٍ وبماء في القَرْعة[1] وعَباء يتغطّون بها من البَرد.

فلمّا أن ذهبت الابنة أقبل المطَر والوادي، فقال [لوط]: السّاعة يذهب بالصِّبيان الوادي، قال: قُوموا حتّى نمضي، وجعل لُوط يمشي في أصل الحائط، وجعل جَبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وَسَط الطّريق، فقال يا بَنِيّ امشُوا هاهنا، فقالوا: أمرنا سيِّدُنا أن نمُرّ في وسطها، وكان لُوط يَسْتغنِم الظّلام، ومَرّ إبليس فأخذ من حِجْرِ امرأةٍ صبيّاً فطرَحه في البِئر، فتَصايح أهلُ المدينة كُلُّهم على بابِ لُوط، فلمّا نظَروا إلى الغِلمان في منزل لُوط، قالوا: يا لُوط قد دخلْتَ في عملِنا، قال: هؤلاء ضَيفي فلا تفضحوني في ضيفي، قالوا: هُم ثلاثة، خُذْ واحداً وأعطنا اثنين. قال: فأدخلهم في حُجرةٍ، وقال: لَو أنّ لي أهل بيتٍ يَمنعونني مِنكم، فتدافعوا على الباب وكَسروا باب لُوط وطرحوا لُوطاً، فقال له جَبرئيل: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فأخذ كفّاً مِن بَطحاءٍ فضرب بها وُجوهَهم وقال: شاهَتِ الوُجوه فعَمِي أهلُ البلد كُلّهم، فقال لهم لُوط: يا رُسُل ربّي فما أمرَكم رَبّي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخُذهم بالسَّحَر، قال: فلي إليكم [حاجة] قالوا: فما حاجتك؟ قال: تأخُذونهم السّاعة[2]، فقالوا: يا لُوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لمَن يُريد أن يأخذ، فخُذْ أنت بَناتك ودَعْ امرأتك»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ بعثَ أربعةَ أملاك في إهلاك قومِ لُوط: جَبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل وكروبيل، فمرُّوا بإبراهيم عليه السلام وهُم مُعْتَمّون، فسلّموا عليه فلَم يعرِفهم، ورأى هيئة حَسنة فقال: لا يخدِم هؤلاء إلّا أنا بنفسي، وكان صاحب ضِيافة، فشَوى لهم عِجلاً سَميناً حتّى أنضجه، ثمّ قرّبه إليهم، فلمّا وضعه بين أيديهم رأى أيديَهم لا تَصِلُ إليه نَكِرَهم وأوجس منهم خيفةً، فلمّا رأى

---

١. القَرْعة: واحدة القَرْع: وهو نبات الدُّبّاء، تُستخدم قِشرته كإناء للماء وغيره.

٢. زاد في الكافي: فإني أخاف أن يبدو لربّي فيهم.

٣. الكافي ٥: ٥٤٤/٥، تفسير الصافي ٢: ٤٦٤.

ذلك جَبرئيل حَسَر العِمامة عن وَجهه فعرفه إبراهيم، فقال: أنت هُو، قال: نعم. ومرّتْ سارة امرأته فبشّرها بإسحاق، ومِن وَراء إسحاق يعقوب، فقالت: ما قال الله عزّ وجلّ، وأجابوها بما في الكتابِ العزيز، فقال لهم إبراهيم: لماذا جِئتُم؟ قالوا: في إهلاك قوم لُوط، فقال: إن كان فيهم مائة من المُؤمنين أتُهلكونهم؟ قالوا: لا» ... إلى آخر ما سَبق مِن مُجادلة إبراهيم، بتَفاوتٍ يسير.

قال الرّاوي: [قال ﷺ:] «لا أعلم هذا القول إلّا وهُو يَستبقيهم، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، فأتَوا لُوطاً وهُو في زِراعةٍ قُرب القرية، فسلّموا عليه وهم مُعْتمّون، فلمّا رأى هيئةً حسنةً، عليهم ثِياب بِيض، وعَمائم بيض، فقال لهم: المنزل؟ فقالوا: نعم، فتقدّمهم ومشَوا خلفه فتندّم على عَرْضِه المَنْزِل عليهم وقال: أيَّ شيءٍ صنعتُ، أن آتي [بهم] قومي وأنا أعرفهم! فالتفتَ إليهم فقال: إنّكم لتأتون شِراراً من خلق الله، قال جَبرئيل: لا نَعْجَلْ عليهم حتّى يشهدَ عليهم ثَلاث مرّات، وقال هذه واحدة، ثمّ مَشى ساعة ثمّ التفتَ إليهم وقال: إنّكم لتأتون شِراراً من خَلق الله، قال جَبرئيل: هذه ثِنتان، ثمّ مشى فلمّا بلَغ المدينة التفتَ إليهم فقال: إنّكم لتأتون شِراراً من خَلق الله، فقال جَبرئيل: هذه الثالثة، ثمّ دخل ودخَلُوا معه حتّى دخل مَنزله، فلمّا رأتْهم امرأتُه رأت هيئةً حسنةً، فصعِدت فَوق السطح وصَفّقت: فلَم يسمعوا، فدخّنَتْ، فلمّا رأوا الدُّخان أقبلوا يُهرَعون حتّى جاءوا إلى الباب، فنزلَتْ إليهم فقالت: عنده قومٌ، ما رأيتُ قوماً قَطّ أحسنَ منهم هيئةً، فجاءوا إلى الباب ليدخُلوا، فلمّا رآهم لُوط قام إليهم، فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، وقال: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدَعاهم إلى الحَلال، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فقال جَبرئيل: لَو يعلَم أيَّ قُوّةٍ له.

قال: فكاثروه[1] حتّى دخلوا البيتَ، فصاحَ به جَبرئيل وقال: يا لُوط دَعْهم يدخُلون، فلمّا دخَلُوا أهوى جَبرئيل بإصْبعِه نَحوهم، فذهبَتْ أعيُنُهم، وهُو قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[2]، ثمّ ناداه جَبرئيل فقال له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، وقال له جَبرئيل: إنّا بُعِثنا في إهلاكهم، فقال: يا جَبرئيل عَجِّل، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، فأمره فتحمّل هُو ومَن معه إلّا امرأته، ثمّ اقْتلعها ـ يعني المدينة ـ جَبرئيل بجَناحَيه من سَبعة أرضين، ثمّ رفعها حتّى سمِع أهلُ السّماء[3] نُباح الكِلاب وصُراخ الدُّيوك، ثمّ قلبها وأمطر عليها وعلى

---

١. أي غالَبُوه بالكثرة. ٢. القمر: ٥٤/٣٧. ٣. في الكافي: أهل سماء الدُّنيا.

مَن حَول المدينة حِجارةً من سِجّيل»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يا لوط، إذا مضى من يومِك هذا سبعة أيّام ولياليها ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾. قال: فلمّا كان اليومُ الثّامن مع طُلوع الفَجر قدّم [الله] رُسُلاً إلى إبراهيم يُبشّرونه بإسحاق ويُعزّونه بهَلاك قومِ لُوط، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾»[٢].

أقول: لا يَخفى ما في رِوايات هذه القِصّة من الاختلاف من جِهاتٍ كثيرة، والذي يُهوّن الخَطْبَ أنّه لا حُجّيّة فيها. ولا بأس بالتبرّع بحَمل بعضِها على الإجمال، وبعضِها على التّفصيل، وبعضها على اشتباه الرّاوي.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ[٨٤]

ثمّ ذكَر سُبحانه بعدَ قِصّة هَلاك قومِ لُوط قِصّةَ هَلاك قومِ شُعيب، بعدَ إتمام الحُجّة عليهم، وإصرارهم على الكُفر والطُّغيان، إرعاباً لقُلوب المُشركين، وتَسليةً للنبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قَبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾ وهُم أولاد مَدين بن إبراهيم الخَليل، سُمّوا باسْم جدّهم الأعلى، أو المُراد: أهلُ مَدين - وهي بَلدةٌ بناها مَدين وسُمّيت باسْمه[٣] - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ وواحداً منهم، كان اسمُه ﴿شُعَيْباً﴾ ليدعُوهم إلى التّوحيد وتَرك عِبادة الأصنام ﴿قَالَ﴾ لهم بلِينٍ ورِفق: ﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحدَه واترُكوا عِبادة غَيره، لأنّه ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ﴾ ومَعبودٍ مُستحقٍّ للعِبادة ﴿غَيْرُهُ﴾.

ثمّ أنّه عليه السلام بعدَ رَدْعهم عن أشنع العقائد التي كانوا عليها، نهاهم عن أقبح الأعمال التي كانوا حَريصين عليها بقوله: ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ حينَ تُؤدّون حُقوق النّاس بالكَيْل أو الوَزن، ولا تظلِموهم بالسَّرقة من أموالهم عندَ إيفائها.

ثمّ نصَحهم بقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم﴾ مُتلبّسين ﴿بِخَيْرٍ﴾ وسَعَةٍ في المَعاش، وثَروةٍ مُغنية لجميع حَوائجكم، فلا تتوسّلوا إلى ازدِيادها بالظُّلم على النّاس، أو المُراد: إنّي أراكم مُحاطين بنِعَم الله التي كان حَقُّها أن تشكروها بالإحسان إلى غيركم، فلا تُزيلوها بكُفرانها بما أنتم عليه من الظُّلم.

ثمّ هدّدهم عليه بقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ مِن أن تُلاقوا في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما،

---

١. الكافي ٥: ٦/٥٤٦، تفسير الصافي ٢: ٤٦٥.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣٣٩/٤٣٣، علل الشرائع: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٢: ٤٦٣.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣١.

بعَملكم هذا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ بكُم، ذلك اليومَ بما فيه مِن الشُرور، إحاطة الدَائرة بما فيها، بحيث لا ينجُو منها أحد.

قيل: إنّ التَهديد بتَوصيف اليوم بالإحاطة، أبلغُ مِن توصيف العَذاب بها[١].

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[٨٥]

ثمّ أكَد رَدْعهم عن عادتهم الشَنيعة بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل عندَ إيفائكم الحُقوق إلى صاحبها، أو اسْتيفائكم حُقوقَ أنفسكم من غيركم. ومِن المَعلوم أنّ لازِمَ وُجوب الوَفاء الاحْتياطُ فيه عندَ الشَك فيه، حتّى يُعلَم بحُصوله.

عن الباقر عليه السلام: «وجدنا في كِتاب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا طُفِّفَ[٢] المِكيالَ والمِيزانُ أخذهم الله بالسِّنين والنَقص»[٣].

وفي رِوايةٍ اُخرى: «وشِدّة المَؤنة، وجَوْر السُلطان»[٤].

ثمّ عمّم النَهيِ عن تَنقيص جَميع الحُقوق ولَو كان إيفاؤها بـغَير المِكـيال والمـيزان بـقوله: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ﴾ ولا تَنقُصوهم ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ التي يجِبُ عليكم أن تُؤدّوها إليهم بالكَيْل والوَزن، أو بغَيرهما من الأموال والحُقوق.

ثمّ عمّم النَهيِ لمُطلق الإضرار على الغَير، والإفساد في دينهم أو دُنياهم بقوله: ﴿وَلاَ تَـعْثَوْا﴾ ولا تَسْعَوا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حالَ كَونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ مَصالح أنفسكم وأبناء نَوعكم، دُنيويّاً واُخرويّاً، أو المُراد: لا تَسْعَوا في إفساد اُمور غيرِكم حالَ كَونكم بهذا الإفساد مُفسدين في اُمور أنفسكم.

بَقِيَّتُ ٱللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[٨٦]

ثمّ بالغ في النُصح بقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللهِ﴾ وما رزقَكم من الحَلال ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع مِمّا تكتسبون بالتَطفيف والبَخْس وغيرهما ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ بأحكام الله وثَوابه وعِقابه في الآخـره، تُـصدّقون قولي، أو المُراد: إن كنتُم مُصدّقين بأنّي ناصِحٌ لكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ورَقيب حتّى أجبُركم على تَرك القَبائح، أو حافظ لأعمالكم كي اُجازيكم بها، وإنّما أنا نذيرٌ والله هُو الحَفيظ، أو المُراد: وما

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣١.
٢. طَفَّفَ المكيال: إذا بخسه ونقصه.
٣. الكافي ٢: ٢/٢٧٧، تفسير الصافي ٢: ٤٦٧.
٤. الكافي ٢: ١/٢٧٧، تفسير الصافي ٢: ٤٦٧.

أنا بحافظٍ عليكم نِعَم الله إن لَم تتركوا ما أنتم عليه من الكُفران المُوجب لزَوالها.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ أوّل ما ينطِق [به] القائمُ حينَ يخرُج، هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ثمّ يقول: أنا بقيّةُ الله [في أرضه] وحُجّته وخَليفتُه عليكم، فلا يُسلِّم عليه مُسلِم إلّا قال: السّلام عَليك يا بقية الله في أرضه»[1].

رُوي أنّ الباقر عليه السلام صعِد جبلاً يُشرِف على مَدين حينَ أُغلِق دُونه بابُ مَدين، ومُنِع أن يُخرَج إليه بالأسواق، فخاطبهم بأعلى صوته: «يا أهل المَدينةِ الظّالم أهلُها، أنا بقيّةُ الله، يقول الله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. وكان فيهم شَيخٌ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم، هذه والله دَعوةُ شعيب النبي، والله لَئِن لَم تخرُجوا إلى هذه الرّجل بالأسواق لتُؤخَذُنّ مِن فَوقكم ومِن تحتِ أرجُلكم»[2].

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَو أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [٨٧ و ٨٨]

ثمّ أنّ القومَ بعدَ إبلاغ النُّصح والإنذار ﴿قَالُوا﴾ لشُعيب عِناداً واسْتِهزاءً: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ وتدعُوك إلى أن تأمُرنا ﴿أَن نَتْرُكَ﴾ عِبادةَ ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام، ﴿أَو﴾ نترُك ﴿أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من التصرُّف بالزّيادة والنّقص، والأخذ والإعطاء.

قيل: إنّه عليه السلام كان يُصلّي باللّيل، ويعِظُ قومَه بالنّهار ويَنهاهم عن تقطيع أطراف الدّراهم والدّنانير[3]، والبَخس والتّطفيف. وكانوا إذا رأوهُ يُصلّي يتَغامزون ويتَضاحكون[4]، ولذا أسندوا مَواعظه إلى الخطَرات الحاصلة له مِن مُواظبته على الصّلاة.

ثمّ وصَفوه بالعَقل والرُّشد تَهكُّماً بقولهم: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ والعاقل المُهتدي إلى كُلّ خَيرٍ. والمَقصودُ ضِدُّهما، والإشعار بأنّه السّفيه الضّال. وعليه يُحمل ما عن القُمّي: أنّهم قالوا: إنّك

---

١. كما الدين: ١٦/٣٣١، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.
٢. الكافي ١: ٥/٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٦٦، تفسير روح البيان ٤: ١٧٤.
٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٢.

لأنت السّفيه الجاهل، فحكى[1] الله عزّ وجل قولهم: فقال: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[2].

وقيل: إنّ الحَليم الرَّشيد؛ بلُغة أهل مَدين، الأحمقُ السَّفيه[3].

وقيل: إنّه تَعليلٌ لما سبَق مِن استِبعادهم قوله، والمعنى: إنّك لأنت الحَليم الرّشيد على زَعمك، فلا ينبغي منك هذه الأقوال الفاسدة[4].

﴿قَالَ﴾ شُعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبِروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحُجّةٍ واضحةٍ على نُبوّتي، أو حِكمةٍ كاملةٍ اُوتِيتُها ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّي﴾ ومَليكي ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ بفَضله ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ ومالاً حلالاً يكفيني في مَعيشتي وراحتي، أو وَهبني من النُّبوّة مَرتبةً عالية، فهل يسَعني؛ معَ هذا الإنعام العظيم وتفضُّله عليَّ بالسّعادة الجِسمانيّة والرُّوحانيّه، أن اُقصِّر في تَبليغ وَحْيه، واُخالفه في أمره ونَهيه، بأن اُوافق معكم ولا آمركم بترَك عِبادة الأصنام وقَبائح الأعمال، معَ أنّه تعالى أرسلني إليكم لذلك؟! ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ بنُصحي لكم ورَدعكم عمّا أنتم عليه ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ وما أنا مائلٌ ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ﴾ وأزجُركم ﴿عَنْهُ﴾ من المُشتَهيات، بَل أختار لكم ما أختار لنفسي، وأزجُركم عمّا أنزجر عنه، وأنتُم تعرِفون من حالي مُدّة عُمري بينكم أنّي ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ وما أطلُب بنُصحي ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ﴾ لنُفوسكم وأعمالكم، وتَنزيهكم عن القَبائح مِقدار ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ مِن الإصلاح، أو ما دُمْتُ مُتمكّناً منه، وما اُريدُ إلقاء الفِتنة فيكم ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ لإنفاذ مَقصودي وتَحقيق مَرامي المَذكور ﴿إِلَّا بِاللهِ﴾ المُوفّق لكُلّ خَيرٍ. وفيه تَنبيهٌ على عدَم جَواز اعْتِماد المُؤمن في أعماله على قُدرته.

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعْتمدْتُ في القِيام بوَظيفتي عَمّا سِواه؛ لأنّه القادر على كُلّ شيء، وما سِواه عاجزٌ عن كُلّ شيء ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وأرجِعُ فيما أنا بصَدده من الإصلاح والإرشاد، أو إليه أُقبِلُ بشَراشري في جَميع اُموري. وفيه إعلان بكَمال تَوحيده، وبعدَم مُبالاته بعَداوة النّاس، وإشعارٌ بمعرفته بالمَعاد.

وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ

---

١. في المصدر: فكنى. ٢. تفسير القمي ١: ٣٣٧، تفسير الصافي ٢: ٤٦٨.
٣. تفسير روح البيان ٤: ١٧٤. ٤. تفسير أبي السعود ٤: ٢٣٣.

عَلَيْكُم مِنَ ٱللهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ[٨٩-٩٣]

ثمّ بالَغ في نُصحهم بقوله: **﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾** ولا يَحْمِلنّكم **﴿شِقَاقِي﴾** وعَداوتي على **﴿أَن يُصِيبَكُم﴾** بكُفْركم ولَجاجكم **﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾** منَ العَذاب، فإن لَم تعتبروا بأولئك الأمم المُهلكة؛ لبُعد مَكانهم وزَمانهم، فاعْتبروا بقومِ لُوط **﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ﴾** مكاناً لقُرب بِلادهم مِن مَدين، وزماناً لكون زَمان إهلاكهم أقربَ إلى زَمانكم من زَمان هَلاك هؤلاء الأقوام **﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾** من الإشراك به **﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾** من التّطفيف وغَيره مِن المَعاصي، حتّى يغفِر لكم، ويتُوب عليكم **﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾** بعِباده التّائبين **﴿وَدُودٌ﴾** ومُحِبٌّ لهم، يُنجيهم من العَذاب، ويُعطيهم الثّواب.

﴿قَالُوا﴾ بعدَ تِلك المَواعظ الكافية، إهانةً له: **﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾** ولا نَفهَم **﴿كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾**. قيل: إنّما كانتْ عِلّة عدم فَهْمهم غايةَ نُفْرتِهم عن كَلامه[1]، أو عدَم مَعرفتهم صِحّة دَلائلِ التّوحيد، وشَناعةِ البَخْس والتّطفيف.

ثمّ بالغوا في تَحقيره بقولهم: **﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا﴾** وبَيْننا **﴿ضَعِيفاً﴾** في القُوى الجِسمانيّة، بحيث لا تقدِرُ على الدّفاع إن آذيناك وقَتلناك، أو مَهيناً لا عِزَّ لك **﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ﴾** وحُرمة أقاربك الّذين هُم على ديننا **﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾** وقَتلناك بأسوأ القَتل، وهُو رَمْيُك بالحِجارة **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾** ومُكرَم، وإنّما يحفَظك من الرّجم حُرمةُ قَومِك لا حُرْمَتُك.

﴿قَالَ﴾ شعيب: **﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي﴾** وعَشيرتي **﴿أَعَزُّ﴾** وأكرمُ **﴿عَلَيْكُم مِنَ ٱللهِ﴾** العَزيز القاهر الذي أرسلني إليكم لتَبليغ تَوحيده وأحكامه، فإنّ إهانتي وإيذائي إهانتُه وإيذاؤه **﴿وَ﴾** أنتم **﴿ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾** ونَبذْتُموه خَلف أظْهُركم، وجعَلْتُموه مَنْسِيّاً لا تَعْتَنُون به أبداً.

ثمّ إنّه بعدَ تَوبيخهم على جَعْل رِعاية قومِه أولى مِن رِعاية حُرمة الله، هدّدهم بقوله: **﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من القَبائح والسَيِّئات **﴿مُحِيطٌ﴾** ومُطّلِعٌ، بحيثُ لا يخفى منه شيء، فيُجازيكم عليها أسوأ الجَزاء **﴿وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا﴾** واسْعَوا في الإضرار بي، وإيصال الشّرّ إليّ **﴿عَلَىٰ﴾** قَدْر **﴿مَكَانَتِكُمْ﴾** ووُسْعِكم، بِلا تَقْصيرٍ وتَوانٍ، و**﴿إِنِّي﴾** أيضاً **﴿عَامِلٌ﴾** ومُجِدٌّ قَدْرَ وُسعي في التَبليغ وإتمام الحُجّة

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٦٧.

عَليكم، إذَن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعَن قَريبٍ تَشهدون ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ مِن قِبَل الله ﴿عَذَابٌ﴾ شَديدٌ ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويُذِلّه فوقَ الذُّلّ الذي يُلازمه الهَلاك بمُطلق العَذاب ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في دَعواه، أنتم في دَعوى الشِّرك، أو أنا في دَعوى التَوحيد ﴿وَٱرْتَقِبُوا﴾ وانتظِروا عاقبة أمري وأمركم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ومُنتظر لذلك.

عن الرضا عليه السلام: «[ما] أحسنَ الصَّبر وانْتِظار الفَرج! أما سمِعتَ قولَ الله عزّوجلَ: ﴿وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾»[١].

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه كان إذا ذكَر شُعيباً قال: «ذاك خَطيبُ الأنبياء» لحُسن مُراجعته في كَلامه بَيْن قومه[٢].

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[٩٤و ٩٥]

ثمَ حكى الله لُطفَه بشُعيب والمُؤمنين، وغَضَبه على أعدائهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وعَذابُنا، أو وقتُ أمرنا مَلَكاً بإهلاكهم بالصَيْحة ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وفَضلٍ ﴿مِنَّا﴾ أو بإيمانٍ وطاعةٍ وفّقناهم لهما ﴿وَأَخَذَتِ﴾ الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكُفر ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ السَماويّة المُهلِكة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أو صاروا دُفعةً ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ ومَساكنهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ مَيّتين لا حَراك لهم ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا﴾ في الدُّنيا، ولَم يعيشوا ﴿فِيهَا﴾ أبداً ﴿أَلاَ﴾ يا أهل العالَم ﴿بُعْداً﴾ منَ الرّحمة الواسعة الإلهيّة، وهَلاكاً دائماً ﴿لِمَدْيَنَ﴾ وأهله ﴿كَمَا بَعِدَتْ﴾ وهلَكتْ ﴿ثَمُودُ﴾.

عن ابن عبّاس: لَم يُعذّب الله تعالى أمّتين بعَذابٍ واحدٍ، إلّا قَوم شُعيب، وقَوم صالح. فأمّا قومُ صالح فأخذَتْهم الصَيحةُ من تَحتهم، وأمّا قومُ شُعيب فأخَذَتْهم من فَوقهم[٣].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِى هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ

---

١. كمال الدين: ٥/٦٤٥، مجمع البيان ٥: ٢٨٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٠.
٢. تفسير روح البيان ٤: ١٧٩.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٥١.

ٱلْمَرْفُودُ[٩٦ـ٩٩]

ثمّ ختَم سُبحانه قَصَص الأنبياء وهَلاك اُمَمهم بقِصّة موسى وهَلاك فِرعون وقَومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي التّوراة والشّرائع، كما قيل[١]، أو المُعجزات الباهرات؛ على قولٍ آخر[٢]، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ والبُرهان القاطع، على قولٍ، أو المُعجزات التّسع، على آخر[٣]، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وأشراف قَومه، أمّا فِرعون فجحَدهُ وعارضه، وأمّا مَلَأه ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ وامتَثلوا ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ إيّاهم بالكُفر والجُحود لنُبوّة موسى عليه السلام، وتَكذيبِه فيما جاء به ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وذي صَلاحٍ أو مَحمود العاقبة، بَل كانَ عينَ الغيِّ والضّلال.

وكما كانَ هُو قُدوةً ومُتَبعاً لهم في الكُفر والفَساد في الدُّنيا ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ الأشراف مِنهم والأراذل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وهُم يَتْبعونه في طريق جهنّم ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ المُوقدة ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وساء المكان الذي يدخُلونه ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ وأُرْدِفوا، اُولئكَ القومُ الذين اتّبعوه ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدُّنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمةً دائمةً، حيثُ تلعَنهم الأمَم إلى يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ حيثُ يلعَنهم جميعُ أهلِ المَوقف، بسَبب اتّباعهم أمرِ فِرعون ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ وساء العَطاء المُعطى، أو العَون المُعان به تِلْك اللّعنة.

القُمّي: ﴿فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني: الهَلاك والغرَق، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [أي] يرفِدهم الله بالعَذاب[٤]. فإذا كانَ حالُ الأتباع هكذا، فكيف يكون حالُ المَتبوع؟!

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ[١٠٠]

ثمّ استدلّ سُبحانه بصِدق هذه القَصص على صِدق النبيّ صلى الله عليه وآله، معَ كونه اُميّاً، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَذكُور ﴿مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلَكة، الذي لا تَعْلمُه أنت ولا قومُك، وإنّما نحنُ ﴿نَقُصُّهُ﴾ بالوَحي ﴿عَلَيْكَ﴾ فلا مَجال للشكّ في نُبوّتك.

وأمّا تِلك القُرى التي نزَل فيها العذابُ، فبعضٌ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ وباقٍ إلى الآن بأساسه و بُنيانه[٥] كالزَّرعِ القائمِ على ساقه، ﴿وَ﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ وعافي الأثر كالزَرع المَحصود.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٥٢.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٥٢.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٥٣.
٤. تفسير القمي ١: ٣٣٧، تفسير الصافي ٢: ٤٧١.
٥. في النسخة: بأساسها وبنيانها.

دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ [١٠١-١٠٣]

ثمّ نبّه سُبحانه على أن تَعذيب أهالي القُرى كانَ بمُقتضى العَدل بقوله: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**﴾ بتَعذيبهم ﴿**وَلَٰكِن**﴾ هُم ﴿**ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ**﴾ بتَعريضها للهَلاك بسَبب اختيارهم الكُفر، وارْتِكابهم العِصيان.

ثمّ وبّخهم على عِبادة الأصنام بقوله: ﴿**فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ**﴾ وما نَفعَتْهم في دَفع العَذاب عنهم بالقُدرة أو الشّفاعة ﴿**ءَالِهَتُهُمُ**﴾ وأصنامهم ﴿**ٱلَّتِي**﴾ كانوا ﴿**يَدْعُونَ**﴾ ويعبُدونها ﴿**مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ يسيرٍ ﴿**لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ وعَذابُه، لعدَم قُدرتهم ومَكانتهم عندَ الله ﴿**وَمَا زَادُوهُمْ**﴾ بعِبادتهم ﴿**غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ وهَلاك وتَخسير.

ثمّ بيّن سُبحانه عُموميّة عَذابه لكُلّ اُمّة ظالمة بقوله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ الأخذُ الشّديد الذي كان للاُمَم المَذكورة ﴿**أَخْذُ رَبِّكَ**﴾ وعَذابُه ﴿**إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ**﴾ وعذّب أهاليها وهُم كُفّار طُغاة ﴿**إِنَّ أَخْذَهُۥٓ**﴾ وعذابَه ﴿**أَلِيمٌ**﴾ ومُوجِع ﴿**شَدِيدٌ**﴾ في الغاية.

عن النبيّ ﷺ: «أنّ الله يُمهلُ الظّالمَ حتّى إذا أخذَه لَم يُفلِتْهُ». ثمّ تَلا هذه الآية[١].

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ الأخذ للاُمَم الهالكة، أو في المَذكور من قَصصهم ﴿**لَأٓيَةً**﴾ وعِبرةً كاملة، ومَوعظةً شافية ﴿**لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ**﴾ لأنّه المُعتبِر به، حيثُ إنّه يَستدِلُّ بما حاق بهم من العَذاب في الدُّنيا بسَبب الكُفر والعِصيان على شِدّة عَذاب الآخرة. وأمّا مَن يُنكِر الآخرة، فإنّه لا يتأثّر بهذه الحَوادث، لأنّه يُسنِدُها إلى الأوضاع الفَلَكيّة والأسباب الاتّفاقيّة.

ثمّ وصَف سُبحانه يومَ القِيامة ترهيباً للقُلوب بقوله: ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ اليومُ ﴿**يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ**﴾ من الأوّلين والآخرين، للحساب والجَزاء ﴿**وَذَٰلِكَ**﴾ اليومُ ﴿**يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾ ومُحضَر فيه جَميعُ الخَلائق مِن أهل السّماوات والأرضين، ليشهدوا أعمال العِباد وجَزاءهم عليها.

القُمّي: يشهد عليهم الأنبياء والرُّسل[٢].

وعن أحدهما عليهما السلام، في هذه الآية: «فذلك يومُ القيامة، وهُو اليومُ المَوعود»[٣].

عن السجاد عليه السلام: «واعلَم أنّ مِن وَراء هذا أعظَم وأفظعَ وأوجعَ للقُلوب، يَوم القِيامة ﴿**ذَٰلِكَ يَوْمٌ**

---

١. مجمع البيان ٥: ٢٩٢، تفسير الصافي ٢: ٤٧١.
٢. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٥٢/٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.

مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ يجمعُ الله عزَ وجلّ فيه الأوّلين والآخِرين»[١].

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [١٠٤-١٠٧]

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة تأخيره بقوله: **﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾** لعلّةٍ من العِلَل **﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾** وانقِضاء مُدّةٍ قليلةٍ تَقتضيها الحكمةُ البالغة، فإذا انْقضتْ فلا بُدّ من خَراب الدُّنيا وقِيام القِيامة، وكُلّ آتٍ قَريب.

ثمّ قرّر سُبحانه عَظمة ذلك اليوم، بذِكر بعض أحواله بقوله: **﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾** الأمر المَهيب الهائل، أو ذلك اليوم؛ بتأويل اليوم المذكور بحين، إذن **﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾** ولا تنطِق فيه بما ينفَعُها من الاعْتِذار والشّفاعة والجَواب **﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾** وإرادته، أو بتَرخيصه لها في التكلُّم. قيل: إنّه في بعض المَواقف[٢].

ثمّ بيّن سُبحانه أحوال أهل المَوقف بقوله: **﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾** وخَبيثُ النّفس والعمل، مُستحقٌّ للعَذاب **﴿وَ﴾** منهم **﴿سَعِيدٌ﴾** طيِّب النفس والعمل، مُستحقٌّ للثّواب والإكرام.

ثمّ كأنّه قيل: ما حالُهم وشأنُهم؟ فأجاب تعالى بقوله: **﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ﴾** يدخُلون ويستقرُّون، فيشتدُّ كَرْبُهم وبَلاؤهم، بحيثُ يكُون **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾** وصوتٌ كصَوت الحِمار عندَ رَدّ نَفَسه **﴿وَشَهِيقٌ﴾** وصوتٌ كصوته عند إخراج نَفَسه.

وقيل: الزّفيرُ في الحَلْق، والشّهيقُ في الصّدر[٣].

وقيل: الزّفيرُ الصّوتُ الشّديد، والشّهيقُ الصوتُ الضّعيف[٤].

وقيل: الزّفيرُ ما يَجتمع في الصّدْر مِن النَفَس عندَ البُكاء الشّديد؛ فينقطعُ النَّفَسُ، والشهيقُ هُو الصوتُ الذي يظهَر عندَ اشْتِداد الكَرْب والحُزن، ورُبّما تتبعهما الغَشْية، ورُبّما حصَل عَقيبهما الموتُ[٥].

والمُراد وصفُ شِدّة كَرْبهم وتَشبيه حالِهم بحالِ مَن اسْتولَتْ على قَلبه الحَرارةُ، وانْحصر فيه رُوحُه.

وعن ابن عبّاس قال: **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾** يُريد نَدامةً، ونَفَساً عالياً، وبُكاءً لا ينقطع، وحُزناً لا يندفع[٦].

وقيل: الزّفير لَهيبُ جهنّم، يرفعُهم بقُوّته، حتّى إذا وصلوا إلى أعلى دَرَجات جهنّم وطمِعوا في أن

---

١. الكافي ٨: ٢٩/٧٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٢.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٤١.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٦٢.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٦٣.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٦٢.
٦. تفسير الرازي ١٨: ٦٣.

يخرجوا منها أُعيدوا فيها، ويُرَدّوا إلى أسفل دَرَكاتها، فالزّفير ارْتِفاعُهم في النّار، والشّهيق انْحِطاطُهم فيها[1]، حالَ كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وبَقَيا في عالَم الآخرة، فإنّ لأهل الآخرة سَماوات وأرضاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاوَاتُ﴾[2]، وللرّوايات الدالّة على أنّ لجَهَنّم جِبالاً وأودية.

وقيل: إنّ الكلمة كِناية في لسان العرب عن الدّوام[3]؛ كقولهم: مالاحَ كوكبٌ، وما اختلفَ اللّيل والنّهار، ولَو لَم تكُن سماواتٌ وأرضٌ وكوكَبٌ، للنُّصوص القاطعة على دَوام العَذاب والنِّعمة في الآخرة وأبدِيّتهما، فلا مَجال للقول بانْقِطاع عَذاب الكُفّار للآية وبَعضِ الوُجوهِ الفاسدة.

وقيل: إنّ المُراد: السماواتُ والأرض الدُّنيويّة[4].

وعن القُمّي: هذا في نار الدُّنيا قبل يومِ القيامة[5].

وقيل: إنّ الأبديّة مفهومةٌ من قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ بناءً على أن (إلّا) بمعنى سِوى، والمعنى: أنّهم يكُونون في النّار في مُدّة بقاء السماوات والأرض سِوى ما يَتَجاوز عن ذلك من الزِّيادة التي لا آخِر لها[6].

وفيه من الضَّعف ما لا يخفى، وأكثرُ المُفسّرين على أنّ الاسْتِثناء على (حقباً)، وأنّ الآية في بَيان عَذاب الكُفّار في الآخرة لا في البَرزخ، والمعنى: إلا زماناً شاء ربُّك عدَم خُلودهم فيها، ولَم يشأ ولا يشاءُ ذلك أبداً، وإنّما المَقصود بَيان أنّ خُلودهم فيها بإرادة الله ولَوشاء لايُخلّدهم، ولكن لا يَشاءُ ذلك البتّة، للأدلّة القَطعيّة على خُلودهم فيها وعدم خُروجهم منها. ويُؤيّد ذلك تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

وقيل: إنّ المُراد من المُستثنى مُدّةُ أعمارهم في الدُّنيا، أو مُدّة مَكْثِهم في القَبر والبَرزَخ، أو في المَحشر للحِساب، ثمّ يَصيرون إلى النّار[7]. والكُلّ فاسد.

وقيل: زَمان خُروجهم من النّار، وانْتِقالهم إلى الزّمهرير وسائر أنواع العَذاب[8].

وقيل: إنّ المراد اسْتِثناء أشقياء أهل التّوحيد، فإنّه لا خُلود لهم فيها[9].

وعن الباقر عليه السلام: «هاتان الآيتان ـ يعني: هذه الآية، وما بعدها ـ في غير أهل الخُلود من الأشقياء والسُّعداء»[10].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٦٢. ٢. إبراهيم: ٤٨/١٤. ٣. تفسير الرازي ١٨: ٦٤.
٤. تفسير الصافي ٢: ٤٧٣. ٥. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣.
٦. تفسير الرازي ١٨: ٦٥. ٧ ـ٩. تفسير الرازي ١٨: ٦٦.
١٠. تفسير العياشي ٢: ٢٠٥٤/٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣، وفيهما: من أهل الشقاوة والسعادة.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا ما شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[١٠٨]

ثمّ بيّن سُبحانه حالَ السُّعداء بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا﴾ ووَحّدوا رَبّهم، وبذَلوا جُهدهم في طاعته ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾ يدخُلون ويستقرّون، حالَ كَونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا ما شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهُو يُعطيهم ذلك ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ويُفضّل عليهم تفضُّلاً غير مَقطوع عنهم أبداً.

ويأتي في الآية كُلُّ ما ذُكِر في سابقتها من الوُجوه، لدفع المُنافاة بين تَقييد الدّوام فيها بدَوام السّماوات والأرض والاسْتِثناء، وبَين ما عُلم من الأدلّة القطعيّة من الدّوام الأبدي بلا اسْتِثناء.

وقيل في الآية: إنّ السُّعداء قد يُرفعون إلى العَرش، ومَقام الرِّضوان، والمَنازل الرَّفيعة التي لا يعلمُها إلّا الله [١].

وفيه: إنّ الخروج من الجنّة ولَو آناً ما مُنافٍ للأدلّة القطعيّة على الخُلود فيها. وأمّا مَقام الرِّضوان والمَنازل الرَّفيعة، فكُلّها في الجنّة ليسَ بخارجٍ منها.

وعن الصادق عليه السلام أنّه قال: «قال الجاهل بعِلم التّفسير: إنّ هذا الاسْتِثناء من الله إنّما هُو لمن دخَل الجنّة والنّار، وذلك أنّ الفَريقين جميعاً يخرُجان منهما فتبقَيان وليس فيهما أحدٌ وكَذَبوا، فإنّ الله تعالى ليس يُخرج أهلَ الجنّة ولا كُلّ أهلِ النّار منهما أبداً، كيف يكُون ذلك وقد قال الله في كتابه: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ [٢] ليسَ فيه اسْتِثناء؟» [٣].

فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهُم مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ[١٠٩]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيانِ سُوء عاقبة المُشركين الماضين، وابتِلائهم بالعذاب، وعدَم انْتِفاعهم بآلهتِهم في دَفْعه، وذِكْرِ حال الأشقياء والسُّعداء في الآخرة، بيّن مُساواة حال المُشركين المُعاصرين للنبيّ صلى الله عليه وآله وآلهتِهم، معَ السّابقين المُهلَكين وآلهتهم، في سُوء العاقبة وابتِلائِهم بالعَذاب، وعدم إغناء آلهتهم عنهم، تَسليةً للنبيّ صلى الله عليه وآله، وتَبشيراً له بالنّصر، وتَهديداً للمُشركين بقوله: ﴿فَلاَ تَكُ﴾ يا محمّد، بعدَ ما اُنزل إليك من القُرآن، واطّلعتَ بما فيه من قَصَص الأمَم، كائناً ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشَكٍّ ﴿مِن﴾ حال

١. تفسير الرازي ١٨: ٦٧.
٢. الكهف: ٣/١٨.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٥٣/٣٢٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٣.

﴿مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المُشركون المُعاصرون لك من الأصنام، في أنّها لا تدفعُ عنهم شيئاً من العَذاب، واعلَم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ الأصنام ﴿إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ﴾ ها ﴿آبَاؤُهُم﴾ وكُبَراؤهم الذين بيّنتُ لك سُوء عاقبتهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ بِلا تَفاوُت، فكما كانت عِبادةُ قُدَمائهم إيّاها عن جَهْلٍ وتَقليد بِلا تَحْقيق وبُرهان، كانت عِبادةُ هؤلاء المُشركين المَوجودين في عصرك لها كذلك ﴿وَإِنَّا﴾ كما وَفَينا نَصيب آبائهم من الرِّزق والسَّعة والعُمر، وإرسال الرُّسُل، وإنزال الكُتُب، وإتمام الحُجَة عليهم في الدُّنيا، وإنزال العَذاب عليهم فيها وفي الآخرة، واللهِ ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ ومُعطُوهم كاملاً ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ وحَظَّهم المُعيَّن لهم مِن المَذكورات، حالَ كَون ذلك النَصيب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ منه مِثقال ذَرَة، ويكُون حالُ هؤلاء كحالِ قُدَمائهم بَدْواً وخَتماً بِلا تَفاوُت. فَلْيكُونوا على حَذَرٍ، وكُن أنت على ما أنت عليه من التَبليغ، والقِيام بوَظيفه الرِّسالة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ[١١٠]

ثمَ أنّه تعالى بعدَ تَسْلية نبيِّه ﷺ في إنكار المُشركين التَوحيد، ومُعارضتهم له فيه، سَلّاه سُبحانه في إنكارهم صِدق كِتابه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فمِن قومه مَن آمن به، ومنهم مَن أنكر صِدقه، كما اختَلف قومُك في شأن كِتابك أنّه من عندِالله أو مِن اختِلاق البشر، فلا تُبالِ يا محمّد باخْتِلاف قومِك وتَكذيبهم كِتابك، فإنّهم على سيرةِ مَن قَبلِهم، واصْبِر كما صبَر مُوسىٰ عليه السلام.

عن الباقر عليه السلام: «اختَلفوا كما اختلفت هذه الأمّة [في الكتاب]، وسيختلفون في الكِتاب الذي مع القائم الذي يأتيهم به، حتّى يُنكِره ناسٌ منهم[١]، فيُقدّمهم ويضرِب أعناقهم»[٢].

ثمَ بيّن الله شِدّة استِحقاقهم العَذاب بقوله: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ مِن وَعْده أو حُكْمه بتأخير عَذاب هذه الأمّة، أو حُكْمِه بين المُختلفين إلى القِيامة، لحِكمةٍ داعيةٍ إليه، أو إخباره بسَبْق رَحمتِه غَضَبه ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وحُكِم عليهم في الحال بعَذاب الاسْتئصال، أو بالتميُّز بين المُحِقّ والمُبطِل من قومك بإهلاك مُكذّبي كِتابك، معَ أنّهم ليسُوا على يقينٍ من كِذْبه ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ عَظيم من صِدقه، وتَرديد ﴿مِنْهُ﴾ معَ وُضوح دَلائله ﴿مُرِيبٍ﴾ ذلك الشكّ، ومُوقع لقُلوبهم في اضْطِرابٍ وتَشويشٍ، معَ أنّ الحقّ الاطْمئنانُ به.

---

١. في الكافي: ناسٌ كثير.

٢. الكافي ٨: ٤٣٢/٢٨٧، تفسير الصافي ٢: ٤٧٤.

وَإِنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[١١١]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ ذِكر الاختِلاف في صِدق كِتابه، وعَد المُصدّقين وأوعد المُكذّبين بقوله: **﴿وَإِنَّ كُلاً﴾** من المُصدّقين لكِتابك والمُكذّبين له **﴿لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾** وليُعطِيَنّهم **﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾** وجَزاء تَصْديقهم وطاعتهم، وعُقوبة تَكذيبهم وعِصيانهم، حَسبَما يستحِقّون **﴿إِنَّهُ﴾** تعالى **﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** مِن خيرٍ وشر **﴿خَبِيرٌ﴾** ومُطّلع بحيث لا يخفى عليه جَلائلُه ودَقائقُه، ومِقدار ما يستحقّون من الثّواب والعِقاب، فلا ينقُص مِن حُقوق كُلٍّ منهم شيء.

وقيل: إنّه تعالى لمّا أخبر بتَوفية الأجزية، أكّده بسَبعة أنواع من التّأكيدات: كلمة (إنَّ) وكلمة (كُلّ)، واللام الداخلة على خبر (إنَّ)، وماء الموصولة، والقَسَم المُضمَر في (لَيُوَفِّيَنَّ)، واللام الدّاخلة على جَوابه، والنُّون المُؤكّدة. فجميعُ هذه التأكيدات تدُلّ على أنّ أمر الرُّبوبيّة والعُبوديّة، لا يتِمُّ إلّا بالبَعث والقِيامة والعِقاب والثّواب[١].

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ[١١٢ و ١١٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَسْلية النبيّ ﷺ في تَكذيب نُبوّته وكِتابه، ومُعارضة المُشركين له، أمَره بالثّبات على دينه ودَعوته بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ﴾** يا محمّد، واثبتْ على ما أنت عليه من الدّين والدّعوة إليه. وعن الصادق عليه السلام: «أي افتقِرْ إلى الله بصِحّة العَزْم»[٢] **﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾** به مِن رَبّك، وعلى النّحو الذّي أراد منك، غيرُ عادلٍ عنه، ولا مُتوانٍ فيه **﴿وَ﴾** كذا **﴿مَن تَابَ﴾** من الشِّرك والعِصيان، وكان **﴿مَعَكَ﴾** في الإيمان، وتَبِعك في العَقائد والأعمال.

وعن ابن عبّاس: ما نزلَتْ على رَسول الله ﷺ في جميع القُرآن آيةٌ أشدُّ عليه من هذه الآية، ولهذا قال ﷺ: «شَيّبَتْني سُورة هود وأخواتُها»[٣].

وعن بعضٍ أنه قال: رأيتُ النبي ﷺ في النَوم، فقلتُ له: رُوي عنك أنّك قُلتَ: «شيّبَتْني سُورة هود وأخواتُها». فقال: نعم، فقلتُ: وبأيّ آية؟ قال: «بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾**»[٤].

ثمّ خَصّ سُبحانه الخِطاب بالمُؤمنين بقوله: **﴿وَلاَ تَطْغَوْا﴾** ولا تَتجاوزوا عن حُدود الله وأوامره

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٧٠.

٢. جوامع الجامع: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ٤٧٤.

٣ و ٤. تفسير الرازي ١٨: ٧١.

ونَواهيه بطَرَفَيَ الإفراط والتَفريط، ولا تُدخِلوا طاعةَ أهويتكم في طاعةِ ربّكم، عن ابن عبّاس: تَواضعوا لله، ولا تتَكبّروا على أحدٍ[١]. وقيل: يعني: لا تعدِلوا عن طَريق شُكره والتواضُع له عندَ عَظيم نِعَمه[٢] ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التَعدّي والتَقصير ﴿بَصِيرٌ﴾ ومُطّلع غايته، فيُجازيكم عليه، فاتّقوا في المُحافظة على حُدوده. وفيه غاية التّهديد ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا﴾ ولا تسكُنوا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسَهم بالكُفر والعِصيان، ولا تَميلوا إليهم بالمَحبّة والنُّصح ولَو قليلاً.

وعنهم عليهم السلام: «الرُّكونُ المَودّةُ والنَصيحةُ والطّاعة»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «هُو الرّجُل يأتي السُّلطان، فيُحِبُّ بقاءَهُ إلى أن يُدخِل يدَه في كيسه فيُعطيه»[٤].

أقول: الظّاهرُ من السُّلطان السَلاطينُ المُعاصرون لهم الغاصبون لحَقّهم.

وعن ابن عبّاس: لا تُداهِنوا الظَّلَمة[٥]. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ وتُصيبكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ في الآخرة، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّه ﴿مَا لَكُم مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأعوان يدفعُون عنكم العَذاب ﴿ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ مِن قِبَل الله، لشِدّة اسْتِحقاقكم.

عن الصادق عليه السلام: «أما أنّه لَم يجعلها خُلوداً، ولكن قال: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، فلا تركَنُوا إليهم»[٦].

قال السُّدّي: إنّ الرُّكون [المنهيّ عنه] هُو الرّضا بما عليه الظَّلَمة من الظُّلم، وتَحسينُ طَريقتهم وتَزْيينُها عندَهم وعندَ غيرهم، فأمّا مُداخَلَتُهم لدَفْع ضَرَرٍ، أو اجْتِلابِ مَنفعةٍ عاجلةٍ، فغيرُ داخلٍ في الرُّكون إليهم[٧]. فإذا كان الرُّكون إليهم مُوجباً لمَسِّ النار، فكيف حالُ أنفسهم؟

وَأَقِمِ ٱلصَّلاَةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّـيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ[١١٤]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ أمره بالاسْتِقامة، ونَهْيه عن التَعدّي عن حُدوده والرُّكون إلى الكُفّار، والتّهديد عليه، أمَرنا بالصّلاة التي هي أعظمُ العِبادات، وأتمُّ الرُّكون والإقبال إلى الله بقوله: ﴿وَأَقِمِ﴾ يا محمّد وأدِّ ﴿ٱلصَّلاَةَ﴾ التي هي عَمُود دينك، ومِعراج أُمّتك في ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّـهَارِ﴾ وهُما الغَداة والعَشِيّ ﴿وَزُلَفاً﴾ وساعات قريبة من النّهار، كائنة ﴿مِنَ ٱللَّيْلِ﴾.

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٨: ٧١.

٣. مجمع البيان ٥: ٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٤. الكافي ٥: ١٢/١٠٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٥. مجمع البيان ٥: ٣٠٦ عن السدي.

٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠٥٩/٣٢٤، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.

٧. تفسير الرازي ١٨: ٧٢، والقول منسوب إلى المحققين.

قيل: «﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الغَداة والعَصر، و ﴿زُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ﴾ المَغرب والعِشاء[١].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الغَداة والمغرب، و ﴿زُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ﴾ العِشاء الآخِرة»[٢].

ثمّ حَثّ سُبحانه على الصَّلاة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ﴾ والأعمال الخَيريّة التي مِنها الصَّلاة ﴿يُذْهِبْنَ﴾ ويَمْحُنَ ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ الصِّغار.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنّ الصَّلاة إلى الصَّلاة كَفّارةٌ ما بَينهما ما اجتُنِبَت الكَبائر»[٣].

وعن ابن عبّاس: إن الصَّلواتِ الخَمس كَفّاراتٌ لسائر الذُّنوب، بشَرْط الاجْتِناب عن الكَبائر[٤].

وفي رِوايةٍ: «الصَّلواتُ الخَمس، والجُمعة إلى الجُمعة، ورَمضان إلى رَمضان، مُكفّراتٌ لما بَيْنهُنّ إذا اجتنب الكَبائر»[٥].

وعن مجاهد: الحَسَناتُ قولُ العَبْدِ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلّا الله، واللهُ أكبر[٦].

عن الصادق عليه السلام: «صَلاةُ المؤمن باللّيل تُذهِبُ بِما عَمِل مِن ذَنْبٍ بالنهار»[٧].

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أربعٌ من كُنّ فيه لَم يهلِك ـ إلى أن قال: ـ ويَهُمُّ بالسَّيِّئة أن يعملْها، فإن لَم يَعْمَلْها لَم يُكتَب عليه شيءٌ، وإن هُو عَمِلها أُجِّل سبْعَ ساعاتٍ، وقال صاحِبُ الحَسَناتِ لصاحبِ السيِّئات؛ وهو صاحِبُ الشمال: لا تَعْجَلْ، عَسَىٰ أن يُتبِعَها بحَسَنةٍ تَمْحُوها، فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ أو الاسْتِغفار» الخبر[٨].

وعنه عليه السلام: «إعْلَم أنّه ليسَ شيءٌ أضرُّ عاقبةً، ولا أسرَعُ نَدامةً، من الخَطيئةِ، وأنّه ليسَ شيءٌ أشدُّ طلباً ولا أسرعُ دَرْكاً للخطيئة، مِن الحَسَنةِ. أما أنّها لتُدرِكُ الذَّنبَ العَظيم القديم المَنسِيّ عند صاحبه، فتَحُطّه وتُسقِطه وتذهب به بعدَ إثباته، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ...﴾ إلى آخره»[٩].

وعن أحدهما عليهما السلام: «أنّ علياً عليه السلام قال: سمِعتُ حَبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: أرجَأُ آيةٍ في كِتاب الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ...﴾ وقرأ الآية كُلَّها. وقال: يا عليّ، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً [إنّ] أحدَكم ليقوم إلى[١٠] وُضوئه فتَساقط عن جَوارحه الذُّنوب، فإذا استقبل اللهَ بقَلْبه ووَجْهه، لَم ينفتل [عن صَلاته] وعليه مِن ذُنوبه شيءٌ، كما ولَدتْه أمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصَّلاتين كانَ له مِثلُ ذلك، حتّى عَدّ الصَّلوات الخَمس. ثمّ قال: يا عليّ، إنّما مَثَلُ الصَّلوات الخَمس لأُمّتي كنهرٍ جارٍ على باب

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٤٦.
٢. التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٧٢، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٧٤.
٥. تفسير روح البيان ٤: ١٩٧.
٦. تفسير الرازي ١٨: ٧٤.
٧. الكافي ٣: ١٠/٢٦٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.
٨. الكافي ٢: ٤/٣١٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.
٩. تفسير العياشي ٢: ٢٠٦٧/٣٢٨، مجمع البيان ٥: ٣٠٧، تفسير الصافي ٢: ٤٧٦.
١٠. في مجمع البيان: من.

أحدِهم، فما يظُنّ أحدُهم إذا كانَ في جسده دَرَنٌ ثمّ اغْتسل في ذلك النّهر خَمس [مرّات في اليوم] أكان يَبقى في جسَده دَرَنٌ؟ فكذلكَ واللهِ الصّلواتُ الخَمس [لأُمّتي]»[1].

وعن عليّ عليه السلام: «أنّ الله يُكفر بكُلّ حَسنةٍ سيّئةً». [ثمّ] تلا هذه الآية[2].

في قصة أبي اليَسَر

وروَت العامّة في سَبب نُزول الآية: أنّ أبا اليَسَر الأنصاري كان يَبيع التّمر، فأتَتْه امرأةٌ فأعجَبَتْهُ، فقال لها: إنّ في البيت أجود من هذا التّمر، فذهب بها إلى داخل البيت، فضمّها إلى نفسِه وقبّلها، وفعل بها كُلّ شيءٍ إلّا الجِماع، فقالت له: اتّقِ الله، فتركها وندِم، فأتى أبابكر فأخبره، فقال: اسْتُر على نفسِك وتُبْ إلى الله، فلَم يصبِر فأتى عُمر، فقال له مِثل ذلك، فلم يصبر، ثمّ أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره بما فعل، فقال: «أنتظِرْ أمرَ رَبّي، فاسْتُر على نفسِك»، فلمّا صلّى العَصر نزلَتْ هذه الآية، فقال صلى الله عليه وآله: «صلّيتَ العصرَ معنا؟» قال: نعَم، فقال: «اذهَبْ، فإنّها كَفّارةٌ لِما فعلْتَ»، فقال الحاضرون: هذا لَه خاصّة أم للنّاس عامّة؟ قال: «بَل للنّاس كافّة»[3].

ثمّ حَثّ سُبحانه على العمَل بالتّكاليف بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المَذكور مِن الاسْتِقامة على الدّين، وتَرْك الرُّكون إلى الظّالمين، وإقامة الصّلاة ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وعِظَة ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ والمُتّعظين.

وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ [١١٥ و١١٦]

ثمّ أكّد سُبحانه ذلك بالأمر بالصّبر والوَعد بالأجر بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد، على مَشاقّ التّكاليف، واحْمِل نفسَك على الطّاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ ولا يُبطِل ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بَل يُوفّيهم أُجورَ أعمالهم على حَسب اسْتِحقاقهم.

ثمّ أنّه تعالى بعدَ أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين بالاسْتِقامة على الدّعوة والإرشاد، وعدَم الرُّكون إلى الكُفّار، والرُّكون إلى الله بالقِيام إلى الصّلاة، والصّبر على مَشاقّ التّكليف، نبّه على أنّ رَفع الكُفر والفَساد لا يكون إلّا بالدّعوة إلى الحَقّ، والنّهي عن المُنكر بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهَلّا وُجِد مِن الأُمَم الهالكة السّابقة على عَصركم فَريقٌ ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ وأصحاب فَضل وخَير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ المُفسِدين ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والعُصاة عن العِصيان في الدُّنيا ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ وغير

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٦١/٣٢٥، مجمع البيان ٥: ٣٠٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٦.
٢. أمالي الطوسي: ٣١/٢٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧٥.
٣. تفسير روح البيان ٤: ١٩٧.

شِرْذِمَة[١]. والاسْتِثناء راجعٌ إلى النَّفي المُستفاد من كلمة التَحضيض، والمعنى: ما كانَ من القُرون غيرُ قليلٍ مِن ذَوي عَقْلٍ وفَضْل.

وقيل: إنّ الاسْتِثناء مُنقطع، والمعنى: ولكن قليلاً ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[٢].

وعليه يكُون حاصل المَفاد أنه لَم يكُن في الأُمَم السّابقة الطّاغية رِجالٌ صُلَحاء يَنْهونَهم عن المُنكر، حتّى لا ينزِل عليهم العَذاب، نعَم قليلٌ منهم نَهَوهم عن المُنكر، فنجَوا من العَذاب، وهُم أتباع الأنبياء.

وأمّا غيرهم فتركوه ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بارْتِكاب الفَساد، وتَرك النَهي عن المُنكر ﴿مَا أُتْرِفُوا﴾ وأُنعِموا، أو أُطلِقوا وتُركوا ﴿فِيهِ﴾ من الشَهوات واللّذّات التي آثَروها على رِضا الله تعالى والنِّعَم الأُخرويّة ﴿وَكَانُوا﴾ لِذلك ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وصاروا عُصاة طاغين، ومُستحقّين لعذاب الاسْتئصال، مُبتَلين بأشدِّ النَّكال. أمّا جُهّالهم فبسَبب العِصيان والطُّغيان، وأمّا عُلماؤهم فبسَبب المُداراة وتَرك النَهي عن المُنكر.

رُوي أنّ الله لا يُعذِّب العامّة بعملِ الخاصّة، حتّى يرَوا المُنكر بَين ظَهْرانيهم وهُم قادرون على أن يُنكِروا فلا يُنكِرون، فإذا فعلُوا ذلك عذَّب اللهُ العامّةَ والخاصّة[٣].

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[١١٧]

ثمّ نبّه سُبحانه على أنّ تَعذيبهم كان بمُقتضى عَدْله بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما صَحّ له ﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بالعَذاب ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه لهم، أو بظُلمهم على أنفسهم بسَبب الشِّرك والعِصيان ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم، مُنصفون في حُقوق إخوانهم.

عن النبيّ ﷺ: «﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يُنصِفُ بَعضُهم من بعض»[٤].

حاصلُ الآية: أنّ الله لا يُهلك قوماً بمُجرّد الشِّرك واعْتِقاد الباطل، وإنّما يُهلكهم إذا سَعَوا في الفَساد، وظَلَموا النّاسَ، فإنّ مِن رَحْمته تعالى أن يُسامح في حُقوق نَفْسِه دُون حُقوق النّاس.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ[١١٨ و ١١٩]

---

١. الشِّرذِمة: الجماعة القليلة من الناس.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٠.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٠.
٤. مجمع البيان ٥: ٣٠٩، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.

ثمّ نبّه سُبحانه على أنّ أمره بدَعوة النّاس إلى التّوحيد ونَهْيهم عن المُنكر، ليسَ لعَجز نَفسه عن حَمْلهم على الإيمان؛ بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ بالمشيئة التّكوينيّة إيمانَهم ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾ في جميع الأزمنة ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجَماعةً مُتفقةً على دين الحَقّ وألزمهم وقَهَرهم على مِلّة التّوحيد، ولكن لَم يشأ ذلك لحِكمةٍ داعيةٍ إلى إيكالهم إلى اخْتيارهم ﴿وَ﴾ لِذا ﴿لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في العَقائد والأخلاق في القُرون والأعصار، فتاهُوا في شُعَب الباطل ومَسالك الضّلال ﴿إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ووفّقه للاهْتِداء إلى الحَقّ، وأرشده إلى الصّراط المُستقيم ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرّحمة ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وللاهْتِداء إلى الحَقّ بفَضله أوجدهم.

عن الصادق عليه السلام[1]، في هذه الآية: «النّاس مُختلفون في إصابة القَول، وكُلّهم هالك، ﴿إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ وهُم شِيعتُنا، ولرحمته[2] خلقهم، [وهو قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾]، يقول: لطاعة الامام عليه السلام»[3].

وعنه عليه السلام: «خلقهم ليفعلوا ما يَستوجبون به رَحْمَتَه، فيَرحَمْهم»[4].

وعن الباقر عليه السلام قال: «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الدّين ﴿إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: آل محمّد و أتباعهم. يقول الله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: أهل الرحمة لا يَختلفون [في الدين]»[5].

وقيل: إنّ لام (لِذٰلِكَ) لامُ العاقبة، واسْم الإشارة إشارةٌ إلى الاخْتِلاف بمعنى المُخالفة[6] وضمير ﴿خَلَقَهُمْ﴾ راجعٌ إلى عُموم الناس، والمعنى: وكان عاقبةُ خَلْقِهم المُخالفةَ للحقّ.

وقيل: إنّ اسْمَ الإشارة راجعٌ إلى المَذكور من الرّحمة والاخْتِلاف، والمُراد: أنّه خَلق أهلَ الرّحمة للرّحمة، وأهل العَذاب للاخْتِلاف[7].

عن ابن عبّاس قال: خلق [الله] أهلَ الرّحمةِ لِئَلّا يختلفوا، وأهلَ العَذاب لأن يختلفوا، وخلَق الجنّة وخلَق لها أهلاً، وخلَق النّار وخلَق لها أهلاً[8].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وحَقّتْ، أو وصل وَعيدُه إلى عِباده، أو مضى حُكْمُه وقضاؤه من قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في القِيامة ﴿جَهَنَّمَ﴾ البتّة ﴿مِنَ﴾ الشّياطين وعُصاة ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

عن القُمّي رحمه الله: «وهُم الّذين سبَق الشّقاء لهم، فحَقّ عليهم القَولُ أنّهم للنار خُلِقوا، وهُم الّذين حَقّت عليهم كلمةُ رَبّك أنّهم لا يُؤمنون»[9].

---

١. في الكافي: عن الباقر عليه السلام.
٢. في النسخة: ولرحمتهم.
٣. الكافي ١: ٨٣/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.
٤. التوحيد: ١٠/٤٠٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧٧.
٥. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.
٦. تفسير البيضاوي ١: ٤٧٣.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٢٠٢.
٨. تفسير الرازي ١٨: ٧٩.
٩. تفسير القمي ١: ٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُل لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[١٢٠-١٢٢]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان كثيرٍ من قَصَص الأنبياء وأُمَمهم، نبّه علىّ فوائده بقوله: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد شيئاً ﴿مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ﴾ وبَعضاً من أخبارهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ونُقوّي به قلبَك في القِيام بوَظيفة الرِّسالة، ونُزيد به يَقينَك بأنك مُؤيَّدٌ من ربِّك وتَطيبُ به نفسُك، وتعلَم أنّ ما يُفعَلُ بك من التّكذيب والإيذاء فقد فُعل بغيرك من الأنبياء. وفيه تسليةٌ عظيمة، فإنّ مَن رأى لنفسه شُرَكاء في المُصيبة هانَتْ عليه، وسَلا قلبُه.

﴿وَجَاءَكَ﴾ مِن قِبَلنا ووَحْينا ﴿فِي هٰذِهِ﴾ السُّورة؛ كما عن ابن عبّاس[١]، أو هذه الأنبياء المُقتصّة عليك، والوَعد والوعيد، أو في هذه الآيات التي ذُكرت قَبل هذا الموضع، أو في هذه الدُّنيا ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والتِّبيان الصِّدق الذي هُو دَليل نُبوّتك، أو البُرهان القاطع على التّوحيد وسائر المَعارف، أو بَيان أنّ الخَلق يُجازَون بأنصبائهم المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، ﴿وَ﴾ فيه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ونَصيحةٌ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتَنبيهٌ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبكِتابك، لأنّهم المُتّعظون.

﴿وَقُل لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بك ولا يُصدّقون كِتابك، ولا ينتفعُون بالإعذار والإنذار، والوَعد والوَعيد، والوَعظ والتّهديد: ﴿ٱعْمَلُوا﴾ واجْتهدوا في كُفركم، وتَكذيب كِتاب ربّكم، أو في إهلاكي والإضرار بي ﴿عَلَىٰ﴾ قَدْر ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ واسْتِطاعتكم، أو المُراد: لا تُقصّروا ولا تَتوانَوا فيما تعزمون عليه من الإخلال في أمر رِسالتي، على حالِكم الذي أنتم عليه ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿عَامِلُونَ﴾ ومُبالغون في أداء الرّسالة، ومُجِدّون في إحياء الحقّ وإماتة الباطل، على قَدْر وُسْعنا، أو على ما نحنُ عليه من الحال. القُمّي: أي نُعاقبكم[٢] ﴿وَٱنْتَظِرُوا﴾ بنا الدائرة، أو خِذلانكم، أو نُزول العَذاب عليكم كما نَزل على الّذين مِن قبلكم ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾ نَصْرَنا مِن قِبَل رَبّنا، أو نُزول العَذاب عليكم.

وَلِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[١٢٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ ما أخبر نبيّه ﷺ بقَصَص الأنبياء وأُمَمهم، وأمره بإظهار عدم المُبالاة بمَكائد الكُفّار، أعلن بكَمال عِلمه وسَعَة قُدرته، وأمر نبيّه ﷺ بالقِيام بوَظائف عُبوديّته ورِسالته، والتوكّل

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٠٤.

٢. تفسير القمي ١: ٣٣٩، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويختصُّ به العِلم بخَفِيّاتهما، لا يشركه فيه غيرُه، ولا تخفى عليه خافيةٌ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى وَحده ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ المُتعلّق بعَوالِم الوُجود ﴿كُلُّهُ﴾ من الإيجاد والإعدام، والإماتة والإحياء، والتّنمية والتربية، وإرسال الرُّسُل، وتَوفيق النّاس وهِدايتهم إلى الحَقّ وإضلالهم عنه، ونَصْر الرُّسُل وخِذلان مُعارضيهم، أو المُراد: أنّه إليه تعود عَواقِبُ الأُمور في القِيامة، كما أنّه مَصدر جَميعها، فهُو يُثيبك على طاعتِك وتَبليغِك، ويُعاقب أعداءَك على عدَم الإيمان بك ومُعارضتك، فإذا كانَ رَبُّك كذلك ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حَقّ عِبادته، وأطِعْهُ حَقّ طاعته، واستَقِمْ على تَبليغ رِسالته ومُكابدة أعدائه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وفَوِّضْ اُمورك إليه، فإنّه ناصِرُك وكافِيك وعاصِمُك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهؤلاء الكُفّار، فإنّ الغَفلة لا تجُوز على العالِم بغَيْب السّماوات والأرض، فيُجازيك وإيّاهم على حَسب الأعمال والاستِحقاق.

رُوي أنّ هذه الآية خاتمة التّوراة[1].

عن الباقر عليه السلام: «مَن قرأ سُورة هُود في كُلّ جُمعة، بعثَه اللهُ يومَ القِيامة في زُمرة النّبيِّين، ولَم تُعرَف له خَطيئةٌ عمِلها يومَ القِيامة»[2].

الحمدُ للهِ على التّوفيق لإتمام تَفسير سُورة هُود، ونسألُه التّوفيق لتَفسير ما يتلُوها بمُحمّدٍ وآله الطّيبين.

---

١. مجمع البيان ٥: ٣١٤، تفسير روح البيان ٤: ٢٠٥.   ٢. ثواب الاعمال: ١٠٦، تفسير الصافي ٢: ٤٧٨.

في تفسير سورة يُوسف عليه السلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الَر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ[١]

ثمّ لمّا ختَم الله سُبحانه سُورة هود بذِكر كَمال عِلمه وسَعَة قُدرته، وأمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالعِبادة والتوكُّل عليه، أردفها بسُورة يُوسف لِما فيها من الشّواهد على عِلمه وقُدرته، ومِن عِبادة يُوسف وتوكُّله ونَتائجها، فابتدأها على دَأبه بقوله: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثمّ افْتَتحها بالحُروف المُقطّعات من قوله: ﴿الَر﴾ قيل: هي رَمز من: أنا اللهُ أرىٰ صَنيعَ إخوة يُوسف، وما جرى عليه، أو أرى ما لا يرى الخَلق[١].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني: أنا الله الرّؤوف»[٢].

ثمّ وصف كِتابه العَظيم بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآياتُ أو السُّورة ﴿آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ والقُرآن الظّاهر أمره من كَونه كَلامَ الله، لدَلالة ما فيه من وَجْه الإعجاز، أو المُظهِر للمَعارف والأسرار والأحكام، أو المُراد: تِلك الآياتُ آياتٌ مَكتوبةٌ في اللّوح المَحفوظ.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ[٢ و ٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ مَدح كِتابه بالشرف الذاتي، وصفه بالشّرف الإضافي بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى النبيّ الصّادق بتوسُّط جَبرئيل، حالَ كَونه ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ بلُغتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مَضامينه، وتفهمون مَعانيه، حتّى تتِمَّ عليكم الحُجّةُ، ولا يبقى لكم العُذر في ضَلالتكم، بأن تَقُولوا أنّه ليسَ بلُغتنا وما خاطَبنا اللهُ به.

ثمّ رُوي أنّ جمعاً من أحبار اليَهود قالوا لرُؤساء المُشركين: سَلُوا محمّداً لِمَ انتقل [آل] يعقوب مِن

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٠٧.

٢. معاني الأخبار: ١/٢٢.

الشَام إلى مِصر، وعن قِصَة يُوسف؟ فنزلت[1].

وعن سعيد بن جبير: لمَا نزَل القُرآن على رَسول الله ﷺ، وكان يتلُوه على قومه، فقالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْتَ علينا فنزل قولُه[2]: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وأنفع الأخبار، لكَثرة ما فيه من العِبَر والحِكَم والعَجائب والفَوائد التي تصلُح للدِّين والدُنيا، كسِيَر المُلوك والمَماليك، ومَكرِ النَساء، والصَبر على أذى الأعداء، والتَجاوُز عنهم بعدَ القُدرة عليهم، وغير ذلك.

وقيل: إنّ المُراد أنّ هذه القِصَة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ وبسَبب إيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ﴾.

ثمَ علّل سُبحانه كَون عِلمه بها بسَبب الوَحي بقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ والذَاهلين عنها.

قيل: إنّما عبّر سُبحانه عن عدَم عِلمه بالغَفلة، إجلالاً لشأنه[3]. ويُمكن كَون التَعبير على وَجه الحقيقة، لأنّ جَميع القِصَة كان بمَنظره ومَرْآه ﷺ في عالَم الأشباح، وبعدَ انْتِقاله إلى هذا العالَم ذَهَل عنها لاستِغراقه في التَوجُّه إلى الله وعِبادته، وإرشاد الخَلق وهِدايتهم.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ[٤]

ثمَ شرَع سُبحانه في القصَة بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بعدَ انْتِباهه من النَوم ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المَنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

ثمَ كأنّه قيل له: كيف رأيتَهم؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وخاضعين.

وإنّما ذكَر الشَمس والقَمر، مَع كونهما من الكواكب، لإظهار شَرَفهما. وإنّما أخَرهما في الذِّكر للإشارة إلى تأخّر رُؤيتهما عن رُؤية الكَواكب كما تأخّر مُلاقاة أبوَيه عن مُلاقاة أخوَيه. وإنّما أرجع ضمير العُقلاء إلى الكَواكب لإسناد السَجدة؛ التّي هي فِعْلُ العُقلاء، إليها، أو للإشعار بكَون الأجرام الفَلَكيَة حَيَة عاقلة؛ كما عَلَيه الفَلاسفة.

عن وهب: أنَه قال: رأى يوسف؛ وهو ابنُ سَبع سِنين، أنّ إحدى عَشْرة عصاً طِوالاً كانتْ مَركوزة في الأرض كهَيئة الدَائرة، وإذا عصاً صَغيرة وثَبَتْ عليها وابتَلعتها، فذكر ذلك لأبيه، فقال: إيّاك أن تذكُر هذا لإخوتك، ثمَ رأى وهُو ابن اثنتي عشرة سنة ـ وقيل: ابنُ عشر سنين ليلة الجمعة والقدر[4] ـ

---

١. جوامع الجامع: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٧، تفسير الرازي ١٨: ٨٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٠٧.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢١٠.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢١٢.

الشَمسَ والقمرَ والكَواكبَ تسجُد له فقصّها على أبيه[١].

وعن الباقر عليه السلام: «رأى الرُّؤيا وهُو ابنُ تِسع سنين»[٢].

عن جابر [ابن عبدالله] قال: أتى النبيَ صلى الله عليه وآله رَجلٌ من اليَهُود يُقال لهُ بشان، فقال: يا محمَد، أخبرني عن الكَواكب التي رآها يُوسف ساجدةً له، ما أسماؤهنّ؟ فلَم يُجِبْه النبيّ صلى الله عليه وآله يَومئذٍ في شيء. فنزل جَبرئيل فأخبر النبيَ صلى الله عليه وآله بأسمائها، فبعث النبيُ صلى الله عليه وآله إلى بشان، فلمّا أن جاءه قال النبي صلى الله عليه وآله: «هَل أنت مُسلمٌ إن أخبرتُك بأسمائها؟» قال: نعم، فقال له النبيَ صلى الله عليه وآله: «جوبان ـ وفي نسخة: جربان ـ، والطّارق، والذيال، وذُو الكتِفين، وقايس[٣]، ووثّاب، وعمودان، والفيلق ـ وفي رواية: والفليق ـ، والمُصبح، والصّدوح ـ وفي رواية: والضروح ـ، وذُوالفروغ ـ وفي رواية: والفزع ـ، والضّياء، والنور، رآها في اُفُق السّماء ساجدة له».

وفي رِواية: «أنّه رآهن نزلْنَ من السّماء وسَجَدن له». فقال بشأن: والله إنّ هذه لأسماؤها، ثمّ أسلم[٤].

أقول: المُرادُ بالضِّياء والنُّور الشّمسُ والقَمر.

وقيل: إنّه عليه السلام رأى أنّه على جَبلٍ شامخ، حولَه أنهار جارية وأشجار خَضرة، فرأى الكواكب سجَدْنَ له[٥].

قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ [٥]

فلمّا ذكرها لأبيه، وكان شَديدُ الحُبّ له ولأخيه بنيامين، وعالِماً بشِدّة حَسَد إخوته عليه ﴿**قَالَ**﴾ إشفاقاً عليه: ﴿**يَا بُنَيَّ**﴾ إنّ هذا أمر مُتشتّت يجمعُه الله من بَعد ـ على رِواية جابر[٦] ـ ولكن ﴿**لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ**﴾ ولا تُخبرهم بها، فإنّهم يعرِفون تَعبيرها ﴿**فَيَكِيدُوا لَكَ**﴾ ويَحتالوا في إهلاكك ﴿**كَيْداً**﴾ عظيماً ويُدبِّروا تدبيراً خَفيّاً عنك، لا تقدِر على دَفعه.

ثمّ أكّد نَهْيَه بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ**﴾ كائناً مَن كان ﴿**عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ ظاهرُ العَداوة، فلا تَستبعد صُدور قَتْلك مِن إخوتك الّذين هُم أولاد الأنبياء ومَربُوبون في حِجر النبيّ، معَ أنّك الأخ النَّسَبي والدّيني لهم.

نُقل أنّه لمّا بلَغ إسحاق إلى مائة وثمانين [سنة] من العُمر، وصّى إلى يعقوب بأن يخرُج إلى خاله

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٨٧.
٢. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٦.
٣. في الخصال وتفسير الصافي: قابس.
٤. الخصال: ٢/٤٥٤، تفسير روح البيان ٤: ٢١٢، تفسير الصافي ٣: ٥.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢١٢.
٦. الرواية المتقدمة الواردة عن الخصال.

في جانب الشّام حَذَراً من أن يقتُله أخوه عيص حسداً، لأنّه أقسم بالله[1] أن يقتُل يعقُوب، فانطلق يعقُوب إلى خاله ليا بن فاهر وأقام عنده، وكانت لخاله بِنتان إحداهما لايا وهي كُبراهما، والأُخرى راحيل وهي صُغراهما، فخطب يعقُوب إلى خاله أن يُزوّجه إحداهما، فقال له خاله: هل لك مال؟ قال: لا، ولكن أعملُ لك، فقال: نعم، صداقُها أن تخدِمني سبعَ سِنين، فقال يعقوب: أخدمك سبعَ سنين على أن تُزوّجني راحيل، قال: ذلك بيني وبَينك. فرعى له يعقوب سبعَ سنين، فزوّجه الكُبرى وهي لايا، قال يعقوب: [إنك] خدعتني، إنّما أردتُ راحيل، فقال له خاله: [إنا] لا نُنْكِح الصَّغيرة قبلَ الكبيرة، فهَلُمّ فاعْمَل سبعَ سنين اُخرى فأزوّجك اُختَها ـ وكان النّاس يجمعون بين الأُختَين، إلى أن بعث الله موسى ـ، فرعى [له] سبعَ سِنين اُخرى، فزوّجه راحيل فجمعَ بينهما، وكان خالُه حينَ جَهّزها دَفع إلى كُلّ واحدة منهما أَمة تخدِمها، اسمُ إحداهما زلفة والأُخرى بلهة، فوَهَبتا الأمَتَين ليعقوب، فولَدتْ لايا سِتّة بنين وبنتاً واحدة اسمُها دينة، واسم البنين: روبيل، وشمعون، ويهودا، ولاوي، ويسجر، وزيالون. وولدَتْ زلفة ابنين: دان، ويغثالي. وولدتْ بلهة حاد واشير. وبقِيتْ راحيل عاقراً سِنين، ثم حمَلت وولَدت يُوسف.

وليعقوب إحدى وتِسعون سنة، وأراد يعقوب أن يُهاجر إلى موطن أبيه إسحاق بكُل الحَواشي، وكان ليوسف خالٌ له أصنام من ذَهب، فقالت لايا ليوسف: اذهبْ واسْترِق منه صنماً، لعلّنا نستنفق منه، فذهب يوسف فأخذ صنماً. وقيل: إنّ خاله جهّزه، وفي سنة هِجرته حمَلت راحيل ببنيامين، وماتَتْ في نِفاسها ويُوسف ابن سَنتين[2].

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٦]

ثمّ عبّر يَعقوب رُؤياه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الاجْتِباء، ومِثل هذا الاصْطِفاء الذي لك مِن بَين إخوتك، لمِثل هذه الرُّؤيا العظيمة ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ ويَصْطفيك ﴿رَبُّكَ﴾ للنُبوّة التي هي أعظم منها، أو لِعُلُوّ الدّرجة ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ شيئاً ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرُّؤىٰ ـ وإنّما عبّر عن الرُّؤىٰ بالأحاديث، لكَونها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، وأحاديث النّفس والشّيطان إن كانت كاذبة ـ أو العِلم بحَقائق الأشياء، أو تفسير كُتُب الله المُنزلة، وبَيان المُراد مِن عِبارات الأنبياء ﴿وَيُتِمُّ﴾ الله باصْطِفائك للسّلطنة

---

١. زاد في تفسير روح البيان: في قصة الشواء.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢١١.

﴿نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ ويضُمَ في حقّك إلى النبوّة التي هي أعظم نِعَمه الواقعيّة الرُّوحانيّة، المُلْك الذي هُو أعظمُ نِعَمه الظّاهريّة الجِسمانيّة، أو المُراد به: يُكمِل عليك الحُظوظ الدُّنيويّة والأُخرويّة ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ونَسْله وأشراف قومه، بأن يصِل نِعَمهم الدُّنيويّة بالنِّعَم الأُخرويّة، ويجمعَ لهم السّعادة في الدّارين، مِن كَثرة الأولاد والخَدَم، والتّوسِعة في المال والجاه، والوَقع في القُلوب، ومَعرفة الله، و وُفور العِلم، وحُسن الأخلاق والعاقبة، دُون النبوّة في أولاده الصُّلبيين، لكونهم بالظُّلم على يُوسف عُصاةً، ولا يكون النبيُّ إلّا مَعصوماً مِن المَعاصي والخَطأ والزَلل من أوّل عُمره، ولا دَلالة لرُؤيتهم في المَنام بصُورة الكواكب التي يُهتدى بها في ظُلمات البرّ والبَحر، على نَيْلهم مَنصِب النبوّة، لكِفاية صَيْرورتهم ذوي الفَضل والعِلم، بحيث يُستضاء بهم في ظُلمات الجَهل والضّلال كَسائر العُلماء الرّاشدين، في تَعبير الكواكب، ولا شُبهة في صِدق إتمام النِّعم عليهم بذلك، وصِحّة التّشبيه بقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيثُ جمعَ الله لهما حَظَّ الدُّنيا؛ من السَّعَة في المال والجاه، والعَظمة في القُلوب، وحَظَّ الآخرة؛ من النبوّة والرِّسالة.

وقيل: يعني: يُتِمّ نِعمته عليك بخَلاصك من السِّجن والمِحَن، كما أتمّها على أبويك إبراهيم بنَجاته من النّار، وإسحاق بتَخْليصه من الذَّبح[1].

وفيه: أنّه قد ثبَت أنّ الخَلاص من الذّبح كان لإسماعيل، لا لإسحاق.

وقيل: إتمام النِّعمة على إبراهيم عليه السلام بإنجائه من النّار وذَبح الوَلد، واتّخاذه خَليلاً، وعلى إسحاق بإخراج يَعقوب والأسباط من صُلبه، واتّخاذه رسولاً[2].

وإنّما عبّر عن إبراهيم وإسحاق بالأبوَين معَ كَونهما جَدّيه، لكون الجَدّ أباً حقيقةً، ولبَيان كَمال ارْتِباطه بالأنبياء العِظام.

ثمّ بيّن استِحقاقه للاجْتِباء بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يفعل ذلك لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بحَقائق الأمور، فلا يخفى عليه استِحقاقُك للاجْتِباء وإتمام النِّعمة، و﴿حَكِيمٌ﴾ ومُعطي كُلّ شيءٍ ما يستحِقّه، وفاعل لِما هُو صَلاح وصَواب.

عن الباقر عليه السلام: «تأويل رُؤيا يوسف أنّه سيملِك مِصر، ويدخُل عليه أبواه وإخوانه، أمّا الشّمس فإنّها أمّه راحيل ـ وفي رَوايةٍ: خالته ـ، والقَمر يَعقوب، وأمّا الأحدَ عشَر كوكباً فإخوته. فلمّا دخلوا عليه سجَدوا لله شُكراً لله وَحده حينَ نظَروا إليه». الخبر[3].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٠.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢١٦.
٣. تفسير القمي ١: ٣٣٩، تفسير الصافي ٣: ٥.

قيل: كان بين رُؤيا يُوسف ووُقوع تَعبيرُه عشرون أو أربعون، أو ثَمانون سنة[1].

قال بعضُ الحُكماء: إنّ الرُّؤيا الرَديئة يقعُ تَعبيرُها عن قريب؛ لأنّ رَحمة الله بعِباده أن لا يُعلِمهم بسُوءٍ أو شرٍّ إلا قريباً من وُقوعه لِئلَا تطُول مُدّةُ حُزنهم، بخِلاف الرُّؤيا الحسَنة المُبشّرة، فإنّها تَطول مُدّةُ وُقوعِ تَعبيرها، ليكون السُّرور الحاصل بها أكثر وأتَمّ[2].

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ [٧]

ثمّ نبّه سُبحانه على أنّ إخبار النبيّ ﷺ بقِصّة يوسف دليلٌ على صِدق دَعواه في التّوحيد [و] النّبوّة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قِصّة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٌ﴾ باهرة، ودَلالات ظاهرة على تَوحيد الله وقُدرته وحَكمته، وحُجَج تامّة على صِحّة نُبوّة محمّد ﷺ وصِدق كِتابه؛ لأنّه اُميّ، وعلى حِفظه من شَرّ الأعداء وإن حسَده الحاسدون، وعلى نَصْره عليهم وتَعْلية قَدْره وإن طال الزّمان ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ عنها والمُستمعين لها.

وعن ابن عبّاس قال: دخل حَبْرٌ مِن اليَهود على النبيّ ﷺ فسمِع منه قراءة يُوسف، فعاد إلى اليَهود فأعلمهم أنّه سَمِعها منه كما في التّوراة، فانطلق نَفَرٌ منهم فسمِعوا كما سمِع، فقالوا: مَن علّمك هذه [القصة]؟ فقال: «الله علّمني»، فنزل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ...﴾ الآية[3].

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [٨]

ثمّ شرح سُبحانه قِصّتهم بقوله: ﴿إِذْ﴾ الإخوة ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم: واللهِ ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا﴾ يَعقوب ﴿مِنَّا﴾ والحالُ أنّهما صَبيّان ضَعيفان ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ورِجال أقوياء وكُفاة، قوّامون بأموره ومَصالحه، قيل: إنّ العُصبة عَشرةُ رِجال فصاعداً[4]، وقالوا: إنّه لحُبّه لهما يَفضّلهما علينا، واللهِ ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بعمَله ذلك ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وخطأ ظاهر. وإنّما قالوا ذلك مع اعْتِرافهم بنُبوّة أبيهم، لقُصور مَعرفتهم بشأن النبيّ من كَونه مَعصوماً عن الخطأ حتّى في العاديّات.

قيل: إنّ شِدّة حُبّ يعقوب لهما إنّما كان لمَوت اُمّهما في صِغَرهما، وظُهور آثار الرُّشد والنّجابة فيهما أزيد مِمّا كان يجِده في سائر أولاده[5]، ولعِلمه بأنّ يُوسف وارث نُبوّته.

---

١. مجمع البيان ٥: ٣٢٠، تفسير الرازي ١٨: ٨٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٢.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٨٧.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٩٢.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٩٢، تفسير روح البيان ٤: ٢١٨.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٩٣.

ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ[٩]

ثمّ اشتدّ حسدُهم على يُوسف حتّى قال بعضُهم ـ قيل: إنه دان[١]، وقيل: إنّه شمعون[٢]، وقيل: إنّه يهودا[٣]، وقيل: إنّهم شاوروا أجنبياً[٤]، وقيل: إنّ القائل الشّيطان، فإنّه جاءهم بصُورة الشيخ، فقال لهم: ـ إنّ يُوسف يُريد أن يتّخذكم عبيداً لنفسه، فقالوا: فما التّدبير[٥]؟ فقال: ﴿**ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ**﴾ وألقُوه ﴿**أَرْضاً**﴾ بعيدة من العُمران حتّى يهلِك فيها من الجُوع والعَطش، أو تأكُله السِّباع، إذَن ﴿**يَخْلُ**﴾ ويخلُص ﴿**لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**﴾ ويكُن مُحِبّاً لكم، مُقبلاً عليكم، مُشتغلاً بشأنكم، غيرَ مُتوجّهٍ إلى غيركم ﴿**وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ**﴾ ووراء الفَراغ من أمره ﴿**قَوْماً**﴾ وجَماعةً ﴿**صَالِحِينَ**﴾، حسني[٦] الحال عند أبيكم، أو في الدُّنيا، أو تائبين مِن ذَنبكم.

عن السجاد عليه السلام: «أي تتوبون»[٧].

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ[١٠]

ثمّ كأنّه قيل: هل اتّفقوا على هذا الرّأي؟ فقيل: لا، بل ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ**﴾ ـ قيل: هُو يهودا، وكان أقدمهم في السِّنّ والرّأي والفَضل[٨]. وقيل: هُو روبيل، وكان ابنَ خالته، وأحسنهم فِي الرّأي[٩]. وعن القُمّي: أنّه لاوي[١٠] ـ: ﴿**لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ**﴾ فإنّ القَتل بغير الجُرم من أقبح القَبائح، ولا تطرَحوه أرضاً بعيدة، فإنّه مِثل القَتل، بَل هُو عينُه لعدَم احتِمال السّلامة له ﴿**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ**﴾ وقَعر البئر الذي يُستسقى منه ﴿**يَلْتَقِطْهُ**﴾ ويأخُذه إذَن ﴿**بَعْضُ**﴾ القَوافل ﴿**ٱلسَّيَّارَةِ**﴾ والمارّة، ويذهب به معه ﴿**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ بمَشورتي، وعاملين برأيي، فافعَلوا ذلك، فإنّ فيه غَرَضكم وهُو التّفريق بينه وبين أبيه، ومَظَنّة حِفظه مِن التّلَف. وإنّما لَم يُحتّم رَأيَه عليهم لتألّف قُلوبهم وتَوجيههم إلى رأيه.

وقيل: يعني: إن كنتُم فاعلين ما يُفرّق بَينه وبين أبيه[١١].

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٦.
٢. تفسير أبي السعود ٤: ٢٥٦، تفسير الرازي ١٨: ٩٥.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢١٩.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٩٥.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢١٩.
٦. في النسخة: حسن.
٧. علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٧.
٨ و٩. تفسير الرازي ١٨: ٩٥.
١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٧.
١١. تفسير الصافي ٣: ٧.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدَاً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[١١ و ١٢]

ثمّ أنه لمّا اتّفقوا على رأي القائل جاءوا أباهم و **﴿قَالُوا﴾** مكراً واستِعطافاً واستِنزالاً له عن تَصميمه على تَحفُّظه عنهم: **﴿يَا أَبَانَا مَا﴾** العُذر **﴿لَكَ﴾** وأيّ داعٍ يدعوك إلى أن **﴿لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ﴾** أخينا **﴿يُوسُفَ﴾** ونحن بَنوك؟ ولِمَ تَخاف مِنّا عليه؟ **﴿وَ﴾** الحالُ **﴿إِنَّا لَهُ﴾** واللهِ **﴿لَنَاصِحُونَ﴾** وعليه لمُشفقون، لا نطلُب إلّا خَيرهُ.

قيل: لَمّا كان عادتُهم أن يذهبوا إلى الرَعْي[1]، قالوا: **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدَاً﴾** إلى الصَحراء **﴿يَرْتَعْ﴾** من الفَواكه، ويأكُل منها كثيراً **﴿وَيَلْعَبْ﴾** بالاستِباق والتَناضُل، وغيرهما ممّا يُناسب الصِّبيان **﴿وَإِنَّا لَهُ﴾** واللهِ **﴿لَحَافِظُونَ﴾** من المَكاره والمَضارّ والآفات، فأكّدوا وَعْدَ حِفظه بأنواع التأكيدات.

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ[١٣ ـ ١٥]

ثمّ كأنه قيل: هل قَبِل يعقوب قولَهم وأجاب مَسألتهم؟ فقيل: لا، بَل **﴿قَالَ﴾** يا بَنِي **﴿إِنِّي﴾** واللهِ **﴿لَيَحْزُنُنِي﴾** فِراق يُوسف، ويُؤلم قلبي **﴿أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾** لقِلّة صَبري عنه **﴿وَ﴾** معَ ذلك **﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾** لاشتِغالكم بالرَعي والرَتع واللَعِب، وتَهاوُنكم في حِفظه.

قيل: إنه عليه‌السلام قال ذلك لأنّ الأرض كانت مَذْأبة[2]. ورُوي أنه عليه‌السلام رأى في المَنام كأنه على رأس جبل، ويُوسف في الصَحراء، فهجم عليه أحدَ عشرَ ذئباً، فغاب يوسف بينهن[3]. وقد لقّنهم عليه‌السلام بتِلك الحُجّة.

عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «لا تُلقّنوا الكَذِب فيَكذِبوا، فإنّ بني يعقوب لَم يعلَموا أنّ الذِّئب يأكُل الإنسان حتى لقّنهم أبوهم»[4].

وعن الصادق عليه‌السلام: «قرّب يعقوب لهم العِلّة فاعتَلّوا بها في يُوسف»[5].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢١، والأرض المَذأبة: الكثيرة الذئاب.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢١.
٤. مجمع البيان ٥: ٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٨.
٥. علل الشرائع: ٥٦/٦٠٠، تفسير الصافي ٣: ٨.

قيل: إنّ البَلاء مُوكَّل بالمَنطق[١].

ثمّ لمّا سمِع الإخوة ذلك الكلام من أبيهم، وكانوا يعلَمون أنّ الخوف أقوى السّببين لامْتِناعه من الإجازة، اقتَصروا على دَفعه و ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بَيننا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ورِجال أقوياء حافِظون له ﴿إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ وهالكون ضَعفاً وعجزاً، أو مُستحقّون للهَلاك لعدَم الخير في حياتنا، أو لأن يُدعى علينا بالخَسار والدّمار، أو مَغبونون بتَرك حُرمة الوالد والأخ.

قيل: لمّا رأى يعقوب إلحاح بَنيه في إخراج يُوسف معهم إلى الصّحراء، ومُبالغتهم بالعهد واليَمين، ورأىٰ مَيل يوسف إلىٰ التفرُّج والتَفريح[٢]، رضي بالقَضاء وأذِن لهم في إخراجه معهم، فأمر أن يُغسل بَدَن يوسف في طست كان أتى به جَبرئيل إلى إبراهيم حينَ مجيء الفِداء، فأجرى فيه دَم الكَبش، وأمر أن يُرجّل شَعرُه[٣] ويُدهن بدُهن إسماعيل الذي جاء به جَبرئيل من الجنّة، وأن يُكحَل ففعلوا[٤].

ورُوي أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُلقي في النّار وجُرّد عن ثِيابه، أتاه جَبرئيل بقميص من حرير الجنّة فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقُوب في تَميمة[٥] وعلّقها في عُنق يوسف. ثمّ شايعه إلى شجرة كانت على باب كَنعان تُسمّى بشجرة الوَداع، فضمّه إليه وودّعه وبكى بُكاءً شديداً، فقال يُوسف: لِمَ تبْكي يا أبة؟ فقال: حُزناً على فِراقك، وما أدري إلى ما تصير عاقبةُ أمرك. ثمّ قال: يا بُني أُوصيك بأربعٍ، فاجعلها نَصْب عَيْنَيك: يا بُني، لا تَنْسَ الله على كُلّ حالٍ، فإنّه لا قَرين خيرٌ من ذِكر الله وشُكره. وإذا وقعْتَ في بَليّة فاسْتعِنْ بالله. وأكثِر من قول: حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكيل، فإنّه لمّا أُلقِي جَدُّك خليلُ الله في النّار قاله، فدفع الله عنه ضُرّ أصحاب نَمرود وشَرّهم، وما أصابه حَرُّ النّار، يا بني لا تَنْسَني فإنّي لا أنساك. ثمّ بالغ في الوصيّة بحِفظه إلى بَنيه[٦].

وعن السّجاد عليه السلام: «لمّا خرَجوا [به] من مَنزلهم لحِقهم أبوهم مُسرعاً فانْتزعه من أيديهم، فضمّه إليه واعْتنقه وبكى، ثمّ دفعه إليهم»[٧].

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ وهُم يحمِلونه على عَواتقهم، ويعقُوب عليه السلام ينظُر إليهم ويبكي، فأسرعوا في المشي مَخافة أن يأخُذه منهم ولا يدفعه إليهم، فلمّا بعُدوا عن العُيون تركوا وصايا إبيهم، فألقَوه على الأرض وقالوا: يا صاحب الرُّؤيا الكاذبة، أين الكواكب التي رأيتَهم لك ساجدين حتّى يُخلّصوك من أيدينا اليوم؟ قيل: لمّا حكى يُوسف رُؤياه سمِعها بعضُ أزواج إخوته، فحكَتْها لهم، فاطّلعوا على

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٩٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢.
٢. في تفسير روح البيان: والتنزه.
٣. رَجّل شعره: سَوّاه وزيّنه وسرّحه.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢.
٥. التّمِيمَة: مايعلّق في العنق لدفع العين.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٢.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٧/٣٣٥، علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٨.

رُؤياه[١] فجعلوا يُؤذونه ويضرِبونه، وكُلّما لَجأ إلى واحدٍ منهم ضربه، ولا يـزدادون عـليه إلّا غِـلظةً وحَنَقاً، وهُو يبكي ويُنادي: يا أبتاه، ما أسرع ما نَسُوا عَهدك، وضيّعوا وصيّتك، لَو تعلم ما يصنَع بابْنِك أولاد الإماء[٢]!

وقيل: إنّهم جَرُّوه على الأرض جائعاً عطشاناً، حتّى أشرف على الهَلاك[٣].

ورُوي: أنّهم أتوا به غَيطة[٤] أشجار فقالوا: نذبحه ونُلقيه تحت [هذه] الشّجرة فيأكُله الذّئب اللّيلة[٥].

وقيل: إنّه أخذه روبيل فجلد به الأرض[٦]، ووَثب على صَدره، وأراد قَتله، ولَـوى عُـنقه ليكسِـره، فنادى يوسف: يا يهودا ـ وكان أرفقهم به ـ اتّقِ الله وحُل بيني وبَين من يُريد قتلي، فأخـذَتْه الرّأفـة والرّحمة، فقال يهودا: ألستُم قد أعطيتُموني مَوثقاً أن لا تقتُلوه؟ قالوا: بلىٰ[٧]، قال: ألقُـوه فـي غَـيابة الجُبّ، فسكَن غضبُهم.

﴿وَأَجْمَعُوا﴾ وعزَموا واتّفقوا على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ويُلقوه ﴿فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وقَعْره، فأتَوا بـه على رأس البئر الذي حفره شَدّاد حين عمَر بِلاد الأُردُنّ، وكان على ثلاثة فَراسخ من مَنزل يـعقُوب بكَنعان، وكان عُمقها سَبعين ذِراعاً، وكان رأسها ضيّقاً وأسفلُها واسعاً ـ على ما قيل[٨]، وقيل: هُو بـئر ببَيْت المَقْدس[٩] ـ فنزَعوا قميصه ليُلطّخوه بالدّم الكَذِب، فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ قميصي أتوارى به في حَياتي، ويكون كَفني بعدَ مَماتي، فلَم يفعلوا فتعلّق بثِيابهم فنَزعوها من يدَيه، فدَلُّوه فيها بحَبل مَربوط على وسطه فتعلّق بشَفيرها، فربطوا يدَيه، فلمّا بلغ نِصفها قطعوا الحَبل وألقوه فيها ليموت، وكان في البِئر ماء فسقط فيه، ثمّ آوىٰ إلى صَخرةٍ بجانب البِئر، فقام عليها وهُو يبكي، فنادَوه فظَنّ أنّها رحمةٌ أدركتْهُم فأجابهم، فأراد أن يرضَخوه، فمنعهم يهودا[١٠].

وفي روايةٍ عن السجّاد عليه السلام: «وألقَوه في البِئر وهُم يظُنّون أنّه يغرَق في الماء، فلمّا صار في قـعر الجُبّ ناداهم: يا وُلد رومين اقرأوا يعقوب منّي السّلام، فلمّا سمِعوا كلامه قال بـعضُهم لبـعض: لا تزالوا مِن هاهُنا حتّى تعلَموا أنّه قد مات، فلَم يَزالوا بحَضْرته حتّى أمسَوا ورجَعوا»[١١].

وعن القُمّي رحمه الله: فأدنَوه من رأس الجُبّ وقالوا له: انزِعْ قـميصك، فـبكىٰ وقـال: يـا إخـوتي [لا]

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢١٧.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.
٤. الغَيطة: الموضع الكثير الشجر.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٧/٣٣٥، علل الشرائع: ١/٤٧.
٦. جَلَد به الأرض: ضربها به.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.
٩. تفسير الرازي ١٨: ٩٦.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.
١١. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٧/٣٣٥، علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ٨.

تُجرّدوني، فسَلّ واحدٌ منهم عليه السكّين وقال: لَئِن لَم تنزِعْه لأقتُلَنّك، فنزَعه فدَلّوه في البِئر وتنحّوا عنه، فقال يُوسف في الجُبّ: يا إلَه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارحَم ضَعفي وقِلّة حيلتي وصِغَري[١].

ورُوي أنّه قال: يا شاهداً غيرَ غائب، ويا قريباً غيرَ بعيد، ويا غالباً غيرَ مَغلوب، اجعَلْ لي من أمري فَرَجاً ومَخرجاً[٢].

وفي رِوايةٍ اُخرى: اجْعَل لي فرجاً مِمّا أنا فيه[٣].

ورُوي أنّه ذكَر الله بأسمائه الحُسنى، فسمِعه الملائكةُ فقالوا: يا رَبّ نسمعُ صوتاً حسَناً في الأرض[٤]، فأمهِلْنا ساعةً، فقال الله: ألستُم قُلتُم: أتجعل فيها من يُفسد فيها؟ فحَفّتْهُ المَلائكة فأنِس بهم[٥].

وقيل: إنّ الله أوحى إلى جَبرئيل: أدرِك عبدي قبلَ أن يصِل إلى قَعر البِئر، فأدركه جَبرئيل وأخذه بيده، وأجلسه على صخرةٍ كانت في قَعْر البِئر، وألبسه قميص الخَليل الذي عَوّذه به يعقوب، وأطعمه من طَعام الجنّة وشَرابها[٦].

ورُوي أن هَوامّ الأرض[٧] قال بعضُها لبعض: لا تخرُجَنّ مِن مَساكِنكُنّ، فإنّ نبيّاً من الأنبياء نزل بساحتِكُنّ، فأنجَحَرْن إلّا الأفعىٰ، فإنّها قصَدت يُوسف، فصاح بها جَبرئيل، فصُمّت وبقي الصَّمَمُ في نَسْلها[٨].

ثمّ حكى سُبحانه ألطافه بيُوسف، وكأنّه قال: فحفِظناه ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ بتوسُّط جَبرئيل ﴿إِلَيْهِ﴾ إيناساً له، وإزالةً لوَحشته، وتَبشيراً له أن لا تخَف ولا تحزَن، إنّا نُخلّصك من الجُبّ، ونرفع مَكانك، ونُمكّنُك في الأرض، ونُحوِج إليك إخوتَك حتّى يجيئوك خاضعين مُتذلّلين، فعندَ ذلك واللهِ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وتُخبرنّهم ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ وعمَلِهم ﴿هَٰذَا﴾ الذي صدَر منهم ﴿وَ﴾ الحالُ أنّ ﴿هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّك يُوسف لتَبايُن حالِك هذا وحالك حينَ مُلاقاتهم، حيثُ إنّك يومئذٍ عالي الشّأن، عظيمُ السُّلطان، مُتغيّر الهَيئة والصُّورة، لطُول عَهدهم بك.

وفيه إشارةٌ إلى دُخولهم عليه بمِصر مُمتارين[٩]، فعرَفهم وهُم له مُنكرون.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٩.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٩٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
٤. في تفسير روح البيان: الجب.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤، وفي النسخة: شرابه، بدل: شرابها.
٧. في تفسير روح البيان: البئر.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
٩. ممتارين: طالبين وجامعين للميرة، وهي الطعام.

رُوي أنّهم حينَ دخَلوا عليه لطلب الحُنطة عرَفهم وهُم له مُنكرون، ثم دَعا بصُواع[1] فوضعه على يده ثمّ نَقَره فطَنَ، فقال: إنّه ليُخبرني هذا الصُّواع بأنّه كان لكم أخٌ من أبيكم يُقال له يُوسف، فطرحْتُموه في البِئر وقلتُم لأبيكم أكله الذّئب[2].

وعن الباقر عليه السلام: «يقول: لا يشعُرون أنّك أنت يُوسف، أتاه جَبرئيل فأخبره بذلك»[3].

وقيل: يعني: أنّهم لا يشعُرون بنُزول الوَحي إليه، وإزالة الوَحشة عنه[4].

عن السجّاد عليه السلام، أنّه سُئل: ابنُ كم كان يُوسف يومَ ألقَوه في الجُبّ؟ قال: «كان ابنَ تِسع سِنين»[5].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه كان ابنَ سَبع سِنين»[6].

أقول: يُمكن أن تكون السّبع تَحريف التِّسع.

وقيل: إنّه كان ابنَ اثنتَي عشرة سنة[7]. وقيل: سَبع عشرة سنة[8]. وقيل ثماني عشرة سنة[9].

ثمّ قيل: إنّهم ذبَحوا جَدْياً على قميصه[10].

وعن القُمّي رحمه الله: فقالوا: نعمَدُ إلى قميصه فنُلطّخه بالدّم، ونقول لأبينا: إنّ الذِّئب أكله، فقال لهم أخوهم لاوي: يا قوم، ألسنا بني يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خَليل الله، أفتظُنّون أنّ الله يكتُم هذه الخبر عن أنبيائه؟ فقالوا: ما الحيلة؟ قال: نقومُ ونغتسل، ونُصلّي جَماعةً، ونتضرّع إلى الله تعالى أن يكتُم ذلك عن أبينا، فإنّه جَوادٌ كريم، فقاموا واغتسلوا، وكان في سُنّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنّهم لا يُصلّون جماعةً حتّى يبلُغوا أحدَ عشر رَجُلاً، فيكون واحدٌ منهم إماماً وعشرةٌ يُصلّون خلفه. فقالوا: كيفَ نصنع، وليس لنا إمام؟ فقال لاوي: نجعل الله إمامنا، فصلّوا وتضرّعوا وبكَوا وقالوا: يا رَبّ اكتُم علينا هذا[11].

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ[١٦ـ١٨]

---

١. الصُّواع: الصاع، وهو المِكيال، أو إناء يشرب به.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٠٠.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٠، تفسير الصافي ٣: ٩.
٤. جوامع الجامع: ٢١٤.
٥. علل الشرائع: ١/٤٨.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٠٨٠/٣٣٦، تفسير الصافي ٤: ٩.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٣.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤، تفسير الرازي ١٨: ٩٩.
٩. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
١٠. تفسير القمي ١: ٣٤١، تفسير الرازي ١٨: ١٠٢.
١١. تفسير القمي ١: ٣٤١، تفسير الصافي ٤: ٩.

فرجَعوا إلى كنعان ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ ودخلوا عليه آخر النّهار وهُم ﴿يَـبْكُونَ﴾ فـلمّا رأى يعقوب بكُاءهم فزِع وقال: هل أصابكم في غَنَمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما فعل يُوسف؟ ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ من عند يُوسف كي ﴿نَسْتَبِقُ﴾ بالتّناضُل والعَدْو ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وخَلّينا ﴿يُـوسُفَ﴾ وحدَه ﴿عِندَ مَتَاعِنَا﴾ وزادِنا وثِيابنا وأثاثنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بلا رَيْث وطُول زَمان يحتاج إلى التَعهُّد ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا أبه ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ ومُصدّق ﴿لَنَا﴾ في ما نذكُره، لفَرط حُبّك ليُوسف، وسُوء ظَـنّك بِـنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ من قَبْلُ عندك في سائر أخبارنا ﴿صَادِقِينَ﴾ غير مُتّهمين بالكِذْب أو المُراد: وإن كُنّا في هذا الذي نقول صادقين في الواقع ﴿وَجَاءُوا﴾ للشّهادة على صِدقهم بقميص يُوسف، حال كَونهم صابّين ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ﴾ مَكذوب كأنه عَين ﴿كَذِبٍ﴾ بحيثُ لا يَشُكّ فيه كُلّ مَن يَراه.

رُوي أنه لمّا سمِع يعقُوب بخبر يُوسف صاح بأعلى صوته، ثمّ قال: أين قميصه؟ فأخذه وألقاه على وجهه، وبكى حتّى خضَب وَجهه بدَم القميص. ثمّ قال: تا الله، ما رأيتُ إلى اليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولَم يُمزّق عليه قَميصه[1].

وعن الصادق عليه السلام في روايةٍ قال: «اللّهمّ لقد كان ذئباً رَفيقاً حيث لَم يشُقّ القميص»[2].

والقُمّي رحمه الله: قال [يعقوب]: ما كان أشدّ غضَب ذلك الذّئب على يُوسف، وأشفقه عـلى قـميصه، حيثُ أكل يُوسفَ ولَم يُمزّق قميصه[3].

ثمّ ﴿قَالَ﴾: ليسَ الأمر كما تقولون ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وسهّلتْ ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أو هوّنت في نظَركم ﴿أَمْراً﴾ عظيماً، أمّا ما عليكم فتَدارُك الذّنْب، وأمّا ما عَليّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أو المُراد: فصبرٌ جميل وَظيفتي وتَكليفي، وهُو ما لا شكوىٰ فيه إلى الخَلق ـ على رِواية[4]، أو: ما لا جزَع فيه؛ على قول آخر[5] ـ ﴿وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ والمطلُوب منه الإعانة ﴿عَلَىٰ﴾ تحمُّل ﴿مَا تَـصِفُونَ﴾ وتُـخبرون بـه مِـن أمـر يُوسف، والصّبر على فِراقه.

عن السجّاد عليه السلام: «أنّه لمّا سمِع مَقالتهم، اسْترجَع واسْتعبر، وذكر ما أوحى الله إليه من الاسْتِعداد للبَلاء»[6].

قيل: إنّ اللهَ ابتلى يَعقوب بفِراق يُوسف، لأنّه ذبح جَدْياً بين يدَي أُمِّهِ[7].

وقيل: إنّه اسْتطعمه فقيرٌ يوماً فما اهتَمّ بإطعامه، فانصرف الفقير حَزيناً[8].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٦. ٢. تفسير العياشي ٢: ٢٠٨٢/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٠.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ١٠.
٤. تفسير الرازي ١٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٠. ٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٣.
٦. علل الشرائع: ١/٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٠. ٧ و٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.

وقيل: لمَا وُلد يُوسف اشترى له ظِئراً[١]، وكان لها ابنٌ رَضيع، فباع ابنَها تكثيراً للَبَن على يُوسف، فبكَتْ وتضرَعت، وقالت: يا رَبِ، إنّ يعقوب فرّق بيني وبَيْن وَلَدي، ففرِّقْ بَيْنه وبَين وَلَده يُوسف، فاسْتجاب اللهُ دُعاءها، فلَم يصِلْ يعقوب إلى يُوسف إلّا بعدَ أن لَقِيتْ تِلك الجارية ابنَها[٢].

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ [١٩ و ٢٠]

ثمَ أنه تعالى بعدَ ذِكر ما جرى بين يعقوب وإخوة يُوسف، ذكَر كيفيّة تَخليص يُوسف من البِئر، وما جرى عليه بعدَ خَلاصه بقوله: ﴿وَجَاءَتْ﴾ من طرف مِدْين قافلة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ ومارّة من الأرض التي فيها البِئر، قاصدين مِصر، بعدَ ثلاثة أيام مِن إلقاء يُوسف في البئر، فنزلوا قريباً منها، وكانت البِئر معروفة ترِد عليها القَوافل كثيراً، وإنّما ألقَوه فيها ليلتقِطَه السيّارة، وليكون أقرب إلى السّلامة؛ كما قيل.

عن ابن عبّاس: جاءت سيّارة ـ أي قوم يسيرون ـ مِن مِدين إلى مِصر، فأخطأوا الطَّريق فانطلقوا يهِيمون على غَير طريق، فهبِطوا على أرضٍ فها جُبّ يُوسف، وكان الجُبّ في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العُمران، لَم يكن إلّا للرُّعاة[٣].

وفي رِواية: لمَا دَعا يُوسف بالدُّعاء الذي نقَلناه سابقاً، ما بات في الجُبّ، وخرج منه بعدَ رُجوع إخوته[٤].

قيل: كان ماؤه مِلْحاً فعذُب حينَ اُلقي فيه[٥].

وعلى أي تقدير احتاجت[٦] القافلة إلى الماء ﴿فَأَرْسَلُوا﴾ رجلاً كان ﴿وَارِدَهُمْ﴾ وسقّاءهم الذي يرِدُ الماء ـ يُقال له مالك بن ذعر الخُزاعي ـ ليطلُب لهم الماءَ، فجاء على رأس الجُبّ ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ وأرسلَ ﴿دَلْوَهُ﴾ في الجُبّ ليملأها من الماء، وكان يُوسف في ناحية من قَعْره، فتعلّق بالحَبل ـ وقيل: اُوحي إليه بأن يتعلّق به[٧] فتعلق به ـ وخرج منه، فلمّا نظر مالك، فإذا بغُلام وجهه كفِلْقة القَمر، فنادى مِن فَرْط الشَّغَف: يا للبِشارة، لنفسه وأصحابه، و﴿قَالَ يَابُشْرَىٰ﴾ احْضُري، فهذا أوانُك ـ وقيل: مَعناه: ابْشِروا يا أصحابي ـ ﴿هَٰذَا غُلَامٌ﴾ لا نَظير له، قد أنعم اللهُ به علينا بَدل الماء، نبيعُه بثَمنٍ عال[٨]، أو صِرْنا

---

١. الظِّئر: المُرضعة لغير ولدها.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٠٥.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٤.
٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٥، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.
٦. في النسخة: احتاج.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٨.
٨. تفسير الرازي ٧: ١٠٦.

سبباً لحَياته.

وقيل: إنّ البُشرى كان عَلماً لصاحبه، ناداه، ليُعينه على نَزع الدَّلْو من البِئر [١].

وعن الأعمش: أنّه دعا امرأةً اسمها بُشرى [٢].

قيل: لمّا خرَج يُوسف من البِئر بكَتْ أطرافُ البِئر على مُفارقته [٣].

ثمّ أنّ مالكاً وأصحابه لمّا خافوا من أهل القافلة أن يُشاركوهم في يُوسف أخفَوه ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ منهم، بأن جعَلوه ﴿بِضَاعَةً﴾ ومَتاعَ تجارةٍ، وقالوا: إنّ أهل الماء أودَعُوه عندنا لنَبيعه بمِصر؛ كذا قيل [٤].

وعن ابن عبّاس: أنّ إخوة يُوسف لمّا طرَحوه في الجُبّ ورجَعوا إلى كنعان، عادوا بعدَ ثلاثة أيّام ليتعرّفوا خبَره، فوجدوه عندَ السيّارة [٥].

وقيل: إنّ يَهودا كان يأتيه كُلّ يوم بالطّعام، فأتاه يومئذٍ فلم يجِده فيها، فأخبر إخوته فأتوا ورأوا آثار السيّارة، فطلَبوهم فلمّا رأوا يُوسف قالوا: هذا عَبدنا أبَق منّا، ووافقهم يُوسف على ذلك، لأنّهم توعّدوه بالقَتل بلِسان العِبرانيّة [٦].

وعن السجّاد عليه السلام: «أنّهم لمّا أصبحوا قالوا: انْطلقوا بنا حتّى ننظُر ما حالُ يُوسف، أماتَ أم هُو حيّ؟ فلمّا انْتهَوا إلى الجُبّ، وجَدوا بحَضرة الجُبّ سيّارة، وقد أرسلوا واردهم وأدلى دَلْوه، فلمّا جذب دَلْوه فإذا هُو بغُلام مُتعلّق بدَلْوه، فقال لأصحابه: يا بُشرى هذا غُلام، فلمّا أخرجوه أقبل إليهم إخوته فقالوا: هذا عَبدُنا سقط [منّا] أمس في هذا الجُبّ، وجِئنا اليوم لنُخرجه، فانْتزعوه من أيديهم وتنحّوا به ناحيةً، فقالوا: إمّا أن تُقرّ لنا أنّك عبدنا فنَبيعُك [على] بعض هذه السيّارة، أو نقتُلك، فقال لهم يُوسف: لا تقتُلوني، واصْنعوا ما شِئتم، فأقبلوا به إلى السيّارة فقالوا: أمنكم مَن يشتري مِنا هذا العبد؟ [٧]

وعن ابن عبّاس: أسَرّوا شأنه، يعني: أخفَوا كَونه أخاً لهم [٨].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِمّا يُسِرّون وما يُعلنون ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه من السيّارة - وعن مجاهد: أنّهم قالوا للقوم: اسْتَوثِقُوه لِئلّا يأبِق [٩]. وقيل: إنّهم باعوه مِمّن اسْتَخرجه [١٠]. وقيل: إنّ الوارد وأصحابه باعوه [١١].

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٤٧٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٨.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.

٦. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١، تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٧. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١١.

٨. تفسير الرازي ١٨: ١٠٦.

٩ و١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.

١١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.

وقيل: إنّ الشّراء بمعنى الإشراء، والمُراد أنّ القوم اشتَروه[١] ـ ﴿بِثَمَنٍ﴾ وعِوَض ﴿بَخْسٍ﴾ وناقِص من حيث الغِشّ وقِلّة العيار.

وعن ابن عبّاس: يعني: بثَمن حَرام، لأن ثَمن الحُرّ حَرام[٢]. لأنّ البَخس بمعنى النّاقص، والحَرام ناقص البَركة.

وقيل: يعني: بثَمن ظُلم، لكون الظُّلم نَقصاً[٣].

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان قِلّة الثّمن في نفسه، بيّن قِلّته من حيث المِقدار بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة لا تُوزن.

قيل: إنّهم كانوا لا يُوزنون الدّراهم إلّا إذا بلَغت أُوقيّة؛ وهي الأربعون[٤].

وقيل: إنّ قوله ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ بيان للثّمن البَخس، بمعنى: ثمنٌ قليل[٥].

وقيل: يعني: ثَمن ناقص عن قيمة يُوسف نُقصاناً ظاهراً[٦]، وهُو دَراهم معدودة.

عن ابن عبّاس: كانت عِشرين دِرهماً[٧]، وهو مَرويّ عن السجّاد عليه السلام[٨].

وعن السُّدي كانت: اثنين وعشرين [درهماً]، والإخوة كانوا أحدَعشر، فكلّ واحدٍ أخذ اثنين إلّا يهوذا[٩].

أقول: لا شُبهة في وُقوع السّهْو في ذِكر عدد الإخوه، لأنّهم كانوا عشرة، وكذا في التّقسيم.

﴿وَكَانُوا﴾ بائعو يُوسف ﴿فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ﴾ وغير الرّاغبين، أمّا لَو كانوا إخوته فوَجهه واضح، وأمّا لو كانوا مُلتقِطُوه، فلِأنّ المُلتقط مُتهاون لِما يلتقِطُه، أو لخَوفهم أن يظهَر له مالكٌ أو صاحب، فينزِعه من أيديهم، وأمّا لو كان المُراد القوم الّذين اشْترَوه، فلا يُظهرون الرّغبة فيه، للتّوصُّل بذلك إلى تَقليل الثّمن، أو لاطْمِئنانهم بكِذب دَعوىٰ رِقيّته، واحْتِمالهم أن يُنتزع منهم.

قيل: إنّ يُوسف أخذ يوماً مِرآة، فنظر إلى صُورته، فأعجبه حُسْنُه وبَهاؤه، فقال: لَو كنتُ عبداً فباعوني لَما وُجد لي ثمن، فابْتُلي بالعُبوديّة، وبِيع بثَمن بَخس[١٠].

رَوىٰ بعضُ العامّة: أنّ الصِّبيان أخذوا النبيّ صلى الله عليه وآله في طريق المَسجد، وقالوا: كن لنا جَملاً، كما تكُون للحسَن والحُسين، فقال لِبلال: اذهَب إلى البيت وآتِ بما وجَدته لأشتري نفسي منهم، فأتي بثَماني جَوزاتٍ، فاشترى بها منهم نفسَه، وقال: أخي يُوسف باعوه بثَمن بَخس دَراهم مَعدودة، وباعوني بثَماني جَوزات[١١].

---

١ ـ٥. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.
٦. تفسير الرازي ١٨: ١٠٧.
٧. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦١.
٨. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١١.
٩. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٥.
١١. تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.

قيل: حمَل القومُ يُوسف إلى مِصر، فاطّلع أهلُ مِصر بمجيء تُجّار مِدين، فخرَجوا ليشتروا من أمتعتهم، وخرج فيهم بعضُ خدَم العَزيز، فلمّا رأوا يُوسف تحيّروا من غاية حُسنه ونَعْت جَماله، فرجَعوا وأخبروا به العَزيز، وهو كان يعشَقه لِما سمِع من صِيت حُسْنه، وافْتَتَن أهلُ مِصر به، والْتَمسوا من مالكه أن يُعرضه للبيع، فزيّنه وأخرجه إلى السُّوق وعرضه للبَيع مُزايدةً ثلاثة أيّام، واجتمع النّاسُ لشِرائه، وفيهم عَجُوز أتتْ بشيء من الغَزْل لتَشتريه به، فتزايدوا في ثَمنه حتّى بلَغ إلى ما لا يقدِر عليه أحدٌ غير العزيز، فاشْتراه بوَزنه مرّةً مِسْكاً، ومرّةً لُؤلُؤاً، ومَرّةً ذَهباً، ومرّةً فِضّة، ومرّة حَريراً. وكان وَزْنُه أربعمائة رَطل، وسِنّه سبعَ عشرة سَنة[1].

وقيل: إنّه اشتراه بعِشرين ديناراً[2].

وقيل: [اشتراه العزيز بأربعين ديناراً] وزَوج نَعْل، وثَوبين أبيضين[3].

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٢١]

﴿**وَقَالَ**﴾ العَزيزُ ﴿**ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ**﴾ وكان ﴿**مِن**﴾ أهل ﴿**مِصْرَ**﴾ بعد أن ذهب به إلى بيته ﴿**لِامْرَأَتِهِ**﴾ راعيل، المُلقّبة بزَليخا بنت دعائل، أو هيكاهم: أن ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ ومَسكنه، واجْعَليه أحسن ما يكون.

قيل: هُو كِناية عن المُبالغة في إكرام نفسِه، وإحسان تعهُّده في المَطعم والمَشرب، وغيرهما[4].

ثمّ ذكَر عِلّة لُزوم إكرامه بقوله: ﴿**عَسَىٰ**﴾ ويُرجىٰ ﴿**أَن يَنفَعَنَا**﴾ في أُمورنا، ويَكفينا مُهمّاتنا ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُ**﴾ ونَختاره لأنفسنا ﴿**وَلَداً**﴾ لمَا تفرّس منه الرُّشد والنَّجابة وكَرامة النَّفس، ولَم يكُن له وَلد. ولذا قالوا: هُو أفرس النّاس.

قيل: إنّه كان على خَزائن مِصر، وصاحب جُنود الملك، وكان اسمُه قطفير ـ أو أطفير ـ ولقَبُه العزيز، لغَلَبته على أهل مَملكته، وقُربه من المَلِك، وهُو يومئذٍ ريّان بن الوليد العماليقي[5].

قيل: إنّه عمَر إلى زَمان مُوسى، وكان هُو فِرعون مُوسىٰ[6].

وقيل: إنّه كان من أجداد فِرعون موسى، وآمن بيُوسف، ومات في حَياته، وملَك بعده قابوس[7] بن

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠. ٢. تفسير الرازي ١٨: ١٠٩.
٣. جوامع الجامع: ٢١٥. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٣١.
٥ و٦. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠.
٧. في النسخة: قامومن.

مصعب[1].

﴿وَكَذٰلِكَ﴾ التّمكين البَديع والرّفعة التي حصَلت ليُوسف في قَلب العَزيز، حتّى أمر امرأته بإكرام مَثواه. أو التّمكين الذي حصَل له في مَنزله ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وجعَلنا له مَقاماً عالياً ﴿فِي﴾ أهل تِلك ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ووَجاهةً تامّة في أنظار سَكَنة تِلك المَملكة، ومَحبُوبيّة كاملة في قُلوبهم، ليترتّب على تِلك المَكانة والوَجاهة ما جَرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ ونُلهمه مِقداراً كافياً ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وتَعبير الرُّؤى والمَنامات التي عُمدتها رُؤيا صاحبَي السّجن، ورُؤيا المَلِك. وإنّما أراد إخوته إذلاله وإهلاكه، وأراد الله إعزازه ورِفعة مَحلّه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ وقادِرٌ على إنفاذ إرادته، لا دافع لقضائه، ولا مانع عن إجراء حُكمه ـ في أرضه وسَمائه ـ قيل: إنّ ضميرَ ﴿أَمْرِهِۦ﴾ راجعٌ إلى يُوسف، والمعنى: أنّه تعالى غالبٌ على أمر يُوسف[2] ـ وبيده انتِظامه، لا بسَعيه وإرادته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ زِمام جَميع الأمور بيَد الله، بَل يزعُمون أنّ لهم فيها دَخْلاً، ولتَدبيرهم فيها تأثيراً، أو المُراد: أنّهم لا يعلمون لَطائف صُنع الله، وخَفايا فَضله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِۦ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ [٢٢ ـ ٢٤]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ بَيان صَبر يُوسف على البَلايا والمِحن، ومُكافاته بالنِّعَم الجِسمانيّة الظّاهريّة؛ من التّمكين في قَلب العزيز، وعُلُوّ مَنزلته عند أهل مِصر، ذكَر مُكافاته بالنِّعَم الرُّوحانيّة الباطنيّة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ وكمُلتْ قُواه الجِسمانيّة والرُّوحانيّة ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿حُكْماً﴾ ونُبوّة، أو حِكمة عمَليّة، التي هي الاستيلاء على النّفس، بحيث يسهُل عليه منعُها عن اتِّباع الهَوى، وارتِكاب الرّذائل ﴿وَعِلْماً﴾ كاملاً بجَميع ما يحتاج إليه النّاس مِن المَعارف والأحكام، جَزاءً على حُسن صبره ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الجَزاء البَديع الجَزيل ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جميعاً على أعمالهم الحسَنة.

قيل: إنّه عليه السلام صار نبيّاً وله ثلاثٌ وثلاثون سنة[3].

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٠٨، تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٠.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١١٠.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١١٠.

والأشُدّ: سِنُّ الوُقوف، وهُو ما بين ثلاثين وأربعين؛ كما هُو مَرويّ عن ابن عبّاس[١].

وقيل: إنّه كان نبيّاً حينَ أُلقي في الجُبّ[٢]. وكان له ثماني عشرة سنة، وهُو الأشدّ، لأنّه سِن الشَّباب، وهُو مابين ثماني عشرة إلى ثلاثين.

قيل إنّ زُليخا كانت أجمل نِساء عَصرها، وكانت بِنت جلموس[٣] سُلطان المَغرب، فرأت ذاتَ ليلة في المَنام غُلاماً على أحسن ما يكون من الحُسن والجَمال، فسألت عنه، فقال: أنا عزيز مِصر، فلمّا استيقظت افتُتِنَتْ بما رأت في الرُّؤيا، وأدّى ذلك إلى تغيُّر حالها، ولكنّها كتَمت حالَها عن الأغيار دَهراً. ثمّ تفطّن مَن في البيت مِن الجَواري وغيرهِنّ أنّ بها أمراً، فقال بعضٌ: أصابَتْها عَينٌ، وبعضٌ: أصابها سِحرٌ، وبعضٌ: مسّها الجِنُّ، وبعضٌ: ابْتَلَتْ بالعِشْق، ففُتِّش عن أمرها، فما وُجِد فيها غير العِشق، وقد كان خطَبها مُلوك الأطراف، فابَتْ إلّا عَزيز مِصر، فجهّزها أبوها بما لا يُحصى من العُبيد والجَواري والأموال، وأرسلها مع حَواشيه إلى جانب مِصر، فاسْتقبلها العزيز بجَمع كثيرٍ في زينةٍ عظيمةٍ، فلمّا رأتْه زليخا علِمت أنّه ليس الذي رأته في المَنام، فأخذت تبكي وتتحسّر على ما فات من المطلوب، فسمِعت هاتفاً يقول: لا تحزني يا زليخا، فإنّ مَقصودك يحصُلُ بواسطة هذا.

ثمّ لمّا دخلوا مِصر أنزلوا زليخا في دار العزيز بالعِزّ والاحْتِرام، وهي في نَفسها على آلام الفِراق، وكانت على هذه الحال سِنين، وبقيت بِكْراً لأنّ العَزيز كان عِنِّيناً، ثمّ كان ما كان من حسَد إخوان يُوسف عليه، ووُصوله إلى مِصر بالعُبوديّة، فلمّا رأته زليخا علِمت أنّه هو الذي رأته في المَنام، فلمّا ورَد يُوسف في دار العزيز ملَك سُلطانُ العِشق مَملكة قَلب زَليخا[٤].

رُوي أنّ يُوسف كان يأوي إلى بُستان في قَصر زليخا يعبُد الله فيه، وكان قد قسّم نَهاره ثلاثه أقسام: ثُلثاً لصلواته، وثُلثاً لبُكائه، وثُلثاً لذِكر الله وتَسبيحه، فلمّا أدرك يُوسف مَبالغ الرِّجال، طلَبتْ مِنه الوِقاع.

﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وجاءت وذهبت عنده المرأة **﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾** لتُخادِعَهُ **﴿عَن نَّفْسِهِ﴾** وهو يهرُب منها إلى البُستان، فلمّا طال ذلك عليها تغيّر لونُها واصْفرّ وَجهُها، فدخلت عليها دايتها فأخبرتها بذلك، فأشارت عليها أن تبني له بيتاً مُزيّناً بكُلّ ما تقدِر عليه من الزِّينة والطِّيب، ليكون وسيلةً إلى صُحبة يُوسف، فبَنَتْه، فلمّا فرَغ الصنّاع من عمَله دَعَتْ العزيز، فدخل فيه فأعجبه، لكونه على أُسلوب عَجيب، وقال لها: سَمّيه بيتَ السُّرور ثمّ فرح، فاسْتدعَتْ يُوسف فزينه بكُلّ ما يُمكن من الزِّينة،

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٤: ٢٣٣.

٣. في تفسير روح البيان: طيموس.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٤.

وتزيّنت هي أيضاً، وكانت بَيضاء حسناء، بين عَيْنَيها خالٌ يتلألأ حُسناً، ولها أربع ذَوائب قد نظَمَتْها بالدُّر والياقوت، وعليها سبع حُلَل، وأرسلتْ قَلاندها على صَدْرها، فجاءوا بيُوسف، فلمّا دخَل عليها في البيت الأوّل أغفلَتْه وأغلقته، وراودته عن نفسه بكُلّ حيلة، فلم يُجِبْها، ثمّ أدخلَتْه في البيت الذي يليه، وراودته بكُلّ ما يُمكن، فلم يُساعدها يُوسف، ودفَعها بكُلّ ما قدِر عليه، ثمّ وثمّ إلى أن انتهى إلى البيت السّابع[1] ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾ السّبعة كُلّها عليه، بحيث لم يُمكن فتحها عادةً.

ثمّ دَعَتْه إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ﴾ له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأقبِل وأسرِع إليّ ـ قيل: هذه الكلمة بالعِبريّة: هيا لج[2]، فعرّبه القرآن ـ فامتنع يُوسف من إجابتها، و ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وألتجئ إليه من أن أعصيه، وأضيع حُقوقَه، وأكفُر نِعَمه العِظام عليّ.

ثمّ اعْتذر أوّلاً بأنّ هذا العمل كُفران نِعمة العزيز بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ ومُنعمي، وسيّدي الذي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وأكرمني غايةَ الكَرامة، ثمّ اعْتذر ثانياً بأنّ في هذا العمَل خُسران الدّارين بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بفِعل القَبيح، وعلى مُنعميهم بالخِيانة في عِرْضهم.

ويُحتمل أن تكون كلمة ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ حقيقة عُرفيّة في إظهار الامْتِناع الشّديد، وقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ عِلّة له، وقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ عِلّة للعِلّة. ويكون حاصلُ المعنىٰ: لا يكُون ذلك العمل مِنّي أبداً، لأنّ العزيز رَبّي الذي أحسن إليّ بإكرام مَثواي، وحَقّه أن لا أخونه في عِرضه، لأنّه ظُلم في حَقّه، ولا يُفلح الظالمون.

ويُحتمل أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ راجعاً إلى الله، والمعنىٰ: إنّ الله ربّي ومُنعمي، حيثُ أكرمني غاية الإكرام، وعِصيانه كُفران نِعمته، وظُلم في حقّه، ولا يُفلح الظّالم.

عن ابن عبّاس قال: كان يُوسف إذا تبسّم رُؤي النُّور في ضَواحكه، وإذا تكلّم رُؤي شُعاع النّور في كَلامه يذهَب من بَين يدَيه، ولا يستطيع آدَميّ أن ينعَت نَعْته، فقالت له: يا يُوسف، إنّما صنعتُ هذا البيت المُزيّن لأجلك، فقال يُوسف: يا زَليخا، إنّي أخشىٰ أن يكونَ هـذا البَيت الذي سمّيته بـيت السُّرور بيتَ الأحزان والثُّبور، وبُقعةً مِن بِقاع جَهنّم. فقالت زَليخا: يا يُوسف، ما أحسن عَيْنَيك! قال: هُما أوّلُ شيء يسيلُ إلى الأرض مِن جَسدي. قالت: ما أحسن وَجهك! قال: هُو للتُّراب يأكُله. قالت: ما أحسن شَعرك! قال: هُو أوّل ما ينتشر مِن جَسدي. قالت: إن فِراش الحَرير مَبْسُوط فـقُمْ واقْـضِ حاجتي، قال: إذَن يذهبُ نَصيبي من الجنّة. قالت: إن طَرَفي سَكران مِن مَحبّتك، فارْفَع طَرفك إلى

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٦.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١١٣.

حُسني وجَمالي، قال: صاحِبُك أحقُّ بحُسنك وجَمالك[١].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وعزمت على مُخالطته ومُجامعته عزماً جزماً بعد تغليق الأبواب، ودعوتها إلى نفسها، والإلحاح في مقاربتها، ومدّ يدها إليه لتعانقه **﴿وَهَمَّ بِهَا﴾** وعزم على إجابتها بمقتضى الطبيعة البشرية وقوّة شهوة الشباب مع وجود أسباب هيجان الرغبة **﴿لَوْلاَ أَن رَأَىٰ﴾** يوسف **﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾** وحُجَته الباهرة الدالة على قُبح الزنى، وكونه مبغوضاً له تعالى، وكمال إيقانه الواصل إلى مرتبة عين اليقن التي تتجلّى عندها حقائق الأشياء بصورتها الواقعية البَرْزخية.

وهذه المَرتبة هي العِصمة الالهية، ولكن رأى البرهان فلم يهتمّ بها أصلاً، وكان فاقد الشرط، والمقصود بيان أنّه لم يكن امتناعه عن ارتكاب الفاحشة لقصورٍ في قواه الطبيعية ونقصٍ في موجبات الرغبة، بل كان بمقتضى العفّة والعصمة الألفية[٢] مع وفور الدواعي النفسانية وتمامية الموجبات الخارجية لظهور أحكام الطبيعة.

عن الرضا عليه السلام، وقد سأله المأمون عن عصمة الأنبياء: قال عليه السلام: «لقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يَهُمّ بذنبٍ ولا يأتيه».

قال: «ولقد حدّثني أبي، عن أبيه الصادق عليه السلام، أنّه قال: همّت بأن تفعل، وهمّ بأن لا يفعل»[٣].

وفي رواية: «أنّها همّت بالمعصية، وهمّ يوسف بقتلها إن أجبرته، لعظَم ما تداخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة»[٤].

وقيل: إنّ البرهان هو أنّه رأى مكتوباً في جانب البيت: **﴿لاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ﴾**[٥].

وقيل: إنّه قال له مَلَك: أنت تهَمّ بفعل السفهاء، وأنت[٦] مكتوب في ديوان الأنبياء[٧] وفي هذا القول ما لا يخفى.

وقيل: إنّه انفرج له سقف البيت، فرأى يعقوب عاضّاً على يديه[٨].

وقيل: إنّ يعقوب ضرب على صدره، فخرجت شهوته من أنامله[٩].

وقيل: بدت كفّ [فيما بينهما] لا عَضُد لها ولا مِعصَم، مكتوب فيها: **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *﴾**

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٦.
٢. كذا، ولعلّ مراده المألوفة.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠١، تفسير الصافي ٣: ١٣.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٣، تفسير الصافي ٣: ١٣.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨.
٦. زاد في النسخة: واسمك.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨.
٩. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٦.

كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾[١] فلم ينصرف، ثمّ رأى فيها: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٢] فلم يتنبّه[٣]، ثمّ رأى فيها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[٤] فلم يَنجَع. فقال الله عزّ وجلّ لجَبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الفاحشة[٥]. فانحطّ جَبرئيل عليه السلام وهو يقول: يا يوسف، اتعمل عمل السُّفهاء وأنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء[٦].

في عصمة الأنبياء

أقول: لا شُبهة في فساد هذا القول وكذبه، وقيل: إنّه رأى تمثال العزيز[٧].

وقيل: إنّه رأى شخصاً يقول له: يا يوسف، انظُر إلى يمينك، فنظر [فرأى] ثُعباناً أعظم ما يكون، فقال: هذا يكون في بطن الزاني غداً[٨].

وقيل: إنه سَمِع قائلاً يقول: يابن يعقوب، المؤمن كالطير[٩] له ريش، فاذا زنى سقط ريشه[١٠].

وقيل: إنه رأى جَبرئيل عاضّاً على يده[١١].

عن السجّاد عليه السلام: قامت امرأة العزيز إلى الصنم، فألقت عليه ثوباً، فقال لها يوسف: [ما هذا؟ قالت: أستحيي من الصنم أن يرانا، فقال لها يوسف:] أتستحيين ممّن لا يَسمع ولا يُبصِر ولا يفقه، ولا يأكل ولا يشرب، ولا أستحيي أنا ممّن خلق الانسان فعلمه، فذلك قوله: ﴿لَوْلاَ أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[١٢].

ورُوي ذلك عن الباقر عليه السلام بعد أن كذّب قول الناس إنّه رأى يعقوب عاضاً على إصبعه[١٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أن رضا الناس لا يُملك، وألسنتهم لا تُضبَط، وكيف تَسْلَمون ممّا لا يَسْلَم منه أنبياء الله ورُسله وحُجج الله عليهم السلام، ألم يَنْسِبوا يوسف عليه السلام إلى أنه همّ بالزنا»[١٤].

أقول: والعجب أنّه مع ذلك روى بعض العامه عن الصادق عليه السلام باسناده عن علي عليه السلام أنه قال: «طَمِعت فيه وطَمِع فيها، فكان طمعه فيها أنّه همّ أن يَحُلّ التِّكَة»[١٥] بل نقلوا عن ابن عباس أنه قال: حلّ الهِميان[١٦]، وجلس منها مجلس الخائن[١٧]. وعنه أيضاً: أنّها استلقت له وجلس بين رجليها ينزَع ثيابه[١٨].

أقول: لا شُبهة أن كلّها من الأكاذيب بحكم العقل والنقل وإجماع أهل الحلّ والعقد.

---

١. الإنفطار: ٨٢/١٠ و١١.
٢. الإسراء: ١٧/٣٢.
٣. في تفسير أبي السعود: فلم ينته.
٤. البقرة: ٢/٢٨١.
٥. في تفسير أبي السعود: الخطيئة.
٦. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٦.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٧.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٢٣٨.
٩. في تفسير الرازي: يا ابن يعقوب لا تكون كالطير يكون.
١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٢٠.
١١. مجمع البيان ٥: ٣٤٥.
١٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٥/١٦٢، تفسير الصافي ٣: ١٤.
١٣. تفسير العياشي ٢: ٣٤٠/٢٠٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٤.
١٤. أمالي الصدوق: ١٦٤/١٦٣، تفسير الصافي ٢: ١٤.
١٥. تفسير الرازي ١٨: ١١٥.
١٦. الهِميان: شِداد السَّراويل.
١٧ و١٨. تفسير الرازي ١٨: ١١٥.

قال الفخر الرازي: إن كلَ من له تعلّق بتلك الواقعة، شَهِد ببراءة يوسف من المعصية، فانّ الذين لهم تعلّق بتلك الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود وربّ العالمين، وكلّهم شَهدوا ببراءته، والشيطان أقرّ أيضاً ببراءته من المعصية، فاذا كان الأمر كذلك لم يبق لمسلم مجال التوقّف في هذا الباب.

أمّا ادّعاء يوسف ببراءته فقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَفْسِي﴾ [1] وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [2].

وأما المرأة فانّها اعترفت بذلك بقولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [3] وبقولها: ﴿ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ [4].

وأمّا زوج المرأة فبقوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ﴾ [5].

وأمّا الشهود فيقول الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ [6].

وأمّا النسوة فبقولهنّ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [7] وقولهن: ﴿حَاشَ لِلّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [8].

وأمّا شهادة الله فبقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وأمّا اقرار إبليس بذلك فبقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [9] فأقرّ بأنّه لا يمكنه إغواء العباد المُخلَصين.

ثمّ بيّن الله مِنّته على يوسف بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ الاراءة للبرهان أريناه، ومثل ذلك التبصير بصّرناه فيما قيل، أو مثل ذلك التثبّت ثبّتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ﴾ كلّه، ومنه خيانة العزيز، أو قتل زليخا ﴿وَٱلْفَحْشَاءَ﴾ كان هو الزنا، أو ما شابهه في شدّة القباحة.

ثمّ علّل ذلك اللُّطف به بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ أحد ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والمصطفين لعبادتي وطاعتي.

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي

---

١. يوسف: ٢٦/١٢. ٢. يوسف: ٣٣/١٢. ٣. يوسف: ٣٢/١٢. ٤. يوسف: ٥١/١٢.
٥. يوسف: ٢٨/١٢ و٢٩. ٦. يوسف: ٢٦/١٢. ٧. يوسف: ٣٠/١٢. ٨. يوسف: ٥١/١٢.
٩. تفسير الرازي ١٨: ١١٦، والآية من سورة ص: ٣٨ و٨٢ و٨٣.

عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ [٢٥ ـ ٢٩]

ثمّ بيّن الله سبحانه شدّة طلب زليخا وشدّة امتناع يوسف من إجابتها بقوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ البرّاني وتسابقا إليه، أما يوسف فللهرب من زليخا، وأمّا زليخا فلصدّ يوسف عن الفِرار والخروج.

وفي رواية: كانت الأقفال تتساقط والأبواب تُفتح[١] ليوسف، فلمّا بلغته زليخا اجتذبت قميصه من خلفه، لتوقفه وتمنعه من الخروج ﴿وَ﴾ لذا ﴿قَدَّتْ﴾ وشقّت ﴿قَمِيصَهُ﴾ طولاً ﴿مِن دُبُرٍ﴾ وخلف بالاجتذاب ﴿وَأَلْفَيَا﴾ ووجدا العزيز الذي كان ﴿سَيِّدَهَا﴾ وزوجها ﴿لَدَى ٱلْبَابِ﴾ وهو يريد أن يدخل البيت كما قيل، وقيل: إنه كان جالساً عند الباب مع تمليخا ابن عمّ زليخا[٢]، وإنما قال سبحانه سيّدها لأنّ الزوج سيد المرأة، ولم يكن سيد يوسف لأنّه لم يكن مالكه في الواقع.

ثمّ كأنّه قيل: ما قالت زليخا لسيدها عند ذلك؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالَتْ﴾ زليخا لسيدها تنزيهاً لنفسها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ وزوجتك ﴿سُوءًا﴾ أو فُحشاً، وليس جزاؤه وعقوبته ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ ويحبس في المَحْبِس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كالقتل بالسيف أو الضرب الشديد، وقيل: إن كلمة ﴿مَا﴾ استفهامية، والمعنى أيّ شيء جزاؤه[٣] غير السجن أو العذاب الشديد؟

قال العزيز: من أراد بك سوءاً؟ قالت زليخا: إنّي كنت نائمة في فراشي، فجاء هذا الغلام العبري، وكشف عن ثيابي، وراودني عن نفسي. فالتفت العزيز إلى يوسف، وقال: يا غلام، أهذا جزائي منك؟! أنا أحسنت إليك، وأنت تخونني[٤]! ﴿قَالَ﴾ يوسف تنزيها لعِرضه وتبرئة لنفسه وحفظاً لها من السجن والتعذيب: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ لتخادعني ﴿عَن نَّفْسِي﴾ وطالبتني مواقعتها، وأنا امتنعت من إجابتها حتّى فررت منها.

قيل: إنّ العزيز قال: لا أقبل قولك إلا بالبرهان[٥]. وقيل: إنّه نظر إلى ظاهر حال[٦] زليخا وتظلّمها، فأمر بأن يُسجَن يوسف، فعند ذلك دعا يوسف بانزال براءته، وكان لزليخا خالٌ له ابن في المَهد ـ ابن ثلاثة أشهر على رواية، أو ابن أربعة على أخرى، أو ابن ستة أشهر على ثالثة ـ فهبط جَبرئيل إلى ذلك الطفل

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٦٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.
٣. جوامع الجامع: ٢١٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.
٤ و ٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.
٦. في تفسير روح البيان: قول.

وأجلسه في المهد، وقال له: اشهد ببراءة يوسف: فقام الطفل من المهد فجعل يسعى حتى قام بين يدي العزيز[١] ﴿وَشَهِدَ﴾ ببراءة يوسف، مع أنه ﴿شَاهِدٌ﴾ كان ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وأقاربها.

وعن ابن عباس: أن الشاهد كان صبياً انطقه الله تعالى في المهد[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «ألهم الله عز و جل يوسف أن قال للملك: سَل هذا الصبيَ في المهد، فإنّه يشهد بأنّها راودتني عن نفسي. فقال العزيز للصبي: فأنطق الله الصبيَ في المهد»[٣].

وقيل: كان لها ابن عمّ، وكان رجلاً حكيماً، واتّفق أنه كان مع العزيز في ذلك الوقت، يريد أن يدخل عليها. فقال: فقد سمعنا الجَلَبَة[٤] من وراء الباب، وشقّ القميص ولا ندري أيّكما قُدّام صاحبه[٥]، ثمّ قال: انظروا إلى قميص يوسف ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ وشقّ ﴿مِن قُبُلٍ﴾ وقُدّام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ زليخا في أن يوسف أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ في قوله: هي راودتني عن نفسي ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ وشقّ ﴿مِن دُبُرٍ﴾ وخلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ زليخا في قولها ورميها يوسف ﴿وَهُوَ مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلصَّادِقِينَ﴾ في رمي زليخا بمراودته عن نفسه، لأنّه إن كان يوسف طالباً لها ومقبلاً إليها، فإما أن تقوم زليخا في قُباله وتدفعه عن نفسها، وإمّا أن تهرُب منه، ويتبعها يوسف، ويسرع في المشي، فيعثر بذيله، وعلى أي تقدير لابدّ أن ينشقّ قميص يوسف من قُدّام، وأما إن كانت زليخا طالبة له، ويوسف هارباً منها، فلا بدّ من أن ينشقّ قميصه من خلف، لأنّها تتبعه وتجتذب قميصه من خلف.

واعتُرض عليه بأنّ شقّ القميص من خلف ليس له دلالة قطعية على براءة يوسف، لاحتمال أنّه لمّا طلب منها الزنا غَضِبت عليه، وأرادت إيذاءه فهرب منها، وركضت خلفه وجذبته لتضربه، فخُرِق قميصه من خلف.

وفيه: أنه كانت على تقدير كون الشاهد ابن عمها أمارات اُخرى على صدقه:

منها: أنه عليه السلام كان بحسب الظاهر عبداً، والعبد يبعد أن يتجاسر على مولاه وزوجته.

ومنها: أنّهم رأوا زليخا زيّنت نفسها بأكمل الزينة التي لم تتزين بها إلى ذلك اليوم.

ومنها: أن إثار الشهوة كانت فيها متكاملة بصبرها على الزوج سنين متطاولة، لأنّ زوجها كان عنيناً.

ومنها: أنهم رأوا يوسف في غاية العفّة مدّة مديده، إلى غير ذلك من القرائن.

ولذا ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾ العزيز أو ابن عمها ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ علم ببراءة يوسف وصدقه في قوله

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٠.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٢٣.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٥.
٤. الجَلَبة: الصِّياح والصَّخب.
٥. تفسير الرازي ١٨: ١٢٣.

و﴿قَالَ﴾ لزليخا: إن الأمر قد ظهر ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ ومكركنَ أيتها النساء الماكرات، لا من كيد يوسف ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنه أشدّ تاثيراً في النفوس من كيد الرجال، وأعلق بالقلوب منه، بل من كيد الشيطان لأنه يوسوس مسارقةً، وهنّ يواجهن به الرجال، فخجلت زليخا بعد انكشاف الأمر، واستحيى العزيز وسكت.

ثمّ لمّا كان حليماً قليل الغيرة، محبّاً لزليخا غاية الحبّ، خائفاً من أن يشتهر الأمر في الناس، قال ليوسف: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ واغمض ﴿عَنْ هٰذَا﴾ الأمر واكتمه عن الناس، ولا تُحدّث به أحداً، لأنهم يعيّرونني إن سمعوا به، ويا زليخا تُوبي ﴿وَٱسْتَغْفِرِي﴾ الله ﴿لِذَنبِكِ﴾ الذي ارتكبتِهِ ﴿إِنَّكِ كُنْتِ﴾ وصرت بسببه ﴿مِنَ﴾ جملة القوم ﴿ٱلْخَاطِئِينَ﴾ والمتعمّدين لفعل القبيح. قيل: إن تذكير الجمع لتغليب الذكور على الإناث[1].

رُوي أنّ العزيز حلف أن لا يدخُل عليها إلى أربعين يوماً، وأخرج يوسف من عندها، وشغله بخدمة نفسه، وبقيت زليخا لاترى يوسف[2].

وقيل: إنّ الآية من كلام الشاهد[3]، وكان هو الصبيّ، أو ابن عمّها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ مَا هٰذَا بَشَراً إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ﴾ [٣٠-٣٢]

ثمّ قيل: إن امرأة ساقي الملك وامرأة خبّازه وامرأة صاحب دوابّه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه، كنّ كثير المراودة مع زليخا، فاطّلعن على قضيتها مع يوسف، فأفشين الخبر في نسوة مصر[4]، ﴿وَ﴾ عند ذلك ﴿قَالَ نِسْوَةٌ﴾ كن ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وبلدة مصر، أو المراد أنّ النسوة الخمس في المدينة [قلن] للنساء تشنيعاً ولوماً على زليخا: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ مع جلالة شأنها وغاية خطَرها

١. تفسير الرازي ١٨: ١٢٥، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٢٤.
٤. مجمع البيان ٥: ٣٥٢، تفسير الرازي ١٨: ١٢٦.

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ وتطالب مملوكها مواقعته لها وتخادعه **﴿عَن نَّفْسِهِ﴾**، وتحتال في تحصيل مقصودها القبيح منه **﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾** ووصل ذلك الفتى إلى سويداء قلبها **﴿حُبّاً﴾** وعشقاً، وحاصل المراد أنه تمكّن حبّه في قلبها بحيث شغلها عن غيره.

وقيل: إنّ المعنى أحاط بقلبها حبّه كإحاطة الشّغاف، وهو الجلدة المحيطة بالقلب[1].

وقيل: إن المعنى أنّ حبّه شقّ شَغاف قلبها: ودخل فيه[2].

عن القمي، عن الباقر عليه السلام، يقول: «قد حجبها حبّه عن الناس فلا تعقِل غيره»[3].

﴿إِنَّا﴾ والله **﴿لَنَرَاهَا﴾** ونعلمها، كعلمنا بالشيء بطريق المشاهده غائرة **﴿فِي ضَلَالٍ﴾** وانحراف عن طريق العفاف والرُّشد والصواب **﴿مُبِينٍ﴾** وظاهر ضلالها عند كلّ أحدٍ، أو مظهر بين الناس.

قيل: إنّما قلن: لنراها في ضلال، ولم يقلن: إنّها في ضلال، إشعاراً بانّ حكمهنّ بضلالها عن علمٍ ويقينٍ، لا عن ظنٍّ وتخمينٍ، وإعلاناً بتنزّههنّ عمّا هي عليه[4].

قيل: لذا ابتلاهنّ الله بما عيّروها، لأنّه ما عيّر أحدٌ أخاه بذنبٍ إلّا ارتكبه قبل أن يموت[5].

عن القمي: وشاع الخبر بمصر، وجعلن النساء يتحدّثن بحديثها، ويعذلنها[6] ويذكّرنها[7].

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا **﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾** وتعيّبهنّ إياها في الخفاء والسرّ، كاخفاء الماكر مكره. وقيل: مكرهنّ إفشاؤهن سرّ زليخا[8]، فانّ إفشاء السرّ يسمى مكراً.

وقيل: إنّ النسوة كنّ مشتاقات لأنّ ينظرن إلى وجه يوسف، فاحتلن تعييب زليخا في ذلك، لأنهنّ عرفن أنّهن إذا قلن ما قلن عرضت زليخا عليهن يوسف ليظهر عذرها عندهن[9].

ولذا **﴿أَرْسَلَتْ﴾** زليخا خدمها **﴿إِلَيْهِنَّ﴾** لتدعوهن لضيافتها، إكراماً لهنّ، قيل: دعت أربعين امرأة، منهنّ الخمس المذكورات[10]. عن القمي: بعثت إلى كلّ امرأة رئيسة فجمعتهن في منزلها[11] **﴿وَأَعْتَدَتْ﴾** وهيئت **﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾** ونَمارق يعتمدن عليها، وقيل: إن المتّكأ هو الطعام، أو الأترج، أو الطعام المحتاج إلى القطع بالسكين[12].

﴿وَآتَتْ﴾ وأعطت زليخا **﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ﴾** بعد الاتكاء **﴿سِكِّيناً﴾**: لقطع الفواكه أو الأطعمة

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٢٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٥.
٣. تفسير القمي ١: ٣٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٦.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٥.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٥.
٦. في المصدر: ويعيرنها.
٧. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.
٨. تفسير الرازي ١٨: ١٢٦، تفسير أبي السعود ٤: ٢٧١.
٩. تفسير الرازي ١٨: ١٢٦.
١٠. تفسير أبي السعود ٤: ٢٧١، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٦.
١١. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.
١٢. تفسير الرازي ١٨: ١٢٧.

التي حضرت عندهنّ، رُوي أنّ زليخا اتخذت لهنّ ضيافة عظيمة من أنواع الفواكه وألوان الأطعمة والأشربة ما لا يوصف[١].

قيل: جاءت زليخا عند يوسف، فالبسته حُلّة خضراء، وأرسلت ذوابته على صدره، وشدّت في وسطه مِنطقة من الذهب، وألبسته نعلين مزيّنين بالجواهر[٢].

﴿وَقَالَتِ﴾ له حين اشتغالهنّ باستعمال السكاكين في ما بأيديهنّ من الفواكه وأضرابها: ﴿ٱخْرُجْ﴾ يا يوسف ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ وابرُز لهنّ، فخرج عليهنّ لمّا لم يقدِر على مخالفتها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ بذلك الحُسن الفائق والجمال الرائق الذي يضمحل عنده جمال كلّ جميل، إذن ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ وأعظمنه، ودهشن من فَرط حُسنه، بحيث غفلن عن أنفسهن، وخرجت أفعالهنّ عن اختيارهنّ، ولم يعلمن ما يفعلن. وقيل: يعني حِضن من شدّة الشَبَق ليوسف[٣] ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ بالسكاكين ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بدل الفواكه والأطعمة. عن وهب: ماتت جماعة منهنّ[٤].

عن النبي ﷺ، قال: «رأيت في السماء الثانية رجلاً صورته كالقمر ليلة البدر، فقلت لجَبرئيل: من هذا؟ قال: أخوك يوسف»[٥].

قيل: كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحُسن كفضل القمر ليل البدر على سائر الكواكب[٦]. وقيل: إنه إذا سار في أزقّة مصر، يُرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس عليها[٧]. وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه[٨].

﴿وَ﴾ لذا ﴿قُلْنَ﴾ من فُرط التعجّب من حُسنه وكمال قُدرة الله على الخلق: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ ونُزّه عن العَجز حيث قدر على خلق مثل هذا الغلام الذي لايتصوّر له نظير في الجمال والحُسن.

ثمّ لمّا كان المركوز في الأذهان أنّ المَلَك أحسن المخلوقات بالَغْنَ في توصيف حُسنه بقولهن: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي نراه ﴿بَشَرًا﴾ ومن جنس بني آدم لعدم إمكان وجود هذه الدرجة من الحُسن فيهم، بل ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الجميل الذي لا نظير له، وما هو ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على ربّه.

قيل: إنّ النساء لمّا رأين غاية عفّته وكرامة نفسه قلن ذلك[٩]. فلمّا رأت زليخا دهشة النساء من رؤية يوسف ﴿قَالَتْ﴾ اعتذاراً من عشقها إياه وحبها له: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ الشاب الذي رأيتنه افتتنتنّ به هو العبد

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٦.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٧٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٧.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٤٧.
٥. مجمع البيان ٥: ٣٥٣، تفسير الصافي ٣: ١٦.
٦. تفسير الرازي ١٨: ١٢٧.
٧ و٨. تفسير الرازي ١٨: ١٢٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٤٨.
٩. تفسير الرازي ١٨: ١٢٨، مجمع البيان ٥: ٣٥٣.

الكنعاني ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ وعَذَلْتنني على حبّه وافتتاني به، ولو رأيتنه قبل المجلس أو تصوّرتم صورته لماكنتم تلومونني على حبّه، بل ظهر أنكنّ أحقّ باللوم لأنكنّ بنظرةٍ واحدةٍ إليه ظهر فيكن ما لم يظهر في المدة المديدة.

قيل: أنّما أشارت زليخا إليه بذلك الذي للبعيد لكونها بعد انصرافه من المجلس[1]، أو لاظهار رفعة منزلته في الحُسن.

ثمّ إنها لمّا ظهر عُذرها عند النسوة، كشفت السرّ عمّا كانت تستره، وأعلنت بحقيقة الحال بقولها: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وطلبت منه أن يمكّنني من قربه ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ بالله واستجار إليه من إجابتي، ﴿وَ﴾ والله ﴿لَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ولم يجب ما أسأله من المواقعة ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ البتة ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ لا محالة ﴿مِّنَ﴾ جملة ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والمهانين في الناس، وإنما أوعدته بالصَّغار والذُلّ لعلمها بأن له تأثيراً عظيماً في قلب من كان عزيز النفس رفيع المقام عظيم الخطر كيوسف، فتضيق عليه الحِيَل، وإنّما قالت ذلك بين النساء ليعلم يوسف أنها ليست من أمرها على خِيفةٍ وخُفيةٍ.

قيل: إنّ النسوة لمّا سمعن منها هذا التهديد اجتمعن على يوسف، وقلن: إنّا نرى صلاحك في موافقتها، وإلّا توقعك في السجن، وتبتليك بالذلّ والصَّغار[2].

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ * فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ * وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ [٣٣-٣٦]

ثمّ لمّا رأى يوسف عليه السلام موجبات الرغبة في إجابة مسؤولها كثيرة من حسنها وكثرة أموالها وموافقة النسوة معها، وتوقّع شرّها كالقتل والسجن ونظائرهما، التجأ إلى الله واعتصم به بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ﴾ الذي تهدّدني به زليخا، وتخوّفني به النسوة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وأولى بالتحمّل لديّ ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ من الزنا والفُحش لقلّة المحاذير الدنيوية بالنسبة إلى المحاذير الأُخروية ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ ومكرهنّ بي في إلقائي في الخطر وبعثي إلى خلاف رضاك

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٠.

﴿أَصْبُ﴾ وأميل ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ وأوافق ميلهنَ وأقدم في إجابة مسؤولهن ﴿وَأَكُن﴾ بعملي هذا ﴿مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ والسفهاء الذين لا ينظرون إلى سوء عواقب أعمالهم.

القمي ﷺ: فما أمسى يوسف في ذلك البيت حتى بعثت إليه كلّ امرأةٍ رأته تدعوه إلى نفسها، فضجر يوسف في ذلك البيت فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[١] الآية.

قيل: عند ذلك بكت الملائكة رحمةً له، وهبط إليه جَبْرئيل فقال له: يا يوسف، ربّك يقرئك السلام ويقول لك: اصبر فإن الصبر مفتاح الفرج، وله عاقبة[٢] محمودة[٣].

قيل: إنّه لو قال ربّ العافية أحبّ إليّ، لعافاه الله[٤]، ولم يبتل بالسجن ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دعاءه ومسألته ﴿فَصَرَفَ﴾ ودفع ﴿عَنْهُ﴾ برحمته ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ حسب دعائه، وثبّته على العصمة والعفّة التي كان عليها حتّى وطّن نفسه على مقاساة السجن واختيار المحنة والشدّة على اللذّة والراحة ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعين له وتضرّع المتضرّعين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبهم من الخلوص وبما يصلحهم.

في (العلل) عن السجاد ﷺ: «كان [يوسف] من أجمل أهل زمانه، فلمّا راهق راودته امرأة المَلِك عن نفسه، فقال لها: معاذ الله إنّا من أهل بيتٍ لا يزنون: فغلّقت الأبواب عليها وعليه. وقالت لا تَخَف، وألقت نفسها عليه، فأفلت منها هارباً إلى الباب ففتحه، فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فأخرجته منه، فأفلت منها في ثيابه، وألفيا سيدها لدى الباب، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلّا أن يسجن أو عذاب أليم.

قال: فهمّ المَلِك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: وإله يعقوب، ما أردت بأهلك سوءاً، بل هي راودتني عن نفسي، فسل هذا الصبي أيّنا راود صاحبه عن نفسه. قال: وكان عندها صبيّ من أهلها زائرٌ لها، فأنطق الله الصبي لفصل القضاء، فقال: أيّها المَلِك، انظُر إلى قميص يوسف، فان كان مقدوداً من قُدّامه فهو الذي راودها، وإن كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته.

فلمّا سَمِع المَلِك كلام الصبيّ وما اقتصّ، أفزعه ذلك فزعاً شديداً، فجيء بالقميص فنظر إليه، فلمّا رآه مقدوداً من خلفه قال لها: إنه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم. وقال ليوسف: أعرِض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتُمه. قال: فلم يكتّمه يوسف وأذاعه في المدينة حتّى قلن نسوة فيها: امرأة العزيز تراود فتاهاعن نفسه، فبلغها ذلك فأرسلت إليهنّ وهيأت لهنّ طعاماً ومجلساً، ثمّ أتتهنّ بأترجّ،

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٧.
٢. في تفسير روح البيان: وعاقبته.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٢.

وأتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً، ثمّ قالت ليوسف: اخرُج عليهنّ: فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن ما قلن. فقالت لهنّ هذا ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يعني في حبّه، وخرجن النسوة من عندها فأرسلت كلّ واحدة منهنّ إلى يوسف سرّاً من صواحبها تسأله الزيارة، فأبى عليهنّ، وقال: ﴿إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فصرف الله عنه كيدهنّ»[1].

ثمّ قيل: لمّا ظهر للعزيز براءة يوسف، لم يتعرّض له، وخصّه بخدمة نفسه، فاحتالت زليخا بعد ذلك بحِيَلٍ تضطرّ يوسف إلى موافقتها، فلم توثّر فيه، فلمّا أيست منه قالت لزوجها: إنّ هذا العبد فضحني في الناس، ولا أقدِر على إظهار عُذري، فإما أن تأذن لي في الخروج للاعتذار، أو تحبسه كما حبستني[2].

وقيل: إنّ النسوة كنّ يدعون يوسف إلى أنفسهن، فلمّا يئسن منه جئن إلى زليخا، وقلن: نرى أن تحبسه أياماً قلائل، لعلّه بعد ابتلائه بذُلّ السجن وتعبه انقاد لك، فقالت زليخا للعزيز: أرى أنّ الأصلح أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث[3]، أو يحسبون أنّه المجرم، وكان العزيز مطيعاً لها، فاغترّ بقولها ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ وتغيّر رأيهم عمّا كان عليه من عدم التعرّض له ﴿مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ والشواهد على براءة يوسف ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ وليحبسنّه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ انقطاع قالة الناس بنظر العزيز، وإلى زمان انقياد يوسف أو حسبان الناس أنّه المجرم بنظر زليخا.

عن الباقر عليه السلام: «الآيات: شهادة الصبي، والقميص المخرّق من دُبر، واستباقهما الباب حتّى سمع مجاذبتها إياه على الباب، فلمّا عصاها لم تزل مُولِعة[4] بزوجها حتى حبسه»[5].

قيل: كان للعزيز ثلاثة سجون: سجن العذاب، وسجن القتل، وسجن العافية، فأمّا سجن العذاب فهو محفور في الأرض وفيه الحيّات والعقارب، وهو مظلم لا يُعرَف فيه الليل من النهار، وأمّا سجن القتل فهو محفور في الأرض أربعين ذراعاً، وكان المَلِك إذا سَخِط على أحدٍ يُلقيه فيه على اُمّ رأسه فلا يصل إلى قَعْره إلّا وقد هلك، وأمّا سجن العافيه فإنّه كان على وجه الأض إلى جانب قصره، فإذا غَضِب على أحدٍ من حواشيه حبسه في ذلك السجن، فلمّا أرادت زليخا أن يُسْجَن يوسف أرسلت إلى سجّان سجن العافية، وأمرته أن يُصلِح فيه مكاناً متفرّداً ليوسف، ثمّ قالت ليوسف: لقد أعييتني، وانقطعت فيك حيلتي، فلأسلّمنّك إلى المعذّبين يعذّبونك كما عذّبتني، ولألبسنك بعد الحُليّ

---

١. علل الشرائع: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١٨.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٢.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٤.
٤. ولع به: أُغري به، في تفسير القمي: ملحة.
٥. تفسير القمي ١: ٢٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.

والحُلل جُبَة صوف تأكُل جلدك، ولأقيّدنك بقَيدٍ من حديد يأكُل رجليك.

ثمّ نزعت ما كان عليه من اللباس، والبسته جُبَة صوفٍ، وقيّدته بقَيدٍ من حديد، فلمّا دنا من باب السجن نكّس رأسه، فلمّا دخل قال: بسم الله[١] ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وعبدان من عبيد الملك الأكبر: أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه.

قيل إنّ جماعةً من أهل مصر وعدوهما[٢] مالأكثيراً ليسمّا المَلِك في طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك، ثمّ أنّ الساقي نَكَل عن ذلك، ومضى عليه الخبّاز فسمّ الخُبز، فلمّا حضر الطعام قال الساقي: لا تأكُل أيّها الملك من الخبز فإنّه مسموم. وقال الخباز: لا تشرب أيّها الملك من الشراب فانّه مسموم، فقال المَلِك للساقي: اشربه فشَرِبه فلم يضُرّه، وقال للخباز: كُله فأبى، فجرّبه بدابّة فهلكت، فأمر المَلِك بحبسهما، فاتفق أن اُدخلا في السجن مع يوسف[٣].

فلمّا دخل يوسف في السجن جلس في ناحية منه، وأحاط به أهل السجن وهو يبكي، فأتاه جَبْرئيل فقال له عليه السلام: مِمّ بكاؤك وأنت اخترت السجن لنفسك؟ فقال: إنّما بُكائي لانّه ليس في السجن مكان طاهر [أصلي فيه] فقال له جَبْرئيل: صَلّ حيث شئت، فإنّ الله قد طهّر خارج السجن وداخله أربعين ذراعاً لأجلك، فكان يصلّي حيث أراد، وكان يصلّي ليلة الجمعة عند باب السجن، فطلبت زليخا السجّان، وقالت له: ارفع الغُلّ عن يوسف، وألبسه حُلل الحرير والاستبرق، وارفُق به غاية الرِّفق.

ثمّ أثّر في قلبها الفراق، واحترقت بنار الاشتياق، فجاءت ليلةً مع دايتها[٤] إلى السجنَ وطالعت جمال يوسف من بعيد: ثمّ كانت تنظُر إليه من رَوْزَنة[٥] القصر إلى السجن، وكان يوسف على عادته مشغولاً بالعبادة، ويسلّي أهل السجن، ويُحسِن إليهم بكلّ ما قَدَر، فقالوا، بارك الله عليك، ما أحسن وجهك! وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك. فمن أنت يا فتىً؟ فقال عليه السلام: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم. فقال له السجان: لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن اُحسن جوارك، فكُن في أيّ بيتٍ شئت[٦].

ورُوي أنّ الفتيين قالا له: إنّا لَنُحبّك من حين رأيناك. فقال: أنشدكما بالله أن لا تحبّاني، فو الله ما أحبّني أحد قطّ إلّا دخل من حبّه عليّ بلاءً، لقد أحبّتني عمّتي فدخل عليّ من حبّها بلاءً، ثمّ أحبّني

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٤.
٢. في تفسير أبي السعود و روح البيان: ضمنوا لهما.
٣. تفسير أبي السعود ٤: ٢٧٥، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.
٤. الداية: المرضعة الأجنبية، والحاضنة، والقابلة.
٥. الرَوزَنة: الكُوّة.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٥-٢٥٨.

أبي فدخل عليّ من حبّه بلاء، ثمّ أحبّتني امرأة صاحبي فدخل عليّ من حبّها بلاء، فلا تُحبّاني بارك الله فيكما[١].

وفي رواية عن الراضا عليه السلام، «قال: قال السجان ليوسف: [إني] لأحبّك. فقال يوسف: ما أصابني [بلاء] إلّا من الحبّ، إن كانت خالتي أحبّتني فهي سرقتني، وإن كان أبي أحبّني فقد حسدني إخوتي، وإن كانت امرأة العزيز أحبّتني فحبستني»[٢].

وعن القمي رحمه الله: إنّ يوسف شكا إلى الله في السجن، فقال: يا رب، بما استحققت السجن؟ فأوحى الله إليه: أنت اخترت السجن حين قلت: ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه، هلّا قلت: العافية أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «البكّاؤن خمسة» إلى أن قال: «وأمّا يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذّى به أهل السجن، فقالوا له: إمّا أن تبكي الليل وتسكُت بالنهار، وإمّا أن تبكي بالنهار وتسكُت بالليل، فصالحهم على واحدٍ منهما»[٤].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «ما بكى أحدٌ بكاء الثلاثة إلى أن قال: وأمّا يوسف فإنّه كان يبكي على أبيه يعقوب وهو في السجن، فتأذّى به أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكُت يوماً»[٥].

قيل: إن زليخا سالت من العزيز بعد أيام أن يُخرِج يوسف من السجن، فلم يفعل، فأنساهم الله أمر يوسف فلم يذكره حتّى مضى عليه خمس سنين، وبقي الفتيان اللذان دخلا معه السجن فيه خمس سنين، ثمّ رأيا الرؤيا قبل انقضاء المدّة بثلاثة أيام[٦].

ثمّ **﴿قَالَ﴾**: الساقي الذي هو **﴿أَحَدُهُمَا﴾**: وكان اسمه ابروها أو بوقا[٧] على ما قيل **﴿إِنِّي أَرَانِي﴾**: في المنام كأنّي في بُستان، فإذا أنا بأصل عِنَبهٍ[٨] حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها، وكأنّ كأس المَلِك بيدي، وإنّي **﴿أَعْصِرُ﴾** فيه العِنب الذي يكون مصيره **﴿خَمْراً﴾** وسقيت المَلِك فشربه[٩].

وقيل: إن أهل عُمان يسمّون العِنَب بالخمر، فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكّة فنطقوا بها[١٠].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٨.

٢ و٣. تفسير القمي ١: ٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.

٤. الخصال: ١٥/٢٧٣، تفسير الصافي ٢: ١٩.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٢/٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٩.

٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.

٧. في تفسير روح البيان: يونا.

٨. في تفسير روح البيان: حَبْلَة، وكلاهما بمعنى، فالحَبْلَة: الكَرم.

٩. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧، تفسير الرازي ١٨: ١٣٤.

١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤.

﴿وَقَالَ﴾: الخبّاز وهو ﴿ٱلْأَخَرُ﴾ منهما اسمه غالب أو مخلب على ما قيل[١]: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام كأنّي في مَطْبخ المَلِك، وأنا ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي﴾ ثلاث سلال مُلئن ﴿خُبْزاً﴾ وأرى أنّه ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

قيل: إنّ يوسف لمّا دخل السجن قال لأهله: إنّي أعبّر الرؤيا والمنامات[٢]. وعن الصادق عليه السلام: «لمّا أمر المَلِك بحبس يوسف في السجن ألهمه الله تعالى تأويل الرؤيا، فكان يُعبّر لأهل السجن رُؤياهم، وإنّ فتيين أدخلا معه في السجن يوم حبسه، فلمّا باتا أصبحا فقالا له، إنّا رأينا»[٣] الخبر.

قيل: إنّهما لم يريا شيئاً، وكذبا في ذلك[٤].

وقيل: إنّ الساقي كان صادقاً، والآخر كاذباً[٥].

وعن مجاهد: أنّهما كانا صادقين[٦]. ثم قالا ليوسف استعلاماً واختباراً: يا يوسف ﴿نَبِّئْنَا﴾ وأخبرنا بتعبير رؤيانا و ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ ولمّا رأياه أنه يأوّل رؤيا أهل السجن تأويلاً حسناً عللا سؤالهم التعبير عنه بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ ونشاهدك ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في تأويل الرؤيا. وقيل: يعني من المتخلّقين بالأخلاق الكريمة، والملتزمين بالأعمال الحسنة، ومن كان كذلك يهتمّ بإزالة الغمّ عن القلوب، بحسن التعبير[٧].

عن الصادق عليه السلام: «كان يوسّع المجلس، ويُقرِض[٨] للمحتاج، ويُعين الضعيف»[٩].

وعنه عليه السلام في رواية أُخرى: «كان يقوم على المريض، ويلتمس للمحتاج، ويوسّع على المحبوس»[١٠].

وقيل: كان يعامل مع أهل السجن بمكارم الأخلاق، ويحسن إليهم غاية الإحسان[١١]. وقيل: يعني من المحسنين في أمر الدين، والمواظبين على العبادات، ومن كان كذلك يوثق بقوله في التعبير[١٢].

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَـافِرُونَ *

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

٤. تفسير الرازي ١٨: ١٣٤، تفسير أبي السعود ٤: ٢٧٦.

٥. مجمع البيان ٥: ٣٥٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٥٧.

٦. مجمع البيان ٥: ٣٥٦.

٧. تفسير الرازي ١٨: ١٣٥.

٨. في الكافي وتفسير الصافي: يستقرض.

٩. الكافي ٢: ٣/٤٦٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠.

١١ و١٢. تفسير الرازي ١٨: ١٣٥.

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[٣٧ و ٣٨]

ثمّ أنه أراد دعوتهما إلى التوحيد الذي هو أولى بهما ممّا سألاه قبل إسعاف حاجتهما على ما هو وظيفة النبوه وطريقة الأنبياء، فبدأ باظهار معجزة دالة على صدقهِ في الدعوة، وهي الإخبار بالمغيبات[١]، حيث ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا﴾ من الخارج ﴿طَعَامٌ﴾ كان مأكولاً أو مشروباً ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ وتُطعمانه في مقامكما وقتاً من الأوقات ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وبجميع خصوصياته من جنسه ومقداره وكيفية طعمه ولونه وخواصه ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ويحضُر عندكما.قيل: إنّه كان يُخبرهما بما يؤتى إليهما في السجن ويصفه لهما قبل أن يأتيهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، وكم تأكُلان منه، فيجدان كما أخبرهما[٢].

وقيل: إنّما قال ذلك لاعلامهما بعدم اختصاص علمه بتعبير الرؤيا، بل هو عالم بالمغيبات[٣].

وقيل: إنّ المَلِك كان إذا أراد قتل أحد أدخل في طعامه السُّمّ وأرسله إليه، ولذا قال ذلك، وأراد من قوله: ﴿نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أخبرتكما بأنّه مسمومٌ أم لا. فتعجبوا من ذلك، وقالوا: من أين لك العلم الذي يكون للعرّاف والكَهَنة؟ قال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ الاخبار بالتأويل الذي من العلم بالمغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بطريق الإلهام والوحيِ، وليس من التكهّن والتنجيم[٤].

ثمّ بيّن علّة تفضّل الله عليه بهذه الفضيلة بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ ورفضت ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ودين جمع ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ولا يوحّدونه، بل يعبُدون الأصنام ويُشركون به ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء والجنّة والنار ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ ومنكرون ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ من بين الملل التي عليها الناس ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ الكرام، أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفيه تعريف نفسه بشرف النسب الموجب لازدياد الرغبة في قَبول قوله والاقتداء به.

ثمّ بالغ في إظهار بطلان الشرك والتبرئ منه بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يصحّ ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ﴾ المتفرّد بالألوهية ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء مَلِك أو جنّ أو إنس فضلاً عن الجماد الذي لا روح له ولا شعور ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِن فَضْلِ ٱللهِ﴾ ورحمته ﴿عَلَيْنَا﴾ حيث أوحاه إلينا لقوة نفوسنا، ووفور عقلنا، وكمال بصيرتنا ﴿وَعَلَى﴾ سائر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ببعثنا إليهم لهدايتهم إليه ﴿وَلَٰكِنَّ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٥٩.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٠.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٣٦.
٤. في النسخة: والتنجم.

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم الرسل ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه الرحمة العظيمة والفضل الجسيم، فلا يقدمون بقبوله والالتزام به، بل يُعرِضون عنه ويُشرِكون به الأصنام، ويعبُدون الأوثان.

يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ[٣٩]

ثمّ أخذ عليه السلام في الاستدلال على صحّة التوحيد وبطلان الشرك بعد مخاطبتهما بما يوجب تهييج المودة وجلب التوجّه بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ ومشاركي في الضِّيق والضَّنك، أو يا ملازمي السجن ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ وآلهة كثيرة ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ في أطراف العالم على ما تعتقدون، أو متفاوتون في الجنس كالذهب والفضّة والخشب والحجارة، وفي المقدار كالطول والعرض والقصر والصغر والكبر ﴿خَيْرٌ﴾ لنظام العالم وتربية الموجودات على الوجه الأتمّ ﴿أَمِ ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لجميع الأشياء بحيث يكون كلّ شيءٍ تحت قدرته، ولا يمنعه شيء عن إنفاذ إرادته، فمن البديهي أنّ الواحد القادر الذي يتمّ به النظام خيرٌ من الكثير العاجز الذي يختلّ به النظام.

وقيل: إنّ المراد أنّ الواحد القادر الذي لا يقهره شيء وهو يقهر كلّ شيء خيرٌ، أم الأصنام المتفرقة بالشكل، المصنوعة بيد الغير، المقهورة تحت قدرة الخلق[١]؟ أو المراد: أن الإله الواحد الذي نعلم أنّه المنعم علينا والمستحقّ لعبادتنا خير، أم الآلهة الكثيرة التي لا نعلم أيّها خالقنا ورازقنا والمنعم علينا حتى نعبُده.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ[٤٠]

ثمّ استدلّ ثانياً مخاطباً لهما، ولمن كان على دينهما بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ إذ تعبُدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه شيئاً ﴿إِلَّا أَسْماءً﴾ صِرفه لا مسمّيات لها، ولا واقعية لمعانيها، ولا وجود لمفاهيمها في الخارج، وإنما ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ وجعلتموها ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أسماءً لهذه الأجسام بمحض جهلكم وضلالكم، وكانت تسميتها بالآلهة وعبادتها من قبل أنفسكم ﴿مَّا أَنزَلَ ٱللهُ بِهَا﴾ شيئاً ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ وبرهان يوجب جوازها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ وما الأمر في جواز العبادة المتفرّعة على التسمية ﴿إِلَّا لِلهِ﴾ وحده لأنّه المستحقّ لها بالذات، لكونه الواجب الموجد لجميع الأشياء، المالك لأمرها.

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٤٠.

ثمَ كأنّه قيل: ماذا أمره في العبادة؟ فقال: ﴿أَمَرَ﴾ أيها الناس بتوسط الأنبياء ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ شيئاً ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وأن لا تضرّعوا ولا تخضعوا إلّا له ﴿ذٰلِكَ﴾ التوحيد والتخصيص للعبادة به، هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ والسنّة المرضية الثابتة من أول الخلق إلى آخر الأبد ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيتبعون بجهلهم هوى أنفسهم.

يَاصَاحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ[٤١]

ثمَ أنّه عليه السلام بعد دعوتهما إلى التوحيد وإقامة البرهان عليه، عبّر رؤياهما بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا﴾ الساقي الذي هو ﴿أَحَدُكُمَا﴾ فيتخلّص من السجن ﴿فَيَسْقِي﴾ عن قريب ﴿رَبَّهُ﴾ ومالكه الذي هو المَلِك ﴿خَمْراً﴾ كما كان يسقيه من قبل.

رُوي أنّه قال للساقي: ما أحسن ما رأيت! أمّا الكَرْمة فهو المَلِك، وأمّا حُسنها فهو حُسن حالك عنده، وأمّا الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي عليك في السجن، ثمّ يُرسِل إليك المَلِك عند انقضائها، فيرُدّك إلى عملك، فتصير كما كنت بل أحسن[١].

﴿وَأَمَّا﴾ الخبّاز الذي هو ﴿ٱلْآخَرُ﴾ منكما فيخرُج من السجن ﴿فَيُصْلَبُ﴾ ويبقى مصلوباً ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن﴾ مُخّ ﴿رَّأْسِهِ﴾.

رُوي أنّه قال للخبّاز: بئسما رأيت، أمّا خروجك من المطبخ فخروجك من عملك، وأما السلال الثلاث فثلاثة أيام تمرّ عليك، ثمّ يوجّه إليك المَلِك عند انقضائهنّ فيصلبك، فتأكل الطير من رأسك[٢].

عن القمي رحمه الله: ولم يكن رأى ذلك وكذب، فقال له يوسف: أنت يقتُلك المَلِك ويصلُبك وتأكُل الطير من دِماغك، فجحد الرجل، وقال: إني لم أر ذلك، فقال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ﴾ وأُتمّ وأُحكم ﴿ٱلْأَمْرُ﴾[٣] والتأويل ﴿ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وتسألان عنه، فكان كما عبّر يوسف حيث أخرج المَلِك صاحب الشراب فردّه إلى مكانه وخلع عليه وأحسن إليه لمّا تبيّن عنده حاله في الأمانة، وأخرج الخبّاز ونزع ثيابه وجلده بالسياط حتى مات لمّا ظهر عنده خيانته، وصلبه على قارعة الطريق، وأقبلت طيور سود فأكلت من رأسه، وهو أول من استعمل الصلب، ثمّ استعمله فِرعون موسى، أقول: بناءً على أنه لم يكُن هو، بل كان من أجداده.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٢.

٣. تفسير القمي ١: ٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ٢١.

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ[٤٢]

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وعلم بحصول مكانه له عند المَلِك، وقيل: إن المراد بمن ظنَّ هو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وسيدك، وقل له: غلام محبوس في السجن قد طال حبسه لعلّه يرحمني ويخلّصني منه[١]، فلمّا نجا الساقي وتقرّب إلى الملك اشتغل بجمع الأموال وانغمر في اللذائذ والحظوظ ﴿فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ بصرف قلبه إلى المهام الدنيوية ﴿ذِكْرَ﴾ يوسف عند ﴿رَبِّهِ﴾ وسيده، أو أنسى الشيطان يوسف ذكر ربّه وخالقه حتى توسّل بغيره في خلاصه ﴿فَلَبِثَ﴾ وأقام ﴿فِي ٱلسِّجْنِ﴾ عقوبة على توسّله بغير الله ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ وسبعة أعوام من يوم التوسّل.

عن الصادق عليه السلام: «لم يفرغ[٢] يوسف في حاله إلى الله فيدعوه، فلذلك قال الله: ﴿فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾»[٣].

وفي رواية قال: «سبع سنين»[٤].

قال: «فأوحى الله إلى يوسف في ساعته تلك: يا يوسف، من أراك الرؤيا التي رأيتها؟ فقال: أنت يا ربَي. قال: فمن حبّبك إلى أبيك؟ قال: أنت يا ربي. قال: فمن وجّه السيارة إليك؟ قال: أنت يا ربي. قال: فمن علمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعل لك من الجبّ فرجاً؟ قال: أنت يا ربي. قال: فمن جعل لك من كيد المرأة مخرجاً؟ قال: أنت يا ربي. قال: فمن أنطق لسان الصبي بعُذرك؟ قال: أنت يا ربي. قال: فمن صرف كيد امرأة العزيز والنسوة عنك؟ قال: أنت يا ربي قال: فمن ألهمك تأويل الرؤيا؟ قال: أنت يا ربي. قال: فكيف استعنت[٥] بغيرى ولم تستعن[٦] بي؟ وتسألني أن اُخرجك من السجن واستعنت[٧] وأمّلت عبداً من عبادي ليذكرك إلى مخلوقٍ من خلقي في قبضتي، ولم تفزَع إليّ، البَث في السجن بذنبك بضع سنين»[٨].

وفي رواية: «ذكر عند كلّ وحي[٩] فصاح ووضع خده على الأرض، ثمّ قال: أنت يا ربي»[١٠].

عن النبي صلى الله عليه وآله: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقُل اذكُرني عند ربك، لما لبث في السجن سبعاً بعد

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٣.
٢. في تفسير العياشي وتفسير الصافي: يفزع.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٤/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٥. في تفسير العياشي: استغثت.
٦. في تفسير العياشي: تستغث.
٧. في تفسير العياشي: واستغثت.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٠٩٧/٣٤٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
٩. في تفسير الصافي: وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام اقتصر على بعضها وزاد في كل مرّة.
١٠. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٣/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٢.

الخمس»[١].

قيل: لَبث يوسف في السجن اثنتي عشرة سنة عدد حروف اذكُرني عند ربك[٢].

وقيل: إن في هذا العدد كمال القوة والتاثير، ولذا كان الأئمة اثني عشر، والبروج اثني عشر، والملائكة الموكّلون بالبروج اثني عشر[٣].

أقول: ببالي أنه روي أنّ القائم يخرُج في أُولى القوة[٤]، قيل: ما أولو القوة؟ قال: اثني عشر ألفاً[٥].

وقيل: هو عدد لا إله إلّا الله، وعدد محمد رسول الله[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ يوسف قال: أسألك بحقّ آبائي [وأجدادي] عليك إلّا فرّجت عنّي، فأوحى الله إليه ما يكون[٧] أي حق لآبائك وأجدادك عليّ، إن كان أبوك آدم فانّي خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، وأسكنته جنّتي، وأمرته أن لا يقرب شجرة منها، فعصاني وسألني فتبت عليه. وإن كان أبوك نوح فإني انتجبته من بين خلقي، وجعلته رسولاً اليهم، فلمّا عَصَوا دعاني فاستجبت له وأغرقتهم وأنجيته ومن معه في الفُلك. وإن كان أبوك إبراهيم، فإنّي اتخذته خليلاً، وأنجيته من النار وجعلتها عليه برداً وسلاماً، وإن كان [أبوك] يعقوب فإنّي وهبت له اثني عشر ولداً، فغيّبت عنه واحداً، فما زال يبكي حتى ذهب بصره، وقعد في الطريق يشكوني إلى خلقي، فأي حقّ لآبائك [وأجدادك] عليّ.

قال: فقال له جَبْرئيل: قل يا يوسف أسألك بمنّك العظيم، وإحسانك[٨] القديم، فقالها فرأى المَلِك الرؤيا»[٩].

وعنه عليه السلام: «لمّا انقضت المدّة وأذن الله له في دعاء الفَرَج، وضع خدّه على الأرض، ثمّ قال: اللهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فانّي أتوجّه إليك بوجوه آبائي الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ففرج الله عنه»[١٠].

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [٤٣]

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.
٤. تفسير القمي ١: ٣٣٦، تفسير العياشي ٢: ٢٠٤٢/٣١٩.
٥. لم نعثر عليه.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٤.
٧. في تفسير القمي وتفسير الصافي: يا يوسف و.
٨. في تفسير القمي: وسلطانك.
٩. تفسير القمي ١: ٣٥٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢.
١٠. تفسير القمي ١: ٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد ما رأى رؤيا اضطرب منها قلبه وخاف من رؤيته غلبة الضعيف على القوي ذهاب مُلكه وسُلطانه، و أحضر العلماء والحكماء والكَهَنة والمعبّرين والسَّحَرة والمنجّمين اجتهاداً لتحصيل العلم بتعبيرها **﴿إِنِّي﴾** كنت **﴿أَرَىٰ﴾** البارحة ـ وهي ليلة الجمعة على ما قيل[١] ـ في المنام **﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾** خرجن عن النهر اليابس على قول ـ أو من البحر على آخر[٢] ـ ثمّ أرى سبع بقرات عِجاف مهازيل خرجن من المكان الذي خرجت السّمان، ثم رأيت أنّه **﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾** مهازيل ويبتلعهن بحيث لم تبق من البقرات السّمان شيء **﴿وَ﴾** أرى أيضاً **﴿سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾** رِطاب قد انعقدت حبّاتها، **﴿وَ﴾** سبع **﴿أُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾** فالتوت على الخضر حتى غلبن عليها على ما قيل[٣].

ثمّ أمر الحضّار بتعبير رؤياه وقال: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمَلأُ﴾** والجماعة الحاضرة من الأشراف **﴿أَفْتُونِي﴾** وأخبروني ممّا تتفرّسون وتعتقدون **﴿فِي﴾** تعبير **﴿رُؤيَايَ﴾** هذه **﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾** وعلى تأويلها تقدرون.

ثمّ لمّا أراد الله خلاص يوسف من السجن، وكانت الرؤيا من توجّه النفس وتصاعدها إلى عالم الملكوت والمثال بعد قلّة اشتغالها بتدبير البدن، فكلّما رأت شيئاً من المعاني الحقيقية في تلك العالم، فإما أن لا تتصرف القوة الخيالية فيه، فتقع عيناه في الخارج، ولا تحتاج إلى التعبير، وإما أن تتصرف فيه القوة الخيالية بتصوير المعاني العقلية بصور مناسبة لها، كتصوير العلم بصورة اللبن، والزوجة بصورة النعل، والمال بصورة القاذورات وأمثال ذلك، فهي محتاجة إلى التعبير، وهو الانتقال من الصور إلى ما يناسبها من المعاني، وكلّما تلقى النفس الشياطين حين صعودها فيرونها اُموراً باطلة مشوّشة مختلطة، أو تطالع الصور الخيالية المرتكزة في الخاطر، فهي الرؤيا الكاذبة، وتسمّى بالأضغاث والأحلام.

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّم فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذٰلِكَ

---

١ ـ ٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٥.

سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ[٤٤-٤٨]

ولمّا ذكر من تقدير خلاص يوسف، عجز الحكماء والعلماء والكهنة عن تعبير رؤيا المَلِك و ﴿قَالُوا﴾ أيها الملك رؤياك هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وتخاليط الرُّؤى وأباطيلها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ﴾ وتعبير أباطيل الرُّؤى التي هي من الشيطان أو من قوة الخيال ﴿بِعَالِمِينَ﴾ وإنّما الذي نعلم هو تعبير الرؤيا الصادقة الحاصلة من رؤية المعاني الحقيقية في عالم المَلَكُوت.

﴿وَ﴾ إذن ﴿قَالَ﴾ الساقي ﴿ٱلَّذِي﴾ كان أحد الفتيين و ﴿نَجَا مِنْهُمَا﴾ من السجن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ وتذكّر ما أوصاه به يوسف بعد تأويل رؤياه في السجن، أو حين خروجه منه ومفارقته يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وأوقات كثيرة من نجاته منه: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم أيها الملأ الحاضرون العاجزون عن تعبير رؤيا الملك ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وتعبيره.

قيل: إنّه لمّا رأى المَلِك متفكّراً، تذكّر حال يوسف وتأويله رؤياه في السجن، وما وصاه به، فجلس بين يدي المَلِك على ركبتيه، وخاطب الملك بقوله: أنا أنبئكم، وإنّما أتى في خطاب المَلِك بضمير الجمع للتعظيم، فان أردتم تعبير الرؤيا ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وابعثوني إلى السجن، فان فيه رجلاً حكيماً عارفاً بتعبير الرؤيا[١]، فأرسله المَلِك إلى يوسف، فلمّا جاءه واعتذر إليه من نسيانه قال: يا ﴿يُوسُفُ﴾ ثمّ عظّمه بقوله: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ المبالغ في الصدق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وأخبرنا برأيك ﴿فِي﴾ تأويل رؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ﴾ تأويل رؤيا ﴿سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وعلّمني تعبيره ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ﴾ من عندك ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وأهالي مصر وأخبرهم ما اوّلت وعبّرت ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تعبيرها بتعليمك، أو يعلمون مكانك وفضلك، وكان من صبر يوسف ومتانته أنّه لم يعلّق إسعاف حاجته بإخراجه من السجن، بل ﴿قَالَ﴾ من غير رَيثٍ وتَوانٍ قل لهم، أيها النّاس ﴿تَزْرَعُونَ﴾ في الأرض من الغَلّات والحبوب ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾ حال كونكم ﴿دَأَباً﴾ ومستمرين على الزراعة بجدٍ واجتهادٍ، أو زراعة متوالية على عادتكم ﴿فَمَا حَصَدتُّم﴾ منها ﴿فَذَرُوهُ﴾ واترُكوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ ولا تدوسوه حتّى لا يفسُد ولا يقع فيه السُّوس ﴿إِلَّا﴾ قدراً ﴿قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ منه في تلك السنة، هذا تعبير سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ السبع سنين الرُّخص ﴿سَبْعٌ﴾ أُخر من السنين ﴿شِدَادٌ﴾ وصِعاب على الناس لأجل الجَدب والجُوع والغَلاء بحيث أنّ تلك السنين الشداد ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ وادّخرتم ﴿لَهُنَّ﴾ من الحبوب والغَلّات المتروكة في سنابلها ﴿إِلَّا﴾ مقداراً ﴿قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وتحرزون للبَذْر،

---
١. تفسير روح البيان ٤: ٢٦٨.

وهذه السبع الشداد تأويل سبع بقرات عِجاف وسبع سُنبلات يابسات، وإنّما أسند الأكل إلى السنين مع أنه فعل أهل السنين للتطبيق بين المُعبَر والمُعبَّر به.

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[٤٩]

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من السنين الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ ويُمطَرون أو يُنقَذون من الشدّة ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما من شأنه أن يُعصَر ويُؤخذ ماؤه ودُهنه كالعنب والرُّمان والزيتون وأمثال ذلك، وهذا التعبير كناية عن وفور النِّعم، لأنه إذا كان الناس في ضيقٍ من المأكول يأكُلون جميع ذلك ولا يَعصِرون شيئاً ليفسد ما سوى مائه.

وقيل: يعني يَحلِبون الضُّروع[١].

وقيل: أي ينجون[٢] من الشدّة، أو يُمطَرون[٣]، وهذان المعنيان على قراءة ﴿يُعْصَرُونَ﴾ مبنياً للمفعول، كما نسبها العياشي إلى الصادق عليه السلام[٤].

ورُوي عنه عليه السلام أنه قال «أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾»[٥].

والقمي رحمه الله عنه عليه السلام: «قرأ رجل على أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يُعْصَرُونَ﴾ ـ يعني على البناء للفاعل ـ فقال: ويحك وأيّ شيء ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يَعصِرون الخمر؟ قال الرجل: يا أمير المؤمنين، كيف أقرؤها؟ فقال: إنما أنزلت ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يُعْصَرُونَ﴾ أي يُمْطَرون بعد [سنين] المجاعة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾»[٦].

وإنّما كرّر سبحانه لفظ ﴿فِيهِ﴾ إمّا للاشعار بكون الإغاثة والعصر متغايرين، أحدهما فعل الله، والآخر فعل الناس، وإما لأنّ المقام مقام تعداد منافع ذلك العام، ولذا قدّم في الموضعين.

ويحتمل أن يكون التقديم لبيان الحصر، كأنه فرض أن الإغاثة والعصر في سائر السنوات بالنسبة إلى تلك السنة كالمعدوم، أو لمراعاة الفواصل.

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥١، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٦.
٢. جوامع الجامع: ٢١٨، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٦، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٣.
٣. جوامع الجامع: ٢١٨، تفسير الرازي ١٨: ١٥١، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٣.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٩/٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤.
٥. تفسير الصافي ٣: ٢٥، والآية من سورة النبأ: ١٤/٧٨.
٦. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٥.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ[٥٠]

ثمّ رجع الرسول إلى المَلِك، وحكى له التعبير الذي بيّنه يوسف للرسول في ضمن الدستور الذي أمر به، فلمّا سَمِع المَلِك التعبير سكن قلبه وفرح ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لخدمه بعد اطّلاعه على فضيلة يوسف في العلم: ﴿ٱئْتُونِي بِهِ﴾ وأحضروه عندي لأسمع التعبير منه وأكرمه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ من جانب المَلِك ليُخرِجه من السجن ويذهب به إلى الملك أبى يوسف من إجابته حتّى تظهر طهارة ذيله ممّا اتهموه، ومظلوميته في الحبس و ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَسْأَلْهُ﴾ أن يتفحّص من أنه ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في مجلس ضيافة زليخا بالسكاكين، وكيف كان حالهن وحالي؟ حتّى يتحقّق عنده واقع الأمر، وأنّي بريء من التُّهمة والخيانة، ثمّ استشهد بعلم الله بمكر النسوة واتهامهنّ له بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وهو الله وحده لا المَلِك ولا العزيز ولا غيرهما، بمكر النساء و ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ في حقّي واتهامهن إياي ﴿عَلِيمٌ﴾.

قيل: فيما قاله يوسف للرسول لطائف، منها أنه أمر الرسول أن يسأل المَلِك عن حال النسوة، ولم يقل قل له تفحّص عن ذلك، لئلّا يكون في كلامه أمر للمَلِك حتّى يلزَم خلاف الأدب[١]. ومنها: أنه لم يذكُر اسم زليخا تأدّباً، ومراعاةً لحقّها[٢]، واحترازاً من أن تبالغ في المكر به مع كونها قادرة على ما لم تقدر عليه غيرها. ومنها: أنه لم يشك من النسوة مع أنّهنّ على ما قيل دعينه إلى أنفسهن، وبالغن في ترغيبه إلى موافقة زليخا، بل قيل: إنّهن اتّهمنه بالفُحش عند المَلِك[٣].

روى بعض العامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لقد عَجِبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات السِّمان والعِجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترطت عليهم أن يُخرِجوني من السجن، ولقد عجبت [منه] حين أتاه الرسول فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الآية، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الاجابة وبادرتهم إلى الباب وما ابتغيت العُذر، إنّه كان حليماً ذا أناة»[٤].

قيل: إن هذا الكلام من الرسول على سبيل التواضع لا إظهار أنه كان مستعجلاً في الأمور غير متأنٍ فيها[٥]، وإنّما لم يُسرِع يوسف في الخروج ليزول عن قلب المَلِك ما كان متّهماً به ولا ينظُر إليه بعين

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥٢.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٧١.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٥٢.
٤. تفسير الرازي ١٨: ١٥١.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٢.

الصَّغار والذُّل[١].

عن العياشي عنهما عليهما السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لو كنت بمنزلة يوسف حين أرسل إليه المَلِك يسأله عن رؤياه ما حدّثته حتّى اشترط عليه أن يُخرِجني من السجن، وتعجبت[٢] لصبره عن شأن امرأة المَلِك حتّى أظهر الله عُذره»[٣].

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[٥١]

ثمَ قيل: إنه لمّا رجع الرسول إلى المَلِك وأخبره بالتماس يوسف، أمر باحضار النسوة[٤]. و ﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وأي شأن شأنكنَ ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ قيل: إنّ الخطاب في الواقع والظاهر للنسوة؛ لأنّ كلّ واحدةٍ منهنّ كنّ يدعين يوسف إلى نفسه أو كلّ يراودنّ[٥] يوسف ليهيجنه لإجابة زليخا[٦].

وقيل: إنّ الخطاب وإن كان في الظاهر إليهنّ إلّا أنه أريد به واحدة منهنّ[٧] وهي زليخا[٨]، وعلى أي تقدير ﴿قُلْنَ﴾ جميعهنّ في جواب المَلِك: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ وننزّهه عن العجز من خلق هذا البشر العفيف ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وذنب وخيانة، فلمّا شهدن[٩] كلّهن ببراءة يوسف وتنزّهه ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة في المجلس بعدما رأت رعايه يوسف حقّها بتركه ذكر اسمها مع النسوة مع أنّها كانت أكثر إساءة إليه، وأنّه لا ينفع الكِتمان: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ وانكشفت حقيقة الواقع ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ وطلبت منه القرب ﴿وَإِنَّهُ﴾ - في قوله: هي راودتني - والله ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ[٥٢]

قيل: إن المَلِك أرسل إلى يوسف بأن النسوة اعترفن بذنبهن وبراءتك، فاحضر حتى اُعاقبهن بحضورك بما تريد. قال يوسف للرسول في جواب الملك: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الالتماس الذي صدر منّي لم

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٢.
٢. في تفسير العياشي: وعجبت.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٠٦/٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٥.
٤. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.
٥. في النسخة: يراودون.
٦. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.
٧. في النسخة: منهم.
٨. تفسير الرازي ١٨: ١٥٣.
٩. في النسخة: شهدت.

يكن لأن أعاقب النسوة بما صدر منهن[١] بل ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز المُنعِم عليّ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في عِرضه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ وفي الخطأ منه، أو لم أخُن المَلِك، فإنّ الخيانة بالوزير خيانة بالمَلِك ﴿وَ﴾ ليعلم ﴿أَنَّ آللهَ لاَ يَهْدِي﴾ ولا يُنفِذ ﴿كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ﴾ ولا يجعله مؤثّراً في حصول المقصود، بل يُبطله كما أبطل مكائد زليخا حتّى أقرّت بأنّها خانت زوجها.

وقيل: إنه قال هذا الكلام في محضر المَلِك كما روي عن ابن عباس، وإنما ذكره على لفظة الغيبة تعظيماً للمَلِك عن الخطاب[٢].

وقيل: إنّ الآيه من تتمة كلام امرأة العزيز، والمعنى أنّي وإن بالغت في إثبات الذنب على يوسف في حضوره إلّا أنّ ذلك الاعتراف منّي بذنبي ليعلم يوسف أنّي لم أخنه ولم أقل في حقّه خلاف الحقّ وهو في السجن، ثمّ بالغت في تأكيد الحقّ بقولها: ﴿وَأَنَّ آللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ﴾[٣] ولذا افتضحت أنا لأنّي كنت خائنة، وإنه طهّر يوسف من الذنب وأخرجه من السجن، لأنّه كان بريئاً.

أقول: هذا في غاية البعد.

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٥٣]

ثمّ قال يوسف تواضعاً لله وهضماً للنفس وتحديثاً بانعام الله عليه بالتوفيق والعصمة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ولا أنزّهها عن السوء ولا أزكيها من الخطأ والذنب من حيث هي ومقتضى طبعها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ بجنسها وبذاتها والله ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وباعثه إلى القبايح والشهوات لميلها إليها والتذاذها بها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ من النفوس بعصمتها من الوقوع في الهلكات وارتكاب المنكرات، وهي نفوس الأنبياء والأولياء المعصومين، فانّها لا تميل إليها، ولا تأمر بها.

وقيل: إنّ كلمة ﴿مَا﴾ بمعنى الزمان، والمعنى إلّا زمان رحمة ربي[٤] وعصمته لها بتقويته القوة العاقلة وإعلامها بحقائق الأشياء والأعمال.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطع، والمعنى ولكن رحمة ربي تصرفها عن السوء[٥].

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ وستّار لخطايا النفوس ﴿رَّحِيمٌ﴾ لها بعصمتها من الزلل.

قيل: هذه الآية أيضاً بقية كلام زليخا[٦]، والمعنى وما أبرئ نفسي من الخيانة بزوجي والإساءة

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٣. ٢ و٣. تفسير الرازي ١٨: ١٥٤.
٤. جوامع الجامع: ٢١٩. ٥. تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٦. ٦. جوامع الجامع: ٢١٩.

بيوسف، والمقصود اعتذارها ممّا صدر منها، أو تأكيد تصديقها إياه.

ثمّ أنه روي أنّ جَبْرئيل أتى يوسف في السجن وقال: قل اللهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث احتسب ومن حيث لا احتسب[1]، فقبل الله دعاءه، فعظم يوسف في عين المَلِك علماً من حيث تعبيره الرؤيا، وصبراً وثباتاً من حيث عدم مبادرته إلى الخروج من السجن، وأدباً من حيث عدم أمره للمَلِك بالتفتيش للحقّ، ومراعاةً للحقوق من حيث عدم ذكره اسم زليخا مع علم المَلِك بأنّها أكثر النسوه إساءة إليه، وعفّةً من حيث ظهور براءته من التهمة مع وفور أسباب ارتكابه للزنا بمثل زليخا، ونسياً لذكر الساقي نسبةً له، فلذا اشتاق إلى لقائه غاية الاشتياق.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ[٥٤]

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لخدمه: اذهبوا إلى يوسف و ﴿ٱئْتُونِي بِهِ﴾ واحضروه لديّ ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ وأخصّه بقربي.

روي أنّ الرسول ـ وقيل: كان هو الساقي ـ قال ليوسف: قم إلى المَلِك متنظفاً من دَرَن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة[2].

وقيل: إنّ المَلِك أرسل سبعين حاجباً على سبعين مركباً، ومعهم تاج وثياب فاخرة إلى السجن، فلمّا أتوه وضعوا التاج على رأسه، وألبسوه الثياب النظيفة، ثمّ قالوا: أجب المَلِك. فقام وودّع أهل السجن ودعا لهم، وقال: اللهم اعطِف قلوب الصالحين عليهم، ولا تستُر الأخبار عنهم، فخرج من السجن وكتب على بابه: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثمّ اغتسل وتنظّف ولبس ثياباً جديدةً، وركب مركباً فارِهاً مُكلّلاً بالدُّر والجواهر، فلمّا قرُب من المَلِك استقبله وأكرمه غاية الإكرام[3].

رُوي أنّه لمّا دخل على المَلِك قال: اللهمّ إنّي سألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقوّتك من شرّه. ثمّ سلّم على المَلِك ودعا له بالعبرانية، وكان يوسف يتكلّم باثنين وسبعين لساناً، فلم يفهمها المَلِك فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثمّ كلّمه بالعربيّة فلم يفهمها المَلِك، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل، وكان المَلِك يتكلّم بسبعين لساناً، فكلّمه بها

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٥٨.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٥٩، تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧.

فأجابه بجميعها فتعجّب منه[١].

قيل: لمّا دخل على المَلِك كان ابن ثلاثين سنة، فلمّا رآه المَلِك شاباً قال للساقي: هذا الذي علم تأويل رؤياي مع أنّ السحرة والكهنة ماعلموها؟ قال: نعم. فأقبل على يوسف وقال: إنّي أحبّ أن أسمع التعبير منك ﴿فَلَمَّا﴾ أجابه و ﴿كَلَّمَهُ﴾ وعبّر عنده الرؤيا شفاهاً، وشَهِد قلبه بصحّة تعبيره ﴿قَالَ﴾ ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾[٢] وذو منزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ على كلّ شيءٍ في مملكتي بحيث لا تُتّهم.

قيل: لمّاعبّر يوسف رؤيا المَلِك بين يديه قال له المَلِك: فماترى أيّها الصديق؟ قال: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً، وتأخذ من الناس خُمس زروعهم، وتذر الجميع في سُنبله، وتبني الخزائن، وتجمع فيها الطعام، فإذا جاءت السنين المُجدبة تبيع الغَلّات لأهل مصر، وتَحْفَظهم من المَخْمَصة، ويَحصُل لك مالٌ عظيم. فقال المَلِك: من لي لهذا الشُّغل[٣].

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ[٥٥]

﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وتلك المملكة، وولّني أمرها من الايراد والحفظ والصرف، وإنّما طلب الولاية لكونها وسيلة إلى هداية الناس، ونفوذ قوله، وقبول دعوته إلى الحقّ، ونشر الأحكام الالهية، ووضع الحقوق مواضعها، وبسط العدل، وإعانة الخَلق وحفظهم من التلف في السنين المُجدبة شفقةً عليهم.

عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية، أنه قال: «رَحِم الله أخي يوسف، لو لم يَقُل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، لكنّه لمّا قال ذلك أخّره عنه سنة»[٤].

ثمّ وصف نفسه بما يوجب أهليته لذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لخزائنك من التلف والضّياع والصرف في غير المصرف ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيها.

عن الرضا عليه السلام: «حفيظ لما تحت يدي، عليم بكلّ لسان»[٥].

جواز تزكية المرء نفسه عند الاضطرار

عن الصادق عليه السلام: «يجوز أن يزكّي الرجل نفسه إذا اضطرّ إليه، أما سمعت قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقول العبد الصالح:

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٧. ٢. تفسير الرازي ١٨: ١٥٩.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٦٠، تفسير روح البيان ٤: ٢٧٨. ٤. تفسير الرازي ١٨: ١٦٠.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢١١٢/٣٤٨، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧.

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾»[1].

عن ابن عباس: لمّا انصرمت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة، دعاه المَلِك فتوّجه وختمه بخاتمه، وردّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مُكلّلاً بالدُّر والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً، فقال يوسف: أمّا السرير فأشُدّ به مُلكك، وأمّا الخاتم فأُدَبّر به أمرك، وأمّا التاج فليس من لباسي ولباس آبائي، فقال المَلِك: فقد وضعته إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك. فجلس عليه وأتت له الملوك[2].

ورُوي أنّ المَلِك لمّا عيّن يوسف لأمر الخزائن توفّى قطفير عزيز مصر في تلك الليالي[3].

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ[٥٦]

ثمّ لمّا كانت رفعة مكان يوسف مستندة في الظاهر إلى الملك، نبّه الله على أنها كانت بقدرته وإنعامه عليه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التمكين العظيم، ومثل هذا الإنعام الجسيم الذي على يوسف من تقريبنا إياه من الملك، وتحبيبنا إياه في قلبه ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وأقدرناه على إنفاذ ما أراد ﴿فِي﴾ تلك ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ والمملكة، وهي أربعين فرسخاً في أربعين على ما قيل[4]، فهو ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ وينزل من بلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وأيّ مكان يريد، لا يدافعه مدافع[5]، ولا ينازعه منازع، رحمةً منّا عليه، وجزاءً منّا على صبره على البلاء وتسليمه للقضاء وقيامه بوظائف العبودية، فإنّا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ وفضلنا ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ أن نرحمه ونتفضّل عليه على حسب استعداده وقابليته وعمله ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾ ولا نبطل ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وجزاءهم على إحسانهم من الصبر والقيام بوظائف العبودية.

وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[٥٧]

ثمّ بيّن سبحانه أفضلية الأجر الأُخروي على الدنيوي بقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ والثواب الذي نعطيهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل بمراتب من أجر الدنيا وثوابه فيها، ولكن إنما يكون أجر الآخرة ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَحْدانيته ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ السيئات والقبائح، وهم الأنبياء وأتباعهم.

قيل: إنّ يوسف أمر أهل كلّ قريةٍ وبلدةٍ بالاشتغال بالزّرع وترك غيره، فلم يَدعوا مكاناً إلّا زرعوه

---

1. تفسير العياشي ٢: ٢١١٣/٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧، والآية من سورة الأعراف: ٦٨/٧.
2. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.
3. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٩.
4. تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٧، تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.
5. في النسخة: دافع.

حتى بطون الأودية ورؤوس الجبال مدة سبع سنين، وهو يأمُرهم أن يَدَعُوه في سُنبله، وكان يأخُذ منهم الخُمس ويجعله في الأهراء[١]، وكذا ما زرعه السلطان وأعوانه وخَدَمه، ثمّ أقبلت السنون المجدبة، فحبس الله عنهم القطر من السماء، والنبات من الأرض حتى لم ينبُت لهم في جميع أراضي مصر حبّة واحدة[٢] من المأكولات.

قيل: إن زليخا بعد وفاة قطفير زوجها انقطعت عن كلّ شيء وسكنت خرابة سنين كثيرة، وكانت لها جواهر كثيرة [جمعت في زمان زوجها] فاذا سَمِعت من أحدٍ خبر يوسف أو اسمه، بذلت منها حباً له حتّى نَفَدت، وكانت تبكي شوقاً إلى يوسف.

ثمّ لمّا اشتدّ حالها لشدائد الخلوة في الخرابة اتخذت بيتاً من القَصَب على الطريق التي هي ممرّ يوسف، وكان يوسف يركب في بعض الأحيان وله فرس لا يصهِل إلّا وقت ركوبه، ويُسمَع صهيلُه على ميلين، فيعلم الناس بركوبه، فتقف زليخا على قارعة الطريق، فاذا مرّ بها يوسف تناديه بأعلى صوتها، فلا يسمع لكثرة اختلاط أصوات الناس، فأقبلت يوماً على صنمها الذي كانت تعبُده، وقالت له: تباً لك ولمن يسجُد لك، أما ترحم كِبري وعماي وفَقري وضَعفي، فأنا اليوم كافرة بك ومؤمنة بربّ يوسف، وصارت تذكُر الله صباحاً ومساءً.

فبعد ذلك رَكِب يوسف يوماً، فلمّا صَهَل فرسه اجتمع الناس للنظر إلى جماله واحتشامه، فخرجت زليخا من بيتها، فلمّا مرّ بها يوسف نادت بأعلى صوتها: سُبحان من جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً، فأمر الله الريح فألقت كلامها في مسامع يوسف، فأثّر فيه فبكى، ثمّ التفت فرآها، فقال لغلامه: اقضِ حاجة المرأة. فقال: ما حاجتك؟ قالت: إنّ حاجتي لا يقضيها إلّا يوسف. فذهب بها إلى دار يوسف.

فلمّا رجع يوسف إلى قصره نزع ثياب المُلك، ولبس مِدرعةً من الشعر، وجلس في بيت عبادته يذكُر الله تعالى، فذكر العجوز ودعا بالغلام وقال له: ما فعلت بالعجوز؟ فقال: إنّها زَعَمت أنّ حاجتها لا يقضيها غيرك. فقال: إئتني بها، فأحضرها فسلمت عليه وهي مُنكّسة الرأس، فرقّ لها، وردّ عليها السلام، وقال لها: يا عجوز، إنّي سَمِعت منك كلاماً فأعيديه. فقالت: إنّي قلت: سُبحان من جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً.

في تزويج يوسف بزليخا

فقال: نِعمَ ما قلت، فما حاجتك؟ قالت: يا يوسف، ما أسرع ما نسيتني! فقال: من

---

١. الأهراء: جمع هُري، وهو بيت كبير ضخم يُجمع فيه طعام السلطان.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.

أنت؟ ما لي بك معرفة. قالت: زليخا. فقال يوسف: لا إله إلّا الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، أنت بعد في الدنيا [يا] رأس الفتنة وأساس البلية! فقالت: يا يوسف، أبخلت عليّ بحياة الدنيا! فبكى يوسف وقال: ما صنع حُسنك وجمالك ومالك؟ قالت: ذهب به الذي أخرجك من السجن وأورثك هذا المُلك. فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: أو تفعل؟ قال: نعم وحقّ شيبة إبراهيم. فقالت: لي ثلاث حاجات: الأولى والثانية أن تسأل الله أن يرُدّ عليّ بصري وشبابي وجمالي، فانّي بكيتُ عليك حتّى ذهب بصري ونَحَل جسمي. فدعا لها يوسف فردّ الله عليها بصرها وشبابها وحسنها. قالت: والثالثة أن تتزوجني. فسكت يوسف وأطرق رأسه، فأتاه جَبْرئيل، وقال: يا يوسف، ربك يُقرئك السلام، ويقول لك: لا تبخل عليها بما طلبت، فتزوّج بها فانّها زوجتك في الدنيا والآخرة، فدعا مَلِك مصر وجميع الأشراف فعقد عليها لنفسه، ونزلت الملائكة عليه تهنّئه بزواجها، وقالوا: هنّأك الله بما أعطاك، فهذا ما وعدك ربّك وأنت في الجب. فقال يوسف: الحمد لله الذي أنعم عليّ وأحسن إلي وهو أرحم الراحمين.

ثمّ قال: إلهي وسيدي أسألك أن تُتِمّ هذه النعمة، وتريني وجه يعقوب، وتَقَرّ عينه بالنظر إليّ، وتسهّل لإخوتي طريقاً إلى الاجتماع بي، فانّك سميع الدعاء، وأنت على كلّ شيء قدير، وأرسل زليخا إلى بيت الخَلوة فاستقبلتها الجواري بأنواع الحُليّ والحُلل، فتزيّنت بها، فلمّا جنّ الليل دخل يوسف عليها، وقال لها: أليس هذا خيراً ممّا كنت تريدين؟ فقالت: أيّها الصدّيق، لا تلمني فإنّي كنت امرأةً حسناء ناعمة في مُلك ودنيا، وكان زوجي عنيناً لا يصل إلى النساء، وكنتَ كما جعلك الله في صورةٍ حسنةٍ، فغلبتني نفسي، فلما بني بها وجدها عذراء[1].

وعن الهادي عليه السلام: «لمّا مات العزيز في السنين الجَدِبة، افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت [الناس] فقالوا لها: لو قعدت للعزيز؟ وكان يوسف يسمّى العزيز. فقالت: أستحي منه، فلم يزالوا بها حتّى قعدت له [على الطريق]، فأقبل يوسف في موكبه، فقامت إليه وقالت: سُبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً، وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً. فقال يوسف لها: أنت تيك؟ فقالت: نعم. فقال لها: هل لك فيّ رغبة؟ قالت: دَعني بعدما كَبِرت أتهزأني! قال: لا، [قالت: نعم] فأمر بها فحُوّلت إلى منزله وكانت هَرِمه، فقال لها [يوسف]: ألَست فعلت [بي] كذا وكذا؟ فقالت: إني بُليت بثلاثة لم يُبلَ بها أحدٌ. قال: وما هي؟ قالت: بُليت بحُبّك ولم يخلُق الله لك في الدنيا نظيراً، وبُليت [بحسني] بأنّه لم تكن بمصر امرأة أجمل منّي ولا أكثر مالاً منّي، وبليت بزوج عنين. فقال لها يوسف: فما تريدين؟

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٧٩-٢٨٢.

فقال: تسأل الله أن يرُدّ عليّ شبابي. فسأل الله، فردّ عليها شبابها، فتزوّجها وهي بِكر»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «استأذنت زليخا على يوسف، فقيل لها: إنّا نكره أن نقدم بك عليه لما كان منك إليه قالت: إنّي لا أخاف ممن يخاف الله. فلمّا دخلت قال لها: يا زليخا، مالي أراك قد تغيّر لونك؟ قالت: الحمد الله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً. فقال لها: ما الذي دعاك إلى ما كان منك؟ قالت: حُسن وجهك. فقال: كيف لو رأيتِ نبياً يقال له محمد يكون في آخر الزمان أحسن منّي وجهاً، وأحسن منّي خَلقاً، واسمح [مني] كفّاً؟ قالت: صدقت. قال: وكيف علِمت أنّي صدقت؟ قالت: لأنّك حين ذكرته وقع حبّه في قلبي فأوحى‌الله عزّ وجلّ إلى يوسف أنّها قد صدقت، وأني قد أحببتها لحبّها محمّداً، فأمره الله عز وجل أن يتزوّجها»[٢].

قيل: فحملت من يوسف وولدت له ابنين في بطن واحد، أحدهما افرائيم، والآخر ميشا، وكانا كالشمس والقمر في الحُسن والبَهاء، وباهى الله بحُسنهما الملائكة في السماوات السبع، وأحبّ يوسف زليخا حباً شديداً، وتحوّل عشق زليخا وحبّها الأول إليه حتّى لم يبق له بدونها قرار، وحوّل الله تعالى عِشق زليخا وميلها إلى الطاعة والعبادة، وراودها يوسف يوماً ففرّت منه فتبعها وقدّ قميصها من دُبر، فقالت: إن قددتُ قميصك من قَبل، فقد قددت قميصي الآن، فهذا بذاكِ[٣].

ثمّ أقبلت السنون المُجدبة، فحبس الله عنهم قَطر السماء ونبات الأرض حتى لم ينبُت لهم حبة واحدةً، فاجتمع الناس إليه، وقالوا: يا يوسف، قد فنى ما في أموالنا من الطعام، فبعنا ممّا عندك، فأمر يوسف بفتح الأهراء[٤]، وباع من أهل مصر، ولا يبيع من أحدٍ أكثر من حِمل بعير، تقسيطاً على الناس، وكان لم يشبع مدة القَحط مخافة نسيان الجياع[٥].

عن الصادق عليه السلام: «لمّا صارت الأشياء ليوسف بن يعقوب، جعل الطعام في بيوت، وأمر بعض وكلائه ببيعه، وكان يقول: بع بكذا وكذا، والسعر قائم، فلمّا عَلِم أنّه يزيد في ذلك اليوم كَرِه أن يجري الغلاء على لسانه، فقال له: اذهب وبع، ولم يسمّ له سعراً، فذهب الوكيل غير بعيدٍ، ثمّ رجع إليه، فقال له: اذهب وبع، وكَرِه أن يجري الغلاء على لسانه، فذهب الوكيل فجاء أوّل مَن اكتال، فلمّا بلغ دون ما كان بالأمس بمكيال قال المشتري: حسبك إنّما أردت بكذا وكذا، فعَلِم الوكيل أنّه قد غلا بمكيال، وهكذا»[٦] الخبر.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٥٧.
٢. علل الشرائع: ١/٥٥.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٢.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٣.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٤.
٦. الكافي ٥: ١٦٣/٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧.

عن الرضا عليه السلام: «باعهم في السنة الأُولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق في مصر وما حولها دينار ولا درهم إلّا صار في مِلكيّة يوسف، وباعهم في السنة الثانية بالحُليّ والجواهر حتّى لم يبق بمصر وما حولها حُليّ ولا جواهر إلّا صار في مِلكيّة يوسف، وباعهم في السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابّة ولا ماشية إلّا صار في مِلكية يوسف. وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتّى لم يبق بمصر وما حولها عبدٌ ولا أمة إلّا صار في مِلكيّة يوسف، وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعَقار حتّى لم يبقَ بمصر وما حولها دار ولا عَقار إلّا صار في مِلكيّة يوسف، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلّاصار في مِلكيّة يوسف، و باعهم في السنة السابعة برقابهم حتّى لم يبقَ بمصر وما حولها عبد ولا حرّ إلّا صار عبد يوسف [فملك] أحرارهم وعبيدهم وأموالهم، وقال الناس: ما رأينا ولا سَمِعنا بمَلِك أعطاه الله من المُلك ما أعطى هذا المَلِك حُكماً [وعلماً] وتدبيراً»[١] الخبر.

أقول: إنّما صيّر الله أهل مملكة مصر عبيداً وإماءً له، لأنّهم في البدو نظروا إليه بعنوان العبودية، ثمّ قال يوسف للمَلِك: أيّها المَلِك، ماترى فيما خوّلني ربّي من مُلك مصر وأهلها، أشِر عليّ برأيك، فإنّي لم أُصلحهم لأفسدهم، ولم أُنجهم من البلاء ليكون وَبالاً عليهم. قال له المَلِك: الرأي رأيك. قال يوسف: إنّي أُشهدالله وأُشهدك أيّها الملك أنّي قد اعتقت أهل مصر كلّهم، ورددت إليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت إليك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلّا بسيرتي، ولا تحكم إلّا بحُكمي.

فقال المَلِك: أنا أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسوله، فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين[٢].

قيل: إنّه سرى القَحط إلى كنعان وبلاد الشام وضاق المعاش على يعقوب وأولاده، فقالوا لأبيهم: إنّا سَمعنا أنّ في مصر ملكاً يُعين الناس ويبيع الطعام من المحتاجين، فأذن لنا أن نذهب إليه ونشترى منه الطعام بالبضاعة التي عندنا، فأذِن لهم جميعاً إلّا بنيامين ليقوم بخدمته، فتجهّزوا للسفر، وأخذوا معهم أحد عشر بعيراً لكلٍّ منهم بعير، وبعير لبنيامين، وحملوا عليها البضاعة[٣]، قيل: كانت نِعالاً وأدماً[٤]. وقيل: دراهم[٥]. وقيل: مُقْلاً[٦].

---

١. مجمع البيان ٥: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٨.
٢. مجمع البيان ٥: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٨.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٥.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير البيضاوي ١: ٤٨٩، تفسير أبي السعود ٤: ٢٨٩.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير روح البيان ٤: ٢٨٨.
٦. تفسير الرازي ١٨: ٢٠١، تفسير البيضاوي ١: ٤٩٤، والمُقل: حَمل شجرة الدَّوم، وهي تشبه النخلة، وثمرتها في

وقيل: لمّا أجدبت بلاد الشام وغلت أسعارها، جمع يعقوب بنيه، وقال لهم: اذهبوا إلى مصر، واشتروا منها طعاماً من العزيز. قالوا: يا نبي الله، كيف يطيب قلبك بأن[١] تُرسِلنا إلى الفراعنة، وأنت تعلم عداوتهم لنا، ولا نأمن أن ينالنا منهم شرّ؟ فقال: بلغني أنّه ولي أهل مصر مَلِك عادلٌ، فاذهبوا إليه، وأقرئُوه منّي السلام، فانّه يقضي حاجتكم، ثمّ جهّز أولاده العشر، وأرسلهم إلى مصر، وكان بين مصر وكنعان ثماني ـ أو اثنى عشر ـ مراحل[٢].

وعن القمي: ثمانية عشر يوماً[٣]، وكان يوسف أوّل من صنع القرطاس، ومع ذلك أخفى الله أمر يوسف على يعقوب، ولم يأذن ليوسف أن يُخبره عن حاله إلى الأجل المعين.

القمي: كان الناس من الآفاق يخرُجون إلى مصر ليمتاروا[٤] طعاماً، وكان يعقوب وولده نزولاً في بادية فيها مُقل، فأخذ إخوة يوسف من ذلك المُقل، وحملوه إلى مصر ليمتاروا به، وكان يوسف يتولّى البيع بنفسه[٥].

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ[٥٨]

﴿وَجَاءَ﴾ إذن ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين في مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس حكومته على زينة واحتشام ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف في أول نظرةٍ لكمال فراسته، وترصّده لمجيئهم، وتقارب حال مفارقتهم وحال لقائهم، وتشابه هيئاتهم وزِيّهم في الحالين ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ غير عارفين به لبُعد عهدهم منه ـ عن ابن عباس: كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة[٦] ـ ولتباين حاله عند مفارقتهم له، لأنّه كان في سنّ الحَداثة وغاية الضَعف والحالة التي زاده عليها من الكِبر و السُّلطان.

عن الباقر عليه السلام: «لم يعرفه إخوته لهيبة المُلك وعزّه»[٧].

قيل: إنّهم رأوه على السرير، وعليه ثياب الحرير، وفي عُنقه طوقٌ من ذهب، وعلى رأسه تاجٌ من ذهب[٨].

رُوي أنّهم كلّموه بالعبرانية، فقال لهم: من أنتم، وما شأنكم؟ قالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رُعاة، أصابنا الجَهد فجئنا للميرة فقال: لعلكم جئتهم عيوناً تنظُرون إلى عورة بلادي؟ قالوا: مَعاذ الله نحن إخوةٌ بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق نبي اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنّا اثني عشر، فهلك منّا

← غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر، وله نواة ضخمة ذات لبّ اسفنجي، يكثر في صعيد مصر وفي بعض بلاد العرب.

١. في النسخة: فان، ولم ترد في المصدر.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٥.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩.
٤. زاد في النسخة: به.
٥. تفسير القمي ١: ٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١١٥/٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩.
٨. تفسير الرازي ١٨: ١٦٦.

واحد. قال: كم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الآخر الحادي عشر؟ قالوا: عند أبيه يتسلّى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنّكم لستم بعيون، وأنّ الذي تقولون حقّ؟ قالوا: نحن أهل بلادٍ بعيدةٍ لا يعرفنا هنا أحد، فأمر أن يُعطى كلّ واحدٍ منهم حِمْل بعير من الحِنطة[١].

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ[٥٩]

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وبذل لهم كلّ ما يحتاجون إليه من الزاد ومؤنة السفر ﴿قَالَ﴾: دعوا بعضكم عندي رهينة ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِنْ أَبِيكُمْ﴾ ومعه رسالة من أبيكم على صدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون، فخلّفوه عنده، ثمّ حثّهم على إتيانه بقوله: ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي﴾ وأتِمّ لكم ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ ولا أنقِص شيئاً من حقّ أحدٍ ﴿وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ﴾ وأكرم المضيفين.

قيل: إنّه لمّا أعطى كلّ واحدٍ حِمْل بعير سألوا حِملاً آخر لبنيامين، فسألهم عنه قالوا: هو أخونا من أبينا بقي عنده لخدمته. قال يوسف: أنا أُعطي على عدد الرؤوس لا عدد البعير، ثمّ أعطاهم حِمْلاً آخر وشرط عليهم أن يأتوا به[٢].

عن القمي ﷺ: قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله الذي ألقاه نمرود في النار فلم يحترق، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً. قال: فما فعل أبوكم؟ قالوا: شيخ ضعيف. قال: ألكم أخ غيركم؟ قالوا: لنا أخ من أبينا لا من اُمّنا. قال: فإذا رجعتم إليّ فأتوني به[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «قال لهم يوسف: قد بلغني أنّ لكم أخوين من أبيكم، فما فعلا؟ قالوا: أما الكبير منهما فانّ الذئب أكله، وأمّا الصغير فخلّفناه عند أبيه، وهو به ضنين، وعليه شفيق. قال: فإنّي اُحبّ أن تأتوني به معكم إذا جئتم تمتارون»[٤].

فَإِن لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَلاَ تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[٦٠ـ٦٢]

ثمّ هدّدهم على التخلّف بقوله: ﴿فَإِن لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ وخالفتم عهدكم ﴿فَلاَ كَيْلَ﴾ من الغلّة ﴿لَكُمْ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٦.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١١٥/٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٠.

عِنْدِي﴾ من بعد أصلاً فضلاً عن إيفائه ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ ولا تدخُلون عليّ، بل لا تدخُلون بلادي، وإنّما قال ذلك لعلمه بأنّهم مُضطرّون إلى المراجعة للامتيار، ولكونه مأموراً من الله أن يطلب أخيه، ليعظم أجر أبيه على فراقه.

﴿قَالُوا﴾ ليوسف: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونحتال في انتزاعه من يد أبيه، ونجتهد فيه ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرطين ولا متوانين في طاعة أمرك.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف بعد أخذ العهد من إخوته على إتيان بنيامين، سرّاً منهم ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ ومماليكه الموكلين على بيع الطعام وأخذ الأثمان: ﴿ٱجْعَلُوا﴾ ودسّوا ﴿بِضَاعَتَهُمْ﴾ ومتاعهم الذي أخذتموه منهم ثمناً للحنطة ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ وجواليقهم تفضّلاً عليهم، وإكراماً لهم، وحثّاً لهم على الرجوع، وإعانة لهم على مؤنته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يَطّلعون على مَكْرُمتهم و ﴿يَعْرِفُونَهَا﴾، ويراعون حقّها ﴿إِذَا ٱنْقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وأقاربهم، وفتحوا جواليقهم ورأوا ردّ أمتعتهم إليهم تفضّلاً وإحساناً ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لشكرهم ذلك الإنعام يجدّون في الوفاء بالعهد و ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلينا مع أخيهم بنيامين.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ [٦٣ و ٦٤]

فوضع الغِلمان بضاعتهم في أوعيتهم خِفية منهم، ثمّ أذن لهم يوسف بالرجوع إلى وطنهم وأهلهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَىٰ﴾ كنعان ودخلوا على ﴿أَبِيهِمْ﴾ يعقوب ﴿قَالُوا﴾ له قبل فتح الأوعية واطّلاعهم على ردّ البِضاعة: ﴿يَا أَبَانَا﴾ أُخِذ منا العهد على أن نذهب ببنيامين معنا إلى مصر، وإلّا ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وحُرمنا من الطعام فيما بعد، و [من] رجوع شمعون إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلى مصر ﴿أَخَانَا﴾ بنيامين إذن ﴿نَكْتَلْ﴾ ما نشاء من الطعام ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من كلّ آفة ـ ومكروه ـ وضامنون لسلامته وعوده إليك.

فامتنع يعقوب من إجابتهم ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ والحال أنه ليس تأمينكم على حِفظه وردّه ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ﴾ حِفظ ﴿أَخِيهِ﴾ يوسف وردّه إليّ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وما اعتمادي على قولكم في حفظه ورده إلّاكاعتمادي على قولكم في حِفظ يوسف في الزمان السابق، وقد قلتم في حقّه ما قلتم، وفعلتم ما فعلتم، فلا ينبغي الوثوق بعد ما رأيت منكم بقولكم وعهدكم في حِفظه، فإن أرسله معكم فلا اعتمد في حِفظه إلّا على الله.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ منّي ومنكم لحفظه لكونه تعالى ﴿حَافِظاً﴾ لكلّ شيء، فأتوكّل عليه، وأفوّض أمر حفظه إليه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ من أهل السماوات والأرضين بعباده، فيرحم شيبتي وضَعفي، فلا يرضى بأن يجمع عليّ مُصيبتين، وفيه إشعار برضاه في ذَهابهم به، لاحتياجه إلى الطعام، وإيناسه الخير والصلاح فيهم، وعدم شدّة الحسد والحِقد بينهم وبين بنيامين، كذا قيل عن كعب، لمّا قال يعقوب: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ قال الله تعالى: وعزّتي لأردّن عليك كليهما بعد ما توكّلت عليّ[1].

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[٦٥ و ٦٦]

ثمّ قيل: إنّ يعقوب قال لبنيه: يا بَنيّ، قدّموا أحمالكم لأدعو لكم فيها بالبركة، فقدّموها إليه[2] ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ وأبواب جَواليقهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي سلّموها إلى مَلِك مصر ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعت في رؤوس أجمالهم، فلمّا رأوا ذلك ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ولا نطلب بمدحنا مَلِك مصر في الكرم كذباً، أو لا نطلب منه إكراماً وتفضلاً فوق هذا الاكرام والتفضّل، أو لا نطلب منك مؤنة الرجوع ﴿هَذِهِ﴾ البضاعة التي ترى هي ﴿بِضَاعَتُنَا﴾ التي سلّمناها له عوض الطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

أو المعنى أي شيء نطلب بعد إيفائه الكيل لنا وردّ ثمنه إلينا بأحسن وجه، فاذا رجعنا إليه نأخُذ ما نُريد من الطعام ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ونأتيهم ما يكفيهم من الطعام ﴿وَنَحْفَظُ﴾ من كلّ مكروه ﴿أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على كيل أحمال أباعرنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ آخر بسبب حضوره عند الاكتيال، فإنّ ﴿ذٰلِكَ﴾ الذي تحمله أباعرنا ﴿كَيْلٌ﴾ وطعام ﴿يَسِيرٌ﴾ وقليل لا يكفي لحاجتنا، أو ذلك الذي يعطينا المَلِك من الزيادة يسير وسهل عليه، فانّه سخيّ كريم لا يضايقه منّ[3].

﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إلى مصر أبداً ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ وتُعطوني ﴿مَوْثِقاً﴾ وعهداً أكيداً منضماً بالحَلْف بالله ـ أو بمحمد خاتم الأنبياء[4] على قول ـ أو بالإشهاد[5] أو بالإذن[6] ﴿مِنَ اللهِ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٨٩، عن كعب.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩١.
٣. في النسخة: منّا.
٤. مجمع البيان ٥: ٣٧٩.
٥. تفسير الرازي ١٨: ١٧١.
٦. تفسير الرازي ١٨: ١٧٠.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ وتردّونه صحيحاً سالماً إليّ على أيّ حال ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ ويُغلَب عليكم بحيث لا تقدرون على حِفْظِه وإتيانه إليّ.

وقيل: يعني إلّا أن تهلِكوا جميعاً[١].

قيل: البلاء موكّل بالمنطق، فانّه عليه السلام قال في حقّ يوسف: أخاف أن يأكُله الذئب، فابتُلي بهذا القول، وقال هنا: إلّا أن يُحاط بكم، فابتُلي أيضاً بهذا القول، حيث إنّهم اُحيط بهم وغُلبوا عليه[٢].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ وعاهدوه عهداً مؤكّداً بالحَلْف على حِفظه وردّه سالماً إليه، حثّهم على الوفاء به بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ القادر القاهر ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من التعاهد ﴿وَكِيلٌ﴾ وشهيد، أو مراقب وكافٍ، يُثيب على الوفاء به، ويعاقب على الخُلف.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ ٱللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ[٦٧]

ثمّ أذن عليه السلام في أن يذهبوا ببنيامين معهم إلى مصر، فتهيّئوا للسفر، فلمّا أرادوا أن يَخرُجوا خاف يعقوب عليهم العين، لكونهم ذوي جمال فائق، وكمال رائق، وهيئة حسنة، وبني أبٍ واحد، ﴿وَ﴾ لذا ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ﴾ اُوصيكم بأنّه إذا وصلتم إلى مصر ﴿لاَ تَدْخُلُوا﴾ فيها ﴿مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ للمدينة على ما أنتم عليه من العدد والهيئة ﴿وَٱدْخُلُوا﴾ فيه متفرّقين ﴿مِنْ أَبْوَابٍ﴾ متعدّدة ﴿مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وطرق متشتته، ومسالك مختلفة، وإنّما وصّاهم في هذه الكرّة، لأنّهم صاروا في السفر الأول مشتهرين في المصر بالقرب عند المَلِك، وكانت تُرفَع إليهم الأبصار دون الكرّة الأولى، فانّهم كانوا حين الورود مجهولين مقهورين بين الناس غير متجمّلين تجمّلهم في الثانية، وإنّما كانت تلك الوصية بالنظر إلى حبّ الأبوة.

ثمّ التفت إلى أنّالتدبير لا يَرُدّ التقدير، وأنّ القضاء لا يُدفع بالحيل والأداء، فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِي﴾ ولا أنفعكم بتدبيري فيدفع إصابةالعين ﴿عَنكُم﴾ إذا كان ﴿مِنَ﴾ قضاء ﴿ٱللَّهِ﴾ يسيراً ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الضَرر.

القمي: رحمه الله: أعلن بتفويضه الأمر إلى الله بقوله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ وما القضاء في الأمور من النفع والضرّ والخير والشرّ لأحدٍ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده لا يُشاركه فيه أحد، ولا يمانعه عنه شيء، فإذا كان ذلك فإنّي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه فوّضت جميع اُموري التي منها حِفظ أولادي من الآفات في جميع

---

١. مجمع البيان ٥: ٣٧٩.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩١.

الأوقات ﴿وَعَلَيۡهِ﴾ تعالى ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ البتّه بتبع أنبيائهم.

ثمّ لمّا أنكر بعض تأثير العين، حملوا وصية يعقوب على أنّه لمّا علم اشتهارهم في المصر بالحُسن والكمال خاف عليهم أن يحسدهم الناس، ويسعوا عليهم عند المَلِك، أو خاف أن يخافهم المَلِك الأكبر على مُلكه فيحبسهم.

أقول: وإن كان هذا الوجه ممكناً ومحتملاً إلّا أن إنكار تأثير العين إنكارٌ لما هو ثابت بالشرع والتجربة، فقد روى بعض العامة عن النبي ﷺ: «العين تُدخِل الرجل في القَبر، والبعير في القِدر»[١].

ورُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن جَبرئيل أتى النبي ﷺ فرآه مغتماً فقال: يا محمد، ما هذا الغمّ الذي أراه في وجهك؟ فقال: الحسن والحسين أصابتهما عين. فقال: صدقت، فانّ العين حقّ»[٢]. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة من طرق العامة والخاصة التي لا مجال لانكارها.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ[٦٨]

﴿وَلَمَّا﴾ وصل أولاد يعقوب إلى مصر ﴿دَخَلُوا﴾ فيها ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ وبنحو [ما] وصّاهم والدهم من دخولهم من أبواب متفرّقة ﴿مَّا كَانَ﴾ رأي يعقوب وتدبيره في حِفظهم من الابتلاء ﴿يُغۡنِي﴾ وينفع ﴿عَنۡهُم مِّنَ﴾ قضاء ﴿ٱللَّهِ﴾ ومشيئته في حقّهم ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ يسير، ولا يرُدّه عنهم بوجه ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ قيل: إنّ الاستثناء منقطع، والمعنى: ولكن حاجة كانت ﴿فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ﴾ وهو إظهار خوفه من أن تصيبهم العين أو يحسدهم أهل مصر[٣]، وهو ﴿قَضَاهَا﴾ بتلك التوصية.

عن ابن عباس: «ذلك التفرّق ما كان يرُدّ قضاء الله، ولا أمراً قدّره الله[٤]. وفيه تصديق الله لما قال يعقوب: «ما أُغني عنكم من الله شيء» ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ﴾ بأن التدبير لا يدفع التقدير ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَاهُ﴾ ولاجل وحينا إليه.

وقيل: أي لذو حفظ ومراقبة لما علمناه، أو لذو علم بفوائد ما علمناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الجُهّال غير العارفين ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما علم يعقوب، أو أن يعقوب بهذه الصفة أو القضاء لا يرُدّ التدبير. وقيل: إنّ المراد أنّ المشركين لا يعلمون أنّ الله كيف أرشد أولياءه إلى العلوم النافعة لهم في

---

١. تفسير أبي السعود ٤: ٢٩٢، تفسير روح البيان ٤: ٢٩٣.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ١٨: ١٧٦.

الدنيا والآخرة[١].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦٩]

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مع بنيامين ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وهو جالس في قصره منقّبا على السرير، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن كنعانيون، الذين أمرتنا بأن نأتي بأخينا من أبينا فامتثلنا أمرك وأتينا به. قال: أحسنتم، وستجدون جزاءكم عندي فاجلسوا. فجلسوا على حاشية البساط، فأكرمهم وأمر باحضار الطعام، وقال: فليجلس كلّ أخوين من أب وأمّ على خوان من الطعام، فجلس كلّ منهم مع أخيه الأبويني على خوان واحد، وبقي بنيامين فرداً لا قرين له، فبكى حتى غُشي عليه، فأمر يوسف بأن يرشّوا الجُلّاب[٢] على وجهه حتّى أفاق، فقال له يوسف: يا شاب، ما كان سبب بكائك وغشيتك؟ قال: كان لي أخ من أمّي يقال له يوسف وفُقِد سنين متطاولة، فلمّا أمرت أن يجلّس كلّ أخوين من أبٍ وأمّ على خوانٍ واحدٍ ذكرته، وقلت في نفسي: لو كان معي أخ لأجلسني معه، فأخذتني العبرة وتغيّر حالي. قال يوسف: أترضى أن أكون أخاك آكل معك، فأمر أن يوضع خواناً في بيت آخر أو وراء الستر، فقام يوسف إليه، ودعا بنيامين و ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين وضمّه إلى نفسه في الطعام والمنزل والمبيت، وعيّن لكلّ اثنين من إخويه بيتاً ثمّ قال لبنيامين: هل تزوّجت؟ قال: نعم، ولي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك.

وقيل: إنّه قال: رُزِقت ثلاثة أولاد ذكور. قال: ما أسماؤهم؟ قال: اسم أحدهم ذنب. فقال يوسف: أنت ابن نبي، فكيف سمّيت ولدك بأسماء الوحوش؟ فقال: إنّ إخوتي لمّا زعموا أنّ أخي أكله الذئب سمّيت ابني ذئباً حتى إذا صِحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف. وقال: ما اسم الآخر؟ قال: دم. قال: لم سميّته بهذا الاسم؟ قال: إخوتي جاءوا بقميص أخي متضمّخاً بالدم، فسمّيته بذلك حتى إذا صِحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف. فقال: وما اسم الثالث؟ قال: يوسف، سمّيته به حتى إذا صِحت به ذكرت أخي، فبكى وبكى يوسف وقال في نفسه: يا الهي وسيدي، هذا أخي أراه بهذا الحزن، فكيف يكون حال الشيخ يعقوب، اللّهم اجمع بيني وبينه قبل فراق الدنيا. ثمّ قال: أتُحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٧٧.

٢. الجُلّاب: ماء الورد، فارسي معرب.

يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف[١].

وقيل: إنّ يوسف مدّ يده إلى الطعام وهو متنقّب، فلمّا نظر بنيامين إلى يد يوسف بكى، فقال يوسف: مما بكائك؟ قال: أيها المَلِك ما أشبه يدك بيد أخي يوسف، فلمّا سَمِع منه هذا الكلام لم يتمالك وألقى النقاب من وجهه، وقال: إنّي أنا أخوك[٢].

وقيل: إنّ بنيامين لما جلس على الخوان جعل يأكُل ويَغَصّ بأكله ويُطيل النظر إلى يوسف، فقال له يوسف: أراك تُطيل النظر إليّ؟ فقال: إنّ أخي الذي أكله الذئب يُشبهك. فقال يوسف: أنا أخوك[٣] ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإنّ الله أحسن إلينا وجمعنا بالخير، وأمره أن لا يُخبرهم، بل تُخفى الحال عنهم.

عن الصادق عليه السلام: «قد كان يوسف هيّأ لهم طعاماً، فلمّا دخلوا عليه قال: ليجلس كلّ بني أمّ على مائدة، فجلسوا وبقي بنيامين قائماً، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال له: إنّك قلت ليجلس كلّ بني أمّ على مائدة، وليس لي فيهم ابن أمّ فقال يوسف: أما كان لك ابن أمّ؟ قال له بنيامين: بلى. قال يوسف: فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله. قال: فما بلغ من حُزنك عليه؟ قال: ولد لي أحد عشر ابناً كلّهم شققت[٤] له أسماء من اسمه. فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء، وشممت والولد من بعده؟ قال له بنيامين: إنّ لي أباً صالحاً، وإنّه قال [لي] تزوّج لعلّ الله أن يُخرج منك ذُريّة تُثقِل الأرض بالتسبيح. فقال له [يوسف]: تعال فاجلس معي على مائدتي. فقال إخوة يوسف: لقد فضّل الله يوسف وأخاه علينا حتى إن المَلِك قد أجلسه معه على مائدته[٥].

وفي رواية: أنه حين أجلسه على المائدة، تركوا الأكل وقالوا: إنا نريد أمراً ويأبى الله [إلّا] أن يرفع ولد ياميل[٦] علينا[٧].

وعن القمي رحمه الله: فخرجوا وخرج معهم بنيامين، وكان لا يُؤاكلهم ولا يجالسهم ولا يكلّمهم، فلمّا وافوا مصر دخلوا على يوسف وسلّموا، فنظر يوسف إلى اخيه فعرفه، وجلس منهم بالبعيد، فقال يوسف: أنت أخوهم؟ قال: نعم. قال: فلم لا تجلس معهم؟ قال: لأنّهم أخرجوا أخي من اُمّي وأبي ثمّ رجعوا ولم يردّوه، وزعموا أنّ الذئب أكله، فآليت على نفسي أن لا اجتمع معهم على أمرٍ مادمت حياً. قال: فهل تزوّجت؟ قال: بلى. قال: فولد لك ولد؟ قال: بلى. قال: كم ولد لك؟ قال: ثلاثة بنين؟ قال:

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٧.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٧.
٤. في مجمع البيان: اشتققت.
٥. مجمع البيان ٥: ٣٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢.
٦. في تفسير العياشي: يامين.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١١٦/٣٥١، تفسير الصافي ٣: ٣٣.

فما سمّيتهم؟ قال: سمّيت واحداً منهم بالذئب، وواحداً القميص، وواحداً الدم. قال: وكيف اخترت هذه الأسماء؟ قال: لئلا أنسى أخي، كلّما دعوت واحداً منهم ذكرت أخي. قال لهم يوسف: اخرُجوا، وحبس بنيامين [عنده]، فلمّا خرجوا من عنده قال يوسف لأخيه: **﴿أنا أخوك﴾** [يوسف] **﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.

ثمّ قال له: أنا اُحبّ أن تكون عندي، فقال: لا يَدَعُوني إخوتي، فانّ أبي قد أخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن يَرُدّوني إليه. قال: أنا احتال بحيلةٍ، فلا تُنكر إذا رأيت شيئاً ولا تُخبرهم. فقال: لا[1].

وفي رواية عامية: أنّ بنيامين لمّا عرف أخاه أخذته الغشوة من الشوق والفرح، فلمّا أفاق عانقه وقاله له: لا اُفارقك، قد عَلِمت اعتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا أن أشهرك بأمرٍ فظيع. قال: لا اُبالي، فافعل مابدا لك. قال: أدُسّ صاعي في رَحْلك، ثمّ اُنادي عليك: بأنك سرقته ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ[٧٠]

ثمّ قال يوسف لإخوته: أتُحبّون سرعة الرجوع إلى أبيكم؟ قالوا: نعم، فأمر الكيّال بكيل الطعام، وقال له: زِدهم وِقْر[2] بعير، ثمّ جهّزهم بأحسن جهاز **﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾** وأكمل مؤنة سفرهم **﴿جَعَلَ﴾** بمباشرته أو بواسطة افرانيم أو بعض خواصه ومحارمه **﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾** والمَشْربه التي كانت من فِضّة، أو من بلور، أو من زُمُرّدة خضراء، أو ياقوتة حمراء تساوي مائتي ألف ديناراً، أو من ذهب مرصّعة بالجواهر، جعلت صواعاً وكيلاً يُكال به الطعام لعزّته، أو يُكال به طعام إخوته إكراماً لهم[3] **﴿فِي رَحْلِ أَخيهِ﴾** بنيامين ودسّها في حِمْله.

ثمّ أمر إخوته بالمسير، ثمّ لمّا انفصل الإخوة من مصر، طلب أصحاب يوسف السّقاية، فما وجدوها، وما كان أحدٌ هناك غير الذين ارتحلوا، فأخبروا يوسف، فأرسل من استوقفهم فوقفوا **﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾** ونادى منادٍ من قبل المَلِك اسمه افارائيم على ما قيل[4]: **﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾** وقافلة الكنعانيون **﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾**.

قيل: أراد يوسف من نسبة السرقة إليهم سرقتهم إياه من أبيه[5].

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣.
٢. الوِقر: الحِمل الثقيل.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٨.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٩.

كما روي أيضا عن الصادق عليه السلام قال: «ما سرقوا وما كذب يوسف، إنّما عنى سرقتم يوسف من أبيه»[١].

وفي رواية: «ألاترى [أنه] قال لهم حين قالوا: ماذا تَفقِدون. قالوا: نَفقِد صُواع المَلِك، ولم يقولوا: سَرَقتم صُواع المَلِك»[٢].

وعنه عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا كذب على مُصلِح، ثمّ تلا ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ثمّ قال: والله ما سرقوا وما كذب»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إرادة الاصلاح»[٤].

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُم كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ [٧١-٧٥]

وقيل: إنّ النداء كان من قبل الكيّالين على ظنّ سرقتهم[٥]، فلمّا سَمِعت الإخوة هذا النداء ﴿قَالُوا﴾ للذين جاءوا لطلب السّقاية ﴿وَ﴾ هم ﴿أَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ ازعاجاً من نسبتهم إلى السرقة مع كونهم في غاية الشرف: ما هذه النسبة و ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ وتَعْدَمون، وأي شيءٍ ضاع منكم؟ فلمّا رأى فتيان يوسف في وجوههم غضباً شديداً ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم ﴿نَفْقِدُ﴾ ونَعْدَم ﴿صُوَاعَ ٱلْـمَلِكِ﴾ وكيله الذي كِلنا به طعامكم.

عن الباقر عليه السلام: «الصاع[٦]: الطاس الذي يُشرب فيه»[٧].

ثمّ قال المؤذن تسكيناً لقلوبهم وإيهاماً لعدم اعتقادهم السرقة في حقّهم: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ﴾ قبل تفتيش الغِلمان له ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعْلاً[٨] له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وكفيلٌ بأن اُؤديه[٩] إليه من مالي لئلا يتهمني المَلك.

فأجابهم الإخوة و ﴿قَالُوا﴾ تعجباً من هذه النسبة إليهم مع ظهور الشرف والنجابة والصلاح منهم:

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٢/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤.
٣. الكافي ٢: ٢٢/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤.
٤. الكافي ٢: ١٧/٢٥٦.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٢٩٩.
٦. في تفسير العياشي: صواع الملك.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٣/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤.
٨. الجُعل: ما يُجعل على العمل من أجرٍ.
٩. في النسخة: كفيلٌ لأديه.

يا أيها الفتية ﴿تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ وتبيّن لكم من حالنا أنّا ﴿مَّا جِئْنَا﴾ من بلدنا إليكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وتلك البلدة بالسرقة ﴿وَمَا كُنَّا﴾ في مدّة عمرنا ﴿سَارِقِينَ﴾ فانّ العلم بالأحوال المشاهدة يستلزم العلم بالغائبة ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم ﴿فَمَا﴾ عقوبة السرق أو السارق وأيّ شيء ﴿جَزَاؤُهُ﴾ في شرعكم؟ ﴿إِن كُنتُم﴾ في جُحودكم السرقة وإنكار كون الصُّواع عندكم ﴿كَاذِبِينَ﴾ فلمّا كانوا مطمئنين ببراءة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ في شرع يعقوب عقوبة السارق أو السرق و ﴿جَزَاؤُهُ﴾ استرقاق ﴿مَن وُجِدَ﴾ الصُّواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ وأمتعته ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.

قيل: كان في شرع يعقوب أن يُسترَقّ السارق سنة[1].

ثمّ أكّدوا الحكم المذكور بعد بيانه بقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء ومثل تلك العقوبة ﴿نَجْزِي﴾ ونعاقب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالعصيان، وعلى غيرهم بسرقة ماله.

عن الصادق عليه السلام: «يعنون السُّنّة التي كانت تجري فيهم أن يحبسه»[2].

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ[٧٦]

ثمّ رُوي أنّ غِلمان يوسف قالوا للإخوة: أنيخوا حتى نفتّش رِحالكم، فأناخوا[3] ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتّش بأمر يوسف ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ وجواليقهم في التفتيش ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين دفعاً للتُّهمة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ قيل: فتّشوا رَحْل الأخ الأكبر، ثمّ الذي يليه، ثمّ وثمّ إلى أن بلغت النوبة إلى رَحْل بنيامين، فقال يوسف: ما أظُنّ أنّ هذا أخذ شيئاً. فقال فتيانه: والله ما نَتْرُكه حتّى ننظُر في رَحْله، فانّه أطيب لنفسك ولأنفسنا، ففتحوا مَتاع بنيامين، فرأوا الصُّواع فأخذوه وما معه من الصُّواع، وردّوه إلى مصر[4].

وأخذ إخوته يَشْتُمونه بالعبرانية وقالوا: يالعين[5]، ما حملك على سرقة صُواع المَلِك؟ ولا يزال يَنالُنا منك بلاءٌ كما لقينا من ابن راحيل. فقال بنيامين: بل ما لقي ابنا راحيل البلاء إلّا منكم، فأمّا يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم، وأمّا أنا فنسبتموني إلى السرقة. قالوا: فمن جعل الإناء في مَتاعك؟ قال: إن

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٠.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١١٦/٣٥١، تفسير الصافي ٣: ٣٥.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٠.

٤. في تفسير روح البيان: إلى يوسف.

٥. في تفسير روح البيان: وقالوا له: يا لصّ.

كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى وجعلتموها في رحالكم، فأنا جعلت الصُّواع في رَحلي. فقال روبيل: والله لقد صدق وأراد بنيامين أن يُخبِرهم بخبر يوسف، فذكر وصيته له فسكت[١].

ثمَ ذكر الله سبحانه لُطفه بيوسف ومنّته عليه بقوله: و ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكيد المعجب والتدبير البديع ﴿كِدْنَا﴾ ودبّرنا نفعاً ﴿لِيُوسُفَ﴾ وتحصيلاً لغرضه حيث ألهمناه أن يسألهم عن جزاء السارق في شرعهم ليُلزِمهم بما التزموا به، وإلّا فانّه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ﴾ ويسترقّ أو يحبِس ﴿أَخَاهُ﴾ بنيامين بالجزاء المقرّر ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ الأكبر وسُنّته، أو في حكمه وقضائه، لأنّ جزاء السارق في دينه هو ضربه وتغريمه ضعف ما سرق دون الاسترقاق والحبس ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك الكيد الذي علّمناه، أو يشاء تغيير دين المَلِك، أو أخذه بوجه آخر.

ثمَ مدح سبحانه رِفعة مقام يوسف في العلم بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة في العلم ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ رَفْعَه ونُعلي إلى مراتب عالية من نريد تعليته بالحِكمة حسب استعداد الخلق وقابليتهم، واقتضاء الحكمة والمصلحة، كما رفعنا درجة يوسف ومرتبته في العلم على درجة علم إخوته وغيرهم من أهل عصره ﴿وَفَوْقَ﴾ درجة ﴿كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾ ويكون من كلّ صاحب علم من هو أرفع منه في العلم إلى أن ينتهى إلى الله.

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[٧٧]

ثمَ أن الإخوة ﴿قَالُوا﴾ ليوسف تنزيهاً لساحتهم من صنع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هو فليس هذا العمل منه ببعيد ولا عجب ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ﴾ كان ﴿لَّهُ﴾ من اُمّه ﴿مِن قَبْلُ﴾ وكنّا نحن بُرئاء منهم. فسمع يوسف الكلمة الشنيعة ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ وأخفاها ﴿يُوسُفُ﴾ منهم ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ وقلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ ولم يُظهرها ﴿لَهُمْ﴾ بوجهٍ حِلماً وصَفحاً.

ثمَ ﴿قَالَ﴾ في نفسه: يا إخوتي ﴿أَنتُمْ شَرٌّ﴾ مني ﴿مَّكَاناً﴾ ومنزلةً حيث سرقتموني من أبي، وفعلتم بي ما فعلتم ﴿وَٱللَّهُ﴾ العالم بحقايق الأمور ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ومن كلّ أحدٍ ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتَنْسِبون إليّ.

قيل: كان جدّه لأمّه يعبُد الصَّنم، فقالت له اُمّه راحيل: خُذ صَنم أبي واكسِره لعلّه يترُك عبادته، فأخذه يوسف وكسره وألقاه بين الجيف في الطريق[٢].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٠.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠١.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «سرق يوسف صنماً لجدّه أبي أُمّه من فضّة وذهب فكسره وألقاه على الطريق».

وقيل: كانت لإبراهيم مِنْطَقة[١] يتوارثها أكابر ولده، فوَرِثها إسحاق، ثمّ وقعت إلى ابنته، وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمّته بعد وفاة [أمه] راحيل، وكانت تُحبّه حباً شديداً بحيث لا تصبِر عنه، فلمّا شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فاحتالت بأن شدّت المِنْطَقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو نائم، وقالت: فقدت مِنْطَقة إسحاق، فانظروا من أخذها. ففتّشوا فوجدوها مشدودةً على وسط يوسف تحت ثيابه، فقالت: إنّه سرقها منّي، فكان سلماً لي، وكان حُكمهم أنّ من سرق يُسْتَرَق، فتوسّلت بهذه الحيلة، إلى إمساكه عند نفسها، فتركه يعقوب عندها إلى أن ماتت[٢].

عن الرضا عليه السلام قال: «كانت لاسحاق النبي مِنطَقةٌ يتوارثها الأنبياء والأكابر، وكانت عند عمّة يوسف، وكان يوسف عندها، وكانت تُحِبه فبعث إليها أبوه: أن ابعثيه، إليّ وأردّه إليك، فبعثت إليه: أن دعهُ عندي الليلة أشمّه ثمّ أُرسله إليك غُدوة، فلمّا أصبحت أخذت المِنْطَقة فربطتها في حَقوه[٣] وألبسته قميصاً وبعثت به إليه، وقالت: سُرِقت المنطقة فوُجِدت عليه، وكان إذا سرق أحدٌ في ذلك الزمان دُفِع به إلى صاحب السرقة»[٤].

وفي رواية: «فقال لها يعقوب: فإنّه عبدك على أن لا تبيعيه ولا تهبيه، قالت: فأنا أقبله على أن لا تأخذه منّي وأُعتقه الساعة. فأعطاها إياه وأعتقته»[٥].

وقيل: إنّه كان يسرق من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء[٦].

وقيل: إنّه سرق عَناقاً[٧] من أبيه[٨]. وقيل: دَجاجة، ودفعه إلى مسكين[٩].

أقول: فساد هذين القولين واضح.

وقيل: إنّ الإخوة اتهموه وكذبوا عليه، وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب عليه[١٠].

وقيل: إنّ يوسف نسبهم إلى السرقة بقوله إنكم لسارقون، فكوفي بقولهم: سرق أخ له[١١].

ثمّ لمّا حَبَس يوسف بنيامين كلمه إخوته في إطلاقه، روي أنّه قال له روبيل: أيها الملك لتردَنّ إلينا

---

١. المِنْطَقة: ما يشدّ به الوسط. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠١.
٣. الحَقْو: الخَصر. ٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٢٥/٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥.
٥. الخرائج والجرائح ٢: ٥٣/٧٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦. ٦. تفسير الرازي ١٨: ١٨٤.
٧. العَناق: الأُنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول.
٨ و٩. تفسير الرازي ١٨: ١٨٤. ١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٨٤.
١١ و١٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٢.

أخانا، أو لأصيحنَ صيحةً تضع منها الحوامل في مصر، وقامت شعور جسده، فخرجت من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يُطاقون خلا أنّه إذا مسّ مَن غَضِب واحدٌ منهم سكن غَضَبه، فقال يوسف لابنه: قُم إلى جنبه فمسّه ـ وفي رواية، قال: خُذ بيده فمسّه ـ فسكن غضبه. فقال روبيل: إن هنا لبذراً من بذور يعقوب. فقال يوسف: من يعقوب[1].

قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ [٧٨]

روي أنّه غَضِب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله، وأخذ بتلابيبه، فوقع على الأرض، فقال: أنتم معشر العبرانيين تَظُنّون أن لا أحد أشدّ منكم، فلمّا رأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليص بنيامين خضعوا[2] ليوسف و ﴿قَالُوا﴾ استعطافاً ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ﴾ في كنعان ﴿أَباً﴾ يكون ﴿شَيْخاً كَبِيراً﴾ في السنّ، أو في القدر والدين بحيث يجب على كلّ أحدٍ رعاية حاله والترحّم عليه، فانّ له محبةً شديدةً وأُنساً تاماً بهذا الولد بعد هلاك أخيه من أُمه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا﴾ استعباداً ﴿مَكَانَهُ﴾ وعوضه ـ أو رهناً ـ حتى نأتيك بفداء لك ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا بالإكرام والمتفضلين علينا بايفاء كَيل[3] الطعام والبذل الكثير وردّ البضاعة فأتمِم إحسانك بردّ أخينا.

أو المراد ﴿نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى جميع أهل مملكتك باعتاقهم ورد أموالهم إليهم بعد استرقاقهم وتملّك أموالهم عوض الطعام، فكن محسناً إلينا أيضاً وإلى أبيه الضعيف بإعتاق ولده الذي لا يصبر على فراقه[4].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إن فعلت»[5].

قَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُم أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ ٱللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ * ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [٧٩ـ٨١]

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٢. ٣. في النسخة: الكيل. ٤. في النسخة: بفراقه.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢١١٥/٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ٣٦.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللهِ﴾ لا يمكن ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ بالعبودية أو بالحبس أحداً ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ وصُواعنا ﴿عِندَهُ﴾.

القمي: قال ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ولم يقل: إلا من سرق متاعنا[١]، لأنّ أخذه إنما كان بقضية شرعكم وفتواكم، فلو أخذنا البريء بدلاً عن المجرم ولو برضاه ﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ في حكمكم وشرعكم وليس لنا ذلك ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا﴾ من يُوسف وانقطع رجاءهم ﴿مِنْهُ﴾ بالكلية في تخليص بنيامين ﴿خَلَصُوا﴾ وانفردوا من غيرهم حال كونهم ﴿نَجِيّاً﴾ ومسرين في التشاور في تدبير رجوعهم إلى أبيهم واعتذارهم عنده من عدم ردّ بنيامين إليه مع كونهم مضطرّين إلى الرجوع لشدّة انتظارهم وكمال حاجة أهليهم إلى الطعام.

ولمّا رأى بعضهم رجوعهم بالاتفاق ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ - وهو روبيل، أو في الرياسة وهو شمعون، أو في العقل وهو يهودا[٢]، أو لاوي على قول القمي[٣] - إنكاراً عليهم الرجوع بالاتفاق: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ يا إخواني ولم تتيقّنوا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ أبىٰ أن يأذَن في أن يسافر بنيامين معكم إلى مصر حتى أن ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً﴾ وعهداً أكيداً بالحَلْف المأذون فيه ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ على أن تُرجِعوا إليه ابنه ولا تَغْدِروه ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ﴾ وقَصّرتم ﴿فِي﴾ العهد على إرجاع ﴿يُوسُفَ﴾ ولم تَغْنُوا به ولم تَحْفَظوه فيه.

عن ابن عباس: لمّا قال يوسف: معاذ الله أن نأخُذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده، غَضِب يهودا، وكان إذا غَضِب يقوم شعره على جسده[٤].

وفي رواية القمي: [وكانوا ولد يعقوب إذا غضبوا خرج من ثيابهم شعر و] يَقْطر من رؤوسهم[٥] دم أصفر[٦].

قال ابن عباس: وإذا صاح فلا تسمع صوته حامل إلّا وضعت، ولا يسكُن غضبه حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه. فقال لبعض إخوته: أكفوني[٧] أهل مصر، وأنا أكفيكم المَلِك. فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له: مَسّهُ فمسّهُ فذهب غضبه، وهمّ أن يصيح فركض[٨] يوسف عليه السلام رجله على الأرض، وأخذ بملابسه وجذبه فسقط، فعنده قال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ إلى آخره.

فلمّا أيسوا من قبول الشفاعة، تذاكروا وقالوا: إن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً عظيماً من الله، وأيضاً

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٣.
٣. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧. ٤. تفسير الرازي ١٨: ١٨٨.
٥. في النسخة: رؤوسها. ٦. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦.
٧. زاد في تفسير الرازي: اسواق. ٨. ركض: رفس.

نحن مُتهمون بواقعة يوسف، فكيف المَخْلَص من هذه الوَرْطة؟[١]. قال يهودا: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾ ولا أفارق أبداً هذه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ وتلك البلدة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها والرجوع إلى أبي على وجهٍ لا يؤدّي إلى نقض الميثاق، أو يجعل لي مخلصاً بسبب من الأسباب.

وقيل: يعني يقضي الله عليّ بالموت[٢] ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلّا بالعدل والحقّ ولا يجور ولا يداهن، يا إخوتي ﴿ٱرْجِعُوا﴾ أنتم ﴿إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ صُواع المَلِك بمصر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه عندك بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ورأينا من استخراج الصُّواع من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ وباطن الأمر وواقع الحال بـ﴿حَافِظِينَ﴾ فلعلّ أهل مصر رموه في وعائه ليتّهموه بالسرقة حسداً وعداوةً.

وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[٨٢]

وقيل: يعني ما كنا نعلم أنّ ابنك هذا يسرق، ولو علمنا ذلك منه ما ذهبنا به إلى مَلِك مصر، ولم نُحضِره معنا عند المَلِك، وما أعطيناك العهد على إرجاعه إليك[٣]، وإن لا تُصدّقنا فيما نقول لاتّهامنا عندك بالكَذِب وخُلف العهد، ففتّش عن القضية ﴿وَاسْأَلِ﴾ عنها ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وأهل البلدة التي وقعت القضية فيها ـ قيل: هي مصر[٤] وقيل: هي قرية قريبة من مصر، فانّه وقعت القضية فيها[٥] ـ ﴿وَ﴾ اسأل ﴿ٱلْعِيرَ﴾ والقافلة ﴿ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا﴾ وتوجّهنا إليك ﴿فِيهَا﴾ فانّهم كانوا معنا ذهاباً وإياباً، وفي الوقعة.

وقيل: يعني اسأل حيطان القرية وجُدرانها والأباعير التي كانت معنا حتى يُخبروك بها، فانّك من أكابر الأنبياء فيُنطِق الله لك الجمادات والحيوانات[٦].

وقيل: إنّ الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً يقال [فيه]: سل الجمادات[٧] وجميع الأشياء عنه[٨].

قيل: كان معهم قومٌ من كنعان من جيران يعقوب[٩].

ثمّ أكّدوا قولكم بالحَلف بالله، ﴿وَ﴾ قولوا[١٠] ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ فيما نخبرك به.

ثمّ لما اخذوا دستور كيفية إخبار يعقوب بالقضية، رجعوا إلى كنعان، ورجع يهودا إلى يوسف، فقال

---

١. تفسير الرازي ١٨: ١٨٨.
٢. مجمع البيان ٥: ٣٩١.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.
٤ -٥. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.
٧. في تفسير الرازي: سل السماء والأرض.
٨. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.
٩. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٤.
١٠. في النسخة: وقالوا.

له: لم رجعت؟ قال: إنّك اتّخذت أخي رهينةً، فخُذني معه، فجعله عند أخيه، وأحسن إليهما.

وعن الصادق عليه السلام قال: «فرجع إخوة يوسف إلى أبيهم، وتخلّف يهودا، فدخل على يوسف يكلّمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما حتى غضب يهودا، وكان على كتفه شعره إذا غضب قامت الشعرة، فلا تزال تقذِف بالدم حتّى يَمَسّه بعض ولد يعقوب، وكان بين يدي يوسف ابن له صغير في يده رُمّانه من ذهب يلعب بها، فلمّا رآه يوسف قد غَضِب وقامت الشعره تقذِف بالدم، أخذ الرمّانة من يد الصبيّ، ثمّ دحرجها نحو يهودا، وتَبِعها الصبيّ ليأخذها، فوقعت يده على يد يهودا فذهب غضبه، فارتاب يهودا، ورجع الصبيّ بالرُّمّانه إلى يوسف، ثمّ عاد يهودا إلى يوسف فكلّمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما، حتى غَضِب يهودا، وقامت الشعرة، فجلعت تقذِف بالدم، فلمّا رأى ذلك يوسف دحرج الرمّانة نحو يهودا، وتبعها الصبيّ ليأخذها، فوقعت يده على يد يهودا، فسكن غضبه، فقال يهودا: «إنّ في البيت معنا بعض ولد يعقوب، حتّى صنع ذلك ثلاث مرات»[1] الخبر.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِم جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَينَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيم[٨٣و ٨٤]

ثمّ إن الإخوة التسعة لمّا دخلوا على يعقوب وأخبروه بقضية بنيامين حسبما لقّنهم يهودا ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب على ما روى: هبوا أنّه سرق، ولكن كيف عرف المَلِك أنّ شرع بني إسرائيل أنّ من سرق يُسترق[2]؟ فماكنتم بريئين من التقصير في حقّه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ واحتالت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ عظيماً، وهو تهمة بنيامين بالسرقة مع أنّه بريء، أو إخراجه معكم إلى مصر بظنّ النفع فترتب عليه هذا الضرر، أو فتواكم عند المَلِك بأنّ جزاء السارق استرقاقه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا شكوى فيه إلى الخلق، تكليفي ووظيفتي.

قيل: لمّا أخبروا أبيهم بالواقعة بكى، وقال: يا بَنيّ لا تخرجون من عندي مرة إلّا ونقص بعضكم، ذهبتم مرة فنقص يوسف، وفي الثانية نقص شمعون، وفي هذه المرة نقص كبيركم روبيل ـ أو يهودا ـ وبنيامين، ثمّ بكى وقال: ﴿عَسَى ٱللهُ﴾ وأرجو منه ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِم جَمِيعاً﴾[3] لحسن ظنّي برحمته ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بشدّة حُزني وغاية ضَعْفي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعاله، لا يفعل بعبده إلّا ما هو عين

---

١. تفسير القمي ١: ٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٩٠.
٣. تفسير الرازي ١٨: ١٩١.

التفضّل والاحسان والصلاح ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ بوجهه كراهةً لما سَمِع منهم، وذهب إلى بيت الأحزان، وهاج حُزنه على يوسف لكون مُصيبته أصل مصائبه، ولأنّه كان يعلم بحياة غيره دونه، وكان يتسلّى برؤية بنيامين عن رُؤيته، لكونهما من اُمّ واحدة، وفي غاية المشابهة، فضاق قلبه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ﴾ ويا حزنا ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ تَعالَ فهذا أوانك. في الحديث: «لم تُعطَ اُمّة من الأمم إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ [عند المصيبة] إلّا اُمّة محمد ﷺ، ألاترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾»[1].

وعن القمي رحمه الله: إنّ يعقوب لم يعلم الاسترجاع، فمن هنا قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[2].

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل: ما بلغ من حُزن يعقوب على يوسف؟ قال: «حُزن سبعين ثكلى بأولادها»[3].

وروي أنّ يوسف قال لجَبْرئيل: أيها الروح الأمين، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم، وهب الله له الصبر الجميل، وابتلاه بالحُزن عليك، قال: فما قَدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى. قال: فما له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما أساء ظنّه بالله ساعة قطّ[4].

وعن الصادق عليه السلام في رواية ـ قيل له: كيف حُزن يعقوب على يوسف وقد أخبره جَبْرئيل أنه لم يَمُت، وأنّه سيرجع إليه؟ قال: «إنه نسي ذلك»[5] الخبر، فأكثر البكاء عليه ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ ومَحَقت سوادهما ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ رُوي أنّه ما جفّت عينا يعقوب من يوم فِراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين سنه[6] ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممسك عن النياحة وذكر ما لا ينبغي.

قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [٨٥و ٨٦]

وقيل: يعني مملوءاً من الغيظ على أولاده، ممسكاً له قلبه[7]، أو متجرّعاً غُصّته لا يُظهرها عند أحدٍ، ثمّ لامه أو سلّاه بعض ولده أو أقربائه و ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ﴾ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجّعاً عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً﴾ ومريضاً أو فاسد الجسم والعقل ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ هالكاً ﴿مِنَ ٱلْهَالِكِينَ﴾ من شدّة الحزن عليه ﴿قَالَ﴾ يعقوب لا أشكو حُزني عند أحد ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ وغمّي الذي لا يُطاق له ﴿وَحُزْنِي﴾ وهمّي الذي يُطاق له ﴿إِلَى ٱللهِ﴾ لأنّه لا أرجو كشف الغمّ الشديد، ولا تفريج الغمّ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٦.
٢ و٣. تفسير القمي ١: ٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ٣٨.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٣١/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٣٨.
٦. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠١.
٧. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٢، تفسير الصافي ٣: ٣٨.

الضعيف إلّا منه ﴿وَ﴾ أنا ﴿أَعْلَمُ مِنَ﴾ لطف ﴿اَللهِ﴾ ورحمته بعباده ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ولذا أرجو أن يرحمني ويكشف مابي من الغمّ والهمّ.

وقيل: يعني أعلم بالهام الله ما لا تعلمون من حياة يوسف ولقائي إياه[١].

قيل: إنّ الله أوحى إليه أنّه سيوصل إليه يوسف، ولكنّه تعالى ما عيّن الوقت[٢].

عن الصادق عليه السلام: «إنّ يعقوب عليه السلام لما ذهب منه بنيامين نادى: يا رب، أما ترحمني، أذهبت عيني، وأذهبت ابني. فأوحى الله تعالى: لو أمتهما لأحييتهما لك حتى أجمع بينك وبينهما ولكن تذكُر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلتها، وفلان وفلان إلى جانبك صائم لم تُعطهم منها شيئاً»[٣].

وروى أنّه عليه السلام رأى ملكاً[٤] في منامه، فسأله عن يوسف فقال: هو حي[٥].

وقيل: عَلِم من رؤيا يوسف أنّه لا يموت حتّى يَخِرّوا له سُجَداً[٦].

وعن السُّديّ: لما أخبره أولاده بسيرة مَلِك مصر أحسّت نفسه وقال: لعلّه يوسف[٧].

وعن الصادق عليه السلام: أنّ أعرابياً اشترى من يوسف طعاماً فقال له: إذا مررت بوادي كذا فنادِ: يا يعقوب فانّه يخرُج إليك شيخ، فقل له: إنّي رأيت بمصر رجلاً يُقرئك السلام ويقول: إنّ وديعتك عند الله محفوظة لن تضيع. فلمّا بلغه الأعرابي خرّ يعقوب مغشياً عليه، فلمّا أفاق قال: هل لك [من] حاجة؟ قال: لي ابنة عمّ ـ وهي زوجتي ـ لم تلد، فدعا له فرُزِق منها أربعة أبطُن في كلّ بطنٍ اثنين[٨].

وفي رواية: كان يعقوب يعلم أنّ يوسف حيّ لم يَمُت، وأنّ الله سيُظهره له بعد غيبته، وكان يُخبر بنيه، وكان أهله وأقرباؤه يُفَنّدونه على ذِكر يوسف[٩].

يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ[٨٧]

وقيل: إنّه عليه السلام لمّا عَلِم أنّ بنيامين لا يسرق، وسمع أنّ المَلِك ما آذاه وما أهانه، غلب على ظنّه أنّ المَلِك هو يوسف[١٠]، فرجع إلى أولاده باللُّطف، وتكلّم معهم باللّين والرحمة، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا﴾ إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وفتّشوا بأسماءكم وأبصاركم بعضاً ﴿مِن﴾ أخبار ﴿يُوسُفَ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.
٢. تفسير الرازي ١٨: ١٩٨.
٣. الكافي ٢: ٤/٤٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩.
٤. في تفسير أبي السعود وتفسير الصافي: ملك الموت.
٥. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.
٧. تفسير الرازي ١٨: ١٩٨، تفسير روح البيان ٤: ٣٠٩.
٨. الخرائج والجرائح ٢: ٩٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٩.
٩. إكمال الدين: ٩/١٤٢، تفسير الصافي ٣: ٣٩.
١٠. تفسير الرازي ١٨: ١٩٨.

﴿وَأَخِيهِ﴾ بنيامين، وإنّما لم يذكُر الثالث لكون إقامته بمصر اختيارية.

ثمّ رغّبهم في التفتيش بقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ ولا تقنَطوا ﴿مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ ورحمته وتفريجه وتنفيسه.

عن الباقر عليه السلام: أنّه سئل أنّ يعقوب حين قال لولده: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾ أكان يعلم أنّه حيّ وقد فارقه منذ عشرين سنة، وذهبت عيناه من الحُزن؟ قال: «نعم إنّه كان يعلم [أنه] حيّ».

قيل: وكيف عَلِم؟ قال: «إنّه دعا في السَّحر أن يهبِط عليه مَلِك الموت، فهبط عليه تريال[1] ـ وهو ملك الموت ـ فقال له تريال: ما حاجتك يا يعقوب؟ قال: أخبرني عن الأرواح تقبِضها مجتمعةً أو مُتفرقَةً؟ قال: بل مُتفرّقة روحاً. قال: فمَرّ بك رُوح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك عَلِم أنّه حيّ، فقال لولده: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾»[2].

ثمّ هدّدهم على اليأس بقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لجهلهم بسعة رحمته وكمال لطفه وبعباده، وأمّا المؤمنون فلمعرفتهم بكمال صفاته يرجونه في جميع الأحوال، وإن كانت معاصيهم أكثر من الرمل والحصا وعدد نجوم السماء، وما يرى وما لا يرى، فامتثل أولاد يعقوب أمره، وأرادوا الرجوع إلى مصر.

قيل: كتب يعقوب إلى يوسف:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من يعقوب إسرائيل الله ابن اسحاق [ذبيح الله] ابن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر.

أمّا بعد، فانّا أهل بيتٍ موكّلٌ بنا البلاء، أمّا جدّي إبراهيم فانّه ابتُلي بنار نمرود فصبر، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً [وأمّا أبي إسحاق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبحٍ عظيم]، وأمّا أنا فابتلاني الله بفقد وَلَدي يوسف، فبكيت عليه حتى ذهب بصري ونَحَل جسمي، وقد كنت أتسلّى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك وزعمت أنّه سارق، وإنّا أهل بيت لا نسرِق، ولا نلد سارقاً فان رددته عليّ وإلّا دعوت عليك دعوةً تُدرِك السابع من ولدك. والسلام[3].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ يعقوب كتب إلى يوسف.

بسم الله الرحمن الرحيم.

---

١. في تفسير العياشي: تربال، وكذا التي بعدها.

٢. تفسير القمي ١: ٣٥٠، تفسير العياشي ٢: ٢١٣٧/٣٦٠، الكافي ٨: ٢٣٨/١٩٩، علل الشرائع: ١/٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٩.

٣. تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٣، تفسير روح البيان ٤: ٣١٠.

إلى عزيز مصر، ومُظهِر العدل، ومُوفي الكَيل.

عن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صاحب نمرود، الذي جمع له النار ليُحرقه بها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وانجاه منها.

اُخبرك ـ أيها العزيز ـ أنّا أهل بيتٍ لم يزل البلاء [إلينا] سريعاً من الله ليبلونا عند السرّاء والضرّاء، وإن المصائب تتابعت عليّ منذ عشرين سنة، أوّلها أنّه كان لي ابن سمّيته يوسف، وكان سُروري من بين ولدي وقُرّة عيني وثمرة فؤادي و [أن] إخوته من غير اُمّه سألوني أن أبعثه معهم [يرتع ويلعب، فبعثته معهم] بُكرةً فجاؤني عشاءً يبكون، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب، وزعموا أنّ الذئب أكله، فاشتدّ لفقده حُزني وكثر على فراقه بكائي حتّى ابيضت عيناي من الحُزن، وإنّه كان له أخٌ، وكنت به معجباً، وكان لي أنيساً، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري فسكن بعض ما أجد في صدري، وإنّ إخوته ذكروا أنك سألتهم عنه، وأمرتهم أن يأتوك به، فان لم يأتوك به منعتهم المِيرة، فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً، فرجعوا إليّ وليس هو معهم، وذكروا أنّه سرق مِكيال المَلِك، ونحن أهل بيتٍ لا نسرِق، وقد حبسته عنّي، وفجعتني به، وقد اشتدّ لفراقه حُزني حتّى تقوّس لذلك ظهري، وعظمت به مصيبتي مع مصائب تتابعت عليّ، فمنّ عليّ بتخلية سبيله وإطلاقه من حبسك، وطيّب لنا القَمح، واسمح لنا في السعر، وأوفِ لنا الكَيل، وعجّل سَراح آل إبراهيم[١].

ثمّ أعطى الكتاب وُلده، وأعطاهم بضاعة من صوف وسَمن[٢]. وقيل: من الصَنوبر والحبة الخضراء[٣]. وقيل: من سويق المُقْل والأقط[٤]. وقيل: الدراهم الزيوف[٥].

وعن الرضا عليه السلام: «كانت المُقل، وكانت بلادهم بلاد المُقل»[٦].

فجاءوا إلى مصر، فلمّا وردوها رأوا أخاهم الذي تخلّف عنهم بمصر، فذهبوا معه إلى يوسف[٧].

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ[٨٨]

﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ**﴾ أعطوه كتاب يعقوب وخضعوا له و ﴿**قَالُوا يا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ**﴾ والملك القادر

---

١. مجمع البيان ٥: ٣٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤١.
٢ و٣. تفسير البيضاوي ١: ٤٩٤، تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٣.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٤٩٤، تفسير أبي السعود ٤: ٣٠٣، الأقِط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويُطبخ.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٤٩٤.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٤٠/٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٠.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٠.

القاهر ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وأصابتنا الشدّة من الجوع والضَعف والهُزال ﴿وَجِئْنَا﴾ إليك ﴿بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ وعوض غير قابل للقبول لغاية قلّته وحقارته و ﴿فَأَوْفِ﴾ وأكمِل مع ذلك بكرمك ﴿لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ من الطعام كما توفيه لغيرها بالأمتعة المرغوبة والدراهم الجياد ﴿وَتَصَدَّقْ﴾ ومُنّ ﴿عَلَيْنَا﴾ بقَبول ما عندنا من العِوض القليل والمَتاع الحقير باعطاء[1] الطعام الكثير، أو باطلاق أخينا بنيامين ـ عن الصادق عليه السلام: «وتصدق علينا بأخينا بنيامين»[2] ـ وهذا كتاب يعقوب أرسله إليك في أمره يسألك تخلية سبيله، فمُنّ به علينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي﴾ أحسن الجزاء، ويُثيب بفضله أعلى الثواب ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على المحتاجين، والمتفضّلين على السائلين.

قيل: إنّهم لم يقولوا: إنّ الله يجزيك لأنّهم لم يعلموا بأنّه مؤمن[3].

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ[٨٩]

ثمّ رُوي أنّه لمّا سَمِع من إخوته عرض الحاجة الشديدة، وإظهار غاية المسكنة، وتضرّعهم إليه وإلحاحهم لديه، اغرورقت عيناه، وسال دمعه، ولما قرأ كتاب أبيه ارتعدت فرائصه، واقشعر جلده، وكثر بكائه، وعِيل صبره، ولم يتمالك حتّى عرّفهم نفسه[4] و ﴿قَالَ﴾ لهم تصديقاً لما أوحى الله إليه حين ألقوه في الجُبّ من قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هٰذَا﴾[5] ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾ من القبائح والشنائع ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين وهل تنبّهتم بسوء ما أقدمتم عليه في حقّهما حين كانا مقهورين تحت أيديكم من ضربكم يوسف وإلقائه في الجُبّ، وإيذائكم أخيه، ونسبتكم إياه إلى السرقة، وشتمكم له ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بشدّة قُبحه لغروركم، أو بما يئول إليه أمر يوسف، وإنّما كان كلامه هذا شفقةً عليهم ونُصحاً لهم في الدين، وحثّاً لهم على التوبة، لا معاتبةً وتثريباً عليهم، إيثاراً لحقّ الله تعالى على حقّ نفسه.

قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ[٩٠ و ٩١]

---

١. في النسخة: واعطاء. ٢. مجمع البيان ٥: ٣٩٩، نسبه إلى القيل، تفسير الصافي ٣: ٤٠.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣١١. ٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٣.
٥. يوسف: ١٥/١٢.

ثمّ قيل: إنه عليه السلام رَفَع النّقاب عن وجهه، وألقى التاج من رأسه، فنظر إخوته إلى وجهه[١]، و ﴿قَالُوا﴾ تقريراً له واستعجاباً من مقامه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ﴾ أخونا ﴿يُوسُفُ قَالَ﴾ نعم ﴿أَنَا﴾ أخوكم ﴿يُوسُفُ﴾ الذي ظلمتموني بأعظم ظلم.

ثم بالغ في تعريف نفسه وتفخيم بنيامين بقوله: ﴿وَهَٰذَا﴾ الجالس عندي ﴿أَخِي﴾ من أبي وأمّي ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ وأنعم ﴿عَلَيْنَا﴾ بالسلامة، والعزّة بعد الذلّة، والاجتماع بعد الفُرقة.

عن ابن عباس: أي بكلّ عزّ في الدنيا والآخرة[٢].

ثمّ ذكر علّة منّة الله على نفسه وأخيه بقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾ الله، ويخافه في معاصيه ويَحْفَظ نفسه من ارتكاب ما يسخطه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على الطاعة، ويتحمل أذى الناس يُؤجر أجراً عظيماً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ ولا يُبطِل ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم المتقون الصابرون.

ثمّ أن الإخوة خضعوا له و ﴿قَالُوا﴾ اعتذاراً من تفريطهم في حقّه، وتواضعاً له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ وفضلّك ﴿عَلَيْنَا﴾ بالعلم والحِلم والعقل والفضل وحُسن الخَلق والخُلق والسعادة في الدارين ﴿وَإِن كُنَّا﴾ في الإساءة إليك ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ ومتعمّدين بالذنب، وفيه إشعارٌ بالتوبة والاستغفار.

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ[٩٢]

وعن الباقر عليه السلام: «قالوا فلا تفضحنا ولا تعاقبنا اليوم واغفر لنا»[٣]. ﴿قَالَ﴾ يوسف لهم كرماً وصَفحاً: يا إخوتي ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ ولا تقصير ولا توبيخ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيما فعلتم بي فضلاً عن العتاب والعقوبة.

وقيل: اليوم متعلّق بما بعد[٤] فالآية اليوم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ويستُر ذنوبكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾.

رُوي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بعِضادتي[٥] باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ما تروني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظُنّ خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم وقد قدرت. فقال: «أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾»[٦].

رُوي أنّه لمّا قرأ الكتاب ـ كتاب أبيه ـ بكى وكتب في جوابه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٢.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٤.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٣٨/٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤١.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦.
٥. عِضادتا الباب: خشبتان تكونان على جانبيه مثبتتان في الحائط.
٦. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٣١٣.

إلى يعقوب إسرائيل الله من مَلِك مصر.

أمّا بعد، أيّها الشيخ، فقد بلغني كتابك وقرأته وأحطت به علماً وذكرت فيه آباءك الصالحين، وذكرت أنهم أصحاب البلايا، فانّهم ابتُلوا وصبروا وظفروا، فاصبر كما صبروا، والسلام.

فلمّا قرأ يعقوب الكتاب قال: والله ما هذا كتاب الملوك، ولكنّه كتاب الأنبياء، ولعلّ صاحب الكتاب هو يوسف[1].

رُوي أنّ إخوة يوسف لمّا عرفوه أرسلوا إليه: أنّك تدعونا إلى طعامك بُكرة وعشياً، ونحن نستحي منك بتفريطنا فيك. فقال يوسف: إنّ أهل مصر ـ وإن ملكت فيهم ـ كانوا ينظُرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بِيَع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت بكم الآن، وعظمت في العيون، حيث علم الناس أنّكم إخوتي، وأنّي من حَفَدة إبراهيم[2].

ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذٰا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ[٩٣]

ثمّ قيل: إنه عليه السلام سأل إخوته عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه. فأعطاهم قميصه الذي علّق عليه يعقوب كالتّميمة[3] حين خروجه مع إخوته، وقال لهم: يا إخوتي ﴿ٱذْهَبُوا﴾[4] معكم ﴿بِقَمِيصِي هَذٰا﴾ إلى كنعان ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ واطرحوه ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ فان فعلتم ذلك يردَ الله إليه عينه ﴿يَأْتِ﴾ إلى حال كونه ﴿بَصِيراً﴾ وقيل: بصيراً، يعني يصير بصيراً[5].

رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أمّا قوله: ﴿ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذٰا﴾ فانّ نمرود الجبّار لمّا ألقى إبراهيم في النار، أنزل الله جَبْرئيل بقميصٍ من الجنّة، وطِنْفِسة[6] من الجنّة، فألبسه القميص، وأقعده على الطِّنْفِسة، وقعد معه يُحدّثه، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قَصَبة من فضة وعلّقها عليه مخافةً من إخوته، فألقي في الجُبّ والقميص في عُنقه، وكان فيه ريح الجنّة، ولا يقع على مُبتلى أو سقيم إلّا صحَ وعُوفي[7].

ثمّ هيّأ يوسف أسباب مسافرة أبيه وجميع أقاربه من كنعان إلى مصر ومُؤنتهم، فأعطاها إخوته، قال لهم: اذهبوا إلى كنعان ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ وأقاربكم ومن اتصل بكم من النساء والذراري والعبيد

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٢.

٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٣١٣.

٣. التَّميمة: ما يُعلق في العنق لدفع العين.

٤. تفسير روح البيان ٤: ٣١٤.

٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٦.

٦. الطِّنفِسة: البِساط، والنُمرُقة التي فوق الرحل.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٤.

والاماء ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لايشِذّ منهم أحد.

رُوى أن يهودا حمل القميص وقال: أنا أحزنت أبي بحمل القميص المُلطّخ بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، فحمله وهو حافٍ حاسرٌ من مصر إلى كنعان ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً[١].

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ[٩٤]

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ﴾ وجاورت ﴿ٱلْعِيرُ﴾ وقافلة الإخوان من حيطان بلد مصر وعمرانه، هاجت الريح، فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخاً.

قيل: إنّ ريح الصَّبا استأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذِن لها، فأتته بها، ولذا يستروح كلّ محزونٍ بريح الصَّبا، ويَشَمّها المكروب فيجد بها روحاً، فلمّا اتصلت بيعقوب وجد ريح الجنّة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلّا ما كان من ذلك القميص[٢]، فلذا ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حوله من الأهل والأقارب: ﴿إِنِّي﴾ والله ﴿ لَأَجِدُ﴾ وأشَمّ ﴿رِيحَ﴾ قميص ﴿يُوسُفَ﴾ ابني ﴿لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ وتَنْسُبوني إلى السَّفه أو الخطأ في الحواسّ بسبب الهَرَم، أو إلى الكَذِب في القول لصدّقتموني.

عن الصادق عليه السلام: «وجد يعقوب ريح قميص إبراهيم حين فَصَلت العِير من مصر وهو بفلسطين»[٣].

وعن العياشي مرفوعاً: «أنّ يعقوب وجد ريح قميص يوسف من مسيرة عشر ليالي، وكان يعقوب ببيت المقدس، ويوسف بمصر، وهو القميص الذي نزل على إبراهيم من الجنة» الخبر[٤].

وعنه عليه السلام: «كان قميص إبراهيم الذي نزل[٥] على إبراهيم من الجنّة في قَصَبةٍ من فِضّة[٦]، وكان إذا لُبِس كان واسعاً كبيراً، فلمّا فصلوا ويعقوب بالرَّملة ويوسف بمصر، قال يعقوب: إنّي لأجد ريح يوسف، يعني ريح الجنة»[٧] الخبر.

قيل: لمّا انقضت أيام المحنة، أوصل الله إليه ريح يوسف من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قُرب إحدى البلدتين من الأُخرى في مدّة ثمانين سنة، وذلك دليلٌ على أنّ كلّ سهلٍ في زمان المحنة صعبٌ، وكلّ صعبٍ في زمان الاقبال سهلٌ[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣١٥.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣١٦.
٣. مجمع البيان ٥: ٤٠٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٤٦/٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤٦.
٥. في المصدر: كان القميص الذي أُنزل به.
٦. زاد في المصدر: أو حديد.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٤٥/٣٦٥.
٨. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٨.

قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ[٩٥و ٩٦]

فلمّا سَمِع الحاضرون عنده هذا الكلام منه مع اعتقادهم موت يوسف ﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ﴾ يا يعقوب ﴿لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ وانحرافك عن الصواب الذي كنت عليه من زمان فقد يوسف باعتقادك حياته، وإفراطك في حبّه وذِكره ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ﴾ يهودا الذي هو ﴿الْبَشِيرُ﴾ ليعقوب بحياة يوسف وسلطنته، كما عن الصادق عليه السلام[1]، وأتى بالقميص ﴿أَلْقَاهُ﴾ وطرحه ﴿عَلَىٰ وَجهِهِ﴾.

وقيل: إنّ يعقوب أخذ القميص من يهودا وألقاه على وجهه ﴿فَارْتَدَّ﴾ ورجع إلى ما كان عليه من كونه ﴿بَصِيراً﴾ بقُدرة الله وفضله[2].

قيل: لمّا عظُم فرحه وزالت أحزانه، عادت قوة بصره، و ﴿قَالَ﴾ لولده وأهله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ﴾[3] حين لُمتموني على ذكر يوسف ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ بالهام ﴿مِنَ﴾ قبل ﴿اللهِ﴾ وتفضّله ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وفرحي بلقائه.

عن الصادق عليه السلام: «كتب عزيز مصر إلى يعقوب: أمّا بعد، فهذا ابنك [يوسف] اشتريته بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة واتّخذته عبداً، وهذا ابنك بنيامين قد سرق فاتّخذته عبداً».

قال: «فما ورد على يعقوب شيءٌ أشدّ عليه من ذلك الكتاب، فقال للرسول: مكانك حتى اُجيبه، فكتب إليه يعقوب: أمّا بعد، فقد فَهِمت كتابك بأنك اتّخذت ابني بثمن بخسٍ، واتّخذته عبداً، وأنّك اتّخذت ابني بنيامين وقد سرق، واتّخذته عبداً، فانّا أهل بيتٍ لا نسرِق، ولكنّا [أهل بيت] نُبتلى، وقد ابتلي أبونا إبراهيم بالنار فوقّاه الله، وابتلي أبونا إسحاق بالذبح فوقّاه الله، وإنّي قد ابتُليت بذَهاب بصري وذَهاب ابنيّ، وعسى الله أن يأتيني بهم جميعاً».

قال: «فلمّا ولّى الرسول عنه رفع يديه إلى السماء، ثمّ قال: يا حَسَن الصُّحبة، يا كريم المعونة يا خيراً كُلّه، ائتني برَوْحٍ[4] وفرج من عندك، فما انفجر عمود الصُّبح حتّى اُتي بالقميص وطُرِح على وجهه، فردّ الله عليه بصره، وردّ عليه ولده[5].

رُوي أنّ يوسف وجّه إلى أبيه جَهازاً كثيراً ومأتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين، فتهيّأ [يعقوب] للخروج إلى مصر[6].

---

١. إكمال الدين: ٩/١٤٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٠٩.
٤. زاد في تفسير الصافي: منك.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢١٥١/٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٣١٩.

وعن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ «وردّهم إلى يعقوب في ذلك اليوم، وجهّزهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلمّا فصلت عيرهم من مصر، وجد يعقوب ريح يوسف، فقال لمن بحضرته من ولده: إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون. قال: وأقبل ولده يحُثّون السير بالقميص فرحاً وسروراً [بما رأوا] من حياة[1] يوسف والمُلك الذي أعطاه الله[2]، فكان مسيرهم من مصر إلى بلد يعقوب تسعة أيام [فلمّا أن جاء البشير ألقى القميص على وجهه، فارتدّ بصيراً] وقال لهم: ما فعل بنيامين؟ قالوا: أخلفناه عند أخيه صالحاً، فحمد الله يعقوب وسَجَد لربّه شكراً، ورجع إليه بصره، وتقوّم ظهره، وقال لولده: تحوّلوا إلى مصر[3] بأجمعكم في يومكم هذا[4].

قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ [٩٧ و ٩٨]

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا﴾ بما فعلنا بك وبيوسف وبنيامين ﴿خَاطِئِينَ﴾ ومتعمدين بالذنب ولولا استغفارك لنا لكنّا هالكين ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ البتّة فيغفر لكم ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتائبين.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير وقت دعوتم الله عزّوجل فيه الأسحار» وتلا هذه الآية في قول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾. وقال: «أخّرهم إلى السَّحر»[5].

وفي رواية عنه عليه السلام: «أخّره إلى السحر ليلة الجمعة»[6].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أخّرهم إلى السحر، وقال: يا ربّ إنما ذنبهم فيما بيني وبينهم. فأوحى الله [إنّي] قد غفرت لهم»[7].

وعنه عليه السلام أنّه سئل [عن يعقوب أنه] لمّا قال له بنوه: ﴿يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ فأخّر الاستغفار لهم، ويوسف لمّا قالوا [له]: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[8]؟

قال: «لأنّ قلب الشاب أرقّ من قلب الشيخ، وكانت جناية ولد يعقوب على يوسف، وجنايتهم

---

١. في تفسير العياشي: من حال.
٢. زاد في تفسير العياشي: والعزّ الذي صاروا إليه في سلطان يوسف.
٣. في تفسير العياشي: تحملوا إلى يوسف.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٢/٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٤٥.
٥. الكافي ٢: ٦/٣٤٦، تفسير الصافي ٣: ٤٦.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٤/٣٦٩، مجمع البيان ٥: ٤٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٦.
٧. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٣/٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٤٦.
٨. يوسف: ٩١/١٢ و٩٢.

على يعقوب [إنّما] كانت بجنايتهم على يوسف، فبادر يوسف إلى العفو [عن حقّه]، وأخّر يعقوب العفو لأنّ عفوه [إنّما] كان عن حقّ غيره، فأخّرهم إلى السحر ليلة الجمعة»[١].

وعن الشّعبي، قال: «قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال: أسأل يوسف، فان عفا عنكم استغفر لكم، فأخّر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف»[٢].

ثمّ أنّهم خرجوا من كنعان متوجّهين إلى مصر، فلمّا دنوا منه أخبر بذلك يوسف، فاستقبلهم مع المَلك الأكبر ريّان في أربعة آلاف من الجُند، وقيل: في ثلاثمائة ألف فارس والعظماء وأهل مصر، ومع كلّ فارس جُنّة من فضة وراية من ذهب، فتزينت الصحراء بهم، واصطفوا صُفوفاً، وكان الكلّ غِلمان يوسف ومراكبه، وصَعِد يعقوب وأولاده تلًّا نَظَروا إلى الصحراء مملوءة من الفرسان، مزينة بالألوان، فتعجّب من ذلك فقال له جَبْرَئيل: انظروا إلى الهواء، فانّ الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم، كما كانوا محزونين مدّة لأجلك، ثمّ نظر يعقوب إلى الفرسان فقال: إنّ فيهم ولدي يوسف: فقال جبرئيل: هو ذاك فوق رأسه الظُّلّة، فلم يتمالك أن دفع نفسه عن البعير، فجعل يمشي متوكّأً على يهودا، فقال جَبْرئيل: يا يوسف، إنّ أباك يعقوب قد نزل لك فانزل له منزلاً، فنزل من فرسه، وجعل كل واحدٍ منهما يعدو إلى الآخر، فلمّا تقرّبا قصد يوسف أن يبدأ بالسلام، فقال جَبْرئيل: لا، حتى يبدأ يعقوب به لأنّه أفضل وأحقّ. فابتدأ يعقوب بالسلام، وقال: السلام عليك يا مُذهِب الأحزان، فتعانقا وبكيا سروراً، وبكت ملائكة السماء، وماج الفُرسان بعضهم في بعض وصَهَلت الخيول وسبّحت الملائكة[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ يوسف لمّا قدم على[٤] الشيخ يعقوب دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه، فهبط عليه جبرئيل، فقال: يا يوسف، ابسُط راحتك، فخرج منها نورٌ ساطعٌ، فصار في جوّ السماء، فقال يوسف: يا جَبْرئيل، ما هذا النور الذي خرج من راحتي فقال: نُزِعت النبوة من عَقِبك عقوبةً لمَا لم تنزل إلى الشيخ يعقوب، فلا يكون في عقبك نبي»[٥].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [٩٩]

---

١. علل الشرائع: ١/٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣١٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣١٩.

٤. في الكافي وتفسير الصافي: عليه.

٥. الكافي ٢: ١٥/٢٣٥، تفسير الصافي ٣: ٤٧.

ثمّ قيل: إنّه هيأ بيتاً في خارج مصر أو مَضْرَبة هناك قعد يوسف فيه[١] وقيل: كان له في خارج مصر قصرٌ رفيع، فلمّا استقبل أبويه أنزلهم هناك أولاً ﴿فَلَمَّا﴾ جاء يعقوب وزوجته اسمها أليا أو يـاميل، وكانت خالته ومربيته بعد اُمّه راحيل، ولعلّه كان يقول لها اُمّ وسائر إخوته ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في القصر أو البيت أو المضربة ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ يعقوب وراحيل، أو خالته التي كـانت بـمنزلة اُمّه، وعانقهما ثمّ قام ﴿وَقَالَ﴾ لأبويه وإخوته وأقـاربه[٢]: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ حـال كـونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع وإساءة الجبابرة إليكم وسائر المكارة.

قيل: إنّهم كانوا من قبل يخافون مَلِك مصر وجبابرته، ولا يدخلونها إلا بـاجازتهم، وكـانوا اثـنين وسبعين رجلاً وامرأة، فدخلوا جميعاً مصر[٣]. و [عن] القمي: لمّا وافى يعقوب وأهله وولده مـصر قعد يوسف على سريره، ووضع تاج المُلك على رأسه، فأراد أن يراه أبوه على تلك الحـالة، فـلمّا دخل عليه أبواه لم يقم لهما[٤].

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[١٠٠]

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وأجلسهما على السرير المختصّ به إكراماً لهما، بعد أن تواضـع له أبواه وإخوته ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾ على الأرض حال كونهم ﴿سُجَّداً﴾ له تحيةً ومَكْرُمةً.

قيل: إنّ السجود كان في ذلك الزمان بمنزلة المصافحة وتقبيل اليد في هذا الزمان[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «كان سجودهم ذلك عبادة لله»[٦].

قيل: يعني لأجل وجدانه ولقائه سجدوا شُكراً لله، وجعلوا يوسف كالقبلة. وقيل: إنّه لم يسجُد له أبواه بل إنّما سجد له إخوته[٧]، والمراد في تعبير الرؤيا من سجود الإبوين تعظيمهما له.

وقيل: إنّما سجد يعقوب لأجل أن لا يستنكف من السجود له أنفةً واستعلاءً عليه. وقيل: إن الله أمر يعقوب بالسجود له لحكمة لا يعلمها غيره، كما أمر الملائكة بالسجود لآدم[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.
٤. تفسير القمي ١: ٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٨.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٠.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٨/٣٧٠، تفسير الصافي ٣: ٤٨.
٧. تفسير الرازي ١٨: ٢١٢.
٨. تفسير الرازي ١٨: ٢١٣.

عن ابن عباس: أنّ يوسف لمّا رأى سجود أبويه وإخوته له، هاله ذلك، واقشعرّ جلده منه ﴿وَقَالَ﴾ ليعقوب: ﴿يَا أَبَتِ هٰذَا﴾ السجود ﴿تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي رأيتها ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي زمن الصبىٰ ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ وصدقاً ومطابقةً لما وقع الآن بعد أربعين سنة، أو ثمانين، أو عشرين.

وعن الباقر عليه السلام: «لما دخلوا على يوسف في دار المُلك، اعتنق أباه وبكى، [ورفعه] ورفع خالته على سرير المُلك، ودخل منزله فادّهن واكتحل، ولَبِس ثياب العزّ والمُلك، ثمّ خرج إليهم، فلمّا رأوه سجدوا [جميعاً] له إعظاماً وشكراً لله، فعند ذلك قال: ﴿هٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾»[1].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي صنيعه ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ وإنّما لم يذكُر خروجه من الجُبّ لأن لا يستحي إخوته، ولا يكون تثريباً عليهم، ولا يتألم قلب أبيه بتذكّر إلقائه في الجُبّ، ولأنّه كان الإحسان بإخراجه من السجن أتمّ، لأنّه كان في الجُبّ مع جَبْرئيل، وفي السجن مع الكفّار، وإنّه بعد الخروج من الجُب صار عبداً، وبعد الخروج من السجن صار مَلِكاً.

ثمّ ذكر الإحسان الثاني بقوله: ﴿وَجَاءَ بِكُم﴾ إليّ ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ والصحراء.

وقيل: إنّ البدو كان اسم موضعٍ معمورٍ من فلسطين قريباً من كنعان يَسْكُنه يعقوب[2]، وكان ذلك الاحسان ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ وأفسد ﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وفي هذا التعبير مبالغة في الاحسان إلى إخوته حيث نسب ما فعله الإخوة به إلى الشيطان، وعبّر عنه بالنَّزْغ.

ثمّ اثنى على الله بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ وذو إحسان خفيّ بعباده ومسبّب الأسباب ﴿لِّمَا يَشَاءُ﴾ وجوده بسهولة، وإن كان عند العقول في غاية البعد والصعوبة.

ثمّ ذكر عِلّة لطف تدابيره بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الخصوصيات وخفايا الممكنات ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ومتقن في أفعاله، آتٍ بما هو الصواب والصلاح لعباده.

عن الغزالي: لا يستحقّ اسم اللطيف إلّا من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دقّ منها ولطف، ثمّ يَسْلُك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف، ولا يتصوّر كمال ذلك في العلم والعقل إلّا الله تعالى[3].

عن الهادي عليه السلام: «قال يعقوب لابنه: أخبرني بما فعل إخوتك بك حين أخرجوك من عندي. قال: يا أبه، أعفني من ذلك. قال: فأخبرني ببعضه. قال: إنّهم لمّا أدنوني من الجُبّ قالوا: انزع القميص.

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٥٦/٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٤٨.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٢.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.

فقلت: يا إخوتي، اتّقوا الله ولا تُجرّدوني، فسلّوا عليّ السكّين وقالوا: لئن لم تنزع لنذبحنّك، فنزعتُ القميص وألقوني في الجُبّ عرياناً. قال: فشَهِق يعقوب شهقةً وأُغمي عليه، فلمّا أفاق قال: يا بنيّ حدّثني. قال: يا أبه أسألك بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلّا أعفيتني، فأعفاه»[١].

ورُوي أنّ يوسف قال ليعقوب:[يا أبه] لا تسألني عن صنيع إخوتي، واسألني عن صنيع الله بي[٢].

رُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله في خزائن الوَرِق[٣] والذهب، وخزائن الحُليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح وغير ذلك، فلمّا أدخله في خزائن القراطيس ـ وهو أول من عملها ـ قال يعقوب: يا بنيّ، ما أعقّك[٤]! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل؟! قال: أمرني جَبْرَئيل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه منّي فاسأله. قال جَبْرَئيل: الله أمرني بذلك لقولك: إني ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: فهلا خفتني[٥]؟

قيل: لمّا قدِم يعقوب على يوسف وقد سأله أولاده أن يستغفر لهم قام في مصلاه إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة، وكانت ليلة عاشوراء، فلمّا فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر جَزَعي على يوسف وقلّه صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا به أخاهم. وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقام إخوته خلفهما خاشعين، فأوحى الله إليه: أنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين، ثمّ لم يزل يدعو لهم كلّ ليلة جمعة مائة و[٦]نيف وعشرين سنة إلى أن حضرته الوفاة[٧].

قيل: ولد ليوسف من راعيل الملقّبة بزليخا افرائيم وميشا وحمة امرأة أيوب، وولد لافرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، فلمّا نزل يعقوب في قصر يوسف جاء أولاد يوسف فوقفوا بين يدي يعقوب، ففَرِح بهم وقبّلهم، وحدّثه يوسف بحديثه مع زليخا، وما كان بينه وبين زليخا[٨]، وأخبره أنّ هؤلاء أولاده منها، فدعاها[٩] يعقوب، فحضرت وقبّلت يده، وسالته زليخا أن ينزل عندها، فقال: لا أرضى بزينتكم هذه، ولكن اصنعوا لي عريشاً من البردي والقصب مثل عريشي بأرض كنعان، فصنعوا له عريشاً كما أراد ونزل فيه في أتمّ سرور[١٠].

ورُوي أن يعقوب أقام مع يوسف مائة وسبعاً ـ أو أربعاً ـ وعشرين سنة[١١]، وأوصى أن يدفنه

---

١. تفسير القمي ١: ٣٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٩.
٢. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.
٣. الوَرِق: الفضّة.
٤. في تفسير الرازي: ما أغفلك.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٢١٦، تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.
٦. في تفسير روح البيان: جمعة في.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٣١٨.
٨. في تفسير روح البيان: كان منه ومنها.
٩. في تفسير روح البيان: فاستدعاها.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٣.
١١. في تفسير الرازي ١٨: ٢١٦: أقام معه أربعاً وعشرين سنة.

بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج فوافق يوم وفاة عيص فدُفِنا في قبرٍ واحدٍ، وكانا في بطنٍ واحدٍ، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة، ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان عمره مائة وعشرين سنة[١].

عن الصادق عليه السلام، قال: «دخل يوسف في السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومَكَث فيها ثماني عشر سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك مائة سنة وعشر سنين»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: أنّه سئل كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: «عاش حولين».

قيل: فمن كان الحجة لله في الأرض، أيعقوب أم يوسف؟ قال: «كان يعقوب [الحجة]، وكان المُلك ليوسف، فلمّا مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدُفِن في بيت المقدس، فكان يوسف بعد يعقوب الحجة»

قلت: وكان [يوسف] رسولاً نبياً؟ قال: «نعم، اما تسمع قول الله عز وجل: **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾**»[٣].

أقول: لعلّ الرواية محمولة على أنّ يوسف لم يكن حُجّة على جميع الناس، بل على غير يعقوب، وإنّما صار حُجَة على الجميع بعد موت يعقوب لوضوح أنّه عليه السلام كان يُوحى إليه، وينزل عليه جَبْرئيل، ويكلّمه ويُؤنسه، ولا يكون ذلك إلّا النبيّ والرسول.

قيل: إنّه عليه السلام لمّا جمع الله شمله، وبلغ ملكه وأمره إلى الكمال، علم أنه أشرف إلى الزوال فسأل الله الموت[٤].

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ [١٠١]

وقيل: إنّه رأى أبيه في المنام، فقال: يا يوسف، إنّي مشتاقٌ إلى لقائك فأسرع إليّ إلى ثلاثة أيام. ثمّ انتبه من نومه ودعا إخوته، وأوصى بوصاياه، وولي يهودا ملكه، وأوصى إليه في حقّ أولاده، ثمّ ناجى ربه وقال: **﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي﴾**[٥] مقداراً وقليلاً **﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾** والسلطنة الدنيوية، وهو ملك مصر **﴿وَعَلَّمْتَنِي﴾** بالالهام والوحي شيئاً **﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾** وتعبير الرؤى، أو قليلاً من العلم

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٤.
٢. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.
٣. مجمع البيان ٥: ٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٥٠.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٤.

بحقائق الأشياء والأمور، يا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وخالقهما بقدرتك وحكمتك ﴿أَنتَ﴾ مع كمال الصفات ﴿وَلِيِّ﴾ والناظر في صلاحي ومدبّر أموري ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ إذن ﴿تَوَفَّنِي﴾ واقبِض روحي، وأخرجني من الدنيا حال كوني ﴿مُسْلِماً﴾ وموحّداً ومطيعاً لأحكامك، مهذّب الأخلاق، كريم الصفات، كاملاً من جميع الجهات ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ والكُمّلين في صفات العبودية، والراقين في أعلى درجات المعرفة والانسانية من آبائي العظام، وأوليائك الكرام، واجعلني في زمرتهم ورفقائهم.

قيل: إنّ الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب الكمالية[١].

قيل: ما تمنّى الموت نبي غير يوسف[٢].

وقيل: إنّه عليه السلام ناجى ربّه بعد ملاقاة أبيه بتلك الكلمات تشكراً لنعم الله عليه[٣].

وفي رواية عن الهادي عليه السلام: «فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم، ألم‌تر أنه يقول في شكره ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾» الآية[٤].

قيل: إنّ يوسف ذكر رؤياه الناعية لزليخا، ودعا بالدعاء، فعَلِمت أنّ الله يقبل دعاءه، وأن الأمر يصير إلى الفُرقة، دعت الله أن يعجّل وفاتها قبل وفاة يوسف[٥].

وقيل: ماتت زليخا قبل وفاة يوسف مدة مديدة، فحزن عليها، ولم يتزوج، ولمّا قربت وفاة يوسف أوصى إلى ولده افرائيم أن يسوس الناس[٦].

وقيل: إنّ يوسف خرج بأهله وولده وجميع من آمن معه من مصر، ونزل عليه جَبْرئيل، فخرق له من النيل خليجاً إلى الفيّوم[٧]، ولحق به كثيرٌ من الناس، وبنوا هناك مدينتين، وسمّوهما الحرمين، وكان يوسف هناك سنين إلى أن مات، فتخاصم المصريون في مدفنه من جانبي النيل كلّ طائفة أرادوا أن يُدفَن يوسف في جانبهم تبرّكاً بقبره الشريف، وجلباً للخصب حتّى همّوا بالقتال، ثمّ تصالحوا على أن يُدفَن سنة في جانب مصر، وسنة أُخرى في جانب آخر من البدو، فدُفِن في الجانب المصري فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر من البدو، ثمّ نُقِل إلى الجانب البدوي فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر المصري، ثمّ اتفقوا على دفنه في وسط النيل، وقدّروا ذلك بسلسلة، وعملوا له صندوقاً من مَرمَر[٨].

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٥.
٤. تفسير القمي ١: ٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٩.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٦.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.
٧. الفَيُّوم: موضع في مصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.

قيل: إنّ الله تعالى حين أمر موسى بالسير ببني إسرائيل، أمره أن يحمل عِظام يوسف معه حتى يضعها في الأرض المقدّسة[١].

قيل: إنّه عليه السلام لمّا أدركته الوفاة أوصى أن يُحمَل إلى مقابر آبائه، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك، وكان نقل موسى عظامه للوفاء بما أوصى به فسأل موسى عمن يعرف موضع قبره، فما وَجَد أحداً يعرفه إلّا عجوزاً في بني إسرائيل، فقالت له: يا نبي الله، أنا أعرف مكانه وأدُلّك عليه إن أنت تُخرِجني معك ولم تُخلّفني بأرض مصر. قال: أفعل ذلك.

وقيل: إنّها قالت: أكون معك في الجنّة، فكأنّه ثقُل عليه ذلك فقيل له: أعطها طَلِبتها فأعطاها، وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر، فدعا ربّه أن يؤخّر طلوع القمر حتى يفرُغ من أمر يوسف ففعل، فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحيةٍ من النيل ـ وقيل: في مستنقع ماء في ناحيةٍ [من] النيل، فقالت لهم: أنضبوا وارفعوا عنها الماء ففعلوا، فقالت: احفروا فحفروا [وأخرجوه].

وقيل: ذهبت بموسى إلى عمود في شاطىء النيل في أصله سكّة من حديد فيها سلسلة مربوطة بصندوق من حديد في وسط النيل، فاستخرجه موسى و فتح الصندوق، فوجد صندوقاً من مَرمَر داخلاً في ذلك الصندوق الذي من الحديد فأخرجه[٢].

وقيل: إنّه جاء موسى شيخ له ثلاثمائة سنة، فقال له: يا نبي الله، ما يعرف قبر يوسف إلّا والدتي. فقال له موسى: قُم معي إلى والدتك، فقام الرجل ودخل منزله، وأتى بقُفّة فيها والدته، فقال لها موسى: ألك علم بقبر يوسف؟ قالت: نعم، ولا أدلُّك على قبره، إلا إن دعوت الله أن يرُدّ عليّ شبابي إلى سبع عشرة سنة، ويزيد في عُمري مثل ما مضى، فدعا لها موسى وقال لها: كم عمرك؟ قالت: تسعة مائة سنة، فعاشت ألفا وثمانمائة سنة، فأدّته إلى[٣] قبر يوسف، وكان في وسط النيل ليمُرّ النيل عليه فيصل إلى جميع مصر، فيكونوا شركاء في بركته، فأخصب الجانبان، وكان بين دخول يوسف مصر إلى يوم خروج موسى أربعمائة سنة[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران، أن أخرج عظام يوسف من مصر، فاستخرجه من شاطئ النيل، وكان في صندوق مرمر، فحمله إلى الشام، فلذلك يحمل أهل الكتاب

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٧.
٢. في تفسير روح البيان: فاحتمله.
٣. في تفسير روح البيان: فأرته.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٨.

موتاهم إلى الشام، وهو يوسف بن يعقوب، وما ذكر الله يوسف في القرآن غيره»[1].

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ[١٠٢ و ١٠٣]

ثمّ لمّا كان الأخبار المغيبات من أعظم المعجزات، استدلّ سبحانه بأخبار النبيّ الأمي الذي لم يجالس عالماً ولم يقرأ كتاباً على صدق نبوته بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف ﴿مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ والأخبار التي لا يطّلع مثلك يا محمد عليها بالأسباب العادية، بل نحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ بتوسّط جَبْرَئيل، لأنّها منحصرةٌ في السماع من المطّلعين، ومطالعة الكتب، وهما منتفيان في حقّك بتسليم المخالف والموالف، وفي الحضور عند وقوع القضية، وهذا أيضاً منتفٍ بالضرورة لوضوح أنّك ماكنت في ذلك الزمان في العالم ﴿وَمَا كُنتَ﴾ عند إخوة يوسف، وحاضراً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لاسيما ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وحين عزموا على ما رأوا من إلقاء يوسف في الجُبّ، أو حين اتّفقوا عليه مع كونهم في غاية التستّر فيه ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به بترغيبه في الخروج معهم إلى التفرّج، وبأبيه بترضيته خاطره في إرساله معهم، فمع انتفاء الحضور عندهم، وعدم كونك قارئاً للكتب، ومتعلماً من العلماء، ثبت كونك عالماً بها بالايحاء إليك من الله، ونبياً صادقاً في دعوى نبوتك، ومع ذلك ﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ من اليهود و النصارى والمشركين ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في دعوتهم وإظهار المعجزات لهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ بك لعنادهم وشدّة لَجاجهم وإصرارهم على إنكار نبوتك.

رُوي أنّ كفّار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن قصة يوسف على سبيل التعنّت، فلمّا أخبرهم على طبق التوراة لم يسلموا، فحزن النبي صلى الله عليه وآله، فنزلت الآية تسليةً له[2].

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين * وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ[١٠٤-١٠٦]

ثمّ لمّا كان من دواعي التكذيب تَوهُّم طمع المال في المُبلّغ، دفع الله هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ يا محمد، عند تبليغ المعارف والأحكام ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ومال يعطونك مايسأله

---

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٥٩٤/١٢٣، تفسير الصافي ٣: ٥١.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٨.

أهل الطمع على تعليماتهم ﴿إِنْ﴾ القرآن وما ﴿هُوَ﴾ أو ما تبليغك ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعِظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عامة، وبعثاً لهم على سلوك سبيل النجاة، وإنّما هو لي وعليَ أجره لا على الناس، فلا مجال لتوهّم شَوب غرضك في تبليغك بالدنيا.

ثمّ بالغ سبحانه في تسلية نبيه ﷺ في إعراض الكفار عنه وعدم اعتنائهم بمعجزاته بقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكثير ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وكم من دليلٍ واضحٍ على وجود الصانع الحكيم وتوحيده ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهؤلاء الكافرون المعاندون ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويشاهدونها ﴿وَهُمْ﴾ لا يلتفتون إليها، بل هم ﴿عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وبها لا يعتنون، وفيها لا يتفكّرون، ولا يعتبرون بها.

قيل: لمّا سَمِع المشركون تلك الآية قالوا: إنا نؤمن بالله الذي خلق الأشياء، فردّهم الله بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ﴾[1] ولا يعترفون بألوهيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ﴾ به في العبوديّة والطاعة.

عن ابن عباس، أنّه قال: نزلت في تنبيه المشركين[2]، لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلّا شريك هو لك، تملِكه وما مَلَك.

وعنه أيضاً: هم الذين يشبّهون الله بخَلقه.

وعنه أيضاً: أنّ أهل مكة قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له، والملائكة بناته، فلم يوحّدوه، بل أشركوا وقال عبدة الأصنام: ربّنا الله وحده، والأصنام شُفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عَبَدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده، وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار: ربّنا الله وحده لا شريك معه[3].

عن الباقر عليه السلام: «شرك طاعة وليس شرك [عبادة]»[4].

وزاد القمي رحمه الله: والمعاصي التي يرتكبون، فهي شِرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره، وليس باشراك عبادة[5].

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «يُطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيُشرِك»[6].

وعنه عليه السلام: «هم الذين يُلحِدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها»[7].

وعنه عليه السلام أيضاً: «هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٢٩.
٢. في تفسير الرازي: تلبية مشركي العرب.
٣. تفسير الرازي ١٨: ٢٢٤.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٨/٣٧٣، تفسير القمي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٥٢.
٥. تفسير القمي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٥٢.
٦. الكافي ٢: ٣/٢٩٢، تفسير الصافي ٣: ٥٣.
٧. التوحيد: ١/٣٢٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

لضاع عيالي، ألاترى أنّه قد جعل لله شريكاً في مُلكه يرزُقه ويدفع عنه».

قيل: فيقول لولا أن منّ الله عليّ بفلانٍ لهلكت؟ قال: «نعم، لا بأس بهذا»[١].

وعن الباقر عليه‌السلام: «من ذلك قول الرجل: لا وحياتك»[٢].

وعنهما عليهما‌السلام: «هو شِرك النِّعم»[٣].

وعن الرضا عليه‌السلام: «شِرك لا يبلُغ به الكُفر»[٤].

أقول: الوجه هو حمل الروايات على بيان عدم انحصار مدلول الآية بالشِّرك في العبادة، وإنّ المراد منها جميع مراتب الشّرك ولو بأن يرى مع الله غيره بقوله لغيره: وحياتك، مع أنّ هذا الكلام ليس من الشّرك في الطاعة.

أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ[١٠٧]

ثمّ هدّد الله سبحانه المشركين والكافرين بنبوة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بقوله: ﴿**أَفَأَمِنُوا**﴾ مع كفرهم وشركهم من ﴿**أَن تَأْتِيَهُمْ**﴾ وتنزل عليهم بسبب مشاقّتهم الله ورسوله عقوبة ﴿**غاشِيَةٌ**﴾ لهم منبسطة عليهم ﴿**مِنْ عَذَابِ ٱللهِ**﴾ بحيث لا ينجو منها أحد منهم، كالصّاعقة والخَسف والطُّوفان ﴿**أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ**﴾ وأهوال القيامة ﴿**بَغْتَةً**﴾ وفَجأةً، وفي حال عدم كونهم متوقّعين لها، وغير محتملين إتيانها ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ بمجيئها، ولاشتغالهم بالدنيا لا يلتفتون إليها، وفيه تأكيد معنى البغتة.

قُلْ هٰذِهِ سَبِيلى أَدْعُوا إِلَى ٱللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ ٱللهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[١٠٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد تسليه نبيه عليه‌السلام وذمّ المشركين بإعراضهم عن الآيات الدالّة على توحيده وكمال صفاته، وتهديدهم عليه، أمر نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله بالثبات على الدعوة إلى توحيده رغماً لأنوفهم وعدم المبالاة بجحدوهم بقوله: و ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد للمشركين والمكذّبين لك ﴿**هٰذِهِ**﴾ السبيل التي أسلُكها، والطريق التي أنا فيها ﴿**سَبِيلي**﴾ التي لا انحراف لي منها أبداً ما دُمت حياً، وهي أنّي ﴿**أَدْعُوا**﴾ جميع

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٩/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٣/٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٧٠/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

٤. تفسير العياشي ٢: ٢١٦٥/٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

أهل العالم من الأبيض والأسود والعرب والعجم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ ذاتاً وصفاةً وأفعالاً، وإلى دينه وطاعته، حال كوني ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ كاملة، وحُجَة قاطعة، وبرهاناً واضحاً، بل على تَنَوّر القلب وشهود به لما اعتقده وأدعو إليه، ولا أكون متفرّداً بهذه الطريقة، بل ﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ من الأنبياء السابقين والأولياء اللاحقين والمؤمنين الكُمّلين عليها.

روى العلامة في (نهج الحق) عن العامة قوله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ هو علي[1].

عن الباقر عليه السلام: «ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما»[2].

وعنه عليه السلام: «عليٌ اتّبعه»[3].

وعن الجواد عليه السلام حين أنكروا عليه حَداثة سِنّه قال: «وما تُنكرون؟ قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ الآية، فوالله ما تبعه إلاّ عليّ وله تسع سنين، وأنا ابن تسع سنين»[4].

ثمَ بالغ في الاعلان بتوحيد الله بتنزيهه عن الشرك بقوله: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ عمّا يقول الظالمون من الإشراك، ثمَ بالتبرّي منه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ أيها الناس ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتّخذوا لله ضدّاً ونِدّاً وولداً.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام في تفسير ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ قال: «تنزيهه»[5].

وفي رواية أُخرى، قال: «أنَفَة الله، أما ترى الرجل إذا عجب من الشيء قال: سبحان الله»[6].

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ*حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ[١٠٩ و ١١٠]

ثمَ لمّا كان من شُبهات المشركين في نبوته صلى الله عليه وآله أنّ الله لو أراد أن يُرسِل رسولاً لأرسل ملكاً، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ إلى الناس ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على إرسالك لتبليغ التوحيد والمعارف والأحكام وهداية البشر ﴿إِلَّا رِجَالاً﴾ مثل سائر الرجال يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، وإنّما كانوا يمتازون من غيرهم بأنّا كنّا ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ العلوم والمعارف

---

١. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٦.
٢. الكافي ١: ٦٦/٣٥٢، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ٣٧٨، تفسير الصافي ٣: ٥٣.
٣. روضه الواعظين: ١٠٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣.
٤. الكافي ١: ٨/٣١٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣.
٥. الكافي ١: ١١/٩٢، تفسير الصافي ٣: ٥٤.
٦. الكافي ٣: ٥/٣٢٩، تفسير الصافي ٣: ٥٣.

والأحكام لامتيازهم بكمال العقل ونزاهة النفس من الرذائل، وتزيّنهم بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، وكانوا ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ من الأمصار والرساتيق، لا البوادي، ولا الملائكة، ولا الجِنّة[١] ولا النساء، ومع ذلك كيف يتعجّب هؤلاء المشركون من إرسالك رسولاً إليهم.

ثمّ استدلّ سبحانه على رسالة هؤلاء الرجال بتعذيب مكذّبيهم بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يسافروا إلى البلاد ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم المكذّبة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بتكذيبهم اُولئك الرجال المرسلين إليهم، فانّ آثار نزول عذاب الاستئصال عليهم باقيةٌ إلى الآن في محالّهم وأماكنهم، وفيه تهديد مكذّبي النبي صلّى الله عليه وآله.

ثمّ لمّا كان عُمدة الباعث على تكذيب الرسل حُبّ الدنيا وزخارفها، وَعَظهم الله تعالى ورغّبهم في الآخرة بقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ ونعمها[٢] الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ما حسن من الدنيا ونعيمها لو كان فيها حسن وفضيلة، وإنّما هي ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي، واحترزوا من مخالفة الله وأحكامه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون الذين تدعون لأنفسكم العقل هذه الأفضلية مع كمال وضوحها، ولا تدركون هذه الخيرية مع بداهتها، لأنّ العقل يحكم بالبديهة بأنّ الباقي وإن كان في غاية القلّة خيرٌ من الزائل وإن كان في غاية الكثرة، مع أنّ نِعَم الآخرة أكثر وأهنأ من نِعَم الدنيا.

ثمّ لمّا هدّد سبحانه المشركين بالعذاب بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقد كانوا في أرغد عيش وطول عمر، نبّه سبحانه على أنّ الحكمة مقتضيةٌ لتأخيره عنهم، كما أخّر نزوله على الأمم السابقة المُهلَكة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين كانوا قبلك من إيمان قومهم، وانقطع رجاؤهم من قبولهم التوحيد ودخولهم في دين الحقّ، وقومهم قد تجرأوا في تكذيبهم ﴿وَظَنُّوا﴾ وتوهّموا ﴿أَنَّهُمْ﴾ فيما أخبروا به على لسان رسلهم من نصر لرسلهم وهلاك أنفسهم العذاب الاستئصال ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ واجترأوا بما هو خلاف الواقع ﴿جَاءَهُمْ﴾ ونزل على اُولئك الرسل ﴿نَصْرُنَا﴾ وإعانتنا لهم بنزول العذاب على قومهم ﴿فَنُجِّيَ﴾ من ذلك العذاب ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ نجاته وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون بهم، وهلك به غيرهم ممّن خالفهم وكذّبهم ﴿وَلَا يُرَدُّ﴾ ولا يصرف ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين لنا بانكار التوحيد وتكذيب الرسل.

واعلم أنّ تفسير الآية المباركة بالوجه الذي ذكرنا بناءً على القراءة المعروفة ـ وهي قراءة كُذِبوا بالتخفيف ـ سليمٌ من الاشكال. وأمّا سائر التفسيرات التي ذكرها المفسّرون ـ وإن كان بعضها منقولاً

---

١. في النسخة: الأجنة. ٢. في النسخة: ونعيمها.

عن ابن عباس، وبعضها مروياً عن أئمتنا عليهم السلام - ففيها إشكالات عظيمة لا يمكن دفعها، فلذا أعرضنا عن ذكرها، وأطرحنا تلك الروايات لعدم صحّتها واعتبارها.

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[١١١]

ثمّ أنه تعالى بعد ذكر قصة يعقوب ويوسف مفصّلاً في هذه السورة المباركة، وذكر قصص سائر الأنبياء فيها مجملاً وفي غيرها مفصلاً، بيّن الغرض من ذكرها بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ وبيان أحوالهم، وكيفية دعوتهم ومعاملتهم مع اُممهم، ومعارضة اُممهم لهم، وابتلاء المعارضين لهم بالعذاب ﴿عِبْرَةٌ﴾ وعِظة وفائدة عظيمة من معرفة الله بالقدرة الكاملة والحكمة البالغة، وغاية لطفه بعباده الصالحين، وشدّة قهره على الكفّار والمجرمين ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة، فانّهم الذين يعتبرون بها ويستفيدون منها.

ثمّ مدح سبحانه كتابه المجيد المشتمل على تلك القصص بالصدق لتوقّف الاعتبار بها على العلم به بقوله: و ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً﴾ وقولاً صادراً من البشر ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ على الله ويُنسَب إليه كِذباً ﴿وَلٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ﴾ مطلق الكتاب ﴿ٱلَّذِي﴾ نزل من السماء ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومن قبل نزوله، ومطابقاً له، أو سبباً لكون الأخبار التي في الكتاب بنزول هذا القرآن في آخر الزمان صدقاً، لأنّه لو لم ينزل لكان جميع تلك الأخبار كذباً، أو سبباً لتصديق الناس نزول الكتب السابقة من الله لثبوت صحّة هذا القرآن المُخبِر بنزول التوراة والانجيل والزّبور وصُحف إبراهيم من السماء، لاشتمال هذا القرآن على الاعجاز بجهات عديدة دون سائر الكتب، وانقطاع تواتر كون سائر الكتب نازلاً من الله، فلولا تصديق القرآن المشتمل على الاعجاز لها، لم يكن لأحد طريقٌ إلى تصديقها وأنّها ممّا أتى بها الرسل.

﴿وَ﴾ في القرآن يكون ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من اُمور الدين، بل تبين جميع ما يحتاج إليه البشر من العلوم والآداب، لأنّه ما من علم إلّا وفيه أصله، بل فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وإنّما يختصّ استفادتها عنه بالراسخين في العلم، بل لا يعلمون شيئاً إلّا من القرآن ﴿وَ﴾ يكون هو ﴿هُدىً﴾ ورشاداً من الضلال لمن استهدى به، ودلالة إلى جميع الخيرات الدنيوية والاُخروية لمن تدبّر فيه واستدلّ به ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسبباً للفوز بالمراتب العالية من الكمالات الانسانية وبالدرجات الرفيعة من القُرب، وبالنّعم الدائمة والراحة الأبدية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، العاملون بما فيه، فالكتاب الذي له هذه الصفات الجليلة والآثار الكريمة والبركات العظيمة، لا يمكن أن يكون

باختلاق البشر ومن مفترياتهم على الله، سيما إذا جاء به الأُمّي الذي لم يقرأ كتاباً ولم يجالس عالماً، ولم يَتَلْمذ عند أحدٍ باتفاقٍ من أهل الانصاف من الأحبّاء والأعداء.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة يوسف في كلّ يوم، أو في كلّ ليلةٍ، بعثه الله يوم القيامة وجماله على جمال[١] يوسف، ولا يصيبه فَزَع يوم القيامة، وكان من خِيار عباد الله الصالحين»[٢]. وزاد العياشي: «وأومن في الدنيا أن يكون زانياً أو فحّاشاً»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تعلّموا نساءكم سورة يوسف ولا تُقرئوهنّ إياها، فانّ فيها الفِتن، وعلّموهن سورة النُّور، فان فيها المواعظ»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «يُكْرَه لهنّ تعلّم سورة يوسف»[٥].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها.

---

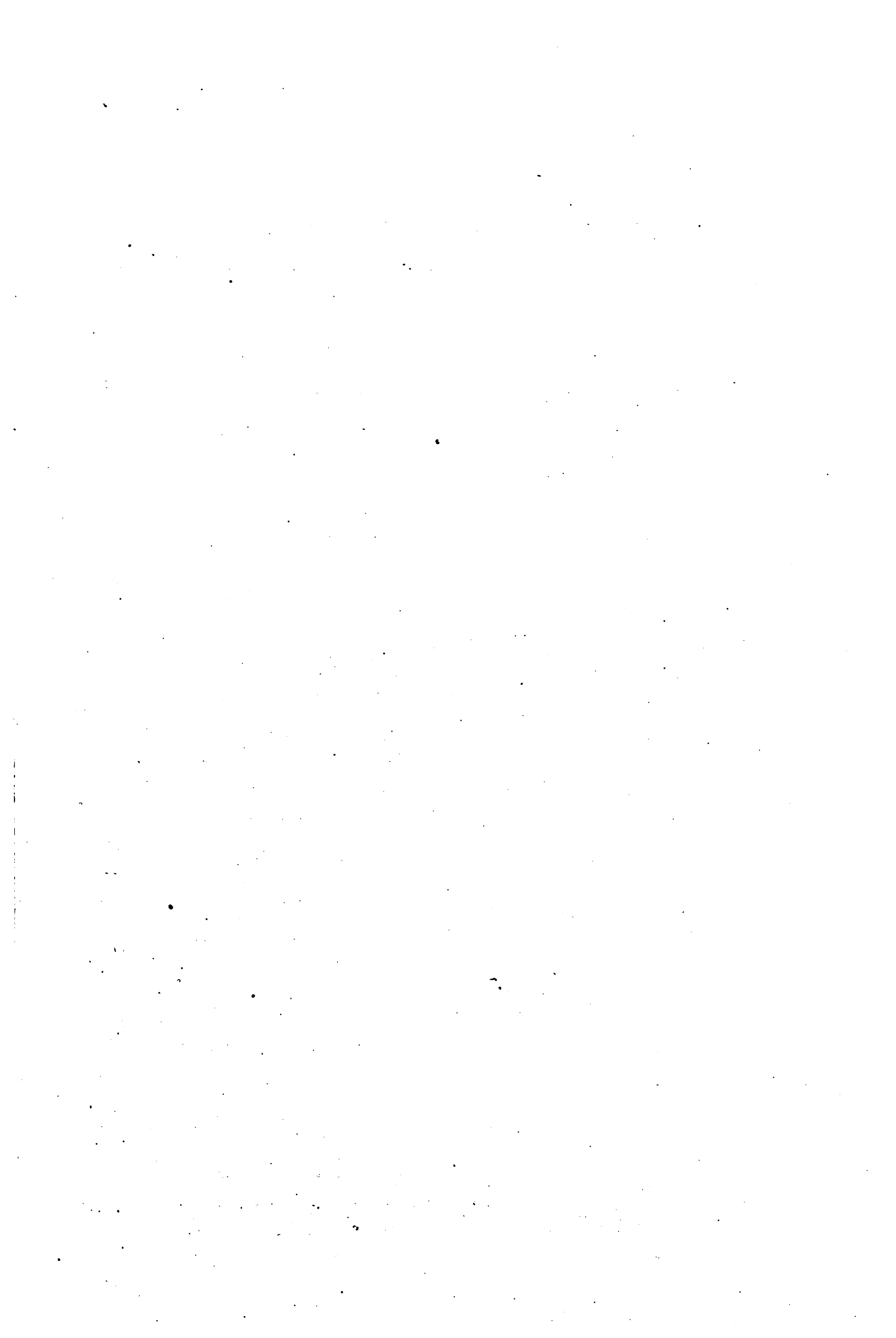
١. في تفسير العياشي: كجمال، وفي ثواب الأعمال: مثل جمال.

٢. ثواب الأعمال: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٠٧٣/٣٢١، تفسير الصافي ٣: ٥٥.

٤. الكافي ٥: ٢/٢١٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥.

٥. الخصال: ١٢/٥٨٦، تفسير الصافي ٣: ٥٥.



في تفسير سورة الرعد

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[١]

ثمّ لمّا نبّه سبحانه إجمالاً بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] إلىٰ آخره، علىٰ أن العالم مملوءٌ من آيات توحيده وقُدرته وحكمته وكمال صفاته، ثمّ وصف في آخر السورة كتابه العزيز بأنّه تفصيل كلّ شيء، وكانت آيات أوائل سورة الرعد تفصيل الآيات السماوية والأرضية، أردف سورة يوسف بها، فابتدأها تيمّناً وتبرّكاً بذكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ أفتتحها بالحروف المقطّعات من قوله: ﴿الٓمٓر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان حكمة الابتداء بها[٢].

عن الصادق عليه السلام: «معناه أنا المُحيي المميت الرازق»[٣].

وعن ابن عبّاس: أي أنا الله أعلم وأرى[٤].

وفي نقل آخر: أنا الله المَلِك الرحمن[٥].

ثمّ أنه تعالى بعد جلب القلوب بذكر الحروف إلىٰ الاستماع، شرع في بيان أهمّ المطالب، وهو عظمة الكتاب المجيد، الدالّ علىٰ صحّة نبوة نبيّه صلى الله عليه وآله وصحّة دين الاسلام بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المرتّبة في هذه السورة المباركة ﴿ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ المنزل عليك يا محمّد، ليكون معجزةً باقيةً لك إلىٰ آخر الدهر، أو آيات الكتاب المنير الذي هو اللوح، أو الذي بشّر الله الأنبياء بنزوله في آخر الزمان ﴿وَٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ في ذلك الكتاب من المعارف والأحكام والقصص والمواعظ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي يجب على الناس التمسّك به والاتّباع له ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وأغلبهم، وهم

---

١. يوسف: ١٢/١٠٥. ٢. راجع الطرفة (١٨) من مقدمة المفسّر.
٣. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي٣: ٥٦. ٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٠، تفسير روح البيان ٤: ٣٣٤.
٥. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٠.

المتّبعون للشهوات ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به بغياً وحسداً واستكباراً وعِناداً.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ[٢]

ثمّ أنه تعالى بعد ذمّ الأكثر بعدم الايمان بالكتاب وما فيه، وكان أهمّ ما فيه الدعوة إلىٰ التوحيد والمعاد، [شرع] في الاستدلال عليهما بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ والمعبود بالاستحقاق هو القادر ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّماوَاتِ﴾ علىٰ الأرض مسيرة خمسمائة عام علىٰ ما قيل[١]، بقدرته القاهرة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسطوانة مع غاية عظمة أجرامها، وأنتم ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مرفوعةً بلا عَمَد، فلولا قدرة الله القاهرة لا ستحال رفعها وإبقاؤها مرفوعة بلا عَمَد.

وقيل: إنّ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعَمَد، والضمير راجع إليها، والمعنى أنّه تعالى رفع السماوات بغير عَمَد مرئية[٢].

وعن الرضا عليه السلام «فثمّ عَمَد، ولكن لا تَرَونها»[٣].

ويمكن أنّ يُراد بالعَمَد غير المرئية قدرة الله تعالى. وقيل: إنّها معتمدةٌ على جبل قاف، وهو جبل من زَبَرْجَد محيطٌ بالدنيا ولا يراه أحد[٤]، وعليه يكون الاستدلال برفعه ووضعه على الجبل لوضوح عدم اقتضاء طبيعتها الرفع والوضع، وإلّا لاشتركت الأجسام فيها لاشتراك جميعها في مقتضيات الطبيعة، ويمكن أن يكون عَمَدها كونها كروية، فإنّ كلّ جزءٍ من الكرة معتمدٌ على الأجزاء الأُخر.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ سبحانه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ واستولى على عالم الوجود بالقدرة والقهر والعلم والتدبير والحفظ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مع عظم جُرمهما تحت قدرته بأن سيّرهما بكيفية خاصة بارادته، فلولا كونهما مقهورين تحت إرادة القادر لامتنع اختصاصهما بالحركة دون السكون، واختصاص ﴿كُلٌّ﴾ منهما بحركة خاصة، وكلّ منهما ﴿يَجْرِى﴾ ويسير ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وإلىٰ مدّة معينة، تتِمّ فيها أدوارهما.

قيل: هي القيامة التي تُكوّر فيها الشمس، وتتكدّر فيها النجوم[٥]، وحينئذٍ تنقطع حركتهما، وينقضي سيرهما.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٥.
٢. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٢/٣٧٨، تفسير القمي ٢: ٣٢٨، تفسير الصافي ٣: ٥٦.
٤. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٢.
٥. مجمع البيان ٦: ٤٢١.

عن ابن عبّاس: للشمس مائة وثمانون منزلاً[1]، فالمراد بـ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ هذا.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في عالم الوجود وينظّمه، بأن يعطي كلّ موجودٍ من المجرّدات والماديات والروحانيات والجسمانيات ما يحتاج إليه في بقائه وكماله، ويخصّص كلاً منهما بوضع وموضع وصفة وحِلية مناسبة له، وينظّم الدنيا بالايجاد والاعدام، والإماتة والإحياء، والإغناء والإفقار وغيرها، ولا يشغله شأن عن شأنٍ، فانظرُوا ـ أيّها العقلاء ـ كيف بلطفه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾ ويبيّن الدلائل على وحدانيته وكمال قدرته وحكمته وسائر صفاته ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ والحضور في القيامة عند مدبّر اُموركم ﴿تُوقِنُونَ﴾ فانّ اليقين بكمال قدرته وحكمته الموجبة لتنزّهه عن اللغو والعبث، مستلزم لليقين بإعادة الخلق للحساب وجزاء الأعمال.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد الاستدلال بالآيات السماوية، استدلّ بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الواحد القادر ﴿ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وبسطها من تحت الكعبة يوم دَحْو الأرض على الماء، لتثبّت عليها الأقدام، ويعيش عليها الانسان، وينقلب فيها الحيوان. ثمّ كانت تُكفأ بأهلها كما تُكفأ السفينة، فأثقلها بأن خلق ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ بقدرته جبالاً ﴿رَوَاسِىَ﴾ وثوابت كالأوتاد لها، تمنعها عن الاضطراب والانكفاء.

وقيل: كان اضطرابها من مهابة الله وعظمته[2].

قيل: إنّ الله خلق الماء، فأرسل عليه ريحاً هفّافة، فصفقت الريح الماء، وضرب بعضه ببعض، فأبرز منه حجارة في موضع الكعبة كأنّها قُبّة، فبسط سبحانه من ذلك الموضع جميع الأرض طولاً وعرضاً[3].

وعن ابن عباس: أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبيس[4].

وقيل: أفضل الجبال جبل أُحد، لقوله ﷺ: «أُحد يُحبّنا ونُحبّه»[5].

ثمّ لمّا كانت الأنهار متولدةً من الجبال، أردفها بذكرها بقوله: ﴿وَأَنْهَاراً﴾ جارية كثيرة لحياة الأرض

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٢٣٣.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٧.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨، وأبو قُبَيس: جبل مشرف على مسجد مكة.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.

ومَن عليها.

قيل: إنّ الأبخرة تتصاعد من قَعرِ الأرض فتَقبِل إلى الجبل فتحتبس، فلا تزال تتناسب فتنقلب ماءً حتّى تحصُل مياه عظيمة، ثمّ لكثرتها وقوّتها تثقُب الجبل، وتسيل على الأرض[١].

وقيل: إنّ الله يُنزِل الأمطار والثلوج فتشربها الأرض، فتجتمع المياه الكثيرة في عُروقها، ثمّ تنشقّ عنها في المكان الذي تؤمر بالانشقاق، فيه فتظهر على وجه الأرض[٢].

وقيل: إنّ الله يُنزل الأمطار والثلوج لانتفاع الخلق، والمَلَك المُوكّل بالمياه ميكائيل وأعوانه[٣].

أقول: الظاهر أن تَكوّن الماء في الأرض يكون بكلّ واحدٍ من السببين، و لا ينحصر بأحدهما.

قيل: إنّ الأنهار العظيمة في الدنيا خمسة: الفُرات، ودجلة، وسَيْحُون بالهند، وجَيْحُون ببَلْخ، والنيل بمصر[٤].

ثمّ استدلّ سبحانه بالنباتات المتولّدة من الأرض والماء بقوله: ﴿**وَمِن كُلِّ**﴾ نوع من ﴿**ٱلثَّمَرَاتِ**﴾ كالتّمر والعِنب والمِشْمِش والخَوْخ ونظائرها ﴿**جَعَلَ**﴾ سبحانه وخلق ﴿**فِيهَا**﴾ بفضله ﴿**زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ**﴾ وصنفين مختلفين بالطبع كالحارّ والبارد، أو بالطعم كالحُلو والحامض، أو باللون كالأبيض والأحمر.

قيل: إنّ الله خلق من كلّ نوعٍ في بدو الخلق اثنين لا أقلّ ولا أزيد، كما خلق من نوع الانسان اثنين آدم وحوّاء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزروع[٥].

ثمّ لمّا كان الليل والنهار موجودين بحركة السماوات والشّمس، وبهما وبتعاقبهما يتمّ النظام ويكمُل الإنعام، استدلّ سُبحانه بهما على قُدرته وحكمته بقوله: ﴿**يُغْشِى**﴾ ويستُر الله ﴿**ٱلَّيلَ**﴾ وظلمته ﴿**ٱلنَّهَارَ**﴾ أو يُلبِس ظلمة الليل ضياء النهار فتذهب به.

ثمّ لمّا كان بعض الناس يُسنِدون الحوادث إلى الاختلافات الحاصلة في أشكال الكواكب من غير تفكّر، نبّه سبحانه بقوله: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من الحوادث ﴿**لَآيَاتٍ**﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وحدانية الصانع وقُدرته وحكمته ﴿**لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ فيها حقّ التفكّر، لا لمن لا فكر له ولا تأمّل، وفيه دلالةٌ على وجوب التفكّر فيها، فانّ من نظر إلى فوائدها ومصالحها والحكم التي أُعملت فيها، لا مناصّ له من الإذعان بوجود صانع قادر واحد حكيم.

أمّا الأرض فمن حيث امتدادها ورَخاوتها وملائمة طبعها لما عليها، وكونها كالبساط لساكنيها،

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨. ٢ـ٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٣٨.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٥.

وانشعاب المسالك والفِجاج للماشين في مناكبها وانفجار العيون، وتكوّن المعادن فيها، وخروج النباتات الكثيرة النافعة منها.

وأمّا الجبال فمن حيث رُسوّها وعلوّها، وخروج النباتات والمعادن والمياه الكثيرة منها، وغيرها من منافعها التي لا تُحصى.

وأمّا الأنهار فمن حيث كثرة منافعها وحياة الأرض وما عليها بها، وحصولها في بعض الأمكنة دون بعض.

وأمّا الثّمار فمن حيث كثرة أنواعها، واختلاف مقاديرها وألوانها وطعومها، وصلابتها ولطافتها، ومنافعها وخواصها وروائحها، واختلاف قُشورها في الكَثرة والقِلّة والغِلظة والرِّقّة والخاصية، واختلاف طبائع أجزاء كلٍّ منها من قشره ولحمه وعَجمه[1] ومائه، مع تكوّن مجموعها ومجموع شجرها من حَبّة واحدةٍ وماءٍ واحدٍ وأرضٍ واحدةٍ وهواءٍ واحدٍ وإشراق شمسٍ واحدة.

وأمّا الليل والنهار فمن حيث كثرة فوائدهما وكثرة اختلافهما في الفصول الأربعة في الطول والقِصر.

والحاصل أنّ الناظر في تلك الآيات بعين الاعتبار، يرى وَحْدة مدبّرها وقُدرته وحكمته.

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٤]

ثمّ بالغ سبحانه في الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ وبِقاع متلاصقات مختلفات في الصلابة والرّخاوة، والارتفاع والانخفاض، وكثرة النباتات[2] وقلّتها، وقابلية الزّرع وعدمها، وصلاحيتها العامة [للإنبات] الأشجار بعضها دون بعض وعدم صلوحها لها بالكلية، وأمثالها. ولو لم يكن ذلك الاختلاف بارادة القادر الحكيم، لامتنع تحقّقه لاشتراك القطعات في الجسمية والأرضية.

﴿وَ﴾ فيها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وبساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ مختلفة بالصِّنف واللّون ﴿وَ﴾ منها ﴿زَرْعٌ﴾ مختلفٌ ألوانه وصنوفه ﴿وَنَخِيلٌ﴾ مختلفٌ بالصِّنف بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ ونخل له ساقان أو أكثر على أصلٍ واحدٍ ﴿وَ﴾ بعَضها ﴿غَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ونخل له ساق واحد.

---

١. العَجَم: جمع عَجَمة، وهو نَوَىٰ كلّ شيء كالزَّبيب والرُّمان والبَلَح وغيرها.

٢. في النسخة: النبات.

وقيل: يعني بعضها متشابه، وبعضها غير متشابه، مع أنّ جميع القطعات والجنّات والزّرع والنخيل ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾[1] وتنبت الزروع والأشجار في أرضٍ واحدةٍ.

روى العلامة في (نهج الحق) عن جابر، وقال القاضي في (إحقاق الحق): أنّ في (كشف الغمة) نقلاً عن الحافظ أبي بكر بن مردويه، عن جابر، أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول: «النّاس من شجرٍ شتّى، وأنا وأنت يا عليّ من شجرةٍ واحدةٍ» ثمّ قرأ النبيّ ﷺ الآية[2].

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ والثمر من حيث المقدار والشّكل والطعم واللون والرائحة والخواصّ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الاختلاف بين القطع المتجاورة من الأرض وبين الأشجار المتّحدة في المنبت والهواء والماء وإشراق الشمس ﴿لَآيَاتٍ﴾ واضحةٍ وأدلّةٍ قاطعةٍ على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ من غير حاجة إلىٰ التفكّر.

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد إثبات قُدرته المستلزمة لعدم عجزه عن إعادة الخلق للحساب وحكمته الملازمة لتنزّهه عن العبث، أظهر غاية التعجّب من قول منكري المعاد بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمّد، أو أيّها الانسان من شيءٍ في العالم ومن عجائب الدهر ﴿فَعَجَبٌ﴾ كلّ العجب ﴿قَوْلُهُمْ﴾ استبعاداً للبعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ بعد الموت ﴿تُرَاباً﴾ نُبعَث؟!

ثمّ أكّدوا الانكار وقالوا: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ونُحيى مرّة اُخرى بعود أجسادنا وعود أرواحنا إليها، مع أنّ الله خلقهم أولاً بلا مثال من تُراب أو من نُطفة، ومن الواضح أنّ خلقهم ثانياً من التراب أهون ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنكرون للمعاد هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ حيث أنكروا قدرته وحكمته وكذّبوا وعده ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ تُجعَل ﴿ٱلْأَغْلَالُ﴾ يوم القيامة ﴿فِى أَعْنَاقِهِمْ﴾ ويُسحبون في السلاسل.

وقيل: إنّ المعنىٰ أنّ الكفر كالاغلال التي في الأعناق ملازمٌ لهم[3] ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٢.

٢. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٥، إحقاق الحق٣: ٣٦٠، كشف الغمة ١: ٣١٦.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٢٦، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٣.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد حكاية إنكارهم البعث حكى استهزاءهم بوعدهم النبيّ ﷺ بالعذاب الدنيوي بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ ويطالبونك أن تُسرع إليهم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والعذاب الدنيوي الذي تَعِدهم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وانقضاء مدّة العافية والإمهال.

قيل: إنّ النبي ﷺ كلّما هدّد المشركين بعذاب القيامة أنكروا البعث، وكلّما هدّدهم بعذاب الدنيا استعجلوه وقالوا: متى يجيئنا؟ استهزاءً وسخريةً، فيطلّبون العذاب بدل العافية والرحمة[1].

ثمّ ردّهم سُبحانه بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على وجودهم ﴿ٱلْمَثُلَاتُ﴾ والعقوبات التي صارت مثلاً، ونزلت على أمثالهم، وبقيت آثارها، فكيف لا يعتبرون بها مع اطّلاعهم عليها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ لا يعاجل في إهلاكهم، لكونه تعالى والله[2] ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وتجاوز ﴿لِلنَّاسِ﴾ مع إصرارهم ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ وعصيانهم، وتماديهم في طغيانهم، وإلّا لما بقي على ظهر الأرض من دابة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ إذا حان حِين العقوبة، واقتضت حكمته تعذيبهم البتّة ﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والعذاب.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ[٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد حكاية إنكار المشركين البعث ونبوة النبيّ ﷺ واستهزائهم به، حكى تعنّتهم عليه بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ اُخرى ومعجزة باهرة زائدة على ما أتى بها من القرآن، ونبوع الماء من أصابعه، وحنين الجذع لفراقه، وتسبيح الحصاة في كفّه ونظائرها ﴿مِن رَبِّهِ﴾.

ثمّ ردّهم سُبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ وواعظٌ لهم ومبيّن لهم المعارف، من توحيد الله وقدرته وحكمته وكمال صفاته، ومعلّم لهم أحكام الاسلام وشرائعه، وآتٍ بما يُثبت صِدق دعواك من المعجزات ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ في الأعصار السابقة ﴿هَادٍ﴾ من قبل الله ومنذرٌ لهم مثلك، ولم يأتوا من المعجزات إلّا مقداراً كافياً في إثبات نبوّتهم، وإن كان قومهم تعنّتوا عليهم، وإنّما اللازم على الله إتمام الحُجة وإعطاء النبيّ مايُثبت نبوّته، ولا يحسن منه إجابة المتعنّت لانجرارها إلى ما لانهاية له، أو أخذهم بعذاب الاستئصال، وليس عليك إلّا البلاغ، فلا يضيق صدرك بما يقولون.

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٤.

٢. كذا، ولا محلّ للقسم في الآية.

عن ابن عباس: الهادي هو الله[١].

وعنه أيضاً: أنّ المراد بالهادي هو عليّ عليه السلام، قال: وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على صدره فقال: «أنا المنذر» ثمّ أومأ إلى مَنكِب عليّ وقال: «أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون» رواه الفخر الرازي[٢] وغيره من مفسري العامة[٣].

وعن (المجمع): لمّا نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا المنذر، وعليّ الهادي من بعدي، ياعلي بك يهتدي المهتدون»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر، ولكلّ زمان منّا هادٍ يهديهم إلى ما جاء به نبي الله، الهادي[٥] من بعده عليّ ثمّ الأوصياء واحداً بعد واحد»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «كلّ إمام هادٍ للقرن الذي هو فيهم»[٧].

والقمي رحمه الله: هو ردّ على من أنكر أنّ في كلّ عصرٍ وزمانٍ إماماً، وأنّه لا تخلو الأرض من حُجّة[٨].

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ[٨و ٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد بيان كمال قدرته وحكمته، بيّن سعة علمه، لكمال مدخليته في البعث وجمع ذرات تراب كلّ جسدٍ لاعادة خلقه، وغاية مدخليته في تهديد المعتّين بقوله: ﴿**ٱللَّهُ**﴾ تعالىٰ بصفة علمه ﴿**يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ**﴾ من الذكر والأنثى، والجميل والقبيح، والطويل والقصير ﴿**وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ**﴾ وتنقصه من أعضاء الجنين ومدّة حمله التي أقلّها ستة أشهر، وعدده الذي أقلّه واحد ﴿**وَمَا تَزْدَادُ**﴾ الأرحام في أعضاء الجنين وتماميتها، وفي مدّة حَمْله التي أكثرها تسعة أشهر على ما هو المشهور المنصور[٩]. وقيل: عشرة أشهر[١٠]. وقيل: سنة[١١]، وعند الشافعي أربع سنين[١٢]، وعند مالك خمس سنين[١٣]، وفي العدد[١٤]: وهو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة على ما قيل[١٥].

عن أحدهما عليهما السلام: «﴿**مَا تَغِيضُ**﴾ كلّ حَمْل دون تسعة أشهر، ﴿**وَمَا تَزْدَادُ**﴾ كلّ شيءٍ يزداد على

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٩: ١٤.

٣. تفسير الطبري ١٤: ٧٢، تفسير النيسابوري ١٤: ٦٨ (هامش الطبري)، روح المعاني ١٣: ١٠٨، وراجع: إحقاق الحق ٣: ٨٨ - ٩٢ و٥٣٢ و١٤: ١٦٦ - ١٧١.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٢٧، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٥. في الكافي: نبي الله، ثم الهداة.

٦. الكافي ١: ٢/١٤٨، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٧. الكافي ١: ١/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٨. تفسير القمي ١: ٣٥٩، تفسير الصافي ٣: ٥٩.

٩ - ١٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٧.

١٤. أي عدد الأولاد في البطن الواحد.

١٥. تفسير الرازي ١٩: ١٥، تفسير روح البيان ٤: ٣٤٨.

تسعة أشهر، فكلّما رأت المرأة الدم في حَمْلها من الحيض فانّها تزداد بعدد الأيام التي رأت في حَمْلها من الدم»[١].

عن الصادق عليه السلام: «﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الذكر والأنثى، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما كان دون تسعة وهو غيض، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ ما رأت الدم في حال حَمْلها ازداد به على تسعة أشهر»[٢].

وفي رواية: «﴿مَا تَغِيضُ﴾ [ما] لم يكن حَمْلاً، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الذكر والأنثى جميعاً»[٣].

وعن القمي: ﴿مَا تَغِيضُ﴾ ما تُسقِط من قبل التمام، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على تسعة أشهر[٤].

وقيل: ﴿مَا تَغِيضُ﴾ من دم الحيض، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فيه[٥].

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ﴾ وفي علمه وحكمه محدود ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ وحدّ مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وجوده لا يجاوزه ولا يَنْقُص عنه، وهو تعالى ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ومطّلع على كلّ مستورٍ عن الحواسّ كالضمائر وما هو في ستر العدم ﴿وَٱلشَّهَادَةِ﴾ والحاضر عند الحواسّ، وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ والعظيم الذي لا يَعْزُب عن علمه شيء ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ والمستعلي على جميع الممكنات بقدرته.

في تحقيق معنى الكبير

قيل: إنّ الكبير هو ذو الكبرياء، وذو الكبرياء عبارة عن كامل الذات، وهو عبارة عن كامل الوجود وكمال الوجود، وأنّه أزلّ وأبدّ[٦]، فإن كلّ موجودٍ محدودٌ بالعدم السابق واللاحق فهو ناقص، ولذا يقال لمن طالت مدّة وجوده: إنّه كبير، ولا يقال: إنّه عظيم، فالكبير أعظم من العظيم، فالدائم الأزلي الأبدي الذي يستحيل عليه العدم أولى بأن يكون كبيراً، وأيضاً نقول: إنّ وجُوده تعالى هو الوجود الذي يصدُر منه كلّ وجود وموجود، فانْ كان الذي تمّ وجوده في نفسه كاملاً كبيراً، فالذي فاض منه الوجود لجميع الموجودات أولى بأن يكون كاملاً كثيراً، وأمّا المتعال فهو المبالغة في العُلى، وهو الذي لا رُتبة فوق رُتبته، فالعليّ المطلق هو الذي له الفوقية بحسب الوجوب لا بالاضافة، وبحسب الوجود الذي يقارنة إمكان النقص[٧].

وقيل: إنّ المتعال هو الذيتنزّه عن كلّ ما لا ينبغي، فيدُلّ على كونه تعالى قادراً على البعث الذي أنكروه، وعلى إتيان الآيات [التي] اقترحوها، وعلى العذاب الذي استعجلوه، وإنّما يوخّره لأجلٍ

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢١٨٩/٣٨٠، تفسير الصافي ٣: ٥٩.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٣/٣٨١، تفسير الصافي ٣: ٥٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٢/٣٨١، تفسير الصافي ٣: ٥٩.
٤. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٥٩.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٥٠٢.
٦. في النسخة: أزلاً وأبداً.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٤٩.

معدود[١].

سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ[١٠]

ثمّ بالغ سبحانه في تقرير سَعة علمه بقوله: ﴿سَوَاءٌ﴾ عليكم ومُستوفى علمه إن كان ﴿مِنكُمْ﴾ أيها النّاس ﴿مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ وأضمره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ وأظهره.

عن ابن عباس: سواء ما أضمرته القلوب، وأجهرت به[٢] الألسنة[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «يعني السّر والعلانية عنده سواء»[٤]. وكلّ من أسرّ وجهر ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ ومستتر ﴿بِالَّيْلِ﴾ وفي الظلمات ﴿وَ﴾ من هو ﴿سَارِبٌ﴾ وبارز ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وظاهر في الطرقات.

وقيل: المستخفي: الظاهر، والسارب: المتواري[٥].

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ[١١]

ثمّ بيّن سبحانه أنّه مع علمه بذاته بأعمال العباد وأحوالهم وقدرته على حِفظهم ﴿لَهُ﴾ ملائكة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من قبله تعالى يتعاقبون في حِفظه وكَلَاءته ويُحيطون به ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ في الليل والنهار، يعدّون عليه أعماله وأقواله، ويَطلّعون على أحواله و ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ من الآفات والمهالك، ويكون حِفظهم له ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿أَمْرِ ٱللهِ﴾ وحُكمه به وممّا أراده منهم.

وقيل: إنّ معنى (مِنْ) بمعنى باء، والمعنى: يَحْفَظونه بأمر الله[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «يَحْفَظُونه بأمر الله، ومن ذا الذي [يقدِر أن] يَحْفَظ الشيء من أمر الله»[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿مِنْ أَمْرِ ٱللهِ﴾، يقول: بأمر الله من أن يقع في رَكِيّ[٨] أو يقع عليه حائط، أو يُصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه، ويدفعونه إلى المقادير»[٩].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٢. في تفسير الرازي: وأضهرته.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٧.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٩.

٧. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

٨. الرَّكِيّ: جنس للرَّكيّة، وهي البئر، وجمعها: ركايا.

٩. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنهم ملائكة يَحْفَظونه من المهالك حتّى ينتهوا به إلىٰ المقادير، فيخلّون[١] بينه وبين المقادير»[٢].

وعن عمرو بن جُندب، قال: كنا جلوساً عند سعيد بن قيس بصفين إذ أقبل عليّ عليه السلام يتوكأ على عَنَزَة[٣] له بعدما اختلط الظلام، فقال سعيد: أأمير المؤمنين. قال: «نعم» قال: أما تخاف أن يغتالك أحدٌ؟ قال: «إنّه ليس من أحدٍ إلّا ومعه من الله حَفَظة من أن يتردّى في بئرٍ، أو يخرّ من جبلٍ، أو يصيبه حجر، أو تُصيبه دابة، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبين القدر»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «هما ملَكان يَحْفَظانه بالليل والنهار[٥] يتعاقبانه»[٦].

وعن عثمان أنّه قال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك؟ فقال: «مَلَك عن يمينك يكتُب الحسنات، وهو أمين على الذي على الشمال، فاذا عَمِلت حسنة كتب عشراً وإذا عمَلت سيئةً قال الذي على الشمال لصاحب اليمين: اكتب، فيقول: لا، لعلّه يتوب، فاذا قال ثلاثاً قال: نعم اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقلّ مراقبته لله تعالى واستحياءه منّا! وملكان من بين يديك ومن خلفك، فهو قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ومَلَك قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبّرت قصمك، وملكان على شفتيك يَحْفَظان عليك صلاتك عليّ، ومَلَك على فيك لا يدَع أن تدخُل الحيّة في فيك، ومَلَكان على عينيك، فهؤلاء عشَرَة أملاك على كلّ آدمي، تُبدّل ملائكة الليل بملائكة النّهار، فهم عشرون مَلَكاً على كلّ آدمي»[٧].

وعنه عليه السلام: «يتعاقب فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر»[٨].

قيل: فائدة كون الملائكة في جوانبه لحِفظه، ومعه لاحصاء أعماله وكَتْبِها، أنّ الانسان إذا عَلِم به وعَلِم جلالة المَلَك وعلوّ مقامه، كان إلى الحَذَر من المعاصي أقرب، وكذا يكون عظمة الربّ في نظره أجلى، وفي قلبه أظهر[٩].

وقيل: إنّ الملائكة يَحْفَظونه من بأس الله ونَقِمته إذا أذنب بدعائهم له، ومسألتهم ربّهم أن يُمهله

١. في مجمع البيان: فيحيلون.
٢. مجمع البيان ٦: ٤٣١، تفسير الصافي ٣: ٦١.
٣. العَنَزة: أطول من العصا وأقصر من الرمح، في أسفلها زُجّ كزُجّ الرمح، يتوكّأ عليها.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٠.
٥. في تفسير القمي وتفسير الصافي: بالليل وملكان بالنهار.
٦. تفسير القمي ١: ٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ٦٠.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٨.
٨. تفسير الرازي ١٩: ١٩.
٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٠.

رجاء أن يتوب[١].

ونُسِب إلىٰ ابن عباس أنه قال: إنّ المراد من المعقّبات الحرس والأعوان الذين يكونون حول الملوك والأمراء ليَحْفَظونهم من أمر الله، والمقصود بعثهم إلىٰ أن يَطلُبوا الحِفظ من الله، ولا يُعوّلوا في دفع البلايا على الأعوان والأنصار[٢].

ثمّ ذكر سبحانه عِلَّةً أُخرى لتأخير العذاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنِّعم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الشكر والأخلاق الحسنة والأحوال الحميدة بالإصرار على الكفر والصفات الرذيلة والأعمال القبيحة.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله قضى قضاءً حتماً لا يُنعِم على عبده نِعمة فيَسْلُبها إيّاه قبل أن يُحدث العبد ذنباً يستوجب بذلك الذنب سَلْب تلك النِّعمة، وذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾» إلىٰ آخره[٣].

وعن السجاد عليه السلام: «الذنوب التي تُغيّر النّعم البغي على الناس، والزوال عن المعاودة[٤] في الخير واصطناع المعروف [وكفران النعم] وترك الشُّكر» ثمّ تلا الآية[٥].

﴿وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بسبب سوء عقائدهم وقباحة أعمالهم[٦] ﴿سُوءاً﴾ وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا دافع عنه ﴿وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ على أمرهم يدفع عنهم ضرّهم وعذابهم المستحقّ.

عن ابن عباس: لم تُغنِ المعقّبات شيئاً[٧].

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ[١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد التخويف بأنّه لا مردّ لعذابه، ذكر الآيات الدالة على كمال قدرته الجامعة لجهتي النِّعمة والنِّقمة بقوله: ﴿هُوَ﴾ القادر الحكيم ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ ويُظهر لكم ﴿ٱلبَرْقَ﴾ واللُّمعة الحاصلة من السّحاب، ليُحدِث في قلوبكم ﴿خَوْفاً﴾ من نزول الصاعقة عليكم ﴿وَطَمَعاً﴾ في نزول المطر النافع لكم.

قيل: إنّ المراد حال كونهم خائفين منه وطامعين فيه[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٠.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٢١ و٢٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢١٩٨/٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ٦١.
٤. في معاني الأخبار وتفسير الصافي: عن العادة.
٥. معاني الأخبار: ٢/٢٧٠، تفسير الصافي ٣: ٦١.
٦. في النسخة: عقائده وقباحة أعماله.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٣.
٨. تفسير الرازي ١٩: ٢٣.

قيل: يخاف منه من له فيه ضرر كالمسافر، ومن في خزانه[١] التمر والزّبيب، ويطمع [فيه] من له نفع فيه[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم»[٣].

قيل: إنّ البرق مركّب من أجزاء مائية، وأجزاء هوائية ونارية، والغالب عليه هو الأجزاءالمائية، ومن الواضح أنّ الماء والنار ضدّان لا يمكن الجمع بينهما إلّا بقدرة الله القادر الحكيم[٤].

﴿وَ﴾ هو ﴿يُنشِئُ﴾ ويخلّق ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء. القمي: يعني يرفعها من الأرض[٥].

قيل: إنّ السّحاب جسمٌ مركّبٌ من الأجزاء المائية وأجزاء هوائية، وإنّما يحدُث هذا المركّب في الجوّ بقدرة الله[٦].

وقيل: إنّه أجزاء لطيفة مائية تتصاعد مع الأبخرة إلى الطبقة الباردة من الهواء، فاذا وصلت إليها بردت فتَثَقّلت فرجعت إلىٰ الأرض[٧].

أقول: قد مرّ بعض الكلام فيه، وظاهر كثير من الروايات أنّه جسمٌ غير سائر الأجسام، يحمل الماء من الأرض أو من السماء، وعلىٰ أي تقدير فهو دالّ على قدرة الله تعالى، فانّه تعالى جعل لكلّ شيء سبباً طبيعياً لتمييز التابع للعقل الناظر إلى ما وراء الطبيعة عمّن قصر نظره إلىٰ الأسباب والمحسوسات، ولا يتجاوز فكره عنها، وممّا يدلّ على كونه بقدرة الله تأثير الدعاء في وجوده علىٰ ما شوهد بالتجربة.

وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى ٱللهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[١٣]

ثمّ بيّن شبحانه عظمته وكبرياءه بقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ مقروناً ﴿بِحَمْدِهِ﴾ وثنائه ﴿وَ﴾ تُسبّح ﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ له، خاضعين له ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وخَشْيته لظهور أثر مهابته.

قيل: إنّ الرعد اسم مَلَك خُلق من نور مهابته، ويُطلَق على صوته الشديد، يسوق السّحاب به كما يسوق الحادي الإبل لحِدائه، فاذا سبّح أوقع الهيبة على الخَلْق كلّهم حتّى الملائكة[٨].

عن ابن عباس: أنّ اليهود سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن الرّعد ما هو؟ فقال: «مَلَك من الملائكة موكّل

---

١. في تفسير الرازي: وكمن في جرابه.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٢٤، تفسير روح البيان ٤: ٣٥٢.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥١/٢٩٤، تفسير الصافي ٣: ٦١.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٤.
٥. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦١.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٢.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٢.

بالسَّحَاب معه مَخارِيق من نارٍ يسوق بها السَّحاب حيث شاء الله». قالوا: فما الصوت الذي يُسمَع؟ قال: «زَجْره السَّحاب»[١].

وفي (الفقيه): روي «أنّ الرَّعد صوت مَلَك أكبر من الذُّباب وأصغر من الزُّنبور»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه بمنزلة الرجل يكون في الإبل فيزجُرها: هاي هاي، كهيئة ذلك»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: أنّه إذا سَمِع صوت الرعد قال: «سُبحان من يسبح الرعد بحمده»[٤].

وعن ابن عبّاس: من سَمِع [صوت] الرَّعد فقال: سبحان الذي يُسبح الرَّعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كلّ شيءٍ قدير؛ فأصابته[٥] صاعقة فعليّ دِيته[٦].

قيل: إذا سبّح الرَّعد ـ وتسبيحه ما يسمع من صوته ـ لم يبق مَلَك إلّا رَفَع صوته بالتسبيح، فينزل القَطْر والملائكة خائفون من الله[٧].

وفي الحديث: «البرق والرَّعد وعيدٌ لأهل الأرض، فإذا رأيتموه فكفّوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار»، وإذا اشتدّ الرَّعد قال صلى الله عليه وآله: «اللهمّ لا تَقتُلنا بغضبك، ولا تُهلِكنا بعذابك، وعافِنا قبل ذلك»[٨].

وقيل: إنّ الرَّعد هو نفس الصوت، وليس بمَلَك، ومعنى تسبيحه دلالة هذا الصوت على وجود موجود متعالٍ عن النقص والامكان، كما هو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[٩].

وقيل: إنّ المراد من كون الرَّعد مسبّحاً أنّ كلّ من يسمع الرعد [فإنّه] يسبّح الله تعالى[١٠].

﴿وَ﴾ هُوَ تعالىٰ ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ من السماء إلى هذا العالم ﴿فَيُصِيبُ﴾ الله ويُهلِك ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته وإهلاكه.

قيل: إنّ الصَّاعقة نارٌ لا دُخان لها، تسقُطُ من السماء، وتتولّد من[١١] السَّحاب، وهي أقوى نيران [هذا العالم]، فإنّها إذا نزلت من السَّحاب فربما غاصت في البحر فأحرقت الحيتان تحت البحر[١٢].

وفي [الحديث] النبوي السابق في بيان الرَّعد وأنّه مَلَك قال: «وإذا اشتدّ غضبه طارت من فيه نارٌ

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٥.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٠١/٣٣٤، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٣. تفسير العياشي ٢: ٢٢٠٢/٣٨٤، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٤. مجمع البيان ٦: ٤٣٤، تفسير الصافي ٣: ٦١.

٥. في مجمع البيان: فأن أصابته.

٦. مجمع البيان ٦: ٤٣٥.

٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٦، والآية من سورة الإسراء: ٤٤/١٧.

١٠. تفسير الرازي ١٩: ٢٦.

١١. في تفسير روح البيان: في.

١٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.

هي الصاعقة»[١].

قيل في شأن نزول الآية: إنّ رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى واحدٍ[٢] من فراعِنة العرب، قال: «فاذهب وادعهُ لي» فقال: يا رسول الله، إنّه أعتى من ذلك. قال: «فاذهب فادعهُ لي». قال: فذهبت إليه فقلت: يدعوك رسول الله، فقال: وما الله؟ أذَهَبٌ هو، أم فِضّة، أم من نُحاس؟ قال الراوي ـ وهو أنس ـ: فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره وقال: قد أخبرتك أنّه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا قال: «فارجِع إليه الثانية فادعُه» فرجع إليه فأعاد عليه مثل الكلام الأول، فرجع إلى النبيّ ﷺ فأخبره، فقال: «ارجِع إليه» فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه مثل ذلك الكلام، فبينما هو يكلّمه إذ بعث الله سَحابه حِيال رأسه فرعدت، فوقع منها صاعقة فذهبت بقِحفة رأسه، فأنزل الله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾[٣].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الصواعق لا تُصيب ذاكراً». قيل: مَن الذاكر؟ قال: «من قرأ مائة آية»[٤].

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ مع تلك الآيات الباهرة الدالة علىٰ توحيد الله وقدرته ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويشدّدون الخُصومة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ ويكذّبون الرسول الداعي إليه الواصف له بالعظمة والقدرة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿شَدِيدُ ٱلمِحَالِ﴾ وعظيم الكَيْد لأعدائه، فانّه يُهلِكهم من حيث لا يَشعُرون.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «شديد الأخذ»[٥]. وعن القمي: شديد الغضب[٦]. عن ابن عباس: شديد الحول[٧]. وقيل: شديد العقوبة[٨]. وقيل: شديد الفَقَار، وهو مَثَلٌ في القُوة[٩].

عن ابن عباس: نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطُّفيل وإرْبِد بن قيس ـ وهو أخو لبيد[١٠] بن ربيعة الشاعر لأُمّه ـ وذلك أنّهما أقبلا يُريدان رسول الله ﷺ فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، هذا عامر بن الطُّفيل قد أقبل نحوك. قال: «دعهُ، فان يُرد الله به خيراً يَهْده». فأقبل حتّى قام عليه فقال: يا محمد، مالي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم» قال: أتجعل لي الأمر بعدك؟ قال: لا، ليس ذلك إليّ، إنّما ذلك إلىٰ الله تعالى يجعله حيث يشاء». قال: أُسلم على أن لك المَدَر، ولي الوَبَر؟ يعني لك ولاية القُرى، ولي ولاية البوادي. قال: «لا». قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.
٢. في تفسير روح البيان: رجل.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٣.
٤. الكافي ٢: ٢/٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٦٢.
٥. مجمع البيان ٦: ٤٣٥، تفسير الصافي ٣: ٦٢.
٦. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦٢.
٧ و٨. تفسير الرازي ١٩: ٢٨.
٩. تفسير أبي السعود ٥: ١١.
١٠. في النسخة: يعبد.

لك أعنّة الخيل تغزو عليها» قال: أو ليس ذلك إليّ اليوم؟ وكان أوصى إلىٰ إزبد إذا رأيتني أُكلّمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يُخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه، فدار إزبد خلفه ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً ثمّ حبسه الله، فلم يقدِر على سَلّه، وجعل عامر يومئ إليه، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى إزبد وما يصنع بسيفه، فقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله علىٰ إزبد صاعقةً في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هارباً، فقال: يا محمّد، دعوت ربّك فقتل إزبد، والله لا ملأنّ عليك الأرض رجالاً؛ ألفاً أشعر وألفاً أمرد. فقال: «يمنعك الله من ذلك، وأبناء قَيلة[1]» يُريد الأوس والخزرج.

فنزل عامر بيت امرأة سَلُولية، فلمّا أصبح ضمّ إليه سلاحه، وخرج وهو يقول: واللات لئن أصحر محمّد إليّ وصاحبه ـ يعني مَلَك الموت ـ لأنفذنّهما[2] برمحي، فلمّا رأى الله ذلك منه أرسل مَلَكاً فلطمه بجَناحه، فأذراه بالتراب، وخرجت على رُكبته غُدّة عظيمة في الوقت، فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول: غُدّة كغُدّة البعير، وموت في بيت سَلولية، ثمّ مات على ظهر فرسه[3].

﴿لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[١٤ و ١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية مجادلة المشركين في الله وإصرارهم على عبادة الأصنام، خصّ العبادة والدعوة الحقّة المفيدة بنفسه بقوله: ﴿لَهُ﴾ تعالى خاصة ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ التي لا مجال لتوهّم بُطلانها، كما أنّ وجوده هو الحقّ في الموجودات، واعتقاد وجوده ووحدانيته هو الحقّ في الاعتقادات، وعبادته هي الحقّ في العبادات.

وعن ابن عبّاس: الدعوة الحقّ قول لا إله إلّا الله[4].

وقيل: يعني الدعوة المجابة غير الضائعة[5]. وقيل: يعني له دعوة المدعو إلى الحق الذي سَمِع[6] فيجيب[7].

---

١. في النسخة وتفسير روح البيان: قبيلة، تصحيف، وقَيلة: اسم أُمّ للأوس والخزرج قديمة، وهي قَيلة بنت كاهل.
٢. في النسخة: لأنفذتهما، والتصويب من روح البيان.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٤.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٨.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٥.
٦. في تفسير الرازي: المدعو الحق الذي يسمع.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٩.

﴿وَ﴾ أمّا ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبُدون شيئاً، أو الأصنام الذين يدعون هؤلاء المشركون بالله ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ وممّا سواه ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ دعاء الذين دعوهم، ولا يقضون ﴿لَهُم بِشَيْءٍ﴾ من حوائجهم، ولا يكون دعاؤهم وعبادتهم لهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ ومادّ يديه ﴿إِلَى ٱلْمَاءِ﴾ الذي في قعر البئر ﴿لِيَبْلُغَ﴾ ذلك الماء ﴿فَاهُ﴾ من دون أن يُخرجه بدلوٍ وحبلٍ، ومن الواضح أنّ ذلك الماء لا يكون واصلاً إلى فيه بنفسه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِۦ﴾ بصرف بسط اليد إليه واستدعائه أن يخرُج من البئر ويبلُغ فاه؛ لأنّه جمادٌ لا يسمع الدعاء، ولا يتحرّك من محلّه بغير محرّكٍ شاعرٍ، فكذا ما يدعو المشركون من الجمادات لا يسمعون دعاءهم، ولا يستطيعون إجابتهم، ولا يَقْدِرون على نفعهم.

عن الباقر عليه السلام: «هذا مَثَلٌ ضربه الله للذين يعبُدون الأصنام والذين يعبُدون الآلهة من دون الله فلا يستجيبون لهم بشيءٍ، ولا ينفعهم إلّا كباسط كفّيه إلى الماء ليتناوله من بعيدٍ ولا يناله»[1].

ثمّ بيّن عدم انتفاع المشركين بدعوتهم وعبادتهم بقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وعبادتهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ وضياع لا ينتفعون بها أبداً، ثمّ أنه تعالى بعد تخصيص الدعوة الحقّة بذاته المقدسة، خصّ الخضوع والانقياد أيضاً بنفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ ويخضع ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والجن والانس لظهور عظمته للكلّ، ونفوذ إرادته في الكلّ، ومقهورية الجميع تحت قدرته، فان كانت إرادته موافقة لاشتياقهم كالايجاد والاغناء والصحة، كان انقيادهم له ﴿طَوْعاً﴾ ورغبةً ونشاطاً، وإن كانت مخالفة له كالاعِدام والإفقار والإسقام، كان انقيادهم له اضطراراً ﴿وَكَرْهاً﴾.

والحاصل أنّ السجود على ما قيل هو الانقياد التكويني، فان كانت التغييرات الحاصلة في الأشياء بارادته تعالى موافقة لطباعها يكون انقيادها لها بالطوع، وإن كانت مخالفة لها يكون انقيادها بالكُره.

﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ يسجدون بهذا المعنى لله ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ والصباح ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ والأعصار، في أول النهار وآخره، وهما كناية عن جميع الأوقات من النهار، وإنما خصّهما بالذِّكر لكثرة ميلانها فيهما.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وسَجَدتْ له بالغدوّ والآصال الأشجار»[2].

وعن القمي: ظِلّ المؤمن يسجُد طوعاً، وظِلّ الكافر يسجُد كُرهاً، وهو نموهم وحركتهم[3].

وعنه أيضاً: تحويل كلّ ظلّ خلقه الله هو سجوده لله؛ لأنّه ليس شيء إلّا له ظلّ يتحرّك بتحريكه، وتحويله[4] سجوده[5].

---

١. تفسير القمي ١: ٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٦٢.
٢. نهج البلاغة: ١٩١/الخطبة ١٣٣، تفسير الصافي ٣: ٦٣.
٣. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٣.
٤. في المصدر: وتحريكه.
٥. تفسير القمي ١: ٣٨٦، تفسير الصافي ٣: ٦٣.

وقيل: إنّ المراد بالسجود السجود المعهود اختياراً، والعموم مخصوص بالمؤمنين[١].

عن الباقر عليه السلام: «أمّا من يسجُد من أهل السماوات طوعاً فالملائكة يسجُدون لله طوعاً، ومن يسجُد من أهل الأرض فمن وُلِد في الاسلام وهو يسجُد طوعاً، وأمّا من يسجُد له كَرهاً فمن اُجبر على الاسلام، وأمّا من لم يسجُد فظلّه يسجُد بالغَداة والعشيّ»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة): «فتبارك الله الذي يسجُد له من في السماوات والأرض طَوعاً وكُرهاً، ويعفَر له خَدّاً ووجهاً، ويلقي بالطاعة إليه سَلماً وضَعفاً، ويُعطي العباد[٣] رهبةً وخوفاً»[٤].

وقيل: إنّ المراد بالظلّ الجسد، لأنّه عنه الظلّ، أو لأنّه ظلّ للروح لأنّه ظلماني، والروح نوراني، وهو تابع له يتحرّك بحركته النفسانية، ويسكُن بسكونه[٥].

وقيل: لا يبعُد أن يخلُق الله للظلال عقولاً وأفهاماً تسجُد وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهاماً حتّى اشتغلت بتسبيح الله و[حتى] ظهر آثار التجلّي فيها كما قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[٦].

أقول: قد حقّقنا فيما سبق غير مرة أنّ الوجود ملازمٌ للشعور، وكلّما كمُل الوجود كمُل الشعور، وكلّما ضعُف ضعُف، وعليه نقول: إنّ لكلّ شيءٍ سجوداً وخشوعاً وتسبيحاً[٧] لله بحسب حاله، فجسم الكافر وروحه من حيث إنّه موجود لهما سجود وتسبيح لله، ولا يُدركهما الكافر لفقد بصيرته وعمى قلبه.

قال الزجّاج: جاء في التفسير أنّ الكافر يسجُد لغير الله، وظلّه يسجُد لله[٨].

قُلْ مَن رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِم نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِم قُلِ ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ[١٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامة البراهين الكثيرة على توحيده وكمال ذاته وصفاته وغاية عظمته وتخصيص الدعوة الحقّ والخضوع لها[٩]، أمر نبيه صلّى الله عليه وآله بأن يُلزِم المشركين بما هو بديهي العقل والفطرة بقوله:

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٩.
٢. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٣.
٣. في المصدر: له القياد.
٤. نهج البلاغة: ٢٧٢/الخطبة ١٨٥، تفسير الصافي ٣: ٦٣.
٥. تفسير الصافي ٣: ٦٣.
٦. تفسير الرازي ١٩: ٣٠، والآية من سورة الأعراف: ١٤٣/٧.
٧. في النسخة: سجود وخشوع وتسبيح.
٨. تفسير الرازي ١٩: ٣٠.
٩. في النسخة: به.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمشركين ﴿مَن رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وخالقهما ومالكهما ومدبّر اُمورهما؟.
ثمّ لمّا كان الجواب من الوضوح بمثابة [ما] لا يليق التأمّل فيه، وكانوا أيضاً معترفين به، أمر نبيه ﷺ بالسرعة في الجواب بقوله: ﴿قُلْ﴾ من غير ريثٍ وانتظار لجوابهم: هو ﴿ٱللهُ﴾ وحده لا شريك له.

ثمّ أمر نبيه ﷺ بتوبيخهم على الشرك بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم﴾ واخترتم مع ذلك ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه من مخلوقاته لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ونظّاراً في مصالحكم، ووكلاء في اُموركم مع كونهم جمادات ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِم نَفْعاً﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرّاً﴾ يدفعونه لغاية عجزهم وعدم شعورهم، فاذا عَجَزوا عن تحصيل النفع لأنفسهم ودفع الضرر عنهم، كانوا من تحصيل نفعكم ودفع الضرر عنكم أعجز، فاذن كانت عبادتهم والخضوع لهم عين السّفه والعبث.

ثمّ لمّا كان المشركون يمتنعون من اتّباع النبي ﷺ، ويدّعون تساويهم معه في البشرية وعدم فضيلة له عليهم، وكان ذلك من عمى قلوبهم، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالزامهم بما هو البديهي عند جميع العقلاء من عدم التساوي بين العالم والجاهل بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لمن يَقْدَح في نبوتك بكونك بشراً مثلهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ﴾ الواقعي الذي لا بصيرة له ﴿وَالبَصِيرُ﴾ بجميع المعارف والعلوم الحقيقية؟ فأنتم ذلك الأعمى، وأنا ذلك البصير، فكيف أكون مثلكم؟ ثم تَدَّعون أنّ الشرك أفضل من التوحيد، وأنا أسألكم ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَاتُ﴾ وهي شُعب الشرك وأنواعه التي أنتم فيها ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو التوحيد الخالص الذي أنا فيه.

ويحتمل أن يكون المقصود من الجملتين ترغيبهم إلىٰ الإيمان، كما عن القمّي حيث قال في تفسير الأعمى والبصير: يعني الكافر والمؤمن. وفي تفسير الظلمات والنور: يعني الكفر والايمان[1].

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان غاية خطأ المشركين في اتخاذ الأصنام أولياء، أكّد ذلك ببيان عدم علّة لخطئهم ذلك إلّا ما هو أوضح في البطلان ممّا ادّعوه بقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ قيل: يعني بل جعلوا[2] ﴿لِلهِ شُرَكَاءَ﴾ ولا وجه لذلك إلّا أنهم رأوا أصنامهم ﴿خَلَقُوا﴾ أشياء ﴿كَخَلْقِهِ﴾ تعالى ﴿فَتَشَابَهَ﴾ والتبس ﴿ٱلخَلْقُ﴾ والخالق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: إنّ الأصنام لمّا تشارك الله في الخلق، وجب أن تشاركه في الاُلوهية والعبادة، مع وضوح أنّهم لن يَخْلُقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له.

إذن ﴿قُلِ﴾ لهم - يا محمّد - إرشاداً لهم إلى الخلق، وإعلاناً بما في قلوبهم: ﴿ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شىءٍ﴾ من الأرواح والأجسام والجواهر والأعراض، لا خالق غيره حتى يُشاركه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿ٱلوَاحِدُ﴾ بلا شبيه، المتوحّد بالاُلوهية ﴿ٱلقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء الغالب على جميع الممكنات،

---

١. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٤.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٦٤.

ومنها آلهتكم وأصنامكم، فكيف يمكن أن يكون أولياؤكم شركاءه تعالى في الألوهية والعبادة؟!

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ[١٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد ضرب المثل لنبيه ﷺ وللمشركين وللشرك والتوحيد، أوللكافر والمؤمن، وللايمان والكفر، بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، ضرب مثلين للحقّ والباطل توضيحاً للحق بقوله: ﴿أَنزَلَ﴾ الله ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المُطلّ[١]، أو من جهة العلوّ ﴿مَاءً﴾ مباركاً إلى الأرض ﴿فَسَالَتْ﴾ من ذلك الماء المنزل ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ وأراضٍ منخفضةٌ عن الجبال والتلال، وجرى الماء فيها ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وحدّ سَعَتها، أو بمقدارها الذي عَلِم الله أنّها النافع للناس، فيسيل ذلك الماء ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ ذلك ﴿ٱلسَّيْلُ﴾ والماء الكثير الجاري في تلك الأودية لشدّة جريانه ﴿زَبَداً﴾ ورَغْواً ﴿رَابِياً﴾ ومرتفعاً عليه، أو طافياً فوقه.

ثمّ بعد ضرب المثل للباطل بالزَّبد الحاصل من الماء، ذكر الزَّبد الحاصل من النار بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ ويُذوّبه الناس ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ من الفِلِزّات السبعة: الذَّهب، والفِضّة، والنُّحاس، والرّصاص، والصُّفر، والحَديد، والزِّئبق ﴿ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ وطلباً للزِّينة كالقُرط والسِّوار والخَلْخَال وغيرها ﴿أَوْ﴾ طلب ﴿مَتَاعٍ﴾ من أثاث وآلات يُنتَفع بها كالأواني وأسلحة الحرب وأدوات الحَرْث، فانّه بعد ذَوْبه ينشأ عليه ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ كزبَد الماء، يقال له الخَبَث ﴿كَذٰلِكَ﴾ المثل البديع المطابق للمُمثّل له ﴿يَضْرِبُ ٱللهُ﴾ العالِم بحقائق الأشياء ليبيّن ﴿ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ﴾ فانّ الحقّ كالماء الصافي ومُذابَ الفِلزّ الخالص، والباطل كالزَّبد والخَبَث.

ثمّ بيّن سبحانه وجه الشَّبه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الذي للماء ومذابَ الفِلزّ ﴿فَيَذْهَبُ﴾ ويُعدَم من بين النّاس حال كونه ﴿جُفَاءً﴾ وغير مُنْتَفَع به، وإن كان على الماء والفِلزّ المذابَ في بدو حدوثه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ في معاشهم ومعادهم كالماء الصافي الذي به حياة كلّ شيءٍ، والفِلزّ الخالص الذي صار زِينةً ومَتاعاً لهم ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويبقى ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلها، فإنّ الماء يَنفَذ في عُروق الأرض، ثمّ يَنبُع من العيون والآبار والقَنَوات، والفِلزّ الخالص يدوم سنين متطاولة

---

١. السماء مؤنث، وقد يذكّر.

﴿كَذٰلِكَ﴾ المثل الذي هو في غاية المطابقة للمُمثَّل له ﴿يَضْرِبُ ٱللهُ﴾ ويبيّن ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ الأُخر التي يأتي بها في كتابه الكريم لإيضاح المطالب العالية للذين لا يُدركونها إلّا بذِكر ما يُشابهها من المحسوسات.

قيل: إنّ الماء الذي به حياة الأشياء مَثَّل للقرآن الذي به حياة القلوب، والأودية مَثّل للقلوب، فانّ كلّاً منهما يستفيض من القرآن بقدر استعداده وظرفيته، والزّبَد مَثَل الهواجس النفسانيّة والوساوس الشيطانية، وكما أنّ الزّبَد لا وزن له ولا نفع، كذلك الباطل لا قدر له ولا ثواب عليه، والحقّ والايمان يُنْتَفَع به في الدنيا والآخرة، كما يُنْتَفَعُ بالماء في الدنيا غاية الانتفاع، والكفر والباطل لا يُنْتَفَع بهما لا في الدنيا ولا في الآخرة[١].

عن القمي رحمه الله يقول: أنزل الله الحقّ من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها؛ ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشكّ على قدر شكّه، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجُفاءً، فالماء هو الحقّ، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزّبد وخُبث الحِلية هو الباطل[٢]، والمَتاع هو الحقّ، من أصاب الحِلية والمتاع في الدين انتفع به، وكذلك صاحب الحقّ يوم القيامة ينفعه، ومن أصاب الزّبد وخُبث الحِلية لم يَنْتَفِع، وكذلك صاحب الباطل يوم القيامة لا يَنْتَفِع به[٣].

وفي (الاحتجاج) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قد بيّن الله تعالى قَصَص المغيّرين، فضرب مثلهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالزّبَد في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن، وهو يضمحلّ ويبطُل ويتلاشى عند التحصيل، والذي ينفع الناس منه فالتنزيل الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا ومن خلفه، والقلوب تقبله، والأرض في هذا الموضع هي محلّ العلم وقراره» الحديث[٤].

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[١٨]

ثمّ بيّن سُبحانه فائدة الحقّ والخلوص في عبادته بقوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ اختاروا دين الحقّ و﴿ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ دعوته الحقّ بأن آمنوا بتوحيده ورسالة رسوله وعَمِلوا بمرضاته الاستجابة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٠.
٢. في المصدر: والزبد هو الباطل والحلية.
٣. تفسير القمي ١: ٣٦٢، تفسير الصافي ٣: ٦٤.
٤. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ٣: ٦٥.

الله أو المَثوبة الحسنى وهي الجنّة والنِّعم الدائمة، أو الحالة الحسنى في مدّة عمرهم وهي الإعراض عن الدنيا وفَرَاغة القلب من همّها، والأنس مع الله والالتذاذ بمناجاته، وإقبال القلب إلى الآخرة، والاشتغال بما يوجب الفوز بنعمها.

﴿وَ﴾ أمّا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ سَمِعوا دعوة ربّهم و﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ ولم يقبلوا دين الحق واتّبعوا الباطل ﴿لَوْ﴾ فُرِض ﴿أَنَّ لَهُم﴾ في القيامة ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من النقود والأمتعة والضِّياع والعَقار وغيرها ﴿وَ﴾ أن ﴿مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وكان لهم ضِعف ما في الدنيا ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أنفسهم من العذاب، وبذلوه لتخليص أنفسهم منه، ما تقبّل منهم ﴿أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ﴾.

عن عائشة، عن النبيّ ﷺ: «ليس أحد يُحاسَب يوم القيامة إلّا هَلَك» قلت: أو ليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾؟[1] فقال: «إنّما ذلك العَرض، ولكن من نُوقِش في الحساب يهلك»[2].

عن الصادق عليه السلام ـ في تفسير سوء الحساب ـ قال: «هو أن لا يقبل منهم حسنة، ولا يغفر لهم سيئة»[3].

ثمّ بيّن الله ما يترتّب على سوء الحساب والمناقشة فيه بقوله: ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ ومرجعهم بعد المناقشة في الحساب ﴿جَهَنَّمُ﴾ ﴿وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمستقرّ الذي مَهَدوه لأنفسهم.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ [١٩ و ٢٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد إنكاره التساوي بين الأعمى والبصير، بيّن المراد منهما بقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ ببصارة قلبه وتنوّر ضميره ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ من القرآن وما فيه من المعارف والأحكام هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والثابت في الواقع ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ لظلمة باطنه وخُبث ذاته والختم على قلبه ﴿أَعْمَىٰ﴾ فاقد البصيرة بحيث لا يرى المَهْلَكة والمأمن، ولا يميز الضارّ والنافع، لا والله ليس أحدهما كالآخر و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ التباين بينهما، أو نفع هذه الأمثلة، أو نصائح القرآن ﴿أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة عن شوائب الأوهام.

قال العلامة في (نهج الحق): ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ هو عليّ عليه السلام[4].

ثمّ وصف الله العالمين بحقّانية ما أنزل، أو أُولوا الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ﴾ الذي أخذ منهم على الايمان بتوحيده ورسالة رسله والعمل بأحكامه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾ ذلك ﴿ٱلْمِيثَاقَ﴾ الذي

---

١. الانشقاق: ٨/٨٤. ٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٦١.
٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٢، تفسير الصافي ٣: ٦٥. ٤. نهج الحق وكشف الصدق: ١٩٧.

واثقهم به بالشِّرك وارتكاب المعاصي.

عن ابن عباس: يُريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صُلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[١].

وقيل: إنّ الميثاق ما واثقه[٢] المكلّف على نفسه والتزم به بنَذْر وشِبهه[٣].

عن الكاظم عليه السلام: «نزلت هذه الآية في آل محمّد صلى الله عليه وآله، وما عاهدهم عليه، وما أخذ عليهم من الميثاق في الذَرّ من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام بعده»[٤].

وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَٱلْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ[٢١ ـ ٢٤]

ثمّ وصفهم بالعمل بأهمّ التكاليف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من رَحِم آل محمّد صلى الله عليه وآله ورَحِم نفسه. عن الصادق عليه السلام: «نزلت في رَحِم آل محمّد صلى الله عليه وآله، وقد تكون في قرابتك» الخبر[٥].

وعنه عليه السلام: «الرحم معلّقة بالعرش تقول: اللهمّ صِلْ من وَصَلني واقطع من قطعني. وهي رحم آل محمّد صلى الله عليه وآله، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ورحم كلّ ذي رحم»[٦].

وقيل: إنّ المراد رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخُل فيه [صِلة الرَّحِم و] صِلة القرابة الثابتة بسبب إخوَة الإيمان، ومن صِلتِهم إمدادهُم بإيصال الخيرات إليهم، ودفع المكارة والآفات عنهم[٧].

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعذابه، أو مهابته ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ﴾ بالخصوص، فلذا يُحاسِبون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا.

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٤٠، والآية من سورة الأعراف: ١٧٢/٧.
٢. في تفسير الرازي: ما وثقه.
٣. تفسير الرازي ١٩: ٤١.
٤. تفسير القمي ١: ٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٦٦.
٥. الكافي ٢: ٢٨/١٢٥، تفسير الصافي ٣: ٦٦.
٦. الكافي ٢: ٧/١٢١، تفسير الصافي ٣: ٦٦.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٤١.

عن الصادق عليه السلام: «هو أن تُحسَب عليهم السيئات، ولا تُحسَب لهم الحسنات، وهو الاستقصاء»[١].

وعنه عليه السلام: أنّه تلا هذه الآية حين رأى رجلاً استقصى حقّه من أخيه، وقال: «أتراهم يخافون أن يظلِمهم أو يجور عليهم؟ لا ولكنّهم خافوا الاستقصاء والمُداقّة، فسمّاه الله سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء»[٢].

وعنه عليه السلام: «لو لم يكن للحساب مهولة إلاّ حياء العرض على الله، وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحقّ للمرء أن لا يهبِط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلّا عن اضطرارٍ مُتصل بالتّلف»[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله وترك المشتهيات ومصائب الدهر ﴿ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وطلباً لمرضاته ومَثُوباته، واستغراقاً في محبّته[٤].

ثمّ لمّا كانت الصلاة والزكاة أهم العبادات، خصّهما بالذكر بقوله: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَنفَقُوا﴾ على الفقراء والمحتاجين ووجوه البرّ بعَضاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من الأموال الزكوية بقصد الزكاة والقربة ﴿سِرّاً﴾ إذا لكم يكن في معرض الاتهام بترك أداء الزكاة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ وجهراً إذا كان في معرضه.

وقيل: إن المراد الصدقات المندوبة، فانّها تُنفَق سرّاً، أو الزكاة الواجبَة فانّها تودّى علانية[٥].

وقيل: إنّ المراد الإنفاق من جميع ما أعطاه الله من المال والعلم والجاه والقوى.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ ويدفعون ﴿بِالحَسَنَةِ﴾ والأعمال الخيرية، أو بالتوبة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ من المعاصي والخطايا.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، ما من دارٍ فيها فرحة إلّا تتبعها تَرْحة، وما من همّ إلّا وله فَرَج إلّا همّ أهل النار. يا علي، إذا عَمِلت سيئة فاتبعها بحسنةٍ تَمْحُها سريعاً، وعليك بصنائع الخير فإنّها تدفع مصارع السوء»[٦].

وعن النبي صلى الله عليه وآله، قال لمُعاذ بن جَبَل: «إذا عَمِلت سيئةً فاعمل بجنبها حسنة تَمْحُها»[٧].

وقيل: إنّ المعنى يجازون الإساءة بالاحسان، والظلم بالعفو، والمنع بالعطاء، والقطع بالصلة[٨].

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢١٧/٣٨٨، مجمع البيان ٦: ٤٤٤، تفسير الصافي ٣: ٦٧.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢١٨/٣٨٨، تفسير القمي ١: ٣٦٤، تفسير الصافي ٣: ٦٦.
٣. مصباح الشريعة: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ٦٧.
٤. في النسخة: محبة.
٥. تفسيرالرازي ١٩: ٤٣.
٦. تفسير القمي ١: ٣٦٤، تفسير الصافي ٣: ٦٧.
٧. مجمع البيان ٦: ٤٤٤، تفسير الرازي ١٩: ٤٣.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٦.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الكاملون المتّصفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ عُقْبَى﴾ حسنة محمودة لهذه ﴿الدَّارِ﴾ الفانية، وتلك العاقبة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وبساتين إقامة. وقيل: جنّات عدنٍ هي جنات في وسط الجنان[١]، هم ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في الآخرة ﴿وَ﴾ معهم ﴿مَن صَلَحَ مِن آبائِهِمْ﴾ قيل: المراد بالآباء أعمّ من الأُمهات، وإنّما الصلاح بالايمان والعمل[٢].

عن ابن عباس: يُريد من صدّق بما صدّقوا به، وإن لم يعملوا مثل عملهم[٣].

﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وأولادهم وأولاد أولادهم وإن نزلوا، تَبَعاً لهم، وتعظيماً لشأنهم، وليكونوا مسرورين بهم، آنسين بصحبتهم وإن لم يبلغُوا في الفضل مبلغهم، كما عن ابن عباس[٤].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عن المؤمن له امرأة مؤمنة يدخُلان الجنة، يتزوج أحدها الآخر؟ فقال: «إنّ الله حَكَم عَدل، إذا كان أفضل منها خيّره، فان اختارها كانت من أزواجه، وإن كانت هي خيرٌ منه خيّرها، فان اختارته كان زوجاً لها»[٥].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: أنّ أُمّ سَلَمة قالت له: بأبي أنت وأُمّي، المرأة يكون لها زوجان فيموتان، لأيّهما تكون؟ فقال: «يا أُمّ سَلَمة، تخيّر أحسنهما خُلقاً، وخيرهما لأهله. يا أُمّ سَلَمة، إن حُسن الخُلق ذهب بخير الدنيا والآخرة»[٦].

ثمّ روي عن ابن عباس: أنّ لهم خَيمةً من دُرّة مجوّفة، طولها فَرْسَخ، وعَرضها فَرْسَخ، لها ألف باب، مصاريعها من ذهب[٧].

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ﴾ وقيل: يَدخلون من كلّ بابٍ من أبواب البِرّ، كباب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصوم، وباب الصبر[٨]. أو من أبواب غُرفهم وقُصورهم، وهم مع غاية جلالتهم وعظمة منزلتهم يقولون لهم تحيةً وإكراماً وبشارةً بدوام سلامتهم من المكاره: أيها المؤمنون ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ وإنّما يكون ذلك السلام والتكريم لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في الدنيا على طاعة الله وشدائد الدهر، وأبشروا بأنّ مصيركم إلى الجنة ونعيمها، فتلك عاقبة أمركم ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ التي كنتم فيها.

روى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يأتي قبور الشهداء رأس كلّ حولٍ، فيقول: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٩].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٦٧.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ١٩: ٤٤.
٥. مجمع البيان ٩: ٣١٨، تفسير العياشي ٣: ٦١/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٦٨.
٦. الخصال: ٣٤/٤٢، تفسير الصافي ٣: ٦٨.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٤٥.
٨. تفسير الرازي ١٩: ٤٥.
٩. تفسير الرازي ١٩: ٤٥، تفسير أبي السعود ٥: ١٨.

القمي: نزلت في الأئمة عليهم السلام وشيعتهم الذين صبروا[1].

عن الصادق عليه السلام قال: «نحن الصُبّر، وشيعتنا أصبر منّا، لأنّا صبرنا على ما نعلم، وهم صبروا على ما لا يعلمون»[2].

وعن الباقر عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في حديث يصف فيه حال المؤمن إذا دخل الجِنان والغُرف ـ [قال:] «ثمّ يبعث الله له ألف مَلَك يهنّئونه بالجنّة، ويزوّجونه بالحوراء، فينتهون إلىٰ أول بابٍ من جِنانه، فيقولون للمَلَك الموكّل بأبواب الجِنان: استاذن لنا على وليّ الله، فانّ الله قد بعثنا مهنّئين. فيقول المَلَك: حتّى أقول للحاجب، فيُعلمه مكانكم. فيدخُل المَلَك إلىٰ الحاجب، وبينه وبين الحاجب ثلاث جِنان، حتّى ينتهي إلى أول باب فيقول للحاجب: إنّ على باب العَرْصة ألف مَلَك أرسلهم الله ربّ العالمين يهنّئون وليّ الله [وقد سألوني أن آذن لهم عليه، فيقول الحاجب: إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحدٍ على وليّ الله وهو مع زوجته الحوراء. قال: وبين الحاجب وبين وليّ الله جنّتان، قال: فيدخُل الحاجب إلى القيّم فيقول له: إنّ على باب العَرْصة ألف مَلَك أرسلهم ربُّ العزّة يهنّئون وليّ الله] فاستاذن [لهم]. فيقوم القيّم إلى الخُدّام فيقول لهم: إنّ رُسل الجبّار على باب العَرصة، وهم ألف مَلَك يهنّئون ولي الله، فأعلموه مكانهم، فيُعلمه الخُدّام مكانهم، فيُؤذن لهم فيدخُلون على وليّ الله وهو في الغُرفة، ولها ألف باب، وعلى كلّ باب من أبوابها مَلَك موكّل به، فاذا أُذِن للملائكة بالدخول على وليّ الله، فتح كلّ مَلَك بابه الذي وكّل به، فُيدخِل [القيّم] كلّ مَلَك من باب من أبواب الغُرفة، فيُبلّغونه رسالة الجبّار، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ﴾ يعني من أبواب الغُرفة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾»[3].

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ[٢٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد توصيف المؤمنين الذين هم أهل البصيرة وتنوّر القلب بالصفات الكريمة، وبيان ما يترتّب عليها من الكرامة والنِّعم وحُسن العاقبة، ذَكَر صفات الكفّار الذين هم عُمي القلوب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ﴾ الذي أُخذ عليهم بالإيمان والطاعة ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وتوكيده بالاقرار والقَبول.

القمي: يعني في أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أخذ الله عليهم في الذرّ، وأخذ عليهم رسول

---

١ و٢. تفسير القمي ١: ٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٦٨. ٣. الكافي ٨: ٩٨/٦٩، تفسير الصافي ٣: ٦٨.

الله ﷺ في غدير خُم[١].

أقول: يعني هذا العهد من جملة العهود التي نقضوها.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من حبل ولاية الله ورسوله والأئمة والمؤمنين والأرحام **﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾** بالكفر والطغيان والعصيان والظلم على العباد وتهييج الفتن بين المسلمين.

ثمّ بيّن الله نتيجة تلك الرذائل بقوله: **﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾** والبُعد عن الرحمة في الآخرة **﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ﴾** العاقبة في هذه **﴿ٱلدَّارِ﴾** الدنيّة، وهي جهنم وبئس القرار.

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[٢٦ و ٢٧]

ثمّ لمّا كان مجال توهّم المنافاة بين البُعد عن الرحمة ووفور النعمة عليهم في الدنيا، دَفَعه الله سبحانه بقوله: **﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾** ويوسّعه في الدنيا **﴿لِمَن يَشَآءُ﴾** بَسْطه وتوسيعه عليه **﴿وَيَقْدِرُ﴾** ويضيّق على من يشاء تقديره وتضييقه عليه على حسب اقتضاء حكمته في نظام العالم وصلاح الأشخاص من غير مدخلية للايمان والكفر فيه، بل كثيراً ما يكون صلاح المؤمن في الفقر والشدّة؛ لأنّه موجبٌ لإقبال قلبه إلى الله، وإعراضه عن الدنيا، واستحقاقه مَثُوبة الصبر، والكفر يكون من عقوبته توفير النِّعم الموجب لخِذلان الكافر وبُعده من الله واستغراقه في الدنيا.

ثمّ وبّخ الكفّار على حبّهم الدنيا وفرحهم بها بقوله: **﴿وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾** ونعيمها ولذائذها **﴿وَ﴾** الحال أنّه **﴿مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾** ونِعَمها **﴿فِى﴾** جَنْب **﴿ٱلْآخِرَةِ﴾** ونِعَمِها **﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾** قليلٌ ونفعٌ يسير في أيام قلائل، ثمّ يفنى ويزول، ولذا لا ينبغي للعاقل أن يفرح به، وعليه أن يهتمّ في تحصيل الآخرة ونِعمها الدائمة التي لا انقطاع لها أبداً.

ثمّ أنه تعالى بعد ذمّ الكفّار بالصفات الرذيلة، ذمّهم باللّجاج والتعنّت على النبيّ ﷺ بقوله: **﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾** ومعجزةٌ زائدةٌ على ما أتى به، أو كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام **﴿مِّن رَّبِّهِ﴾** الذي يدّعي رسالته من قبله **﴿قُلْ﴾** يامحمّد: قد أنزل الله عليَّ من المعجزات زائداً على ما يكتفي به العاقل المنصف في الإيمان والتصديق، كما تَرَون أنّه اكتفى به جمعٌ كثيرٌ، وإنّما لا تكتفون بما أُتيت لعدم قابليتكم[٢] للهداية **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾** ويحرف عن طريق

---

١. تفسير القمي ١: ٣٦٣، تفسير الصافي ٣: ٦٩.

٢. كذا، ولعلّه يريد استحقاقكم.

الحقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ضلالته وانحرافه عنه بسبب خِذلانه المترتّب على خُبث ذاته ورَذالة صفاته وسيئات أعماله ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحقّ، ويُوصِل ﴿إِلَيْهِ﴾ بلُطفه وتوفيقه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ إلى الحقّ وطلبه وأعرض عن العِناد واللّجاج.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ[٢٨]

ثمّ وصف سبحانه المهتدين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ووَحْدانيّته ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ وتسكُن ﴿قُلُوبُهُم﴾ عند شدائد الدنيا وزلازلها ﴿بِذِكْرِ ٱللهِ﴾ وتذكّر ألطافه بالمؤمنين ورحمته بالذاكرين، وكونه ولياً لهم، وناظراً في صلاحهم، ومحبّاً لهم بحيث لا يرضى بمساءتهم.

عن ابن عباس: يُريد أنّهم إذا سَمِعوا القرآن خَشَعت قلوبهم واطمأنّت. وقيل: إنّ علمهم بكون القرآن معجزاً، يُوجِب الطُّمأنينة لهم بكون محمّد ﷺ نبياً حقّاً من عندالله. وقيل: إنّه اطمأنّت قلوبهم بصدق الله في وعده ووعيده[1].

﴿أَلَا﴾ تنبهّوا أيها النّاس أنّه ﴿بِذِكْرِ ٱللهِ﴾ والتفكّر في عظمته وقدرته وكرمه ولُطفه ورأفته ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وتستقرّ الأفئدة من الاضطراب والشكّ بنور اليقين.

عن الصادق عليه السلام: «بمحمّد ﷺ تطمئنّ»[2].

القمي: الذين آمنوا الشيعة، وذكر الله أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام[3].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ[٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر حُسن حال المؤمنين في الدنيا، نبّه نبيّه ﷺ على حُسن حالهم في الآخرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ﴾ التي هي شجرة عظيمة في الجنّة ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ومرجع في الآخرة لهم.

عن النبي ﷺ أنه قال: «طوبى شجرة في الجنّة غَرَسَها الله بيده، تُنبِت الحُلي والحُلل، وإنّ أغصانها لتُرى من وراء سُور الجنّة»[4].

رووي أن أصل هذه الشجرة في دار النبيّ ﷺ وفي دار كلّ مؤمنٍ منها غُصن[5].

عن الصادق عليه السلام: «طوبى شجرة في الجنّة أصلها في دار النبيّ ﷺ، وليس مؤمن إلّا وفي داره

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٤٩.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٢٣/٣٩٠، تفسير الصافي ٣: ٧٠.
٣. تفسير القمي ١: ٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٧٠.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

غُصن منها، لا يخطِر على قلبه شهوة شيء إلّا أتاه به، ولو أن راكباً مُجَداً سار في ظِلّهامانة عام ما خرج منه، ولو طار من أسفلها غُراب ما بلغ أعلاها حتّى يسقُط هَرِماً، ألا ففي هذا فارغبوا»[١].

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام، قال: «أصلها في دار عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

وعن الكاظم عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه سُئِل عن طُوبى، قال: شجرةٌ أصلها في داري، وفرعها على أهل الجنّة. ثمّ سُئل عنها مرّة اُخرى فقال صلى الله عليه وآله: في دار عليّ. فقيل له في ذلك فقال: إنّ داري ودار عليّ في الجنّة بمكانٍ واحدٍ»[٣].

أقول: يمكن أن يقال شجرة طوبى صورة مثالية لدين الإسلام، فانّ مبدأها ومنشأها الرسول وأمير المؤمنين عليهما السلام، ثمّ انبسط منهما في قلوب المؤمنين، وكان انتفاع المؤمنين وسعادتهم الأبدية وحظوظهم به.

وقيل: إنّ طُوبى اسم الجنّة[٤]. وقيل: إنّ طُوبى مشتقّ من طاب كبُشرى[٥].

عن ابن عباس: المعنى فَرَحٌ وقُرّة عينٍ لهم. وعن عِكرمة: نِعم مالهم. وعن الضحّاك: غِبطة لهم وقيل: يعني حسنى لهم[٦].

﴿كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [٣٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان التوحيد والفَرْق بين الحقّ والباطل وسائر المطالب العالية التي [هي] دليل صدق نبوة النبيّ الأمّي صلى الله عليه وآله، دفع سبحانه استبعاد المشركين نبوته بقوله: **﴿كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾** والتقدير: كما أرسلنا إلى الأمم الكثيرة رسلاً كثيرة ليتلوا عليهم الكتب المنزلة، كذلك أرسلناك إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ **﴿فِى أُمَّةٍ﴾** هي آخر الأمم، كما أنت آخر الرسل **﴿قَدْ خَلَتْ﴾** ومضت **﴿مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾** كثيرة لتهدي تلك الأمّة و**﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ﴾** الكتاب العظيم **﴿ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** بتوسّط جَبْرَئيل **﴿وَ﴾** الحال أنـ**﴿هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾** والله الواسع الرحمة بحيث وَسِعت رحمته كلّ شيء.

قيل: كانوا يقولون: إنّ محمداً يدعو إلهين، يدعو الله ويدعو آخر يسمّى بالرحمن، ولا نعرِف

---

١. الكافي ٢: ٣٠/١٨٧، تفسير الصافي ٣: ٧٠.
٢. إكمال الدين: ٥٥/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٠.
٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٧٠.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٥١.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.
٦. تفسير الرازي ١٩: ٥٠.

الرحمن إلّا رحمن اليمامة، يريدون مُسيلمة الكذّاب[١]. فأمر الله نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هُوَ رَبِّى﴾ وخالقي ومتولّي أموري ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، وبه اعتمدت في العِصمة من شِركم والنُّصرة عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾ ومَرجِع، فيرحمني وينتقم لي منكم، ويُثبّتني على مصابرتكم وأذاكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْكُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بِل لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [٣١ و ٣٢]

ثم بيّن الله سبحانه عَظَمة شأن القرآن والكتاب الذي أنزله عليه وأوحاه إليه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً﴾ كانت له الآثار العظيمة في العالم حتّى أنّه ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ بعدما قُلِعت به من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ وانشقّت ﴿بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ فجُعِلت أنهاراً وعُيوناً، أو تطوى به الأرض، ويُسار به إلى البلدان ﴿أَوْكُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بعد إحيائهم به، لكان ذلك هذا القرآن، لوجود تلك الآثار العظيمة له، أو لما آمنوا به، ولا استبعاد لوجود هذه الآثار لكلام الله، فانه قادرٌ على هذه الأمور وترتيبها على كلامه.

﴿بِل لِلَّهِ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ من التصرّف والتغيير في الموجودات والقدرة على ما أراد ﴿جَمِيعاً﴾ إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل.

روي أنّ أهل مكة قعدوا في فِناء الكعبة، فأتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام، فقال له عبدالله بن اُمية المخزومي: سيّر لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها، أو احي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحقّ ما تقول أم باطل، فقد كان عيسى يحيي الأموات، أو سخّر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد، فقد كانت الريح مسخّرة لسليمان، فلست بأهون على ربّك من سليمان، فنزلت هذه الآية[٢].

عن الكاظم عليه السلام: «قد وَرِثنا نحن هذا القرآن الذي[٣] تُسيّر به الجبال، وتُقطع به البلدان، وتُحيىٰ به الموتى»[٤].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٥٢، تفسير روح البيان ٤: ٣٧٥.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٢.
٣. زاد في الكافي: فيه ما.
٤. الكافي ١: ٧/١٧٦، تفسير الصافي ٣: ٧١.

ثمّ روي أنّ طائفة من المؤمنين قالوا: يا رسول الله، أجب هؤلاء الكفّار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعسىٰ أن يؤمنوا[١]، فأظهر الله سبحانه التعجّب من توقّع المؤمنين إيمان هؤلاء المقترحين ورجائهم فيه بقوله: **﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** ولم ينقطع رجاءهم من إيمان هؤلاء، وليعلموا **﴿أَن لَوْ يَشَاءُ ٱللهُ﴾** الإجبار على الهداية والإيمان **﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً﴾** حتى هؤلاء المصرّين على الكفر، ولكن إجبارهم على الهداية والايمان خلاف الحكمة، ولذا لم يشأ ذلك، وهم باختيارهم لا يؤمنون أبداً لشدّة لَجاجهم وعِنادهم للرسول ودين الحقّ.

وقيل:إنّ ييئس بمعنى يعلم حقيقةً على لغة النَّخع[٢]، أو مجازاً بعلاقة أنّ العلم بأنّ الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه، وعليه يكون المعنى أفلم يعلم المؤمنون أن لو يشاء الله، الى آخره.

وروي أنه قرأ أمير المؤمنين والسجّاد وجعفر بن محمد عليهم السلام (أفلم يتبين) ونُسِبت تلك القراءة إلى جماعة من الصحابة والتابعين[٣]. ولابدّ من حمل القراءة في الروايات على التفسير.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان لَجاج الكفّار واقتراحهم على النبيّ صلى الله عليه وآله سلّى قلبه الشريف بقوله: **﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وأصرّوا على كُفرهم وعِنادهم **﴿تُصِيبُهُم﴾** وتنزِل عليهم جزاءً **﴿بِمَا صَنَعُوا﴾** من الكفر والاقتراح عليك واستهزائهم بك **﴿قَارِعَةٌ﴾** وداهيّة عظيمة تُفزِعهم وتَفْجأهُم من البلايا والمصائب الشديدة **﴿أَوْ تَحُلُّ﴾** وتنزِل الداهية **﴿قَرِيباً مِن دَارِهِمْ﴾** وبلدهم وهو مكة، ويَفزَعون ويضطربون، وتصل إليهم شَرارها، ويتعدّى إليهم شُرورها **﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللهِ﴾** من الموت أو القيامة.

وقيل: إنّ المعنى لا يزال كفّار مكّة تُصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وآله من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة، وتختطف منهم، وتصيب من مواشيهم، أوتحُلّ أنت - يا محمّد - قريباً من دارهم بجيشك، كما حلّ بالحُديبية حتى يأتي وعد الله، وهو فتح مكة، وقد كان الله وعده ذلك[٤] **﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾**.

عن الباقر عليه السلام: «ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا قارعةٌ، وهي النَّقمة، أوتحُلّ قريباً من دارهم، فتحُلّ بقومٍ غيرهم فيرون ذلك ويسمعون به، والذين حلّت بهم عُصاة كُفّار مثلهم ولا يتّعظ بعضهم ببعضٍ، ولا يزالون كذلك حتى يأتي وعد الله الذي وعد المؤمنين من النصر» الخبر[٥].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٧٧.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٣.
٣. مجمع البيان ٦: ٤٤٩، تفسير الصافي ٣: ٧١.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٤.
٥. تفسير القمي ١: ٣٦٥، تفسير الصافي ٣: ٧١.

ثمّ لمّا كان اقتراح الكفّار على النبيّ ﷺ مقروناً باستهزائه، بالغ سُبحانه في تسليته بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ قومك بك ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلتُ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الأخذ والعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بغتة بالعقاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ النازل على هؤلاء الأقوام، وكيف رأيت وسَمِعت معاملتي معهم؟! وفي الاستفهام التعجّبي[1] إشارة إلى غاية شدّة عقوبتهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[٣٣]

ثمّ وبّخ الله المشركين على ضَعْف عقولهم بإظهار التعجّب من سوء عقيدتهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ وقاهرٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس، مؤمنةً كانت أو كافرة، وقيّمٌ عليها، وعالم ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من الطاعات والسيئات وجازيها حسب استحقاقها من الثواب والعقاب، كيف يمكن أن يكون كالأصنام التي لا قُدرة ولا علم ولا شعور لها، فما أعجب كفر هؤلاء إذ سوّوا بين الكامل القادر على كلّ شيء والعالم بكلّ شيء، وبين الجمادات ﴿وَجَعَلُوا﴾ تلك الأصنام ﴿لِلَّهِ﴾ العظيم المتعال ﴿شُرَكَاءَ﴾ في الألوهية والعبادة مع علمهم بعدم التساوي بينهما.

وقيل: إنّ المعنى أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت لم يوحّدوه ولم يمجّدوه، وجعلوا لله شركاء[2].

ثمّ أمر نبيه بإقامة الحُجّة على بطلان شركهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يامحمّد، لهؤلاء المشركين ما هذه الأصنام التي تعبُدونها؟ ﴿سَمُّوهُمْ﴾ وبيّنوا ما يقال لهم وصفوهم بأوصافهم، فانظُروا هل لهم صفة يستحقّون بها العبادة،فان لم يكن لهم اسم يُشير إلى تلك الصفة، فكيف تُشركون بهم مع الذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية المعطي لكلّ شيءٍ ما به كماله؟

وقيل: إنّ كلمة (سَمُّوهُمْ) كناية عن غاية حقارة الأصنام، فانّ العرب تقول للشيء المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يكون قابلاً للذكر وتسميته باسم لا اسم له[3]: سمّه بما شئت، يعني أنّه أخسّ من أن يُسمّى ويُذكَر، ولكنّك إنْ شئت أن تضع له اسماً فافعل، فإنّه في الحقارة إلى حدّ لا يستحقّ أن يَلتفِت إليه عاقل[4].

---

١. في النسخة: التعجببي.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٥٦.
٣. في تفسير الرازي: الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال:
٤. تفسير الرازي ١٩: ٥٦.

ثمّ زاد سبحانه في الاحتجاج بقوله: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ قيل: إنّ المعنى بل أتُخبرون الله[١] وتُنَبِّئونَهُ ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وجوده ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع أنه عالمٌ ومحيطٌ بما في السماوات والأرض لا يَعْزُب عن علمه مِثقال ذَرَة، فإذا علمتم بألوهية الأصنام فقد علمتم بما لا يعلمه الله، وهو محال، فعدم علمه تعالى بألوهية هذه الأصنام وإله آخر غير ذاته المقدّسة، إنّما هو دليلٌ قاطعٌ على عدم ألوهية كلّ مايدّعون ألوهيته في الأرض ﴿أَم﴾ يتفوّهون ﴿بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وصورة لفظ لا معنى ولا واقع لها ولا حقيقة، فيكون من قبيل لَقْلَقة اللسان، أو يُريدون من تسمية الأصنام باسم الإله ما يكون بذاته وصفاته في غاية البينونة مع الألوهية، فيكون من قبيل تسمية الزنجيّ بالكافور.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ عقيدة الشِّرك ليس ممّا يكون نظر صاحبه إلى الدليل حتى يتكلّف ببيان بطلانه أو إقامه الدليل العقلي على خلافة ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾ بتسويلات الشيطان واقتضاء الأهواء الرائعة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ واعتقادهم الفاسد وتخيّلهم الباطل، فلا تكلّف نفسك باقامة الحُجّة العقلية على بطلان اعتقادهم، لأنّهم لا ينتفعون بها ﴿وَصُدُّوا﴾ ومُنِعوا ﴿عَنِ﴾ طريق الحقّ و﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيم بسلب توفيق سلوكها عنهم، فأضلّهم الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهدى بالخِذلان ﴿فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ يهديه إلى الحقّ، ويُوصله إلى السعادة والخير.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ[٣٤]

ثمّ بيّن سبحانه نتيجة ضلالهم وعاقبته بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقّ شديد ﴿فِى الْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومدّة أعمارهم فيها بالقتل والأسر والخزي وسائر المصائب ﴿وَ﴾ والله[٢] ﴿لَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ المعدّ لهم فيها ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب وأخزى لغاية شدّته ودوامه ﴿وَمَالَهُم مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ وقهره ﴿مِن وَاقٍ﴾ وحافظ يقيهم ويَحْفَظهم منه.

في حديث المعراج: ثمّ أتى ﷺ على وادٍ، فسَمِع صوتاً مُنكَراً، فقال: «ياجَبْرئيل، ما هذا الصوت؟» قال: صوت جهنّم تقول: يا ربّ إئتني بأهلي وبما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغُسّاقي وغِسليني، وقد بعُد قَعْرِي، واشتدّ حرّي، ائتني بما وعدتني. قال: لكِ كلّ مُشركٍ ومشركة وخبيثٍ وخبيثةٍ وكلّ جبّار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: رضيت[٣].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٧٩.

٢. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٠.

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ[٣٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد توعيد المشركين بالعذاب الدنيوي والأخروي وإظهار غضبه عليهم، وعد الموحّدين بالجنة الموصوفة بالصفات العالية، وأعلن برحمته ولطفه بهم بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك والمعاصي وصفتها العجيبة أنّ فيها قصوراً وغُرفاً وأشجاراً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة من الماء واللّبن والخَمر والعَسل و﴿أُكُلُهَا﴾ وثمراتها ﴿دَائِمٌ﴾ لا انقطاع لها ولا نفاد ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً دائم لا زوال له كما يزول في الدنيا بالشمس.

وقيل: إنّ لفظ الظلّ كناية عن الاستراحة؛ لأنّ الظلّ عند العرب ممّا يعظّم فيه استراحتهم[١].

﴿تِلْكَ﴾ الجنّة الموصوفة بالأوصاف ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ ومالهم ونتيجة أعمالهم ﴿وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ ومآل أمرهم في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ التي سخّرها الجبّار بغضبه.

وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ[٣٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات توحيده، وبيان كثير من المطالب العالية الموافقة لما في الكتب السماوية، استدلّ على صحّتها بتصديق أهل الكتاب وعلمائهم لها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ من التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن؛ لأنّهم يجدونه موافقاً لما في كتبهم، ومصدّقاً له.

عن الباقر عليه السلام: «أي يفرحون بكتاب الله إذا تُلي عليهم، وإذا تَلَوه تفيض أعينهم دمعاً من الفَزَع والحُزن»[٢].

وعن ابن عباس: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله من أهل الكتاب كعبد الله بن سلَام وكَعْب وأصحابهما، ومَن أسلم مِن النصارى وهم ثمانون رجلاً، أربعون بنَجْران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة، فهم فَرِحوا بالقرآن كلّه لأنّهم آمنوا به وصدّقوه[٣].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وهم بقية أهل الكتاب وكَفَرتهم الذين تحزبّوا على رسول الله صلى الله عليه وآله بالعداوة، ككعب بن الأشرف وأتباعه والسيد والعاقب أُسْقُفي نجران وأتباعهما ﴿مَن﴾ إذا سَمِع القرآن ﴿يُنكِرُ

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٨١.

٢. تفسير القمي ١: ٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٧٣.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٠.

بَعْضَهُ﴾ المخالف لشرائعهم.

عن ابن عباس: آمن اليهود بسورة يوسف، وكفر المشركون بجميعه[١].

وقيل: إنّ المراد من الكتاب القرآن، فالمعنى أنّ أهل القرآن يفرحون بما اُنزل على محمد ﷺ من التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقَصَص، ومن الأحزاب: الجماعات [من] اليهود والنصارى[٢]، والمشركين فانّهم يؤمنون ببعض القرآن من إثبات الله وإثبات علمه وقدرته وقَصص الأنبياء، ويُنكرون بعضه من توحيده وعدم الولد له وغيرهما ممّا يخالف عقائدهم وأحكامهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات المبدأ وتوحيده، أمر نبيّه ﷺ بالدعوة إليه، وصرف الناس عن مطلق الشرك بقوله: **﴿قُلْ﴾** يامحمّد للناس **﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾** من قبل ربّي **﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ﴾** واُطيعه في أحكامه **﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِ﴾** شيئاً من خلقه من الشمس والقمر والكواكب والأصنام وغيرها من الموجودات، وأنا على حسب وظيفة رسالتي **﴿إِلَيهِ﴾** تعالى خاصة **﴿أَدْعُوا﴾** الناس كلّهم، أو المراد أخصّه بالدعاء إليه، ولا أدعو معه غيره **﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾** كلّ أحدٍ منّي ومنكم للحساب والجزاء.

وقيل: إنّ المراد إنّما اُمرت فيما اُنزل إليّ بأن أعبُد الله واُوحّده، وهو العُمدة في الدين، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأمّا ما تُنكرونه من الأحكام المخالفة لشرائعكم، فليس ببِدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام، وأنا إلى توحيده أدعو العباد وأقول: **﴿إِلَيْهِ مَآبِ﴾** وهذا هو المتّفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من الفروع فمما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكار المخالف فيه[٣].

وَكَذٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ[٣٧]

ثمّ قرّر هذا المعنى وأوضحه بقوله: **﴿وَكَذٰلِكَ﴾** والمراد كما أنزلنا على الرسل الذين كانوا قبلك كتاباً بلسان اُممهم فيه جميع أحكام شريعتهم، كذلك آتيناك القرآن و**﴿أَنزَلْنَاهُ﴾** عليك حال كونه محتوياً[٤] لجميع الأحكام التي يحتاج إليها الناس، صحّ أن يقال: إنّ هذا الكتاب بنفسه يكون **﴿حُكْماً﴾** في كلّ شيء.

وقيل: إنّ المعنى أنّه محكمٌ لا يقبل النسخ والتغيير[٥].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٢.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٦٠.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٢.
٤. في النسخة: لاحتوائه.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٣.

ولمّا كان قومك عرباً جعلناه ﴿عَرَبِيّاً﴾ ليَسْهُل عليهم فهمه وحفظه، إذن فاتّبعه وأعمل به ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ بدع المشركين و﴿أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها، وسلكت طريقتهم الباطلة التي مالت إليها طباعهم ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ﴾ قبل الله ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ بصحّة دينك واستقامة طريقتك بالآيات الباهرة والبراهين المتقنة ﴿مَالَكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللهِ﴾ ونِقمته ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ وناصر يدفعه عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ وحافظ يَحْفَظك منه.

روي أنّ المشركين كانو يدعونه عليه السلام إلىٰ [اتباع ملّة آبائهم المشركين، وكان اليهود يدعونه إلىٰ] الصلاة إلىٰ قبلتهم [أي بيت المقدس] بعد ما حُوّل عنها[1]، فتوعّده الله على متابعتهم.

قيل: إنّ الغرض [منه] حثّ الرسول عليه السلام على القيام بحقّ الرسالة وتحذيره من خلافها، وفيه تحذير عامة المكلفين[2].

عن ابن عباس: الخطاب مع النبي صلى الله عليه وآله، والمراد اُمّته[3].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ [٣٨ و ٣٩]

ثمّ لمّا كان من شُبهاتهم في نبوته أنّه بشر، ولا يكون النبي إلّا مَلَكاً، فدفعه الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً﴾ كثيرة عظيمة الشأن ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على عصرك، كلّهم كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة.

ومنها أنّ محمّداً لو كان نبياً لما كان مشتغلاً بالنساء، بل كان معرضاً عنهنّ مشتغلاً بالعبادة، فردّهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ فقد كان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة مَهيرة وسبعمائة سُرّية[4].

ومنها أنّ محمّداً لو كان رسولاً صادقاً، لكان يأتي بما طلبنا منه من المعجزات، فأجاب الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ ومشيئته التي يدور عليها أمر الكائنات.

ومن المعلوم أنّه لا يجب على الله أن يأذَن في إتيان المعجزة إلّا بمقدارٍ كافٍ في إثبات الرسالة

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٣. ٢ و٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٢.
٤. المَهِيرَة: الغالية المهر، والسُّرّيَّة: الأمَة التي أنزلتها بيتاً.

حتى لا يبقى لأحدٍ مجال الشكّ والترديد فيها، وأمّا الزائد عليه فليس على الله بحتم، بل إن شاء أذِن وإن لم يشأ لم يأذَن.

ومنها أنّ محمّداً لو كان نبياً لأنزل علينا بالعذاب الذي أوعدنا به على إنكار التوحيد ورسالته، فأبطلها سبحانه بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ وحادثٍ قضاه الله، أو لكل أجل من آجال الناس، أو لكلّ وقتٍ من الأوقات ﴿كِتَابٌ﴾ ووقت معين مثبوت عند الله في اللوح المحفوظ لا يزاد ولا ينقّص، ولا يتقدّم ولا يتأخّر، ولا يطّلع عليه أحد غيره، فنزول العذاب على الكفّار ونصرة الأنبياء، وإن كانا ممّا قضاه الله، ولكن لهما وقتٌ معينٌ مكتوبٌ، فلا يدلّ تأخيرهما على كون المُخبِر بهما كاذباً.

ومنها أن محمّداً لو كان رسولاً صادقاً لما نسخ الأحكام التي أنزل الله بها في الكتب السماوية كالتوراة والانجيل، فأزاحها الله بقوله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ محوه من الأحكام، وينسخ ما يُريد نسخه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدله ما يشاء إثباته من الأحكام على حسب اقتضاء المصلحة في الأزمنة المختلفة والأمم المتغايرة.

وقيل: إنّ قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كالمقدمة لتقرير دفع الشُّبهة، إمّا بالقول بأنّ الكلام مقلوب، والمعنى لكلّ كتابٍ من الكتب السماوية أجلٌ يُنزله فيه وقت يعمل به، فوقت العمل بسائر الكتب قد انقضى وحضر وقت العمل بالقرآن، أو المراد لكّل حادثٍ وقتٌ معينٌ قضى الله حصوله وبقاءه فيه كالحياة والموت، والغنى والفقر، وغير ذلك[1]. فاذا لم يمتنع أن يحيي أولاً ثم يميت ثانياً، فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات ثمّ ينسَخه في بعض آخر منها؟

ثمّ أنّه تعالى بعد تقرير هذه المقدمة قال: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ والمعنى أنّه يُوجِد تارةً ويعدم تارةً أخرى، ويحيي تارةً ويميت أخرى، وكذلك يشرّع الحكم وينسَخه حسب ما آقتضته الحكمة والمصلحة.

وقيل: يمحو من ديوان الحَفَظة الذين شغلهم كَتْب كلّ قولٍ وعملٍ ما يترتّب عليه الجزاء ويُثبِت الباقي. أو يمحو سيئات التائب ويُثبِت مكانها الحسنات. أو يمحو قَرناً ويُثبِت آخرين. أو يمحو الفاسدات من العالم الجسماني، ويُثبِت الكائنات. أو يمحو الرزق، ويُثبِت ويزيد فيه. أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة[2]. وروى [هذا][3] عن جابر، عن النبيّ ﷺ، والظاهر تعميم المحو والاثبات للكلّ[4].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٦٤.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧.

٣. في تفسير أبي السعود: وهذا رواه.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧.

﴿وَعِندَهُ﴾ تعالى ﴿أُمّ ٱلۡكِتَابِ﴾ وأصل الكتب المحفوظه من المحو والتغيير، إذ ما من الممحوّ والثابت إلّا فيه، ولذا يسمّى باللوح المحفوظ.

عن الصادق، عن أبيه عليهما السلام، قال «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ المرء ليصل رَحِمه وما بقي من عمره إلّا ثلاث سنين، فيَمُدّه الله إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنه، فيَنْقُصه الله إلى ثلاث سنين أو أدنى» وكان الصادق عليه السلام يتلو هذه الآية[1].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «إنّ ذلك الكتاب كتاب يمحو الله فيه ما يشاء ويُثبِت، فمن ذلك الذي يرُدّ الدعاء القضاء، وذلك الدعاء مكتوبٌ عليه: الذي يُرَدّ به القضاء، حتى إذا صار إلى أُمّ الكتاب لم يُغنِ الدعاء فيه شيئاً»[2].

أقول: هكذا الرواية في النسخة. وعنه عليه السلام: أنّه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوا ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[3] قال: «كتبها لهم ثمّ محاها، ثمّ كتبها لأبنائهم فدخلوها، والله يمحو ما يشاء ويُثبِت وعنده أُمّ الكتاب»[4].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «هما كتابان كتاب سوى أمّ الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويُثبِت، وأمّ الكتاب لا يغيّر منه شيء»[5].

وعن الصادق عليه السلام: «الأمر[6] أمران: موقوفٌ ومحتومٌ، فما كان من محتوم أمضاه، ما كان من موقوفٍ فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء»[7].

وعنه عليه السلام: «إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكَتَبة إلى سماء الدنيا، فكتبوا مايكون من قضاء الله تبارك وتعالى [في] تلك السنة، فإذا أراد الله أن يقدّم شيئاً أو يؤخّره أو يَنْقُص شيئاً [أو يزيد] أمر المَلَك أن يمحو ما يشاء، ثمّ أثبت الذي أراد»[8].

وعنه عليه السلام: «هل يمحو إلّا ما كان ثابتاً، وهل يُثبِت إلّا ما لم يكن»[9].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: لولا آية في كتاب الله لحدّثتكم بما يكون

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٤/٤٠٠، تفسير الصافي ٣: ٧٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٣/٤٠٠، تفسير الصافي ٣: ٧٥.
٣. المائدة: ٢١/٥.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٢٣٢/٢٦، تفسير الصافي ٣: ٧٤.
٥. مجمع البيان ٦: ٤٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٥.
٦. في مجمع البيان: هما.
٧. مجمع البيان٦: ٤٥٨، تفسير الصافي ٣: ٧٥.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٢٤١/٣٩٥، تفسير القمي ١: ٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٧٤.
٩. تفسير العياشي ٢: ٢٢٣٩/٣٩٥، تفسير الصافي ٣: ٧٤.

إلى يوم القيامة. فقلت له: أية آية؟ قال: قول الله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾»[١].

وعنه عليه السلام: «العلم عِلمان؛ فعلم عند الله مخزونٌ لم يُطلِع عليه أحداً من خلقه، وعلم علّمه ملائكته ورسله، فما علّمه ملائكته ورسله فانّه سيكون، لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلمٌ عنده مخزونٌ يقدّم منه ما يشاء ويوخّر ما يشاء [ويمحو ما يشاء] ويُثبِت ما يشاء»[٢].

أقول: لا منافاة بين تلك الروايات إلّا الأخيرتين، ولا يهمّنا الجمع بينهما لعدم حُجّيتهما.

ثمّ العجب من الفخر الرازي حيث إنّه ينسُب القول بالبَداء الحقيقي إلى الشيعة. قال في تفسيره: قالت الرافضة: البَداء جائزٌ على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئاً ثمّ يَظهَر له أنّ الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسّكوا فيه بقوله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾.

ثمّ قال: واعلم أنّ هذا باطلٌ؛ لأنّ علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغيّر والتبدّل فيه محالاً[٣]، انتهى.

فانّ أحداً من الشيعة لم يجوّز البَداء الحقيقي عليه تعالى، وقوله: يكون العلم من لوازم ذاته تعالى، في غاية الفساد؛ لأنّ اللازم مغاير في الوجود مع ملزومه، وتلك الغايرة مقتضية لكون العلم عارضاً لذاته المقدّسة، وهو محالٌ، فان الواجب لا يمكن أن يكون معروضاً لعارض أبداً، فلابدّ من كون العلم عين ذاته، بمعنى أنّه ينتزع من إحاطته على الموجودات ـ وقيّوميته عليها، وحضورها عنده نحو حضور المعلول عند العلة ـ مفهوم العلم له، مع أنّه ليس لهذا المفهوم خارج إلّا ذاته البحت البسيط على الاطلاق، وعليه فلا يمكن القول بالبَداء الحقيقي؛ لأنّه مستلزمٌ للعلم بعد الجهل، بل مرادهم أنّ الله تعالى يظهر ما هو في صورة البَداء مع أنّه ليس ببَداء في الواقع كالنَّسْخ في الأحكام، مع أنّه ليس بنَسْخٍ في الحقيقة، بل هو إظهار غاية الحكم مع توهّم الناس إطلاقه وأبديته من إطلاق الخطاب، بل القائل بالبَداء الحقيقي هو وأصحابه الذين يروون عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله «أن الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظُر في الكتاب الذي لا ينظُر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء»[٤] وهذا الكتاب الذي في الرواية هو اللوح المحفوظ، ومن المعلوم من مذهبنا أنّه محفوظ من التغيير.

وَإِن مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٣٨/٣٩٤، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٤٦/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٧٥.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٦.

٤. تفسير الرازي ١٩: ٦٦.

ٱلْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ[٤٠و ٤١]

ثمّ أنه تعالى بعد رفع شُبهات الكفّار في نبوة نبيه ﷺ، هدّدهم بالعذاب، وأمر نبيه ﷺ بالثبات على التبليغ، وعدم الاعتناء بتُرّهاتهم بقوله: ﴿**وَإِن مَا نُرِيَنَّكَ**﴾ يا محمّد ﴿**بَعْضَ**﴾ العذاب ﴿**ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ**﴾ نزوله عليهم في الدنيا ﴿**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ قبل تعذيبهم، ونعذّبهم بعد وفاتك، وعلى أيّ تقدير لا تعتنِ بمقالاتهم، واشتغل بما هو وظيفتك ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ**﴾ وبيان ما أنزل عليك وإتمام الحُجّة عليهم ﴿**وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ**﴾ ومجازاة العُصاة والطُغاة في الدنيا والآخرة، لا عليك.

ثمّ أنهم كيف ينكرون نزول العذاب عليهم مع أنّهم يَرَون أمارات صدق وعدنا ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ**﴾ التي سكنوها[١] ﴿**نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ وجوانبها باستيلاء المسلمين عليها وإلحاقها بدار الاسلام، وإهلاك أهلها بالقتل، وإذلالهم بالأسر، وإجلائهم منها بالإلجاء، وذلك من أعظم الأمارات وأقوى الدلالات على أنّ الله يُنجز وعده.

عن ابن عباس: المراد من نقص أطرافها موت أشرافها وكُبرائها وعلمائها، وذَهاب الصُلحاء والأخيار[٢].

وقيل: ﴿**نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ يعني بموت أهلها، وتخريب ديارهم وبلادهم[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني بذلك ما يُهلك من القرون، فسمّاه إتياناً»[٤].

أقول: فيكون المراد أنّهم كيف أمنوا من أن يحدُث فيهم أمثال تلك الوقائع.

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله: ﴿**وَٱللهُ يَحْكُمُ**﴾ بما يشاء، وقد حكم بنزول الدواهي والبلايا على الكفّار، وبنصرة المسلمين عليهم ﴿**لَا مُعَقِّبَ**﴾ ولا رادّ ﴿**لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**﴾ بل هو نافذٌ في كلّ شيء.

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ[٤٢]

ثمّ بالغ سبحانه في تأكيد وعده بقوله: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ**﴾ الأمم ﴿**ٱلَّذِينَ**﴾ كانوا ﴿**مِن قَبْلِهِمْ**﴾ بأنبيائهم[٥] وسَعَوا في الاضرار بهم، كما مَكَر كفّار قومك بك ودبّروا في قتلك، وصَرْف الناس عنك، وفي إبطال

---

١. في النسخة: سكونها. ٢ و٣. تفسير الرازي ١٩: ٦٧.
٤. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٧٦. ٥. كذا أثبتناها، وهي في النسخة غير مقروءة.

دعوتك وتكذيب نبوّتك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ بهم بأنواعه ﴿جَمِيعاً﴾ فانّه يُبطِل سعيهم ويُعذّبهم بأنواع العذاب من حيث لا يَشْعُرون.

القمي: المكر من الله هو العذاب[1]. وقيل: يعني بيده أسباب المكر وجزاؤه[2].

ومن مكره أنّه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس من خيرٍ أو شرٍّ ويُهيّء جزاءه ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ﴾ البتة، حين يعمل بمقتضى علمه ويوفّي جزاء كلّ نفسٍ على ما كسبت أنّه ﴿لِمَنْ﴾ يكون من الفريقين ﴿عُقْبَى﴾ محمودة لهذه ﴿ٱلدَّارِ﴾ الفانية.

قيل: إنّ المراد سيعلم الكفار من يملِك الدنيا[3].

روي أنّ النبي ﷺ أمر في غزوة بدر أن تُطرَح جِيف الكفّار في القَليب، وكان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال إلى أن قال الراوي: ثمّ مشى ﷺ وتَبعه أصحابه حتى وقف على شَفير القَليب، وجعل يقول: «يا فلان يا فلان، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً، فاني وجدتُ ما وعدني حقاً»[4] الخبر.

روي أنّ أبا لَهَب قد تأخّر في مكه، وعاش بعد أن جاء الخبر عن مصائب[5] قريش ببدر أياماً قليلة، ثمّ رُمي بالعَدَسة ـ وهي بَثْرة تُشبِه [العَدَسة، من جِنس] الطاعون ـ فقتلته، فلم يحفِروا له حُفرة، بل أسندوه إلى حائطٍ، وقذفوا عليه الحجارَة خلف الحائط حتّى واروه، لأنّ العرب كانت تتشأم بالعَدَسة، ويرون أنّها تعدي أشدّ العدوى[6].

وفي رواية: حفروا له ثمّ دفعوه بعودٍ في حفْرته، وقذفوه بالحجارة [من بعيد] حتّى واروه[7].

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ[٤٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية استهزاء الكفّار بالرسول ﷺ ومكرهم به، حكى تصريحهم بانكار رسالته بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المشركين واليهود لك: ﴿لَسْتَ﴾ يا محمّد ﴿مُرْسَلاً﴾ من قبل الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ على رسالتي وحاكماً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدق دعواي، فانّ إظهاره المعجزات الدالة على رسالتي شهادة قاطعة منه عليها، ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ وإحاطة كاملة بجهات إعجاز القرآن، وهم المؤمنون المصدّقون به المتدبّرون فيه.

---

١. تفسير القمي ١:٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٧٦.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٨٩.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.
٥. في تفسير روح البيان: مصاب.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٠.

روى العلامة في (نهج الحق) عن العامة، عن ابن عباس، قال: هو علي عليه السلام[١].

وفي (المجالس) عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه سُئل عن هذه الآية قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب»[٢].

وعن (الاحتجاج): سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام عن أفضل منقبة له فقرأ الآية وقال: «إيّانا[٣] عنى بمن عنده علم الكتاب»[٤].

وعن الباقر عليه السلام قال: «إيانا عنى، وعليّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله»[٥].

وعنه عليه السلام: «نزلت في عليّ عليه السلام، إنه عالم هذه الأُمّة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله»[٦].

عن الصادق عليه السلام: «هو أمير المؤمنين عليه السلام»[٧].

وقيل: إنّ المراد به عبدالله بن سلّام[٨]. وروى بعض العامّة عن عبدالله بن سلّام: أنّ هذه الآية نزلت فيّ[٩].

وقال الفخر: روي عن سعيد بن جبير أنه يُبطل هذه الوجه، ويقول: إن السورة مكيّة، وإسلام عبدالله كان في المدينة[١٠].

وقال القاضي في (إحقاق الحق): قد علمت فيما مرّ أنّ رواية نزول الآية في عبدالله بن سلّام موضوعة، وأنّ عبدالله بن سلّام نفسه روى ذلك في شأن عليّ عليه السلام[١١].

والعياشي: عن الباقر عليه السلام أنّه قيل له: هذا ابن عبدالله بن سلّام يزعُم أنّ أباه الذي يقول الله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قال: «كَذَب، هو علي بن أبي طالب عليه السلام»[١٢].

أقول: يؤيده جميع الروايات الواردة بطرق الخاصة والعامة في أنّ المراد بالشاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾[١٣] عليّ بن أبي طالب عليه السلام[١٤].

---

١. نهج الحق: ١٨٨. ٢. أمالي الصدوق: ٨٩٢/٦٥٩، تفسير الصافي٣: ٧٧. ٣. في المصدر: إياي.
٤. الاحتجاج: ١٥٩، تفسير الصافي ٣: ٧٧.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٥/٤٠١، الكافي ١: ٦/١٧٩، الخرائج والجرائح ٢: ٨/٧٩٩، تفسير الصافي ٣: ٧٧.
٦. تفسير العياشي٢: ٢٢٥٨/٤٠١، تفسير الصافي ٣: ٧٧.
٧. تفسير القمي ١: ٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٧٧. ٨. تفسير الرازي ١٩: ٦٩.
٩. تفسير روح البيان ٤: ٣٩١. ١٠. تفسير الرازي ١٩: ٦٩.
١١. احقاق الحق ٣: ٢٨٠ ـ ٢٨٥ و٤٥٢. ١٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٦/٤٠١، تفسير الصافي ٣: ٧٧.
١٣. هود: ١٧/١١.
١٤. انظر: بحار الأنوار ٣٥: ٣٨٦ ـ ٣٩٤، وإحقاق الحق ٣: ٣٥٢ و١٤: ٣٠٩ ـ ٣١٤ و٢٠: ٣٣ ـ ٣٦.

في تفسير سورة إبراهيم

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ[١]

قد تمّ تفسير سورة الرعد بتوفيق الله ومنّه، ويتلوها سورة إبراهيم بمناسبة تضمّن الأُولى أدلة المبدأ والمعاد، وضرب مثلين للحقّ الذي هو التوحيد، والباطل الذي هو الشرك، وحكاية استهزاء الأمم السابقة برسلهم ومكر الكفار بهم، ووعيد المتمرّدين بالعقوبة، واختتامها بحكاية إنكار كفّار مكّة رسالة الرسول ﷺ، واستدلال الله عليها بمعاجزه وإعجاز كتابه، وافتتاح الثانية بالاستدلال على رسالته بالقرآن المجيد، وتضمّنها حكاية مُعارضة الأمم رُسُلهم، وتهديد المعارضين بالعذاب، وضرب المثل للتوحيد والشرك، وذكر مكر كفّار مكّة لابطال الحقّ وتشييد الباطل، فابتدأ سبحانه فيها بذكر أسمائه الحُسنى بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

ثمّ افتتحها بقوله: ﴿الٓر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان الحكمة في الافتتاح بها.

ثمّ استدلّ سبحانه بكتابه الكريم على رسالة رسوله ﷺ بقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، مشتمل على المعجزات الدالة على رسالتك ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿إِلَيْكَ﴾ بتوسّط جَبْرئيل ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ كافه بتلاوته عليهم، ودعائك إياهم إلى التدبّر فيه والعمل به ﴿مِنَ﴾ أنواع الكفر والضلال التي هي مثل ﴿ٱلظُّلُمَاتِ﴾ في كونها موجبة لنهاية التحيّر ﴿إِلَىٰ﴾ الإيمان والهدى الذي هو مثل ﴿ٱلنُّورِ﴾ في إضاءة طريق الحقّ وكمال إيضاحه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم وتوفيقه وحوله.

ثمّ أوضح المراد من النور بأبداله بقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ في فعاله وأنعامه، وهو دين الاسلام. قيل: هو استئناف، كأنّه قيل: إلىٰ أي نور؟ فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[١].وفي ذكر الوصفين إشعار بكون سالكه آمن محمود العاقبة.

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٣٠.

ٱللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولٰئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ[٢ و ٣]

ثمّ بالغ سبحانه في تفخيم شأن الصراط باضافته إلىٰ ذاته المقدسة، بذكر اسم الجلالة بياناً للوَصفين بقوله: ﴿ٱللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [من] الموجودات الجسمانية والروحانية والجوهرية والعرضية بالملكية الاشراقية.

وقيل: إنّ المشركين كانوا يصفون الوَثَن بالعزيز الحميد[١]، فلذا كان مجال توهّم إرادة الوَثَن من الوصفين، فرفع الابهام بقول له: ﴿الله...﴾.

ثمّ هدّد سبحانه المنكرين للكتاب الممتنعين من الخروج من الظلمات بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ بكتاب الله ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة.

ثمّ عرّف الكافرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ ويختارون ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذائذها ويُؤثرونها ﴿عَلَىٰ ٱلْآخِرَةِ﴾ ونعمها الدائمة.

عن ابن عبّاس: يأخُذون ما تعجّل فيها تهاوناً بأمر الآخرة[٢]. ولا يقنعون بضلالة أنفسهم، بل يمنعون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النّاس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والدخول في دين الحقّ، ويطلبون لتلك السبيل ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ بشُبهاتهم ﴿عِوَجاً﴾ وانحرافاً.

قيل: كانوا يقولون: إنّ دين الاسلام سبيل معوجّة منحرفة عن الحقّ، لا تُوصِل إلى المقصود[٣].

﴿أُولٰئِكَ﴾ الضالون المضلّون منغمرون ﴿فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحقّ غاية البعد بحيث لا يمكن ردّهم إليه.

وقيل: إنّ المعنى اُولئك في هلاكٍ طويلٍ لا زوال له أبداً[٤].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد المِنّة على الناس بإنزال الكتاب، ذكر منّته الأخرى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى النّاس ﴿مِن رَسُولٍ﴾ لهدايتهم ﴿إِلَّا﴾ رسولاً متكلّماً ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ الذين هو فيهم وبلغتهم إن

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٧٧.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٤.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٥.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٧٩.

كانت رسالته عامّة، أو بلغة الطائفة الذين اُرسل إليهم إن كانت خاصة ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضّح العلوم والمعارف والأحكام ﴿لَهُمْ﴾ بلسانهم حتى يكون فهمهم لها أسهل، ووقوفهم على مقاصدها أكمل.

قيل في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾[1] وقوله: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ دلالة على أنّ رسالة رسولنا عامّة، ورسالة غيره من الرسل خاصة بقوم معينين[2].

عن النبيّ ﷺ ـ في حديث ـ: «ومنّ عليّ ربّي، وقال: يا محمّد، قد أرسلتُ كلّ رسولٍ إلى اُمته بلسانها، وأرسلتك إلى كلّ أحمر وأسود من خَلْقي»[3].

أقول: لابدّ من حمل عموم كلّ رسول على غير اُولى العزم، لوضوح كون رسالتهم عامّة أيضاً.

ثمّ نبّه سبحانه على أنه مع ذلك تكون الضلالة بخذلانة والهداية بتوفيقه بقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ عن الحقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ضلالته بسلب التوفيق عنه المترتّب على خُبث ذاته وسوء أخلاقه وأعماله ﴿وَيَهْدِى﴾ إلى الحقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه المترتّب على طيب طينته وحسن أخلاقه وأعماله ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، القادر على إنفاذ مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، لا يصدُر منه إلّا ما هو الأصلح والأصوب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[٥]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حكمة إرسال النبيّ وإنزال الكتاب إليه، وهو إخراج النّاس من الظلمات إلى النور، بيّن أنّ إرسال موسى عليه السلام أيضاً كان لذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل متلبساً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته من المعجزات التسع، وقلنا له: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وخلّصهم من الكفر والضلال، واهدهم إلى الايمان والمعرفة واليقين.

قيل: إنّ المراد باخراج بني إسرائيل من الظلمات، إخراجهم بعد إهلاك فِرعون من الجهالة التي أدّتهم إلى عبادَة العِجل[4].

وقيل: إنّ المراد القِبط[5].

ثمّ أمر موسى عليه السلام بوعظهم بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾ والوقائع التي وقعت للأمم السابقة من العقوبات النازلة عليهم بالكفر ومعارضة الرسل.

---

١. إبراهيم: ١/١٤. ٢. تفسير الرازي ١٩: ٧٩، وفي النسخة: معين، بدل: معينين.
٣. الخصال: ١/٤٢٥، تفسير الصافي ٣: ٧٩. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٧.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٣٩٨.

وقيل: أيام الله: نَعمائه وبلاياه[١]، والمعنى: رغّبهم في الطاعة بتذكيرهم النِّعم التي أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم من مصدِّقي الرسل، وحذّرهم عن التكذيب والمخالفة بالبلايا النازلة على مكذّبي الرسل.

عن الصادق عليه السلام: «بنعم الله وآلائه»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أيام الله عزّ وجلّ [ثلاثة]: يوم قيام القائم، ويوم الكرّة، ويوم القيامة»[٣].

ثمّ نبّه سبحانه على علّة التّذكار بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ المذكور من الأيام والوقائع والله[٤] ﴿لَآيَاتٍ﴾ وعلامات لتوحيد الله وقدرته وعظمته، ولكن الانتفاع بها ﴿لِكُلِّ﴾ مؤمن ﴿صَبَّارٍ﴾ على المشدائد والطاعات وكلّ ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعَم الله.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[٦]

ثمّ أمر سبحانه بتذكّر قيام موسى عليه السلام بأداء وظيفته بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم﴾ وخلّصكم بلُطفه ﴿مِنْ﴾ أيدي ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه فانّهم كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويذوقونكم أو يكلّفونكم ﴿سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديده من استعبادكم وتحميل الأعمال الشاقة عليكم والإهانة لكم[٥]، ﴿وَ﴾ كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ المولودين لكم، ويكثرون القتل فيهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ ويستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ من الأزواج والبنات، ليكن إماءهم ﴿وَفِي ذٰلِكُم﴾ المذكور من الأعمال الفظيعة أو الانجاء ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ شأنه.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ[٧ و ٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد تذكيرهم نعمة ربهم، حثّهم على الشكر بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ وأوجب ﴿رَبُّكُمْ﴾ على نفسه، أو المراد: واذكُروا حين نادى بلسان رسله فيكم، أيّها الناس والله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نِعمي

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٥١٣، تفسير أبي السعود ٥: ٣٣.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٦٠/٤٠٣، مجمع البيان ٦: ٤٦٧، تفسير الصافي ٣: ٨٠.
٣. الخصال: ٧٥/١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠.
٤. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.
٥. في النسخة: بكم.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ولأضاعفنّها لكم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمةً من نعمائي بترك شكرها أو صرفها في معصيتي، لأسلبنّها منكم، ولاعذبنّكم على الكفران، وإنّما أشار إلى هذا التهديد بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لأنّ دأب الكِرام ـ على ما قيل ـ عدم التصريح بالوعيد، فكيف بأكرم الأكرمين[1].

عن الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله على عبدٍ من نعمةٍ فعرفها بقلبه وحَمِد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتى يُؤمَر له بالمزيد»[2].

وعنه عليه السلام: «من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه»[3]

وعنه عليه السلام: «ما أنعم الله على عبدٍ بنعمةٍ صغُرت أو كبُرت فقال: الحمد للّه، إلّا أدّى شُكرها»[4].

وفي رواية: «وكان الحمد أفضل من تلك النعمة»[5].

وعنه عليه السلام في تفسير وجوه الكفر «الوجه الثالث من الكفر كفر النعم، قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾»[6].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ زَجراً عن الكُفران: يا بني إسرائيل ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجنّ والإنس ﴿جَمِيعاً﴾ نِعَم الله فلن تضرّوا الله شيئاً ﴿فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِىٌّ﴾ عنكم وعن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته مستحقّ للحمد بإنعامه، وإن لم يحمَده حامد، مع أنّ جميع الموجودات يُسبّحه ويحمَده، وإنّما يُريد شُكركم لاحتياجكم إلى منافعه.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ ٱللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٠٠.
٢. الكافي ٢: ٩/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠.
٣. الكافي ٨: ٩٨/١٢٨، تفسير الصافي ٣: ٨٠.
٤. الكافي ٢: ١٤/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٨١.
٥. الكافي ٧: ١٣/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٨١.
٦. الكافي ٢: ١/٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٨١.

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ[٩-١٢]

ثمّ بالغ عليه السلام في وعظهم بتذكيرهم الوقائع العظيمة والبلايا النازلة على مكذبي الرسل بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ولم يَبْلُغكم يا قوم ﴿نَبَؤُا﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصركم من ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف اُهلكوا بالطوفان ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ كيف اُهلكوا بريح صرصرٍ عاتية ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ كيف اُهلكوا بالرجفة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ بَعدِهِمْ﴾ كقوم إبراهيم وقوم لُوط وأصحاب مَدين وغيرهم من الأقوام الذين ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ عدداً وحالاً ﴿إِلَّا ٱللهُ﴾ لكَثرتهم وقطع الأخبار عنهم.

ثمّ كأنه قيل: ما كان إجمال قصّتهم؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُم﴾ المبعوثون لهدايتهم مستدلّين ﴿بِالبَيِّنَاتِ﴾ الباهرات على صدق نبوتهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وينجوهم من الكفر والجهالة ويهدوهم إلى الحقّ، فلمّا دعوا أقوامهم إليه ﴿فَرَدّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ليعضّوها تضجّراً من مقالة الرسل، كما عن ابن عباس وابن مسعود[1].

وقيل: وضعوها عليها تعجّباً من قولهم واستهزاءً بهم، أو أمراً لهم بالكفّ وبإطباق أفواههم[2]، أو إشارة إلى ما يصدُرُ من ألسنتهم من المقالة اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطاً لهم عن تصديقهم والإيمان بهم.

وقيل: يعني ردّ الأقوام أيديهم في أفواه الرسل ليمنعوهم من التكلّم بالدعوة[3].

وقيل: يعني ردّ الرسل أيديهم في أفواههم تعجّباً من عتوّهم وعِنادهم[4] ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ بزعمكم من وجوب عبادة إله السماء وتوحيده، أو من المعجزات التي أتيتم بها وأنكرناها ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والرسالة ﴿مُرِيبٍ﴾ ذلك الشكّ، وموقعٍ قلوبنا في القلق والاضطراب بحيث لا يطمئنّ بشيءٍ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ إنكاراً عليهم وتعجّباً من مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِى﴾ شأن ﴿ٱللهِ﴾ من وجوده وتوحيده ووجوب الايمان به ﴿شَكٌّ﴾ ما، مع أنّه أظهر من كلّ شيء، لكونه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ ومبدعهما، لوضوح كونهما حادثين معروضين للحركة والتغيير، وكونهما حتمين مقدرين محدودين، فاذا ثبت حدوثهما فلابدّ من انتهاء وجودهما إلى موجد واجب، فمن كان العالم من السماوات والأرض وما فيهما شاهداً على وجوده يكون أظهر من كلّ ظاهر.

---

١. مجمع البيان ٦: ٤٦٩، تفسير الرازي ١٩: ٨٩.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.
٣. تفسير الرازي ١٩: ٨٩، تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.
٤. تفسير أبي السعود ٥: ٣٦.

ثمَ لمّا نسب الكفّار الدعوة إليهم نفوها عن أنفسهم ونسبوها إلى الله بقولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ الله إليه وإلى توحيده بألسنتنا ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ ما كان بينكم وبينه ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ لا ما كان بينكم وبين النّاس من المظالم.

وقيل: إن كلمة (مِن) زائدة[1]، والمراد ليغفر لكم جميع ذنوبكم، وفيه بشارتكم بغاية الرحمة والكرم.

ثمَ بشروهم بجزائهم في الدنيا بقولهم: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ ويؤجّل موتكم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وآخر أعماركم التي قدّر لكم فيها بأن لا يُنزل عليكم العقوبة والهلاك.

عن ابن عبّاس، قال: المعنى يمتّعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت[2].

ثمَ استدلّ الكفّار على بطلان دعوى الرسل و ﴿قَالُوا﴾ أولاً: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ويمتنع أن يكون الرسول من البشر، بل لابدّ أن يكون مَلَكاً، أو المراد لا فضيلة لكم علينا، فإرسالكم ترجيحٌ بلا مرجّح.

وثانياً: أن آباءنا الأقدمين مع وفور عقلهم كانوا يعبُدون الأصنام في أعمارهم المتطاولة، فلابدّ لنا من أن نتّبعهم ونلتزم بما التزموا به، وأنتم ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ وتصرِفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام إلى عبادة الله.

وثالثاً: يجب عليكم أن تاتونا بالدليل القاطع على دعواكم وما أتيتم به وسمّيتموه معجزة، وحَسَبتموه دليلاً على صدق دعواكم، فما علمنا بكونه إعجازاً وخارجاً عن طوق البشر، فان كنتم صادقين في دعوى الرسالة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ومعجزةٍ لا يُشَكّ في كونها معجزة حتى نصدّقكم في دعوى رسالتكم، وننصرف عما كنا ثابتين عليه من عبادة الأصنام ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ إلزاماً لهم وإبطالاً لقولهم: نعم ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصورة، ولا مجال لانكاره ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ ويُنعِم بالنبوة والوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ نبوته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ نظراً إلى طيب طينته ووفور عقله، وقوه نفسه، وكمال صفاته، وتنوّر قلبه، وشرح صدره، فانّ النبوة منصبٌ يُعطيه الله من يراه قابلاً له من جهة كمال نفسه وصلوحه للوساطة بينه وبين خلقه فيوحي إليه.

ثمَ لمّا كان دليل التقليد أظهر فساداً من أن يحتاج إلىٰ الجواب، أعرضوا عنه ولم يتعرضوا لدفعه، وأجابوا عن اعتراضهم الثالث، وحاصله: إنّا عبيد مربوبون ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصِح ﴿لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ ومعجزةٍ جزئيةٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيئته فضلاً عن السلطان المبين والمعجزة العظيمة

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٩٣.

٢. تفسير الرازي ١٩: ٩٥.

القاهرة التي تعنّتونها علينا، وإنّما اللازم على الله أن يأذَن في إتيان ما هو حُجّة ظاهرة على رسالتنا من المعجزات، وقد أتينا بها وأتممنا عليكم الحجّة بها، وأما ما تَطلُبونه تعنّتاً ولَجاجاً، فهي اُمور زائدة والحكم فيها لله إن شاء أذن لنا في إتيانها، وإن لم يشاء لم يأذَن.

ثمّ قيل: إن الرسل لمّا أجابوا عن شُبهات المعترضين، هدّدوهم وخوّفوهم بالقتل والضرب، فأجابهم الرسل بأنّا لا نخاف من وعيدكم، فإنا توكّلنا على الله الذي هو حافظنا وناصرنا[1]. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وإليه فليفوّض الأمر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ به، فكيف بنا ونحن أنبياء ﴿وَمَا لَنَا﴾ وليس يليق بنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا نفوّض اُمورنا من الحفظ والنصر وغيرهما إليه مع أنّا نرى غاية لطفه بنا، حيث إنّه قد عرّفنا نفسه واصطفانا بالرسالة ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وأرشدنا إلى المنهج الذي شرّع لنا ﴿وَ﴾ والله ﴿لَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ به من المكابرة والتكذيب والمعاداة، ثمّ أعلنوا بأنّ وظيفة كلّ من اتّبعهم التوكّل بقولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ [١٣ و ١٤]

ثمّ لمّا ألان الرسل في القول مع الأقوام، حكى الله مبالغتهم في السّفة بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ عُتاة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأقوام ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ باللات والعُزى، أو بالأصنام التي نعبُدها ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا﴾ وديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ولترجِعُنّ ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ وإنّما أمروهم بالعود مع أنّهم لم يكونوا على ملّتهم أصلاً لاعتقادهم أنّهم كانوا قبل ادّعاء الرسالة على ملّتهم، أو لتغليب أتباعهم عليهم في الخطاب، أو لإرادة الصيرورة من العَود.

ثمّ لمّا بلغ عِناد الكفّار بالرسل إلى هذا الحدّ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ اللطيف بهم: بعزّتنا ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بعذاب الاستئصال هؤلاء ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ جميعاً ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي سكنوها، ولنمكننكم في البلاد التي تمكنّوا فيها ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ وبعد هلاكتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر على الأعداء باهلاكهم وتوريث أرضهم حقٌّ ثابتٌ عليّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ ومحلّي من العظمة والجَلال والقَهر، أو خاف موقفي عند الحساب في القيامة، أو خاف مقامي ومراقبتي إياه، أو المراد خافني ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

عن ابن عباس، قال: خاف ما أوعدت من العذاب[2].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٩٧.

٢. تفسير الرازي ١٩: ١٠١.

وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ[١٥ ـ ١٧]

ثمّ إنّ الرسل بعد يأسهم من إيمان أقوامهم تضرّعوا إلى الله ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ وسألوا الفتح والنُّصرة عليهم، ففازوا بمقصودهم من النصر فنزل العذاب، أو سألوا من الله القضاء بينهم وبين أعدائهم فقضى لهم ﴿وَخَابَ﴾ وحُرِم من كلّ خير، أو خَسِر أو هَلَك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ ومتكبّرٍ ﴿عَنِيدٍ﴾ شديد العداوة.

عن النبيّ ﷺ: «يعني من أبىٰ أن يقول لا إله إلّا الله»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «العنيد: المُعرِض عن الحقّ»[٢].

وقيل: المستفتحون هم الكفّار، فانّهم سألوا النصر على الرسل وخابوا وابتلوا بالعذاب.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عاقبة الجبار في الدنيا، بيّن سوء حاله في الآخرة بقوله: ﴿مِن وَرَآئِهِ﴾ وخلفه، أو من قُدّامه ﴿جَهَنَّمُ﴾ فإنّها منزله في الآخرة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ كلّما عَطِش فيها ﴿مِن مَاءٍ﴾ مخصوصٍ، وهو القيح المختلط بالدم، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفُروج الزواني على ما قيل[٣]، سمّي باسم ﴿صَدِيدٍ﴾ لصدّ كراهته عن تناوله.

عن الصادق عليه السلام ـ في تفسير صديد ـ قال: «يُسقى ممّا يسيل من الدم والقيح من فروج الزواني [في النار]»[٤].

وعن النبي ﷺ قال: «يقرّب إليه] فيكرهه، فإذا اُدني منه شوى جهه ووقعت فَرْوة رأسه، فإذا شَرِب قطّع أمعاءه حتى يخرُج من دُبره»[٥] الخبر.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ ويشربه قليلاً قليلاً بتكلّف ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يمكنه أن يبتلعه بسهولة، بل يَغَصّ به فيشربه شيئاً فشيئاً بعُسرةٍ شديدةٍ، فيطول بشربه عذابه بالحرارة تارةً وبالعطش اُخرى، فمعنى ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ ليس عدم الامكان، بل معناه الإبطاء.

ثمّ بالغ سبحانه في بيان غاية شدّة عذابه بقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ وتُحيط به أسبابه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وجهة. وقيل: يعني من كلّ جزءٍ من أجزاء جسده[٦]، حتى اُصول شعره وإبهام رجله ﴿وَمَا هُوَ

---

١. التوحيد: ٩/٢٠، تفسير الصافي ٣: ٨٢.
٢. تفسير القمي ١: ٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٨٢.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٠٦.
٤. مجمع البيان ٦: ٤٧٤، تفسير الصافي ٣: ٨٢.
٥. مجمع البيان ٦: ٤٧٤، تفسير الصافي ٣: ٨٢.
٦. تفسير الرازي ١٩: ١٠٤.

بِمَيِّتٍ﴾ في الحقيقة ﴿وَمِن وَرَآئِهِ﴾ وعقبه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وشديد غايته.

قيل: إنّ في كلّ وقت يَرِد عليه عذاب أشدّ ممّا قبله. وقيل: العذاب الغليظ: قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد[١]. وقيل: إنّه الخُلود[٢].

مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ[١٨]

ثمّ بيّن سبحانه غاية خُسرانهم بسبب ضَياع أعمالهم الخيرية وعدم انتفاعهم بها بقوله: و﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وحالهم الغريبة التي هي كالمَثَل في الغرابة ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ وقيل: إنّ المراد مثلهم فيما يُتلى عليكم.

ثمّ كأنّه قيل: كيف يكون مثلهم؟ أو ما بال أعمالهم التي عملوها في وجوه البرّ من صلة الأرحام، وإعتاق الرقاب، وإغاثة الملهوفين وأمثالها؟ فأُجيب بأنّ تلك الأعمال ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ﴾[٣] ومرّت ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ الشديدة بقوة وسرعة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وزمان شديد الريح، فحملته وذهبت به، فكما لا يوجد من الرماد في [ذلك] الوقت شيء، ولا يُرى له أثر، فكذلك الكفّار ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ وعَلِموا من الخيرات ﴿عَلَىٰ﴾ تحصيل ﴿شَىْءٍ﴾ يسير منه، ولا يرون له أثراً من ثواب أو تخفيف عذاب، لكونه مع الكفر.

وقيل: إنّ المراد بأعمالهم عبادتهم الأصنام، وماتكلّفوه لهم دهراً طويلاً باعتقاد الانتفاع به[٤].

وقيل: إنّ المراد كلا القسمين[٥].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر الموجب لهذا الخُسران ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ﴾ والانحراف غير المتناهي عن طريق الصواب والخُسران العظيم الذي لا يُتَصَوّر له حدّ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ[١٩ و ٢٠]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه شدّة عذاب الآخرة، وكان المشركون منكرين للمعاد، استدلّ سبحانه عليه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد، أو يا عاقل ببصيرة قلبك وحكم عقلك ﴿أَنَّ ٱللهَ خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٩: ١٠٤.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٠.

٣. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٠٨.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٠٥.

﴿وَٱلْأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ والحكمة البالغة والغرض الصحيح من معرفته بالوحدانية والحكمة، لتنالوا بها الدرجات والمقامات العالية والنِّعم الدائمة في الآخرة، ومن المعلوم أنّ الذي له هذه القدرة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ويَعْدَمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويخلُق قوماً آخرين بدلاً منكم.

عن ابن عبّاس: هذا الخطاب مع كفار مكة، يريد أُميتكم يا معشر الكفار وأخلُق قوماً خيراً منكم وأطوع[1].

﴿وَمَا ذٰلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ الخالق للعالم ﴿بِعَزِيزٍ﴾ وصعب أو ممتنع، فانّ من كان قادراً على إيجاد العالم وإفنائه، قادرٌ على إعدام الأشخاص المعينين وإيجاد أمثالهم، بل أقدر.

وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَو هَدَانَا ٱللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ[٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته الدالتين على المعاد، بيّن سوء حال المشركين فيه، وافتضاح رؤسائهم، وحسرة أتباعهم على متابعتهم بقوله: ﴿وَبَرَزُوا﴾ من القبور بعد إحيائهم فيها، وظهروا ﴿لِلهِ﴾ ولأمره وخرجوا منها للمحاسبة [مع] قادتهم وأتباعهم ﴿جَمِيعاً﴾ لا يشذّ منهم أحدٌ، وإنّما عبّر بصيغة الماضي للإشعار بتحقّق الوقوع، أو بتساوي الماضي والمستقبل إليه تعالى ﴿فَقَالَ﴾ السّفلة ﴿ٱلضُّعَفَاؤُا﴾ العقول والآراء ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ في الأرض وترأسوا عليهم، واستتبعوهم في الكفر: أيّها الروساء ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعاً﴾ في عبادة الأصنام وتكذيب الرسل وإيذائهم ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُغْنُونَ﴾ وكافّون ودافعون ﴿عَنَّا﴾ بحقّ تبعيّتنا لكم ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللهِ مِن شَيْءٍ﴾ قليلٍ؟ فلمّا سَمِع الرؤساء التوبيخ من أتباعهم اعتذاراً عن إغوائهم ﴿قَالُوا لَو هَدَانَا ٱللهُ﴾ في الدنيا بتوفيقه إلىٰ دينه الحقّ والله[2] ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ إليه، ولكن أضلّنا بخذلانه عن سبيله، فلذا أضللناكم واخترنا لكم ما أخترناه لأنفسنا.

وقيل: إنّ المراد لو هدانا الله إلى طريقٍ من طرُق النجاة لهديناكم إليه، وأغنينا عنكم [العذاب] كما عرّضناكم له، ولكن سدّ علينا جميع طرق النجاة[3]. إذن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم في عدم النجاة ﴿أَجَزِعْنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه، على أي تقدير ﴿مَا لَنَا﴾ من العذاب ﴿مِن مَحِيصٍ﴾

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٠٦.

٢. كذا، ولا موضع للقسم في الآية.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤١١.

ومَخلَص أو مَهرَب.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٢٢]

ثمّ لمّا حكى سبحانه اعتذار رؤساء الكفر من أتباعهم، حكى اعتذار الشيطان الذي كان إغواء الجميع بوسوسته وتسويلاته بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ﴾ لأهل النار ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وتمّت المحاسبة، واستقرّ أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

قيل: عند ذلك يأخذُ أهل النار في لوم إبليس، فيقوم خطيباً بينهم، ويقول: يا أهل النار ﴿إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ﴾ [١] في الدنيا في كتابه وعلى لسان رسله على الإيمان والطاعة ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ بالثواب.

قيل: إنّ إضافة الوعد إلى الحقّ إضافة الشيء إلى نفسه[٢].

وقيل: إنّ المعنى وعد اليوم الحقّ، أو الأمر الحقّ من البعث والجزاء على الأعمال فَصدقكم[٣]. كما تشاهدون ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي النِّعم الدنيوية.

وقيل: يعني وعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب[٤] ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، وظهر لكم كِذبي ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم﴾ شيء ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ وقدرة وقهر حتى ألجئكم إلى الكفر والعصيان، ولم يكن منّي في حقّكم عمل ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى طاعتي بتزيين القبائح في نَظَركم، وترغيبكم بالتسويل إليها ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ ووافقتموني طوعاً واختياراً ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ فيما دعوتكم إليه بالكذب والباطل؛ لأنّي كنت لكم عدواً، فعلت بمقتضى عداوتي ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ حيث اخترتم طاعتي لحبّكم لها واشتهائكم إياها، مع علمكم بأنّي عدوّ لكم لا أُريد خيركم، فصدّقتموني فيما كذّبتكم، لكون أمري ملائماً لهواكم، وكذبتم الله فيما صدقكم لكون قوله مخالفاً لطباعكم، فأنتم أحقّ باللوم مني، فاليوم ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ومغيثكم ممّا أنتم فيه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ ومغيثي ممّا أنا فيه.

ثمّ قطع طَمَع أوليائه في إغاثته لهم بقوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بالله في الطاعة، وجعلتموني عِدْلاً له في العبادة ﴿مِن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا.

---

١. تفسير روح البيان ٤:٤١٢، تفسير الرازي ١٩: ١١٠. ٢ ـ ٤. تفسير الرازي ١٩: ١١٠.

قيل: إنّ المراد أنّ إشراككم لي بالله هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، لأنّكم تخيّلتم أنّ لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبوداً، وكنت اُحبّ ذلك وأرغب فيه، فاليوم تبرّأت منه ومنكم، فليس بيني وبينكم علاقة[١].

أو المراد أنّي كفرت بالله الذي جعلتموني شريكاً له في العبادة من قبل، وحين خلق آدم، وأبيت عن السجود له، أو من قبل كفركم، فلا يمكنني أن اُصرخكم لأنّ الكافر بمعزل عن الإغاثة والاعانة بالشفاعة[٢].

ثمّ بالغ في قطع أطماعهم عن إغاثته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيل: إنّه قول الله تعالى بعد حكاية كلام إبليس[٣].

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ[٢٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد شرح سوء حال الأشقياء في الآخرة شرح حسن حال السعداء والأتقياء فيها بقوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَحْدانيته ورُسُله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ كان المُدخِل هو الله أو الملائكة ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ومليكهم اللطيف بهم مكرمين ومعظّمين بحيث يحيّون من قبل ربّهم، أو من قبل الملائكة، وتكون ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال الله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٤] وقال في السور السابقة: ﴿وَٱلْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ«٢٣» سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٥].

وفي هذه التحية بشارة بالسلامة الأبدية من جميع آفات الدنيا وخُسرانها، وفنون آلامها وأسقامها، وأنواع همومها وغمومها، ومن عذاب الآخرة ومكارهها، وفي ذكر عاقبة الفريقين إيقاظ للمؤمنين حتى يتدبّروا في عواقبهم، ويُحاسبوا أنفسهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤١٣.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٣.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١١٥، تفسير روح البيان ٤: ٤١٣.
٤. يس: ٥٨/٣٦.
٥. الرعد: ٢٣/١٣ و٢٤.

يَتَذَكَّرُونَ[٢٤ و ٢٥]

ثمّ لمّا كانت السعادة الأبدية بالإيمان بالله وتوحيده والاقرار به، أوضح سبحانه بقاء كلمة التوحيد وكثرة فوائدها بضرب المثل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ببصيرة قلبك ونور نبوتك وقوة نظرك ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً﴾ بديعاً معجباً تامّ المطابقة للممثّل له، فتتعجّب منه، وهو الكلمة الطيبة.

قيل: إنّها كلمة (لا إله إلّا الله) كما عن ابن عبّاس[١]. أو هي وسائر الأذكار كالتسبيح والتحميد، والتكبير والاستغفار، والقرآن والدعاء وغيرها من الكلمات الحسنة الصادرة عن المؤمن عن المعرفة وخُلوص النية، كما عن آخر[٢].

وذلك المثل أنّه تعالى جعل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ صادرة من المؤمن في الطيب واللذة والحُسن، والثبات في النفس، والرُّسوخ في القلب، والبقاء في العوالم الالهية من عالم الأجسام والأرواح والمُثل، والمَلَكوت والجَبَروت، وفي ارتفاعها إلى العرش وفضاء عالم القُرب، وفي حُسن الثمر وطيبه وكثْرته ودوامه، وكثْرة الانتفاع به، وهو محبّة الله والتوحيد والتفويض إليه، والتوكّل عليه والتسليم لأمره، والرضا بقضائه، والصبر على طاعته وبلائه، والاعراض عن غيره، والشوق إلى لقائه، وفي كون جميع هذه الثمار بتوفيقه وتأييده ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حسنة الصورة والمنظر والريح، والنفع والثمر ﴿أَصْلُهَا ثابِتٌ﴾ في الأرض، وعروقها راسخة فيها بحيث لا يحتمل انقلاعها وانقطاعها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وغُصْنها متصاعد ﴿فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ المطلّ[٣] أو جهة العلوّ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ وتُعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان، وكلّ وقتٍ من الأوقات ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وإرادة خالقها وتدبير مدبّرها.

عن النبي ﷺ: «أنّ هذه الشجرة الطيبة النّخْلة»[٤] وهو مروي عن ابن عبّاس. وعنه: أنّ الحِين ستة أشهر. وقيل: إنّه شهران. وقيل: سنة[٥]؛ لأنّه إذا ترك عليها الثمر انتفع به في جميع أوقات السنة[٦].

وقيل: إنّ المراد بالشجرة شجرة تكون لها هذه الأوصاف التي يجب على العاقل تحصيلها والسعي في حِفظها وادّخارها لنفسه، وإن لم يكن لها وجودٌ في العالم وكان فرضياً[٧].

ثمّ نبّه سبحانه على حكمة ضرب المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ﴾ بتصوّر المحسوسات ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويفهمون المعقولات ويتصوّرون المعاني العالية عن الأفهام بتطبيقها على المشهودات.

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٤٣، تفسير روح البيان ٤: ٤١٤.
٣. لفظ السماء مؤنث وقد يذكّر.
٤. مجمع البيان ٦: ٤٨٠، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٥. مجمع البيان ٦: ٤٨٠، تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.
٦ و٧. تفسير الرازي ١٩: ١٢٠.

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل عن الشجرة في هذه الآية، فقال: «رسول الله صلى الله عليه وآله أصلها، وأمير المؤمنين فَرْعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرتها، وشيعتهم المؤمنون وَرَقُها، والله إنّ المؤمن ليولد فتورِق ورقة فيها، وإن المؤمن ليموت فتسقُط ورقة منها»[١].

وفي رواية (الاكمال): «والحسن والحسين ثمرها، والتسعة من ولد الحسين أغصانها»[٢].

وفي رواية (المعاني): «وغُصْن الشجرة فاطمة، وثمرها أولادها، وورقها شيعتها»[٣]. وزاد في (الاكمال): «﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ ما يخرج من علم الامام إليكم في كلّ سنة من كلّ فجٍّ عميق»[٤].

أقول: هذه الروايات في بيان تأويل الآية، فلا منافاة بينها.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ[٢٦]

ثمّ أنه تعالى بعد ضرب المثل للقول الحقّ وكلمة التوحيد ضرب مثلاً للقول الباطل وكلمة الشرك والكفر بقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قبيحة باطلة تصدُر من الشقي، وهي كلمة الشرك والكفر في قباحة الصورة، وسوء المنظر، ونَتْن الرائحة، وكَثْرة الضرر، وسرعة الزوال ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قبيحة الصورة والمنظر، كريهة الرائحة، ضارة الثمرة كالحَنْظَل، غير ضاربة بعروقها في الأرض بحيث ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ وانقلعت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لعدم رُسوخ عروقها فيها، فلذا ﴿مَالَهَا﴾ شيء ﴿مِن قَرَارٍ﴾ وثبات فيها بحيث تُقلَع وتزول من محلّها بأخفّ تحريك.

قيل: إنّ الله شبّه الايمان بالشجر؛ لأنّ الشجر لابدّ له من أصلٍ ثابت وفَرْع قائم ورأس عالٍ، فكذا الايمان لابدّ له من تصديقٍ في القلب، وإقرار[٥] باللسان، وعمل بالاركان[٦]. وشبّه الكفْر وعبادة الأصنام التي لا حُجّة عليها ولا يُنْتَفَع بها بشجرة الحَنْظَل التي لا أصل لها حتّى يكون لها قرار ولا نفع معتدّ به لها.

عن الباقر عليه السلام: «كذلك الكافرون لا تصعَدُ أعمالهم إلى السماء»[٧] الخبر.

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ[٢٧]

---

١. الكافي ١: ٨٠/٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٢. إكمال الدين: ٣٠/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٣. معاني الأخبار: ٦١/٤٠٠، وفيه: وورقها شيعتنا، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٤. إكمال الدين: ٣٠/٣٤٥، وفيه: من حج وعمرة، تفسير الصافي ٣: ٨٥.
٥. في تفسير روح البيان: قول.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٤١٥، وفيه: وعمل بالابدان.
٧. تفسير القمي ١: ٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

ثمَ لمَا ذكر الله سبحانه ثبات كلمة التوحيد في القلوب، بيّن ثباتها في الدارين بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بلطفه وتوفيقه ﴿بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهو كلمة التوحيد الراسخة في نفوسهم ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزولون عنها ولو قُطّعوا إرباً إرباً ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عنها في القبر وفي الموقف.

عن ابن عبّاس: من داوم على الشهادة في [الحياة] الدنيا يثبّته الله عليها في قبره ويلقّنه إياها[1].

وعن النبيّ ﷺ، أنّه ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثمّ تُعاد روحه في جسده، فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه في قبره فيقولان [له]: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربّي الله، وديني الاسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أنّه صدّق عبدي. فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾»[2] الآية.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليُضلّه[3] عما هو عليه، فيأبى الله عزّ وجلّ له ذلك، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾»[4].

وقيل: إنّ المراد يثبّت الله الذين [آمنوا] على الثواب والكرامة بسبب القول الثابت الذي يصدُر عنهم في الدنيا والآخرة[5]. وعلى أيّ تقديرٍ هو بيان لقوله: ﴿تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾.

ثم لمّا بيّن سبحانه معاملته مع أصحاب الكلمة الطيبة، بيّن معاملته مع أصحاب الكلمة الخبيثة بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكُفر عن كرامته، ويمنعهم عن الفوز بالثواب.

عن الصادق عليه السلام: «يعني يُضِلّهم [يوم القيامة] عن دار كرامته[6]» وعن الحقّ الذي ثبّت المؤمنين عليه، فلا يَثْبُتوا في الدنيا في مواقف الفتن، وإذا سئلوا عن دينهم في قبورهم قالوا: لا ندري، وتَدْهَشهم أهوال القيامة فلا يقدِرون على الجواب في الموقف ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعضٍ وإضلال آخرين حسبما تقتضيه مشيئته التي هي عين حكمته البالغة ولا اعتراض عليه.

عن الصادق عليه السلام في سؤال القبر: «وإن كان كافراً ـ إلى أن قال ـ: ويسلّط الله عليه في قبره الحيّات تَنْهَشه نهشاً، والشيطان يغُمّه غمّاً ـ إلى أن قال ـ: وهو قول الله عزّ وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾»[7].

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٢.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٥١٨.
٣. في تفسير العياشي: يساره ليصده.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢٢٧٣/٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٨٦.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٢٢.
٦. التوحيد: ١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٨٦.
٧. الكافي ٣: ٢٣٩ و١٢/٢٤٠، تفسير الصافي ٣: ٨٦.

يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ[٢٨ و ٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان فوائد كلمة التوحيد وضرر كملة الشرك بضرب المثل، أظهر التعجّب من الذين هيّأ لهم أسباب الهداية إلى التوحيد ودين الحقّ ومع ذلك اختاروا الكفر والشّرك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد، ولم تنظُر ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللهِ﴾ التي أنعمها عليهم والهداية التي رزقهم، ببعث محمّد ﷺ فيهم بالرسالة، وإنزال القرآن عليهم، فأبوا عن قبولها، واختاروا مكانها ﴿كُفْراً﴾ بالله ووَحْدانيته.

وقيل: يعني بدّلوا شكر نعمة الله كفراً بأن وضعوه مكانه، أو بدّلوا نفس النعمة كُفراً، فانّهم لمّا كفروها سُلِبت منهم، فصاروا فاقدين لها، وواجدين للكفر بدلها[1].

قيل: نزلت في أهل مكة حيث أسكنهم الله حَرَمه، وجعلهم قُوّام بيته، ووسّع عليهم أبواب رزقه، وشرّفهم بمحمد ﷺ فكفروا ذلك وقَحَطوا سبع سنين، وقُتِلوا وأُسِروا يوم بدر، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هم الأفجران: بنو المُغيرة، وبنو اُمية، أما بنو المُغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأمّا بنو اُمية فمُتّعوا إلى حين»[3].

وفي (المجمع): سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقال: «هما الأفجران من قريش: بنو اُمية، وبنو المغيرة، فأمّا بنو اُمية فمُتّعوا الى حين، وأمّا بنو المُغيرة فكفيتموهم يوم بدر»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في الأفجرين من قريش: بنو المُغيرة، وبنو اُميّة، فأمّا بنو المُغيرة فقطع الله دابرهم [يوم بدر]، وأمّا بنو اُميّة فمُتّعوا إلى حين»[5].

﴿وَأَحَلُّوا﴾ وأنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ باضلالهم عن الحقّ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ والهلاك، وهي ﴿جَهَنَّمَ﴾ وهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخُلون فيها مقاسين لحرّها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ والمستقرّ جهنّم.

عن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل عن هذه الآية، فقال: «ما يقولون في ذلك؟» قيل: يقولون: هما الأفجران من قريش: بنو اُميّة، وبنو المُغيرة. فقال: «هي والله قريش قاطبة، إنّ الله تعالى خاطب به نبيّه ﷺ فقال: إنّي فضلت قريشاً على العرب، وأتممت عليهم نعمتي، وبعثت إليهم رسولي، فبدّلوا نعمتي كُفراً، وأحلّوا قومهم دار البَوار»[6].

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٤١٨.
٤. مجمع البيان ٦: ٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ٨٧.
٥. تفسير القمي ١: ٣٧١، تفسير الصافي ٣: ٨٧.
٦. الكافي ٨: ٧٧/١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

وعن الصادق عليه السلام: «عنى بها قريشاً قاطبة الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وآله ونصبوا له الحرب، وجحدوا الوصية»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنهم كفار قريش، كذّبوا نبيهم، ونصبوا له الحرب والعداوة»[2].

ويمكن الجمع بين الروايات بأن النزول وإن كان في قريش قاطبة، ولكن لمّا كان الأفجران أكفرهم للنعمة صحّ أن يقال نزلت فيهما.

وعن الصادق عليه السلام - في رواية - «ونحن نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز»[3].

وعن (الكافي) و(القمي) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما بال أقوام غيّروا سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وعَدَلوا عن وصيه، ألا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب» ثمّ تلا هذه الآية، ثم قال: «نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة»[4].

وَجَعَلُوا لِلهِ أَندَاداً لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ[٣٠]

ثمّ فسّر الله كفرانهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ من الأصنام ﴿لِلهِ أَندَاداً﴾ وشركاء في العبادة والنِّعم التي أنعم بها عليهم بأن صرفوها فيها، وقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ويحرّفوا عباد الله ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِهِ﴾ وقَبول دينه الحقّ.

ثمّ أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لهؤلاء المشركين المضلّين: أنتم لا تتأهّلون للوَعظ والنُّصح والهداية، فأنتم مخلّون وأنفسكم، إذن ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا بالنِّعَم الدنيوية قليلاً، وكُلوا منها كما تأكُل الأنعام، لاحظّ لكم في نِعم الآخرة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ بعد خروجكم من الدنيا ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ التي سجّرها القهّار بغضبه.

قُل لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ[٣١]

ثمّ لمّا أمر سبحانه الكفّار بالتمتّع بالنِّعم الدنيوية تهديداً، أمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يأمُر المؤمنين بالإعراض عن الدنيا والاقبال إلى العبادات لطفاً بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾ عرفوني و﴿آمَنُوا﴾ بوَحْدانيتي ودار جزائي، ليُعرِضوا عن التمتّع بالمشتهيات النفسانية واللذائذ الدنيوية، ويُقبِلوا الى

---

١. الكافي ١: ٤/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٧.
٢. مجمع البيان ٦: ٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ٨٧.
٣. تفسير القمي ١: ٣٧١، تفسير الصافي ٣: ٨٧.
٤. الكافي ١: ١/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٨٧.

العبادات البدنية والمالية بأن ﴿يُقِيمُوا ٱلصَّلاةَ﴾ التي هي عمود دينهم، ومعراجهم إلى مقام قُرب ربّهم ﴿وَيُنفِقُوا﴾ بعضاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ وأنعمنا عليهم في سبيلنا وتحصيل مرضاتنا ﴿مِن قَبْلِ أَن﴾ تنقضي مُدد أعمارهم في الدنيا و﴿يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ عظيم ﴿لَا بَيْعٌ﴾ ومعاوضة ﴿فِيهِ﴾ حتّى يبتاع المجرم نفسه بالمال ويفتدي به عنها من العذاب ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ وصداقة حتى يشفّعه خليله وصديقه، أو يبذُل عنه مالاً ليخلّصه من العقوبة، فعلى العاقل أن يُهيّأ أسباب خلاصة من العذاب في الدنيا بالقيام بوظائف العبودية وبذل الأموال في سبيله.

ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[٣٢ـ٣٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حال السعداء، وترغيبهم في القيام بوظائف العبودية، وبيان حال الأشقياء، وترهيبهم من الشرك، نبّه على كمال قدرته وحكمته ووفور نعمته، ازدياداً لترغيب الأولين وترهيب الآخرين بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقدرته ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً﴾ نافعاً بحكمته ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ من الأرض كثيراً ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَاتِ﴾ ليكون ﴿رِزْقاً﴾ ومعايش ﴿لَكُمْ﴾ بجوده ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ وسلّطكم على صُنعها واستعمالها ﴿لِتَجْرِيَ﴾ وتسير الفُلك المصنوعة ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى حيث توجّهتم بها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وإرادته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ﴾ بأن جعلها سهلة الانتفاع بها باتحاد الجداول منها تسقي زروعكم وبساتينكم.

قيل: لمّا لم ينتفع بماء البحر في الزراعات، أنعم الله على الخلق بتفجير الأنهار والعُيون[١].

وقيل: زروعكم وبساتينكم[٢].

وقيل: إنّ المراد بالأنهار الأنهار العظيمة الخمسة: سَيحون وجَيحون والفُرات ودِجلة والنِّيل، أنزلها الله من عينٍ واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها، وسخّرها للناس، وجعل فيها منافع لهم في أصناف معائشهم، وسائر الأنهار تَبَعٌ لها[٣].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٢٨.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٢١.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٢.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ حال كونهما ﴿دَائِبَيْنِ﴾ ودائمين في سيرهما بحيث لا ينقطع سيرهما إلى يوم القيامة، ولا يفتران لاصلاح ما يُصلحان من الأرض والنبات والأبدان والمعادن وغيرها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنُوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتبتغوا من فضله ﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ﴾ بجوده بعضاً ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ممّا تحتاجون إليه ممّا لم يكن منافياً لحكمته، أو كلّ ما سألتموه بلسان الحال أو المقال على أنّ كلمة (مِن) تبيينية.

ثمّ نبّه على أنّ نِعَمهُ ليست منحصرةً بالمذكورات بقوله:﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ﴾ التي أنعمها عليكم جسمانية وروحانية ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ ولا تقدِرون على عدّها وحصرها لكثرتها وعدم إحاطة عقولكم بجميعها.

ثمّ ﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ﴾ المستغرق في تلك النِّعم والله ﴿لَظَلُومٌ﴾ وكثير العصيان لمنعمه مع أنّ حقّ نِعمه الطاعة وصرف العمر في الشكر و﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النعم، ومبالغٌ في كفرانها بأن صرفها في مايُغضِب المُنعِم ويجعل له أنداداً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ[۳۵]

ثمّ لمّا كانت قريش مفتخرين بانتسابهم إلى إبراهيم، حكى سبحانه شدّة إنكاره عبادة الأصنام بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حبّاً لأولاده الساكنين في مكة من بني إسماعيل ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا البَلَدَ﴾ الذي يَسْكُنه[۱] ذُرّيتي ﴿آمِناً﴾ ومحفوظاً من ورود المَكَارِه العمومية[۲] على أهله، وقد مرّ في سورة البقرَة تفصيل المراد من جعله آمناً[۳] ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ وبعّدني ﴿وَبَنِيَّ﴾ من ﴿أَن نَعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ﴾ بأن تثبّتنا على ما نكون عليه من التوحيد ودين الاسلام.

قيل: إنّه عليه السلام لمّا رأى القوم يعبُدون الأصنام، فخاف على بنيه، فدعا لهم[٤]، وإنّما أدخل نفسه الشريفة في الدعاء إمّا لإظهار هضمها، وإمّا لإظهار أنّ عِصمته من العقائد الفاسدة والزلّات بعناية الله ولُطفه لا بنفسه، وقد استجاب الله دعاءه، فجعل البلد آمناً بالمعاني التي سبق ذكرها، وجنّب كثيراً من ذراريه من عبادة الصنم، وكانت كلمة التوحيد باقية في عَقِبه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قد حَظَر على من مسّه الكفر تقلّد ما فوّضه إلى أنبيائه وأوليائه بقوله

١. في النسخة: يسكنها. ٢. في النسخة: العمومي.
٣. تقدم في سورة البقرة: ١٢٦/٢. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٤.

لابراهيم عليه السلام: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾[١] أي المشركين، لأنه سمّى الشرك ظلماً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] فلمّا عَلِم إبراهيم عليه السلام أنّ عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾»[٣].

وفي رواية (الأمالي): عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ لم يسجُد أحدٌ منّا لصنم قطّ، فاتّخذني نبياً وعلياً وصياً»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه أتاه رجلٌ فسأله عن شيء فلم يجبه، فقال له الرجل: فان كنت ابن أبيك فانّك من أبناء عبدة الأصنام. فقال له: «كَذَبت إن الله أمر إبراهيم أن يُنزِل إسماعيل بمكّة ففعل، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فلم يعبُد أحدٌ من ولد إسماعيل صنماً، ولكن العرب عَبَدة الأصنام، وقالت بنو إسماعيل: هؤلاء شُفعائنا عند الله فكفرت ولم تعبُد الأصنام»[٥].

وقيل: إن دعاءه كان لأولاده من صُلبه، وهم إسماعيل وإسحاق[٦].

وقيل: لأولاده الذين كانوا في عصره[٧].

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣٦]

ثمّ بين عليه السلام أنّ علة سؤال عصمة أولاده من عبادة الأصنام، شيوع الشرك بين الناس بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وصِرن أسباباً لبُعد غالب الخلق عن الحقّ، ثمّ أظهر غاية حبّه للموحّدين المطيعين لله ترغيباً للنّاس إلى التوحيد وطاعة الله، وإظهاراً لتبعية حبّه لحبّ الله بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ من الناس كان من أولادي أو غيرهم في ديني من عقائدي وأعمالي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وبمنزلة عضوٍ من أعضائي لفَرْط اختصاصه بي وحبّي إياه.

ثمّ أظهر عطوفته بعامة الناس بشفاعته في أهل الكبائر منهم بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وخالف أحكامك التي بلغتها إليه، فاغفر له ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين العصاة فلا تُحرمه من غُفرانك ورحمتك.

عن الصادق عليه السلام: «من اتّقى الله منكم وأصلح فانه منّا أهل البيت» [قيل: منكم أهل البيت؟ قال: «منا

---

١. البقرة: ١٢٤/٢.
٢. لقمان: ١٣/٣١.
٣. الاحتجاج: ٢٥١، تفسير الصافي ٣: ٨٩.
٤. أمالي الطوسي: ٨١١/٣٧٩، تفسير الصافي ٣: ٨٩.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٧/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٨٩.
٦. تفسير الرازي ١٩: ١٣٢.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٣٣.

أهل البيت] قال [فيها] إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى﴾»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «من أحبّنا فهو منّا أهل البيت» قيل: منكم؟ قال: «منّا والله، أما سَمِعت قول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى﴾»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: «تقدِر أن تغفر له وترحمه»[٣].

قيل: إنّ المراد من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني أنك قادرٌ على أن تغفر له وترحمه بأن تنقُله عن الكفر إلى الإيمان[٤].

وقيل: إنّ المراد من هذه المغفرة عدم التعجيل في عقوبته وإمهاله حتى يتوب، أو عدم التعجيل في موته فتفوته التوبة[٥].

رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[٣٧]

ثمّ أنّه عليه السلام بعد طلب الأمن والايمان اللذين هما أجلّ النِّعَم الدنيوية والأُخروية وأعلاها لأولاده، سأل وجاهتهم ومحبوبيتهم عند الناس والسّعة في رزقهم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ﴾ بعضاً ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ وأولادي وهم إسماعيل ونسله ﴿بِوَادٍ﴾ وصحراء ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكّة، فانّها حجرية لا ينبُت فيها شيء من الزرع ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ والكعبة العظيمة التي لا يحِلّ انتهاكها، وإنمّا كان إسكاني لهم فيه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ عند البيت، ويشتغلوا بعبادتك حوله، لا لغرض دنيوي، فاذا كان غرضي ذلك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً﴾ كثيرة ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى﴾ وتشتاق ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وتُسرع إلى لقائهم محبّةً لهم.

عن الباقر عليه السلام: «نحن هم، ونحن بقيّة تلك الذرّية»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «والأفئدة من الناس تهوي إلينا، وذلك دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ﴾»[٧].

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٩/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٩٠.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٢٨٨/٤١٤، تفسير الصافي ٣: ٩٠.
٣. تفسير الصافي ٣: ٩٠.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٣٤، وفيه: إلى الإسلام.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٤.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٢٩١/٤١٥، تفسير الصافي ٣: ٩٠.
٧. الاحتجاج: ١٦٠، تفسير الصافي ٣: ٩١.

وعن الباقر عليه السلام في رواية: «فنحن دعوة إبراهيم عليه السلام»[١].

وعنه عليه السلام - في رواية أُخرى -: «وكانت دعوة إبراهيم لنا خاصة»[٢].

وعنه عليه السلام، أنّه نظر إلى النّاس يطوفون حول الكعبة فقال: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنّما أُمروا أن يطوفوا بها ثمّ ينفِروا إلينا فيُعلمونا ولايتهم ومودّتهم، ويعرِضوا علينا نُصرتهم» ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ﴾[٣].

﴿وَٱرْزُقْهُم مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَاتِ﴾ والفواكه والأطعمة، بأن يجيء إليهم من البلاد البعيدة أو القرى القريبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نِعمك.

قيل: إنّه يجتمع في مكّة بدعائه عليه السلام الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يومٍ واحد[٤].

وعن ابن عباس: أنّ الطائف التي على ثلاث مراحل من مكة، كانت من أرض فلسطين، فلمّا دعا إبراهيم بهذه الدعوة رفعها الله ووضعها قريباً من الحرم[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الثمرات تُحمَل إليهم من الآفاق، وقد استجاب الله له حتى لا يوجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا[٦] توجد فيها»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني من ثمرات القلوب»[٨] أي حبّبهم إلى الناس ليأتوا إليهم ويعودوا.

روي من طريق عامي: أنّ هاجر كانت أمة لسارة، فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فولدت [له] إسماعيل، فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله [لي] ولداً من خليله فمَنعته[٩] ورزقه خادمتي. وقالت لابراهيم بعّدهما عنّي. فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع، ثمّ رجع، فقالت هاجر: إلى مَن تَكِلنا؟ فقال: إلى الله، ثمّ دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ الآية. ثمّ أنّها عَطِشت وعَطِش الصبيّ، فانتهت بالصبيّ إلى موضع زمزم، فضرب بقدمه، ففارت عيناً، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «رَحِم الله أمّ إسماعيل، لولا أنها عَجِلت لكانت زَمزَم عَيناً معيناً»[١٠].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ ابراهيم عليه السلام كان نازلاً في بلاد[١١] الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غماً شديداً؛ لأنّه لم يكن له منها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم عليه السلام في هاجر،

---

١. الكافي ٨: ٤٨٥/٣١٢، تفسير الصافي ٣: ٩١.
٢. مجمع البيان ٦: ٤٨٩، تفسير الصافي ٣: ٩٠.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٢٩٩/٤١٨، الكافي ١: ١/٣٢٢، تفسير الصافي ٣: ٩٤.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٢١، تفسير روح البيان ٤: ٤٢٧.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٧، وفيه: ووضعها رزقاً للحرم.
٦. في عوالي اللآلي: إلّا.
٧. عوالي اللآلي ٢: ٢٥٨/٩٦، تفسير الصافي ٣: ٩١.
٨. تفسير القمي ١: ٣٧١، تفسير الصافي ٣: ٩١.
٩. في تفسير الرازي: فمنعنيه.
١٠. تفسير الرازي ١٩: ١٣٦.
١١. في تفسيري القمي والصافي: بادية.

وتَغمه، فشكا إبراهيم عليه السلام ذلك إلى الله عزّ وجلّ، فأوحى الله إليه: إنّما مثل المرأة مثل الضِّلع العوجاء إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها. ثمّ أمره أن يُبعِد إسماعيل وأُمّه عنها فقال: يا رب إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأول بُقعةٍ خلقتها من الأرض، وهي مكة.

فأنزل الله عليه جبرئيل بالبُراق، فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم عليه السلام لا يمُرّ بموضعٍ حسَنٍ فيه شجر ونخل وزَرع إلّا وقال: يا جبرئيل، إلى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا امضِ، حتى وافى مكة، فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجِع إليها، فلمّا نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً كان معها، فاستظلّوا تحته، فلمّا سرّحهم إبراهيم عليه السلام ووضعهم وأراد الانصراف عنهم الى سارة، قالت هاجر: لم تَدَعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم عليه السلام: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضرٌ عليكم.

ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ كَداء ـ وهو جبل بذي طُوى ـ التفت إليهم إبراهيم، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتى﴾ الآية. ثم مضى وبقيت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عَطِش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى، فنادت: هل في الوادي من أنيس؟ فغاب إسماعيل عنها، فصعِدت على الصّفا ولمع لها السّراب في الوادي، وظنّت أنّه ماءٌ، فنزلت في بطن الوادي وسَعَت، فلمّا بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل، ثمّ لَمَع [لها] السراب في ناحية الصفا، فهَبَطت إلى الوادي تطلُب الماء، فلمّا غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلمّاكانت في الشوط السابع وهي على المَروة ونظرت إلى إسماعيل، وقد ظهر الماء من تحت رجله، فعدت حتى جمعت حوله رملاً، فانّه كان سائلاً فزمّته بما جعلته حوله، فلذلك سُمّي زمزم.

وكانت جُرْهَم[1] نازلةً بذي المَجاز وعَرَفات، فلمّا ظهر الماء [بمكة] عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جُرْهم إلى تَعكُّف الطير في ذلك المكان اتّبعوها حتّى نظروا إلى امرأة وصبيّ نازلين في ذلك الموضع، قد استظلا بشجرةٍ، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبيّ؟ قالت: أنا أُمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا ابنه، أمره الله أن يُنزِلنا ها هنا، فقالوا لها: أتأذنين أن نكون بالقرب منكما؟ [فقالت: حتى يأتي إبراهيم] فلما زارهم إبراهيم عليه السلام يوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الرحمن، إنّ ها هنا قوماً من جُرْهَم يسألونك أن تأذَن لهم حتى يكونوا بالقرب

---

١. اسم قبيلة.

منّا، أفتأذن لهم في ذلك؟ فقال إبراهيم عليه السلام: نعم، فأذنت هاجر لجُرْهَم، فنزلوا بالقرب منهم، وضربوا خِيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم، فلمّا زارهم إبراهيم في المرة الثالثة، نظر إلى كثرة الناس [حولهم]، فسُرّ بذلك سروراً شديداً»[١].

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّماءِ[٣٨]

ثمّ أظهر عليه السلام ذلّته وعلمه تعالى بحاجته تقريباً لإجابة دعائه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ في صدورنا من الحاجة ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ ونظهر بألسنتنا من مطلوبنا لاظهار العبودية والمسكنة والافتقار إلى رحمتك، واستعجالاً بنيل أياديك، لا لأن تعلم حاجاتنا.

قيل: إنّ المراد ما نُخفي في قلوبنا من الحزن بسبب الفرقة بيني وبين ابني إسماعيل[٢]، أو ما نُخفي من الحزن على ما جرى[٣] بيني وبين هاجر حيث قالت: حين الوداع: إلى من تَكِلنا؟ وما نُعلِن من البكاء، أو من جوابها بأنّي أكلكم إلى الله[٤].

ثمّ أنه عليه السلام لمّا أضاف علمه تعالى بالأمرين الخاصين، دفع توهم الاختصاص بقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللهِ﴾ الخالق لجميع الأشياء العالم بحقائقها ودقائقها ﴿مِن شَىْءٍ﴾ حقير أو كبير يكون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتُخومها ﴿ وَلَا فِى ٱلسَّمَاءِ﴾ لأنّ علمه عين ذاته، والكلّ معلولٌ لارادته. وقيل: إن الذيل كلام الله عزّ وجلّ تصديقاً لابراهيم عليه السلام[٥] لا من تتمّة كلام إبراهيم عليه السلام.

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ[٣٩]

ثمّ أنّه عليه السلام أعلن بالشكر على نعمة الله عليه طلباً لابقائها وازديادها بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ بكَرمه وجُوده وأنا ﴿عَلَى﴾ حال ﴿ٱلْكِبَرِ﴾ والهَرَم الذي يقتضي العُقم والحِرمان عن الولد ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ بدعائي.

ثمّ لمّا كان الثناء على الله من كمال الدعاء، أثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ والله ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ﴾ ومجيبه، وفي نسبة الهبة بحال الكبر إظهاراً لكونها من الآيات وخوارق العادات.

---

١. تفسير القمي ١: ٦٠، تفسير الصافي ٣: ٩١. ٢. تفسير الرازي ١٩: ١٣٧.
٣. في تفسير الرازي: من الحزن المتمكّن في القلب، وما نعلن يريد ما جرى. ٤. تفسير الرازي ١٩: ١٣٧.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

قيل: ولد [اسماعيل] ولإبراهيم أربع وستون. وقيل: تسع وتسعون سنة[١].

وعن سعيد بن جبير: أنّه لم يولد لابراهيم إلّا بعد مائة وسبع عشرة سنه[٢].

قيل: إنّما سمّاه إسماعيل لأنّه دعا الله أن يرزقه ولداً، وقال في دعائه: اسمع يا إيل، وإيل اسم الله، فلمّا ولد سمّاه به. وقيل: معناه بالعبرانية مُطيع[٣].

وفي ذكر إسحاق دلالة على أنّ هذا الشكر والثناء لم يكن في زمان إسكان إسماعيل في مكة، بل كان بعد كِبَره وولادة إسحاق، وإنّما حكى الله هذا الحمد هنا بمناسبة ذكر إسماعيل لا لكونه في زمان سائر الأدعية.

قيل: ولد له إسحاق وله تسعون[٤]. وقيل: مائة واثنتا عشرة سنة[٥].

رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ [٤٠ و ٤١]

ثمّ لمّا ذكر أنّ غرضه من إسكان إسماعيل في محلّ البيت إقامة الصلاة عنده، سأل توفيقه وتوفيق بعض ذرّيته لاقامة الصلاة بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾ بتوفيقك ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ﴾ ومواظباً عليها ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾.

وقيل: لمّا أخبره الله بأنّ بعض ذرّيته يكون كفّاراً، خصّ هذا الدعاء ببعضهم[٦].

ثمّ سأل استجابة دعائه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ﴾ واستجب ﴿دُعَاءِ﴾ ثمّ ختم الدعاء بطلب المغفرة التي هي أهم المقاصد الأخروية بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾ ماصدر منّي من ترك الأولى ﴿وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ ويتحقق فيه جزاء الأعمال.

قيل: إنّ المراد بوالديه آدم وحواء[٧]. وقيل: إنّ المراد والداه بلا واسطة[٨]، وكان الدعاء قبل النهي عن الاستغفار للمشركين.

أقول: الحقّ أنّ المراد بوالديه تارخ وزوجته اُمّ إبراهيم، وهما كانا مسلمين، وكان آذر عمّه، أو أبا اُمّه، أو زوج اُمّه، وأمّا بعض الروايات المروية عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام بطرق أصحابنا الدالة على وقوع التحريف في الآية، وكان المنزل (ولولدي)[٩] فمطروحٌ غير معتبرٍ، ولذا أعرضنا عنها.

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٩.

٤. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨.

٥. تفسير الرازي ١٩: ١٣٨، تفسر روح البيان ٤: ٤٢٩.

٦. تفسير الرازي ١٩: ١٣٩، تفسير أبي السعود ٥: ٥٤.

٧. تفسير الرازي ١٩: ١٤٠، تفسير أبي السعود ٥: ٥٤.

٨. تفسير روح البيان ٤: ٤٢٩.

٩. راجع: تفسير العياشي ٢: ٢٣٠١/٤١٩ و٢٣٠٣.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ[٤٢ و ٤٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد إثبات التوحيد بالبراهين، وكونه ملة إبراهيم، وكون الشرك عِصيانه، وخوف إبراهيم من عذاب الله يوم الحساب، هدّد الله المشركين بأهوال ذلك اليوم بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد، ولا تحتمل أن يكون ﴿غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ والمشركون من العصيان والطُّغيان وعبادة الأوثان.

قيل: إن المراد دُم يا محمّد على ما أنت عليه من عدم حسبان الغفلة في حقّه تعالى[1].

ويحتمل أن يكون المقصود نهي المؤمنين، والمعنى: لا تحسبوا ـ أيّها المؤمنون ـ أنّ تأخير العذاب عن الظالمين لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويُمهلهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ عظيم ﴿تَشْخَصُ﴾ وترتفع ﴿فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ﴾ وتبقى مفتوحة، لا يقدِرون على تحريكها من الدهشة، وهم مع شخوص أعينهم المقتضي لوقوفهم في أماكنهم يكونون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين لاجابة الداعي، أو نحو البلاء والعذاب كإسراع الأسير الخائف، أو مقبلين إلى الحساب، أو المراد ناظرين في ذلٍّ وخشوعٍ حال كونهم ﴿مُقْنِعِي﴾ ورافعي ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ مع أنّ حقّ المشاهد للبلاء أطراق رأسه كي لا يراه.

ثمّ بيّن دوام شخوصهم بحيث ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ ولا يرجع ﴿إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ولا تحرّك أجفانهم، بل تبقى مفتوحة أبداً دائماً لدوام حَيرتهم ودَهشتهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ﴾ وقلوبهم ﴿هَوَاءٌ﴾ وخالية من العقل والقوة والأفكار والآمال، لعِظم ما ينالهم من الوحشة والدهشة والحُزن.

القميّ قال: تتصدّع قلوبهم من الخَفَقان[2]. قيل: ذلك عند القيام من القبور. وقيل: عند قيام الحساب. وقيل: عند تميّز الأشقياء من السُّعداء[3].

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ[٤٤ و ٤٥]

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٣١.
٢. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٩٥.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١٤٢.

ثمَ أنّه تعالى بعد تخويف المشركين بأهوال القيامة، أمر نبيه ﷺ بتخويفهم من عذابه بقوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يانذير البشر ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعهود، وهو عذاب يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم باختيار وعمل المعاصي وتكذيب الرسل عند رؤيتهم العذاب: ﴿رَبَّنَا﴾ رُدّنا إلى الدنيا و﴿أَخِّرْنَا﴾ وأمهلنا فيها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمدٍ قليل ﴿نُجِبْ﴾ إذن ﴿دَعْوَتَكَ﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ ونعمل بقولهم، ونتدارك ما فرّطنا فيه، فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: هيهات ألم نُمهلكم فيها ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم﴾ وحلفتم بألسنتكم، أو بلسان حالكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي زمان حياتكم حيث بنيتم شديداً وأمّلتم[١] بعيداً غروراً واستكباراً على أنّه ﴿مَا لَكُم مِن زَوَالٍ﴾ وانصراف عن التمتّع بالمشتهيات والشرك وتكذيب الرسل، أو من زوال من هذه الدنيا وخروج منها ورجوع إلى دار الجزاء، مع أنّه قد تمّت عليكم الحُجّة.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والطُّغيان كعاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار أنا ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وعاملنا معهم من الإهلاك والعقوبة بسيئاتهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ في هذا القرآن العظيم ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ وبيّنا لكم ممّا فعلوا وفعل بهم ما يكون فيه غاية الاعتبار، ومع ذلك لم تحدّثوا أنفسكم[٢] أنّ أعمالكم كأعمالهم ومالكم كمالهم فترتدعوا عمّاكنتم فيه من الكفر والطُّغيان[٣] وتكذيب الرسل، فلو رجعتم إلى الدنيا بعد هذا اليوم لترجعنّ إلى ماكنتم عليه، ولا ينفعكم النُّصح والموعظة.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ[٤٦]

ثمّ لمّا هدّد سبحانه المشركين المكذّبين للرسول بأهوال القيامة وشدائدها وعذابها، بيّن شدّة سعيهم ومكرهم في إطفاء نور النبي ﷺ وإبطال الحقّ، ووبخهم عليه بقوله ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ وسَعَوا بتدبيراتهم في إخلال أمر النبوة وإطفاء نور الرسالة ﴿مَكْرَهُمْ﴾ العظيم المقدور لهم، وجُهدهم البليغ الميسور لهم، بحيث لا يمكنهم فوقه ﴿وَعِندَ ٱللهِ﴾ محفوظ ومكتوب ﴿مَكْرُهُمْ﴾ ليُجازيهم بما هو أعظم من مكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العِظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنها ومقارّها. قيل: يعني مساوٍ في العِظَم لازالتها من محالّها[٤]، وقوله: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ كنايةٌ عن غاية المتانة

١. في النسخة: وأمنتم، وما أثبتناه من روح البيان ٤: ٤٣٣.
٢. في النسخة: لأنفسكم.
٣. في النسخة: والطاغين.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٢٢، تفسير روح البيان ٤: ٤٣٥.

والشدّة لكونه مثلاً في ذلك.

وقيل: إنّ كلمة (إن) نافية[١]، والمعنى: وما كان مكرهم في القوة والتأثير بحدٍّ تزول الجبال بسببه، يعني يزول به دين محمّد وحجتّه ودلائله، بل هو أوهن وأضعف من ذلك.

وقيل: إنّ المراد أنّ كفّار هذا العصر مكروا مكر كفّار الأعصار السابقة، كنمرود ومن حذا حذوه، وعند الله جزاء مكرهم[٢].

فَلا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ[٤٧]

ثم نبّه سبحانه على أنّ مكر الماكرين بالرسل لا يمكن أن يكون مخلاً بأمر الرسل بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تتوهمنّ يا محمّد أن ﴿ٱللهَ﴾ الحكيم القادر ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾ الذي وعده ﴿رُسُلَه﴾ من تعذيب أعدائهم ونُصرتهم على معارضيهم ﴿إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ﴾ وغالبٌ على أمره، وقاهرٌ على خلقه ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه وأعداء رسله.

قيل: إن الله قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[٣] وقال هنا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه﴾ ، فنبّه بتلك القضيتين على أنّه إن لم تَقُم القيامة، ولم ينتقم للمظلوم من الظالم، يلزَم إما كونه غافلاً، أو مخلفاً لوعده رسله، وكلاهما محال، فالقول بعدم قيام القيامة في غاية البُطلان[٤].

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّماوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ[٤٨]

ثمّ عيّن سبحانه يوم إتيانهم العذاب أو وقت الانتقام بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ وتغيّر هذه ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ وتكون صفتها ﴿غَيْرَ﴾ صفة تلك ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

عن ابن عبّاس: هي تلك الأرض، إلّا أنها تغيّرت في صفاتها، فتسيّر عن الأرض جبالها، وتفجّر بحارها وتسوّى، فلا يُرى فيها عِوَج ولا أَمَت[٥].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ، قال: «يُبدّل الله الأرض غير الأرض[٦]، فيبسُطها ويمُدّها مدّ الأديم العُكاظي، فلا ترى فيها عِوجاً ولا أَمتاً، ثم يزجُر الله الخلق زَجْرةً فاذا هم في [هذه المُبدَلة في] مثل

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٥٢٢، تفسير أبي السعود ٥: ٥٨.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٥٩، تفسير الرازي ١٩: ١٤٤.
٣. إبراهيم ١٤: ٤٢.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٤٥.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٤٦.
٦. زاد في مجمع البيان: والسماوات.

مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «يحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عَفْراء كقُرصة النَّقي[٢]، ليس فيها مَعْلَم لأحدٍ»[٣].

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «تبدّل الأرض خُبزة نقيّة، يأكُل الناس منها حتّى يَفرَغوا من الحساب».

قيل: إنّ الناس لفي شُغلٍ يومئذٍ عن الأكل والشُّرب؟ فقال: «إنّهم في النار لا يشتغلون عن أكل الضَّريع وشُرب الحميم وهم في العذاب، فكيف يشتغلون عنه في الحساب؟»[٤].

وفي رواية اُخرى: «أن الله عزّ وجلّ خلق ابن آدم أجوف، ولابدّ له من الطعام والشراب، أهم أشدّ شُغلاً يومئذٍ أم من في النّار؟ فقد استغاثوا والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾»[٥].

وعن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أرض القيامة من نارٍ ما خلا ظلّ المؤمن، فان صدقته تُظلّه»[٦].

عن الباقر ـ في رواية ـ أنّه قال: «لعلّكم تَرَون أنّه إذا كان يوم القيامة، وصيّر الله أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة، وصيّر أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار، أنّ الله تبارك وتعالى لا يُعبَد في بلاده، ولا يَخلُق خلقاً يعبُدونه ويُوحّدونه ويُعظّمونه، بلى [والله] وليَخلُقن خلقاً من غير فُحولة ولا إناث يعبُدونه ويوحّدونه ويعظّمونه، ويخلُق لهم أرضاً تحمِلهم وسماءً تظلّهم، أليس الله يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وقال الله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾»[٧].

أقول: ليس في الرواية دلالة على تغيير أرض المحشر.

وعن ابن مسعود: تبدّل بأرضٍ كالفِضّة البيضاء النقية لم يُسفَك فيها[٨] دمٌ، ولم تُعمَل عليها خطيئة[٩].

وعن السجاد عليه السلام: «وتبدّل الأرض غير الأرض، يعني بأرضٍ لم تُكْتَسب عليها الذنوب، بارزة ليس عليها جبال ولا نبات، كما دحاها أوّل مرّة»[١٠].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المتحابّون في الله عزّ وجل يوم القيامة على أرضٍ من

---

١. مجمع البيان ٦: ٤٩٨، تفسير الصافي ٣: ٩٧.

٢. العفراء: الأرض البيضاء التي لم تُوطأ، وقُرصة النَّقي: القُرصة المتخّذة من خالص الدقيق ولُبابه.

٣. مجمع البيان ٦: ٤٩٩، تفسير الصافي ٣: ٩٧.

٤. الكافي ٦: ١/٢٨٦، تفسير الصافي ٣: ٩٦.

٥. الكافي ٦: ٤/٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٩٦، والآية من سورة الكهف: ٢٩/١٨.

٦. ثواب الأعمال: ١٤٠، بحار الأنوار ٧: ٥٧/١٢٠.

٧. تفسير العياشي ٢: ٢٣١٣/٤٢٣، الخصال: ٤٥/٣٥٩، تفسير الصافي ٣: ٩٧، والآية من سورة ق: ١٥/٥٠.

٨. في تفسير الرازي: عليها.

٩. تفسير الرازي ١٩: ١٤٧.

١٠. تفسير العياشي ٢: ٢٣٠٨/٤٢١، تفسير الصافي ٣: ٩٦.

زَبرْجَدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه، وكلتا يديه يمين»[١].

أقول: لا منافاة بين الأخبار، لاحتمال اختلاف الأرض باختلاف الأصناف من المؤمنين على اختلاف مراتبهم والكافرين، فبالنسبة إلى بعض المؤمنين كالفضة، وبالنسبة إلى بعض من الزّبرجدة، وإلى بعض خُبزة نقية، وهكذا بالنسبة إلى الكافر نار، وعلى أي تقدير ﴿وَٱلسَّمَاوَاتُ﴾ أيضاً تبدّل غير السماوات بانفطارها، وانتثار كواكبها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبواباً، وتكون كالمُهل تارة، وكالدِّهان اُخرى.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بطريقٍ عامي: «وسماوات من ذهب»[٢].

﴿وَبَرَزُوا﴾ وظهروا من قبورهم حين التبدّل أو بعده ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ليُحاسبهم ويُجازيهم، فاذا كان الأمر إلى الغالب الذي لا يُغالَب والقهّار الذي لا يُقهَر فلا مُغيث لأحدٍ غيره ولا مُستجار، وكلٌّ مقهورٌ تحت قُدرته، ومنقلبٌ في قبضته، ومُسخَّرٌ لقضائه.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ[٤٩ـ٥٢]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان قهّاريته بيّن مقهورية الكفار له وعجزهم وذلتهم لديه بقوله: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمّد، أو أيها الرائي ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعصاة ﴿يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾ ومشدّدين مع أقرانهم من الكفّار المشاركين معهم في العقائد والأعمال، أو مع الشياطين المغْوين لهم إلى الضلال، أو مع عقائدهم و أعمالهم المجسّمة المصوّرة بأقبح الصُّور المتشكّلة بأسوأ الأشكال ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ والقيود والأغلال.

وقيل: إنّ المراد من ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قُرنت أيديهم وأرجلهم إلى رِقابهم في الأصفاد[٣] و﴿سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ﴾ قيل: هو شيءٌ يتحلّب من شجرٍ يسمّى الأبهل[٤].

وقيل: يُتّخذ من حَمْل شجر العَرْعَر، فيُطبَخ وتُطلى به الإبل التي فيها الجَرب، فيُحرق بحِدّته وحرارته الجَرَب، وقد يصل حَرُّه إلى داخل الجوف ويتسارع فيه اشتغال النّار، ولونه أسود، وريحه

---

١. الكافي ٢: ١٠٢/٧، تفسير الصافي ٣: ٩٧.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٦، تفسير الصافي ٣: ٩٦.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، وفيه: رقابهم بالأغلال.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، والأبهل: شجر كبير، ورقه كالطَّرفاء، وثمره كالنَّبق.

نَتِنة، فيُطلى به جلود أهل النار، فيصير كالسِّربال والقميص، ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لَذْع القَطِران وحُرْقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون المُوحِش، ونَتن الريح[1]، فتشمئزّ عنهم النفوس، لأنّهم كانوا يستكبرون عن عبادة الله، فألبسهم بذلك الخِزي والهوان.

وقيل: إن القَطِران ما يسيل من أبدان أهل النار[2]. وقيل: إنّه نُحاس انتهى حرّه[3]. وقيل: إنّه الحديد المُذاب[4].

عن الباقر: «هو الصُّفر الحارّ المُذاب»[5].

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جَبْرئيل: لو أنّ سربالاً من سرابيل أهل النار عُلّق بين السماء والأرض، لمات أهل الأرض من رِيحه ووَهَجه»[6].

﴿وَتَغْشَىٰ﴾ ويُغطّي ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أعزّ أعضائهم وأشرفها في الظاهر ﴿ٱلنَّارُ﴾ التي تَمَسّ جلودهم المُسَربَلة بالقَطِران؛ لأنّها ما أقبلت إلى الحَق.

وقيل: إنّ الوجوه كنايةٌ عن الأبدان، والمعنى تَشْمُلهم النار لأنّ خطاياهم شَمَلتها[7]. وإنّما يُفعَل ذلك بهم ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مُجرمة ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يَشْغَله حساب عن حساب، فيُتِمّه في أعجل وقت، ويُوفي الجزاء على حسب الاستحقاق.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أدلّة التوحيد والمعاد، والتهديد على إنكارهما، أعلن بإتمام الحُجّة على كلّ أحدٍ بقوله. ﴿هَٰذَا﴾ القرآن، أو السورة، أو التذكير والمواعظ ﴿بَلَٰغٌ﴾ وكفاية ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ليَنصَحوا ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓا﴾ بالبراهين المذكورة ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعبودٌ متفرّدٌ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ ويتّعظ ويسترشد ﴿أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وذوو العقول السليمة والأذهان المستقيمة.

في (ثواب الأعمال): من قرأ سورة إبراهيم والحِجر في رَكْعتين جميعاً في كلّ جمعة لم يُصبه فَقْر ولا جُنون ولا بلوى[8].

الحمد لله الذي وفّقني لاتمام تفسير سورة إبراهيم بمنّه ولطفه.

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٤٨، تفسير البيضاوي ١: ٥٢٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٦١، تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.
٤. مجمع البحرين ٣: ١٤٩٣، مادة «قطر».
٥. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ٩٨.
٦. تفسير القمي ٢: ٨١، تفسير الصافي ٣: ٩٨.
٧. تفسير روح البيان ٤: ٤٣٧.
٨. تفسير العياشي ٢: ٢٢٥٩/٤٠٣، ثواب الأعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٩٩.

في تفسير سورة الحجر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الَر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ [١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة إبراهيم التي فيها إثبات النبوة والتوحيد والمعاد، والإشارة إلى شُبهات المشركين في النبوّة ورفعها، ومكرهم في إطفاء نور الحقّ، وحكاية ابتلاء الأُمم السابقة بالعذاب على معارضة الرسل، وبيان حكمة تأخير العذاب عن هذه الأُمّة، وتهديدهم بعذاب الآخرة، وحكاية دعاء إبراهيم عليه السلام لأولاده، وشكره على نعمة ولادة إسماعيل وإسحاق له، أُردفت بسورة الحِجر التي فيها إثبات النبوة، وتهديد منكريها بالعذاب الأُخروي، وبيان حكمة تأخير العذاب الدنيوي عن الأمم، وذكر شبهات المشركين في نبوة النبي صلى الله عليه وآله ودفعها، وحكاية بِشارة إبراهيم عليه السلام بولادة إسحاق، وتفصيل مكر الله في حقّ بعض الأمم بتعذيبهم كقوم لوط وأصحاب الأيكة والحِجر إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأ بذكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بالحروف المقطّعات بقوله: ﴿الَر﴾ وقد مرّ تأويلها وحكمة الافتتاح بها.

ثمّ بيّن عظمة القرآن بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة العظيمة الشأن، أو الآيات المباركات التي نزل بها جَبْرئيل هي ﴿آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ الذي وعدنا محمداً صلى الله عليه وآله بنزوله عليه، أو بشّر الأنبياء السالفة بنزوله في آخر الزمان، أو آيات اللّوح المحفوظ، أو آيات الكتاب الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وموضح لمجملات الكتب السماوية، أو مبين للحقّ وجميع الأحكام، أو مفهم الناس جميع ما يحتاجون إليه ولو بتشريح الراسخين في العلم مبهماته وتبيينهم مجملاته.

ثمّ أنه تعالى بعد تعظيم كتابه وتوصيفه بالصفات الجليلة الموجبة لتوجّه القلوب إلى حسن تلقّيه، وكمال التدبّر فيه، والتصديق بنبوة النبي المُتَحَدّي به، والاعتقاد بصحّة دينه ـ وهو الإسلام ـ هدّد

منكريه بقوله: ﴿رُبَمَا﴾ وكثيراً ما ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمّد ﷺ ودين الاسلام ﴿لَوْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ومنقادين لله ورسوله، ومطيعين لدين الإسلام وأحكامه.

رُوي أنّه لا يزال الربّ يرحم ويشفع إليه حتى يقول: مَن كان مِن المسلمين فليدخل الجنة، فعند ذلك يتمنّون الإسلام[١].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من عند الله لا يدخُل الجنّة إلّا مسلم، فيومئذٍ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»[٢].

وعن أبي موسى الأشعري، أنّه قال النبيّ ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال لهم الكفّار: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صِرتم معنا إلى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأخذنا بها، فيغضب الله سبحانه لهم بفضله ورحمته، فيأمُر بكلّ من كان من أهل القبلة في النّار فيُخرَجون منها، فحينئذٍ يودّ الذين كفروا لو كانوامسلمين»[٣].

وقيل: إنّ تمنّيهم عند الموت[٤].

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[٣]

ثمّ أعلن سبحانه بغضبه عليهم بقوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ ودَعْهم الآن يا محمّد ﴿يَأْكُلُوا﴾ كما تأكُل الأنعام ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بالمشتهيات الدنيوية، ويستلذوا بلذائذها كما تتمتّع البهائم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ ويَشْغَلهم عن ذكر الله والدار الآخرة ﴿ٱلْأَمَلُ﴾ الطويل في الدنيا، وتوقّع بقائهم فيها، وتوغّلهم في تعميرها وتحصيل مشتهياتها من الجاه والأموال، وما يوجب استقامة الأحوال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعنا بهم، ووخامة عاقبتهم، وضرر غفلتهم عن الاستعداد للآخرة، إذا خرجوا من الدنيا، وعاينوا ما أعَدّ لهم في دار الجزاء من العذاب والنّكال.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ[٤ و ٥]

ثمّ بيّن سبحانه علّة تأخير عذاب الكفّار مع شدّة استحقاقهم له، وحكم إمهالهم والتخلية بينهم

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٠.
٢. تفسير القمي ١: ٣٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٠٠.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٦٤، تفسير روح البيان ٤: ٤٤٠ مرسلاً.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٥٤.

وبين تمتّعاتهم بقوله: **﴿وَمَا أَهْلَكْنَا﴾** بعذاب الاستئصال **﴿مِن قَرْيَةٍ﴾** من القرى وبلدةٍ من البلدان **﴿إِلَّا وَلَهَا﴾** في الهلاك بالعذاب **﴿كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾** وحكمةٌ وأجلٌ معيّنٌ مثبوتٌ في اللوح المحفوظ ـ من حكمة بالغة ـ لا يصِحّ تغييره، ولا يُنسَى ولا يُغفَل عنه حتّى يتصوّر التخلّف والتقدّم والتأخّر فيه، ولذا **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾** من الأمم المُهلَكة **﴿أَجَلَهَا﴾** وغاية المدّة المضروبة لهلاكها أو موتها **﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾** عن ذلك الأجل وتلك الغاية بأن تموت أو تهلَك بعد مدّةٍ من انقضائها.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ[٦ و ٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عظمة القرآن الدالّة على صحّة نبوة نبيه ﷺ، حكى سوء أدب المشركين واستهزائهم بالنبي ﷺ بقوله: **﴿وَقَالُوا﴾** عِناداً وتجرّياً على الله ورسوله واستهزاءً به: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾** من ربّه **﴿ٱلذِّكْرُ﴾** والقرآن، وتدّعى هذا الأمر الخارق للعادة **﴿إِنَّكَ﴾** واللات والعُزّى **﴿لَمَجْنُونٌ﴾** مختلّ العقل، حيث إنّ مقالتك لا تُشبه مقالات العقلاء، لأنّ النبي لابدّ أن يكون مَلَكاً وأنت بشر مثلنا، وعلى فرض أنّ الله جعلك نبياً **﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾** وهلّا تجيئنا **﴿بِالمَلَائِكَةِ﴾** حتى يشهدوا بصدقك في دعوى الرسالة، أو يعاونوك في الانذار والتبليغ، أو يعاقبونا على تكذيبك **﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾** في دعواك، فانّ الله قادرٌ على إنزالهم وتأييدك بهم، وأنت في نهاية الاحتياج إليهم في تمشية أمرك.

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[٨ و ٩]

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله: **﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ﴾** بسبب من الأسباب **﴿إِلَّا بِالحَقِّ﴾** وحكمة مقتضية لانزالهم، وهو استئصالهم بالعذاب **﴿وَمَا كَانُوا إِذاً﴾** وعند ذلك **﴿مُنظَرِينَ﴾** ومُمْهَلين طَرفة عين، كما لم نُمهل سائر الأمم المكذّبة للرسل المُستهزِئة بهم بعد نزول الملائكة لتعذيبهم، وإنما أخرّنا تعذيب هؤلاء مع غاية استحقاقهم له لما جرى قلم القضاء بإمهالهم، لازدياد خُبثهم، واشتداد استحقاقهم، وخروج ما في أصلابهم من ذراري المؤمنين.

القمي: لو أنزلنا الملائكة لم يُنظَروا وهلكوا[1].

---

١. تفسير القمي ١: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٠٢.

ثمّ أنّه تعالى بعد ردّ اقتراحهم وإبطال شُبهتهم في نبوة نبيه ﷺ، أجاب عن مقالتهم الباطلة واستهزائهم بالقرآن بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ مع عِظم شأننا، وكمال شرفنا، وعلوّ جَنابنا ﴿نَزَّلْنَا﴾ هذا ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ الذي أنكروه والقرآن الذي جحدوا نزوله عليك، ونسبوك بسبب تلك الدعوى إلى الجنون، ليكون لك معجزةً باقيةً ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَحَافِظُونَ﴾ من التغيير والطعن والتحريف إلى الأبد دون سائر الكتب السماويّة، ولذا[١] تطرّق إليها الخَلَل.

وَلَقَد أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ ٱلْـمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ [١٠ـ١٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد الجواب عن اقتراح المشركين وشُبهاتهم واستهزائهم بالنبي ﷺ، أخذ في تسليته بقوله: ﴿وَلَقَد أَرسَلْنَا﴾ رسلاً كثيرة ﴿مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والفرق السابقين، وكان من دأب تلك الفرق أنّه ما يبعَث فيهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولٍ﴾ خاصّ بهم أو عام ﴿إِلَّا﴾ أنّهم ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ويَسْخَرون ﴿كَذٰلِكَ﴾ الاستهزاء الذي سلكناه وأدخلناه في قلوب الأمم السابقة لرسلهم، نُدخِل الاستهزاء و﴿نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك، فيستهزئون بك ليظهر غاية خُبث ذواتهم ورذالة أخلاقهم.

وقيل: إنّ المراد كذلك الوحي المنزل على الأنبياء مقروناً بالاستهزاء[٢]. أو مثل المسلك الذي سلكناه في قلوب الأمم المستهزئين برُسُلهم، نَسْلُك الذكر في قُلوب المجرمين من أهل مكّة أو عموم المجرمين[٣]، وهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ولا يُصدّقون بأنّه كلام الله المنزل.

قيل: كانوا يسمعون القرآن بقراءة النبيّ ﷺ فيدخُل في قلوبهم ومع ذلك لا يؤمنون به[٤]، لعدم استعدادهم لقَبُول الحقّ، وكونهم من أهل الخِذلان[٥].

ثمّ هدّد سبحانه المجرمين بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وطريقتهم التي سلكوا فيها حتّى أُهلِكوا بالعذاب، أو مضت سُنّة الله وطريقة معاملته معهم حيث خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، ثمّ أهلكهم بعذاب الاستئصال، أو أهلكهم حين فعلوا ما فعلوا من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم.

---

١. زاد في النسخة: لا.   ٢ و٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٥.
٤. (به) ليس في تفسير روح البيان.   ٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ[١٤ و ١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان استهزائهم بالنبيّ ﷺ ونسبته إلى ما لا يليق به، واقتراحهم عليه، وتهديدهم على الاصرار على الكفر، بيّن غاية عِنادهم ولَجاجهم بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ ويسّرنا لهم الصعود إليها ﴿فَظَلُّوا﴾ وصاروا ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ وإليه يصعدون بآلة أوبغيرها، ويرون ما فيها من العجائب بأعينهم.

وقيل: يعني فظلّ الملائكة يصعدون في ذلك الباب، وهم يشاهدونهم طول نهارهم[١]، والله ﴿لَقَالُوا﴾ عِناداً ولَجاجاً وتشكيكاً في الحقّ: ليس الأمر في الواقع ما نرى بأعيننا، بل ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وسُدّت عن النظر، أو حُيّرت، أو غطّيت ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بالشعبذة، وخُيّل إلينا ما لا حقيقة له ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد، كما قالوه عند ظهور سائر المعجزات الباهرة، فلا فائدة في إجابة مسؤولهم فيما اقترحوه عليك.

قيل: إنّ في كلمة الحصر وإسناد الاسكار إلى الأبصار دلالةً على أنّ المقصود عدم سراية الاسكار إلى عقولهم، كأنهم قالوا: نحن نتحايل هذه الأشياء بأبصارنا، ولكن نعلم بعقولنا أنّ الواقع بخلافه، ثمّ أضربوا عن الحصر في الأبصار، وقالوا: بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر سَحَره لنا[٢].

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ[١٦ ـ ١٨]

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته لئلا يتوهّم فيه العجز عن إتيان ما أقترحوه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿فِى ٱلسَّماءِ بُرُوجاً﴾ وقصوراً تنزلها السيارات السبع، ورتّبنا تلك البُروج والكواكب ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بتلك البُروج والكواكب المختلفة الأشكال والكواكب المنيرة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها، أو للمتفكّرين في بديع صنيعها، المستدلّين بما فيها وفي كواكبها من حسن التدبير وكمال النظام المستتبع للآثار العجيبة على قدرة صانعها وحكمة مُبدِعها ومُدبّرها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن﴾ اقتراب ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وجنّ عاصٍ مطرود من الرحمة، أو من القرب من السماء، برميه بالنجوم، كما يَحْفَظ المنازل عن دخول من يخشى منه الفساد.

عن ابن عباس: كانت الشياطين لا تُحجَب عن السماوات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٤٦.

الغيوب من الملائكة، فيلقونها إلى الكَهَنة، فلمّا ولد عيسى عليه السلام مُنِعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد رسول الله صلى الله عليه وآله مُنِعوا من السماوات كلّها[١].

وعن الصادق عليه السلام ما يقرَب منه إلى أن قال: «ورميت الشياطين بالنجوم، وقالت قريش: هذا قيام الساعة الذي كنا نسمع أهل الكتاب يذكُرونه، وقال عمرو ابن اُمية وكان أزجر[٢] أهل الجاهلية: انظروا إلى هذه النجوم التي يُهتدى بها وتُعرف بها أزمان الشتاء والصيف، فان كان رمى بها فهو هلاك كلّ شيء، وإن كانت ثبتت ورمى بغيرها فهو أمرٌ حدث»[٣].

وعن القمي ما يقرَب منه، ثمّ قال: وكان بمكة يهودي يقال له يوسف، فلمّا رأى النجوم تتحرّك وتسير في السماء خرج ونادىٰ[٤] قريش فقال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: لا. فقال: أخطأتم والتوراة، قد ولد في هذه الليلة آخر الأنبياء وأفضلهم، وهو الذي نجده في كتبنا أنّه إذا ولد ذلك النبيّ رُجِمت الشياطين، وحُجِبوا من السماء. فرجع كلّ أحدٍ إلى منزله فسأل أهله، فقالوا: قد ولد لعبدالله بن عبدالمطلب، الخبر[٥].

فتحصّل أنّ أحداً من الشياطين لا يقدِر أن يصعَد إلى السماء ويطّلع على أحوالها ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ واختلسه سرّاً.

عن ابن عبّاس، قال: يُريد الخَطفة اليسيرة[٦].

وقيل: إنّ المعنى ولكن من استرق السمع من مَرَدة الشياطين[٧] ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ ولحِقه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ونجم كشُعلة نارٍ ساطع.

عن ابن عبّاس: أنّ المارد من الشياطين يعلو فيُرمى بالشهاب فيقتله[٨].

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ [١٩ ـ ٢٢]

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.
٢. الزجر: إثارة الطير للتيمّن بسنوحها أو التشاؤم ببروحها.
٣. أمالي الصدوق: ٤٤٤/٣٦٠، تفسير الصافي ٣: ١٠٣.
٤. في المصدر: خرج إلى نادي.
٥. تفسير القمي ١: ٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.
٦. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩.
٨. تفسير الرازي ١٩: ١٦٩، وفيه: بالشهاب فيحرقه ولا يقتله.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان بدائع صنعه في السماوات،بيّن سَعَة قدرته في الأرض بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ وبسطناها على وجه الماء، كما عن ابن عبّاس[١] ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ وأوجدنا ﴿فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من نبات وثمار ﴿مَّوْزُونٍ﴾ ومتقدّر بقدر خاصّ.

وقيل: يعني موزون بميزان الحكمة والعقل، ومتناسب بحكم العقل السليم بحسنه ومطابقته للمصلحة[٢].

وقيل: يعني المقدّر بالميزان، فإنّ المعادن والنباتات كلّها كذلك[٣].

وعن القمي: لكلّ ضَربٍ من الحيوان قدّرنا شيئاً موزوناً[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «أن الله تعالى أنبت[٥] في الجبال الذّهب والفِضة والجَوهر والصُّفر والنُّحاس والحديد والرّصاص والكُحل والزَرْنيخ، وأشباه ذلك لاتُباع إلّا وزناً»[٦].

أقول: على هذا التفسير يكون الإنبات بمعنى الإيجاد، ومرجع ضمير ﴿فِيهَا﴾ [إلى] الرواسي، كما عليه بعض مفسري العامة[٧].

ثمّ إنه تعالى بعد ذكر بَسط الأرض، وإلقاء الجبال فيها، وإنبات الثِّمار فيها، ذَكَر خَلْق ما يعيش به الخَلق في الأرض دليلاً على قدرته بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما به قِوام الحياة من الأطعمة والأشربة والألبسة ﴿وَ﴾ جعلنا لكم ﴿مَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ من العيال والعبيد والخَدم والدوابّ، فانّ نفعهم لكم ورزقهم علينا.

وقيل: إنّ المعنى وجعلنا لكم ولمن لستم برازقيه من المذكورين معايش[٨].

ثمّ بالغ سبحانه في توضيح سَعَة قدرته بقوله: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ﴾ وما من موجود ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ وتحت قدرتنا ﴿خَزَائِنُهُ﴾ شبّه سبحانه مقدوراته وما يكون وجوده بإفاضةٍ في الكثرة، والستر عن الخلق، والصّون من وصول الأيدي إليه مع شدّة الحاجة إليه وكمال الرغبة فيه بنفائس الأموال التي يجعلها السلطان في خزائنه.

قيل: إنّ الخزائن كناية عن الأعيان الثابتة[٩]، والماهيات المتقرّرة.

عن السجاد عليه السلام: «أنّ في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البَرّ والبحر» قال: «وهذا تأويل قوله:

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٠.
٢. تفسير الرازي ١٩: ١٧٢.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧٢.
٤. تفسير القمي ١: ٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.
٥. في النسخة: أثبت.
٦. تفسير القمي ١: ٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٠٤.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٧١.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٢.
٩. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٢.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾»[١].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ ولا نوجده ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحدٍّ معينٍ تقتضيه الحكمة. وقيل: إنّ المراد بالخزائن المطر[٢]، حيث إنّه تعالى بعد بيان إعطائه المعاش ذَكَر المطر الذي هو سببه وأنّه عنده، أي بأمره وتدبيره وحكمته، وما يُنزّله إلّا بحدٍّ معين.

القمي: الخزائن الماء الذي ينزل من السماء، فيُنبت لكلّ ضربٍ من الحيوان ما قدّر الله له من الغذاء[٣].

عن ابن عباس: يُريد قدر الكفاية[٤].

قيل: إنّ الله يُنزِل المطر كلّ عامٍ بقدرٍ معلومٍ غير أنّه يصرِفه إلى من شاء كما شاء حيث شاء[٥].

أقول: يبعد كون المراد لذكره تعالى الرياح والمطر بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ إليكم ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ التي تكون ﴿لَوَاقِحَ﴾ ومحبلات للشجر وللسحاب[٦]، كما عن ابن عبّاس[٧].

وعن ابن مسعود ـ في تفسير الآية ـ: يبعث الله الرياح لتُلقِح السحاب فتحمل الماء، وتمجّه في السّحاب، ثمّ أنّه يعصِر السّحاب ويُدِرّه كما تَدُرّ اللّقْحة[٨].

القمي: تُلقِح الأشجار[٩].

وقيل: إنّ اللواقح بمعنى الحاملات، فانّ الريح تحمِل السّحاب والماء[١٠].

وقيل: إنّه بمعنى آتيان بالخير، كما يقال لما لا خير له عقيم[١١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تَسُبّوا الرياح فإنّها بُشرٌ، وإنّها نُذر، وإنّها لواقح، فاسألوا الله من خيرها، وتعوّذوا به من شرها»[١٢].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ بعد إنشاء السّحاب الماطر بالرياح ﴿مَاءً﴾ مباركاً نافعاً ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ وأشربناكموه، وأشربناه مواشيكم وضياعكم. قيل: هو أفصح[١٣] من ﴿سَقَيْنَاكُمُوهُ﴾ لدلالته على جعل الماء [مُعدّاً] لهم ينتفعون[١٤] به متى شاءوا[١٥].

---

١. روضة الواعظين: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٠٥.
٢. تفسير الرازي ١٩: ١٧٤، تفسير الصافي ٤: ٤٥٣.
٣. تفسير القمي ١: ٣٧٥، تفسير الصافي ٣: ١٠٥.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٩: ١٧٤.
٦. في تفسير الرازي: عن ابن عباس: الرياح لواقح للشجر وللسحاب.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٧٥.
٨. تفسير الرازي ١٩: ١٧٥، واللّقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، واللِّقحة: المرأة المرضعة.
٩. تفسير القمي ١: ٣٧٥، تفسير الصافي ٣: ١٠٥.
١٠ و٥) تفسير الرازي ١٩: ١٧٦.
١٢. تفسير العياشي ٢: ٤٢٦/٢٣١٧، تفسير الصافي ٣: ١٠٥.
١٣. في تفسير روح البيان: أبلغ.
١٤. في تفسير روح البيان: يرتفقون.
١٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٤.

﴿وَمَا﴾ تقدرون ﴿أَنتُمْ﴾ على أن تكونوا ﴿لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ في السّحاب أو الغُدران والآبار والعيون، بل نحن نخزِنه فيها ليكون سُقياً لكم، مع أنّ الماء غائرٌ بالطبيعة، فنفى عن الناس ما أثبته لجنابه.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَئْخِرِينَ[٢٣ و ٢٤]

ثمّ استدلّ على قدرته بظهورها في أنفسهم بقوله: ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بالإحياء له ﴿وَنُمِيتُ﴾ ماله الحياة من الحيوان والنبات ﴿وَنَحْنُ﴾ الباقون بعد فَناء الخلق ﴿ٱلْوَارِثُونَ﴾ للدنيا وما فيها.

ثمّ بيّن سَعَة علمه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ والمتقدّمين ﴿مِنْكُمْ﴾ خروجاً من الأصلاب وولادةً وموتاً، أو دخولاً في الاسلام، أو في صفّ الجهاد، أو في الطاعة كما عن ابن عباس[١] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَئْخِرِينَ﴾ في ذلك.

عن الباقر عليه السلام: «هم المؤمنون من هذه الأُمّة»[٢].

وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ تأكيد بليغ.

عن ابن عبّاس ـ في رواية ـ قال: كانت تصلّي خلف النبيّ صلّى الله عليه وآله امرأةٌ حسناء في آخر النساء، فكان بعضهم يتقدّم في الصفّ الأول لئلا يراها وتأخّر آخرون ليروها، فاذا ركع نظر من تحت إبطيه إليها فنزلت[٣].

وقيل: كانت النساء يخرُجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه رِيبة يتأخّر إلى آخر صف الرجال، ومن النساء من في قلبها رِيبة تتقدّم إلى أول صفّ النساء لتقرُب من الرجال، فنزلت[٤].

وقيل: رَغِب رسول الله صلّى الله عليه وآله في الصّف الأول، فازدحموا عليه فنزلت[٥].

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[٢٥]

ثمّ لمّا بيّن الله سبحانه مبدأ الخلق ومماتهم، وأعلن بقدرته عليهما، بيّن قدرته على حشرهم من القبور للحساب والجَزاء بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ القادر على الإحياء والاماتة ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٧.
٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣١٩/٤٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٠٦.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١٧٨، تفسير أبي السعود ٥: ٧٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٥.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٥.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٦.

جميعاً إلى المحشر دفعةً واحدةً لجزاء الأعمال بلا تقدّم وتأخر ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ ومحيطٌ بحقائق الأشياء ومصالحها ومفاسدها، متقنٌ في فعاله، فلا يخلُق الخلق لعباً وعبثاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بخفيّات السماوات والأرض، لا يعزُب عن علمه شيء، فيعلم ذرات تراب كلّ جسدٍ فيجمعه ويخلقه ثانياً بصورته الأولى، وفي تقدّم صفة الحكمة دلالة على اقتضائها الحشر للجزاء، وفي الآية ردّ على منكريه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَٱلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ[٢٦ و ٢٧]

ثمّ استدلّ على الحشر ببدو خلق الانسان بغير مثال سابق من تراب بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ الأول وهو آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ وطين يابسٍ غير مطبوخ، إذا نُقِر كان له صوت مع الترجيع كما قيل[١]، وكان ذلك الصلصال ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ وطينٍ أسود متغير بطول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ ومُنتِن على قول[٢]، أو مصوّر على قول[٣]، أو مصبوب ومفرغ على هيئة الانسان، كما تُفْرَغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب[٤] ولعله المراد من قول ابن عباس المسنون: الطين الرطب[٥]، فكأنه سبحانه أفرغ الحَمأ فصوّر تمثال الانسان أجوف فيَبِس حتى إذا نُقِر صَوّت.

قيل: لمّا صوّره الله تركه في الشمس أربعين سنة، فصار صَلْصالاً كالخَزَف، ولا يدري أحدٌ ما يُراد به، ولم يَرَ شيئاً يُشبهه، فكانت الريح إذا مرّت به سُمِع له صَلْصَلة، فلذلك سمّاه الله صَلصالاً[٦].

﴿وَٱلْجَانَّ﴾ الأول، وهو إبليس على قول[٧]، أو غيره ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ عن ابن عبّاس: من قبل خلق آدم[٨] ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ والشديدة الحرّ، أو لا دُخان له، أو نافذة بلطافتها في مَسَامّ البَدَن.

عن ابن مسعود: هذه السّموم جزءٌ من سبعين جزءاً من السّموم التي خَلَق الله منها الجنّ[٩].

وقيل: لم تكن قبل آدم خَلْق من تراب، وإنّما خلقه الله منه ليكون عبداً خضوعاً وَضوعاً ذلولاً مائلاً إلى السجود لأنّه إظهار كمال العبودية، ولمّا كان كلّ جنسٍ مائلاً إلى جنسه وظاهراً فيه آثار مبدئه، تواضع آدم لله، واستكبر إبليس من التواضع[١٠].

---

١. تفسير الرازي ١٩: ١٧٩، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.
٣. مجمع البيان ٦: ٥١٦، تفسير الصافي ٤: ٤٥٧.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٧.
٥. مجمع البيان ٦: ٥١٦، تفسير الرازي ١٩: ١٨٠.
٦. تفسير الرازي ١٩: ١٧٩.
٧. تفسير الرازي ١٩: ١٨٠، تفسير روح البيان ٤: ٤٥٨.
٨ و ٩. تفسير الرازي ١٩: ١٨٠.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ٤٥٨.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٢٨ و ٢٩]

ثمّ لمّا بيّن الله سبحانه خَساسة مبدأ خلق الانسان، بيّن غاية شرفه الدالة على كمال قدرة الله وحكمته بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ﴾ من بعدُ ﴿بَشَراً﴾ وإنساناً أو خلقاً مجسّماً يلاقي ويباشر، أو بادي البشرة؛ لأنّه لا صُوف له ولا شَعر، يكون خلقه ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ كائن ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وأكملت خِلقة جسده بأن خلقت أجزاء بدنه وصورته بصورة إنسانية وعدّلت طبائعه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ وأفضت عليه ﴿مِن رُوحِى﴾ الجوهرة التي هي من أمري ﴿فَقَعُوا﴾ واسقُطوا ﴿لَهُ﴾ حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾.

قيل: يعني اسجُدوا تعظيماً وخُضوعاً لله، وجعلوا آدم بمنزلة القبلة لظهور تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته فيه[١].

عن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى﴾ فقال: «روح اختاره الله واصطفاه وخلقه وأضافه إلى نفسه، وفضّله على جميع الأرواح، [فأمر] فنفخ منه في آدم»[٢].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عنه، فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق خلقاً، وخلق روحاً، ثمّ أمر مَلَكاً فنفخ فيه، فليست بالتي نقصت من[٣] الله شيئاً، هي من قُدرته»[٤].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل: كيف هذا النفخ؟ فقال: «إنّ الروح متحرّك كالريح، وإنّما سمّي روحاً لأنّه اشتُق اسمه من الريح، وإنّما اُخرجت[٥] على لفظة الروح، لأنّ الروح مجانس للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنّه اصطفاه على سائر الأرواح، كما اصطفى بيتاً من البيوت. فقال: بيتي، وقال لرسول من الرسل: خليلي وأشباه ذلك، فهو مخلوقٌ[٦] مصنوع مُحدَث مَربُوب مُدبّر»[٧].

فَسَجَدَ ٱلْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٦١.
٢. التوحيد: ١/١٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.
٣. زاد في التوحيد: قدرة.
٤. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٣/٤٢٧، التوحيد: ٦/١٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.
٥. في التوحيد: أخرجه.
٦. في التوحيد: ذلك، وكل ذلك مخلوق.
٧. التوحيد: ٣/١٧١، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ[٣٠-٣٨]

ثمَ خلقه الله وسوّاه، ونفخ فيه الروح ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذّ منهم أحدٌ و﴿أَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخَر أحدٌ في امتثال الأمر من أحد، أو المراد المبالغة في التأكيد والتعميم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وإنّما الاستثناء مع كونه من الجنّ لكونه مغموراً بألوفٍ من الملائكة.

وقيل: لأنّه كان من جنس الملائكة الذين يتوالدون[1]، والحقّ هو الأول، وعلى أي تقدير لا شُبهة أنّه كان مأموراً بالسجود، ومع ذلك ﴿أَبَىٰ﴾ وامتنع من ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ﴾ وموافقاً لهم في الطاعة، فعاتبه الله عند ذلك و﴿قَالَ﴾ عتاباً وتوبيخاً له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا﴾ كان ﴿لَكَ﴾ من العُذر في ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ موافقاً ﴿مَعَ﴾ الملائكة ﴿ٱلسَّاجِدِينَ﴾ لآدم من عرفانك بشرفهم ومنزلتهم لدي؟

﴿قَالَ﴾ إبليس: عُذري في الامتناع من السجود له، أنّي عَلِمت أنّك خلقتني من النار التي هي أشرف العناصر وأعلاها و﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ ومخلوقٍ كثيف ﴿خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾ كائن من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ مع شرفي وفضيلتي عليه، فانّه لا يصِحّ تواضع الأشرف والأفضل للأدنى والمفضول.

﴿قَالَ﴾ الله: إذن لا يجوز إقامتك في الجنّة، أو في السماوات، أو في المنزلة [التي] كانت لك، أو في زُمرة الملائكة ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ﴾ قايست وعصيت، وكلّ من قاس وعصى فهو ﴿رَجِيمٌ﴾ ومطرود من دار كرامتي ومن كلّ خير ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ والدعاء بالشرّ من الملائكة والنّاس، أو الابعاد من الرحمة من الآن ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ووقت جزاء الأعمال، وأمّا بعد ذلك فعليك العذاب الذي لا يُقادر قدره.

قيل: إنّ التوقيت بيوم الدين كناية عن الدوام[2].

ثمّ ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ﴾ إذ جعلتني رجيماً وملعوناً ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ وأمهلني في الدنيا، ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ القيامة الذي فيه يُحشَر[3] الناس و﴿يُبْعَثُونَ﴾ يوم البعث من القبور للحساب، وإنّما سأل ذلك ليكون له فُسحةً في إغواء بني آدم وأخذه الثأر، لا للنجاة من الموت لاستحالتها ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ﴾ جُملة ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾ والممهلين، ولكن لا إلى يوم البعث، بل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى التي يُصعَق فيها من في السماوات والأرض.

روي أنّ بين موته وبعثة أربعين سنة من سنيّ الدنيا، وهو ما بين النفختين[4].

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٧٥.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٦٥.
٣. في النسخة: يحشرون.
٤. تفسير أبي السعود ٥: ٧٧.

عن كعب: لمّا حضر آدم الوفاة قال: يا ربّ سيَشْمَت بي عدوي إبليس إذا رآني ميتاً وهو منظرٌ إلى يوم القيامة. فأُجيب: أن يا آدم إنّك سترِدُ الجنة ويؤخَر اللعين إلى النَّظِرة ليَذُوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين.

ثمّ قال آدم لمَلَك الموت: صِف لي كيف تُذيقه الموت؟ فلمّا وصفه قال: حسبي. فقال الناس: يا أبا إسحاق، كيف ذلك؟ فأبى الجواب فألحّوا فقال: يقول الله لمَلَك الموت بعد النفخة الأُولى: قد جعلت لك قوة أهل السماوات والأرضين، وألبستك اليوم أثواب الغضب كلّها، فانزل بغضبي على إبليس وأذقه الموت، واحمل عليه أضعاف مرارة الأولين والآخرين، وليكن معك من الزَّبانية سبعون ألفاً قد امتلأوا غيظاً، مع كلٍّ منهم سلسلة من سلاسل جهنم، وغُلّ من أغلالها، وانزع روحه المُنتن بسبعين ألف كُلاّب من كلاليبها، ونادِ مالكاً ليفتح أبواب النيران، فينزل مَلَك الموت بصورةٍ لو نظر إليها أهل السماوات والأرضين لماتوا من هولها.

فينتهي إلى إبليس فيقول: قف يا خبيث لأذيقنّك الموت، كم من عمرٍ أدركت وقرون أضللت، وهذا هو الوقت المعلوم. فيهرُب اللعين إلى المشرق، فاذا هو بمَلَك الموت بين عينيه، فيهرُب إلى المغرب، فاذا هو به بين عينيه، فيغوص البحار، فترميه البحار ولا تقبله، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا مَحيص له ولا ملاذ، ثمّ يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم، ويتمرّغ في التراب من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، حتى إذا كان في الموضع الذي أُهبط آدم فيه وقد نَصبت له الزبانية الكلاليب، وصارت الأرض كالجمرة، أحتوشته الزبانية، وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النَّزع والعذاب إلى حيث يشاء الله[1].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عن الوقت المعلوم، فقال: «يوم الوقت المعلوم يوم يُنفَخ في الصُّور نفخةً واحدة، فيموت إبليس ما بين النفخة الأُولى والثانية»[2].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئِل عنه فقال: «أتحسَب أنّه يوم يُبْعَث فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فاذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: ياويله من هذا اليوم، فيأخُذ بناصيته فيضرِب عُنقه، فذلك يوم الوقت المعلوم»[3].

والقمي: عنه عليه السلام، قال: «يوم الوقت [المعلوم] يوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله على الصخرة التي في

١. تفسير أبي السعود ٥: ٧٧، تفسير روح البيان ٤: ٤٦٦.
٢. علل الشرائع: ٢/٤٠٢، تفسير الصافي ٣: ١١٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٧/٤٢٨، تفسير الصافي ٣: ١١٢.

بيت المقدس»[١]. قال الفيض ﷺ: أقول: يعني عند الرجعة[٢].

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ[٣٩-٤١]

ثمّ لمّا أمهل الله اللعين للحكم البالغة التي منها امتحان بني آدم ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ﴾ أقسم ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ من التكليف بالسجود لآدم، وقد كنت تعلم أنّي أعصيك فيه، أو قال: ربّ بسبب إغوانك إياي والتكليف الذي صار سبباً لِعصياني، أقسم بعزّتك لأعادي بني آدم و﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ عِصيانك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ودار الغُرور، وأرغّبنهم في مخالفتك، أو لأزيّنَن لهم المقام في الأرض كي يطمئنوا بها ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وأبعثهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ إلى الضلالة بوسوستي وتسويلي وبما هيّأت من سبب عِصيانهم بحيث لا ينجو أحدٌ منهم من كيدي وإغوائي ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ ولكن لا عمومهم، بل أعني ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين خصصتهم بعبوديتك وطاعتك، وطهّرتهم من الرذائل والشهوات، فانّهم لا يُؤثّر فيهم كيدي، ولا يتّبعون وساوسي[٣] ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿هَٰذَا﴾ التخلّص من كيدك المخصوص بالمُخلَصين ﴿صِرَاطٌ﴾ وطريق حقيقي ﴿عَلَيَّ﴾ رعايته وتقريره، وهو ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا عِوَج فيه.

وقيل: إنّ المراد أنّ هذا الإخلاص طريق من مرّ عليه فكأنّما مرّ عليّ وعلى رضواني وكرامتي. وقيل: كلمة (عليّ) بمعنى إليّ، والمراد هذا الاخلاص طريق إليّ وهو مستقيم يؤدّيه إلى كرامتي وقربي. وقيل: إنّ المشار إليه بكلمة (هذا) هو الصراط، والمعنى هذا الطريق في العبودية طريق عليّ مستقيم[٤].

وقيل: إنّ المشار إليه التفويض إلى مشيئة الله المستفاد من قول إبليس: إلّا عبادك منهم المُخْلَصين، وحاصله أنّي أُغوي بني آدم إلّا من عصمه الله بتوفيقه، يدلّ ذلك على أنّ المُخلصين يفوّضون أُمورهم إلى الله، فقال الله: هذا التفويض إليّ وإلى مشيئتي طريق عليّ مستقيم[٥].

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ[٤٢]

ثمّ لمّا كان في كلام إبليس إيهام سلطنته على غير المُخْلَصين، نفى سبحانه سلطنته على العباد عموماً بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ [سواء أ]كانوا مُخلَصين، أو غير مُخلَصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ بوجهٍ من

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٥، تفسير الصافي ٣: ١١٣.
٢. تفسير الصافي ٣: ١١٣.
٣. في النسخة: بوساوسي
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٨٩.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٨٩.

الوجوه ﴿سُلْطَانٌ﴾ واستيلاءٌ وقَهرٌ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ وأطاعك باختياره ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ والضالّين بسبب خُبث ذاتهم من غير قَهرٍ منك.

عن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن تفسيره فقال: «قال الله: إنك لا تملِك أن تُدخلهم جنةً ولا ناراً»[١].

وقيل: إنّ المراد بالعباد في الآية خصوص المُخْلَصين، والمقصود تحقيق ما قاله اللعين، وتفخيم شأن المُخْلَصين، وتأكيد لانقطاع مخالبه عنهم، وأن إغواءه الغاوين ليس بطريق القهر والسلطان، بل بطريق الاتباع بسوء الاختيار[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «والله ما أراد بهذا إلّا الأئمة وشيعتهم»[٣].

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ[٤٣و ٤٤]

ثمّ هدّد سبحانه الغاوين ببيان نتيجة اتّباع الشيطان بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ والله ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ وموقفهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في القيامة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعدد أقسام الغاوين ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ وقِسمة معينة وفِرقة خاصة.

قيل: إنّ قرار جنهم مقسوم سبعة أقسام، ولكلّ قسم بابٌ معين: القسم الأول جهنم، والثاني لَظى، والثالث الحُطمة، والرابع سعير، والخامس سَقَر، والسادس الجحيم، والسابع الهاوية[٤].

وقيل: إنّ المراد بسبعة أبواب سبع طبقات بعضها فوق بعض، وتسمّى تلك الطبقات بالدَّركات، الطبقة الأُولى لأهل التوحيد يُعذّبون على قدر أعمالهم ثمّ يُخْرَجون، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين[٥].

وهذا الاختلاف في الدَّركات والعذاب لاختلاف مراتب الكفر بالغِلظة والخِفّة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سبعة أبواب النار متطابقات»[٦].

وعنه عليه السلام: «أنّ جهنم لها سبعة أبواب، أطباقها بعضها فوق بعض ـ ووضع إحدى يديه على الأخرى، فقال: هكذا ـ وإنّ الله وضع الجنان على العَرْض، ووضع النيران بعضها فوق بعضٍ، فأسفلها جهنم، وفوقها لَظى، وفوقهاالحُطمة، وفوقها سَقَر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية»[٧]

---

١. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٩/٤٢٩، تفسير الصافي ٣: ١١٣.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٧٩.
٣. الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١١٣.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٩٠.
٥. تفسير الرازي ١٩: ١٩٠.
٦. الخصال: ١/٥٩٧، تفسير الصافي ٣: ١١٤.
٧. مجمع البيان ٦: ٥١٩، تفسير الصافي ٣: ١١٤.

وفي رواية: «أسفلها الهاوية»[١].

وعن الصادق، عن أبيه، عن جده عليهم السلام: «أنّ للنار سبعة أبواب، باب يدخُل منه فِرعون وهامان وقارون، وباب يدخُل منه المشركون والكفّار ومن[٢] لم يُؤمن بالله طَرفه عين، وباب يدخُل منه بنو أُمية هو لهم خاصّة لا يُزاحمهم فيه أحد، وهو باب لَظى، وهو باب سعير[٣] وهو باب الهاوية، تهوى بهم سبعين خريفاً، فكلما هوى بهم سبعين خريفاً فار بهم فَورة قذف بهم في أعلاها سبعين خريفاً، ثمّ تهوي بهم [كذلك سبعين خريفاً، فلا يزالون] هكذا أبداً خالدين مخلّدين، وباب يدخُل منه مبغضونا ومحاربونا وخاذلونا، وإنّه لأعظم الأبواب وأشدّها حرّاً».

ثمّ قال: «والباب الذي يدخُل منه بنو أُمية هو لأبي سفيان ومعاوية وآل مَراوان خاصة، يدخُلون من ذلك الباب فتحطِمهم النار فيه حَطْماً، لا تسمع لهم واعيةً ولا يحيون فيها ولا يموتون»[٤].

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [٤٥ـ٤٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان نتيجة إغواء الشيطان، بيّن نتيجة أحكام عبادته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والعباد المُخلَصين مستقرّون ﴿فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكلٍّ منهم بساتين متعدّدة وعيون متعدّدة، وواحد منهما يقول ـ الله أو الملائكة ـ لهم عند دخولها، أو حين الانتقال من جنّة إلى جنّة: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ متلبّسين[٥] ﴿بِسَلَامٍ﴾ من جميع الآفات والمَكَاره والمخوفات، أوبتحيةٍ من الله والملائكة حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ غير خائفين من زوال النعم وانقطاع الفُيوضات، أو من موانع الدخول، أو من الآفات والأسقام، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿بِسَلَامٍ﴾ على التفسير الأوّل.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾ وقلوبهم ﴿مِنْ غِلٍّ﴾ وحِقدٍ يسيرٍ كامنٍ كان بينهم في الدنيا، وطيّبنا نفوسهم من الرذائل.

روي أنّ المؤمنين يُحبَسون على باب الجنة، فيقتصّ بعضهم[٦] من بعض، فيؤمر[٧] بهم إلى الجنّة وقد نقّى الله قلوبهم من الغِل والغِش والحِقد والحَسد[٨]، فيكونون ﴿إِخْوَاناً﴾ في المودّة والمخالصة

---

١. مجمع البيان ٦: ٥١٩، تفسير الصافي ٣: ١١٤.
٢. في الخصال: ممّن.
٣. في الخصال: سقر.
٤. الخصال: ٥١/٣٦١، تفسير الصافي ٣: ١١٤.
٥. في النسخة: متلبساً.
٦. في تفسير الرازي: لبعضهم.
٧. في تفسير الرازي: ثمّ يؤمر.
٨. تفسير الرازي ١٩: ١٩٣.

والمخالطة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وهم جالسون ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ مرفوعة حال كونهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين.

عن ابن عبّاس: يُريد على سُرر من ذهبٍ مُكلّلة بالزّبَرجد والدُّرّ والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية[2].

وقيل: إنّ المراد من السرير: هو المجلس الرفيع المُهيّا للسرور[3]، والمستقرّ الذي اطمئنّ إليه في حال الفرح ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ في الجنّة ولا ينالهم ﴿فِيهَا﴾ من حين دخولها ﴿نَصَبٌ﴾ وعَناء وتَعب إلى الأبد ﴿وَمَا هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيكون لهم بقاء لا فناء له، ونعمة لا زوال لها، وفوز لا حرمان معه.

نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ[٤٩ـ٥٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر حُسن حال عباده المُخلصين أعلن بشمول عفوه ورحمته لكلّ من اعترف بعبوديته وتوحيده بقوله: ﴿نَبِّئْ﴾ يا محمّد، واخبر ﴿عِبَادِى﴾ المؤمنين مطيعيهم وعُصاتهم ﴿أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حتّى لا ييأسوا من غُفراني ورحمتي.

عن النبي ﷺ، أنّه مرّ بنفرٍ من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم؟!»[4] فنزل قوله: ﴿نَبِّئْ﴾ عبادي إلى آخره.

ثمّ أعلن بغضبه على العُصاة بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ وفي تقديم الاعلان بالرحمة، وإضافة العباد إلى نفسه، وتأكيد الوعد بكلمة (إنّي) و(أنا) وتغيير اُسلوب الإخبار بالوعيد، حيث لم يقل: أنا المعذّب، بل أخبر بكون عذابه أليماً، دلالةٌ واضحةٌ على سَبق رحمته وغلبتها على غضبه، وإن كان على المؤمنين التسوية بين الخوف والرجاء بحيث لا يترجّح أحدهما على الآخر.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰ أَن مَسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ ٱلْقَانِطِينَ[٥١ـ٥٥]

ثمّ لمّا كان في قصص الأنبياء واُممهم شهادة على رحمته بأوليائه وغضبه على أعدائه، شرع في

---

١. الزخرف: ٤٣/٦٧.
٢. تفسير الرازي ١٩: ١٩٣، والجابيَة: قرية من أعمال دمشق.
٣. تفسير الرازي ١٩: ١٩٣.
٤. تفسير الرازي ١٩: ١٩٥.

بيانها، وبدأ بقصة إبراهيم عليه السلام الذي هو أعظم منزلة بقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأخبرهم يا محمّد ﴿عَن﴾ قِصّة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الملائكة الذين جاءوا بالرحمة والسلامة على إبراهيم ولوط، وبالعذاب على قوم لوط.

قيل: كانوا اثني عشر أحدهم جَبْرئيل، ولم يعرِفهم إبراهيم، وحسب أنّهم أضيافه[1].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بصورة البشر ﴿فَقَالُوا﴾ حين الدخول: سلام الله عليك، أو نُسلّم عليك يا إبراهيم﴿سَلاماً﴾ وكان إبراهيم عليه السلام شديدالحبّ للضيافة، فما لَبِث حتى جاءهم بعجلٍ مشويّ،فلمّا رأى أنّهم لم يمُدّوا أيديهمإليه خاف منهم؛ لأنّالمعتاد عندهم أنّالضيف إذا امتنع منالأكل ظنّوا أنّه عدوّ.

وقيل: إنّ سبب خوفه أنّهم دخلوا عليه بغير إذن وفي غير وقت[2]، ولذا ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ وخائفون، فلمّا سَمِعت الملائكة منه ذلك ﴿قَالُوا﴾ تأميناً لخاطرة: يا إبراهيم ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ ولا تَخَف منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ونُخبرك بما فيه سرور قلبك، وهو أنّ الله يُريد أن يمُنّ عليك ﴿بِغُلامٍ﴾ وولد ذَكَر[3] ﴿عَلِيمٍ﴾ بالمعارف والأحكام، أو بعلم النبوة، فتعجّب إبراهيم عليه السلام من مقالتهم، و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ بأن يُولَد لي ولد وأنا ﴿عَلَىٰ﴾ حالٍ بعيدٍ عادةً من ذلك، وهو ﴿أَن مَّسَّنِىَ﴾ وأصابني ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ والهَرَم الذي لا يكون معه الولد.

قيل: إنّ (على) بمعنى مع، أو بمعنى بعد[4].

ثمّ بالغ في إظهار التعجّب بقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ من الأُعجوبة، فلمّا رأوا استبعاد إبراهيم عليه السلام مابشّروه به ﴿قَالُوا﴾ له تأكيداً لقولهم: إنّا ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ والصدق، وبما هو كائن لا محالة، أو باليقين الذي لا شُبهة فيه، أو بطريق حقّ وهو إخبار الله به ﴿فَلَا تَكُن مِنَ ٱلْقَانِطِينَ﴾ من رحمة الله عليك، والآيسين من أن تلد وأنت شيخ كبير.

قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ[٥٦ ـ ٦٠]

فلمّا سَمِع إبراهيم عليه السلام كلامهم المُوهِم لنسبته إلى اليأس من رحمة الله ﴿قَالَ﴾ تحاشياً منها وإنكاراً عليهم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ اللطيف به ﴿إِلَّا ٱلضَّالُّونَ﴾ والمخطئون طريق المعرفة

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٤.
٢. تفسير الرازي ١٩: ١٩٦.
٣. في النسخة: ذكور.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٤.

والصواب، فانّهم الذين لا يعرِفون سَعة رحمة الله وكمال قدرته وحكمته ولطفه بعباده، فنفي عن نفسه القُنوط بأبلغ وجه، وبيّن أنّ مقاله كان استعظاماً لهذه النعمة الخارقة للعادة، ثمّ لمّا عرف إبراهيم عليه السلام أنّهم ملائكة أُرسلوا لأمرٍ عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما شأنكم ﴿أَيُّهَا﴾ الملائكة ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

قيل: إنّه عَلِم من كَثْرتهم وبِشارتهم لرفع خوفه أنّهم أُرسلوا لأمرٍ آخر غير البشارة[١] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرسِلْنَا﴾ من قبل الله ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ كي نهلِكهم بالعذاب لتناهيهم في الإجرام والطُّغيان ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وأهله المؤمنين ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ممّا يُصيب قومه من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ [واسمها] واهلة ـ كما قيل[٢] ـ فانّ ربّك قال: إنّا ﴿قَدَّرْنَا﴾ وقضينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في المدينة مع الكفار، فيُصيبها ما يُصيبهم من العذاب لشركتها معهم في الكفر وإيذاء لوط.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ[٦١ ـ ٦٥]

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ لوطاً و﴿آلَ لُوطٍ﴾ الملائكة ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بالعذاب ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ﴾ في هذه البلدان ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ لا يَعرِفكم أحدٌ.

قيل: يعني أنكم لا في زيّ السفر، ولا من أهل الحَضَر، فأخافُ أن تطرُقوني بشرٍّ[٣].

﴿قَالُوا﴾ ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا﴾ فيه سُرورك ويُشفي[٤] قلبك، وهو العذاب الذي تتوعّد به قومك وهم ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ وفي وقوعه يشكّون ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ واليقين الذي لا مجال للريب فيه ﴿وَإِنَّا﴾

والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ في ما نُخبرك به من العذاب.

قيل: إنّ المراد بالحَق الإخبار بالعذاب، وما بعده تأكيدٌ له[٥]، إذن ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ معدّ من المدينة ﴿بِقِطْعٍ﴾ وطائفة ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وفي بعض منه ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وكن من ورائهم لتسوقهم وتطلّع عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظُر ﴿مِنكُمْ﴾ إلى الوراء ﴿أَحَدٌ﴾.

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٥٣٢، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٥.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.
٣. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.
٤. في النسخة: وتشقي.
٥. تفسير أبي السعود ٥: ٨٤.

قيل: إنّ النهي عن الالتفات كِناية عن سرعة السير لاستلزام الالتفات الوقوف أو التواني[1]، أو عن إيجاب التوطين على الهجرة، أو عن قطع العلاقة عمّا خلّفوه، أو عن الانصراف والتخلّف.

﴿وَٱمْضُوا﴾ واذهبوا إلى ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ من جانب الله بالمضيّ والذّهاب إليه.

عن ابن عباس: يعني الشام[2]. وقيل: يعني مصر[3]. وقيل: يعني حيث يقول لكم جَبْرئيل، فانّه أمَرَهم ان يَمضوا الى قريةٍ قريبةٍ لم يعمل أهلها مثل عمل أُولئك القوم[4].

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هٰؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ * قَالَ هٰؤُلَآءِ بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٦ - ٧١)

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّه بعد إخبار الملائكة لوطاً بإهلاك قومه، أوحى سبحانه إليه بلا واسطة المَلَك بتعذيب قومه بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ وأوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ بنحو البتّ ﴿ذٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ الذي أخبرته الرسل به في شأن قومه، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ﴾ الكفَرة وعقبهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بحيث لا يبقى منهم أحد بعذاب الاستئصال حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ووقت دخول الصبح عليهم.

ثمّ قيل: إنّ امرأة لوط أخبرت أهل سَدُوم[5] بقدُوم أضياف على لُوط جُرْد مُرْد في غاية الحُسن والجَمال[6] ﴿وَ﴾ لذا ﴿جَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى باب منزل لوط وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويُخبر بعضهم بعضاً بأنّه نزل على لوط أضيافٌ مُردٌ وُضاء الوجوه، فلمّا أتوه وسألوه أن يُسلّم إليهم أضيافه ليرتكبوا الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط: يا قوم ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾ الشباب ﴿ضَيْفِى﴾ والنازلون عليّ في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بتفضيحهم، ولا تبتلوني بالعار بالاساءة إليهم، وعمل الفاحشة بهم، فانّ من أُهين ضيفه فقد أُهينت نفسه.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ وخافوه في الاساءة إليّ والى ضيفي، وفي ارتكاب الفحشاء بهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تذللوني ولا تُخجِلوني عندهم بارتكاب الفِعلة الشّنيعة بهم ﴿قَالُوا﴾ يا لوط ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ﴾ أن

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٨٤، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٢٠١، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.
٣. تفسير البيضاوي ١: ٥٣٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٦.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢٠١.
٥. سَدُوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له سدوم.
٦. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٧.

تحامي أحداً من ﴿ٱلعَالَمِينَ﴾.

قيل: إنّ التقدير ألم نقدم إليك ولم ننهك عن أن تمنع الغُرباء عن تعرّضنا لهم[١]. ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿هٰؤُلاءِ﴾ النسوة ﴿بَنَاتِي﴾ فتزوّجوهنّ وانصرفوا عن التعرّض لأضيافي ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وطالبين لقضاء الشهوة، فاقضوها فيما أحلّ الله لكم دون ما حرّم.

قيل: إنّ القوم كانوا يخطُبون بناته ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدم كفايتهم[٢].

وقيل: إنّ المراد بنات القوم، وأضافهنّ إلى نفسه لكون بنات الأُمّة بمنزلة بنات نبيها[٣].

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [٧٢ـ ٧٥]

ثمّ بيّن الله غاية شقاوتهم بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ وحياتك يا حبيبي محمّد قسمي ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ وشدّة شهوتهم التي أزالت عقولهم، وفي غاية شقاوتهم وغوايتهم التي أعمتهم عن رؤية طريقة الرشد والصلاح ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتحيّرون، فلم يُؤثّر فيهم النُّصح والارشاد إلى البنات أطيب من البنين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جَبْرئيل حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وداخلين في وقت طلوع الشمس.

قيل: كان ابتداء العذاب ـ وهو قلع جَبْرئيل الأرض بهم ورفعها إلى السماء ـ أول الصبح، ثمّ هوى بها إلى الأرض، وكان خَتْمه ـ وهو الصيحة ـ أول طلوع الشمس[٤].

﴿فَجَعَلْنَا﴾ بعد قَلع البلاد الخمسة أو السبعة ورفعها إلى قريب من السماء على جَناح جَبْرئيل وقلبها عليهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها، لكون هذا النحو من القلب أدخل في الهَول والفَضاعة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من حين الرفع إلى تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كائنةً ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ وطينٍ متحجّرٍ عليه اسم من رمى به على ما قيل[٥]. فهلكوا بأنواع من العذاب: الخسف والامطار بالحجارة والصيحة، وقيل: إنّ مطر الحجارة كان على الغائبين من تلك البلاد[٦] ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من عصيان القوم لوطاً وطغيانهم على الله وهلاكهم بعذاب الاستئصال وإنجاء لوط وأهله والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأدلّة واضحة على وَحْدانية الله وكمال قدرته وعظمته، وقهره على أعدائه، ولُطفه

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٨٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٧.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٨٦، تفسير روح البيان ٤: ٤٧٨.
٣. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٥: ٨٦. ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٧٩.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٠.

بأوليائه، وإنما الانتفاع ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ والمتفرّسين، ومن له ذكاء وجودة ذهن، فانّهم يستنبطون كثيراً من العلوم والمعاني الدقيقة من المحسوسات والماديات[١].

عن النبيّ ﷺ: «اتقوا فَراسة المؤمن، فانّه ينظُر بنور الله، وينطِق بتوفيق الله»[٢].

وعنه ﷺ - في رواية - «أنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم» ثمّ قرأ هذه الآية[٣].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية: كان رسول الله ﷺ المتوسّم، وأنا من بعده، والأئمّة من ذُرّيتي المتوسّمون»[٤].

وعنه أيضاً، في هذه الآية: «قال رسول الله ﷺ: أتقّوا فراسة المؤمن»[٥]

وعنه عليه السلام: «ليس مخلوقٌ إلّا وبين عينية مكتوب، [أنّه] مؤمن أو كافر، وذلك محجوبٌ عنكم، وليس محجوباً عن الأئمّة من آل محمّد عليهم السلام»[٦].

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ[٧٦ - ٧٩]

ثمّ استشهد سبحانه بوجود بلادهم وآثارهم بقوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ والله ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ وطريقٍ ثابتٍ يَسلُكه النّاس في مسافرتهم من مكة إلى الشام، ويرون آثار تلك البلاد، فانّها لم تندرس بعدُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من وجود آثارها والله ﴿لَآيَةً﴾ وعِظةً وهدايةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، فانّهم الذين يعرفون أنّ ما حاق[٧] بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بَلاقِع[٨]، إنّما كان لسوء صَنيعهم وطُغيانهم علىٰ الله ورسوله.

ثمّ ذكر سبحانه قصة هلاك قوم شعيب بقوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسول.

قيل: إنّ الأيكة ومَدين واحد[٩]، فانّ أطراف مَدين كانت أرض ذات أشجار كثيرة ملتفّة بعضها ببعض، وكانت عامة شجرهم المُقل[١٠].

---

١. في النسخة: العاديات.
٢. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.
٣. مجمع البيان ٦: ٥٢٨، تفسير الصافي ٣: ١١٨.
٤. الكافي ١: ١٧٠/٥، تفسير الصافي ٣: ١١٨.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٤١/٤٣٥، الكافي ١: ١٧٠/٣، تفسير روح البيان ٤: ٤٨١، تفسير الصافي ٣: ١١٨.
٦. بصائر الدرجات: ١/٣٧٤، تفسير الصافي ٣: ١١٨.
٧. في النسخة: حلق، والذي أثبتناه من روح البيان ٤: ٤٨٠.
٨. أي خالية من كلّ شيء.
٩. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.
١٠. المُقل: حمل الدَّوم، وهو يشبه النَّخل.

عن ابن عباس: الأيكة شجر المُقل[١].

وقيل: إنّ الأيكة اسم مكان آخر غير مَدْين كثير الأشجار، كانوا يسكُنونها، فبعث الله إليهم شُعيب كما بعثه إلى مَدين فكذّبوه[٢] ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعاقبناهم على تكذيبهم شعيباً.

قيل: أهلك الله أهل مَدين بالصيحة، وأهل الأيكة بالنّار، وذلك أنّ الله أرسل عليهم حرّاً شديداً سبعة أيام، فخرجوا ليستظلّوا بالشجر من شدّة الحرّ، فجاءت ريح سَموم بنار فأحرقتهم[٣].

وقيل: بعث الله سَحابةً فالتجأوا إليها يلتمسون الرَّوح، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم، فهو عذاب يوم الظُّلّة[٤].

وقيل: لمّا ذكر الله الأيكة، دلّ بذكرها على مَدين، فجاء بضميرهما[٥] بقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وطريقٍ واضحٍ لكم وللناس، تمرّون عليهما وتَرون آثار العذاب فيهما. وقيل: إنّ ضمير التثنية راجعٌ إلى سَدُوم والأيكة[٦].

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨٠ـ ٨٤]

[ثمّ] ذكر الله قصّة قوم صالح بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهم قوم ثمود ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قيل: الحِجر اسم وادٍ كانوا يَسْكُنونه[٧]. وإنّما نسب سبحانه إليهم تكذيب جميع المرسلين؛ لأنّ تكذيبهم صالحاً تكذيب لجميع الرسل، ولأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لجميع الرسل، أو لأنّ المراد بالمرسلين جنس الرسل لا جميع أفرادهم، كما يقال لمن أهان عالماً: إنك مُوهن العلماء.

ثمّ ذمّهم سبحانه بذنبٍ أعظم من تكذيب الرسل بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾ وأريناهم ﴿آيَاتِنَا﴾ الكثيرة التي كانت في الناقة من خروجها من الصخرة، وعِظَم جُثّتها وظهور فصيلها عند خروجها، وكَثرة شربها ولبنها ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ وعن النظر والتفكّر في جهات إعجازها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير معتنين.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ ومساكن لأنفسهم حال كونهم ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب لغاية غفلتهم واغترارهم، أو من الانهدام ونَقْب اللصوص وتخريب الأعداء لغاية استحكامها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٤.
٢ ـ٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٨١.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٤.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ٨٧.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٥، تفسير أبي السعود ٥: ٨٧.

مع ذلك ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جَبْرَئيل حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ بسبب تكذيبهم صالحاً، وإعراضهم عن الآيات ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ ولم ينفع في دفع العذاب ﴿عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويُحصّلون من البيوت الوثيقة والأموال الوفيرة والعُدد المتكاثرة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ[٨٥و ٨٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر ابتلاء الأمم الماضية بالعذاب، نبّه على المعاد الذي عذاب الكفار فيه أشدّ مع الدليل القاطع بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ خلقاً متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة المستلزمة للمعاد، وإلّا كان خلقهما عبثاً ولعباً ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة التي تُجزى فيها الناس على قدر أعمالهم، والله[١] ﴿لَآتِيَةٌ﴾ فلا ينحصر عذاب العُصاة بما ينزل بهم في الدنيا، فإنّه بالنسبة إلى ما أُعدّ لهم في القيامة كنسبة لا شيء إلى كلّ شيء، فاذا كان كذلك فلا تحزَن يا محمّد بتأخير العذاب عن قومك مع كونهم مكذّبيك، فانّ الله سينتقم من أعدائك ويجازيهم أسوأ الجزاء على إساءتهم إليك ﴿فَاصْفَحِ﴾ وأعرض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ والإعراض المقرون بالحِلم واحتمال آذاهم ولا تعجل في الانتقام منهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اللطيف بك ﴿هُوَ ٱلْخَلَّاقُ﴾ لك ولأعدائك ولسائر الموجودات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وأعمالهم وأحوالك ومعاملتك معهم من مكابدتهم، والصبر على إساءتهم، والصَّفح عنهم، فيجازيهم بأشدّ العذاب، ويُكرمك بأعلى الكرَامات ويفضّلك على العالمين بأفضل المَثُوبات، كما أكرمك في الدنيا بالنبوة، وفضلك على العالمين بأن ختم بك الرسالة.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ[٨٧]

ثم نبّه سبحانه بأفضل مننه عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يا محمّد، وأنزلنا عليك ﴿سَبْعاً مِنَ﴾ الآيات ﴿ٱلْمَثَانِي﴾ وهي فاتحة الكتاب ﴿وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾ الشأن.

عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ الله قال لي: يا محمّد، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزاء القرآن العظيم»[٢].

---

١. لا موضع للقسم في الآية.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٠٢/٦٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سئل عن هذه الآية، فقال: «هي سورة الحمد، وهي سبع آيات منها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»[١].

وعن أحدهما عليهما السلام أنّه سُئِل عنها فقال: «فاتحة الكتاب»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث ـ «زاد الله محمداً صلى الله عليه وآله السبع الطوال وفاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني»[٣].

قيل: سمّيت بالمثاني لأنّها تُقرأ بعدها السورة في الصلاة ويُثنّى بها[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما سميّت مثاني لأنها تُثنّى في الرّكعتين»[٥].

وعن أحدهما عليهما السلام: «يُثنّى فيها القول»[٦]. ولعلّ المراد منه ما قيل من أنّ كلماتها مثنّاة مثل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ﴾[٧].

وقيل: لأنّ الفاتحة قسمت نصفين نِصفها لله، ونِصفها للعبد، فانّ نِصفَها ثناء العبد للربّ، ونِصفها عطاء الربّ للعبد[٨].

وقيل: لأنّها نزلت مرتين: مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن، ومرّة بالمدينة[٩].

وقيل: إنّ المثاني جميع القرآن وصفته، لأنّه كرّر فيه الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والثواب والعقاب والقَصَص[١٠]، والفاتحة بعض منه.

أقول: هذا القول أظهر.

وقيل: إنّ المثاني مأخوذٌ من الثناء، سميّت به الفاتحة لاشتمالها على الثناء على الله، وهو حمده وتوحيده ومُلكه[١١].

وعن الباقر عليه السلام: «نحن المثاني الذي أعطاه الله نبينا»[١٢].

وقال الصدوق رحمه الله: أي نحن الذين قرننا النبيّ صلى الله عليه وآله إلى القرآن، وأوصى بالتمسّك بالقرآن وبنا،

---

١. تفسير العياشي ١: ٩٩/٧٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٢. تفسير العياشي ٢: ٤٣٧/٢٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٣. الاحتجاج: ٢١٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.
٥. تفسير العياشي ١: ١٠٠/٧٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٦. تفسير العياشي ٢: ٤٣٧/٢٣٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.
٨. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.
٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.
١٠. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.
١١. تفسير الرازي ١٩: ٢٠٧.
١٢. تفسير القمي ١: ٣٧٧، تفسير العياشي ٢: ٤٣٧/٢٣٤٦، التوحيد: ١٥٠/٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.

وأخبر أُمّته أنّا لا نفترق حتّى نَرِد [عليه] حوضه[١].

روي أنّ سبع قوافل وافت من بُصرى وأذرِعات ـ ليهود قُريظة وأذرِعات[٢] والنُّضير ـ في يومٍ واحد مكة، فيها أنواع من البَزّ وأفاويه[٣] الطِّيب والجوهر وأمتعه البحر. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فنزلت. وقال: قد أعطيتكم سبع آيات هي خيرٌ لكم من هذه السبع قوافل[٤].

وقيل: لمّا وردت قوافل قريش بمكة، وكانت فيها مطاعم وملابس كثيرة، خَطَر في قلب النبي ﷺ أنّ المؤمنين جِياعٌ عُراة ويكون للمشركين هذه الأموال الكثيرة فنزلت[٥].

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ [٨٨ـ٩١]

ثمّ لمّا عرّف الله نبيه ﷺ أعظم نِعمَه عليه، نهاه عن الرغبة فيما بأيدي الناس من الأمتعة الدنيوية الفانية بقوله: و﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تلتفت بقلبك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وحُطامها أصنافاً من الكفّار و﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ كاليهود والنصارى والمجوس والمشركين بعد ما أنعمنا عليك بالرسالة والعلم والحمكة والقرآن من النِّعم التي عندها يُسْتَحْقَر جميع عالم الوجود.

عن ابن عباس: أي لا تتمنّ ما فضّلنا به أحداً من مَتاع الدنيا[٦].

رُوي أنه ﷺ نظر إلى نِعم بني المُصْطَلِق وقد عَبِست في أبوالها وأبعارها فتقنّع وقرأ هذه الآية[٧].

قيل: معنى عَبِست [في أبوالها وأبعارها: هو] أن تَجُفّ أبوالها وأبعارها على أفخادها إذا تُركت من العمل [أيام الربيع، فتكثُر] شُحومها ولُحومها[٨].

ورُوي أنّه ﷺ لا ينظُر إلى ما يستحسن من [متاع] الدنيا[٩].

ثمّ أنّه تعالى بعد النهي عن الالتفات إلى أموال الكفّار، نهاه عن الالتفات إلى أنفسهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيهِمْ﴾ إذا لم يؤمنوا، ولا يكن لهم في قلبك قدر ومنزلة.

---

١. التوحيد: ٦/١٥١، تفسير الصافي ٣: ١٢٠.
٢. (وأذرعات) ليست في المصادر.
٣. البَزّ: نوع من الثياب، والأفاويه: نوافج الطيب، والنوافج: الأوعية التي يُوضع فيها الطيب. وقيل: الأفاويه: تطلق على ما يعالج به الطيب، كما أن التوابل ما يعالج به الأطعمة.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١٠، تفسير البيضاوي ١: ٥٣٥، تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.
٥. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٦.
٦ ـ٩. تفسير الرازي ١٩: ٢١٠.

وقيل: إنّ المراد لا تحزَن على أتباعك ومُصدّقيك لفقرهم[١] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وتواضع بنفسك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك المطيعين لأحكام ربك، وإن كانوا أفقر الناس، فانّ تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظَفرهم بما يُحبّون من الدنيا ﴿وَقُلْ﴾ للناس: ﴿إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ من عذاب الله ببيان أحكامه وشدّة عقابه على عِصيانه ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ والموضّح لكم جميع ما أبلغكم، وما يتعلّق بالمبدأ والمعاد، وقل للمشركين: إنا ننزّل عليكم العذاب ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾ من العذاب ﴿عَلَى﴾ اليهود ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ للقرآن بجعل ما وافق التوراة منه حقاً، وما لم يوافقه باطلاً، كما عن ابن عبّاس[٢].

وقيل: اقتسامه بأن قال بعضهم استهزاءً بالقرآن: هذه السورة لي، وقال الآخر: هذه السورة لي، أو قال بعضهم: إنّه سحرٌ. وقال آخر: إنّه شعر، وقال ثالث: إنّه كِذب، وقال رابع: إنّه أساطير. وقيل: إن المقتسمين قوم ثمود، فانّهم تقاسموا لنُبيّتَنّه وأهله[٣].

وعن ابن عباس بنقلٍ آخر: هم الذين اقتسموا طريق مكّة يَصُدّون الناس عن الإيمان، ويقرب عددهم من أربعين.[٤]

وقيل: كانوا ستة عشر [رجلاً] بعثهم الوليد بن المُغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها، ويقولون لمن يسلُكها: لا تغترّوا بالخارج منّا والمدّعي للنبوة فانه مجنون، وكانو يُنفّرون الناس عنه ﷺ بأنّه ساحر أو كاهن أو شاعر، والمعنى أنذرتكم مثل مانزل بالمقتسمين[٥]؛ وهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وجزّءوه إلى سِحر وشِعر وكِهانة وأساطير.

وعنهما عليهما السلام، قالا: «هم قريش»[٦]. وقيل: يعني مُفترى[٧].

فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[٩٢ـ٩٦]

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسول والاستهزاء بكتابه.

ثمّ أمر الله نبيه ﷺ بترك المبالاة بالكفّار بقوله: ﴿فَاصْدَعْ﴾ واشتغل ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ من التبليغ جَهاراً،

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٨٧.
٢. تفسير الرازي ١٩: ٢١٢، تفسير روح البيان ٤: ٤٨٩.
٣. تفسير الرازي ١٩: ٢١٢.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١١.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٢١١.
٦. تفسير العياشي ٢: ٢٣٥٧/٤٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.
٧. تفسير الرازي ١٩: ٢١٣.

ولا تبالِ بكَيد الأعداء ﴿وأعرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ﴾ ولا تعتنِ بهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ بك وبكتابك ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة شِركهم في الدارين.

قيل: كان المستهزئون بالنبيّ ﷺ خمسة نفرٍ من المشركين: الوليد بن المُغيرة، والعاص بن وائل، وعَديّ بن قيس، والأسود بن المُطّلب، والأسود بن عبد يَغُوث. قال جَبْرئيل لرسول الله ﷺ: أُمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى عَقِب الوليدُ فمرّ بنبّال فتعلّق بثوبه سهمٌ، فلم ينعطف تعظّماً لأخذه، فأصاب عِرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة، فقال: لُدِغتُ لُدِغتُ، فانتفخت رجله حتّى صارت كالرَّحا ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطّلب فعُمي، وأشار إلى أنف عَديّ بن قيس فأمتخط قيحاً فمات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويَضرِب وجهه بالشوك حتى مات[1].

وقال بعض العامة: إنّ الآيات نزلت في خمسة نفر ذوي شأن وخَطَرٍ، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، فأهلكهم الله في يومٍ واحدٍ، وكان إهلاكهم قبل بدر: منهم العاص بن وائل السَّهمي والد عمرو بن العاص، كان يخلِج[2] خلف رسول الله ﷺ بأنفه وفمه ويسخَر به، فخرج في يومٍ مطيرٍ على راحلته مع ابنين له، فنزل شِعباً من تلك الشِّعاب، فلمّا وضع قدمه على الأرض قال: لُدِغت، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عُنق البعير، فمات مكانه، ومنهم الحارث بن قيس، أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش الشديد، فلم يزل يشرب الماء حتى انقدّ ـ أي انشقّ ـ بطنه، فمات في مكانه، ومنهم الأسود بن المطلب، خرج مع غُلام له فأتاه جَبْرئيل وهو قاعد في أصل شجرةٍ، فجعل جَبْرئيل ينطَح رأسه على الشجرة، وكان يستغيث بغُلامه، فقال غُلامه: لا أرى أحدٌ يصنع بك شيئاً غير نفسك، فمات مكانه، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبيّ ﷺ واصحابه ويَصْفِرون إذا رأوه، ومنهم الأسود بن عبد يغوث خرج من أهله فأصابه السَّمُوم[3] [فَاسوَدّ] حتى صار كالفحم، فأتى أهله فلم يعرفوه، فأغلقوا دونه الباب ولم يُدخِلوه دارهم حتى مات[4].

قيل: إنّه كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاءً بالصحابة: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يَرِثون كسرى وقيصر؛ وذلك لأنّ ثيابهم رَثّه وعيشهم خَشِن. ومنهم الوليد بن المُغيرة والد خالد بن الوليد [وعم أبي جهل] خرج يتبختر في مشيته حتى وقف على رجل يعمل السِّهام، فتعلق سهمٌ في ثوبه، فلم ينقلب لينحيّه تعظّماً، فأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه فأصاب السهم أكْحَله[5] فقطعه، ثمّ

---

١. تفسير الرازي ١٩: ٢١٥.
٢. خلج الشيء: حرّكه.
٣. السموم: الريح الحارة.
٤. تفسير روح البيان ٤: ٤٩١.
٥. الأكحل: وريد في وسط الذراع.

لم ينقطع الدم عنه حتى مات[١]، وكان جميع ذلك في يومٍ واحد.

القمي ﷺ، قال: نزلت بمكة بعد أن نُبّئ رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وكان المستهزئون برسول الله ﷺ خمسة: الوليد بن المُغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطّلب، والأسود بن عبد يَغُوث، والحارث بن طُلاطِلة الخُزاعي[٢].

عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين ﷺ: «فأمّا المستهزئون فقال الله: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾** فقتل الله خمستهم، كلّ واحدٍ منهم بغير قتلة صاحبه في يومٍ واحدٍ، فأمّا الوليد بن المُغيرة فمرّ بنبل لرجلٍ من خُزاعة قد راشه[٣] ووضعه في الطريق، فأصابته [شظية] منه فانقطع أكْحَله حتى أدماه، فمات وهو يقول: قتلني رب محمّد، وأمّا العاص بن وائل السَّهمي فانّه خرج في حاجةٍ له إلى موضع فتدهده تحته حجر فسقط، فتقطّع قطعةً قطعةً، فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد، وأمّا الأسود بن عبد يغوث فانّه خرج يستقبل ابنه زَمْعة فاستظلّ بشجرة، فأتاه جَبْرئيل فأخذ رأسه فنطح به الشجرة، فقال لغلامه: امنع هذا مني، فقال: ما أرى أحداً يصنع شيئاً إلّا نفسك، فقتله وهو يقول: قتلني ربّ محمّد، وأمّا الأسود بن المطّلب[٤] فانّ النبي ﷺ دعا عليه أن يَعمي [الله] بصره وأن يُثكله ولده، فلمّا كان في ذلك اليوم خرج حتى صار إلى موضع، فأتاه جَبْرئيل بورقةٍ خضراء، فضرب بها وجهه فعَمي، وبقي حتى أثكله الله ولده، وأمّا الحارث بن طُلاطِلة[٥] فإنّه خرج من بيته في السَّمُوم فتحوّل حبشياً، فرجع إلى أهله فقال: أنا الحارث، فغضبوا عليه فقتلوه وهو يقول: قتلني ربّ محمّد»[٦].

ورُوي «أنّ الأسود بن عبد يغوث[٧] أكل حُوتاً مالحاً فأصابه العطش، فلم يزل يشرب الماء حتى انشقّ بطنه، فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد. كل ذلك في ساعةٍ واحدةٍ، وذلك أنّهم كانوا بين يدي رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد، ننتظر بك إلى الظهر، فان رجعت عن قولك وإلّا قتلناك، فدخل النبي ﷺ منزله فأغلق عليه بابه مغتمّاً لقولهم، فأتاه جَبْرئيل عن الله في ساعته فقال: يا محمّد، السلام يُقرئك السلام، وهو يقول: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾** يعني أظهِر أمرك لأهل مكّة وادعُهم إلى الإيمان. فقال: يا جَبْرئيل، كيف أصنع بالمستهزئين وما أوعدوني؟ قال: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾** قال: يا جَبْرئيل، كانوا الساعة بين يدي؟ قال: كُفيتهم، فأظهر أمره عند ذلك»[٨].

وفي رواية: «فخرج رسول الله ﷺ فقام على حَجَر فقال: يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم إلى

---

١. تفسير روح البيان ٤: ٤٩٢.
٢. تفسير القمي ١: ٣٧٨، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.
٣. راش النبل: ركب عليه الريش.
٤. في الاحتجاج: الأسود بن الحارث.
٥. في الاحتجاج: الحارث بن أبي الطلالة.
٦. الاحتجاج: ٢١٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.
٧. في الاحتجاج: الأسود بن الحارث.
٨. الاحتجاج: ٢١٧، تفسير الصافي ٣: ١٢٣.

شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، وآمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنّة، فاستهزءوا منه، وقالوا: جُنّ محمّد بن عبدالله، ولم يَجْسُروا عليه لموضع أبي طالب»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «اكتتم رسول الله صلى الله عليه وآله [بمكة] مختفياً خائفاً خمس سنين لم يُظهِر أمره وعليّ عليه السلام معه وخديجة، ثمّ أمره الله أن يصدع بما أمر [به] فظهر وأظهر أمره»[٢].

وفي رواية: «ثمّ أمره الله أن يصدع بما يؤمر، فجعل يعرِض نفسه على قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كذّاب امضِ عنّا»[٣].

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ [٩٧-٩٩]

ثمّ لمّا أشار الله سبحانه إلى جَسَارة القوم على نبيّه صلى الله عليه وآله[٤] وحببه وضيق صدره بمقتضى الطبيعة البشرية، سلّاه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ويحزَن قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والاستهزاء والإهانه، فانّ الالتفات الى أن المصائب بعين الله ومرآه من أقوى التسليات للمؤمن.

عن الصادق عليه السلام: «عليك بالصبر في جميع اُمورك، فانّ الله عز وجل بعث محمّداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرِّفق... فصبر حتى نالوه بالعظائم ورموه بها، فضاق صدره، فأنزل الله عزّ وجلّ [عليه]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾»[٥].

ثمّ أمره الله بذكره الموجب لاطمئنان القلب، والاستغراق في أنوار الربوبية، والانصراف عن الدنيا ومصائبها بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله مقرناً له ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وثنائه ﴿وَكُن مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلسَّاجِدِينَ﴾ والمبالغين في الخضُوع له، أو من المصلين، فانّ الفَزَع إلى الله بالسجود والصلاة يَقْرَع الهمّ ويكشِف الكَرْب ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ علىٰ أيّ حال كنت ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ والموت، عن ابن عبّاس[٦]، ولا تكن في آنٍ من آنات عمرك متوانياً في القيام بوظائف العبودية.

الحمد لله الذي وفّقني لإتمام تفسير [سورة] الحجر.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٧٩، تفسير الصافي ٣: ١٢٤.
٢. كمال الدين: ٢٨/٣٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ٢٣٦٠/٤٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٢٢.
٤. في النسخة: جسارة القوم بنبيّه.
٥. الكافي ٢: ٣/٧٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٤.
٦. مجمع البيان ٦: ٥٣٤، تفسير الرازي ١٩: ٢١٦.

في تفسير سورة النحل

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ ٱللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[١]

ثمّ لمّا ختم سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار بالعذاب وتهديد المستهزئين بالنبيّ ﷺ باستعجال العذاب، وأمر النبي ﷺ بالاعلان برسالته ودعوته وعدم المبالاة بمعارضيه، وتسليته بعلمه بضيق صدره، وأمره بالتوجّه إليه واشتغاله بعبادته، وكان أوّل سورة النحل تأكيد الوعيد بنزول العذاب والنهي عن الاستعجال فيه، وبيان ما يجب الانذار به، وختمه أمر النبيّ بالدعوة والصبر على أذى الكفّار وعدم الاعتناء بهم، وعدم ضيق صدره من مَكْرهم، واهتمامه بالعبادة والأعمال الحسنة، وأهم المطالب المذكورة فيها وهو التوحيد والمعاد والنبوة موافقاً لما في الحجر، أردفها بالنحل ونظمها بعدها[١]، فابتدأ سبحانه تبركاً وتعليماً للعباد بذكر أسمائه الحُسنى حسب رسمه ودأبه بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع فيها بتأكيده وعيد المشركين بالعذاب بقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللهِ﴾ وعذابه الموعود به ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ولا تطلّبوا سرعة نزوله، فانّه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه.

عن ابن عبّاس: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٢] قال الكفار فيما بينهم: إنّ هذا يزعَم أنّ القيامة قد قَرُبت فأمسكوا عن [بعض] ما تعملون حتّى ننظُر ما هو كائن. فلمّا تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً ممّا تخوّفنا به؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[٣] فأشفقوا وانتظروا يومها، فلمّا امتدّت الأيام قالوا: يا محمّد، ما نرى شيئاً ممّا تخوّفنا به. فنزل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع النّاس رؤوسهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٤] فيكون المعنى أنّ أمر القيامة وعذاب الكفار محقّق الوقوع يجب أن ينزل منزلة الواقع.

---

١. في النسخة: أردف بالنحل ونظم بعده.　٢. القمر: ١/٥٤.　٣. الأنبياء: ١/٢١.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢، تفسير الرازي ١٩: ٢١٨، ولم ينسبه إلى ابن عباس.

روي أنّه لمّا نزلت قال النبي ﷺ: «بُعِثت أنا والساعة كهاتين»[١] وجمع بين الوسطى والسبابة.

وفي حديث آخر: «مثلي ومثل الساعة كفرَسي الرِّهان»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا أخبر الله شيئاً أنّه كائن، فكأنّه قد كان»[٣].

وقيل: إنّ المراد أنّ حكمة [الله] تعالى بوقوع العذاب قد أتى وتحقّق، وإنّما لم يتحقّق المحكوم به لاقتضاء الحكمة وقوعه في وقتٍ معينٍ لم يجئ بعد[٤].

وروي أيضاً أنّ كفّار قريش كانوا يستبطئون نزول العذاب الموعود لهم سُخريةً بالنبي ﷺ وتكذيباً لوعده، وكانوا يقولون: إن صحّ ما تقول من مجيء العذاب، فالأصنام تشفع لنا وتخلّصنا منه، فنزلت[٥].

ثمّ نزّه الله تعالى ذاته عن الشريك الدافع لمراده بقوله: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ فيدفع ما أراد بهم من العذاب عنهم.

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ[٢]

ثمّ لمّا كان عُمدة شُبهة المشركين في نبوة النبيّ ﷺ إنكارهم إمكان نبوة البشر مع قدرة الله على إرسال المَلَك، دفع الله تعالى هذه الشُّبهة بقوله: ﴿**يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ**﴾.

عن ابن عباس: يُريد جَبْرئيل[٦] وحده ﴿**بِالرُّوحِ**﴾ والوحي الذي به حياة القلوب.

وعن الباقر عليه السلام: «يقول بالكتاب والنبوة»[٧]. والقمي رحمه الله: بالقوة التي جعلها فيهم[٨]. وقيل: المراد بالرُّوح جَبْرئيل، والباء بمعنى مع، والمعنى يُنزّل الملائكة مع جَبْرئيل[٩]، ويكون نزولهم صادراً ﴿**مِنْ أَمْرِهِ**﴾ وإذنه ﴿**عَلَىٰ مَن يَشَاءُ**﴾ نزولهم عليه ﴿**مِنْ عِبَادِهِ**﴾ الأنبياء الذين خصّهم الله برسالته.

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «جَبْرئيل الذي نزل على الأنبياء، والرُّوح يكون معهم ومع الأوصياء لا يفارقهم، يُفقّههم ويُسدّدهم من عند الله»[١٠].

وقال بعض مفسري العامّة: ما ينزِل مَلَك إلّا ومعه الرُّوح، يكون الرُّوح رقيباً عليه كما يكون

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٥: ٣.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٣٦٢/٣، تفسير الصافي ٣: ١٢٦.
٤. تفسير الرازي ١٩: ٢١٨.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢.
٦. تفسير الرازي ١٩: ٢١٩.
٧ و٨. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.
٩. تفسير الرازي ١٩: ٢٢٠.
١٠. بصائر الدرجات: ١/٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.

الملائكة الحَفظة رُقباء على بني آدم[1]. وعلى أيّ تقدير يكون وحيهم إلى الأنبياء **﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾** وخوّفوا قومكم، واعلموا **﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾** ولا معبود سواي، وأنا اُعاقبهم على القول بالاشراك بي في الاُلوهية والعبادة، وقولوا لهم: إذا كان الأمر كذلك **﴿فَاتَّقُونِ﴾** وخافوني ولا تُشرِكوا بي غيري.

وقيل: إن الخِطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات[2] من الغيبة إلى الخطاب، والمراد أنّه إذا كان الأمر كما ذكر من أنّ الله يُوحي إلى الأنبياء بتوسّط الملائكة توحيده، فاتّقوني في الاشراك بي وفروعه التي منها الاستهزاء برسولي واستعجال عذابي.

خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[٣و ٤]

ثمّ لمّا أعلن سبحانه بتوحيده، أخذ في الاستدلال عليه بكمال قدرته وحكمته بقوله: **﴿خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾** خلقاً مقروناً **﴿بِالْحَقِّ﴾** والحكمة والصواب، والوجه الفائق، والنَّمَط اللائق، فمن قَدَر على هذا الخلق العظيم؟ **﴿تَعَالَىٰ﴾** وتقدّس بذاته وصفاته **﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** به، وتنزّه عن أن يجعل له عبيده وغيره عدلاً في الاُلوهية واستحقاق العبادة.

ثمّ أنه تعالى بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض، استدلّ بخلق ما فيهما من البدائع، ولمّا كان الانسان أكمل الكلّ والآية العظمى، ابتدأ سبحانه بالاستدلال بخلقه بقوله: **﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾** الذي انطوى فيه العالم الأكبر **﴿مِن نُطْفَةٍ﴾** قذرةٍ مُنتِنةٍ متولّدةٍ من الأغذية المتشابهة الأجزاء في الصورة بعد خلق أوّل فردٍ منه من تراب **﴿فَإِذَا هُوَ﴾** بعد خلقه وتربيته وتكميله في الجسم والقوى **﴿خَصِيمٌ﴾** ومعارض لخالقه **﴿مُبِينٌ﴾** ومتجاهر في خصومته.

روي أن اُبي بن خلف الجُمحي أتى النبيَ ﷺ بعَظْمٍ رَميم فقال: يا محمّد، أترى الله يُحيي هذا بعد ما رمّ[3]؟! فنزلت[4] وقيل: يعني منطيقاً مجادلاً عن نفسه، مكافحاً للخصوم، مبيناً لحُجّته لقناً بها بعد أن كان نُطفةً لا حسّ لها ولا حِراك، فانتقاله من أخسّ الأحوال إلى أشرفها دليلٌ على وجود مدبّرٍ قديرٍ حكيمٍ[5].

القمي ﷺ، قال: خَلَقه من قطرةِ ماءٍ مُنتنٍ فيكون خصيماً متكلماً بليغاً[6].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤.
٢. تفسير أبي السعود ٥: ٩٦.
٣. رمّ العظم: بلى.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٦.
٥. تفسير الرازي ١٩: ٢٢٦.
٦. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٧.

وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ[٥ـ٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بخلق الانسان، استدلّ بخلق الحيوانات النافعة له، فابتدأ بخلق أنفعها بقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ﴾ الأربعة من الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿خَلَقَهَا﴾ نفعاً ﴿لَكُمْ﴾ وأهمّ نفعها أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ وحافظ من البرد كاللباس المعمول من الشعر والصوف والوبر ﴿وَ﴾ لكم ﴿مَنَافِعُ﴾ اُخر منها كالنسل واللبن والركوب والحرث ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كاللحوم والشحوم وسائر ما يُؤكل منها.

ثمّ نبّه سبحانه على منافعها غير الضرورية بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ووَجاهة عند الناس ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تلك الأنعام وتَرِدونها من مراعيها إلى محالّ راحتها بالعشيّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تلك وتُرسلونها من مَراحِها إلى مراعيها بالغَداة، فانّ الفضاء أمام الدور يتزيّن بها في الوقتين، ويعظّم أهلها في أعين النّاس.

وإنّما قدّم الاراحة لأنّ الجَمَال عند عودها من مراعيها أظهر، لأنّها حينئذٍ ملأىٰ البطون، حافلة الضُّروع، مجتمعة في الحضائر، حاضرة لأهلها، وأمّا عند خروجها إلى المراعي فكلّها جائعة عادمة اللبن، ثمّ تأخذ في التفرّق والانتشار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وأمتعتكم التي لا تقدِرون على حَمْلها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيدٍ ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ ولم تتمكنّوا أن تصلوا إليه مجرّدين عن الأثقال ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ والتعب الذي يَصعُب تحمُّله، فكيف مع استصحابها؟

عن ابن عباس: يُريد من مكة إلى المدينة، أو إلى اليمن، أو إلى الشام، أو إلى مصر[١].

أقول: هذا التخصيص لأنّ متَاجِر قريش كانت في زمان النزول إلى تلك البلاد[٢].

ثمّ بيّن سبحانه علّة هذه الإنعامات على الإنسان بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ والله ﴿لَرَءُوفٌ﴾ وكثير الوداد بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ وعطوف على خلقه، ولذا أراد توسعة المعاش وتيسير الأمر عليكم بخلق الأنعام.

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٨]

ثمّ استدلّ سبحانه بخلق الحيوانات التي نفعها دون الأنعام بقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ خلقها ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَ﴾ لتكون ﴿زِينَةً﴾ لكم، أو لتتزينوا زِينة وتتعظّموا بتملّكها وركوبها عند الناس

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٩: ٢٢٨.

﴿وَيَخْلُقُ﴾ لانتفاعكم في الدنيا ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ خلقه وعدده ومنافعه وكيفية الانتفاع به من أصناف النِّعم، وإنّما أتىٰ سبحانه بصيغه المضارع للدلالة على التجدّد والحدوث.

القمي ﷺ، قال: العجائب التي خلقها [الله] في البرّ والبحر[١].

وقيل: هذا إخبار بأنه سبحانه يخلُق من الخلائق ما لا علم لنا به، مما فيه دلالة على قُدرته الباهرة الموجبة لتوحيده كنعمته الباطنة والظاهرة[٢].

عن ابن عبّاس: أنّ عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يَدخِل فيه جَبْرئيل كلّ سَحَر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نور، وجمالاً إلى جمال، وعِظَماً إلى عِظَم، ثمّ ينتفض فيخلُق الله من كلّ قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف مَلَك، فيدخُل منهم كلّ يوم سبعون ألف [مَلَك] البيت المعمور، وسبعون ألف مَلَك الكعبة، لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة[٣].

وقيل: يعني يخلُق الله لكم في الجنة غير ما ذكر من النِّعم الدنيوية ما لا يمكنكم أن تعلموه في الدنيا من النِّعم التي لم ترها عين وما سمعتها اُذن، وما خطرت[٤] على قلب بشر[٥].

وَعَلَى ٱللهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان الأدلة القاطعة على توحيده وصفاته الكمالية، بيّن غاية لطفه بعباده بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللهِ﴾ واجبٌ بمقتضى لُطفه الهداية إلى توحيده ومعارفه، بنصب الأدلّة القاطعه الواضحة حتى يتبين للناس ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ والطريق المستقيم المُوصِل إلى كلّ حقٍّ وإلى كلّ خيرٍ، ويمتاز من سائر السبل، فانّ منها مستقيماً ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومنحرفٌ عن الحقّ ومؤدٍّ إلى الهلاك، ولا يحصى عددها المندرج كلّها تحت الجائر.

وقد أدّى سبحانه ما عليه حيث أبدع هذه البدائع التي كلّ واحدٍ منها نُورٌ يُهتَدى به، وأرسل رسلاً وأنزل كتباً وأرشد إلى الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهُدى، المنجية من مهاوي الرَّدى، ألا ترى كيف بيّن في هذه السورة أولاً تنزّهه تعالى عن توهّم الاشراك.

ثمّ بيّن سرّ إيحاء الوحي إلى الرسل، وكيفية أمرهم بانذار الناس، ودعوتهم إلى التوحيد، وتخويفهم من الشرك وزجرهم عنه، ثمّ عاد إلى بيان تعاليه عن الشرك بدلالة أفعاله وصنائعه، فبدأ بذكر صنعه

---

١. تفسير القمي ١: ٣٨٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٨. ٢. تفسير أبي السعود ٥: ٩٨.

٣. تفسير الرازي ١٩: ٢٣١، تفسير أبي السعود ٥: ٩٨، تفسير روح البيان ٥: ١٢.

٤. في النسخة: تره عين، وما سمعته اُذن، وما خطر. ٥. تفسير أبي السعود ٥: ٩٨.

المتعلّق بمحيط العالم بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1]. ثمّ بيّن صنعه المتعلّق بما بينهما، فبدأ بما يتعلّق بأنفس المخاطبين، ثمّ أردفه بما يتعلّق بما فيه ضرورة معايشهم، ثمّ بما يتعلّق بمنافعهم غير الضرورية، ثمّ بيّن قدرته على ما لا يُحيط به علم البشر، وهذه غاية اللطف ونهاية الرحمة.

ثمّ نبّه على قدرته على إلجاء الناس إلى معرفته وتوحيده وسلطنته على قلوبهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى توحيده ومعارفه بالالجاء والاضطرار كما تكونون مضطرين إليه في الآخرة.

هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١٠ و ١١]

ثمّ استدلّ على توحيده وقدرته بانزال المطر وإنبات النباتات بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ بقدرته وحكمته ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ المُطلّ[2]، أو من جانب العلوّ، أو من السّحاب ﴿مَاءً﴾ نافعاً بالأمطار، فيحصل ﴿لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون ﴿وَ﴾ يتكوّن ﴿مِنْهُ﴾ بغير صنعكم ﴿شَجَرٌ﴾ ونباتٌ ذو ساق أو غير ذي ساق في البراري والجبال، وأنتم ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ وترعون مواشيكم، ومن منافع المطر أنّ الله ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ﴾ من الأرض ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الذي هو أصل أغذيتكم وعمود معاشكم ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي هو أشرف الأشجار من حيث كون ثمره إداماً من وجه وفاكهة من وجه ﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ الذي رُوي أنّها خُلقت من فضل طينة آدم، وأنّها أكرم الأشجار على الله[3] ﴿وَٱلْأَعْنَابَ﴾ التي هي بعد النخل أنفع الأشجار، وإنما جمع الأعناب للاشارة إلى[4] كثرة أصنافها، وخصّ تلك الأنواع بالذِكر للاشعار بفضلها.

ثمّ ذَكَر سائر الثّمار بنحو العموم بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ قيل: إنّما قدّم ما هو غذاء الأنعام في الذِّكر لحصوله بغير صُنع البشر، أو للاشعار بفضيلة اغتذاء الإنسان به رياضةً للنفس، أو لكون أكثر المخاطبين أصحاب المواشي دون الزرع والبستان، أو للارشاد إلى اهتمام الناس بأمر ما تحت أيديهم أزيد من الاهتمام بأمر نفسه.

ثمّ أنّه تعالى بعد تَعْداد آيات وحَدْانيته، حثّ الناس إلى التفكّر فيها بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإنبات النباتات المفصّلة والله ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وجود صانعٍ

---

١. النحل: ٣/١٦.
٢. السماء مؤنث، وقد تذكّر.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٥.
٤. في النسخة: أن.

قديرٍ ومدبّر حكيم ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتعقّلون غرائب الصنع والحكم البالغة فيها، فانّ من تفكّر في أنّ الحبّة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نَداوة تنفُذ فيها، فينشقّ أسفلها فتخرُج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض، وينشقّ أعلاها وإن كانت متنكّسة في الوقوع، ويخرُج منها ساق فيسمو، وتخرُج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والطِّباع والخواصّ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النَّمط المحرّر إلى غير نهاية مع اتحاد المولود واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثرات العلوية بالنسبة إلى الكلّ،يستدلّ على أنّ خالقها موجودٌ لا يُشبهه شيء في شيء من صفاته وكمالاته، فضلاً عن أن يشاركه الجماد الذي هو أخسّ الأشياء في الُوهيته واستحقاقه العبادة الذي هو أخصّ صفاته، ولمّا كان الاستدلال بتلك الأشياء محتاجاً إلى ترتيب مقدّمات فكرية خصّ الاستدلال بها بأهل الفكر والتدبّر.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[١٢]

ثمّ لمّا كان مجال توهّم استناد نزول الأمطار ونبت الزروع والأشجار وأثمارها إلى الحركات الفلكية واتصالات الكواكب، دفع سبحانه التوهّم بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وجعلهما متعاقبين لإنضاج ثِماركم، وتنظيم معاشكم وغير ذلك من منافعكم ومصالحكم، كأنّهما يختلفان على حسب إرادتكم ﴿وَ﴾ سخّر ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وجعلهما يدأبان في سَيرهما وإنارتهما، وإصلاح ما يُناط[١] بهما صلاحه من الموجودات التي منها بأفضل وأجمل ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع والارتفاع والانخفاض وغيرها ﴿مُسَخَّرَاتٌ﴾ لكم ودائرات في مصالحكم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته.

وحاصل الدفع أنّ الحوادث السفلية لو كانت مستندةً إلى الحركات الفلكية والكوكبية، فلابدّ أن تكون تلك الحركات مستندةً إلى محرّك، لعدم اقتضاء الجسمية للحركة، وإلّا لتحرّك كلّ جسمٍ، ولا يمكن أن يكون فلكٌ آخر، للزوم التسلسل المُحال، فوجب أن تكون مستندة إلى إرادة قادرٍ مدبرٍ حكيم وهو الله تعالى.

ثمّ لمّا كانت تمامية هذا الدليل بمقدّمات عقلية، ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأنواع دلالات على توحيد الله وعظمته ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

١. في النسخة: ينط.

وقيل: إنّه استدلال مستقلّ على توحيده، وليس متمّماً للدليل السابق؛ لأنّ المشركين لم يكونوا شاكّين في استناد الحوادث الأرضية من نزول الأمطار وإنبات النباتات إلى الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللّهُ﴾[1] وإنّما المقصود من ذكر هذا الدليل أنّ من هذا شأنه لا يجوز أن يتوهّم له شريك من الموجودات.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[١٣]

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنباتات مسخرة لكم، أو مسخّر لله تعالى حال كونه ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ وأصنافه أو تراه مختلفاً ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ التسخير والله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة واضحة على توحيد المسخّر له ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويلتفتون إلى ذلك بأدنى التفات، ولايغفلون عمّا علموا بالضرورة من العقل، فانّا نرى في حبّةٍ من العنب طبائع مختلفة؛ لقِشره طبيعة، ولعَجمه طبيعة، وللحمه طبيعة، ولمائه طبيعة، بل نرى في ورقه من الورد ألواناً مختلفة مع كونها في غاية اللطافة وكون تأثير الأنجم والأفلاك والهواء والماء والشراب فيها واحداً، والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تؤثر إلّا أثراً واحداً، فنعلم أنّ المؤثّر في هذا الاختلاف ليس إلّا الفاعل القادر الحكيم المختار.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[١٤]

ثمّ استدلّ سبحانه على توحيده بعجائب البحر بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ لكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ وجعله تحت تصرّفكم ومحلّ انتفاعكم باصطيادكم منه السمك ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ باصطياده ﴿لَحماً طَرِيّاً﴾ وعذباً لطيفاً مع كون مائه مالحاً زُعاقاً[2]، وبالغوص فيه لأجل أن تغوصوا فيه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينةً مثل اللؤلؤ والمَرجان، فتُخيطونها[3] بالثياب، ثمّ ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ فكأنها كانت زينةً ولباساً، ومحلّ انتفاعكم بالركوب وحمل الأمتعة ﴿وَ﴾ كذا ﴿تَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿مَوَاخِرَ﴾ وجاريات ﴿فِيهِ﴾ لتركبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ من رزق الله، وتطلّبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإنعامه بالتجارة وحمل الأمتعة إلى البلدان والقرى البعيدة ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ تعرفون نِعم الله و﴿تَشْكُرُونَ﴾ أفضاله بالاعتراف بتوحيده والقيام بعبادته.

---

١. العنكبوت: ٦٣/٢٩.
٢. الزُّعاق من الماء: المرّ الغليظ لا يُطاق شربه.
٣. في النسخة: فتخوطونهما.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ[١٥ و ١٦]

ثمّ استدلّ سبحانه بخلق الجبال وفوائدها وخلق الأنهار والسبل بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وجعل عليها جبالاً ﴿رَوَاسِىَ﴾ وثوابت كراهة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتميل الأرض ﴿بِكُمْ﴾ وتضطرب بحيث لا تستقرّون عليها، أو التقدير لئلّا تَميد بكم ﴿وَ﴾ جعل ﴿أَنْهَاراً﴾ كثيرةً ﴿وَسُبُلاً﴾ مختلفةً إلى البلدان والقرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم، أو إلى توحيد جاعلها ﴿وَ﴾ جعل ﴿عَلَامَاتٍ﴾ وأمارات لتعيين الطرق بالنهار من جبل ومَنْهَل.

وقيل: إنّ جماعة كانوا يَشمّون التراب ويتعرّفون السبل[١].

﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ في الليل ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في البراري والبحار إلى مقاصدهم. قيل: إنّ المراد جنس النجم[٢]، وقيل: إنّه الثُّريا والفَرقدان وبنات النعش والجَدي[٣].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ الأرض فَخَرت وقالت: أيّ شيءٍ يغلبني؟ فخلق الله الجبال فأثبتها في ظهرها أوتاداً، منعتها من أن تميد بما عليها، فذلّت الأرض وأستقرّت»[٤].

وعنه عليه السلام: «أنّ الله جعل الأئمة أركان الأرض أن تميد بأهلها»[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «لو أنّ الامام رُفِع من الأرض ساعة لمَاجَت بأهلها كما يموج البحر بأهله»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هو الجدي لأنّه نجمٌ لا يزول، وعليه بناء القبلة، وبه يهتدي أهل البرّ والبحر»[٧].

وعن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «لها ظاهر وباطن، الجدي تُبنى عليه القبلة، وبه يهتدي أهل البرّ والبحر»[٨].

وعنهم عليهم السلام: «نحن العلامات، والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله»[٩].

أقول: هذا هو الباطن.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢١.
٢ و ٣. تفسير روح البيان ٥: ٢١.
٤. الخصال: ٣٤/٤٤٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.
٥. الكافي ١: ١/١٥٢، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.
٦. إكمال الدين: ٩/٢٠٣، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧١/٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٢/٦، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.
٩. تفسير العياشي ٣: ٢٣٦٩/٥، الكافي ١: ٣/١٦١، تفسير القمي ١: ٣٨٣، مجمع البيان ٦: ٥٤٥، تفسير الصافي ٣: ١٢٩.

ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[١٧ ـ ٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال ببادئ صُنعه على توحيده، أنكر على من أشرك به الأصنام بقوله: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ**﴾ هذه المخلوقات العظيمة النافعة، أو يخلُق كلّ شيءٍ يُمكن أن يكون ﴿**كَمَن لَا يَخْلُقُ**﴾ شيئاً؟ لا والله لا يمكن أن يتوهّم العاقل تشابهاً بينهما ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ ولا تلتفتون إلى عدم التشابه الذي هو أوضح من كلّ واضح.

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر بعض نِعمه، أشار إلى عموم نِعمه بقوله: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ**﴾ عليكم ﴿**لَا تُحْصُوهَا**﴾ ولا تَقدِرون على تعدادها؛ لعدم إمكان إحاطتكم بجميعها لكَثْرتها، فانّ كلّ عرقٍ أو عصب في ـ البدن وإن كان في غاية الصِغَر ـ نعمة عظيمة، بحيث لو اختلّ أحدها ليتمنّى أن يُنفِق جميع الدنيا لإزالة ذلك الخَلل، مع أنّ الشّظاظ[1] والعروق الصغار في البدن لا يمكن إحصاؤها فكيف بالنِّعم الخارجية، فانّ جميع ذرات الموجودات دخيل في مصالحه من غذائه ولباسه وصحته وتكميل نفسه، وأنتم تكفُرون بتلك النِّعم و﴿**إِنَّ ٱللَّهَ**﴾ مع ذلك والله ﴿**لَغَفُورٌ**﴾ لكفرانكم و﴿**رَحِيمٌ**﴾ بإدامة نِعمه عليكم وعدم قطع فضله وإحسانه عنكم.

﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ**﴾ من كفران نِعمه من توطنتكم على توهين رسوله ﷺ وتخريب دينه والاستهزاء بكتابه ﴿**وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ وتَجْهَرون من عبادتكم الأصنام، وإيذاء الرسول، وصدّكم الناس عن دين الحقّ.

وقيل: إنّ وجه النَّظْم أنّه تعالى أثبت وَحْدانيته في الآيات السابقة بإثبات قدرته الكاملة، وفي هذه الآية بسَعَة علمه.

ثمّ استدلّ على عدم قابلية الأصنام للعبادة بعجزهم وعدم شعورهم بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ ويعبُدون الأصنام ﴿**مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ ومتجاوزين عنه ﴿**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً**﴾ ولا يقدِرون على إيجاد شيء ﴿**وَهُمْ**﴾ مع ذلك ﴿**يُخْلَقُونَ**﴾ بتخليق الغير.

ولو تنزّلنا عن لزوم كون الإله قادراً غير عاجز، وخالقاً غير مخلوق، فلا مناصّ من القول بلزوم كون الإله حياً غير ميت، ومن الواضح أنّ هؤلاء الأصنام ﴿**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**﴾ قيل: إنّ المراد أنّهم أمواتٌ

---

١. كذا، والظاهر: الشظايا.

لا يكون عَقيبَ موتهم حياة[١]. وأيضاً لابدّ من كونه شاعراً لعبادة عابديه عالماً بأحوالهم، وهؤلاء الأصنام لا يعلمون بأحوال أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وفي أيّ وقتٍ يُحيون ويُحْشَرون.

وإنّما ذكر سبحانه عدم شعورهم بوقت بعثهم مع أنّهم لا يشعرون شيئاً، للاشعار بأنّهم يُحشَرون لازدياد حسرة عابديهم على عبادتهم.

عن ابن عبّاس: أنّ الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها، فيُؤمر بها إلى النار[٢].

أقول: إلقاؤها في النّار ليس لتعذيبها، لأنّه لا معصية لها، بل لتعذيب عابديها.

قيل: إنّ الله وصف الأصنام بالموت وعدم الشعور مع أنّ الجماد لا يُوصَف بهما؛ لأنّ المشركين وصفوهم بالاُلوهية[٣]، فحَسُن أن يقال: ليس الأمر كذلك، بل هي أمواتٌ لا شعور لها.

وقيل: إنّ المراد أنّهم لا يشعُرون أنّ عَبَدتهم أيّان يُبعَثون[٤]، فكيف يكون لهم شعورٌ بوقت جزائهم على عبادتهم؟!

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ [٢٢ و ٢٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات التوحيد وتزييف عبادة الأصنام، أكّد توحيده في الاُلوهية بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله إلّا هو بالبراهين الساطعة والحجج الباهرة، وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوَحْدانية الله مع كمال وضوحها، إنّما هو لكونهم لا يؤمنون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يرجون ثواب الله على التوحيد، ولا يخافون عقابه على الشرك، ولذا ﴿قُلُوبُهُم﴾ تابعة لهوى أنفسهم، مصرّة على تقليد أسلافهم ونصرة أباطيلهم ﴿مُّنكِرَةٌ﴾ لكلّ حقّ يخالفه ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول قول الغير، ومترفّعون عن طاعة الرسول ﷺ.

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويُخفون من الكيد برسوله ﷺ، ويُضمِرون من التصميم على إهانة أوليائه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ويُظهِرون من تحزيب الأحزاب وإلقاء الشُّبهات في القلوب وغيرهما، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ولا يريد لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً، بل يَكِلهم إلى أنفسهم، ليظهر خبث ذواتهم، ويتناهى طغيانهم وكفرهم.

عن الباقر عليه السلام، في تأويل الآية: «﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني الرجعة ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ يعني

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٦.   ٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٦.

كافرة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن ولاية عليّ عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يعني عن ولاية علي عليه السلام»[١].

العياشي: مرّ الحسين بن علي عليهما السلام على مساكين قد بسطوا كساءً لهم، وألقوا [عليه] كِسراً، فقالوا له: هلمّ يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، فثنى وَرِكه فأكل معهم، ثمّ تلا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «من يرى أنّ له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين» فقيل: إنّما يرى أنّ له فضلاً عليه بالعافيَة إذا رآه مرتكباً للمعاصي؟ فقال: «هيهات هيهات، فلعلّه أن يكون قد غُفِر له ما أتى وهو موقوف يُحاسب، أما تَلَوت قصة سَحَرة موسى؟»[٣].

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ[٢٤ و ٢٥]

ثمّ حكى سبحانه بعض شُبهات المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ استهزاءً بالقرآن ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وأيّ شيءٍ هذا القرآن الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله، وتحدّى به، وجعله دليلاً على رسالته، والقائل بعض المشركين. وقيل: إنّه بعض المسلمين[٤]. وقيل: إنّه بعض الوَفْد من الحاجّ، قالوا للمقتسمين الذين قعدوا في طرق مكّة لينفّروا الناس عن الرسول صلى الله عليه وآله[٥]. والمراد أنّه ما هذا الذي يقال إنّه أنزله ربكم؟

﴿قَالُوا﴾ إضلالاً لهم: ليس هو ممّا أنزله الله، ولا من المعجزات، بل هو ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأقاصيص السابقين وأباطيلهم، وإنما قالوا ذلك القول الشنيع ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ على ظهورهم ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وأثقال معاصيهم ﴿كَامِلَةً﴾ وبلا نقص ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾.

قيل: إنّ المعنى أنّه يكون عاقبة إضلالهم الناس أنّهم يحملون جميع أوزار أنفسهم ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٦] لأنّ وِزْر مطاوعته كان عليه، فانّ الجاهل لا يُعذَر فيه لتقصيره في البحث والفحص.

ثمّ ذمّ سبحانه ما يحمِله بقوله: ﴿أَلَا سَاءَ﴾ وبئس وِزراً وحِمْلاً ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ وما يتحمّلون من الأثقال، وفيه غاية الزَجْر عنه.

---

١. تفسير القمي ١: ٣٨٣، تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٣/٦، تفسير الصافي ٣: ١٣٠.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٤/٧، تفسير الصافي ٣: ١٣١.
٣. الكافي ٨: ٩٨/١٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٣١.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٨، تفسير أبي السعود ٥: ١٠٧.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٦.

عن الباقر عليه السلام، قال: «﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ في عليّ؟ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ سَجَع أهل الجاهلية في جاهليتهم [فذلك قوله ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأما قوله] ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليستكملوا الكفر يوم القيامة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يعني [يتحمّلون] كفر الذين يتولّونهم»[١].

والقمي رحمه الله: يحملون آثامهم ـ يعني الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام ـ وآثام كلّ من اقتدى بهم[٢].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أيّما داعٍ دعا إلى الهُدى فاتُّبع، فله مثل اُجورهم من غير أن يُنقَص من اُجورهم شيء، وإيّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبع عليه، فانّ عليه مثل أوزار من اتّبعه من غير أن يُنقَص من أوزارهم [شيء]»[٣].

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[٢٦]

ثمّ هدّد سبحانه الماكرين برسوله صلى الله عليه وآله بمثل ما نزل على الأُمم السابقة الذين مكروا برسلهم من العذاب الدنيوي بقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ﴾ الكفّار ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الدنيا برسلهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ بزلازل شديدة ﴿بُنْيَانَهُم﴾ الذي بنوه ليمكروا به أنبياءهم فقلعه ﴿مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ والأساطين ﴿فَخَرَّ﴾ وسقط ﴿عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ الذي كان لذلك البنيان ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ فلهكوا جميعاً بحيث لم ينجّ منهم أحد ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ومن وجه لا يتوقّعون.

قيل: إنّ المراد نمرود، فإنّه بنى صَرْحاً وقصراً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه فرسخان، ليقابل[٤] عليه من في السماء ويطلّع على إله إبراهيم، فهبّت عليه ريحٌ هائلةٌ فألقت رأسه في البحر، وخرّ الباقي عليهم، فلمّا سقط الصّرح تبلبلت الألسن من الفَزَع يومئذٍ، يعني اختلفت اللغات فلم يفهم أحدٌ لسان الآخر[٥].

وقيل: إنّ الله شبّه حال أُولئك الماكرين في تسويتهم المكائد والمنصوبات التي أرادوا بها الايقاع بالرسل، وفي إبطاله تعالى تلك الحِيل والمكائد، وجعله إيّاها سبباً لهلاكهم، بحال قومٍ بنوا بُنياناً وعمّدوه بالأساطين، فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضُعْضِعت، فسقط عليهم السقف فهلكوا[٦]،

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٣٧٧/٧، تفسير الصافي ٣: ١٣١.
٢. تفسير القمي ١: ٣٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٣١.
٣. مجمع البيان ٦: ٥٤٩، تفسير الصافي ٣: ١٣١.
٤. في تفسير روح البيان: ليقاتل.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٧.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ١٠٨.

فخوّف الله الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير بأنّه سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لايحتسبون إتيانه، بل يتوقّعون ما يشتهون.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ [٢٧]

ثمّ هدّدهم بالعذاب الأخروي بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ويُذِلّهم بالعذاب، أو يفضحهم على رؤوس الأشهاد بأن يُخاطبهم ﴿وَيَقُولَ﴾ لهم تفضيحاً وتقريعاً واستهزاءً: ﴿أَيْنَ﴾ الذين هم ﴿شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُشَاقُّونَ﴾ وتُخاصمون أنبيائي وأوليائي ﴿فِيهِمْ﴾ وفي اُلوهيتهم مع أنّهم أقاموا البراهين على عدم جواز عبادتهم، فاليوم أدعوهم ليشفعوا لكم[1]، ويدفعوا العذاب عنكم؟ فلم يقدِروا على الجواب، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ الملائكة كما عن ابن عبّاس، أو المؤمنون أو الأنبياء[2] ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ بالتوحيد والمعارف في الدنيا بالبراهين والمكاشفة توبيخاً عليهم وشماتةً لهم وتقريراً لما كانوا يهدّدونهم به: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ والفضيحة والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ﴾ والعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ بالله وبآياته ورسله.

القميّ: الذين اُوتوا العلم الأئمة عليهم السلام، يقولون لأعدائهم: أين شركاؤكم ومن أطعتموهم في الدنيا[3].

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ [٢٨ و ٢٩]

ثمّ خصّ سبحانه المستحقّين للخزي والعذاب بالذين يموتون على الكفر بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون على قبض الأرواح، أو على تعذيب العُصاة حال كونهم ﴿ظَالمى أَنفُسِهِمْ﴾ باختيار الكفر وتعريضها للعذاب ﴿فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ﴾ وأظهروا الانقياد وأقرّوا لله بالعبودية وقالوا كذباً وتخليصاً لأنفسهم: ﴿مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ ونقول بالشرك. فقال الله، أو الملائكة ردّاً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قلتم بالشرك و ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وتكذيب الرسل، فيُجازيكم عليه أشدّ الجزاء، ولا ينفعكم هذا الكذب.

---

١. في النسخة: ليشفعوكم.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢١.
٣. تفسير القمي ١: ٣٨٤، تفسير الصافي ٣: ١٣٢.

ثمّ يقال لهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي بابٍ منها شئتم، أو كلّ فرقةٍ منكم من باب حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ غير خارجين منها أبداً ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول التوحيد وتبعية الأنبياء.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ [٣٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان سوء مقال الكفّار وسوء عاقبتهم، بيّن حُسن مقال المؤمنين وحسن عاقبتهم بقوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ الشرك وعصيان الرسول تفتيشاً عن دين الاسلام، وتحقيقاً عن حال القرآن ﴿مَاذَا﴾ القرآن الذي ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيّكم؟

روي أنّ أحياء العرب كانوا يبعثون أمام موسم الحجّ من يأتيهم بخبر النبيّ ﷺ، فاذا جاء الوفد لقيه[١] المقتسمون الذين اقتسموا طرق مكة، وأمروه بالانصراف وقالوا: إن لم تَلْقَه كان خيراً لك، فانّه ساحرٌ كاهنٌ كذابٌ [مجنون]. فيقول: أنا شرّ وافدٍ إن رجعت إلى قومي دون أن استطلع أمر محمدٍ وأراه. فيَلقى أصحاب النبيّ ﷺ فيخبرونه بصدقه، فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ أي من طرف الوافدين للذين آمنوا: ماذا أنزل ربكم؟ ﴿قَالُوا﴾: أنزل ربنا ﴿خَيْراً﴾ وكتاباً حقاً[٢].

ويُحتمل أن يكون المراد بالخير المعارف والأحكام المؤدية إلى كلّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، فيكون من إطلاق المسبّب على سببه، أو من باب المبالغة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم بتقوى الله فانّها تجمع الخير ولا خير غيرها، ويُدرَك بها من الخير ما لا يُدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة [قال الله عزّ وجلّ] ﴿وقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ إلى آخره»[٣].

ثمّ بيّنوا وجه الخيرية بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في العقائد والأعمال ﴿فِى هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ تكون ﴿حَسَنَةٌ﴾ في الآخرة من الجنة والنعم الدائمة والراحة الأبدية، أو المراد أنّه يكون لهم في هذه الدنيا حسنة من المدح والثناء والتعظيم والغَلَبة على الأعداء بالحُجّة والألطاف الخاصّة الإلهية والأُنس بالله والانقطاع عمّا سواه ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وأفضل من دار الدنيا، ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

وعن الباقر عليه السلام: «﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الدنيا»[٤].

---

١. في تفسير روح البيان: الوافد كفه.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩.
٣. أمالي الطوسي: ٣١/٢٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٣٨٣/٨، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.

وقيل: إنّ قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الى آخره، هو كلام الله تقريراً لقول المتقين خيراً[١].

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذٰلِكَ يَجْزِي ٱللهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ[٣١ و ٣٢]

ثمّ شرح سبحانه دار المتقين وبيّنها، قيل: كأنّه قيل: أي دار هذه الدار الممدوحة؟ فأجاب سبحانه بأنّها جنات خاصة تسمّى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾[٢] هي وسط الجنان. وقيل: يعني جنّات إقامة وخلود[٣] ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لها قصور مرتفعة وأشجار مثمرة كثيرة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة المذكورة في سورة محمّد ﷺ[٤]، و ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ﴾ من المشتهيات النفسانية والروحانية ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء الجزيل ﴿يَجْزِي ٱللهُ﴾ الكريم ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة على إيمانهم وتقواهم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ المراد بالمتقين هم الذين استمرّوا على التقوى إلى الموت بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلاَئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواح المؤمنين، وهم ملائكة الرحمة، حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ وطاهرين من دَنَس الشرك والمعاصي، أو طيبة[٥] أنفسهم بالموت، مشتاقين إلى لقاء الله ورضوانه، أو ببشارة الملائكة إياهم بالجنة.

والقمي قال: هم المؤمنون الذين طابت مواليدهم[٦]، فاذا كانوا كذلك فالملائكة ﴿يَقُولُونَ﴾ لهم تعظيماً وتبشيراً: ﴿سَلاَمٌ﴾ من الله، أو منّا ﴿عَلَيْكُمُ﴾ أيّها المؤمنون، لا خوف عليكم بعد هذا اليوم من مكروه.

وقيل: إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يُقرئك السلام[٧]، وقالت لهم [الملائكة]: إذا بعثتم في القيامة ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ فانّها معدّة لكم مشتاقة إليكم، أو قالت لهم: ادخلوا الجنة الآن ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة الله وترك المعاصي.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس أحدٌ من الناس تفارق روحه جسده حتى يعلم إلىٰ أيّ المنزلين يصير؛ إلى الجنة أم النار، أعدوّ هو لله أو وليّ، فان كان ولياً لله فُتِحت له أبواب الجنة، وشرعت له طُرقها، ونظر إلى ما أعدّ الله [له فيها] ففرَغ من كلّ شُغل، ووُضِع عنه كلّ ثِقل، وإن كان عدواً لله فُتِحت

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٤.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٥.
٣. تفسير الصافي ٣: ١٣٣.
٤. سورة محمّد ﷺ: ١٥/٤٧.
٥. في النسخة: طيبين.
٦. في تفسير القمي ١: ٣٨٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٣.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٣١.

له أبواب النار، وشرعت له طرقها، ونظر إلى ما اعدّ الله له فيها، فاستقبل كلّ مكروه ونزل كلّ شرور، وكلّ[١] هذا يكون عند الموت، وعنده يكون اليقين[٢]، قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الى آخره، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ﴾ الآية»[٣].

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[٣٣و ٣٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية طعن المشركين في القرآن الذي هو أعظم المعجزات، وتهديدهم بالعذاب، بيّن إصرارهم على الشرك والكفر مع عدم العذر لهم في ترك الايمان بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ويتوقّعون في ترك الايمان بالنبي وكتابه شيئاً ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ الموكّلون بقبض أرواحهم، أو ليشهدوا بصدقهما ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعذابه، أو حكمه بنزول العذاب، مع أنّ عند أحد الأمرين لا ينفع الايمان ﴿كَذٰلِكَ﴾ الإصرار على الكفر ومعارضة الرسول ﴿فَعَلَ﴾ الأمم الكافرة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ﴾ بتعذيبهم، لأنه كان حقّهم ﴿وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الكفر والطغيان الموجب لنهاية استحقاقهم له ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ووصل إليهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وجزاء ما فعلوا ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب الموعود.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[٣٥]

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية شبهتهم في النبوة وطعنهم في القرآن، حكى استدلالهم على صحة شركهم وبدَعهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ نحن مجبورون من قبل الله في عقائدنا وأعمالنا، فلا يصدُر منا إلّا ما أراد الله و﴿لَوْ شَاءَ ٱللهُ﴾ أن لا نعبُد الأصنام، ولا نحرّم السائبة وأخواتها ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه ﴿مِن شَىْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ﴾ فلمّا عبدنا الأصنام

---

١. في أمالي الطوسي: وترك كل سرور، كل.   ٢. في النسخة: بيقين.
٣. أمالي الطوسي: ٣١/٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٣٣، والآية من سورة النحل: ٢٨/١٦.

وحرّمنا ما حرّمنا علينا، إنّه تعالى أراد منّا تلك العبادة والحُرمة.

ثمّ أبطل الله دليلهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الاستدلال الذي فعل هؤلاء المشركون ﴿فَعَلَ﴾ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب الذي هو أدلّ الدلائل على عدم رضانه تعالى بفعلهم، وقد بلّغهم الرسل ذلك ﴿فَهَلْ﴾ الواجب ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ شيء ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والبيان الموضح للحقّ،وقد أدوا ما عليهم، ولم يكن لهم وعليهم إجبار الناس على قبول قولهم.

واعلم أنّ الآية وأضربها أدلّ دليل على بطلان القول بالجبر كما عليه الأشاعرة، والعجب من بعضهم أنّه قال: هذا الكلام، صدر عنهم استهزاءً، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً[١]. وقال آخر منهم: لو قالوه معرفة بالله وتعظيماً له، لما كان فيه عيب[٢].

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى ٱللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ[٣٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاشارة إلى تبليغ الرسل بطلان الشرك وعدم رضا الله به، وتعذيب القائلين به، صرّح بالأمرين بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولاً﴾ خاصاً بهم أو عاماً، كما بعثنا في هذه الأمّة، وكانت رسالتهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده ولا تُشركوا به شيئاً ﴿وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ﴾ وما يبعثكم إلى الطغيان من الشيطان، والدُّعاة إلى الشرك، وأمّا اُممهم فتفرّقوا ﴿فَمِنْهُم مَنْ هَدَى ٱللهُ﴾ ووفّقهم لقبول دعوة الرسل والإقرار بالتوحيد ونفي الأنداد ﴿وَمِنْهُم مَنْ﴾ شمله الخذلان و﴿حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ﴾.

عن القمي: ورسخ في قلبه الشرك فلم يتّعظ بمواعظ الرسول إلى الموت، وابتلى كثير منهم بالعذاب[٣].

فان لم تُصدّقوني ﴿فَسِيرُوا﴾ أيّها الناس ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسافروا في أطرافها ﴿فَانظُرُوا﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل وكتبهم، كي تعتبروا من مشاهدة آثار العذاب في ديارهم.

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ *

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٢.
٣. لم نجده في تفسير القمي.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[٣٧ـ٤٠]

ثمّ بيّن سبحانه رسوخ الشرك في قلوب مشركي عصر النبيّ بقوله: ﴿**إِن تَحْرِصْ**﴾ يا محمّد ﴿**عَلَىٰ هُدَاهُمْ**﴾ وتجتهد كلّ الجُهد في إيمانهم وهدايتهم، لم يفد شيئاً ﴿**فَإِنَّ**﴾ الهداية والضلالة بيد الله و﴿**ٱللهَ لَا يَهْدِي**﴾ إلى الحقّ ﴿**مَن يُضِلُّ**﴾ عنه بخذلانه، فيبتلون بالعذاب في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا ﴿**وَمَا لَهُم**﴾ أحد ﴿**مِن نَاصِرِينَ**﴾ يدافع عنهم بشفاعة أو قوة قهرية.

ثم أنّه تعالى بعد حكاية إنكارهم التوحيد، حكى إنكارهم البعث مقسمين عليه بقوله: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ وأغلظها، على أنّه ﴿**لَا يَبْعَثُ ٱللهُ**﴾ من في القبور للحساب والجزاء ﴿**مَن يَمُوتُ**﴾ في الدنيا.

قيل: إنّهم أنكروا النبوة لادعائهم لَغْويّته إذا لم يكن دار جزاء، ولمّا لا تكون دار جزاء فلا يكون نبوّة[١]، فردَ الله عليهم بقوله: ﴿**بَلَىٰ**﴾ يكون دار جزاءٍ، ويبعث الله من يموت البتة، لأنّه تعالى حسب حكمته وعد به ﴿**وَعْداً**﴾ ثابتاً ﴿**عَلَيْهِ**﴾ إنجازه، لامتناع الخُلف في وعده، وحقّ البعث عليه ﴿**حَقّاً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ بالبعث لجهلهم بقدرة الله وحكمته المقتضية لوجوبه عليه ﴿**لِيُبَيِّنَ**﴾ ويميّز ﴿**لَهُمُ**﴾ المطيع والعاصي، والمحقّ والمبطل، والظالم والمظلوم وغيرها من الحق ﴿**ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾ ويتنازعون في شأنه ﴿**وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بإنكار التوحيد والنبوة والبعث وتكذيب وعد الله ورسله ﴿**أَنَّهُمْ كَانُوا**﴾ في الدنيا ﴿**كَاذِبِينَ**﴾ في جميع[٢] ما يقولون، وفي حَلْفهم بالله على عدم البعث.

ثمّ استدلّ سبحانه بكمال قدرته على إمكان البعث بقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ**﴾ جليل أو حقير أو عزيز أو هيّن ﴿**إِذَا**﴾ اقتضى الصلاح وجوده و﴿**أَرَدْنَاهُ**﴾ هو ﴿**أَن نَقُولَ لَهُ كُن**﴾ ونُفيض عليه الوجود ﴿**فَيَكُونُ**﴾ ويوجد بلا حاجة إلى مادة ومدّة ومُعِين وآلة ودفع مانع ومعارض، فمن كان نفاذ إرادته بهذه المثابة، كيف يمتنع عليه إعادة الخلق بعد إيجادهم أولاً بغير مثال مع أنّ الاعادة أهون؟.

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنّه قال لأبي بصير: «ما تقول في هذه الآية ﴿**وأقسموا بالله جَهد**

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٣١.

٢. في النسخة: جمع.

أيمانهم﴾؟» قال: إنّ المشركين يَزعُمون ويَحلِفون بالله أنّ الله لا يبعث الموتى. فقال: «تباً لمن قال هذا، سلهم هل كان المشركون يحلِفون بالله أم باللات والعزّى؟».

قال: قلتُ: جُعِلت فداك، فأوجدنيه. فقال: «يا أبا بصير، لو قد قام قائمنا بعث الله قوماً من شيعتنا[١]، سيوفهم على عواتقهم، فيبلغ [ذلك] قوماً من شيعتنا لم يموتوا ويقولون: بُعِث فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم، فيبلُغ ذلك قوماً من عدوّنا فيقولون: يا معشر الشيعة، ما أكذبكم! هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب؟ لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة. [قال:] فحكى الله قولهم فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبعَثُ ٱللهُ مَن يَمُوتُ﴾»[٢]

وفي رواية العياشي عنه عليه السلام ما يقرُب من ذلك[٣].

والقمي عنه عليه السلام أنّه قال: «ما يقول هؤلاء في هذه الآية»؟ قيل: يقولون نزلت في الكفّار. قال: «إنّ الكفار لا يحلِفون بالله، وإنّما أُنزلت في قوم من أُمّة محمّدٍ قيل لهم: ترجِعون بعد الموت قبل يوم القيامة، فيحلِفون أنّهم لا يرجِعون، فردّ الله عليهم فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ يعني في الرجعة يرُدّهم فيقتُلهم ويشفي صدور قوم مؤمنين»[٤].

أقول: الظاهر أنّ المراد في الروايات بيان تأويل الآية، والمراد من قوله: «تباً لمن قال هذا» يعني قال بانحصار المراد فيه.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[٤١]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه سوء عقائد المشركين، أشار إلى سوء معاشرتهم للمسلمين وإيذائهم لهم، ورغّبهم في الهجرة من بلادهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من مكة وأوطان المشركين من المسلمين ﴿فِى﴾ سبيل ﴿ٱللهِ﴾ وطلباً لرضاه، وحفظاً لدينه ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وأُوذوا في سبيلي ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ ولننزلنّهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مباءةً[٥] ومنزلةً ﴿حَسَنَةً﴾ مرضيّة. قيل: هي المدينه المنورة حيث آواهم أهلها ونصروهم[٦].

روي عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في ستة نفرٍ من الصحابة: صُهيب، وبلال، وعَمّار، وخَبّاب،

---

١. زاد في الكافي: قباع، وفي الصافي: قبايع، والمراد جمع قَبيعة: وهي ما على طرف مَقبِض السيف من فِضّة أو ذهب.
٢. الكافي ٨: ١٤/٥٠، تفسير الصافي ٣: ١٣٥.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٣٨٥/٩.
٤. تفسير القمي ١: ٣٨٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٥.
٥. في النسخة: مبواتا.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤، تفسير روح البيان ٥: ٣٦.

وعابس وجُبير موليين لقريش، فجعلوا يعذّبونهم ليردوهم عن الاسلام، أمّا صُهيب فقال لهم: إنـي رجلٌ كبير، إن كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضُرّكم، فافتدى منهم بماله، فلمّا رآه أبو بكر قال: ربح البيع يا صهيب، وأمّا سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام، فتركوا عذابهم، ثمّ هاجروا[١].

وقيل: نزلت في المهاجرين إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة، فجمعوا بين الهجرتين[٢].

رُوي أنّ رسول الله ﷺ لمّا رأى ما نزل بالمسلمين من توالي العذاب عليهم من كفّار قريش، قال لهم: «تفرّقوا في الأرض، فانّ الله سيجمعكم». قالوا: إلى أين نذهب؟ قال: «اخرجوا إلى الحبشة، فان بها مَلِكاً عظيماً لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ، حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه». فهاجر إليها ناسٌ ذو عدد، قيل: كانوا فوق ثمانين، مخافة الفتنة وفِراراً إلى الله تعالى بدينهم[٣].

ثمّ وعدهم بالأجر الاخُروي بقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدّ لهم بإزاء الهجرة ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ممّا يعجّل لهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عِظم قدَر أجر الآخرة لازدادوا في الصبر والمجاهدة.

وقيل: إنّ ضمائر الجمع راجعةٌ إلى الكفار، والمعنى: لو عَلِم الكفّار أنّ الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدار لكفّوا عن أذاهم ووافقوهم في الدين[٤].

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُم لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[٤٢ـ٤٤]

ثمّ وصف الله المهاجرين ومدحهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين ومفارقة الوطن الذي هو حرم الله، والمجاهدة ببذل الأموال والأنفس وسائر الشدائد في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم خاصّة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جميع اُمورهم.

ثمّ لمّا كان من شبهات المشركين في النبوة أنّ الله أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله بشيراً، بل لو أراد إرسال رسولٍ لأرسل مَلَكاً من الملائكة، لأنّهم أشرف من البشر وإخباره أقرب إلى القبول، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى سائر الأمم ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثتك رسلاً ﴿إِلَّا﴾ كانوا ﴿رِجَالاً﴾ من البشر يأكلون ويشربون وينكَحون، والمائز بينهم وبين غيرهم أنّا ﴿نُوحِي

١. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٣٤، تفسير البيضاوي ١: ٥٤٥، تفسير أبي السعود ٥: ١١٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٦.

﴿إِلَيْهِمْ﴾ بواسطة المَلَك، وقل يا محمّد لهم: إن لم تصدّقوا ذلك ﴿فَسْئَلُوا﴾ عن صدق ما أخبركم ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ والعلم بأحوال الرسل الماضية والكتب السماوية حتى تعلموا صدق ما أخبركم به ﴿إِن كُنتُم﴾ في الواقع ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ بذلك.

ثمّ كأنّ قائلاً قال: بما أرسل الرجال المُوحى إليهم؟ فأجاب سبحانه: ﴿بِالبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ والكتب.

وقيل:إنّ الجار والمجرور متعلّقان بـ(نوحي) والمعنى: نوحي إليهم بالبينات[1] من العلوم والمعارف والأخلاق والأحكام، وبالزُبُر والكتب السماوية. أو متعلّقان بـ(تعلمون) والمعنى: إن كنتم لا تعلمون بالكتب السماوية والدفاتر المعروفة المتضمّنة لِذكر أحوال الأنبياء السابقة.

قيل: إنّهما متعلّقان بـ(الذِكر) والمعنى: فأسألوا أهل الذِكر بالبينات والزُبر، إن كنتم لا تعلمون بها[2].

عن الباقر عليه السلام، قيل له: إن من عندنا يزعُمون أنّ قول الله: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أنّهم اليهود والنصارى؟ قال: «اذاً يدعوكم[3] إلى دينهم» ثمّ أومأ إلى صدره وقال: «نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون»[4].

وعن السجاد عليه السلام: «على الائمة [من] الفرض ما ليس على شيعتهم، وعلى شيعتنا ما ليس علينا، أمرهم الله أن يسألونا، قال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُم لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأمرهم أن يسألونا، وليس علينا الجواب، إن شئنا أجبنا، وإن شئنا أمسكنا»[5].

أقول: لا شبهة أنّ الآية في المحاجّة مع المشركين وإلزامهم على ما هو طريقة العقلاء من رجوع الجاهل إلى العالم، والمراد بالعلماء في عصر النزول هم المطّلعون على أحوال الرسل، فلابدّ من حمل الروايتين على بيان عدم اختصاص أهل الذكر بعلماء أهل الكتاب، بل المراد عموم العلماء، ووجوب السؤال عنهم عن جميع المطالب، فلو وجب الرجوع إلى أهل الكتاب في جميع المطالب حتى الأحكام لأجابوا بأحكام دينهم ودعوكم إلى العمل بها، فالمؤمنون مأمورون بالسؤال من علماء الاسلام، والأئمّة أظهر مصاديقهم، بل هم المتعيّنون من بينهم؛ لأنّ علمهم مأخوذٌ من الرسول والقرآن، وعلم غيرهم مأخوذٌ من أفواه الرجال.

عن الرضا عليه السلام: «قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللهِ﴾[6] فالذكر

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٠: ٣٧.
٣. في البصائر: يدعونهم.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩١/١١، بصائر الدرجات: ١٧/٦١، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.
٥. الكافي ١: ٨/١٦٥، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.
٦. الطلاق: ١٠/٦٥ و١١.

رسول الله ﷺ، ونحن أهله»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «الذكر القرآن، وأهله آل محمّد ﷺ»[٢].

أقول: يُحتَمل أن يكون المراد بيان شرفهم لا تفسير هذه الآية.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الرسول نفسه أهل الذكر بقوله: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ**﴾ والقرآن الذي هو تذكرة وتنبيه للغافلين ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ**﴾ كافة من العرب والعجم، والأسود والأبيض ﴿**مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ من ربّهم من العلوم والمعارف والأحكام وأحوال الماضين، وهلاك كثير منهم بالعذاب، بتلاوة هذا الكتاب عليهم، ﴿**وَ**﴾ توضيحك لمعانيه ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ في مطالبه العالية من المعارف والمواعظ والعِبر، وما فيه من وجوه الإعجاز حتّى يرتدعوا عمّا هم عليه من الكفر واللّجاج واتّباع الشهوات، ويُؤمنوا بتوحيد الله وصحّة نبوتك وصدق كتابك.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ[٤٥ـ٤٧]

ثمّ هدّد المشركين الماكرين بالرسول ﷺ الساعين في الفساد بين المسلمين بقوله: ﴿**أَفَأَمِنَ**﴾ المشركون ﴿**ٱلَّذِينَ مَكَرُوا**﴾ بالنبيّ ﷺ المكر ﴿**ٱلسَّيِّئَاتِ**﴾ وسعوا خفية في إيذائه وإطفاء نوره من ﴿**أَن يَخْسِفَ ٱللهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ**﴾ كما خسفها بقارون لإيذائه موسى عليه السلام ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ**﴾ كالصيحة والصاعقة من السماء ﴿**مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ به ولا يترقبون له ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ**﴾ الله ويأتيهم بالعذاب وهم ﴿**فِى**﴾ حال ﴿**تَقَلُّبِهِمْ**﴾ وذهابهم وإيابهم في الأسفار والتجارة وتنظيم اُمور الدنيا.

وقيل: يعني في حال تفكّرهم في طرق المكر ووجوه الكيد بك[٣].

﴿**فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ الله من تعذيبهم بالهرب منه، أو التحصّن بحصن منيع، أو معارضتة بالأنصار ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ**﴾ بالعقوبة، وهو ﴿**عَلَىٰ**﴾ حال ﴿**تَخَوُّفٍ**﴾ وتحذّر من العذاب الذي رأوا ابتلاء قومٍ به فصاروا وجلين من ابتلائهم به، أو على أن ينتقصوا في أنفسهم وأموالهم شيئاً فشيئاً حتّى يهلِكوا، والمراد من ذكر الوجوه المذكورة بيان قدرته تعالى على إهلاكهم بأيّ وجهٍ، ولمّا كان حال التقلّب

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٣٧.
٢. تفسير الصافي ٣: ١٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٣٨.

والتخوّف معرضاً للفِرار، عبّر عن إصابتهم بالعذاب بالأخذ، وفي غيرهما بالاتيان.

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة إمهالهم وتأخير عذابهم بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها المشركون والله ﴿لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة، ويُمهلكم مع كمال الاستحقاق لها.

أَوَلَم يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ[٤٨]

ثمّ لمّا هدّد سبحانه المشركين بأنواع العذاب، وكان الخوف متوقّفاً على العلم بكمال القدرة، بيّن سَعَة قدرته، ويحتمل أن يكون وجه النظم أنّه تعالى بعد تهديد المشركين بيّن كمال قدرته ونهاية عظمته ومهابته، ازدياداً للرعب في القلوب بقوله: ﴿أَوَلَم يَرَوْا﴾ والتقدير على الأول: ألم يتبيّن لهم كمال قدرة الله ولم يروا، وعلى الثاني: ألم يخافوا الله، ولم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللهُ مِن شَيْءٍ﴾ له ظِلّ كيف ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ ويرجع ﴿ظِلَالُهُ﴾ وفيؤه شيئاً فشيئاً ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ إلى الشمائل ﴿وَ﴾ عن ﴿ٱلشَّمَائِلِ﴾ حال كونهم[١] ﴿سُجَّداً﴾ ومنقادين وخاضعين ﴿لِلّهِ﴾ مقهورين لإرادته ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وصاغرون ومذلّلون تحت مشيئته، وإنّما أضاف سبحانه الظِلال إلى ضمير المفرد مع أنّ المراد ذوي الظلّ وهي كثيرة اعتباراً بلفظ الشي، كما أنّ توصيف الظِلال بالجمع وإرجاع ضمير الجمع إليه اعتباراً بمعنى الظِلال، وهو كثير.

وقيل: إنّ المراد باليمين يمين الفَلَك، وهو المشرق، لكونه أقوى الجانبين[٢] منه؛ لأنّ منه تظهر الحركة القوية للفلك، فاذا طلعت الشمس حدث لكلّ شيءٍ قائمٍ على وجه الأرض ظلٌّ في طرف المغرب، وهو شمال الفَلَك، فكأنّه رجع من اليمين الى الشمال، فكلّما ارتفعت الشمس ينقُص ذلك الظِلّ ويرجِع شيئاً فشيئاً إلى أن تبلُغ وسط الفَلَك، فحينئذٍ ينعدم من الطرف، ويحدُث أو يرجع في طرف المشرق، وهو معنى (عن ٱلشَّمَائِلِ) ثمّ يزداد شيئاً فشيئاً، فالرجوع من طرف اليمين واحد، وهو حدوث الظِلّ في أوّل طلوع الشمس أو أوّل الزوال، ومن طرف الشمال كثير باعتبار نقاط الأرض حين النقص، ولذا أفرد لفظ اليمين وجمع الشمال، ولعلّ إلى ماذكرنا يرجِع ما قيل من أنّ إفراد لفظ اليمين لأنّ نقطة مشرق الشمس واحدة، وأمّا الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الظلال بعد وقوعها على وجه الأرض، وهي كثيرة[٣].

وقيل: إنّ لكلّ شيءٍ يميناً وشمالاً، وهما جانباه، استعارة من يمين الانسان وشماله، وذكر اليمين

---

١. في النسخة: كونها. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ٤١. ٣. تفسير الرازي ٢٠: ٤٢.

مفرداً والشمال جمعاً، لأنّ العرب إذا ذكرت صيغتي الجمع عبّرت عن أحدهما بلفظ المفرد[١].

وأمّا سجود الأظلال فهو انقيادها واستسلامها لإرادة الله المتعلّقة بحركات الشمس موافقةً للحكمة وحسن النظام. وقيل: إنّه انبساطها على وجه الأرض ملتصقةً بها كهيئة الساجد[٢]. ولذا قيل: ظِلّك يسجُد لله وأنت لا تسجُد له[٣].

وأمّا إرجاع ضمير العقلاء إليها مثل: (هم) و(الواو والنون) فلاسناد فعل العقلاء إليها، ويمكن أن يكون بلحاظ أنّ جميع الموجودات في نظره تعالى شاعرون عاقلون، وإن كانوا في نظر الظاهر غير شاعرين.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَابَّـةٍ وَٱلْـمَلَائِكَةُ وَهُـمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[٤٩ و ٥٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر سجود الظِلال لعظمته، ذكر سجود الحيوانات والملائكة له بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ العظيم وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ ويخضع ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثمّ بيّن أنّ المراد بما في الأرض بقوله: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وكلّ ما يتحرّك على وجه الأرض، كما عن ابن عبّاس[٤].

ثمّ بيّن المراد بما في السماوات بقوله: ﴿وَٱلمَلَائِكَةُ﴾.

وقيل: إنّ المراد من الدابة كلّ ما يتحرّك بالإرادة[٥] فيشمُل الملائكة.

وقيل: إنّ المراد بما في السماوات جميع ما خلق فيها. وعلى القولين يكون ذكر الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام إظهاراً لشرفهم وفضلهم.

وقيل: إنّ المراد بما في السماوات الخلق الذي يقال له الروح، والمراد من الملائكة جميعهم[٦].

وقيل: إنّ المراد من ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ ملائكة السماوات، ومن ﴿ٱلمَلَائِكَةُ﴾ المذكور في الآية ملائكة الأرض كالحَفَظة وغيرهم[٧].

﴿وَهُمْ﴾ مع عِظَم خلقهم وعلوّ شأنهم ورِفْعة مقامهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود لله وغاية الخضوع له و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ ومليكهم الذي هو ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ بالقهر والغَلَبة خوف المهابة والإجلال.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٤٣، تفسير أبي السعود ٥: ١١٨.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٤٣.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٤٤.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٤١.
٦ و٧. تفسير أبي السعود ٥: ١١٩.

وقيل: يعني يخافون ربّهم من أن يُرسِل عليهم عذاباً من فوقهم[١]. وعلى التقديرين هو تقرير لقوله: من يخاف الله لا يستكبر عن عبادته.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به من الطاعات والتدبيرات، وإنما لم يذكُر الآمر وهو الله لمعلوميته، ولإظهار العَظَمة والجلالة.

عن النبيّ ﷺ: «أنّ لله ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم الله إلى يوم القيامة، تَرعَد فرائصهم من مخافة الله، لا تقطُرُ من دموعهم قطرةٌ إلّا صارت مَلَكاً، فاذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: ماعبدناك حقّ عبادتك»[٢].

وَقَالَ ٱللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ[٥١]

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات توحيده، وبيان عظمته وقدرته ومهابته، نهى عن الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللهُ﴾ لجميع العقلاء بلسان جميع رسله ودلالة آيات توحيده ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ مع الله إلٰهاً آخر، فيكون مختاركم في العبادة ﴿إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بداهة كون التعدّد والتثنّي منافياً للألوهية التي لا تكون إلا لواجب الوجود الذي يمتنع أن يجامع الحدود التي هي تُلازم الاثنينية، فإذا ثبت ذلك فالٰهكم ومعبودكم بالاستحقاق ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا نِدّ، فاذا علمتم أيّها الناس توحيدي وقدرتي وعظمتي وعدم رضاي بالاشتراك، إن كنتم راهبين من شيء ﴿فَإِيَّاىَ﴾ خاصة ﴿فَارْهَبُونِ﴾ لعدم قدرة أحد على الاضرار على أحد مع سلطنتي في عالم الوجود وقاهريّتي على جميع الممكنات، وإنما عدَل سبحانه من الغيبة إلى الحضور لتربيتة المهابة في القلوب.

وَلَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[٥٢ـ٥٥]

ثمّ بالغ سبحانه في تقرير ألوهيّته وعظمته بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وتدبيراً وسلطاناً ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ والطاعة والانقياد ﴿وَاصِباً﴾ وواجباً كما عن الصادق عليه السلام[٣]، أو دائماً أو ثابتاً[٤].

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٤٥، تفسير البيضاوي ١: ٥٤٦، تفسير أبي السعود ٥: ١١٩.
٢. مجمع البيان ٦: ٥٦٢، تفسير الصافي ٣: ١٣٩.　　٣. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩٦/١٣، تفسير الصافي ٣: ١٤٠.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٤٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٢، وفيه: واجباً ثابتاً.

وقيل: إنّ له الدين ذا كُلفة، أو له الجزاء الذي لا انقطاع له[١] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ بعد تقرير الشؤون المذكورة له ﴿تَتَّقُونَ﴾ وتطيعون.

ثمّ أكدّ استحقاقه الطاعة والعبادة بقوله: ﴿وَمَا﴾ أحاط ﴿بِكُم﴾ أو يكون لكم شيء ﴿مِن نِعْمَةٍ﴾ أيّ نعمة كانت ﴿فَمِنَ﴾ فضل ﴿ٱللَّهِ﴾ هي لا من غيره.

عن الصادق عليه السلام: «من لم يعلم أنّ لله عليه من نعمة [إلّا] في مَطْعَم أو مَلْبَس، فقد قصر عمله ودنا عذابه»[٢].

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أقل مَساس ﴿فَإِلَيْهِ﴾ تعالى خاصه ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ وتتضرعون في كشفه عنكم، وبه تستغيثون بصوتٍ عالٍ لخلاصكم منه.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ بعد تضرّعكم إليه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِمْ﴾ ومالكهم اللطيف بهم ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مع أنّ ترتيب الشرك الذي هو أبغض عنده من كلّ سوء على إنعامه عليهم بالنِّعم الكثيرة وإعانتهم في كشف الضُرّ غاية الكفران ونهاية القباحة، بل كأنّهم لشِقاقهم معنا اختاروا الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾ من النِّعم وكشف الضُرّ.

ثمّ هدّدهم على كُفرانهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الفرقة الكافرة، وانتفعوا باللذائذ الدنيوية أياماً قليلة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة كُفرانكم، وهو ابتلاؤكم بأشدّ العذاب، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أذان بغاية السَّخَط، وتأكّد الوعيد المنبئ عن الأخذ الشديد.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ[٥٦ و ٥٧]

ثمّ ذمّهم على كُفرانهم الآخر المُشعِر بغاية سَفَههم بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التي اتّخذوها شركاء لله، أو لايعلمون اُلوهيته، أولا يعلمون في عبادته نفعاً ولا ضراً، أو لا يعلمون له حقاً ﴿نَصِيباً﴾ وسهماً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من الزرع والأنعام تقرباً إليه ﴿تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ﴾ أيّها السُّفهاء يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَفْتَرُونَ﴾ على الله من قولكم بأنّه اتّخذ الأصنام شُركاء لنفسه، ورضي بالتقرب إليها.

ثمّ ذكر سبحانه كُفرانهم الآخر بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ﴾ ويقولون: إنّ الملائكة بنات الله، وهم

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٥٤٧، تفسير أبي السعود ٥: ١١٩ و١٢٠.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨١، تفسير الصافي ٣: ١٤٠.

خُزاعة وكِنانة على ما قيل[١]. والقمي: هم قريش[٢].

ثمّ نزّه سبحانه ذاته المقدسة عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتقدّس من تلك النسبة، وقيل: إنّ المراد منه إظهار التعجّب من هذا القول الشنيع[٣].

ثمّ كأنّه قال سبحانه: كيف يجعلون لله البنات اللاتي هم يكرهونهنّ ﴿وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين؟!

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[٥٨و٥٩]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة كراهتهم لهنّ بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ وأُخبر بولادتها له ﴿ظَلَّ﴾ وصار أو دام نهاره كلّه ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من شدّة الغمّ وتشويش الخاطر والحَياء من النّاس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ومملوء غيظاً على امرأته لأجل ولادتها، هذا حاله، وأمّا عمله فهو أنّه ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ ويختفي ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ الذي هو فيهم ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾.

قيل: كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطّلق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يُولَد له، فإن كان ذكراً ابتهج به، وإن كان انثىٰ حَزِن ولم يظهر للناس أياماً، يدبّر فيها أنه ما يصنع بما ولد له[٤] ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ ويبقيه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ وإذلال له.

عن ابن عبّاس: معناه أنّه يُمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه[٥].

﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ ويستُره ﴿فِي التُّرَابِ﴾ قيل: إنّ العرب[٦] كانوا يحفِرون حفيرةً ويجعلونها فيها حتى تموت[٧].

وروي أن قيس بن عاصم قال: يا رسول الله، إنّي واريت ثماني بنات في الجاهلية؟ فقال ﷺ: «أعتق عن كلّ واحدة منهنّ رقبة»[٨].

ثمّ أعلن سبحانه نسبة البنات إليه مع أبائهم عن نسبتها إلى أنفسهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيّها العقلاء

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٥٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٢١، تفسير روح البيان ٥: ٤٣.

٢. تفسير القمي ١: ٣٨٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٠. ٣. تفسير أبي السعود ٥: ١٣١.

٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ٥٥.

٦. وأد البنات ليست من العادات المتفشية عند جميع عرب الجاهلية، بل هي خاصة بمضر وخزاعة وتميم دون باقي القبائل. راجع: تفسير القرطبي ١٠: ١١٧. ٧ و٨. تفسير الرازي ٢٠: ٥٥.

أنه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به من أنّ لله البنات اللاتي هذا محلهنّ عندهم، واختيار البنين لأنفسهم.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[٦٠]

ثمّ لمّا كان الاحتياج إلى الولد من صفات الممكنات، نبّه على مباينة صفاته تعالى لصفات خلقه بقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ والصفات الامكانية الذميمة من الحاجة إلى الولدوالفرَح بالذكور وكَراهة البنات ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواجب الوجود ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ من مثل الممكنات والصفة الفائقة على صفات الكائنات من وجوب الوجود الملازم للكمال من جميع الجهات والتنزّه عن الحاجة إلى الولد وعن سائر النقائص ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيءٍ، القادر على إنفاذ إرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما هو الأصلح، فيجازيهم على أحكامهم السيئة وأعمالهم القبيحة حسب استحقاقهم وشَناعة أعمالهم.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ[٦١]

ثمّ بيّن الله تعالى تفضّله عليهم بتأخير عذابهم مع غاية استحقاقهم له بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ ويعاقبهم على كُفرانهم وعصيانهم في الأرض ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ شيئاً ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ ومتحرّكٍ بالإرادة، أمّا الانسان فبظلمه[١]، وأمّا سائر الحيوانات فلأنّها خُلِقت للانسان، فإذا هَلَك الانسان فلا فائدة في وجود الحيوانات، أو لأنّ الانسان إذا هَلَك انقطع المطر والنبت.

عن أبي هُريرة: أنّه سَمِع رجلاً يقول: الظالم لايضُرّ إلّا نفسه فقال: لا والله، بل إنّ الحُبارى[٢] لتموت في وَكْرها بظلم الظالم[٣].

وعن ابن مسعود: أنّه قال: كاد الجُعَل[٤] يهلِك في جُحره بذنب ابن آدم[٥]. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويُمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وانقضاءالعمر المقدّر لهم، ليتوالدوا ويخرج من أصلابهم الذراري

---

١. في النسخة: فبظلمهم.
٢. الحُبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٥٩، تفسر أبي السعود٥: ١٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٤٥.
٤. الجُعَل: حشرة كالخُنفساء تكثر في المواضع الندية.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٥٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٤٥.

الذين اقتضت الحكمة وجودهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمّى، وانقضاء عمرهم المقدّر، وبلغ وقت هلاكهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾، ودقيقة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ * تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٦٢ و ٦٣]

ثمّ أكّد سبحانه ذمّهم بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويُثبتون ﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من الشريك والبنات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ وهو قولهم: ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ العاقبة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ من الجنّة والنِّعم، إن كان حشرٌ في الآخرة. وقيل: هذا قول المقرّين بالبعث[١].

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ ومتروكون أو منسيون فيها، أو معجّلون إليها.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان غاية جهل هذه الأمّة، أخذ في تسليّة نبيه ﷺ بقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً كثيرةً ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ﴾ كثيرة ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمّة، فدعوهم إلى دين الحقّ كما دعوتهم إليه ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من إنكار التوحيد والنبوة والمعاد وتكذيب الرسل والاستهزاء بهم، ولذا لم يجيبوا الرسل، وثبتوا على ما هم عليه بتسويل الشيطان ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ وقرينهم أو مطاعهم ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي يكذّبون الرسل أو يدعوهم النبيّ إلى دينه، والمعنى: زيّن الشيطان أعمال الكفّار في الأعصار السابقة في نظرهم، وهو وليّ الكفّار في عصرك، أو المراد من اليوم الدنيا أو القيامة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[٦٤ و ٦٥]

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد الكفّار بيّن تمامية الحجّة عليهم بإنزال القرآن بقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العظيم لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد والنبوة والمعاد والحلال والحرام ﴿وَ﴾ ليكون ﴿هُدًى﴾ لهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسبباً للفوز بالمقامات

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٦٠.

العالية الانسانية والدرجات الرفيعة في الجنّة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ القرآن العظيم رافعٌ للاختلاف، وكان من أعظم ما اختلف فيه هو التوحيد، شرع في الاستدلال عليه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأنبت به فيها أنواع النبات بعد يُبسها ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإحياء الأرض والله ﴿لَآيَةً﴾ ودلائل واضحة ﴿لِقَومٍ يَسْمَعُونَ﴾ تلك الدلائل سَماع تدبّر وإنصاف.

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ[٦٦]

ثمّ استدلّ سبحانه على توحيده بعجائب أحوال الحيوانات بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِى ٱلأَنْعَامِ﴾ الثلاثة[١] والله ﴿لَعِبْرَةً﴾ ودلالة مؤدّية إلى العلم بالحقّ، وهي أنّا ﴿نُسْقِيكُم﴾ ونشربكم ﴿مِمَّا فِى بُطُونِهِ﴾ وبعض ما في أجوافه ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وسِرجين ﴿وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ صافياً من أجزائهما وأوصافهما و﴿سَائِغاً﴾ وسهل المرور في الحلق ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ قيل: خلق الله اللّبن في مكانٍ وسطٍ بين مكان الفَرْث ومكان الدم[٢].

وعن ابن عبّاس: إذا استقرّ العَلَف في الكَرِش صار أسفله فَرْثاً، وأعلاه دماً، وأوسطه لَبناً، فيجري الدم في العروق، واللّبن في الضّرع، ويبقى الفَرْث كما هو، وذلك هو قوله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ لا يشوبه الدم ولا الفَرْث[٣].

قيل في توجيهه: إنّ اللّبن يكون من صافي الغذاء والعلف المنجذب إلى الكَبِد، فبعد تصرّف الكَبِد فيه يجري إلى الضّرع مقدارٌ منه فيصير لَبناً، والزائد عليه يجري في الأوردة[٤].

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس أحدٌ يَغَصّ بشرب اللّبن؛ لأنّ الله عز وجلّ يقول: ﴿لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً﴾»[٥].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهمّ بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه. وإذا شرب لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فانّي لا أعلم شيئاً أنفع في الطعام والشراب منه»[٦].

وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذٰلِكَ

---

١. وهي الإبل والبقر والضأن.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٦٤/المسألة الثالثة.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٤٩.
٥. الكافي ٦: ٥/٣٣٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٢.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٨.

لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٦٧]

ثمّ استدلّ سبحانه على توحيده بعجائب حالات النباتات ومنافعها بقوله: **﴿وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ﴾** نَسقيكم ونُطعمكم، حيث إنّكم **﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾** لانتفاعكم **﴿سَكَراً﴾** وخمراً.

عن الصادق عليه السلام: «أنّها نزلت قبل آية التحريم فنُسخت بها»[1]. وقيل: إنّها لا تدلّ على حِلّيته، لأنّ الخطاب للمشركين، وكان الخمر من أشربتهم[2]، بل أشار سبحانه إلى حُرمته بقوله: **﴿وَرِزْقاً﴾** وطعاماً **﴿حَسَناً﴾** من الرُّبّ[3] والخَلّ والدِّبس وغيرها، فإنّ توصيف الرزق بالحَسن في مقابل السُّكَر مع كونه حسناً عند العرب بمقتضى الشهوة، يدُلّ على عدم كون السُّكر حَسناً بحسب الشرع.

وقيل: إنّ المراد بالسُّكر الخَلّ، وعليه القمّي[4] وقيل: إنّ المراد به مطلق الطعام[5].

ثمّ لمّا ذكر تلك النِّعم التي يكون كلّ واحد منها دليلاً قاطعاً على توحيده، حثّ العقلاء على التفكّر فيها بقوله: **﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾** المذكور **﴿لَآيَةً﴾** عظيمةً ودلالةً واضحةً على التوحيد **﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** فإنّهم إذا التفتوا إليها، عَلِموا بالضّرورة أنّ المدبّر ليس إلّا الواحد الحكيم القدير.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٦٨ و ٦٩]

ثمّ استدلّ سبحانه بعجائب حالات النحل وإخراج العسل منها، وهو مركّب من عجائب الحيوان والنبات بقوله: **﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾** وزُنبور العَسَل، بأن ألهمها وعلّمها وقرّر في نفسها **﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾** لنفسك **﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً﴾** ومساكن تأوي إليها **﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾** ويرفعونه من الأرض من كَرم أو سَقف أو جِدار.

وقيل: كلّ ذُبابٍ في النّار إلّا ذُباب العَسَل[6]. وإنّما سمّيت نحلاً لأنّ الله تعالى نَحَل الناس العَسَل الذي يخرُج منها، ومن عجائبها أنّها تبني بيوتاً مُسدّسة متساوية الأضلاع لا يزيد بعضها على بعض بحيث لا يبقى بينها فُرج خالية، ولو كانت مُشكّلة بغيرها لبقيت بينها بالضّرورة فُرج خالية ضائعة.

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٣٩٩/١٤، تفسير الصافي ٣: ١٤٢. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ٦٨.
٣. الرُبّ: عصارة التمر والعنب المطبوخة. ٤. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٢.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٦٨، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٠، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٥. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٥٠.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان مسكنها بيّن مأكولها بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ التي عندك من الحُلو والحامض، فتأكُل الأجزاء اللطيفة الحُلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمُصّ الثمرات الرطبة والأشياء العَطِرة، فيُوحي إليها أنّك إذا أكلت الثِّمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ والطُّرق التي ألهمك الرجوع فيها إلى بيوتك التي في الجبال والشجر وغيرهما، حال كون تلك السُّبل ﴿ذُلُلاً﴾ وسهلة السلوك فيها بلا اشتباه ولا انحراف، وفي ذكر ربك وإضافة السُّبل إليه إشعار بأنّه لولا تربيته تعالى لما اهتديت إليها.

ثمّ بيّن الله تعالى نتيجة الالهامات بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا﴾ بالقئ﴿شَرَابٌ﴾ وعسل مائع ﴿مُخْتَلِفٌ أَلوانُهُ﴾ حسب الاختلاف بين النحل كما قيل، فالشابّ منها يقيء الأبيض، وكَهْلها يقيء الأصفر، وشِيبها تقيء الأحمر[١]، وقد يكون الاختلاف بسبب اختلاف لون مأكولها، وخاصيّته أن ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ عظيم ﴿لِلنَّاسِ﴾ وبُرء من الأوجاع التي يُعرَف شِفاؤها منه.

وقيل: هو إما شِفاء بنفسه كالأمراض البلغمية، وإما مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما مَعْجون إلّا والعسل جُزء منه[٢].

وقيل: إنّه بنفسه أو مع الخَلْط بالأدوية الحارة شِفاء للأمراض البلغمية، ومع الخَلْط بالحوامض شِفاء للأمراض الصفراوية، ومع الخَلْط بالأدهان شِفاء للأمراض السوداوية، وعن (اعتقادات الصدوق) اعتقادنا في العسل أنّه يُشفي الأمراض البلغمية[٣].

أقول: عليه يكون تنوين الشِّفاء للتنكير، وفيه أنّ الظاهر من كونه تعالى في مقام مدحه أنّه تعالى جعله بالخاصية شِفاءً لجميع الأمراض كالتُربة الحسينية، ولا ينافي ذلك عدم ظهور هذا الأثر منه كثيراً؛ لأنّه من باب المقتضي الذي يجتمع مع ألف مانع، كما لا يحصُل الشِفاء من التربة المباركة في بعض الموارد.

روي أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنّ أخي قد اشتكى بطنه؟ فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه [عسلاً] فما زاده إلّا استطلاقاً، فعاد إلى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه ثانياً فما زاده إلّا استطلاقاً، فرجع فقال: يا رسول الله، [سقيته] فما نفع؟ فقال: «اذهب فاسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك» فسقاه فشفاه الله[٤]، الخبر.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٢.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٥٥٠، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٦، تفسير روح البيان ٥: ٥٢.
٣. باب ٤٤ من اعتقاداته والاحاديث الواردة في الطب.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٥٣.

وفي الحديث: «أنّ الله جعل الشِفاء في أربعة: الحبّة السوداء، والحِجامة، والعسل، وماء السماء»[١].

وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكا إليه سوء الحِفظ، فقال: «أترجع إلى أهل؟» قال: نعم. فقال: «قل لها تُعطيك من مَهرها دِرْهَمين عن طيب نفس، فاشترِ بهما لبناً وعسلاً، واشربهما مع شُربةٍ من ماء المطر على الرِّيق تُرزَق حِفظاً»[٢].

وعنه عليه السلام: «لَعق العَسل شِفاءٌ من كلّ داءٍ، ثمّ تلا هذه الآية، وقال: «هو مع قراءة القرآن ومَضغ اللُّبان ـ وهو الكُندُر ـ يُذيب البَلْغَم»[٣].

وعنه عليه السلام: «ثلاثة يَزِدن في الحِفظ، ويُذهبن بالبلغم» وذكر هذه الثلاثة[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إن يكن في شيءٍ شِفاء، ففي شَرْطَة الحَجّام، أو في شُربة عسل»[٥].

والقمي: عن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: «نحن والله النَّحل الذي أوحى الله إليه[٦] ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ أمرنا أن نتّخذ من العرب شيعةً ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ يقول من العجم ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يقول من الموالي والذي ﴿يخرُج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ﴾، أي العلم الذي يخرج منّا إليكم»[٧].

وعنه عليه السلام أيضاً: «النَّحل: الأئمّة، والجبال: العرب، والشجر: الموالي عَتَاقة[٨]، ومما يعرشون: الأولاد والعبيد ممّن لم يعتق وهو يتولّى الله ورسوله والأئمّة، والشراب المختلف ألوانه: فنون العلم الذي قد يُعلّم الأئمة شيعتهم، فيه شِفاء للنّاس [يقول: في العلم شِفاء للناس] والشيعة هم النّاس، وغيرهم الله أعلم بهم ما هم، ولو كان كما يُزعَم أنّه العَسل الذي يأكُله الناس، إذاً ما أكل منه وما شَرب ذو عاهة إلّا شُفي، لقول الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ولا خُلف لقول الله، وإنّما الشِفاء في علم القرآن لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ [لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٩] فهو شِفاء ورحمة] لأهله لا شكّ فيه ولا مِرية، وأهله أئمّة الهدى الذين قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾»[١٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لَآيَةً﴾ وحُجّةً واضحةً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في دقائق صُنعه.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٣.
٣. الخصال: ١٠/٦٢٣، الكافي ٦: ٢/٣٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١١١/٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٨٣/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٣.
٦. في المصدر: التي أوحى الله إليها.
٧. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.
٨. المولى عَتَاقة: الذي أُعتق من الرقّ.
٩. سورة الاسراء ١٧: ٨٢.
١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٤٠٢/١٥، تفسير الصافي ٣: ١٤٤، والآية من سورة فاطر ٣٥: ٣٢.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[٧٠]

ثمّ استدلّ بخلقة الانسان بقوله: **﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾** وأوجدكم **﴿ثُمَّ﴾** بعد مدّةٍ من التعيّش **﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾** ويُميتكم على اختلاف أعماركم، فمنكم من يموت في الصِّغر **﴿وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾** وأخسّه وهو الهَرم الذي يعود الانسان فيه إلى حال الصِّغر من ضَعف البدن والقوى والعقل والفَهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «أرذل العُمر خمس وسبعون سنة»[١].

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر»[٢].

أقول: لعلّ الاختلاف من جهة اختلاف الأشخاص.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير **﴿شَيْئاً﴾** من العلم أو المعلومات، وقيل: يعني لئلا يعقِل بعد عَقْله الأول شيئاً[٣].

عن القمي: إذا كَبِر لا يعلم ماعلمه قبل ذلك[٤] **﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾** بمقادير أعماركم **﴿قَدِيرٌ﴾** على إبقاء الهَرم الفاني وإماتة الشابّ القويّ النَّشِط، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لمابلغ التفاوت هذا المبلغ.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ[٧١]

ثمّ أنه تعالى بعد ذكر تفاوت الآجال ذكر كثْرة تفاوت أرزاق الناس بقوله: **﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** آخر **﴿فِى ٱلرِّزْقِ﴾** والنِّعم الدنيوية، حيث إنّكم تَرَون العاقل الكيّس الفَطِن في جميع الأمور يجتهد مدّة عمره، ويدبّر في طلب القليل من الدنيا، ولا يتيسّر له، بل يعيش في غاية العُسرة، والجاهل الغبيّ تُقبِل عليه النِّعم وتنفتح عليه أبوابها، ويحصُل له كلّما أراد في الحال بأيسر وجه، ولو كان المؤثّر في ازدياد الرزق العقل والتدبير والجهد، لكان الأمر بالعكس.

فعلم أنّ التفاوت بتقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدينا﴾**[٥] فاذا علم أنّ الرازق هو الله **﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا﴾** في الرزق على غيرهم **﴿بِرَادِّى﴾** مُعطي **﴿رِزْقِهِمْ﴾** وما أعطاهم الله من النِّعم **﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾** من العبيد والإماء، بل كلّ من المالك

---

١. مجمع البيان ٦: ٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.

٢. تفسير القمي ٢: ٧٩، تفسير الصافي ٣: ١٤٤.

٣. تفسير أبي السعود ٥: ١٢٧.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٥.

٥. الزخرف ٤٣: ٣٢.

والمملوك يرتزقون من رزق الله ﴿فَهُمْ﴾ جميعاً من المالك والمملوك في الارتزاق برزق الله وتقديره ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ كلّ يُرزَق رِزقه المقدّر له، وإنّما الفرق في مجراه؛ فمجرى رزق المالك ملكه، ومجرى رزق المملوك يد مالكه، فلا يحسبنّ المُلّاك أنّهم رزاق مماليكهم.

وقيل: إنّ المقصود توبيخ المُلّاك، والمعنى فلم لايرُدّ الموالي فضل رِزقهم على مماليكهم حتى يتساووا في المَطْعَم والمَلْبَس.

عن أبي ذرّ، عن النبي ﷺ: «إنّما هم إخوانكم فاكسُوهم ممّا تكتسون[1]، وأطعموهم ممّا تُطْعَمون» قال: فما رأى بعد ذلك عبد أحدٍ إلّا ورداءه كردائه وإزاره كإزاره[2].

وقيل: إنّ الآية ردّ على عَبدة الأصنام[3]، حيث جعلوها شركاء لله وسوّوا بينه وبينها، وتقريره أنّ الله فضّل المُلاك على مماليكهم، بحيث لا يقدِر المملوك على مُلكٍ مع مولاه، ولا تجعلون عبيدكم معكم سواء في المُلك، فكيف تجعلون هذه الجمادات مع الله سواء في العبودية، فالمعنى فما الذين فضّلوا بجاعلي رزقهم لعبيدهم حتى يكونوا مع عبيدهم في المُلك والرزق سواء.

عن ابن عباس: نزلت في نصارى نجران حيث قالوا: عيسى ابن الله، فالمعنى أنّكم لا تُشرِكون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء، فكيف جعلتم عبدي ولداً لي وشريكاً في الألُوهية؟![4]

ثمّ لمّا كان الشرك يُلازم إسناد النِّعم إلى ما أشركوه من عيسى أو الأصنام، أنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ويكفرون.

وَٱللهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ[٧٢]

ثمّ استدلّ سبحانه بخلق الأزواج والأولاد بقوله: ﴿وَٱللهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم ﴿أَزْوَاجاً﴾ لتسكنوا إليها، وتأنسوا بها.

عن القميّ: يعني خَلَق حوّاء من آدم[5].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قيل: هم الأختان[6]. وقيل: هم أولاد الأولاد[7]. وقيل: هم الأعوان والخَدَم من قِبَل الزوجة فيشمَل الكلّ[8].

---

١. في جوامع الجامع: تلبسون.
٢. جوامع الجامع: ٢٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٥.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٧٩/القول الثاني.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٧٩.
٥. تفسير القمي ١: ٣٨٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.
٦ و٧. تفسير أبي السعود ٥: ١٢٨.
٨. تفسير الرازي ٢٠: ٨١.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿بَنِينَ وَحفَدَةً﴾ قال: «هم الحَفَدة، وهم العَون [منهم] يعني البنين»[١].

وعنه عليه السلام في رواية أُخرى قال: «الحَفَدة بنو البنت، ونحن حَفَدة رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

وعنه أيضاً: «هم أختان الرجل على بناته»[٣].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه التفضيل في الرزق ولم يبين فضله وصفه هنا بقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ واللذائذ كالثمار والفواكه والحبوب والحيوات والأشربة كالعسل وأمثاله.

ثمّ أنكر سبحانه عليهم الشرك مع ظهور دلائل التوحيد بقوله: ﴿أَفَبِالباطِلِ﴾ الذي أظهره الأصنام والشرك ﴿يُؤمِنُونَ﴾ مع تلك الحُجج الباهرة على التوحيد ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بنسبتها إلى غيره من الأصنام والأنداد التي زعموها آلهة.

وقيل: كفرانهم النِّعم تحريمهم البَحيرة[٤] وأخواتها[٥].

وقيل: نعمة الله رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتابه ودينه، وكفرهم بها إنكارها[٦].

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [٧٣و ٧٤]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه الدلائل على التوحيد، ونبّههم على ما رزقهم من العمر والمال والأزواج والأولاد والطيبات من المأكولات والمشروبات، ذمّ المشركين ووبّخهم بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ مع وفور رزقه عليهم ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً﴾ يسيراً من المَطَر والنبات ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يملكوه.

وقيل: إنّ ضميرالجمع راجعٌ إلى المشركين، والمعنى أنّ المشركين مع حياتهم وشعورهم لا يقدرون على تملّك الرزق، فكيف بالجمادات؟[٧].

ثمّ قيل: إنّ المشركين كأنّهم قالوا: كما أنّ الأصاغر يخدِمون الأكابر، والأكابر يخدِمون الملوك، كذلك نحن نعبُد الأصنام والأصنام يعبدُون الله، لأنّه تعالى أجلّ وأعظم من أن نعبُده[٨]، فردّ الله عليهم

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٠٦/١٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٠٥/١٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.
٣. مجمع البيان ٦: ٥٧٦، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.
٤. البَحيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقّوا أُذنها، وأعفوها من أن يُنتفع بها، ولم يمنعوها من مرعى.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٨١.
٦. جوامع الجامع: ٢٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٦.
٧. تفسير البيضاوي ١: ٥٥١، تفسير أبي السعود ٥: ١٢٨.
٨. تفسير الرازي ٢٠: ٨٣.

بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ ولا تشبّهوه بخلقه، وقيل: يعني لا تجعلوا لله مثلاً، لأنّه واحدٌ لا مثل له[1] ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ فساد مذهب الشرك وبطلان دليله وعِظم عُقوبة القائلين به، ولذا ينهاكم عنه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة، ولو علمتموه لتركتموه، أو المراد أنّ الله يعلم ضرب الأمثال وأنتم لا تعلمونه.

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٧٥ و ٧٦]

ثمّ ضرب سبحانه المثل لتوضيح التباين بينه وبين ما أشركوه به بقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ بديعاً، وهو أن تفرضوا ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ لا شيء له و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من التصرّفات ﴿وَمَن﴾ كان حرّاً كريماً ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ بإنعامنا وكرّمناه بطريق الملك ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ واسعاً حلالاً طيباً مرضياً عنده وعند كلّ أحدٍ ﴿فَهُوَ﴾ بكرمه وسلطنته في التصرّف في رزقه ﴿يُنفِقُ مِنْهُ﴾ على الغنيّ والفقير تفضّلاً وكَرَماً ﴿سِرّاً وَجَهْراً﴾ وخُفيةً وعلانيةً كيفما أراد، وأيّ قدرٍ أراد بلا مانع وحاجز، فبعد فرض هذا المملوك العاجز، وهذا الحرّ الغنيّ الكريم، أنصفوا أيها العقلاء ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ لا والله لا تساوي بينهما أبداً، إذن فكيف تسوّون بين الأصنام التي هي أعجز وأفقد من كلّ شيءٍ، وبين الله القادر الغنيّ بالذات الكريم الذي لا تناهي لكرمه، حيث إنّه يرزُق من يشاء ما يشاء كيف يشاء بغير حساب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نِعمه غير المتناهية لايشركه فيها غيره، ولا يَليق بالحمد من سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم التساوي بينهما، ولذا يعبُدون الجمادات ويسوّون بينها وبين خالق الموجودات، ويحمَدون الأصنام، ويكفَرون وليّ الأنعام.

ثمّ اعلم أنّ هذا المثل منطبقٌ على الكافر المحروم عن عبادة الله وطاعته، والمؤمن المطيع لله القائم بعبوديته المشفق على خَلقه المنفق عليهم، وكذا على الجاهل الفاقد للعلم، والعالم العارف بالله وأحكامه، فالأولان كالعبد الذليل الفاقد لكلّ شيءٍ، والثانيان كالحرّ الواجد المُنفِق.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ آخر أدلّ على المقصود، وهو أن تفرضوا ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا قوة له

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٨٣.

على التكلّم من حين ولادته و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وأمره متعلق بنفسه أو بغيره ﴿وَهُوَ﴾ لعجزه في جميع الأمور ﴿كَلٌّ﴾ وثِقل ﴿عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ في ما يحتاج إليه و﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ مولاه، وحيثما يُرسله لكفاية أمر ولو كان غير مهمّ ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا يفعل ما فيه صلاح، إذن قولوا وأنصفوا ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن﴾ يكون منطيقاً ذكياً ذا رأيٍ وكفاية وعقل ورُشد بحيث ﴿يَأْمُرُ﴾ غيره ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وحسن الأخلاق والأعمال، وما فيه صلاح الحال والمال ﴿وَهُوَ﴾ بنفسه مضافاً إلى نفعه العام مقيم ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمنهج القويم من صحة العقائد وحسن الأخلاق والأعمال، لا والله لا يمكن تساويهما.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٧٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان غاية البينونة بيّن الجاهل العاجز والعالم القادر على كلّ شيءٍ بضرب المثلين، بيّن كمال علمه وقدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكان يختصّ به العلم بخفياتهما ﴿وَمَا أَمْرُ﴾ إيجاد ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ والقيامة أو جميع شؤونها بدواً وختماً عنده تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلبَصَرِ﴾ وحركة خفيفة للعين أو حركة الحَدَقة من الفوق إلى التحت، أو طرف العين في السهولة والسرعة ﴿أو هُوَ أقرَبُ﴾ وأسرع وأسهل لاحتياج حركة العين إلى آنات متعاقبة، وتوجد القيامة بأمره في آنٍ واحدٍ، وكلمة (أو) للابهام على المخاطبين، أو بمعنى بل، ثمّ قرّر قدرته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ابتداء الخلق وإعادته.

وَٱللهُ أَخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٧٨]

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده وقدرته وحكمته بقوله: ﴿وَٱللهُ أَخْرَجَكُم﴾ بقدرته ﴿مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بالولادة حال كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ من البديهيات والنظريات والحسيّات والعقليات من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿لَكُمُ﴾ في الأرحام ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لاستماع مواعظ الله والعلوم النافعة ﴿وَٱلْأَبْصَارَ﴾ لرؤية آيات الله ومعاجز الأنبياء وقراءة الكتب ﴿وَٱلْأَفْئِدَةَ﴾ لفَهم معارف الله ودَرْك العلوم العقلية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الولادة وتركيب الأعضاء والقوى فيكم بأن تستعملوها فيما خُلِقت له.

قيل: أول ما يبدو في الجنين حسّ السمع ثمّ البصر[١].

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٧٩]

ثمّ استدلّ سبحانه بعجائب أحوال الطيور بقوله: ﴿أَ﴾ و﴿لَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء المشركون ولم ينظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ حال كونها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ ومذللات للطيران ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ وفضائها أو هوائها بأجنحتها وأسباب طيرانها التي خلقها لها، ومع ذلك ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ ويَحْفَظهنّ من السقوط حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهنّ شيءٌ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ القادر الحكيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تسخير الطير للطيران وإمساكها في الجوّ على خلاف طبع الجسم ﴿لَآيَاتٍ﴾ وحُجج باهرة على قدرة خالقها وتدبيره وحكمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فانهم المنتفعون بها بالتفكّر فيها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ[٨٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بالنعم الداخلية على الانسان، استدلّ بالنعم الخارجية بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ﴾ وخلق نفعاً ﴿لَكُم﴾ وصلاحاً لحالكم بعضاً ﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ وهي البيوت المبنية من الأحجار والطين والأخشاب ﴿سَكَناً﴾ ومأوىً تستريحون فيه وتطمئنون به وقت إقامتكم لعدم إمكان نقلها من مواضعها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ والأُدُم المعمولة منها ﴿بُيُوتاً﴾ أُخرى كالخيام والأخبية والفساطيط التي ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وتستسهلون حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وسيركم في البوادي والأسفار ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووقت حضوركم في البلد، توقّفكم في مكان تُريدون الوقوف فيه ﴿وَ﴾ جعل ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً﴾ ولوازم البيت من الفرش والملاحف وأمثالهما. عن ابن عباس: يُريد طنافساً[٢] وبُسطاً وثياباً وكُسوة[٣] ﴿وَمَتَاعاً﴾ وأشياء أُخر، فينتفع بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قضاء الوَطَر، أو حين البِلى، أو حين الموت، أو حين بعد حين، أو حين القيامة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُم

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٦٣.

٢. الطَّنافس: جمع طَنْفِسة: البِساط والنُّمرقة فوق الرَّحل.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٢.

سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ[٨١ـ٨٣]

ثمّ لمّا كانت أرض الحِجاز شديدة الحرّ، استدلّ على توحيده بخلق ما يُحْفَظ به من الحرّ بقوله: ﴿وَٱللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار والجبال والغَمام ﴿ظِلالاً﴾ يتّقون به حرّ الشمس. القمي، قال: ما يُسْتَظَلّ به[١]. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنَ ٱلْجِبَالَ أَكْنَاناً﴾ ومحافظ من الحرّ كالكُهوف والغِيران والسُّروب[٢] ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ وثياباً من القُطن والصُوف وغيرهما ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وتَحْفَظكم منه ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ كالدُّروع والجَواشِن[٣] ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وتَحْفَظكم من الطَّعن والضرب ونحوهما ممّا يضُرّكم في الحروب.

قيل: إنّ الله تعالى ذكر نِعمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخُصّ المقيمين حيث قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِن بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾[٤] ثمّ بما يختصّ بالمسافرين ممّن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾[٥]، ثمّ بما يَعُمّ من لا يقدِر على ذلك ولا بما دونه[٦] إلّا الظّلال حيث قال: ﴿وَٱللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ ثمّ بما لابُدّ منه لأحدٍ حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ثمّ بما لا مناصَ عنه في الحرب حيث قال: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[٧].

ثمّ قال: ﴿كَذٰلِكَ﴾ الإتمام البالغ لنِعَمِه الجسمانية ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ الدنيوية والدينيّة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لتنظُروا إليها وتتفكّروا فيها ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعرِفون حقّ منعمها و﴿تُسْلِمُونَ﴾ وتنقادون لربوبيته وأحكامه، أو تُسلِمون من الشرك.

عن ابن عباس: لعلّكم يا أهل [مكة] تُخلِصون لله الربوبية، وتعلمون أنّه لا يقدِر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه[٨].

وقيل: يعني أعطيتكم هذه النِّعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتَسْلَمُوا من عذاب الله[٩].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يا محمّد، وأعرضوا عن التفكّر في الآيات والنِّعم، ولم يقبلوا قولك، وآثروا الدنيا ومتابعة الآباء ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والتبليغ المُوضح للحقّ لا إجبارهم على القبول، وقد

---

١. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٨.
٢. السُّروب: جمع سَرب، الحفير تحت الأرض لا منفذ له.
٣. الجَوشَن: الدِّرع.
٤ و٥. النحل ١٦: ٨٠.
٦. في تفسير أبي السعود: ولا بأويه.
٧. تفسير أبي السعود ٥: ١٣٣.
٨. تفسير الرازي ٢٠: ٩٤.
٩. تفسير الرازي ٢٠: ٩٤.

فعلت ما عليك، وبقي ما علينا من تعذيبهم على العِناد والإصرار على الكُفر.

ثمّ ذمّهم سبحانه بغاية الكُفران بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليهم من جميع الوجوه ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ويكفرونها بنسبتها إلى الأصنام وعبادتها، مع أنّ حقّ معرفة النِّعم أن يُقرّوا بها ويشكروها بتخليص العبادة لله وصرفها فيما فيه رضاه، وقيل: نِعمة الله نبوة محمّد ﷺ[1] ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ لتلك النعمة والجاحدون لها.

قيل: نسبة الكفر الى الأكثر لكون بعضهم جاهلين بصدق النبي ﷺ غير معاندين للحق[2]. وقيل: إنّ المراد بالأكثر الجميع[3].

عن الصادق عليه السلام: «نحن والله نِعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا فاز من فاز»[4].

وفي رواية عنه عليه السلام: «يعني يعرفون ولاية علي عليه السلام»[5].

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٨٤ ـ ٨٧]

ثمّ هدّد الكافرين بنعمته بأهوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وجماعة ﴿شَهِيداً﴾ يشهد بإيمان مؤمنيهم وكُفر كافريهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد الشهادة ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ من قبل الله ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار عن كفرهم وعصيانهم، لكذبهم وتمامية الحجّة عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلَب منهم عمل موجبٍ لرضا ربّهم عنهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم، لكون ذلك اليوم يوم الجزاء لا العمل، بل يؤمرون بالدخول في النّار ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الشديد ضجّوا وسألوا تخفيفه ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ثِقل العذاب وشدّته ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يُمْهَلون ساعة ليستريحوا، بل يزيد عذابهم مع أصنامهم ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله الشياطين والأصنام التي جعلوها ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ وآلهتهم ﴿قَالُوا﴾ إحالةً لعذابهم إليها، أو تعجّباً من حضورها، أو إظهاراً لخِطابهم في عبادتها ﴿رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُرَكَاؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا﴾ في الدنيا

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٥٥٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٣٤. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٥.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٤٩. ٥. الكافي ١: ٣٥٤/٧٧، تفسير الصافي ٣: ١٤٩.

﴿نَدْعُوا﴾ هم ونعبُدُهم ﴿مِن دُونِكَ﴾ وممّا سواك، فأنطق الله الأصنام ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وأجابوهم بالكلام، وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ﴾ في دعوى عبادتكم إيانا والله ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ بل عبدتم أهواءكم، أو لكاذبون في دعوى أننا شُركاء الله في المعبودية واستحقاق العبادة ﴿وَأَلْقَوْا﴾ اُولئك المشركون ﴿إِلَى ٱللهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ والانقياد لربوبيته وأمره وأحكامه بعد ما كانوا في الدنيا مستكبرين ومستنكفين عنه ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُم مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله من أنه راضٍ بعبادة الأصنام، وأنّه يقبل شفاعتهم في حقّ عبادهم وقيل: يعني ذهب [عنهم] ما زيّن لهم الشيطان من أنّ لله شريكاً وصاحبةً وولداً[١].

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ [٨٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد المشركين، هدّد الصادّين منهم عن سبيل الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ومنعوهم ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والدخول في دين الاسلام ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في جهنم ﴿عَذَاباً فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم زادوا على ضَلال أنفسهم إضلال غيرهم، فعليهم مثل عذاب أتباعهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الأرض بترويج الباطل وتشييد الكفر ودعوة الناس إليه.

القمي، قال: كفروا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وصدّوا عن أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

أقول: هذا تأويل لا تفسير.

عن ابن عبّاس، قال: المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يُعذّبون بها ثلاثة على مِقدار الليل، واثنان على مِقدار النهار[٣].

وقيل: زدناهم عذاباً بحيّات وعقارب كأمثال البُخْت[٤] لكلّ عقرب ثلاثمائة فقرة، في كلّ فقرةٍ ثلاثمائة قُلّة[٥] من سَمّ، ولها انياب كالنّخل الطُّوال، فيستغيثون بالهرَب منها إلى النار[٦].

وعن ابن جُبير، قال: زيادة عذابهم هي عقارب أمثال البِغال، وحيّات أمثال البُخت، تلسَع إحداهنّ اللّسعة فيجد صاحبها حُمتها[٧] أربعين خريفاً[٨]

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٩٧.
٢. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٠.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٨، تفسير روح البيان ٥: ٦٩.
٤. البُخت: الإبل الخُراسانية.
٥. القُلّة: إناء من الفَخّار يُشرَب منه.
٦. تفسير الرازي ٢٠ : ٩٨.
٧. الحُمَة: سَمّ كلّ شيء يَلْدَغ أو يَلْسَع، والإبرة التي تضرِب بها العقرب والزُّنبور ونحوهما.
٨. تفسير روح البيان ٥: ٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٣٥، ولم ينسبه إلى ابن جبير.

وقيل: يسألون الله تعالى ألف سنة المطر ليسكّن ما بهم من شدّة الحرّ، فتظهر لهم سَحابة، فيَظنّون أنها تمطِر، فجعلت السَّحابة تمطِر عليهم بالحيّات والعقارب، فيشتد ألمهم لأنه إذا جاء الشرّ من حيث يؤمل الخير كان أغمّ[1].

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ [٨٩]

ثمّ بالغ سبحانه بتهديد المشركين بأهوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشُر فيه ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم وجماعة من جماعات الناس ﴿شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجنسهم، ليكون أقطع لعُذرهم لكونه بينهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمّد ﴿شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ﴾ الأمم وشهدائهم.

نقل كلام الفخر الرازي في المراد من الشهيد

قال الفخر الرازي: إن كلّ جمعٍ وقَرنٍ يحصُل في الدنيا، فلابدّ أن يحصُل فيهم واحدٌ يكون شهيداً عليهم، أمّا الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول فهو الرسول ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[2]، وثبت أيضاً أنه لابدّ في كلّ زمانٍ بعد زمان الرسول ﷺ من الشهيد، فتحصّل من هذا أن عصراً من الأعصار لا يخلو من شهيدٍ على الناس، وذلك الشهيد لابدّ وأن يكون غير جائز الخطأ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر، ويمتدّ ذلك إلى غير النهاية، وذلك باطلٌ، فثبت أنه لابدّ في كلّ عصرٍ من أقوام تقوم الحجة بقولهم، وذلك يقتضي أن [يكون] إجماع الأمّة حُجّة[3].

أقول: هذا عين ما قاله أصحابنا الامامية، فانهم يقولون: إنّه لابدّ في كلّ عصرٍ من وجود حُجّةٍ معصومٍ، إما ظاهرٌ مشهود، أو غائبٌ مستور، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها، ولا حُجّية للاجماع إلّا إذا عُلِم موافقة رأيهم لرأي المعصوم، وذلك المعصوم هو الشهيد، وإنّما الفرق بيننا وبين هذا القائل أنّا نعرفه باسمه ونسبه، وهو يَجْحَده لعصبيّته.

القمي في تفسير ﴿شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ﴾ قال: يعني على الأئمة عليهم السلام، فرسول الله ﷺ شهيد على الأئمة عليهم السلام، وهم شهداء على الناس[4].

وقال بعض العامة: المراد بذلك الشهيد هو أنّه تعالى يُنطِق عشرة [من] أعضاء الانسان حتّى تشهد عليه، وهي: الأذنان والعينان واليدان والرجلان والجلد واللسان، قال: والدليل عليه أنّه تعالى قال في

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٦٩. ٢. البقرة: ٢/ ١٤٣. ٣. تفسير الرازي ٢٠: ٩٨.

٤. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٠.

صفة الشهيد أنّه من أنفسهم[1]. وفيه أنّه خلاف للظاهر الذي هو كالصريح في الآية خصوصاً مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه عظمة شأن الرسول ﷺ الذي هو الشهيد عليهم بنزول القرآن عليه بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ العظيم الكامل في الكتابية بحيث يحقّ أن يُخَصّ به اسم الكتاب لكونه ﴿تِبْيَاناً﴾ وإيضاحاً وافياً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، أو لكلّ ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، أو لكلّ شيء من اُمور الدين والدنيا والآخرة، وماكان وما يكون وما هو كائن، كما هو الحقّ، وإنّما يستفيد منه الراسخون في العلم الذين نزل في بيوتهم وهم النبيّ والمعصومون عليهم السلام من ولده.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال الله لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] فعَلِمنا أنه لم يكتب له الشيء كلّه، وقال الله لعيسى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[3]. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[4]

وعنه عليه السلام: «أنّي لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنّة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون» ثمّ سكت هنيئة فرأى أنّ ذلك كبُر على من سَمِعه منه، فقال: «عَلِمت ذلك من كتاب الله عز وجل، إن الله يقول: ﴿فيه تبيان كل شيء﴾»[5].

وعنه عليه السلام: «نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض، وما في الجنة وما في النار، وما بين ذلك» ثمّ قال: «إنّ ذلك في كتاب الله» ثمّ تلا هذه الآية[6].

وعنه عليه السلام: «أن الله أنزل في القرآن تبيان كلّ شيء، حتى والله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد حتّى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا [أنزل] في القرآن إلا [وقد] أنزله الله فيه»[7]. إلى غير ذلك من الروايات الدالّة على أنّ في القرآن بيان كلّ شيء.

ثمّ لمّا كان أهمّ الأمور فائدةً الهداية إلى الحقّ بالغ في توصيفه بها بحيث جعله عينها بقوله: ﴿وَهُدىً﴾ من الضلالة إلى الحقّ، لاشتماله على المعارف الالهية بأكمل وجهٍ، وعلى الأحكام الأخلاقية والعملية بأتمّ التفصيل، ﴿وَ﴾ ليكون ﴿رَحْمَةً﴾ للعالمين وفضلاً على الخلق أجمعين، وإنما يكون حرمان الكفار بسبب تفريطهم وتقصيرهم، ﴿وَ﴾ ليكون ﴿بُشْرَىٰ﴾ بالفيوضات الدنيوية

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٩٩. ٢. الأعراف: ١٤٥/٧. ٣. الزخرف: ٦٣/٤٣.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٧/١٩، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
٥. الكافي ١: ٢/٢٠٤، تفسير الصافي ٣: ١٥١، في المصحف: ﴿تبياناً لكل شيء﴾ [النحل: ٨٩/١٦] ولعله نقل بالمعنى. ٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٦/١٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
٧. الكافي ١: ١/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.

والأخروية ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ والمؤمنين، أو المنقادين لأحكامه خاصّة.

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[٩٠]

ثمّ لمّا وصف سبحانه الكتاب بكونه تبياناً وهدىً، ذكَر علم الأخلاق والأحكام فيه بكلماتٍ موجزةٍ جامعةٍ لجميعهابقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ في الكتاب الذي هو تبيان وهدى ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والتوسط في الأخلاق وسائر الأمور، والتسوية بين الناس في الحقوق وبين أنفسكم وغيركم في الرعاية ﴿وَٱلْإِحْسَانِ﴾ إلى أنفسكم بحفظها عن ارتكاب القبائح والموبقات، والسعي في تكميلها وتعليتها إلى المراتب العالية الانسانية، وإلى غيركم بتعليمهم العلوم الدينية، وإرشادهم إلى السعادات الدنيوية والأخروية، ومساعدتهم في اُمور معاشهم ومعادهم ﴿وَإِيتَاىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والأرحام وإعطائهم جميع ما يحتاجون إليه من العلم والمال، وكل ما يؤهّلون له من الكمال، وإنّما خصّه بالذّكر مع دخوله في عُموم الاحسان تنبيهاً على أهمية صِلة الرّحِم وفضلها ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ﴾ والأمور الشديدة القباحة كالشِّرك والزّنا وغيرهما من الكبائر ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وما يتنفّر منه العقل السليم ويستقبحه ممّا لا يبلُغ في القُبح درجة الفُحش ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ والظلم على الناس، والتعدّي في أموالهم ونفوسهم وأعراضهم وتوهينهم وتضييع حقوقهم.

ثمّ حثّهم سبحانه على العمل بما في الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله بأمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعظون.

عن ابن مسعود، أنه قال: هي أجمع آية في القرآن للخير والشرّ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفَت في كونه تبياناً لكلّ شيء وهدى[1].

وعن ابن عباس: أنّ عثمان بن مَظْعون الْجمَحي قال: ما أسلمت أولاً إلّا حياءً من محمّد ﷺ، ولم يتقرّر الإسلام في قلبي، فحضرت عنده ذات يوم، فبينما هو يُحدّثني إذ رأيت ببصره شَخَص إلى السماء ثمّ خفضه عن يمينه، ثمّ عاد لمثل ذلك فسألته، فقال: «بينما أنا اُحدثك إذا بجَبْرئيل نزل عن يميني فقال: يا محمّد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾ العدل: شهادة أن لا إله إلّا الله، والاحسان: القيام بالفرائض ﴿وَإِيتَاىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [أي] صِلة ذي القرابة ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ﴾ الزنا ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سُنّة ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ الاستطالة».

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٣٦.

قال عثمان: فوقع الايمان في قلبي، فأتيت أبا طالب فأخبرته، فقال: يا معشر قريش، اتّبعوا ابن أخي تَرْشُدوا، ولئن كان صادقاً أو كاذباً، فانّه لا يأمُر إلّا بمكارم الأخلاق. فلمّا رأى رسول الله ﷺ من عمّه اللين، قال: «يا عمّ، أتأمُر الناس أن يتّبعوني وتَدَع نفسك، وجهد عليه فأبى أن يُسلِم»[١].

أقول: يعني في الظاهر نظراً إلى صلاح حفظ رسول الله ﷺ، وإلّا فانّه كان من أول المسلمين وأفضلهم، لوضوح أنّ هذا الكلام لا يصدُر إلّا ممّن كان مسلماً عن صميم القلب موقناً بصدق الرسول، ولذا قدّم التصديق بقوله: ولئن كان صادقاً أو كاذباً.

وعن ابن عباس: العدل: شهادة أن لا إله إلّا الله، والاحسان: أداء الفرائض[٢].

وفي رواية اُخرى عنه: العدل: خلع الأنداد، والاحسان: أن تعبُد الله كأنّك تراه، وأن تُحِبّ للناس ما تُحبّ لنفسك، فإن كان مؤمناً أحببت أن يزداد إيماناً، وإن كان كافراً أحببت أن يصير أخاك في الاسلام[٣].

وفي رواية ثالثة، قال: العدل: هو التوحيد، و [الاحسان:] الاخلاص فيه[٤].

وقيل: العدل في الأفعال، والإحسان في الأقوال، فلا تفعل إلّا ما هو عدل، ولا تَقُل إلّا ما هو إحسان[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «العدل: الانصاف، والاحسان: التفضل»[٦].

وعن القمي: العدل شهادة أن لا إله الّا الله، وأنّ محمّداً ﷺ رسول الله، والاحسان: أمير المؤمنين عليه السلام[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «العدل: محمّد ﷺ، فمن أطاعه فقد عدل، والاحسان: عليّ عليه السلام، فمن تولّاه فقد أحسن، والمحسن في الجنّة»[٨].

وعن ابن عباس: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يريد صِلة الرَّحِم بالمال، فان لم يكن فبالدعاء[٩].

وعن النبي ﷺ: «أنّ أعجل الطاعة ثواباً صِلة الرَحِم، إنّ أهل البيت ليكونون فقراء[١٠] فتمنى أموالهم ويكثُر عددهم إذا وصلوا أرحامهم»[١١].

---

١. تفسيرالرازي ٢٠: ١٠٠.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.
٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٠/٢٠، معاني الأخبار: ١/٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
٧. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٢/٢١، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
٩. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.
١٠. في تفسير الرازي: فجاراً.
١١. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.

وعن الباقر عليه السلام: «﴿إِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قرابتنا، أمر الله العباد بمودّتنا وإيتاننا»[١].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه قرأ عنده هذه الآية، فقال: «اقرأ كما أقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حقّه» إلى أن قال الراوي: قيل: فما يعني بإيتاء ذي القربى حقّه؟ قال: «أداء إمام إلى إمام بعد إمام»[٢]

وقيل: إن المراد بالفحشاء الزنا[٣]، كما في الرواية السابقة. وقيل: البخل[٤]. وقيل: كُل الذنوب، سواء كانت في القول أو في الفعل، أوكبيرة أو صغيرة[٥]. والمراد بالمنكر هو الكفر بالله[٦]. وقيل: ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنَة[٧]، كما في الرواية السابقة.

وقيل: المراد بالبغي الكِبر والظُلم[٨].

وعن القمي، في تأويله الفحشاء والمنكر والبغي: فلان وفلان وفلان[٩].

وعن الباقر عليه السلام: «الفحشاء الأول، والمنكر الثاني، والبغي الثالث»[١٠].

وعن الصادق عليه السلام: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: «ولاية فلان [وفلان]»[١١].

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[٩١]

ثمّ لمّا جمع الله جميع المأمورات والمنهيات التي كلّها عهود الله في الآية السابقة، بالغ في التأكيد في العمل بها بقوله: ﴿وَأَوْفُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ واعملوا بأحكامه ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ معه حين آمنتم به وسلّمتم له وبايعتم رسوله.

وقيل: المراد بالعهد خُصوص بيعة الرسول صلّى الله عليه وآله[١٢]. وقيل: هو كلّ ما يُلزِمه الانسان على نفسه بالنّذر وشبهه[١٣]. وقيل: هو اليمين[١٤]. وعلى التفسير الأوّل خصّ سبحانه حكم نقض اليمين بالذِّكر اهتماماً به بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ﴾ بالله التي تحلِفون بها عند المعاهدات، ولا تَحْنَثوا[١٥] فيها ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وإحكامها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ بالوفاء بها ﴿كَفِيلاً﴾ ورقيباً، فإنّ من حَلَف بالله جعله

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٢/٢١، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٩/١٩، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٠.
٤ ـ٧. تفسير الرازي ٢٠: ١٠١.
٩. تفسير القمي ١: ٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢١/٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٥١.
١١. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٩/٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٢.
١٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٦، تفسير روح البيان ٥: ٧٣.
١٣ و١٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٧.
١٥. حَنِث في اليمين: لم يَبَرّ فيها وأثِم.

كفيلاً بالوفاء به.

ثمّ رغّب في الوفاء ورهّب عن الحنث بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الوفاء والحِنْث، فيجازيكم على الأول بالثواب، وعلى الثاني بالعقاب.

قيل: نزلت في جماعة أسلموا بمكة، وعاهدوا الرسول، فلمّا رأوا غَلَبة قريش وضَعْف المسلمين جَزِعوا واضطربوا، وهمّوا بنقض العهد بتسويل الشيطان، فثبّتهم الله بهذه الآية على عهدهم مع الرسول ﷺ[1].

والقميّ عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من قول رسول الله ﷺ: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين، فكان ممّا أكّد الله عليهم في ذلك اليوم، وقول رسول الله ﷺ لهما: قوما فسلّما عليه بإمرة المؤمنين. فقالا: أمن الله أو من رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: من الله ومن رسوله. فأنزل الله ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني به قول رسول الله لهما، وقولهما: أمن الله أو من رسوله؟»[2].

أقول: يمكن تكرّر نزول الآية.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[٩٢]

ثمّ أكّد سبحانه وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيّها المؤمنون في عهودكم وأيمانكم ونقضها بلا مجوّز شرعي وعُقلائي ﴿كَالَّتِى﴾ غزلت الشعر والصوف وفتلت الحبل كلّ يوم ثمّ ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وفتلها ﴿مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وإبرام وإحكام له حتى جعلته ﴿أَنكَاثاً﴾ وخيوطاً، أو اجزاء متفرقة كالصوف المنفوش، ثمّ غزلت مرة ثانية، ثمّ فعلت ما فعلت بالغزل الأول.

قيل: هي امرأة من قريش يقال لها رابطة أو ريطة[3] أو خطيئة بنت سعد بن تميم، تلقّب بالجَعْراء[4]، أو خضراء، أو خرقاء[5]، وكانت حمقاء[6]، وكانت أعدّت مغزلاً قدر ذراع في رأسه حديدة مثل إصبع، وفَلَكة عظيمة على قدرها، وكانت هي وجواريها تغزِل من الصبح إلى نصف النهار، ثمّ تأمرُهنّ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٧٣.
٢. الكافي ١: ١/٢٣١، تفسير الصافي ٣: ١٥٢، تفسير القمي ١: ٣٨٩ «نحوه».
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨، تفسير القمي ١: ٣٨٩.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨.
٥. مجمع البيان ٦: ٥٩٠، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٥.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ١٥٣.

بنقض جميع ما غزلت[1].

عن الباقر عليه السلام: «التي نقضت غزلها امرأة من بني تيم بن مرّة يقال: له ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب، كانت حمقاء تغزل الشعر، فإذا غزلته نقضته، ثمّ عادت تغزله، فقال الله: ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ الآية» قال: «إنّ الله أمر بالوفاء، ونهى عن نقض العهد، وضرب لهم مثلاً»[2].

وعن الصادق عليه السلام في تأويلها «أنّ عائشة هي نكثت أيمانها»[3].

وقيل: إنّ المقصود تصوّر مَثَل المرأة التي تكون صفتها كذلك[4]، ولا يَلْزَم وجودها في الخارج، والمراد لا تكونوا مثل هذه الامرأة حال كونكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً﴾ وخديعةً وغِشّاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ لأجل ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ وجماعة ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾ وأكثر ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وجماعة اُخرى عدداً ومالاً وقوةً وشرفاً.

وقيل: إنّ الجملة استفهامية إنكارية[5]، والمعنى أتتّخذون ؟! إلى آخره.

قيل: كانوا يحالفون الحلفاء ثمّ يجدون من كان أعزّ منهم وأشرف، فينقُضون حِلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك[6].

وقيل: إنّ الأربى كَفَرة قريش، والأمّة الأخرى جماعة المؤمنين[7]، وعلى أيّ تقدير ﴿إِنَّمَا﴾ الغرض من جعل بعض الأمم أربىٰ، أو من الأمر والنهي أن ﴿يَبْلُوكُمُ اللَّهُ﴾ ويختبركم ﴿بِهِ﴾ بأن يظهر أنّكم تمسّكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تغترّون بكَثْرة قريش وشوكتهم وضَعْف المسلمين، أو تطيعون الله ورسوله، أو تتّبعون خُطوات الشيطان وتسويلاته.

والقمي: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يعني يختبركم بعلي عليه السلام[8].

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ البتة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ووقت جزاء الأعمال ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من صحّة دين الاسلام، وأنّه دين الحقّ المؤدّيَ إلى الثواب، وبطلان غيره وأنّه مؤدٍّ إلى العقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٧٥.
٢. تفسير القمي ١: ٣٨٩، تفسير الصافي ٣: ١٥٣.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٤/٢٢، تفسير الصافي ٣: ١٥٣.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٧٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٠: ١٠٩.
٧. تفسير الصافي ٣: ١٥٣، تفسير روح البيان ٥: ٧٥.
٨. تفسير القمي ١: ٣٨٩، الكافي ١: ١/٢٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٥٤.

وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ[٩٣]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه اختلاف الناس في دينه، نبّه على قدرته على إلجائهم على الاتفاق على دين الاسلام، وإنّما الحكمة اقتضت إيكالهم إلى اختيارهم وحصول الاختلاف بينهم حسب اختلاف طينتهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ﴾ بالمشيئة التكوينية اتفاق الناس، والله ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ بالقهر والجبر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متّفقةً على دين الاسلام بقدرته القاهرة ﴿وَلٰكِن﴾ لم يشأ ذلك لمنافاته الحكمة البالغة، بل ﴿يُضِلُّ﴾ عن الحقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله بخذلانه وإيكاله إلى نفسه ومقتضى طينته لعدم قابليته للهداية والتوفيق ﴿وَيَهْدِى﴾ إلى الحقّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه وطيب طينته وقابليته للهداية ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَتُسْئَلُنَّ﴾ جميعاً البتة يوم القيامة سؤال تبكيت وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الوفاء بالعهد والأيمان ونقضها وحِنْثها، فتُجْزَون بما صدر عنكم.

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ ٱللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[٩٤و ٩٥]

ثمّ أكّد سبحانه النهي عن نقض العهد واتّخاذه دخلاً وخديعةً بقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ ونكراً ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ منكم أيّها المؤمنون عن محجّة الحقّ والصراط المستقيم ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها عليها، وإنّما أفرد لفظ القدم ونكّره إشعاراً بأنّ زلّة القدم الواحدة إذا كانت مستتبعة لهذا المحذور العظيم، فكيف بزلّة الأقدام الكثيرة.

وقيل: إنّ هذا الكلام مَثَلٌ يُضْرَب لكلّ من وقع في الشدّة بعد الرخاء وابتُلي بالمِحنة بعد النِّعمة[١].

وقال القمي في تأويله: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ يعني بعد مقالة النبيّ ﷺ في عليّ عليه السلام[٢].

وقيل: إنّ الآية السابقة في النهي عن نقض مطلق العهد واليمين، وهذه الآية في النهي عن نقض عهد الرسول[٣] وبيعته؛ لأنّ زلّة القدم بعد ثبوتها مناسبة لنقض هذا العهد الموجب لسقوط الانسان عن درجة الايمان في مهاوي الضلال والهلاك، ولذا هدّدهم بقوله: ﴿وَتَذُوقُوا ٱلسُّوءَ﴾ والعذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ ومنعتم أنفسكم أو غيركم ﴿عَن﴾ السلوك في ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والالتزام بالاسلام، أو الدخول فيه، فان ارتدادهم يكون مانعاً عن إيمان غيرهم ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١١٠.

٢. تفسير القمي ١: ٣٩٠، الكافي ١: ١/٢٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٥٤.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١١٠.

وعقاب شديد.

ثمَ قيل: إنّ المشركين كانوا يَعِدُون ضُعفاء المسلمين ويشترطون لهم الحُطام الدنيوية عن ارتدادهم[١]، فنهى الله المسلمين عن الرغبة في أموال المشركين بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ ولا تأخُذوا بمقابلته ومقابلة بيعة الرسول ﷺ ﴿ثَمَناً﴾ وعوضاً من أموال المشركين، فانّه وإن كان بقدر الدنيا يكون ﴿قَلِيلاً﴾ ويسيراً ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ﴾ من الأجر على الوفاء بالعهد من النصر والعزّ في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ممّا يَعِدونكم من الأموال ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الايمان، وتميّزون الخير من الشرّ.

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[٩٦ و ٩٧]

ثمَ بيّن سبحانه أظهر وجوه الخيرية بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من الحُطام الدنيوية ﴿يَنفَدُ﴾ ويفنى وينقضي ﴿وَمَا﴾ أعدَ لكم من النِّعم ﴿عِندَ اللهِ﴾ وفي خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ ودائم لا نَفاد له، ومن الواضح أنّ النِعمة الباقية وإن كانت قليلة خيرٌ وأفضل من النعم الزائلة وإن كانت في غاية الكثْرة.

ثمَ لمّا كان الوفاء بالعهد والثبات على الايمان موقوفاً على الصبر على الفقر والشدائد، وَعَد الصابرين بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهد وبيعة الرسول ﷺ وما التزموه من شرائع الاسلام ﴿أَجْرَهُم﴾ وثوابهم الخاصّ بهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ﴾ من الواجبات والمندوبات.

وقيل: يعني بما عَمِلوا من الصبر على المذكورات، وإنّما أضاف إليه الأحسن للايذان بغاية حُسنه[٢].

ثمَ حثّ سبحانه المؤمنين على الأعمال الصالحة بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ خالصاً لوجه الله، أيَ عمل كان، وأيَ عاملٍ كان ﴿مِن﴾ صنف ﴿ذَكَرٍ﴾ أو صنف ﴿أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله ورسالة رسوله وصدق ما جاء به ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ ونعيشنّه ﴿حَيَاةً﴾ وعيشةً ﴿طَيِّبَةً﴾ مرضية حسنة، وإن كان معسراً مبتلئ بالأمراض والمصائب، فانّه يكون قانعاً راضياً بالقسمة، متوكّلاً على الله، راجياً أجره العظيم في الآخرة، فلا يحزَن على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه الله من الدنيا.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٧٦، وفيه: على الارتداد.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٧٨.

وقيل: إنّ الحياة الطيبة هو الرزق الحلال[١]. وقيل: هي عبادة الله والرزق الحلال[٢]. وقيل: هي حياة البَرْزَخ[٣]. وقيل: حياة الآخرة[٤].

ثمّ وعدهم الأجر العظيم فيها بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من العبادات الخالصة عن شَوب الرِياء والعُجب والهَوىٰ.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ[٩٨]

ثمّ لمّا كانت تلاوة القرآن من أحسن الأعمال، إذا كانت خالصة من الرِياء والعُجب الحاصلين بوَساوس الشيطان، بيّن الله طريق الخلاص منها بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ﴾ يا محمّد، أو يا إنسان ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ والتجأ إليه ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ﴾ والمطرود من الرحمة.

روت العامة عن ابن مسعود، قال قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع[٥] العليم من الشيطان الرجيم. فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرانيه جبرئيل عن القلم عن اللوح المحفوظ»[٦].

وعن الصادق عليه السلام [قيل له:] كيف أقول؟ قال: «تقول: أعوذ[٧] بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» وقال: «الرجيم أخبث الشياطين»[٨].

وعن [حَنان بن] سَدير قال: صلّيت خلف أبي عبدالله [المغرب] فتعوّذ بإجهار: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بالله أن يَحْضُرون» ثمّ جهر بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)[٩].

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ[٩٩و ١٠٠]

ثمّ نبّه سبحانه على فائدة الاستعاذة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ بالولاية والأمر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فانّهم لا يؤثّر فيهم أمره وتسويله، وفيه إشعار بعدم فائدة الاستعاذة القولية ما لم يكن معها استعاذة[١٠] قلبية ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه بالتسويل والدعوة المؤثرة

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٠: ١١٢.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١١٣.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١١٣، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٦.
٥. في تفسير البيضاوي وأبي السعود: أعوذ بالسميع.
٦. تفسير البيضاوي ١: ٥٥٧، تفسير أبي السعود ٥: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.
٧. في تفسير العياشي: استعيذ.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٦/٢٣، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.
٩. قرب الاسناد: ٤٣٦/١٢٤، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.
١٠. في النسخة: استفادة.

في القلب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ويحبّونه ويطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ﴾ تعالى، أو بسبب الشيطان ﴿مُشْرِكُونَ﴾ في الألوهية والعبادة.

عن الباقر عليه السلام: «يُسلَّط والله من المؤمن على بدنه ولا يُسلَّط على دينه، قد سُلِّط على أيوب فشوّه خلقه، ولم يُسلَّط على دينه». [قلت: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾] قال: «الذين هم بالله مشركون: يُسلَّط على أديانهم وعلى أبدانهم»[1].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «ليس له أن يُزيلهم عن الولاية، فأما الذنوب وأشباه ذلك، فانّه يَنال منهم كما يَنال من غيرهم»[2].

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[١٠١]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر القرآن، ذكَر طعن المشركين فيه بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ عن ابن عباس: أنّه كان إذا نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله فيها شدّة، أخذ الناس بها وعملوا ما شاء الله أن يعملوا، فيشقّ ذلك عليهم، فينسخ الله هذه الشدّة ويأتيهم بما هو ألين منها وأهون عليهم رحمةً من الله تعالى، فيقول لهم كفّار قريش: إنّ محمّداً يسخَر بكم، يأمُركم اليوم بأمرٍ وينهاكم عنه غداً، ويأتيكم بما هو أهون عليكم، وما هو إلّا مُفترٍ يقوله من تِلقاء نفسه، والمعنى: إذا أنزلنا آيةً من القرآن مكان آيةٍ منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها[3].

ثمّ أنّه تعالى قبل نقل كلامهم بادر في الجواب عنه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من الناسخ والمنسوخ، والتغليظ والتخفيف، وما هو مصالح العباد، فما بال هؤلاء المشركين حيث ﴿قَالُوٓا﴾ إذا رأوا التبديل ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمّد ﴿مُفْتَرٍ﴾ على الله بدعوى نزوله منه، وكاذب في هذه النسبة، فانّ بعضهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحقانيته وفائدة نسخ الأحكام وتبديلها، وإنّه لمصالح العباد التي تتغيّر بتغيّر الزمان، وأمّا القليل الذي يعلمه فانّما يجحَده لعِناده ولَجاجه.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٥/٢٣، والكافي ٨: ٤٣٣/٢٨٨، وتفسير الصافي ٣: ١٥٥، عن الصادق عليه السلام.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٨/٢٤، تفسير الصافي ٣: ١٥٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٨١.

اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١٠٢ ـ ١٠٤]

ثمّ بالغ سبحانه في ردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ليس القرآن ممّا تقوّلته، بل ﴿نَزَّلَهُ﴾ تدريجاً جَبْرئيل الذي لقبه ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ وأمين الوحي ﴿مِن﴾ قبل ﴿رَبِّكَ﴾ مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق من إعجاز البيان واشتماله على العلوم الوفيرة والأخبار الغيبية، أو متلبّساً بالحكمة البالغة ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الايمان بأنّه كلام الله المنزل على رسوله، فانّهم إذا سمعوا الناسخ وتفكّروا فيما فيه من المصالح والحكم، رَسَخت عقائدهم وطمأنّت قلوبهم ﴿وَ﴾ ليكون ﴿هُدىً﴾ ورشاداً إلى كلّ حقٍّ وخيرٍ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالثواب ﴿لِلمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأحكامه.

ثمّ حكى الله تعالى طعنهم الآخر في القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ أنّ محمّداً كاذبٌ في دعوى نزول القرآن من الله، بل ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ القصَص والتواريخ التي فيه ﴿بَشَرٌ﴾ قيل: اُريد به سلمان الفارسي[١]. وقيل: عبدٌ لبني عامر بن لؤي[٢]، وكان يقرأ الكتب[٣] وقيل: عدّاس غلام عُتبة بن ربيعة[٤]. وقيل: عبد لبني الحضرمي [صاحب] كتب واسمه جبر، وكانت قريش تقول: إنّ عبد بني الحضرمي يعلّم خديجة، وخديجة تعلّم محمّداً[٥]. وقيل: كان بمكّة نصراني أعجمي اللسان اسمه بَلعام. وكنيته أبو مَيْسَرة، وكان يتكلّم بالرُّومية[٦].

ثمّ ردّهم الله تعالى بقوله: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ وينسبون القرآن ﴿إِلَيْهِ﴾ أو يميلون قولهم عن الاستقامة بادّعاء أنّ القرآن بتعليمه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ غير فصيحٍ وغير مبينٍ، أو غير عارفٍ بلغة العرب ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ بالغ في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز، ثمّ أتبع ردّهم بتهديدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ ودلائل توحيده وكمال صفاته، ورسالة رسوله ومعجزاته التي منها فصاحة القرآن وعلومه المنطوية فيه، مع عدم اطّلاع الذي حسبوه مُعلّماً له على أقل قليل منها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللهُ﴾ إلى الحقّ وطريق الجنّة، بل يسوقهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ * مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلٰكِن مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠٥ و ١٠٦]

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧، تفسير البيضاوي ١: ٥٥٧، تفسير أبي السعود ٥: ١٤١.
٢. زاد في تفسير الرازي: يقال له: يعيش. ٣ و٤. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٠: ١١٧.

ثمّ نفى سبحانه الكَذِب عن نبيّه ﷺ وأثبته للمشركين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ ويقول ما هو خلاف الواقع عن علم وعَمْد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ ولا يُصدّقونها عِناداً ولَجاجاً، ويدّعون أنّ الآيات افتراءٌ وكذبٌ، فانّهم اللائقون بالكذب ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المتّصفون بأخبث الصفات ﴿هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾ في الحقيقة المبالغون في الكذب لعدم خوفهم من عقاب الله، لا النبيّ الصادق المصدّق الذي هو أخوف الخائفين ورأس المؤمنين.

ثمّ لمّا حكى الله سبحانه شُبهات المشركين في صدق القرآن ونبوّة النبيّ ﷺ طمعاً في ارتداد المسلمين، هدّد المرتدّين بقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ بسبب شُبهات المشركين ﴿مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ ووضوح الحقّ عنده، كان من كان ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على إظهار الكفر باللسان ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ ومُوقِن ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ ومستقرّ على التوحيد ونبوّة النبيّ وصدق القرآن.

قيل: إنّ قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى إنّما يفتري الكذب من كفر بالله، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾ اعتراضٌ بين المُبدَل وبَدَله[1] وقيل: بدل من ﴿الكَاذِبُونَ﴾ والمعنى أولئك هم من كفر بالله[2]. وقيل: إنّه منصوب على الذمّ، والمعنى أولئك هم الكاذبون، أعني من كفر بالله[3].

ثمّ أنه تعالى بعد استثناء المكرهين بيّن الكافر المذموم بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ وطاب به نفساً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

عن ابن عبّاس: نزلت الآية في عمّار، وذلك أنّ كفّار قريش أخذوه وأبويه ياسر وسُميّة وصُهيباً وبلالاً وخَبّاباً وسالماً فعذّبوهم ليرتدّوا، فأبى أبوا عمّار، فربطوا سميّة بين بعيرين وضُربت بحربةٍ في قلبها، وقالوا: إنّما أسلمت من أجل الرجال والتعشّق بهم فقتلوها، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الاسلام، وأمّا عمّار فكان ضعيف البدن فلم يُطِق لعذابهم، فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، وهو سبّ النبيّ ﷺ وذِكر الأصنام بخير، فقالوا: يا رسول الله، إنّ عمّاراً كفر. فقال: «كلا، إنّ عمّاراً مُلئ إيماناً من قَرنه إلى قدميه، واختلط الايمان بلحمه ودمه» فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: «مالك، إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت»[4].

القمي: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو عمّار بن ياسر، أخذته قريش بمكة فعذّبوه بالنار حتّى أعطاهم بلسانه ما أرادوا وقلبه مطمئن ومقرّ بالايمان ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٨٤، تفسير الرازي ٢٠: ١٢١، تفسير أبي السعود ٥: ١٤٣.

فهو عبدالله [بن سعد] بن أبي سَرْح بن الحارث بن لُؤي[١]، وكان عاملاً لعثمان بن عفّان على مصر[٢].

وعن (الكافي): قيل للصادق عليه السلام: إنّ الناس يروون أن علياً عليه السلام قال على مِنبَر الكوفة: «أيّها الناس، إنّكم ستُدْعَون إلى سبيّ فسُبّوني، ثمّ تُدْعَون إلى البراءة منّي فلا تبرءوا منّي».

فقال عليه السلام: «ما أكثر مايكذِب الناس على عليّ عليه السلام!» ثمّ قال: «إنّما قال: إنّكم ستُدْعون إلى سبّي فسبّوني، ثمّ تُدْعَون إلى البراءة منّي وأنا لعلىٰ دين محمّد، ولم يقل: فلا تبرءوا منّي».

فقال له السائل: [أرأيت] إن اختار القتل دون البراءة؟ فقال: «والله ما ذاك عليه وما له إلّا ما مضى عليه عمّار بن ياسر حيث اُكرِه وقلبه مطمئن بالإيمان، فأنزل الله فيه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، فقال له النبي صلّى الله عليه وآله عندها: يا عمّار، إن عادوا فعُد فقد أنزل الله عندك، وأمرك أن تعود إن عادوا»[٣].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئِل: مَدّ الرقاب أحبّ إليك أم البراءة من عليّ؟ فقال: «الرُّخصة أحب إليّ، أما سمعت قول الله في عمّار: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾»[٤].

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ[١٠٧ـ١٠٩]

ثمّ ذكر الله علّة الارتداد مع وضوح الحقّ بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الارتداد ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وشهواتها وآثروها ﴿عَلَى﴾ نِعم ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ والجنة الباقية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفّق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ للتديّن بدين الحقّ، لخُبث ذاتهم، ورسوخ حبّ الدنيا في قلوبهم.

ثمّ بيّن أنّه تعالى لا يكتفي في حقّهم بالكفّ عن توفيقهم للثبات على الايمان، بل يخذّلهم ويُميت قلوبهم [الموت] الملازم لعدم العقل والصّمم والعَمى بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المحبّون للدنيا ومؤثورها على الآخرة هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يعقِلون شيئاً من الحقّ، ولايسمعون النُّصح والوَعد والوعيد، ولا يُبصِرون الآيات والمعجزات.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يدعو أصحابه، فمن أراد الله به خيراً سَمِع وعَرَف ما يدعوه إليه، ومن أراد به شرّاً طبع على قلبه فلا يسمع ولا يعقِل، وهو قوله تعالى: ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ

---

١. تفسير القمي ١: ٣٩٠، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.
٢. تفسير القمي ١: ٣٩١، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.
٣. الكافي ٢: ١٠/١٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٥٧.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٣٣/٢٥، تفسير الصافي ٣: ١٥٨.

طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾[1] عن وَخامة عاقبتهم، وعمّا يُراد بهم من العذاب الدائم ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقّاً ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ حيث ضيّعوا فِطرتهم وأعمارهم وصرفوها في تحصيل العذاب الدائم مع تمكّنهم من صرفها في تحصيل النِّعم الدائمة والراحة الأبدية، فلا أخسر منهم، بل لعِظَم خُسرانهم كأنّه لا خاسر غيرهم.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[١١٠ و ١١١]

ثمّ بيّن سبحانه غاية لُطفه بالذين عذّبهم الكفار وأكرهوهم على الكفر بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم حِفظاً لدينهم ونُصرةً لنبيهم ﴿مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ وعذّبوا بجَور المشركين وأُكرهوا على كلمة الكفر ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على فتنة الكفّار ومتاعب الهجرة ومشاقّ المجاهدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ بلُطفه وكَرَمة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من كلمة الكفر وسائر الزلّات ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ومُنعِم عليهم بالجنّة وسائر الخيرات.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ غُفرانه لهم ورحمته عليهم يكونان في وقت غاية الحاجة إليهما بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ وقيل: إنّ التقدير اذكر يا محمّد[2] أو ذكّرهم يوم ﴿تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة أو كافرة بَرّة أو فاجرة ﴿تُجَادِلُ﴾ وتُخاصِم دفاعاً ﴿عَن نَفْسِهَا﴾ وشخصها.

عن ابن عبّاس: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتّى يخاصم الروح الجسد، يقول الروح: يا ربّ، لم يكن لي يدٌ أبطِش بها ولا رجلٌ أمشي بها، ولا عينٌ أبصر بها. ويقول الجسد: خلقتني كالخشب، ليست لي يدٌ أبطِش [بها]، ولا رجلٌ أمشي بها، ولا عينٌ أبصِر بها، فجاء هذا كشُعاع النور فيه نطق لساني، وأبصرت عيني، ومشت رجلي. قال: فيضرِب لهما مَثَلاً؛ مَثَل الأعمى والمُقْعَد دخلا حائطاً وفيه ثِمار، فالأعمى لا يُبصر الثِّمار، والمُقْعَد لا ينالها، فحمل الأعمى المُقعَد فأصابا من الثَّمر، فعليهما العذاب[3].

وقيل: إنّ المعنى أنّ كلّ نفسٍ تُجادل نفسه، فيقول المطيع: لِمَ لَمْ أُكثر من طاعة ربّي؟ ويقول العاصي لنفسه: لم عصيتِ ربّي.

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٣٦/٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٥٨.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٨٧.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٨٨.

﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ وتُعطى كاملاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من الطاعة والمعصية والخير والشرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتنقيص الثواب أو زيادة العقاب.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[١١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد الكفّار بالعذاب الأُخروي، هدّدهم بالعذاب الدنيوي بقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً﴾ بديعاً لتبيين حال الكفّار والمرتدين عن دين الحقّ، وذكر لهم شبيهاً، وهو أنّ ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى، قيل: هي مكة[١]، وقيل: هي أيلة، كانت بين ينبُع ومصر[٢] ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من تعديات القياصرة وظُلم الجبابرة وسائر المخوفات، وكانت ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ ساكنة أهلها، لا ينتقلون منها إلى غيرها لحُسنها، وعُذوبة مائها، ولطافة هوائها، ووفور نِعمها، فانّه كان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ وما يحتاج إليه أهلها ﴿رَغَداً﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كان في نواحيها من البرّ والبحر ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ بأن صرفها أهلها في عصيان ربّهم الذي تفضّل عليهم بتلك النِّعم التي منها صِحّة أمزجتهم، وسَعَة أرزاقهم، وأمنهم من المخوفات ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ وألبس أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ بسبب القَحط وتهاجم الأعداء عليهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من كفران النعم.

روى بعض العامة: أنّ أهل أيلة كانوا يستنجون بالخُبز[٣].

والقمي رحمه الله، قال: نزلت في قوم كان لهم نهرٌ يقال له البليان[٤]، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، وكانوا يستنجون بالعجين، ويقولون: هو ألين لنا، فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله، فحبس الله عليهم البليان، فجدبوا حتّى أحوجهم الله إلى [أكل] ما كانوا يستنجون به، حتّى كانوا يتقاسمون عليه[٥].

والعياشي عن الصادق عليه السلام: «كان أبي يكره أن يمسح يده بالمِنديل وفيه شيءٌ من الطعام تعظيماً له، إلّا أن يَمُصّها، أو يكون إلى جانبه صبيّ فيَمُصّها له. قال: وإنّي أجد اليسير يقع من الخُوان فأتفقّده، فيضحك الخادم».

ثمّ قال: «إنّ أهل قرية ممّن كان قبلكم، كان الله قد وسّع عليهم حتى طَغَوا، فقال بعضهم لبعض: لو عَمَدنا إلى شيءٍ من هذا النَّقي[٦] فجعلناه نستنجي به، كان ألين علينا من الحجارة» قال: «فلمّا فعلوا ذلك بعث الله إلى أرضهم دواباً أصغر من الجَراد، فلم يَدَع لهم شيئاً خلقه الله [يقدِر عليه] إلّا أكله من

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٧.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٨٨.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.
٤. في تفسير القمي: الثلثان (الثرثار خ ل).
٥. تفسير القمي ١: ٣٩١، تفسير الصافي ٣: ١٥٩.
٦. النقيّ: الدقيق الجيد الأبيض.

شجرٍ وغيره، فبلغ بهم الجَهد إلى أن أقبلوا إلى الذي كانوا يستنجون به [فأكلوه]، وهي القرية التي قال الله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾»[١].

قيل: وجه استعارة اللباس للجُوع والخوف إحاطتهما به من جميع الجهات[٢].

وقيل: تأثيرهما في الهُزال وشُحوب اللون المشتملين على البَدن كاللباس[٣]، وقيل: إنّ اللباس هنا بمعنى الامساس[٤].

وقيل: إنّ الإذاقة بمعنى التَعرّف[٥]. وقيل: استُعير لفظ الإذاقة للاصابة لما فيها من اجتماع إدراكي اللّامسة والذائقة[٦].

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ[١١٣]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان سلب النِعم عنهم بكفرانهم، بيّن ابتلاءهم بعذاب الاستئصال بتكذيبهم الرسول بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ من جانب الله ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعرِفونه بأصله ونسبه وأخلاقه، لهدايتهم إلى الحقّ، وإرشادهم إلى وجوب شُكر النعم وحُرمة الكفران، وإخبارهم بسوء عاقبته ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما أخبرهم به من رسالته من الله، ووجوب طاعته وطاعة أحكام الله التي منها وجوب شُكر النِعم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصِل وأهلكهم به ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ على أنفسهم بكفران النعم والكفر بالله وبرسوله.

عن ابن عبّاس، قال: هذا المَثل لأهل مكة، فانّهم كانوا في حَرم آمن ويُتَخطّف النّاسُ من حولهم، وما يمُرّ ببالهم طيفٌ من الخوف، وكانت تُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، ولقد جاءهم رسولٌ منهم، فكفروا بأنعم الله، وكذّبوا رسول الله ﷺ، فأصابهم بدعائه ـ بقوله: «اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف» ـ ما أصابهم من القَحط والجَدب حتى أكلوا الجِيفَ والكلاب الميتة والجُلود والعظام المُحرَقة والعِلْهِز ـ وهو الوَبَر والدم ـ يعني كانوا يخلِطون الدم بأوبار الإبل ويشوونه على النار، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدُّخان من الجُوع، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت من سرايا النبيّ ﷺ بعد الهجرة، حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم، فوقعوا في خوفٍ عظيمٍ من أهل الاسلام حتى تركوا سَفَر الشام والتردّد إليه، ثمّ أخذهم يوم بدر ما أخذهم [من العذاب][٧].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٣٨/٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٥٩.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٩.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٢٩.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ١٤٥.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٨٩.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[١١٤]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه سوء عاقبة الكفران، أمر عموم النّاس بشكر نعمه بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أيّها الناس ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وأنعم عليكم من النِّعم حال كونها ﴿حَلَالاً﴾ لكم من قبل الله ﴿طَيِّباً﴾ ولذيذاً عندكم.

قيل: إنّ رسول الله ﷺ قطع المِيرة عن أهل مكّة، فكلّم رسلهم رسول الله ﷺ حين جُهِدوا[١]، وقالوا: عاديت الرجال فما بال النسوة والصبيان؟ فأذِن ﷺ في حمل الطعام إليهم، فلمّا حُمِل خاطبهم الله بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾[٢] يا أهل مكّة ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾.

وقيل: كأنه قال تعالى: لمّا تبين لكم يا أهل مكه حال من كفر بأنعم الله وكذّب رسوله وما حلّ بهم[٣] ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾ ولا تُحرّموا بأهوائكم ما أحلّ الله لكم ﴿وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وأحكامه تُطيعون، ورضاه تطلبون.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١١٥]

ثمّ أعلمهم بما حرّم عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمُ﴾ في دين الاسلام ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ وما زَهَق روحه بغير التذكية من كلّ حيوان برّي ﴿وَٱلدَّمَ﴾ مسفوحاً كان أو غيره إلّا المتخلّف في المُذكّى ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وسائر ما يُؤكل منه ﴿وَمَا أُهِلَّ﴾ ورفع الصوت ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾ بأن يقال عند ذبحة باللات أو العُزى، أو بغيرهما من أسماء الأصنام، هذه هي المحرّمات عند الله دون ما تزعُمون من البَحيرة وأخواتها، وتلك المُحرّمات أيضاً لا تحرّم مطلقاً، بل يجوز أكلها عند الضّرورة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ وأُلجئ إلى أكل أحدٍ من الأمور المحرّمة إذا كان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ وغير متعدٍّ على مضطرّ آخر، أو غير طالبٍ للّذة، أو غير باغٍ على إمام زمانه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومتجاوز في أكله عن قدر الضّرورة وسدّ الرّمق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يُؤاخذه بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يرضى بمشقّتهم والتضييق عليهم، بل يرخّص لهم في رفع اضطرارهم بأكل ما حرّم عليهم.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى

---

١. جُهِد الناس: أجدبوا. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٠. ٣. تفسير روح البيان ٥: ٩٠.

ٱللهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١١٦و١١٧]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حصر محرّماته في شَرْع الاسلام في الأشياء الأربعة، نهى المشركين عن بِدعتهم وتحريم ما أحلّه الله عليهم بهوى أنفسهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيّها المشركون ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ من الأنعام المحلّلة عند الله بالحلّ تارة وبالحُرمة أُخرى بهوى أنفسكم، بلا إسناد إلى الوحي من الله ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ على الله، وذلك الكَذِب هو قولكم: ﴿هَـٰذَا﴾ الحيوان الذي زهق روحه بغير التذكية، أو هذا الخنزير، أو هذا الدم المشوي ﴿حَلَالٌ﴾ لنا من قبل الله وفي حُكمه ﴿وَهَـٰذَا﴾ الحيوان الحامي أو البحيرة أو السائبة ﴿حَرَامٌ﴾ علينا، وهذا الذي في بطون الأنعام حرامٌ على أزواجنا، فانّ جميع ذلك مجرّد الوصف والقول بالأنواه بلا حجة ودليل من الله.

وقيل: إنّ المعنى: لا يقولوا لأجل وصف ألستكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام[١]. وقيل: جملة ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ من أفصح الكلام وأبلغه[٢]. وقيل: إنّ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ هو المَقُول[٣].

ثمّ بيّن سبحانه ذلك الكَذِب بقوله: ﴿هَـٰذَا حَلَالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ﴾ ثمّ لمّا لم يصرّح سبحانه يكون كذبهم على الله صرّح به بقوله: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ولام (لتفتروا) لام العاقبة وقيل: إنّ هذه الجملة بدل من قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ لأنّ وصفهم الكذب هو عين الافتراء على الله[٤].

ثمّ هدّد سبحانه المفترين عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ولا ينجون من العذاب، أو لا يفوزون بخيرٍ ومطلوبٍ، ثمّ لمّا كان مجال توهّم أنّ لهم الفوز بنعم الدنيا، دفعه الله سبحانه بقوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ تلك النِّعم، ومنفعة سريعة الزوال، بحيث لا يصِحّ أن يقال لوجدانها فوز وفلاح، ولذا لا يعتني بها عاقل.

عن ابن عباس: بل متاع كلّ الدنيا [متاع] قليل[٥]. ثمّ يُرَدّون بالموت والخروج من الدنيا إلى نار جهنم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[١١٨]

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢، تفسير أبي السعود ٥: ١٤٧، تفسير روح البيان ٥: ٩٢. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٩٢، جوامع الجامع: ٢٥٠. ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٢.

ثمّ لمّا حصر سبحانه المحرّمات في الأربع ونهى عن تحريم غيرها، كان مجال توهّم أنّ المحرّمات التي في دين اليهود زائدة على الأربع مع كونها من الله، فدفعه بقوله: ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ**﴾ في سورة الأنعام التي أنزلناها عليك ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ حيث قلنا فيها: ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ**﴾[1] إلى آخره، وإنما كان ذلك عقوبة لهم ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**﴾ بتحريمها عليهم ﴿**وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ بنقضهم الميثاق وبغيهم وارتكابهم الذنوب الموبقة.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[١١٩]

ثمّ لمّا ذكر الله تعالى المعاصي العظام من الافتراء على الله، والبدعة في الدين وأمثالهما تصريحاً وتلويحاً، نبّه على علاجها والسبب المنجي من العذاب عليها بقوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ**﴾ وارتكبوا المعصية ﴿**بِجَهَالَةٍ**﴾ وسفاهة وعدم التدبّر في سوء العاقبة كأنّه تعالى قال: إنا قد بالغنا في تهديد الكفار والمفترين ومكذّبي الرسول.

ثمّ بعد ذلك نقول: إنّ الناس إذا ارتكبوا جميع المعاصي بسبب الغفلة والجهل أمداً بعيداً ودهراً دهيراً ﴿**ثُمَّ تَابُوا**﴾ عن معاصيهم ونَدِموا على ما صدر منم ﴿**مِن بَعْدِ ذٰلِكَ**﴾ الذي عَمِلوا ﴿**وَأَصْلَحُوا**﴾ عقائدهم وأعمالهم بأن صاروا مؤمنين بما يجب الايمان به مطيعين لله ولرسوله، فاذا صدرت منهم التوبة ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا**﴾ والله ﴿**لَغَفُورٌ**﴾ للمعاصي كلّها ﴿**رَحِيمٌ**﴾ بالعصاة التائبين مثيب لهم على توبتهم وإنابتهم.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّٰهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١٢٠ و ١٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال مذهب الشرك وشُبهات المشركين في النبوة وبدعهم في الأحكام وكُفرانهم نِعم الله، ذكر توحيد إبراهيم الذي كانوا مفتخرين بالانتساب إليه[2]، متّفقين على حسن عقيدته وسيرته، وذِكر انقياده وطاعته لله وشكره لنعمه بقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ**﴾ وحده ﴿**أُمَّةً**﴾ من الأمم واحداً كالألوف، لكمال توحيده وإيمانه وصفاته، ومعارضته مع جميع الناس بالحجج.

---

١. الأنعام: ١٤٦/٦. ٢. في النسخة: بالانتساب به.

عن الباقر عليه السلام: «وذلك أنّه كان على دينٍ لم يكن عليه غيره، فكأنّه أمّة واحدة»[١].

وقيل: إنّه أمّه لكونه سبباً لوجود الأمّة المُوحِّدة[٢].

وقيل: إنّ الأمّة بمعنى المُقْتَدى، وأُطلق عليه لأنّه كان إماماً يؤتمّ به[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «شيء فضله الله به»[٤].

وكان ﴿قَانِتاً للهِ﴾ قائماً بما أمره. عن الباقر عليه السلام وابن عبّاس: «يعني مطيعاً لله»[٥] وكان عليه السلام ﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى ملّة الاسلام ثابتاً عليه.

عن الباقر عليه السلام: «أمّا الحنيف فالمسلم»[٦].

وعن ابن عباس: أنّه أول من اختتن، وأقام مناسك الحج وضحّى، وهذه صفة الحنيفية[٧].

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان رأس الموحّدين صغيراً وكبيراً ﴿شَاكِراً﴾ لله و﴿لأَنْعُمِهِ﴾ معترفاً بها.

روي أنه عليه السلام كان لا يتغدّى إلّا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غَداءه، فجاء فوجٌ من الملائكة في زِيِّ البشر، فقدّم له الطعام، فخيّلوا إليه أنّ بهم جُذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم، شكراً لله على أن عافاني وابتلاكم[٨].

﴿ٱجْتَبَاهُ﴾ الله واختاره للرسالة والخُلّة والإمامة ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والطريق الواضح المُوصِل إلى كلّ خيرٍ وسعادةٍ، وفي التوصيفات المذكورة تكذيب لقريش فيما كانوا يَزْعُمون من أنّهم على ملّة إبراهيم.

وَآتَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[١٢٢ و ١٢٣]

ثمّ بيّن سبحانه تشريفاته عنده بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مثوبةً ﴿حَسَنَةً﴾ من الذكر الجميل، والثناء بين الناس، والعمر الطويل، وكثْرة النَّسل، وكون الأنبياء من ذُرّيته، وكون خاتم الأنبياء وأوصيائه الطيبين من نسله ﴿وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ وذوي الدرجات العالية في أعلى

---

١. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦١. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٤.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٤٠/٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٦١.
٥. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٦١.
٦. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦١. ٧. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥.
٨. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٩٤.

عِلّيين.

ثمّ بيّن الله تعالى أجَلّ ما أُوتي عليه السلام بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ودينه ـ فانّه كان ﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن كلّ دينٍ باطل ـ وهو دين الاسلام والصراط المستقيم الذي هداه إليه.

ثمّ أكّد تنزيهه عن الشرك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مبالغة في إبطال مذهب الشرك، وإنّما أمره عليه السلام بالاتّباع لأنّه عليه السلام كان بعده، وإلّا فهو عليه السلام في عالم الأنوار والأشباح كان متبوعاً لما سوى الله من الملائكة والأنبياء أجمعين.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[١٢٤]

ثمّ لمَا أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله باتباع إبراهيم، كان مجال توهّم أنه خالفه في دينه بجعل الجمعة عيداً لأمّته، فدفعه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ عيداً وفرض تعظيمه ﴿عَلَى﴾ بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ لا على إبراهيم وأتباعه.

قيل: إنّ موسى أمر اليهود أن يجعلوا يوماً واحداً في الأسبوع للعبادة، وأن يكون ذلك يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نُريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض، وهو السبت، إلّا شِرْذِمة منهم قد رضوا بيوم الجمعة، فأذِن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الذين رضوا بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأمّا غيرهم فلم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله قِردةً دون أُولئك المطيعين[١].

وعن ابن عباس: أمرهم موسى بالجمعة، وقال: تفرّغوا لله في كلّ سبعة أيام يوماً واحداً، وهو يوم الجمعة، لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نُريد إلّا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل الله السبت لهم، وشدّد عليهم فيه، ثمّ جاء عيسى أيضاً بالجمعة، فقالت: النصارى: لا نُريد إلّا أن يكون عيدنا بعد عيدهم[٢]، فاتخذوا الأحد[٣].

وعن أبي هُريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «إنّ الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا، فاختلفوا فيه وهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ»[٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٥٠، تفسير روح البيان ٥: ٩٦.

٢. في تفسير الرازي: عيدهم بعد عيدنا.

٣ و٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧.

القمي، قال: إنّ موسى أمر قومه أن يتفرّغوا إلى الله في كلّ سبعة أيام يوماً يجعله الله عليهم، وهم الذين اختلفوا فيه[١].

وقيل: معنى اختلافهم أنّهم اختلفوا على نبيّهم في ذلك اليوم، لا أنهم اختلفوا فيمابينهم[٢].

قيل: إنّ الجمعة أفضل الأيام، لأنّ السبت كان يوم الفراغ، والأحد يوم الشروع، والجمعة يوم الكمال والتمام، وهو أولى بالفرح الكامل والسرور العظيم[٣].

وقيل: إنّ المراد من اختلاف بني إسرائيل في السبت أنّهم أحلّوا الصيد فيه تارةً وحرّموه أُخرى، وكان عليهم أن يتّفقوا في تحريمه على كلمةٍ واحدةٍ[٤].

ثمّ وعد الله المحقّين، وأوعد المبطلين بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ والله ﴿لَيَحْكُمُ﴾ في شأن المختلفين، ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالحقّ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ والحكومة والقضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأن يُثيب المحقّين ويُعاقب المبطلين.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[١٢٥]

ثمّ لمّا أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ باتّباع إبراهيم في الملّة والدين، أمره باتّباعه في الدعوة إلى الله وتوحيده وفي كيفيتها بقوله: ﴿ٱدْعُ﴾ يا محمّد ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ودينه المرضيّ عند خواصّ اُمّتك ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ والحُجّة القاطعة، وعوامّهم بالدلائل الاقناعية ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والنصائح الوافية والبيانات المؤثّرة الكافية والحكايات النافعة، وأمّا المعاندون منهم الذين لا تؤثّر فيهم الدعوة، وكان غرضهم المجادلة فناجزهم ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من طرق المناظرة والمجادلة، وهو على ما قيل: اللين في الكلام، واختيار ما هو أقرب إلى الإفحام، وأيسر في الإلزام، كما فعله الخليل عليه السلام[٥].

عن الصادق عليه السلام، أنّه ذُكِر عنده الجِدال في الدين، وأنّ رسول الله ﷺ والأئمة [قد] نَهوا عنه، فقال الصادق عليه السلام: «لم يَنْهَ عنه مطلقاً، ولكنّه نهى عن الجِدال بغير التي هي أحسن، [أما تسمعون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالجدال بالتي هي أحسن] قد أُمر به العلماء بالدين، والجدال بغير التي هي أحسن محرّم حرّمه الله على شيعتنا، وكيف يحرّم الله الجِدال

---

١. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٢.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٧ و١٣٨.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٣٨.
٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٥١، تفسير روح البيان ٥: ٩٧.
٦. العنكبوت: ٤٦/٢٩.

جملةً وهو يقول: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١] فجعل علم الصدق والايمان بالبرهان، وهل يُؤتى بالبرهان إلّا في الجدال بالتي هي أحسن».

قيل: يا بن رسول الله، فما الجِدال بالتي هي أحسن، والتي ليست بأحسن؟ قال: «أما الجِدال بغير التي هي أحسن فأن تُجادل مُبطِلاً، فيورد عليك باطلاً، فلا ترُدّه بحُجّة قد نصبها الله، ولكن تجحَد [قوله أو تجحَد] حقاً يرُيد ذلك المبطل أن يُعين به باطله، فتجحَد ذلك الحقّ مخافة أن يكون له عليك فيه حُجّة؛ لأنك لا تدري كيف المَخْلَص منه، فذلك حرامٌ على شيعتنا أنْ يصيروا فتنةً على ضُعفاء إخوانهم وعلى المبطلين، أما المبطلون فيجعلون ضَعْف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضَعْف [ما] في يده حُجَةً له على باطله، وأمّا الضعفاء فتغتمّ قلوبهم لما يرون من ضَعْف المُحِقّ في يد المبطل.

وأمّا الجدال بالتي هي أحسن، فهو ما أمر الله به نبيّه ﷺ أن يُجادل به من جحد البعث بعد الموت، وإحياء الله تعالى له، فقال الله له حاكياً عنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وقال الله في الرّد عليه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً﴾[٢] إلى آخر السورة، فأراد الله من نبيّه ﷺ أن يجادل المبطل الذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميم؟ فقال الله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أفيعجِز من ابتدأه لا من شيء أن يُعيده بعد أن يبلى، بل ابتداؤه أصعب عندكم من إعادته.

ثمّ قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي إذا أكمن[٣] النار الحارة في الشجر الأخضر الرطب [ثمّ] يستخرجها، فعرفكم أنّه على إعادة ما بلي أقدر، ثمّ قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤] أي إذا كان خَلْق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أذهانكم[٥] وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي، فكيف جوّزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم والأصعب لديكم، ولم تجوّزوا ما هو الاسهل عندكم من إعادة البالي؟».

قال الصادق ﷺ: «فهذا الجِدال بالتي هي أحسن؛ لأنّ فيها قطع عُذر الكافرين، وإزالة شبهتهم»[٦].

ثمّ لمّا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالدعوة، وعد المجيبين له والمهتدين بهداه بالثواب، وأوعد

---

١. البقرة: ١١١/٢.　　٢. يس: ٧٨/٣٦ ـ ٨٠.　　٣. في النسخة: كمن، وما أثبتناه من الاحتجاج.
٤. يس: ٨١/٣٦.　　٥. في الاحتجاج وتفسير الامام العسكري: في أوهامكم.
٦. الاحتجاج: ٢١، تفسير الامام العسكري ﷺ: ٣٢٢/٥٢٧، وفيهما: وإزالة شبههم، تفسير الصافي ٣: ١٦٣.

الضالين الذين لم يُجيبوه ولم يهتدوا به بالعقاب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ ودينه بعد دعوته إليه بالحكمة والموعظة والعِبر، فيعاقبه أشدَ العقاب ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلى الحقّ الذي هو دين الاسلام، فيجازيهم بالثواب العظيم.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ[١٢٦ و ١٢٧]

ثمَ لمَا كانت الدعوة ملازمة لايذاء النبيّ ﷺ والمؤمنين المستعقبة لإقدام المؤمنين على مكافاة الأعداء، أمرهم سبحانه بالعدل والانصاف في مكافاتهم بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيَهاالمؤمنون وكافيتم الأعداء على إيذائهم بكم وظلمهم عليكم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ هُم وكافوهم على ظلمهم ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ وبما يساوي[١] ما تَعَدَوا عليكم، ولا تزيدوا على ما تَعَدَوا عليكم، ولا تزيدوا على ما فعلوا بكم غيظاً وتشفياً، وإطلاق العقاب على الأذى البدوي من باب مجاز المشاكلة والازدواج.

ثمَ لمَا كان الصبر على الأذى أولى وأفضل عند الله من الانتقام، حثّهم سبحانه عليه بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أيَها المؤمنون على ما نزل بكم من الأذى، وتركتم الانتقام والعقوبة بالله ﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ وأفضل عند الله، وأكثر ثواباً ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ على المصائب والشدائد.

ثمَ أنّه تعالى بعد التنبيه على فضيلة الصبر وحثّ المؤمنين عليه، أمر نبيه ﷺ الذي هو أفضل خلقه بالصبر الذي هو أفضل الأعمال وأحمزها[٢] بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد على ما أصابك من أذى الكفّار ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ وبتوفيقه وإعانته لك عليه.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظَ الأعلى منه للنبيّ ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، وقال ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾»[٣].

أقول: وفيه تسلية له عليه السلام.

ثمَ بالغ في تسليته في اغتمامه في مشاقّة الكفار وإصرارهم على معارضته بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتألَم قلبك من حرمانهم عن فيض الهداية والإيمان وفوائد متابعتك، وسعيهم في تخريب أمرك وإيذائك ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ وغمٍّ شديدٍ ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك ويدبّرون في إطفاء نورك وإبطال دعوتك والإضرار بنفسك.

---

١. في النسخة: يسوى. ٢. أي أشدّها. ٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠١.

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[١٢٨]

ثمّ قوّى سبحانه قلبه الشريف وآمنه من إضرارهم عليه بقوله: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾** بالولاية والتفضّل **﴿مَعَ﴾** المؤمنين و**﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾** وتحرّزوا عن المعاصي وما يخالف رضاه **﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾** في أعمالهم ومؤدّون ما عليهم من تكاليف ربّهم، أو المراد مع الذين اتّقوا مكافاة المُسيء إليهم، والذين هم محسنون إلى من عاداهم وأساء إليهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا رأى حمزة وقد مثّلوا به قال: «والله لأمثّلنّ بسبعين منهم مكانك» فنزل جَبْرَئيل بخواتيم سورة النحل، فكفّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأمسك عمّا أراد[١].

وفي رواية اُخرى قال: «أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثّلنّ بسعبين مكانك»[٢]. وقال المؤمنون: إن أظهرنا الله عليهم لنزيدنّ على صُنعهم ولنُمثّلنّ مُثلة لم يمثّلها أحدٌ من العرب بأحدٍ قطّ[٣].

وعن القمي، قال: إنّ المشركين مثّلوا بأصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين استشهدوا يوم اُحد، وفيهم حمزة، فقال المسلمون: أما والله لئن أدالنا الله عليهم لنُمثّلنّ بأخيارهم، وذلك قول الله تعالى: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾**[٤] يعني بالأموات[٥].

قيل: إنّ الكفار مثّلوا بجميع المقتولين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله في اُحد إلّا بحنظلة الملقّب بغسيل الملائكة بن أبي عامر الراهب لمكان كفر أبيه[٦].

وعن العياشي، عن الصادق عليه السلام قال: «لمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما صُنع بحمزة بن عبدالمطلب قال: اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما رأى، ثمّ قال: لئن ظَفَرت لأُمثّلنّ وأُمثّلنّ. قال: فأنزل الله **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾** الآية. فقال رسول الله: أصبِرُ أصبِرُ»[٧].

قيل: إنّ سورة النّحل كلّها مكيّة إلّا هذه الآيات الثلاث[٨].

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة النحل في كلّ شهرٍ دفع الله عنه المعرّة[٩] في الدنيا وسبعين نوعاً من أنواع البلاء أهونه الجُنون والجُذام والبَرص، وكان مسكنه في جنة عدَن وهي وسط الجنان»[١٠].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير سورة النحل، وله المنّة.

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٤١، تفسير البيضاوي ١: ٥٦١.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٥٦١، تفسير أبي السعود ٥: ١٥٢.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٠.
٤. النحل: ١٢٦/١٦.
٥. تفسير القمي ١: ٣٩٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٤.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٩٩.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٤٤٤/٢٩، تفسير الصافي ٣: ١٦٥.
٨. مجمع البيان ٥: ٥٣٥.
٩. في النسخة: شهر كفى العزم.
١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٣٦١/٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٥.

الفهرس